القسم الثاني

مدنيّات الوحدة الرومانية

المدنيّة الرومانيّة
في عهد الأمبراطورية الأولى
(القرنان الأول والثاني)

وصلنا في بحثنا اخيراً ، الى هذه الامبراطورية العظيمة التي ابتلعت في ثناياها كل ما تقدمها من امبراطوريات ، وعنها انبعثت الممالك التي نشاهدها اليوم ، ولا تزال لنفوسنا تكن لشرائعها الاحترام العميق . فيجب علينا بالتالي ان نقف على اخبارها أكثر من أي امبراطورية كانت. وقد لاحظت يا سيدي الامير ، ولا شك ، أنني أعني الامبراطورية الرومانية .

(بوسويه)

من كتابه : « خطبة في التاريخ العام »

على منحدر جبال الابنين مقابل البحر الادرياتيكي ، قام نهر الروبيكون حداً فاصلاً بين مقاطعة غاليا قبل الألب ، وبين القسم الايطالي الواقع تحت ولاية حكام روما ومجلس شيوخها مباشرةً. وعندما اجتاز قيصر هذا النهر وعبر منه الى الضفة الثانية، في منتصف شتاء ٥٠ ـ ٤٩ ق . م ، واتجه منه الى الجنوب ، على رأس فيالقه المظفرة التي كانت اداته الطيّعة في فتح غاليا ، في حملات ثمان متتالية ، كرّست زعامته وجعلت منه الزعيم الذي كان ، شكّل عمله هذا ، خروجاً على السلطة الشرعية، فانطلقت بذلك شرارة حرب اهلية استمرت قرابة عشرين سنة تخللتها فترات قصيرة من الهدنة المؤقتة ، وامتدت حتى غرة آب سنة ٣٠ وهو اليوم الذي أطل فيه ، صاحب معركة اكتيوم ، على الاسكندرية فكانت إطلالته تلك ، إيذاناً بانتحار كل من خصميه : انطونيوس وكليوباترا .

من هذه الهزات الدامية التي نزلت بالبلاد ، أطلت اشياء وطلعت عليها اشياء . فاذا على هامة روما سيد هو القائد الاوحد لجيوشها حامية ذمار البلاد واستقلالها ، يوجه منها السياسة ،

ويفرض القانون ، ويُشرف على الادارة ويجعلها بمعزل عن طمع الطامحين اليهـــا ، الطامعين فيها ، وفي مأمن من جشع الجشعين . وبفضله قامت دولة استطاعت ان تؤمن لرعاياها ، ما لا بد منه لدولة تروم عيشاً كريماً : حدود منيعة الجانب في الخارج ، وأمن مستتب في الداخل ، وصحة في ميزانية الدولة وماليتها العامة . صحيح ان ممالك اخرى عرفت ، هي ايضاً ، ان تحقق على اقدار متفاوتة ، مثل هذه الامور ، فرسمت لها الدول الهلينية سوابق عرفت هي ان تستفيد منها وتتعظ بهـا . ولكن ، الى جانب الجدة التي طبعت معظم الحلول التي طلع بها ، لم يسبق لتجربة مضت ، ان عرفت نجاحاً ملازماً كالنجاح الطويل الذي حالفه ، مما لم يتم مثله او بعضه ، لدولة تمت لها رقعة على هذا النحو من الاتساع ، وتألفت من مثل هـــذا العدد من الشعوب والاقوام المتباينة . وهذا الجديد الذي تبلور على مثل هـذا الشكل واستمر في الصدد المرسوم بضعة قرون ، تم تحت سيطرة اوكتاف اوغسطس وإشرافه المباشر ، فترامت أقاصيه وتباعدت نهاياته : من مضيق جبل طارق غرباً حتى شطآن البحر الأسود شرقاً ، ومن مصابّ نهر الرين شمالاً ، الى مشارف شلالات النيل جنوباً . ولأول مرة في التاريخ ، يصبح البحر الابيض المتوسط برمته ، بحيرة داخلية ضمن الامبراطورية ، فطوت حوضيه : الشرقي المتهلّين ، والحوض الغربي الذي ، بالرغم مما تحالف عليه تباعاً من عوامل إغريقية وبونيقية واخيراً رومانية ، بقي على سماته البربرية الاولى . وعلاوة على ذلك ، فهذه الامبراطورية التي تجاوزت اطرافها بعيداً الأراضي الواقعة حول هذا البحر ، عرفت كيف تحافظ على التوازن الذي أمّنته لها المركزية المعمول بها في روما . وبفضل هذه الوحدة التي حققت ، والتضامن الذي ارست دعائمه في عوالم كانت في الامس الغابر تجهل بعضها البعض ، استفاض افقها ورحب امام الجميع ، واتسعت منه الحدود بحيث استحالت الاتصالات التي قامت فيما بينها ، أمتن واوثق . فقد أطلّ على البشرية جمعاء ، المتخلف منها والمتطور ، عهد جديد ، لم تعرف المدنيات التي مرت على مسرح التاريخ ، مجتمعة ومنفردة ، ظروفاً وأوضاعاً ، اكثر حلماً واوفر مؤاتاة من التي غمرته في هذا العهد . فهل تستفيد مما تم لها ، فتتلاقح الاذهان وتتفتح الاكمام عن قطوف متنوعة الجني والثمار ، تجود بهـا عبقرية كل شعب من هذه الشعوب ، ام تنصهر كلها معاً في وحدة متماسكة ، شاملة ، قادرة ؟

من الحرب الأهلية الى السلام الروماني

بعد ان قلبت الحرب الاهلية التي استمرت عشرين عاماً الاوضاع الراهنة في رومـــا ظهراً لبطن، ورأساً على عقب ، هيأت للعالم الروماني بأسره مصيراً جديداً .

المدينـــة الجمهورية اعجز بكثير من ان تدير الامبراطورية

كان لا معدٍّ من ازمة ولا محيص عن حل لها ، وهي ازمة عرفت البلاد من قبل ، مثيلات لها فشلت جميعاً . فلا بد ان تفشل هي وتهيض مهيئة المجال لطلوع غيرها بعدها حتى يتمهد السبيل امام المصير الذي لابد منه ولا حيدة عنه . فالاشخاص الذين قاموا بالدور الاول على مسرح هـــذا المجتمع ، امثال قيصر وبمبيوس ، وانطونيوس واوكتافيوس ، والعديد من الممثلين النكرة ، طبعوا الاحداث التي لازمت هذه الازمة الفاصلة وصاحبتها ، بطابعهم الخاص . وقد تكون جاءت على شكل آخر واوضاع اخرى ، لو قام بتمثيلهـــا غيرهم من الممثلين . ولكن النتيجة الاخيرة لم تكن لتأتي الا وفقاً لما صارت اليه : اي قيـــام سلطة فردية شخصية . كان لا بد لهذا المخاض وما رافقه من آلام وأوجاع ان يشهد مولد امبراطورية تحتت قسمات صورتهـــا ، الظروف المتحكمة الماثلة ، وشخصية الفائز منها ، وتوازن القوى التي لم يكن من مفر من تفاعلها والتعويل عليها .

كان لا بد لهذه المدينة الجمهورية التي أُعطيت مثل هذه السيطرة الممتدة الى اراض نائية مترامية الاطراف ان تدفع الثمن غالياً .

فعندما ساوت في رعويتها بين الايطاليين ، عرفت كيف تصون بهذا التدبير الحكيم نُظمها الادارية ، وهي نظم تسرب اليها الخلل عندما اتسع تطبيقها المصطنع، ليشمل مثل هذه الرقعة من الاتساع ، عجزت معه ندوتها عن ضم جزء ضئيل من هذا الجسم الاداري الاخطبوطي الشكل . وقد بدا عجز النظام المعمول به وعدم استجابته للوضع الماثل شيئاً لا يحتمل ولا يطاق ، لا سيما اذا كانت روما ماضية في فرض سيطرتهـــا على الولايات الخاضعة لحكمها . ان توسيع الحل الذي

فرضته على ايطاليا بحيث يشمل الولايات الاخرى ، محاولة ملؤهـا الهزء والسخرية ان لم تكتمل باصلاح جذري ، لأداة الحكم وبخلق نظـام اداري جديد ، على اساس من التحالف او التمثيل العام . ومثل هذا الحل لم يخطر اذ ذاك على بال احد . والى هذا ، فالامر يتعلق في الدرجـة الاولى ، بالسيادة والسيطرة ، وهي سيطرة كريهة في جشعها ، يفرض الأخذ بها ، في الاساس ، إنزال الرعب في الناس ، وتطمين رعاياها المتحفزين دومـاً للانتفاض والثورة ، والاعتماد على القوة والبطش لارهاب الشعوب الواقعة وراء تخوم امبراطوريتها المترامية الاطراف الذين يتربصون الفرص السانحة للانقضاض عليها .

ولذا كان لزاماً على روما ان تـُبقي لديها ، جيوشاً جرارة يتعرّض معها وجودها وكيانها بالذات لخطر الحروب الاهليـة . فاذا ما نجحت جمهوريات العصر الحديث ، على ضوء التجربة والخبرة المؤلمة التي خبرتها ، ان تتفادى ، حيناً ، خطر الجيش الضاغط على صدرها ، وتتجنبه وتأمن شره ، فالجمهورية الرومانية لم يخطر لها يوماً على بال ، مثل هذا الامر ، ولم تحتط لنفسها يوماً ضد هذا الخطر الماثل الجاثم على صدرها . فقد تغافلت عن الرباط الذي شد السلطة المدنية الى السلطة العسكرية ، فتحلل دون ان تبالي ، من الاسفل ، وهمها ان يبقى شديد الاسر في الرأس . فجيوشها تألفت وحداتها من جنود محترفة ، لم يألفوا الانصياع لغير امر قائدهم . وكم سولت النفس الامّارة بالسوء لهؤلاء القادة ، ان يستعينوا، تحقيقاً لمآربهم الخاصة ، بهـذه الاداة الطيعة بين ايديهم ، فجرّت منافساتهم المغرضة واطماعهم المتعارضة ، المذلـّة والهوان للوطن ، والفوضى للبلاد .

وعلى هذا الشكل هوت الجمهورية الرومانية ، وقد أعجزها حل قضية غاية ً في الدقة ، هي قضية العلاقات التي يجب ان تشد السلطة المدنية الى السلطة العسكرية، فبرزت حدتها وخطورتها عندما تعلق الامر بالسلطة العليا في الامبراطورية . وقـد حمل موت الجمهورية معه موت مدينة روما نفسها . رأت النور مدينة ً ، فلم يكن في وسع روما ان تتصوّر لها كياناً غير هذا الكيان الذي كانته ، فلم تستطع ان تكيّف نـُظـُمها المدنية للدور الذي تستوجبه سيطرتها على اراض شاسعة . صحيح انها برهنت في هذا المجال عن مرونة ولباقة تصرف لم ُتبدِ مثلها مدينـة مـن المدن الكبرى التي برزت في التاريخ القديم ، وذلك بمنحها رعويتها بسخاء لم يسبق ان سخت مدينة بمثله من قبل . وهـذا الامتداد البشري له حدوده وطاقته ، وهي حدود لا يمكن ان تتخطاها مدينة كان من الانظمة التي سارت عليها ان يتولى جمهرة الناخبين فيها التشريع والقوانين وتعيين الحكام الاداريين . ولكي ُيتاح لها الإبقاء على هذه الاقطار التي فتحتها ، والاقوام التي أخضعتها لامرتها ، وضمتها بعضاً الى بعض ، كان لا بـد من تغيير وضع الدولة ونظام الحكم والقيام بتشكيل اداري جديد ، وذلـك بسن نظام جديد قادر على تنظيم الامبراطورية على أسس جديدة ، ونشر نظام حياة مشتركة ينعم بنعمائها الشعب الملك ورعاياه على السواء .

هي حرب قاسية مريرة ، فرقت شمل الوطن ، وأسالت الدماء غزيراً ،وأرغمت الخصوم على اتخاذهم يداً من كل شيء ، والاستعانة بكل أيد ، وطلب المعونة من أي بارقة ، عركت الكل بثفالها ، لم توفر احداً ، بعيداً كان ام قريباً ، وهددت بسوء المصير والشر المستطير ، كيان الامبراطورية ، وسيادة رومـا وتفوقها ، على السواء .

ولم يتورع بعضهم في تأليبهم الاحلاف والانصار حولهم ، من استنفار حتى اعدى اعداء الرومان الفارثيين انفسهم ، خصومهـم الالداء . فقد سولت النفس لبمبيوس طلب مؤازرتهم . الا انه عرف ، بما له من لباقة وكياسة وتصريف للأمور ، ان يتفادى الخيانة العظمى ، غير ان الحقد الازرق والموجدة حمل كوينتوس لابيانوس سليل احد قواد قيصر البارزين ابان حروب الفتح في غاليا ، ان يتولى قيادة جيش من جيوشهم ، في هجوم له ناجح ، قام به باتجـاه البحر المتوسط. وتمكن احد ملوك الدولة الارزادية *Arsacides* ، من احتلال سوريا وفينيقيا وفلسطين وبسط سيطرته عليها . بينما راح لابيانوس نفسه يبسط سيطرته على كل آسيا الصغرى، وضرب السكة باسمه ولقب نفسه امبراطور الفارثيين . اما اذا كان انطونيوس فشل فيما بعد في تجريدته العسكرية على ميديا *Médie* ، فقد كان له الفضل في ارجـاع حدود الامبراطورية الى ضفاف نهر الفرات .

ولحسن حظ روما، لم يكن في الغرب بين الشعوب المنضوية تحت لواء الامبراطورية الرومانية، شعب له من شدة الشكيمة والبأس ، مـا عرف معه ان يفيد من الأزمة الخانقة التي تخبطت فيها روما . فالعالم الذي كان اذ ذاك ، يأتمر بامرها ، بقي في جمله ، صامداً متماسكاً، فالمحاولات التي قامت بها بعض البلدان الدائرة في فلك الامبراطورية ، بقصد التحرر وخلع النير الرومـاني الذي رزحت تحت ثقله ، لم تلق النجاح المرتجى . وهكذا، بدلاً من ان تنكمش رقعة الامبراطوية وتتقلص ، راحت ، على عكس ذلك ، تتسع وتمتد وترحب ، باحتلالهـا ولو بصورة مؤقتة ، اقطاراً في كل من آسيا وافريقيا ، لم يبرهن حكامها عن خضوعهم التـام ولا امتثلوا ، كما يجب ، للنواهي التي وصلتهم من روما . كذلك تم لها اخيراً ، ان تضم الى ممتلكاتها الواسعة ، مقاطعة جديدة لها وزنها وقيمتها ، هي مصر التي كانت الآن ، من البلدان الحليفة المرتبطة بالامبراطورية بمواثيق ومعاهدات .

وهكذا كل من ارتبط بروما رأساً او بالواسطة ، وشد مصيره الى مصيرها ، اضطر ، طوعاً او قسراً، انينحاز لهذا او ذاك منهؤلاء الزعماء المتناحرين، الذين جاشت نفوسهم على السواء ، باطماع أشعبية وزخرت بنشاط محموم وبحيوية لا تعرف الملل في تحقيق الرغائب.ولو كان بالامكان تقويم الخسائر البشرية والمادية التي جرتها على البلاد هذه الحروب الاهليـة النهمة ، الاكول ، لبلغت أرقامها عدداً مرعباً . وهذه الحروب ، بما اتسمت به من حول وطول ، وبما رافقهـا من

تكالب مرير ، ومن قوى ضخمة تشابكت فيها وتلاحمت في جميع الميادين ، تجــاوزت بمراحل كل ما سبقها من حروب أهلية نشبت في تلك البلاد، وشتت منها شمل العباد ، اذ لم تبلغ مطامع الخصوم المتشابكين في الحروب الماضية هذا الاتساع في الطمع والجشع والاهــداف الواسعة التي رمت هذه الحرب الاخيرة الى تحقيقها . والحق يقال ، فالولايات الغربية لم تتضرس بها كثيراً . ففي غاليا ، تعرضت مرسيليا وحدها للأذى والضرر، إثر محاصرة قيصر لها وإرغامها على التسليم له . أما اسبانيا وافريقيا ، فقد كانت كل منهما ، ساحة حروب دامية ، وقعت في عهد قيصر . وعلى عكس ذلك تماماً ، ففي الحقبة التي عقبت وفاة قيصر مباشرة ، وهي اطول ادوار هــذه الحرب الضروس ، ازدادت العــاصفة هيجاناً كما ازدادت نار الحرب أواراً ، فاكتوت بلهيبها جميع انحاء الامبراطورية لاسيما ايطاليا والشرق وصقلية، وتجلى العنف على اشده وبرز في جميع اشكاله والوانه : من نفي، وإبعاد بالجملة، ومصادرة الاملاك والمقتنيات، ووضع الجوائز والاعطيات لمن يأتي برأس خصم معين، وهمجية الجند وفظاظتهم والاعمال الوحشية التي قاموا بها ، ونهب المدن التي تؤخذ غلاباً او قهراً وسلبهــا ، وذبح السكان ذبح النعاج وبيعهم اسرى في اسواق النخاسة والرق ، واستفحال شأن قراصنة البحر وقطاع الطرق بعد ان اختل الأمن واختلط الحابل بالنابل، والاستعانة بالعبيد والارقــاء وتجنيدهم كما فعل سكتوس بمبيوس ، ومصادرة الاملاك والكنوز المدخرة ، والاموال المكنوزة ، وفرض التجنيد العسكري العام على جميع القادرين من الرجال، وفرض الرسوم والضرائب ، والغرامات الباهظة على المنظمات والجمعيات واعتصارها بشتى الوسائل، والقروض الاجبارية والضرائب الاعتباطية والمصادرة على جميع انواعها، الى غير ذلك من ضروب العسف والابتزاز

وبالرغم من اعفاء الرعايا من الضرائب المباشرة ،وهو امتياز نعموا به منذ اكثر من قرن، لم تنجح ايطاليـا في فرض الرسوم البــاهظة عليها ، ولا من اعمال التعصب والسلب والنهب والابتزاز ورؤوس الاموال التي كانت الشركات التجارية تستثمرها وتستغلها في اعمال الاتجار، راحت فريسة المغتصب المستبيح. وقد كتب على ايطاليا ان تمد كلا من الزعمــاء المتنافسين ، بالرجال القادرين على الحرب ليؤلفوا منهم الكتائب التي يستعملونها مطايا للوصول الى اهدافهم وتحقيق اطماعهم . ومهما كان من فظاظة اعمال العسف والضغط والارهاق التي تعرضت لها ، فالشرق الهليني أستهدف لاكثر منها وافظع. فبعد ان سُلبت اقطاره ونُهبت مقاطعاته خلال حروب الفتح الروماني، واستغلها الحكام ورجال الاعمال ابشع استغلال بدت موارده الطــائلة وكانها لا تنضب ومصادره لا تنقطع.فكل فريق من هؤلاء الزعماء المتشابكين وقعوا تحت اغرائه واخذوا بما لهذه الاصقاع من سحر جذاب وثروات طائلة فراحوا يمتارون منها ، تباعــاً ما فيه قوام الحرب وعدتها ومادتها.وهذه الاعتدة الخفيفة التي أتيح لانطونيوس جمعهــا ، والنفقات الباهظة التي تكبدها، استمدها من الشرق،بينما لم ينعم اوكتافيوس، في الغرب ، ببعض هذا ، او بما يمكن مقارنته به.

الشرق الهليني ينازع روما الصدارة

ليس من المستغرب قط ، والحالة على ما وصفنا ، ان يبدو الشرق حقلاً مقفلاً حاول معه ذوو الاطماع من الرومانيين تصفية منازعاتهم ووضع حد لهذا الوضع المتأرجح . فشهد أعنف المعارك الفاصلة واشدها هولاً : موقعة فرسال في تساليا،حيث قُيّض لقيصر انيسحق جيش بمبيوس،ومعركة فيلبس في مقدونيا حيث ثأر لنفسه من قَتَلَة ١٥ آذار ، ومعركة أكتيوم في ابيروس، اذ ادى انتصار اوغسطس الى هرب كليوباترا وانسحابها من المعركة، الى هرب انطونيوس واللحاق بها متخلياً عن اسطوله وجيشه . وقد بدا الشرق في نظر المتحاربين ، انه خير الاماكن لتحركات الجيوش ومناوراتها ، فيه من الموارد الطائلة ما يساعد، الى حد بعيد ، على الكر والفر ، والهجوم والدفاع ، على ايطاليا محط الآمال والانظار . ولما ظهر لبمبيوس اولاً ، ثم للقتلة الجمهوريين الذين اغتالوا قيصر ان لا حيلة لهم في البقاء في روما والاحتفاظ بها ، قرروا الانسحاب واللجوء الى الشرق ليقيموا فيه عدتهم للحرب من جيوش وعتاد . وقد حالفهم النجاح الى حد بعيد ، بحيث قرر خصومهم مبادرتهم حالاً بالحرب لئلا يقوى منهم الجانب . اما انطونيوس ، فقد كان عليه في اعقاب معركة فيلبس ان يقرر أي الشطرين يفضل . فما عتّم ان آثر الشرق تاركاً الغرب وقضاياه المربكة وشؤونه المحرجة لاوكتافيوس. وبذلك حسن اختياره وتمت له الحصة الفضلى . وبالفعل ، فقد أنشأ له في الشرق ، قوة حربيـــة ، ضخمة اقتضت خصمه عشر سنوات من الجهد المرير ، والتنمية المدروسة ، والتخطيط ليؤمن التوازن والتعادل معه . ومن بين الدروس البليغـــة الكثيرة التي أتاحت لنا هـذه الازمة الخانقة ، استنتاجها ، الدرس التـالي وهو ان العالم الهليني الذي بدا في اعين البعض عيياً، متعباً ، ومنهوكاً منذ عهد بعيد ، كان بالفعل ، ولا يزال يملك ، في الفترة الاخيرة من تاريخ الجمهورية الرومانية ، حيوية عارمة وطاقات هائلة ، لم يتبينهـا اصدق الرومانيين فراسة .

فاذا كان ، والحق يقال ، المظهر المادي من هذه الحيوية هو الذي يبرز للعين ، للوهلة الاولى ، فالمادة ليست وحدها مما يستبد بالاذهان ، لا سيا وهنالك عالم الفكر ودنيا الحضارة ، ولكل منهما سطوه على الخواطر ، ووقعه في النفوس .

ففي عالم ، على مثل هذا القدر العظيم من غنى التجربة الطويلة والخبرة الواسعة التي تمت له ، من اي لون او جنس كانت، ألم يكن لروما ان تجد الكثير مما يليق بها اقتباسه واخذه، بالرغم مما اقتبست عنه من قبل واخذت ؟ ففي الشرق وجده ، يمكنها ان تجد الحلول المرتجاة للمشكلات الشائكة التي تتخبط فيها ، والتي لا يصح بعد ، التسويف في حلها .

فقد وضعت احداث الحرب الاهلية الكبرى ، من هذه الناحية ، الخصمين وجهاً لوجه امام تغييرات وتطورات لم تنته الى نتيجة حاسمة . فبتعويل بمبيوس على الشرق الذي عرف ان ينشىء له فيه نفوذاً عظيماً ، بفضل الحملات المظفرة التي قادها من قبل ، ومكثه الطويل بين ربوعـه

وبين شعوبه ، ادرك جيداً مـا سيلاقي في هذه المنطقة من امكانات وموارد يفيد منهـا . وباعتماده ، من جهة ثانية ، على مجلس الشيوخ او الندوة الرومانية ، جعل الشرعية والتقاليـد الرومانية المرعية ، الى جانبه ، بقدر ما بقيت هذه التقاليد صحيحة . اما قيصر ، فباعتماده على غاليا، وبما له من نفوذ وسلطان في كل من ايطاليا واسبانيـا ، جعل مقومات قوته وطاقته مرتكزة على الغرب . ومع ذلك ، فقـد تبدى لقيصر انه هو نفسه أقرب من خصمه بمبيوس ، الى طريقة التفكير الهليني ونظرته السياسية لأمور الدولة . فقبل ان نتعرف مباشرة ، على الملكية المصرية المؤلهة ، كان عزم في قرارة نفسه ، ان يقوم بإصلاح جذري في نظـام الدولة السياسي والديني معاً ، هذا النظام المتبع في جميع انحـاء الامبراطورية الرومانية . وهكذا تبدت لنا هذه الامبراطورية منقسمة على نفسها الى شطرين، انتصبا ، بفضل خصومة زعيميها ، الواحد في وجه الآخر ، ونهضا بقضية ، لا كبير شأن لها بها في الاساس . وهذه المفارقة بالذات عرضت عام ٤٢ ، في الواقعـة الكبرى التي ادت الى انتصار قيصر وورثته الناهضين بامره بعد مقتله ، كما افضت بالتالي الى تصفية الجمهوريين ومن لف لفهم .

وقد سارت ماجريات الأمور على عكس ذلك في الطور الاخير من الأزمـة التي وجدت حلها النهائي في معركة اكتيوم . فإقامـة انطونيوس طويلاً في الشرق وتفاهمه مع كليوباترا طرحت من جديد ، وجهاً لوجه ، على بساط البحث اساس الوسائل المادية التي اعتمد اليها وعول عليها ، كل من الخصمين المتنافسين ، كما تناولت بالمثل ، النزعات التي كانا يمثلانها . وقامت الدعاية التي اطلقها المنتصر الفائز تسخر من الشرق ، وتهزأ به ، على أبشع وجه ، هذا الشرق الذي كان شركاؤه ودعاته « لحياة لا مثيل لها » هم أنفسهم زعماء المعسكرين وممثلوهما ؛ وهمـا في نظر فرجيـل : « الإله النبّاح انوبيس *Anubis* » ذو الرأس الذي يشبه رأس الكلب وغيره من مسوخ الآلهة . وقد انتصبوا ، شاكي السلاح، في وجه نبتون وفينوس ومينرفا ، في هجومهم على اوكتافيوس يحف به « اعضاء مجلس الشيوخ والشعب ، وارواح السلف الصالح ، والآلهـة الوطنيون العظام » ، وهو جدل اساسه واقـع صارخ . ففي حال فوز انطونيوس تمسي هذه الامبراطورية التي قامت وارتكزت على سواعد الفيالق الرومانية غير رومانية ، عاصمتهـا الفعلية الاسكندرية ، وليست روما .

نتيجة الصراع

فاذا ما انعمنا النظر في النتائج التي سيفضي اليها، ولا شك، نقل العاصمة واستبدالها، برزت امامنا في الحال ، كلمة باسكال[1]: « انف كليوباترا » . فلو كان هذا الانف اقصر مما كان ، لتغير وجه التاريخ . فاذا مـا تملينا النظر في هذا الانف لبدا لنا بالفعل ، أنه اطول من اللازم . غير ان طابع هـذا الصراع لم يكن ليتوقف على شَوَه أرادته الطبيعية لصاحبة هذا الأنف . ومع ذلك ، فمدلوله يبقى عميقاً بعيد الغور . فبقاء قوات جرارة في حوض البحر المتوسط الشرقي على أهبة الاستعداد وأتمه ، من شأنه ان يزرع الرعب في القلوب لا سيما اذا ما تولى امرها الرومان ، بعد مـا أخذوا بسحر المدنية الهلينية ، ونفخوا فيها من عبقريتهم في التنظيم ، ومدها بالأطـر والملاكات اللازمة ، أمرٌ مجرد التفكير فيـه يهز

(١) باسكال : حياته ، فلسفته ، منتخبات تأليف اندرية كريسون ـ زدني علماً ـ منشورات عويدات

فرائص القوم في روما ، ويخلع قلوبهم هلعاً ، بحيث تحرّج الشاعر الابيقوري هوراتيوس عن اخراج خموره المعتقة من مستودعاته ليستمتع بأطايبها . فقد ذهبت أقدار الحرب ومصائرها الآن بهذا الجزَع يعتري روما، واصبح في مقدورها ان تحتفظ لنفسها ، بالصدارة الأولى الى ان يصبح في مكنة القسطنطينية، بعد لأيٍ من الدهر ، تنازعها إياها . وكان يكفي شيء بسيط جداً في الثاني من ايلول ٣١ ق.م ، لتفقد روما كل شيء ، عند ساحل أبيروس ، امام رأس اكتيوم *Actium* .

فبقاء روما « المدينة » الاولى ، لم يحل دون تعرضها لتغييرات جذرية ، بينها أكثر من واحد يحمل في الصميم طابع هذا الشرق الذي تغلبت عليه وفازت به . فالاخذ بالنظام الملكي أتاح للأحداث المتتابعة فتح الابواب على مصراعيها امام المؤثرات الهلينية التي تجاوزت بكثير هذه المرة ، وعلى نطاق اوسع ، تلك التي تفاعلت بها في عهد الجمهورية ، ومهدت لها الطريق للتغلغل، والتمطي على شكل لا يقاوَم . وقد اقتضى هذه المؤثرات وقتاً طويلاً لتمكن عروقها وترسخ ، بعد ان صهرتها البوتقة الرومانية وأنضجتها وهيأتها للاستعمال ، قبل ان تنتقل بدورها الى الغرب . فلم يتم هذا كله بعملية تسلم وتسليم ، ولا بنسخ حرفي . فليس بمستغرب قط ان يقتصِر المعاصرون لهذه التطورات ، عن التحسس بهذا كله ، او ان يستشعروا مسبقاً بمصائر المستقبل .

السلام الروماني : مقوماته ووسائله

وبالمثل ، فقد تأثروا عميقاً بالنهج الذي سار عليه، منذ البدء ، النظام الجديد، فاتسم منذ اللحظة الاولى من إطلالته ، بالمتانة والمهابة . والذي كان من شأنه ان يبدو غريباً ، بدا ، على عكس ذلك ، لمعظم سكان الامبراطورية ، خيراً لا يثمّن ، تمثل في هذا السلام الذي رفرف فوق رؤوس الجميع ، مشيعاً الطمأنينة في الداخل ، والامن في الخارج . اما نتائجه فلم تكن آنية ولا سطحية . فبمجرد ان استتب هذا السلام وبُذل في سبيل ترسيخه ما بذل من وسائل وأساليب ، ترك طابعه العميق في هذه المدنية التي أتاح لها الازدهار مدة قرنين من الزمن . فقد سميت بحق : « بالسلم الروماني » وهو تعبير من المستحب الاحتفاظ به لما له من المدلول الخاص الذي سنحاول في ما يلي، ان نكشف عما يتضمنه من المعاني والحقائق الأولية . ومثل هذا التحليل ليس بعملية يسيرة ، كما انها ليست من الهنات الهينات هذه المهمة يضطلع بها الضالع بها بتمهل كلي وتؤدة ، وقد لاقى في مقارعة خصمه العنيد انطونيوس أشد المعاناة والجهد في الانتصار عليه ، وفي توفيقه الى حل قضية ، بدت على ضوء المحاولات السابقة ، غير قابلة للحل ، مستعصية له . وقد حافظ خلفاؤه من بعده ، على السمات الاساسية التي ألبسها الحل الذي ارتآه ، وقد مهد لمجيئهم تصميم اصيل قوامه الرغبة الشديدة التي جاشت في صدره ، والوصية التي سلمهم اياها ليتموا الرسالة التي كان بدأها . وهكذا يصح لنا ان ننعت هذا « السلام الروماني » ، بالسلام الاوغسطي ، وقد عرف بهذا الاسم فعلاً ، في اعقاب استتبابه .

ولكي يقيم دعائم هذا السلام على أسس وطيدة ، راح اوكتافيوس اوغسطوس يستغل العياء العام الذي تملك الناس بعد ازمة خانقة كانت تخمد منهم الانفاس . إلا ان الافادة من مثل هذا الشعور العابر لم يكن كافياً وحده لتأمين النجاح والاستقرار لهـذا المولود الجديد الذي جاء على يده .

ولكي يوطد عمله هذا ، ويقيمه على أسس ركينة، عهد ، عن سابق قصد وتصميم الى روما ، بمهمة تهذيبية سامية . فالسلام الروماني لم يكن بالطبع غير هذا السلام الذي يصون المدنية التي ظلمت بها روما ، هذه المدنية السامية ، وبعبارة اخرى ، هذه الحضارة المنقطعة النظير ، وراح يضارب بكثير من النجاح والتوفيق ، بما أوتيت من سحر وجاذبية ممثلة بهـذه القوى المادية والروحية التي تشع من كل فجّ وصوب .

فقد عرفت روما ، قبل وصوله الى الحكم ، ان تتمثل دون ان تكاد تشعر بذلك او حتى تريده ، عدداً من الشعوب البرابرة ، إنما على نطاق ضيق . فقد خطر لقيصر من قبل ، ان وضع خططاً منهجية اوسع وارحب ، قصد بهـا ، ورمى منها الى خدمة روما بالطبع ، وخدمة مصالحه الشخصية في الدرجة الاولى، على شاكلة ما قام به الاسكندر المقدوني، قبل ذلك بقرنين، وبعض الممالك الهلينية التي أطلت من حطام امبراطوريته . وهـذه الخطة التي أورثها قيصر خليفته ، راح هو ، أي اوكتافيوس ، يتدبرها من جديد بحكمة وتؤدة ، في حدود ضيقة وبقوة اقل ، وبسرعة اخف، وبالتالي بصورة أدعى للنجاح واضمن . فقد راح يخفف من سرعة السير، ويباعد بين الخطى والمراحل . وعندما قام بعض خلفائه من بعده ، ولا سيما غاليغولا وكلوديوس يوسّعان : هذا من رقعة الامبراطورية الخاضعة للادارة الرومانية ، وذاك يوزع بسخاء كلي ، الرعوية الرومانية وما تخوله لصاحبها من منافع عريضة وامتيازات ، فقد خرجا على ما كان شرع به اوغسطس وندّا عن الصدد . وقد انفسحت امامها ، والحق يقال ، الامكانات لقطف ثمار الغرس الذي غرس ، والبذور التي بذر . يتحتم علينا ألاّ نأخذ بحرفيـة المصطلح الذي كرّسه الاستعمال، وهو : « مدينة مغلقة » وهو اصطلاح، كثيراً ما استعمل للتعبير عن السياسة التي رمت للتشديد على الصفات التي يجب ان تتوفر في من يُمنحون الرعوية الرومانية . ويقابل هذا، الوضع المعروف : « بالمدينة المفتوحة » للتدليل على السياسة التي انتهجها قيصر وسار عليها خلفاؤه من بعده ، اذ راح يكثر ، حتى في الظروف التي لم تكن تضطره للاكثار من الانصار عن طريق توزيع الرعوية من عدد المواطنين الجدد ، ولكن على نطاق اضيق واصغر ، رافضاً اعطاء الترفيعات القانونية إلا لمن تتوفر لهم الشرائط الثقافية والمناقب الحضارية . وسلك المسلك ذاته مع افريقيا وآسيا ، حيث ابقى ، في حال وجودها ، واعاد الى الوجود ، عندما تسنح له الفرصة المؤاتيـة ، الممالك والدول التي احتلتها جيوشه من قبل ، فجعل منها دولاً توابع له ، بدلاً من ان يتركها ولايات خاصة، رافضاً ضمها وإفراغها في قالب السلطنة إلا بعد ذلك بكثير . وهكذا وفّر لها فترة للانتقال، يتولى خلالها الحكم والادارة امراء عرفوا بولائهم للامبراطورية،

واعتنقوا ، قلباً وقالباً ، المثُل الرومانية ، وهو من ورائهم يرشدهم ويبذل لهم النصح في المهمة التي يضطلعون بها ، مهيئاً لهم بذلك ، على مر الزمن ، سبل القبس والتمثيل .

والسلام الذي عرف ان يؤمنه على هذا الشكل ، ويحققه في داخل الامبراطورية وعلى حدودها الخارجية ، عن طريق استمالة الناس لِمثُل المدنية الرومانية ، شابه شيء من التفاؤل الرخيص . ولكن بعد ان انتهت الحروب الداخلية الى ما انتهت إليه من إقرار السلام، لم يكن أحد ليجهل ان باستطاعة ابناء الوطن الواحد ان يثوروا بعضاً على بعض ، ويتلاحموا بعنف أشد من العنف الذي يقع على البلاد من الأجنبي الغازي . فضرب اوغسطس بهذا الاعتبار عرض الحائط، وراح يدافع عن مذهبه الواقعي ويبحث عن أسباب اخرى وبواعث تزيد النفوس طمأنينة وايماناً .

والنظام السياسي والاداري الذي عرف ان ينشئه أمّن له بالفعل السلطة ، ان لم يكن ليدير بنفسه كل شيء ، فاقله ليشرف على كل شيء ، ولذا كان من خطل الرأي القول بان التشريع الذي استنّ، كان الحافز اليه شهوة الوصول الى الزعامة الفردية . فمظاهر الاعراض او الترفع الذي بدت عليه ، في اعقاب معركة اكتيوم للإبقاء على هذه الامتيازات اصلاً ، والتوسيع لها فيما بعد ، لا يمكن ان تخدع احداً . ولكن هذه المظاهر الهزلية كانت تخفي وراءها شعوراً صادقاً لا يشوبه اي طمع او طموح شخصي ، اذ انه اعتقد اعتقاداً ثابتاً وطيداً بانه لا بد لروما وللامبراطورية من سيد اعلى . وبالفعل ، فجمعه بين يديه السلطة السياسية والعسكرية ، كان الوسيلة الوحيدة الكفيلة بمنع الويلات والاضرار التي لا بد ان تنزلها بالبلاد ، أطماع الزعماء وجشع المتنافسين على السلطة . ثم ان تنظيمه للجهاز الإداري وإحلاله القانون والعدل في فرض الضرائب ، وجباية الخراج والرسوم — وكلها اصلاحات لا بد منها لوضع حد للابتزازات والاختلاسات التي تبعث على التذمر وتثير الخواطر — كل هذا قضى عليه ان يفرض قبضة قوية، شديدة الوطأة ، لا تراخي فيها ولا تحللاً . كان لا بد من امبراطور يفرض نفسه وهيبته على الاحزاب والولايات وقادة الجيش ، ورجال المال واهل الثراء . فلا سلام داخلي الا بهذا الثمن ، وعلى هذا الاساس . وقد استصوب الناس مثل هذا التدبير الحكيم، بعد الاختبارات المريرة التي مرت بهم وبينوا ما فيه من نفع جزيل لهم .

القوة اساس السلام الداخلي

بعد هذا الذي عرضنا له ، بقي علينا شيء اساسي لا بد من المجاهرة به . فالسلام الروماني الذي نظمه اوغسطس وعرف خلفاؤه من بعده ، ان يصونوه ويحافظوا عليه ، طيلة قرنين كاملين ، لم يكن معنى هذا النوع من السلام الغرّ ، المترهل، المستضعف؛ « رومانياً » فقد كانه في الصميم ، لان روما نحتت منه القسمات وفرضته ، وقامت تراقبه وتسهر عليه ، ولم تهمل كبيرة او صغيرة حتى يبقى لواؤه مرفرفاً فوق الجميع ، خفاقاً في جميع الارجاء ، مستعدة دوماً لاستعمال القوة لصيانته من عبث العابثين .

كان من الممكن بعد ، ان تهب على البلاد ثورات في الداخل . فالعالم الروماني ، فيه ، هو الآخر ، فريق يعاني الحرمان ، لم تكترث له الحكومة إلا بالقدر الذي يرغمه على احترام القانون والنظام الاجتماعي والتسليم بالوضع القائم. ثم ان ما لهذه المدنية من سحر وفتنة يختلف وقعه على الرعايا ، طاقة وقدراً بين الفعل والقوة ، ما يستحسن معه فرض اقل ما يكون من السلبية . ثم إن في استمرار الولايات على تذكر ايام استقلالها ، واستمرار الاهلين على تذكر امجاد السلف ومآتيهم وامجادهم ، كل ذلك يكوّن مرتعاً خصباً للثورات والحركات الانتفاضية . صحيح انه لم يحدث في القرن الاخير من العهد الجمهوري اضطرابات في الولايات اختل لها حبل الامن وتعكر السلام . ولعل اهم حادث من هذا القبيل هو ما حدث في آسيا الصغرى وبلاد اليونان ، في عهد متريدات ، اذ انه غزا البلاد واحتلها ، بعد ان اهاج منها خواطر الاهلين بدعاياته ونداءاته ، وسوّل لهم الانتقاض على الرومان . وباستثناء بعض المناطق الجبلية الصعبة المنال ، والوعرة المسالك ، وبعض القطاعات الجبليـــة في اسبانيا وسردينيا والساحل الجنوبي لآسيا الصغرى ، أدرك الناس عدم جدوى الانتفاضات التي قاموا بها لزحزحة النير الروماني عنهم ، فاستسلموا صاغرين للمصير الذي انتهوا اليه . وقد اتسعت اطراف الامبراطورية بما ضم اليها من الولايات ، منها غاليا، مثلاً التي تم فتحها قبل نشوب ازمة الحروب الاهلية ، ومنها ايضاً مصر التي دخلت الامبراطورية مقاطعة من مقاطعاتها، عندما كانت جذوة هذه الحروب آخذة في الخمود . فكيف السبيل ، والحالة هذه، الى اطمئنان روما لولاء هذه الاقوام ، بعد ان عانت ، في عهد الجمهورية، الكثير من الحركات الانتفاضية وخروج الولايات عليها ، لعدم اعتصامها بالفطنة والحكمة في تصرفها نحوها ؟

والحل الذي توصلوا اليـــه اخيراً ، لم يكن قط قائماً على إقامة حاميات عسكرية في قلب المقاطعة او الولاية . فاستعيض عن هذا كله بأقل عدد ممكن من شراذم الجند ، وهو امر يبدو لنا غير قابل التصديق. من ذلك ، مثلاً ، فرنسا، هذه البلاد الشاسعة الاطراف ، التي تم فتحها في ايام قيصر ، باستثناء الالزاس واللورين ، فقد كان فيها طابور واحـــد لا يتجاوز عدد افراد رجاله الالف ، يعملون الى جانب سرايا اخرى مخيمة بالقرب من الحدود. والامبراطرة الرومان لم يعرضوا سوى عدد ضئيل من فيالقهم تفادياً لاستعمالها ، اذ انهم كانوا يعوّلون ، بالاحرى ، على الحاميات القوية المرابطة على الحدود ، والتي كان باستطاعتها ان تعود ادراجها الى الوراء ، اذا ما دعت الحاجة الى ذلك .

وبالفعل ، فقـد حدثت بعض حروب داخلية ، بالرغم من التدابير الاحترازية التي اتخذت من قبـل ، منها مثلاً ، الحروب التي نشبت بمناسبة الازمة العسكرية ، التي اندلع لهيبها عام ٦٨ – ٦٩ ، بعـد الميلاد ، ومحاولة اغتصاب السلطة التي قام بها أفيديوس كاسيوس ، في عهد الامبراطور مارك اوريل . فقد وقعت كذلـك انتفاضات في الولايات التي معظم سكانها من الحضر ، إلا انهـا كانت نادرة لم تدم طويلاً . وعندما كانت قوى الامن الموضوعة تحت تصرف

الادارات المحلية عاجزة عن اعادة الامن الى نصابه بعد ان تكون الطبقات الاجتماعية ممالئة للحركة الانتفاضية في البلاد ، تتولى ، اذ ذاك ، الجيوش المرابطة على الحدود ، مهمة إخماد الفتنة وتتولى الامر بأهون السبل . وعندما راحت الامبراطورية تخمد الثورة التي نشبت ، عام ٦٩ – ٧٠ في الجهة الشمالية الشرقية من غاليا ، او تحاول إخماد « الحرب اليهودية » التي نشبت في اول عهد الاسرة الفلافية في عهد الامبراطور هدريانوس ، لم تضطر للاستنجاد بقواتها كلها لاعادة الأمور الى مجراها الطبيعي . اما البلاد التي اهلها من البدو الرحل، او صعبة المرتقى لطبيعتها الجبلية فالمهمة فيها كانت اشق واصعب ، لأنها كانت تتجدد كل يوم ، فيقتضي ذلك الاكثار من الوحدات الخفيفة التي تتحرك بسرعة ، من مراكز للمراقبة ، للوصول بعد طول جهد وعناء ، لنتائج تكاد لا تذكر .

القوة الخارجية

فاذا كان السلام لم يتوفر ، على أكمله ، في داخل البلاد فهو لم يستتب ابداً ، مع الخارج . انتصب في قلب روما ، على مقربة من الفوروم (الساحة العامة) هيكل على اسم الإله جانوس ، عُرف باسم جانوس كويرينوس ، كانت ابوابه تبقى دوماً مفتوحة على مصراعيها طالما كانت الامبراطورية ، رسمياً ، في حروب مع الخارج . ولعل آخر مرة أُغلقت فيها ابواب هذا الهيكل ، كانت سنة ٢٣٥ ق . م . اما في عهد اوغسطس الذي جعل من السلام قضيته الكبرى ، واناط بها شهرته في الخارج ، فقد أُقفلت ابواب هذا الهيكل ، ثلاث مرات لا غير ، إلا انها لم تكن لتلبث ان تُفتح من جديد ، مع العلم انها كانت مفتوحة عندما حانت ساعته الاخيرة. وبعد وفاته ، أُقفلت ابواب الهيكل مرات معدودات، لم يتجاوز عددها عدد أصابع اليد الواحدة ، حتى مطلع القرن الرابع للميلاد .

فالامبراطورية الرومانية نهضت ، والحالة هذه ، بأعباء حروب عدة متنوعة الاهداف والاتجاهات ، قلّ ان تكون دفاعية ، بالمعنى الحصري ، اي مبعثها تعديات من الخارج . وأهم هذه الحروب هي التي وقعت في عهد الامبراطور مارك اوريل، في منتصف القرن الثاني للميلاد، عندما تجاوبت حدود الامبراطورية ، في الشمال بتحركات الشعوب التي تململ بها عالم البرارة في الشمال والشمال الشرقي من اوروبا ، وتمخض بها ليطلع منها ، في ما بعد ، بتلك الغزوات التي انهالت على العالم الروماني . وهذه الحروب ، كانت الغاية منها في الغالب الفتح وتلبست وجوهاً متعددة .

قام بعض هذه الحروب بدافع السيطرة وبسط رقعة الامبراطورية رغبة بضم مقاطعات طمعاً بخيراتها الوافرة . فقد رغب الامبراطور كلوديوس بمناجم بريطانيا ، فأرسل الفيالق الرومانية تحتلها . كذلك طمع الامبراطور ترايانوس بمناجم داسيا ، فيمم شطرها وعبر اليها ، مجتازاً نهر الدانوب . وهكذا كانت الاسباب الاقتصادية الباعث الاقوى لهذه الحروب ، يقوم بها ترايانوس في الشرق : فيحتل شبه جزيرة سيناء وما وراء الاردن، وأنشأ منها ولاية رومانية

جديدة ، عرفت « بالولاية العربية » ، كما راح يحاول تقليم اظافر الفارتيين ويستخلص من ايديهم بلاد ما بين النهرين وبابل ، مسهلاً بذلك التجارة مع بلدان الشرق الأقصى فيرهقها الفارتيون بفرض رسوم باهظة .

وهنالك حروب اخرى قامت بها الامبراطورية لتوسيع رقعتها في الظاهر ، بينما الغاية التي رمت اليها كانت بالفعل تنظيم وسائل الدفاع عن الامبراطورية، على نطاق اقليمي او موضعي ضد خطر قائم ، او محتمل الوقوع . فكانت هذه الحروب تشنها الدولة الرومانية ، دروساً بليغة لجيرانها المشاغبين من جهة ،ومن جهة اخرى تقوية لشبكة دفاعها على الحدود، وذلك بانشائها سلسلة حصون وقلاع تقيها هجماتهم، او لاحتلال مراكز ستراتيجية جديدة اكثر ملاءمة من القديمة فتوفر بذلك عليها بعض الفرق ، عن طريق حذف نتوءات بارزة او اختصار خط الدفاع الأمامي . فالحروب التي خاضتها الامبراطورية في جرمانيــا ، وهي حروب ليس هنا مجال التبسط بها ، تعد خير دليل وشاهد على هذه الستراتيجية الهجومية التي كانت في صميمها ، دفاعية محض ، اذ كانت غاية خطة اوغسطس من الحملة التي عهد بها الى قائده فاروس ، والتي فشلت ايما فشل ، التقدم حتى نهر الإيلب *Elbe* ،فيتم له بذلك ربط البحر الشمالي بنهر الدانوب، عن اخصر الطرق واقومها ، وهو خط الحدود الذي انشأه قيصر . ومن هذه الحروب التي شنها الرومان تحقيقــاً لستراتيجيتهم المرسومة ، المعركة المعروفة بحقول الديكومات *Champs Décumates* (راجع الشكل ٨ ص٢٨٣)وهي الأراضي الواقعة تحت سيطرة الرومان بين الغابة السوداء وسلسلة جبال الجورا الصوابية ، وكانوا اقاموا حولها شبكة من القلاع والحصون المنيعة .

لم تؤثر هذه الحروب جدياً على امن البلاد في الداخل، ولم تتضرس بها سوى الولايات الجانبية. فاذا ما اصاب ايطاليا منها بعض الرذاذ ، في عهد الامبراطور مارك اوريل ، فقد اقتصر الضرر على الولايات الشمالية دون سواها ، على اثر اختراق خط الدانوب. وقلما حدث ، باستثناء الحقبة التالية ، حروب تناولت عدة جبهات معاً في وقت واحد ، وهي حروب لم تؤلف ، على مــا يظهر ، عبئاً ثقيلاً للامبراطورية . والثابت انها تكاثرت وتواترت ، فاقتضاها النهوض بها جهداً موصولاً ويقظة مستمرة . عرفت روما مصير كل الامبراطوريات الضخمة التي اعتبرت قوتهـا مصدراً لحقوقها ، هذه الحقوق التي تلزمها ايضاً بواجبات لا محيد عنها . غير ان رومــا لم تكن في عداد هذه الامبراطوريات التي ارتضت مثل هذا المصير، بل على عكس ذلك ، كانت بالاحرى ممن تتحكم به .

فالحقوق والواجبات هي من صميم رسالتها . فاسمع ما يقوله فرجيل بهـذا الصدد : « تذكر جيداً ايها الروماني ان عليك ان تحكم الشعوب، هذه هي فنونك الجميلة: ان تتعرف الى حقوقك وان تنهض بواجباتك . فليس بينهما ما يصدم المثل الرومانية التي أتقنت على السواء،القوة والاخلاق الحربية ، والتي تنسجم على امثل ما يكون مـع المثُل الامبراطورية التي لم تكن غير مثـل دولة عسكرية .

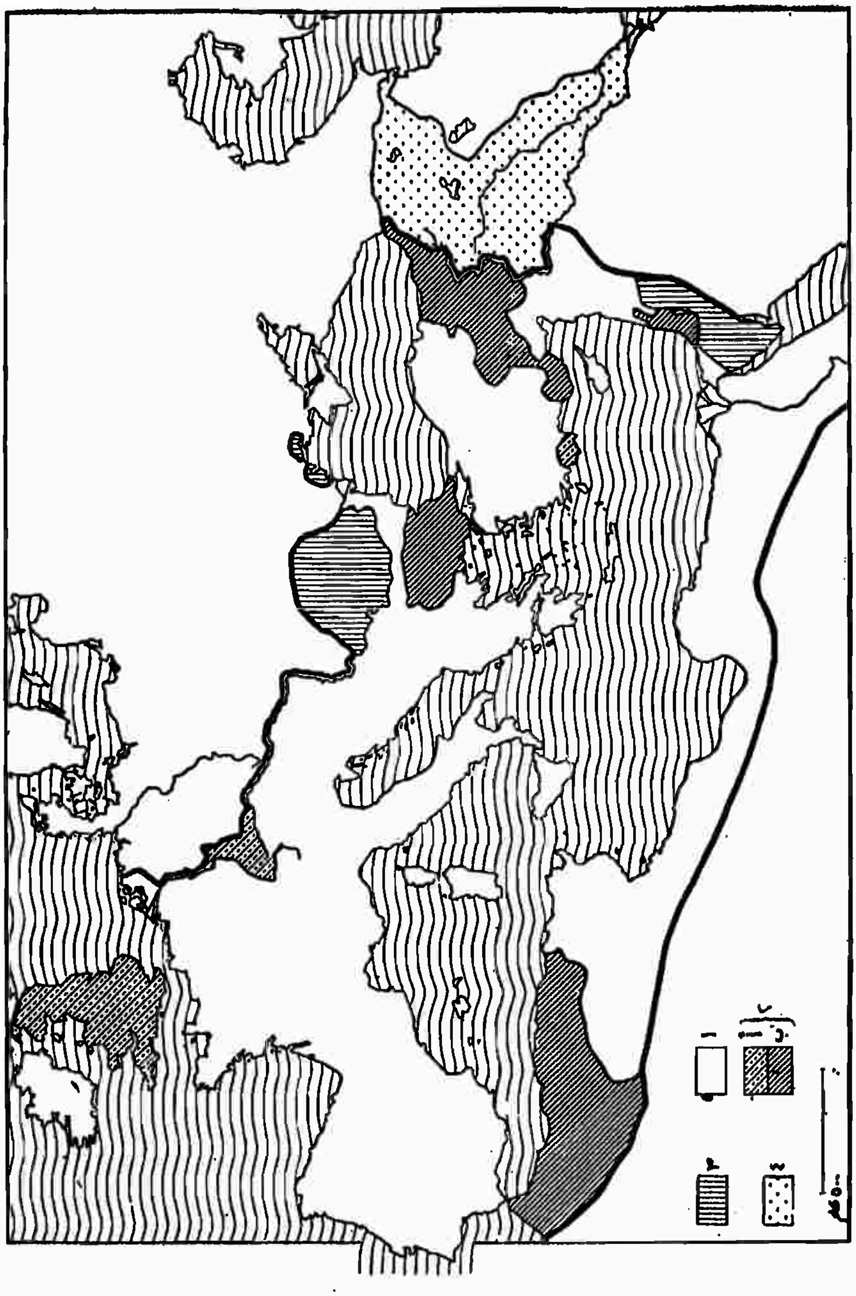

الشكل ٧ – الامبراطورية الرومانية في آخر الدولة الانطونية داخل الحدود .

١ - الامبراطورية عند وفاة أوغسطس ؛ ٢ - ١ - الفتوح الرومانية من أوغسطس الى ترايانوس ؛ ٢-٢- الدول التوابع عند وفاة اوغسطس والتي تم ضمها الى الامبراطورية فيما بعد ، خلال القرن الاول ؛ ٣ - فتوح ترايانوس ؛ ٤ - الولايات التي ألحقها ترايانوس بالامبراطورية ثم عادت فانفصلت عنها بعد وفاته .

وهكذا ، مهما بدا هـــذا السلام ناقصاً ، مهدداً ، او دوماً في وضع المهدد ، فقد كان « رومانياً » وأوغسطياً ، له وقعه في النفوس واحترامه في القلوب ، ابداً على استعداد لامتشاق الحسام لزرع الخوف وفرض الاحترام ، وهي سياسة لم يكن في مقدوره انتهاج غيرهـــا : فقد كان في اتم سعوده : سلاماً مدججاً .

قصور الحلول العسكرية الجديدة

لنُلقِ منذ الآن نظرة متملية على الجيش الامبراطوري ، قوام السلام الروماني وأداته الطيّعة ، والتُكأة التي قامت عليهـــا المدنية الرومانية خلال هذين القرنين .

مجرّد تشكيل هذا الجيش لم يكن من الامور البسيطة ، ولا من المهـــام اليسيرة ، يراعى العمل به وفقاً لمقتضيات الوضع القائم . فامتداد رقعة الامبراطورية ، وتباين اقوامهـا : عروقاً وأجناساً واجيالاً ، وامتداد اطرافها ، وقيام شعوب وقبائل مزعجة ، مشوشة بجوارها ، كل هذا وما اليه ، اقتضى حلولاً جديدة . من الامور التي ميزت النظـــام الامبراطوري وأبرزته بوضوح عن العهد الجمهوري الراحل ، قيام جيش دائم لم يتوقف انشاؤه ووجوده عـــلى ظرف طارىء وحادث معين ـ هو حالة الحرب المستمرة ـ كما كان عليـــه الوضع الراهن في العهد الجمهوري . فكيان هـــذا الجيش وقوامه ، انبثقا من صميم النظم الجديدة التي طلعت على الامبراطورية . ولم يخلُ قيـام الجيش وبقاؤه من مشكلات عديدة ، معقدة ، لم يتوصلوا الى حل بعضها إلا بتسوية واهية من التوازن المتأرجح .

وهذه الفيالق ، كيف السبيل الى تكتيبها وتعبئتهـــا ؟ وانّى يجب ان ترابط وتقوم ؟ لم يكن من المستطاع الرجوع القهقرى الى الوراء ، الى نظام الخدمة العسكرية الإلزامية العامة التي انتسخ الأخذ بها ، منذ عهد ماريوس ، فكان الرجوع اليهـا في الحروب الداخلية تدبيراً تعسفياً طالما تذمر منه الناس وتململوا . قد يرضون عن مثل هذا التدبير عندمـا تتعرض البلاد لاخطار داهية ، دهماء ، توردها الهلكة . ولذا أبقوا عليها من حيث المبدأ ، ولم تطبق الا في الحـالات القصوى النادرة جداً . ولم يكن في طاقة احد ، ولا في مقدور اي انسان كان ، ان يفرض على الناس اجمع ، تحت اي سماء عاشوا ، وفي اي مكان حلوا من هذا العالم المتمدين ، او كانو في اقاصي اطراف الامبراطورية ، حيث تمر الحياة رتيبة ، كئيبة ، ليس ما يميزها في هذه الحصون النائية ، حياة تفرغ على نغم واحد في المراكز والقلاع الامامية ، والمناورات الحربية والاشغال اليدوية الاجبارية . ولهذه الاسباب مجتمعة ، كان لا بد من جيش محترف ، تضرّس افراده بالانتظـــار الممل ، وألفوا مواجهـة المخاطر والطوارىء . وجيش على هذا النحو لا يمكن ان يقوم الا على متطوعة يقبلون ، طوعاً واختياراً ، على الخدمة العسكرية ويتدربون على فنون الحرب والجهاد ويشبون على المهنة ، ويتمرسون بها طويلاً من خلال مزاولة يومية ، وتمارين مستمرة .

وهذا الوجوب ، اقتضى بالطبع ، وجوباً آخر : إلزام بإلزام . فقد كان من المحال اجتذاب

مثل هـذه الحشود من المتطوعة ، وعلى القدر الكافي وبالعدد الوافي ، بمثل هذه التعلاّت التافهة التي لوحت بها الجمهورية السالفة . فالولايات التي تعسكر فيها الكتائب الرومانية باستمرار ، كان لا بد من بقائهـا وحفظها سليمة ، فلا تتعرض ، بتشجيع من المسؤولين او بتغاضيهم ، لأعمال الابتزاز والاعتصار . فالحروب لم تعد مورد رزق ورجعة رابحة ، لندرتها من جهة ، ولوقوعها، في أكثر الاحيان ، في بلاد غير ذي خصب ولا عطاء، من جهة اخرى. والتطوع في الجيش يجب ان يُقبِل عليه النـاس لما في السلك من غنم وارباح : كالمرتبات والجرايات، والمكافآت العينية او النقدية التي يصار الى توزيعها في بعض المناسبات، وتعويضات سخية تعطى لهم لدى التسريح من الجيش ، او الترفيع الى مرتبة اجتماعية او قضائية اعلى . كل هذه مسوّغات ومغريات كانت تتبلور بالفعل ، عن نفقات ومصارفات ترزح كاهل الدولة الى جانب ما كانت تُرزح به الخزينة في هذه الدولة ، من اعباء ومسؤوليات يقتضيها تأمين وسائل العيش لأفراد الجند ومدّهم بمـا يلزم من عدة الحرب والسلاح .

ولذا كان لا بد من الاستعانة بمادة بشرية استخدامها يكلف الدولة اقل بكثير من الاستعانة بالعناصر البشرية المتباينة العروق والاجناس التي تألف منها مجموع سكان روما ، الذين اصبحوا ، مع الزمان ، وبفضل المآتي التي حققها السلف الصالح ، الطبقة الارستوقراطية في المدينة بحيث انها اخذت تمج الحياة العسكرية ، وتكره ما فيها من مضايقات ، لا يرضون بتحملها مها لحقهم من منافع وامتيازات في حال قبولهم بالتجنيد . ولهـذه الاسباب راحت الامبراطورية تدعو للخدمة في جيشها ، سيراً منها مع التقاليد التي تمشت عليها الجمهورية من قبـل ، لتأمين سلامتها وصيانة أمنها ، ليس رعايا احدث عهداً بهذه الرعوية فحسب ، بل ايضاً فرقاء ، دونهم وضعاً اجتماعياً ، تختارهم من بين سكان الولايات ومن بين الاجانب ، فألفوا معاً نصف الجيش المحترف تقريباً . فقـد أغراهم العمل والخدمة في جيش روما الفاتح اغراءاً تجاوز في نظرهم الربح المادي الذي طمعوا في الحصول عليه ومنّوا النفس به. وهذا ابرز واوقع ما تميزت به المدنية الرومانية من قوة الجذب والاغراء. فبعد ان نشأت السلطنة الرومانية على سواعد حلفائها ودماء رعاياها، اذ بنا نرى روما اليوم ، تتوجه اليهم ، مرة اخرى ، في مهمة الحفاظ على هـذه الامبراطورية والذود عنها .

فالقضية العسكرية ألّفت ، الى جانب المادة البشرية التي هي عماد الجيش ، مشكلة مادية لا تقل حدةً عن الاولى . فمنذ عهد اوغسطس ، كان على المواطنين الرومان المعفين من الخدمة العسكرية ، ضريبة بَدَل خدمة، مقدارها واحد في العشرين من اصل التركات المورّثة ، لتغذي صندوق الجيش وتعويضات الصرف من الخدمة . ومهما بلغ مـن غنى الامبراطورية اذ ذاك ، وضخامة فيئها ، فقد كان عليها ان تواجه ، الى جنب الاعباء المالية المترتبة على حشد مثل هذه الحشود الضخمة من الجند ، النقص البشري الذي كانت تعاني منه ، أكـثر من اهتمامها بعجز خزينتها ، اذ كانت تنوي جمع هذه المبالغ من رعاياها ، دون سواهم . وقد لاقت في هذا السبيل

الكثير من العنت والازعاج حتى في ابان عزها وأوج ازدهارها . فكان عليها ان تسن وتشرّع ما هو في طاقتها ، اذ لم يكن في وسعها توفير اسباب السياسة التي تمنى بعض امبراطرتها اتباعها والسير عليها .

وتنظيم قيادة الجيش العليا هو نفسه ، لم يلاق عندها الحل الامثل والاكمل ، اذ ان ارتباط هذه القيادة بشكل الدولة والنظام الاجتماعي الذي كانت عليه ، كان يحول دون النظر الى هذا المنصب الخطير بتجرد . ولذا كان لا بد من ان ترتبط قيادة الجيش العليا ، رأساً ، بالامبراطور نفسه . فبقاء الامبراطور واستمراره في الحكم ، ارتبط الى حد كبير ، ببقاء الجيش ، واستمراره هو الآخر ، يتوقف على استمرار الامبراطور نفسه . وهذا الجيش المرابط معظمه على الحدود ، كان يتألف بالفعل من عدة جيوش ، لكل منها قائده . فكيف السبيل ، والحالة هذه الى انتقاء هؤلاء القادة ، وكيف يمكن الحيلولة دون تسخيرهم الانتصارات التي يحققونها لمصلحتهم الخاصة ، واستغلال منزلتهم في الجيش ونفوذهم عليه ، للوصول الى السلطة العليا ؟ ومن جهة اخرى ، فالجنود انفسهم ليسوا بشيء يذكر ما لم تتوفر لهم الأطر والملاكات التي تنتظم سلكهم . فما السبيل ، لعمري ، لتأمين هذه الملاكات ، وتأمين تدريبهم الفني والمسلكي؟ وعلى أي اسس يجب ان تقوم ترقيتهم ، وان تنتسق ترفيعاتهم ، وما هي القاعدة الذهبية لتحقيق هذا كله ، على الوجه الاكمل ؟ وما عسى ان يكون محلهم في السلم الاجتماعي ؟ وكان من مصلحة النظام الجديد الذي طلع على البلاد ، الفصل بين السلطة المدنية والسلطة العسكرية ، وذلك بتحديد إختصاص كل منها وتأمين الانسجام والترابط بينها. كذلك ، كانت المصلحة العامة تقضي ان لا ينظر ، عند الانخراط في الجيش وتقرير الترفيعات ، الا لمن أنسوا منه الميل العميق للسلك العسكري ، ومن توفرت له الاستعدادات الخلقية اللازمة ، وبرهن عن كفاءاته العسكرية في المعارك الحربية ، دون ان يُؤبه الى شيء آخر : كالاصل والفصل ، والحسب والنسب . وسنجهل ابداً ، ما اذا كان الامبراطرة اوضحوا هذه الأمور كلها وحددوا لها الأهداف ، او انهم لم يتمكنوا ، او بالاحرى لم يحاولوا ضرب عرض الحائط بهذه العوامل والتخلص من التقاليد المرعية .

فقد بقيت ابواب مجلس الشيوخ موصدة امام ابناء هؤلاء الاعضاء بينما بقيت كل مراكز القيادة وقفاً على هؤلاء الاعضاء . فالخروج عن هذه التقاليد التي كانت تشد بعضها الى بعض الجهازين الاداري والعسكري ، كان بمثابة خروج على مجلس الشيوخ . فالانتقال من جهاز الى آخر ، لم يكن امراً مستحيلاً ، وإن دقت سبله او ضاقت منافذه . فالوصول الى مجلس الشيوخ ، والتقلب في وظائفه : ترقية وترفيعاً ، هو من هذه المكافآت المحفوظة لخدام الدولة الامناء . وكلها امور يُرجَع بها الى هيئة من المحكمين ، تخضع قراراتها وترتيباتها الانتخابية لمواقف الاحزاب المتنافسة وتأثيراتهم . وقد اوجب رفع عدد ملاكات الجيش ، لعمري ، الاستعانة بطبقات اجتماعية اخرى ، اذ ان اعضاء مجلس الشيوخ ، فقدوا ، لقلة عددهم وضآلته ، هذا الاحتكار الذي مارسوه ، من هذا القبيل ، وتمتعوا به طويلاً ، وحدهم دون سواهم . فأخذنا نشاهد ، على مر

الزمن، طلوع فرسان وضباط، وضباط صف، من بين افراد الجند. الا ان السعي لاملاء الملاكات لم ينحط ليبلغ ادنى دركات السلم الاجتماعي . فالوحدات الجديدة افرزت لها قيادات جديدة احتفظت بها واقتصرت عليها وهي ، على الغالب ، ادنى مرتبة من الاخرى ، ودونها جذباً واغراء ، بينما بقيت القيادات الاولى تعاني النقص . ولم تقم المنافسة بين الفريقين الا بعد ان خضع ضباط الثانية لتدريب طويل او عند ما راح الملك يغمر برعايته وعطفه، ضباط الشفاليه حتى اوصلهم الى مرتبة المشيخة .كما اوصل ضباط البيادي الى فرقة الخيالة . والتدرج الحكيم في هذه المراتب دعا ابناء الطبقات الى شيء من الحماسة وحملهم بالتالي ، على التنافس والمباراة فيما بينهم ، فساعد ذلك على صيانة المجتمع من التفسخ والانحلال ، كما ساعد الامبراطور على الاحتفاظ بسلطته على الجيش وسيطرته عليه ، اذ مكنه من ان يكافىء الاخلاص ويشجع الكفاءة الشخصية . الا ان الامر ألحق بعض الاذى بالقيادة : وانتقص من قيمتها والمؤهلات التي يجب ان تتحلى بها . فقد كان من اثر هذه التدابير ان اقتضت وقتاً اطول لبروز الكفاءات كما اقصرت التجلي والظهور على بعض الظروف والمناسبات كوقوع الازمات ، مثلاً.

تنظيم القوة : البحرية

طرأ على تنظيم الجيش وتشكيله ، خلال القرنين الاولين من عهد الامبراطورية ، تطورات كثيرة يقتضينا تقصي مراحلها استطرادات وتفاصيل لا محل لذكرها هنا. فلنقتصر على نظرة عابرة نلقيها على خير العهود التي قامت فيه القوات الرومانية بدورها العسكري ، على الوجه الامثل ، باعتبارها حصن العالم الروماني الحصين ودرعه المتين ، اي في منتصف القرن الثاني للميلاد ، خلال حكم هدريانوس وانطونين .

فالاسطول البحري لم يكن له شأن يذكر . فالبحر المتوسط الذي اصبحت جميع شواطئه وما وراءها من اقطار خاضعة جميعها للسلطة الرومانية، هو نفسه بحاجة للأمن ولبعث الطمأنينة في النفوس . ففي هذه البحيرة الداخلية التي تقع في قلب الامبراطورية ، تمر خطوط المواصلات التي تربط روما بجميع الولايات التابعة لها . واعمال القرصنة البحرية التي كان لا بد من ازالة كل خطر لها في القرن الاول ، كادت تفقد ، الا ما ندر ، كل اثر لها . وهذه الاساطيل الحربية التي كانت تمخر عباب اليم في اواخر الحروب الأهلية ، فقدت الكثير من شوكتها وشكيمتها . فمنذ ان انتصف القرن الاول اصبح في استطاعة السلطة ان تسحب فرقتين رومانيتين اضافيتين من اصل جيش المشاة الذي عهد اليه العمل على ظهر الاساطيل الحربية ، والحقتا نهائياً بالجيش البّري . ولعل العمارة الوحيدة التي حافظت على قوتها وبأسها ، هي العمارة التي عهد اليها بتأمين المواصلات مع بريطانيا ، ومراقبة سواحل البحر الشمالي ، مؤمنة الاتصال بجيش الرين السفلي . اما الطرق النهرية الواقعة على الحدود ، ولا سيما على الرين والدانوب ، فقد قامت فيها عمارات اخذت ، هي الاخرى ، نصيبها في الدفاع عن الامبراطورية متعاونة مع الجيش البري على ذلك . وكل هذه الاساطيل لم تكن لتؤلف شيئاً يذكر في امر الدفاع . فقوة روما هي قوة جيشها البري . فالبحارة والقوى العاملة على هذه السفن الى جانبهم ، لم يكن لها من الشأن ما يمكن

مقارنته باقل فرق الجيش البري. ولم تندّ الامبراطورية هنا عن تقاليد روما التي رأيناها دوماً، طوال تاريخها المديد، تعجز عن القيام بجهود بحري حربي استطال اكثر مما اقتضته حرب معينة، الأمر الذي جعلها دوماً تفاجأ بخطر انتصب امامها بغتة، وسبب لها الكثير من المتاعب ووجع الرأس.

الجيش الروماني: اللجيون

استأثر الجيش بعناية الامبراطرة ورعايتهم. فقد بلغت قوة هذا الجيش نحواً من ٣٥٠٠٠٠، وهو لعمري عدد ضئيل جداً بالنسبة لعدد سكان الامبراطورية البالغ ما لا يقل عن ٥٠ مليون نسمة. وهذا العدد الضئيل جداً، اذا ما اخذنا بعين الاعتبار التسعة آلاف كيلومتر من الحدود البرية، بقطع النظر عن الصحراء الكبرى وبلاد العرب التي تتنقل فيها قبائل البدو الرحل الذين دئبوا على أعمال السلب والنهب. ويجب الا ننسى ما كان يترتب على هذا الجيش من أعباء المراقبة حتى ما تعلق منها بشؤون الادارة الداخلية احياناً، وغيرها من المهام التي كانت تستنفذ جانباً من الجيش العامل، المكلف بأمور الدفاع عن البلاد ضد كل خطر خارجي. من ذلك مثلاً، وضع الحامية الرومانية في روما نفسها، وهو تدبير اجرته الادارة الجديدة في العهد الامبراطوري دون ان يقوم ما يماثله في روما خلال العهد الجمهوري. وكان لا بد من هذه الحامية لأمن السلطة المركزية وسلامتها، وللأمن الداخلي في المدينة. فمن اصل الـ ١٢٠٠٠ جندي الذين كانت تتألف منهم الحامية، في عهد الامبراطور طيباريوس، شكل قسم منهم، بلغ عددهم ٤٥٠٠ جندي، الحرس الامبراطوري الخاص. وتألفت الحامية من ٩ طوابير هي عماد الأمبراطور وعدته في الحملات التأديبية التي كانت تدعو الحاجة اليها من وقت لآخر. وما تبقى من هذه القوة، بين كتائب خاصة بالمدينة وبالحراسة ليلاً، لم يفارق المدينة بحيث يؤمن لها ما تحتاج اليه من قوة بوليسية وسريّات لمكافحة الحرائق عند نشوبها. وعلى هذا النحو تقريباً كان وضع القوات الرومانية المرابطة في اسبانيا، سواء منها القائمة في شبه الجزيرة الايبيرية او التي كانت منها تعمل في مقاطعة موريتانيا – المغرب اليوم – فلم يكن من مهمتها التصدي للأجنبي.

وهكذا يتضح ان الجيش الامبراطوري كان بحاجة الى كل فرد من افراده، والى كل ما تمتع به من كفاءة عسكرية ومهارة في فنون الحرب، ليقوم على الوجه الاكمل، بالمهمة الموكولة اليه والتي قام بها بشكل مرضي.

اما الوحدة النموذجية الكبرى، سيدة المعارك المعبأة، فلا تزال تحمل الاسم الذي عرفت به من قبل، وهو «اللجيون»، هذا الاسم الذي ارتبط ابداً بالامجاد التي حققتها الفتوحات الكبرى التي عليها نشأت السلطنة الرومانية، وهي فرقة لم تدخل عليها الامبراطورية تعديلات تذكر، باستثناء سريّة من الخيالة ألحقت بها، لم يتعدّ عدد افرادها ١٢٠ فارساً. واللجيون،

وحدة مشاة في الاساس ، يتراوح عددها بين ٥٠٠٠ — ٦٠٠٠ جندي ، وهو عدد تباين الكتبة والمؤرخون الاقدمون في تحديـــده . وتتألف اللجيون من : طوابير *Cohortes*، وكراديس *Manipules* وسريات *Centuries* ، ينتظمها جميعاً ملاك قيادي ، متين ، يتألف من ٦٠ ضابطاً برتبــة قائد مائة يعرف عندهم بـ : *Centnrion* ، وهم ضباط خرجوا من بين صفوف الجند بما أظهروه من كفاءة ومقدرة، ورقوا تباعاً ، الدرجات العسكرية، وكانوا يتولون قيادة السريات الاولى في الكراديس . اما ترقيتهم الى درجات أعلى ، فأمر بقي نادراً جداً في القرن الثاني . ولم نرَ بينهم من وصل الى قيادة الفرقة او اللجيون ، هـــذه الوظيفة المحتفظ بها ، اصلاً ، لأعضاء مجلس الندوة او اعضاء مجلس الشيوخ ، إلا في مصر ، حيث كان يتولى قيادة الفرقة ضابط مــن رتبة شفاليه .

على كل افراد الفرقــة ان يكونوا حاصلين على الرعوية الرومانية ، وهو امتياز لم يكن من العسير قط الحصول عليـــه ، اذ كانت الدولة تمنحه بكل طيبة خاطر ، لكل من يتطوع في الجيش ، وقد عرفت الادارة ان تفيد من هذا الامتياز خلال الحروب الاهلية . وقـــد اخذت الامبراطورية ، في القرن الثاني ، تعود لهـــذا العُرف وتضعه موضع التنفيذ ، فلا تمنح حق الرعوية إلا لعناصر بشرية ضربت بأسباب الحضارة بسهم كبير ، لدى انخراطها في الجيش . وكانت الفرقــة ، في تشكيلها تعتمد ، الى حد كبير ، على التطوع المحلي ، فتعمل على استكمال وحداتها وتشكيلاتها العسكرية حيث ترابط، مؤثرة في ذلك ابناء الجنود وتفضيلهم على سواهم، بعد ان نُشّئوا على شيء من الانضباط العسكري ، وأرضعوا حب الحرب .

الوحدات الاضافية

الفرق الرومانية الصرف لم تكن لتؤلف سوى نصف الجيش ، اذ ان النصف الآخر كان يتألف من كراديس غير نظامية ، افرادها من غـــير الرعايا الرومان ، فيشكلون وحدات اضافية مساعدة تنضم الى الفرقة وتؤلف معها وحـــدة تخضع لقيادتها العامة مباشرة .

وكانت هذه الوحدات تضم ما بين ٥٠٠ و ١٠٠٠ جندي، مسلحين على الطريقة الرومانية ، وتنهج في الحرب النهج الحربي الروماني، تحت امرة ضباط يحملون الرعوية الرومانية . فالجناح كان يتألف دوماً من فرسان الخيــالة ، بينما كانت الكراديس تتألف من المشاة واحياناً من عناصر مختلفة . وكان كل كردوس يحمـــل اسم البلدة او المنطقة التي تشكل من رجالها . غير ان اضطرار هذه الكراديس للخدمة ، احياناً كثيرة ، بعيدة عن مناطق نشأتها وتكوينها ، جعلها تحمل فيما بعد ، اسماء المقاطعات التي كانت ترابط فيها . ومهما يكن ، فأفراد هـــذه الوحدات الاضافية هم من مستوى اجتماعي وحضاري أدنى من افراد الفرق الرومانيـــة الاصل . ولم يـتروْمنوا إلا بعد انتهاء خدمتهم العسكرية ، واذ ذاك فقط ، تسلم اليهم براءة رسمية يمنحون بموجبها حق الرعوية الرومانية .

وألحق بالجيش الروماني ، في القرن الثاني ، فرقـــة اضافية اخرى غير التي اتينا هنا على ذكرها ووصفها من الفرق المساعدة ، عرفت عندهم باسم *Numeri* ، هي على الغالب مـــن نوع القنّاصة تعمل الى جانب الوحدات الرومانية . لأفرادها أسلحتهم وعتادهم وطرقهم الحربية ، هي الطرق الجاري الاخذ بها في بلادهم . وهي على الغالب وحدات خفيفة السلاح ، سريعـــة التحرك والتنقل ، يعهد اليها بمهمات تقتضي السرعة والمفاجأة .

الجيوش

فاللجيون الرومانية وما اليها من قوى اضافية مساعدة تضاعف عددها ، كانت تؤلف الوحدة العسكرية التي تشبه الى حد بعيد ، فرق الجيوش الحديثة . كان عدد هذه الفرق، عند وفاة أوغسطس، ٢٥ فرقة، تغير قليلاً فيما بعد وفقاً لمقتضيات الظروف ، بين زيادة او نقصان ، او حُل بعضها احياناً ، في حالات التمرد والعصيان مثلاً . فاذا بهذا العدد يرتفع الى ٣٠ فرقة في عهد الامبراطور ترايانوس ثم يهبط الى ٢٨ في عهد هدريانوس. وقد شكل الامبراطور مـــارك اوريل فرقتين اخريين ، كما شكل الامبراطور سبتيموس ساويروس ثلاث فرق جديدة في عهده .

وكانت هذه الفرق توزع على مختلف المناطق والولايات وفقاً لمتطلبات الحاجـة العسكرية ، وضرورات الدفاع والمحافظة على الأمن. فاذا ما رأت الادارة تخفيض قواتها في ولاية ما،او نقل الحامية المرابطة فيها، أجرت هذا التدبير بتمهل كلي وبتحفظ، اذ كثيراً ما يكون استقرار الأمن في البلاد صورياً لا غير. ولعل اكثر جيش روماني استهدفت فرقه للتعديل والتبديل والتغيير هو الجيش المرابط على الرين ، وهي تغييرات استمر الاخذ بها طيلة قرن تقريباً . فبعد ان تألف في عهد اوغسطس من ثمـان فرق، انخفض عددها الى اربع عند وفاة هدريانوس ، بينما كان جيش الدانوب في هـذا الوقت بالذات ، يتألف من ثمان فرق ، وجيش آسيا من ٨ فرق ايضاً ، وقام ثلاث منها في بريطانيا ، بينما رابطت ثلاث في كل من اسبانيا وافريقيا ومصر .

هذه الجيوش ، في معظمها هي جيوش تغطية، وتوسعاً ، جيوش احتلال . فهي تغطي الولاية او المنطقة وترد عنها عوادي الطـامعين من الغزاة وتصون أمنهـا ، ليس عن طريق الحشد والتكتيب والتأليب ، وكلها امور لم يكن في مقدورها وحدها القيام بها، لولا وحدات اخرى اضافية مرابطة في البلاد . وعلاوة على هذا ، لم يكن هنالك من جيش احتياطي ، ولذا ، كان من العسير جداً ، ان يتحول الى جيش مناور ، متحرك محارب ، الا اذا مـا استنفر وحدات إضافية من جيوش اخرى قريبة او بعيدة ، او صير الى تقوية هذه الجيوش المرابطـة ، وذلك بدعوة المحاربين القدماء، ومثل هذا الاجراء لم يكونوا يرجعون اليه إلا عند خطر مداهم.وكانت الامبراطورية ، بالنسبة للوضع الذي يكتنف جيشها ، وطريقـة توزعه على البلاد، لا تستطيع الصمود على جبهة معينة إلا باضعاف حاميتها المرابطة في جبهة ثانية ، ولذا كان عليها ان تلزم

خطة دفاعية بحتة . فكل هجوم ، مهما كان مداه او طبيعته ، كان يعتبر امراً كمالياً لا يمكن لها مجابهته إلا ما ندر ، وعند ضغط خارجي يكوّن خطراً على البلاد . وهكذا نستطيع ان نفهم الآن التردد الذي كان عليه الامبراطرة في بعض الأحيان وانثناءهم فجأةً ، في بعض الآونة ، عن

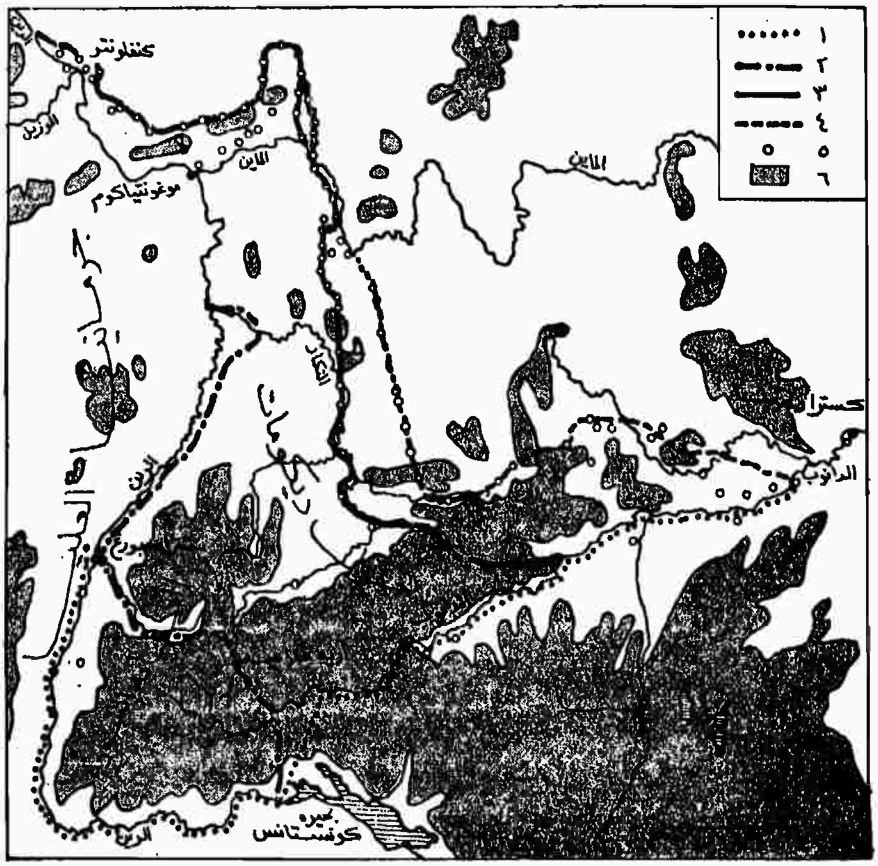

الشكل ٨ ـ الحدود بين الامبراطورية الرومانية وبين جرمانيا ومقاطعة ريتيا
١ ـ الحدود قبـــل الامبراطور فسبسيانوس ؛ ٢ ـ الحدود في عهد فسبسيانوس ؛ ٣ ـ الحدود في عهد الأسرة الانطونية ؛ ٤ ـ الحدود في آخر عهد الاسرة الانطونية ؛ ٥ ـ بعض الحصون والقلاع الدفاعية ؛ ٦ ـ المراكز الواقعة على اكثر من ٥٠٠ متر .

تجريدات وحملات عسكرية كانوا اخذوا بها وساروا فيها اشواطاً ، ثم مالوا عنها ، على غير توقع وانتظار ، لتكاليفها الباهظة . ولذا كانوا يفضلون القيـــام بحركات هجومية محدودة ، والفتوح التدريجية يجرونها على مراحل ، قد تمتد عشر سنوات وأكثر ، اذا ما اقتضى الامر . كذلك اعتبروا القيـــام معاً ، وفي آن واحد ، بالحرب على جبهتين ، وضعاً يتهدد البلاد بكارثة ، يجب تفاديه بأي ثمن .

فالجيش الامبراطوري قام ليتدبر وضع الامبراطورية العادي ، وليؤمن استمراره النظيم وسيره الرتيب ، لا ليعالج ازمات عارضة ، طارئة ، لا سيما ما كان لها صفة الشمول والاتساع . فهو لا يوحي في النفس ، ولا يدخل في الروع سوى طمأنينة زمنية ، آنية ، واهية . فاذا ما نعمت البلاد بشيء من هذا في القرن الثاني ، فبفضل الهدوء النسبي الذي سمحت لها بـه الشعوب المجاورة لهـا ، وليس بفضل تفوق الامبراطورية العسكري او الحربي . فاذا كان من الصعب على قادتها، او كانوا عاجزين عن ان يتصوروا الاخطار التي ستتعرض لها الامبراطورية في المستقبل الطالع ، فمـا فات أكثرهم فطنة وبصيرة ، ان يستشعروا ما هم عليه من وضع لا يوحي قط بالطمأنينة . فالحرص الذي تجلى عند الامبراطرة بالاقتصاد بقواتهم عن طريق اختصار الحدود وإزالة النواتىء ، او عن طريق إقامة الحصون والقلاع الدفاعية على طول خط هذه الحدود،هو الدليل بعينه على انهم لم يكونوا ليغفلوا او ليتجاهلوا، ما هو عليه الوضع من وهن كما ان في هذا ، البرهان على رغبتهم الصادقة في معالجة هذا الوضع وتدبر الامور بشكل يبعث الطمأنينة وتأنس له الخواطر .

الاشراف على الحدود وتنظيمها

ولكي تبقى الامبراطورية ولاياتها الواقعة على الحدود البرانيـة بمعزل عن هجمات البرابرة وتهديداتهم ، راحت تحـاول جهدها ، لتيسير المهمة الموكول الى الوحدات العسكرية تنفيذها ، وهي مهمة عسيرة ، شاقة تقوم بمراقبة الحدود والصمود في الدفاع عنهـا ، عند حدوث ما يهددها . وتحقيقاً لهذه الغـاية ، أخذت الامبراطورية ، في بادىء الأمر ، تقيم الحاميات ، على طول شواطىء الانهر الكبيرة ، القائمة على هذه الحدود او على مقربة منها ، كالفرات في جزء من مجراه ، والدانوب ، والرين ، ان تعذّر اقامتها امام نهر الإيلب . ولكن طمأنينة تقوم على الجيش وحده لم تكن لتكفي او ليقنع بهـا أحد. ولذا اخذت ، خلال القرن الثاني، تقيم لها او تستصلح، في نقاط عديدة ، خطاً من التخوم والحدود اصطلحوا على تسميته بـ « *Limes* » .

ولعل خير ما يرسم في خاطرنا صورة مثلى للمراكز الدفاعية التي يتألف منها هـذا الخط الحصين ، هو مخيم يحيط به خنـدق ، يليه منحدر يقوم دونه سياج ، ثم يأتي سور خارجي تتقاطعه ابراج للمراقبة ، وحصون تقوم وفقاً لمقتضيات طبيعة الارض ووضعهـا الطوبوغرافي ، او وفقاً لما يخططه لها المهندسون العسكريون . وخير مثال او صورة مثلى لهذه الحدود الحصينة هو هذا الجدار الحصين الذي قام في بريطانيا قديماً وعرف بجدار هدريانوس، فينطلق من نهر التاين *Tyne* ويمتد ليدخل بموقع صولواي فيرث *Solway Firth* . وامعاناً في منعة الخط ، اضيف اليه في القسم الشمالي منه ، جدار آخر عرف بجدار انطونين ، امتد من فيرث الى فورث حتى نهر الكلايد . ومثل هذا الخط الحصين قام كذلك بين نهري الرين والدانوب – وهو الخط المعروف بخط الحدود الجرمانية – هذا الخط الذي حرص امبراطرة الاسرة الفلافية (*Les Flaviens*) ،

عقب وفاة الامبراطور انطونين ، على تقوية دفاعه ومضاعفة مناعته . ودخل ضمن هـــذا الخط المنطقة المعروفة عندهم بحقول ديكومات *Champs Décumates* ، الممتدة ٥٠٠ كيلومتراً ، بينها ٨٠ كيلومتراً في خط مستقيم ، ثم يبتعد عن نهر الرين على مساواة مدينـــة « بون » ليعود فيدخل بالدانوب ، على ارتفاع مدينة راتسبون . وكأن بهذا الخط الذي شابه سور الصين فبعث الرهبة في النفوس ، شيئاً خارق الطبيعة .

وهنالك مثال آخر لهذه الحدود الحصينة ، انما على نسبة اقل ، من الضخامة والعظمة ، كان مع ذلك ، لا بد من ارادة جبارة وجهد طائل لاقامته وتشييده ، هو هـــذا الخط الذي يقوم الى الشرق من سوريا، في خط ينحدر جنوباً حتى القارة الافريقية مواجهاً الصحراء. ويتخلل هذا الخط : خنادق ومنحدرات وحصون وقلاع هي ادنى شأناً واهمية من التحصينات الواقعة على الخط الاول . ويستمد هذا الخط قوته ومناعته الاولى من سيطرته على موارد المياه والتحكم بها بواسطة شبكة محكمة من الاستحكامات وما فيها من حصون وقلاع، يتخللها عدد من الآبار التي تم حفرها واعدادها في المناطق المجدبـــة ، وشبكة جيدة للري وسقاية الأرض ، في منطقة تصلح للزراعة ، يتعاون فيها سكان المزارع والقرى مع افراد الجيش على استثمارها واستغلالها ، وعلى رد غزوات البدو عنها .

وعلى كلا الخطين ، اردف هذه الاعدادات العسكرية والتحصينات الحربية ، شبكة ممتازة من الطرقات الجيدة وما اليها من تفرعات وتشعبات ، تصل مراكز الدفـــاع والحصون بعضها ببعض ، كما تؤمن اتصالهـا بمؤخرة البلاد ، حيث تقوم عـــادة مخيمات الجيش الرئيسية ، اذ لا بد من تأمين وصول الامدادات العسكرية والمؤن اللازمـــة للمرابطين على الحدود والمدافعين عنها .

والبحث العلمي عن معالم هذه الحدود الحصينة لم يجر بعد بصورة دقيقة مرضية ، إلا في بعض الأماكن منها ، كالمانيا وبريطانيا . ثم جاء التصوير الطوبوغرافي من الجو يؤازر هـذه الكشوف العلمية ويصححها ويبرزها للنظر . ومهما كانت النتائج الأخيرة التي ستؤول اليهـــا الحفريات الأثرية عن معالم هذه الحدود الحصينة في مناطق اخرى، ومهما بلغ من دقتها في المستقبل الطالع، فلن تبطل او تخلخل النتائج الأكيدة التي توصل اليها العلم حتى الآن . فاننا وجدنا معـــالم بعض الحصون التي قامت في مراكز واماكن معزولة ، وفي قطاعـــات بعض الطرق القديمة ، امكننا ان نجزم ، بكل تأكيد ، اننا امام مخيمات لبعض وحدات الجيش الروماني . ففي كل تخم من تخوم الامبراطورية الرومانية ، تبرز بصورة واضحة جلية ، معالم هذا الجهد الطائل الذي بذله المهندسون العسكريون العاملون في خدمة روما وخدمة جيشها ، ليؤمنوا للامبراطورية جمعاء ، ومـــا اليها من ولايات دخلت تحت سيطرتها واشرافها ، اكثر مـــا ترغب فيه من الأمن والطمأنينة والسلام .

الحياة في مخيمات الجند

عرف الجندي الروماني ان يحافظ ، من الوجهة الحربية ، على ما اشتهر به من كفاءة ومقدرة عسكرية . فالجندي ابن مهنـة وان شئت ، فقل ابن سلك . فهو اختصاصي ، احترف مهنة الحرب . وبالرغم من انه روماني التبعة والرعوية بالتبني ، وروماني التبعـة لأمد يقصر او يطول ، فهو فخور بهـذا الشرف الذي أوتيه بانخراطه في الجيش ، وشرف موروث له وقعه في النفوس . تهتز نفسه وتطرب لبريق الأوسمة التي تزين صدره ، على قلة ما سخوا بها في القرن الاول ، ثم راحوا يبخلون في توزيعها ، في القرن الثـاني حتى بلغوا فيه حدود التقتير ، ناهيك عما كانت توفره للجندي من منافع مادية وادبية اخرى. فالراتب كان يزداد ويرتفع حتى في هذا العهد الذي استقر فيـه النقد ، كعهدي اوغسطس وفسبسيانوس،ولم ترتفعقيمته إلا في اواخر الدولة الانطونية *Les Antonins*. والجندي الروماني حسن العدة والعتاد والذخيرة ، تؤمنها له مصلحة التوريدات في الجيش ، وهو ينعم كذلك بالتسهيلات والمنافع التي تؤمنها له مصالح الجيش الفنية والهندسية . ولذا فهو يُقبل على الخدمة راضياً مرضياً . وقـد اتقن المهنة بعد ان تفقـه بأمورها واسرارها مدة طويلة ، يقبل بنشاط وحماسة على المناورات وينقطع اليها بكليته ، لا سيا في عهود بعض الامبراطرة ، كعهد الامبراطور هدريانوس مثلاً . فالامبراطور خبـير بأمور الجيش يكثر، من دورات التفتيش ويتشدد بأعمال المراقبـة ، كما يشهد بذلك الامر اليومي الذي اصدره في ناحية لمبيز (الجزائر) *Lumbèse* ووجهه الى جميع مفارز الفرقة الافريقية وما اليها من كراديس وأجنحة تعمل معاً في حروب المناوشات .

وهنالك مهام واعمال اخرى غير التي ذكرنا ، تملأ ايام الجندي في اوقات الخدمة ، كالتمارين التي يقوم بها ، وحراسة القلاع والحصون ، واعمال الدوريات بـين مخفر وآخر . ولكي يجنبوا الجندي اوقات الفراغ ، تفرض عليه القيادة القيام ببعض الاعمال التي لها اتصال بالمنفعة العامة ، كاصلاح مناطق الحدود وتهيئتها ، وشق الطرقات وتعبيدها ، وبنـاء الجسور والعبّارات ، وتشييد الاسوار حول مواقع الدفاع وتحصينها ، وبنـاء المساكن الخاصة بالادارة ، والمعابد والمسارح والحمامات ، والقناطر لإسالة المياه ، وإيصالها للمعسكرات ، وغير ذلك من الممرات . هنالك عدد من وحدات الجيش لها مقالع خاصة لاستخراج حجارة البنـاء ، ومعامل لصنع القرميد والطوب ، كما يوجـد ، تحت تصرفها ، الاحراج والغابات والمناجم ، حيث تعمل فرق مختلطة من الجيش والعمال تحت اشراف ضابطصف،واعمال التعمير والبناء وما تقتضيه من اعمال صيانة وحراسة ومحافظة، اعمال اتقنت الاخذ بها وحدات الجيش في العهد الجمهوري ، ورسخت اصولها ، وتوطدت اساليبها ، في العهد الامبراطوري ، مع قيام الجيش واستقرار نظمه ، وقيام معسكراته ومخيماته وحامياته بتعمير المقاطعات المتأخرة عن سواها في رقعـة الامبراطورية وتجهيزها بالانشاءات اللازمة . غير ان الرغبة في التوفير والاقتصاد ، من جهة ، والحاجة الملحة للملاكات الفنية والتقنية في المقاطعات النائية عن مراكز الحضارة ، كل ذلك حمل الجيش ، مـن

جهة اخرى ، على النهوض بمشاريع عمرانية لها ادارتها ودوائرها الخاصة ضمن الجيش .

ولكن هـذا الوضع بالذات لم يكن ليخلو من محاذير تلحق بالجندي فتترك اثرها في قدرته الحربية وكفاءته العسكرية . فالأخذ بأسباب المدنية والسير قدماً في معارج التطور ، كان لا بد من ان يترك اثره بارزاً في نفس الجندي ، مهما بلغ من حرص الامبراطرة للحد من فعل هذا التطور . فبين الانشاءات التي اقامها الجيش في معسكراته ومخياته لتأمين راحة الجندي والترفيه عنه ، والتي تتوفر فيها، على اقدار وانصبة مختلفة اسباب الطمأنينة ، أين يقع منها النافع اللازم، وأين يبتدىء الكمالي الزائد ؟ ولذا راح بعض الغيُر من المتشددين على الاخلاق يتهمون هـذه الانشاءات بتمييع وتخنيث من يجب ان يتحلوا بالقوة والشدة والبأس لمواجهة شظف العيش ، وقسوة الحيـاة العسكرية ، وإحن الحروب ومشقاتهـا . وبعد ، فامتداد الخدمة العسكرية واستمرارها مدة طويلة ، أمر لم يكن ليخلو من المحاذير . فبعد ان كانت مدة الخدمـة ١٦سنة للجنود النظاميين ، و ٢٠ سنة للعاملين في الفرق الاضافيـة الأخرى ، و ٢٥ سنة لجند القناصة وغيرهم مـن افراد القوات السيارة ، نرى هـذه المدة تخفّض ٤ سنوات ، في عهد اوغسطس وتخفض لفترات أقصر ايضاً ، في عهد طيباريوس . وكثيراً ما كانت مدة الخدمة العسكرية الفعلية تمتد وتطول اكثر من ذلك بكثير ، إذ ان التسريح من الجيش والصرف من الخدمة ، لا يتمان إلا بأمر رسمي ، قد يتأخر صدوره سنة وربما سنتين . وقد يمضي بعضهم في الخدمة ٣٠سنة وربما اكثر من هذا ، عند تجديدهم لمدة تطوعهم في خدمة العَـلم . ويروي أحد المؤرخين حادثة جندي قضى في الخدمة العسكرية ٤٠ سنة . ومردّ ذلك ، على ما نعتقد ، للصعوبات المالية التي كان يتخبط فيها بيت المال ، فيعجز عن مواجهة ما يترتب عليه من التزامـات نقدية وعَيْنيّة لمن يجري تسريحهم من الجيش . ثم ، فالنظـام العسكري الذي كان ساري المفعول ، إذ ذاك ، كان يحظر على الجندي ، عقد زواج شرعي ، كما ان إقامة هذا الجندي مدة طويلة في المعسكر أو المخيم كان مشجعاً له على التسرّي الخفي . وقد انتشرت العادة وعم استعمالها بعد ان قـام على مقربة من انشاءات الجيش ومخياته ، مبانٍ مدنية عمّرها المتّجرون مع الجيش والمتعاملون معه ، ومعظمهم من اوساط مشبوهة ، دخل عليهم فيما بعد ، وحلّ بينهم عناصر أقـل شبهة . وعلى كرّ الايام ومر السنين ، زادت هذه الانشاءات المدنيـة الى ان أصبحت مدناً وحواضر ذات شأن . من ذلك مثلاً ، مدينة ستراسبورغ ، ومايانس وبون، وهي مدن نشأت على مقربة من معسكرات الفرق الرومانية الثلاث التي كانت ترابط على خط الرين . وهكذا لم تلبث ان تجـد اسرة الجندي ، وهي قريبة من ربها ومعيلها ، التسهيلات المادية اللازمة لها . وتغضّ القيادة النظر عن المخالفة في بادىء الأمر ، ثم لا تعتم أن تعترف بالأمر الواقـع وتقره ، لما يوفره لها من منافع ولما يجنبها من مصاعب . وعلى هذه الصورة ، تم تحضير البلاد وتمدينها ، وأخذت الاقوام المتخلفة من سكانها بأسباب التمدين والتخلص تدريجيـاً من التأخر الذي كان عليه البرابرة ، فيروح الناس يعمرون الارض ويزرعونها ، فيسهل بالتالي ، على ادارة الجيش ،

توفير المهات والمؤن اللازمة له ، كما ان حركة الاسكان تسهل لها امر المتطوعة ، مادة الجيش وذخره ، اذ يجدونهم على مقربة من المعسكرات . ولا يمضي كبير وقت حتى ينضم الى هذه المجتمعات البشرية ، المحاربون الذين يسرحون من الجيش بعد انتهاء خدمتهم او انتهاء الحرب ، فتُقطعهم الدولة من املاكها الاميرية اراضي ينصرفون لإحيائها واستثمارها . وهكذا يتألف منهم ومن ذراريهم رديف يستعين به الجيش عند الملمات ، لقربه من مراكز الدفاع اولاً ، ولسهولة الاعتماد عليه والاستعانة به ثانياً . ولكن كل معالم هذا التطور الذي يأخذ الجندي الروماني بأسبابه لا يلبث ان يترك اثره الظاهر في كفاءة هذا الجندي ، وخلخلة مؤهلاته من الوجهتين العسكرية والحربية .

على ضوء الموازنة

وهكذا لا تعتم مناطق الحدود ان تتحول الى عالم خاص قائم بذاته ، عليه ان يؤلف وحدة بل ينصهر في هذا العالم الروماني الذي أُنيط به الدفاع عنه والسهر على أمنه وسلامته، بعد ان أمّن له هذا العالم الموارد اللازمة لأوده وعيشه . فاذا ما استمر يتلقى من روما : حكامه وولاته ، ونظامه والأوامر التي عليه ان يتقيد بها ، فالجانب الأكبر من رجاله ومن توريداته ، يَرِدُ عليه من المؤخرة ، التي تتقلص رقعتها رويداً وتنكمش . وهذا الجيش الذي يرابط عند الخط الدائري للامبراطورية ، لا يلبث ان يتطبع بطابع السكان العائشين على مقربة منه ويتخلق باخلاقهم ، وهو طابع يتبدى ، ليس في ما يقوم من فوارق بين الجندي المحترف والمدني المعمر فحسب، بل ايضاً في ما هو أدهى من هذا بكثير ، في هذا الجهل او نصف الجهل الذي يباعد بين المؤخرة ، اي داخل البلاد ، وبين منطقة الحدود . وعندما تنقل الأزمات الحادة الطارئة الحرب الى داخل البلاد ، الى المؤخرة ، سواءاً ا كانت حرباً اهلية او غزواً خارجياً ، يشعر السكان بصدمة عنيفة ، وبشيء من الهلع عناما تتبدى لهم حقيقة الجيش الروماني وواقعه .

ومع ذلك فمنطقة الحدود تلعب اكثر من دور بارز. فهي تقوم ، بدء ذي بدء ، بدور الدرع الواقي والترس الدافع . فقد رأينا المتاعب التي عانت منها ادارة الجيش في وضع خططها الستراتيجية وتنفيذها . ومن جهة اخرى ، فمشاهد الحياة العسكرية التي يحدثنا عنها المؤرخون في ما بعد ، تزيد هي الاخرى ، من حدة هذه المتاعب والصعوبات في وجه الجيش وتضطره للمرابطة على الحدود للاقتباس ، في حياته اليومية العادية مما يراه او ينتصب امامه في بيئته المادية والبشرية ، فتضعف منه القوة على الحركة والخفة في التنقل. وعندما يحوّل البرابرة الغزاة بضغطهم المتزايد ، طبيعة القتال ، من حرب حركات والتفاف الى حرب دفاع عن المواقع العسكرية، يذهب ضغطهم هذا بكبل العراقيل ويجبر الامبراطورية على ادخال تعديلات اساسية على النظم المتبعة لديها في تعبئة جيشها وتنظيمه . غير ان الحاجة لهذه التغييرات لم تكن استبدت بعد ، في القرن الثاني ، ولا يزال في مقدور القوات ، بالشكل الذي ارتضته لها روما ،

ان تقوم بالدور المترتب عليها . والعالم الذي يخضع للسيطرة الرومانية ، يستطيع ان يستمتع بطمأنينة وامن لا مثيل لهما على الاطلاق ولا كفاء، من الوجهة المادية والادبية . ففي اي قطر أو صقع من الاقطار والاصقاع الخاضعة لهذه السيطرة قد تحدث بعض الأمور: كثورة عسكرية او انتفاضة محلية يقوم بها سكان هذه او تلك من المقاطعات ، او غزوة من قبل البرابرة الغزاة ، او منافسة بين الزعماء الذين يطمحون الى السلطة العليا . الا انها تبقى احداثاً محلية ، فردية استثنائية ، لا غير .

ولكن هذا « السلام الروماني » لم يحمل الى المدنية الرومانية في عهد الامبراطورية الاول ، الخير العميم فحسب ، القائم في تجنيبه البلاد ويلات الحروب ، بل ايضاً ساعد كثيراً على تطويرها من حيث المفهوم العام والمناهج المرسومة لسيرها . وبذلك تسبب في بقاء ما نرى من معالم النظام الاجتماعي ليتلاءم وحاجات الطبقات الهائئة وليزيد من سحر واغراء بعض المنافع والخدمات التي من شأنها اجتذاب الناس نحو المثل الرومانية ، ويساعد على الأخص في جعل التطورات التي تمر بها تؤول لتحسين مناطق الحدود فتبعث فيها الحركة والنشاط عن طريق تشجيع الانتاج ، وتنشيط مرافق التجارة فيها ، وبناء الطرق والمدن ، وتثبيت السكان في المدن والارياف ، ومد الجيش بالعناصر البشرية المخشوشنة الطباع والمعروفة بروح المغامرة والتي يمكن ان تتحول الى عناصر شغب وقلق وإزعاج. فاذا بهذه العناصر التي خضعت للانضباط الروماني، وتأثرت به ، وعاشت في ظله ، وتخلقت بالتالي بالاخلاق الرومانية ، وتطبعت بطباع الرومان ، واخذت أعرافهم ، وتبنّت لغتهم ولسانهم ، تباهي وتفخر بما تم لها من صيرورة ومصير ، وبما عادت عليها خدمتها الطويلة في الجيش ، من وضع جعلها على قدم المساواة مع الرومان انفسهم .

فالجيش الروماني بالمفهوم الذي عرضنا له ، وبالعمل الذي حققه في القرنين الاول والثاني للميلاد، هو اداة طيّعة، فعالة لروْمنة وليْتنة هذا القسم الواقع على اطراف العالم الروماني.

الفصل الثاني

الدولة بين النظر والواقع

الثورة السياسية وطابعها النهائي

في مساء ذلك اليوم من عام ٤٢ ق . م ، الذي فيه انتحر قتلة يوليوس قيصر بعد الهزائم الشنعاء المتتالية التي لحقت بهم ، كان النظام الجمهوري في روما يلفظ أنفاسه الاخيرة. فالإصطدام الذي وقع في اكتيوم بين اوكتافيوس وبين خصميه انطونيوس وكليوباترا ، كان لا بد ان يؤدي الى ظهور سيّد على روما والعالم الروماني ، اذ لم يكن من المعقول قط ان ينسحب المنتصر ويتوارى متخلياً عما تم له من الامر ، بعد ان قضى على القوى المتمردة ، وعرف كيف يستميل ولاء ما تبقى من جيش منافسه . فالتجرد البشري له حدوده مهما بلغ من بذل الذات . قد يكون اوكتافيوس تلبّس بمظهر الزهد في الحكم ، ورغب عن السلطة فراح يضع ، بعد ثلاث سنوات من موقعة اكتيوم الفاصلة ، خلال الجلسة التي عقدتها ندوة الشيوخ في ١٣ كانون الثاني عام ٢٧ ق . م ، مقاليد السلطة بين يدي « مجلس شيوخ الشعب الروماني » بعد ان آلت كلها الى جماع قبضته . إلا انه عرف كذلك كيف يستجيب ، في اليوم ذاته ، للالتماسات والتوسلات التي انهالت عليه من كل فج وصوب وينزل عند رجاء ورغبات الضارعين اليه بألاّ يتخلى عن الحكم ، بل يرضى منه ببعض الامر . كذلك لم يكن بُدٌّ له ، من الانصياع لقبول لقب : « اوغسطس » هذا الإصطلاح الذي تشدّه الى كلمة « سلطة » *Auctoritas* ، أكثرُ من آصرة اشتقاق وجذر، بحيث راح خلفاؤه من بعده، يحملون هذا اللقب الشهرة الذي اصبح رمزاً للسلطة التي تسلموها ونهضوا بأعبائها .

وهكذا فالمظاهر التي تشددوا باحترامها تبدّت مظاهر جمهورية ، وتلبست بالشرعية لينطلي بها الامر على المغفّلين الاغرار السُذّج ، بعد ان اخذ النظام الجديد كل سمات وخصائص الملكية وشاراتها المعلَنة . وقد اخذت سلطات اوغسطس الامبراطور تتسع وتشتد ، وهو بعد في قيد الحياة ، بعد ان رأى ان الظروف العارضة تسمح له بالكشف عن ورقته ، او ان حادث تسلم السلطة جعل من المحتم عليه ان يقبض على الادارة بيد من حديد .

فقد فعَل الدهر فعْلته . كان لاوغسطس ، عند انتصاره في معركة اكتيوم ، ٣٢ سنة من العمر ، ومات سنة ١٤ للميلاد ، قبل بضعة اسابيع من بلوغه السابعة والسبعين . وهذه الحياة المديدة النادرة يُقضي معظمها في الحكم وعلى رأس الادارة ، ساعدت النظام الجديد الذي أسسه، على التوطد والرسوخ ، ومكّنت له الاسباب المستحكِمة ، من الإعراق . قد يكون بعض

خلفائه من بعده، قام هو الآخر بمثل هذه المسرحية التي اجاد تمثيلها في ٢٧ ك٢ (يناير). وقد يكون قام في عهده او بعده، دسائس وفتن رافقتها محاولات قتل كالفتنة التي وضعت حداً لسخافات كاليغولا ومهاتراته، والتي رمى أصحابها منها الى العودة بالحكم الى النظام الجمهوري. فقد ظل في الامبراطورية أناس غاظهم قيام العهد الجديد، كما بقي في روما خصوم له ألدّاء، راحوا يترصدون الفرص المسعِفة، والظروف المؤاتيـة. أفلَم يضطر اوغسطس نفسه لخنق بعض المؤامرات في المهد! ولكن أنـّى لكل هذه الألاعيب وما اليها من مكايد ودس ان تطرح على بساط البحث، ما تم من هذه المآتي الغرّ، والانجازات السياسية التي أتاها على مثل هذا النحو من العظمة، وعلى مثل هذا القدر من المجد المؤثـّل، لم تلبث ان استحالت حيالها المقاومة، اسفاً شديداً واعجاباً، كالثناء العاطر لمآتٍ ألهبت الخيال ونالت تقديس الاجيال. فقد قام ابداً، على رأس السلطة «اوّل»، لم تبرز ملامحه وتتضح قسماتـه الا بقدر ما اراده طبع هذا «الاول»، وليس القوى المندفعة في خصومته. وعندما قام، لفترة قصيرة، على السلطة، في عهد مارك اوريل، صاحبان ينتسبانها، لم تمسّ ازدواجيةُ الشخصية، مبدأ الأولية، حتى في أحلك عهود الامبراطورية ظلمة، يوم راحت تتخبط في فوضى ماحقة. وهكذا وجّه اوغسطس الحياة السياسية في روما التوجيه الغنـّائي الفصل، وراح التطور الذي اخذت سياسة الدولة بأسبابه يُبرز قسمات هـذا النظام الملكي مع اكتماله.

١ - الامبراطور

قام على رأس النظام الجديد اوّلٌ او مقدّم *Princeps*، وهو اصطلاح ارادوا به التعبير عن صاحب السلطان الحقيقي، مع ان ليس في صيغة هذه اللفظة واشتقاقها شيء خاص ينم عن هذا او يشير اليه، بل كان للكلمة، على عكس ذلك تماماً، صلة استعمال في النظام الجمهوري. فقـد عرف منذ عهد بعيد، بين نظم الجمهورية ومراتبها، وظيفة معينة يُعرف صاحبها بـ «امير مجلس الشيوخ» كانت ميزته الوحيدة، المبادرة، قبل غيره من اعضاء مجلس الشيوخ، الى ابداء الرأي في امر مطروح على النقاش. وعندما يتنزّى شق القلم عند شيشرون بهذا التعبير، وهو تعبير كثيراً مـا ورد على لسانه، فكلمة *Princeps* عنده، انما تدل على الاولية الادبية في التوجيه المؤثر. فاذا ما ازدادت هـذه الأولية شأناً لصالح الامبراطور، فلم يكن هذا سبباً او علة، بل جاء نتيجة او معلولاً، للسلطات والصلاحيات التي تمتع بممارستها.

١ - الحـكم

الامبراطور هو القائد الاعلى للجيش

اولى هذه السلطات واخطرها شأناً وأبرزهـا أثراً هي بالطبع السلطة العسكرية، التي آلت اليه قانوناً وشرعاً، ومارسها فعلاً وعملاً. فهي أس او أصل السلطة التي يمنحها الشعب، او بالاحرى، التي تُمنح باسم الشعب، في بدء كل عهد من عهود السلطة، ولمدة السلطة ومدى عهدها. وهذه السلطة (*Imperium*)

توصف رسمياً *Proconsulare Majus* اي السلطة البروقنصلية العظمى . وهـذا النعت *Proconsulaire* يولي حامله او صاحبه ، السلطة العليا التي يتمتع بها صاحب الولاية او حاكمها ، ويمارس بحكم منصبه هذا ، جميع السلطات والصلاحيـات التي تمارسها روما نفسها . اما الصفة المشبهة « العظمى » او الكبرى فلكي يشدد على ان السلطة الممنوحة تبلغ اعلى درجة وأعظمها ، وتعلو فوق سلطة اي حاكم او قنصل آخر ، مهما بلغ من شأنه .

جاءت الامبراطورية الى الوجود ، واطلت على العالم الروماني ، نتيجة الإختبار والتجربة وليس نتيجة التجريد والنظر الفلسفيين ؛ استدعى وجودها وطلوعهـا ، الرغبةُ الصادقة في قطع الطريق على الحروب الاهلية ، وما تجره في ثناياهـا ومطاويها : من شرور وويلات وأهوال ، والرغبة ، من جهة اخرى ، في توفير الطمأنينة والأمن في الداخل والخارج ، للعالم الروماني عن طريق الاحتفاظ بجيوش رومانية جرارة ، كما يشهد على ذلك ، إنتصار اوغسطس في اكتيوم ، والحوادث الدامية التي وقعت عام ٦٨ – ٦٩ بعد الميـلاد ، واسفرت عن تغلب فسبسيانوس وتفوقه على خصومه ومنافسيه . فكأن الحل الذي تم على هذا الشكل ، جيء به لاقرار وضع قائم ُوجدت فيه البلاد ، بعد انتهاء هذه الازمات ، ولتكريس ديمومته ، والإبقـاء على زعيم وحيد اوحد ، على رأس الجيش الروماني ، مهما نأت معسكراته ، وتباعدت مخيماته وحامياته عن العاصمة روما. فبتسليم السلطة اليه وبالقـاء مقاليد الحكم بين يديه ، تأمنت له اسباب السؤدد والسيادة وسلس له الأمر ولان ، بعد ان يكون صاحب هذا الأمر : إما انه لا يستطيع ، وإما انه لا يرغب في تولي قيادة الجيش . اما كل هؤلاء الذين يمارسون جانباً من قيادة الجيش فيوصفون بكونهم : *Praefectus* ، اي والي او متولٍ . وكثيراً ما اطلقوا عليهم وصف *Legatus* اي مندوب او معتمد . امـا الاول من هذه الالقاب ، فكان يحتفظ به ، وفقـاً لاعرق التقاليد الرومانية ، لمن يتولى ولايته من الحاكم العام ، وليس من الشعب الروماني نفسه مباشرة . واللقب الثـاني أبين مدلولاً ، واوضح معنى اذ يراد به او يقصد منه : التفويض والاعتماد . فالوالي والمعتمد يستمدان سلطتهما من مشيئة الإمبراطور وارادته المعبر عنهـا بقرار او مرسوم . ولذا فهو يسحبها منهما ، متى شاء وكيفما شاء . وكلاهما مسؤول امامه عن امور الوظيفة التي يقومان بمهامها ، يؤديان له عنها حساباً ، ويأتمران بأمره وحده دون سواه . هنالك استثناء واحد لا غير على هذه القاعدة العامة الاساسية بدر في مطلع العهد الامبراطوري . وهـذا الخروج على القاعدة المذكورة يتمثل في منصب افريقيا المشيخي ، وتحت امرة صاحب هذا المنصب فرقـة رومانية . وهذا الاستثناء الوحيد الذي جرى إلغـاؤه في عهد كاليغولا ، وانقطع الاخذ به ، واصبح بالتالي ، آمرُ الفرقـة المذكورة ، خاضعاً رأساً للسيد الاول *Princeps* وتابعـاً له ، بينما حاكم المقاطعة العسكرية يصبح ، بعد انقطاعه عن الولاية المشيخية القديمة ، حاكم ولاية لوميديا الامبراطورية .

فمن نتائج حصر ملء القيادة العليا بصاحب السلطان الاول (الامبراطور) ، أن ُينسب

اليه كل فضل او خير ، او نفع او كسب ، مادياً كان او سياسياً ، يؤمنه للامبراطورية ، فوز عسكري ونصر حربي ، يؤتاه قائد من قواد الجيش، حتى في حال بقاء قيادة (*Ductus*) العمليات الحربية الفعلية في ايدي القواد ؛ اذ من المفروض ان يكون الفضل في هـذا النصر للامبراطور نفسه ، لانه هو وحده ، له الحق بترؤس حفلات زجر الطير واستطلاع الطلع ، واستخراج الفأل ، والقيام بالمراسم الطقسية التي تسبق المعركة وتهيء لخوضها . فهو الذي يوحي ، مبدئياً ونظرياً ، البت بالأمور ، والجزم في المعضلات ، لانه هو وحده ، مهبط الوحي والالهام الالهي ، وحامل بركة الآلهة وموضع مسرتها ورضاها . فهو وحده ، ابداً ، ابو النصر ، وسبب كل ظفر . فكل نصر يؤتاه ، وكل ظفر يناله ، فرصة مناسبة « للهتـاف » باسم صاحب الأمر « الامبراطور » . وعلاوة على هـذا ، فهو وحده صاحب الحق الاول بترؤس الاحتفالات التقليدية التي تفتتح حفلات الإبتهاج بالنصر ، وهي عادة لم يسجل التاريخ الروماني المديد ، غير عشرة استثناءات لها لا غير ، وقعت كلها في مطلع عهد الامبراطورية ، يقوم فيها احد اعضاء الاسرة المالكة بترؤس هذه الاحتفالات . اما بعد طيباريوس رأساً ، فالقـادة الذين استحقوا شكر الدولة والوطن ، وكانوا في حظوة من البلاط ، لم يكن ليترك لهم سوى « الطواف » او الفخر الاصغر ، « بالملابس المظفرة » دون ان يرتفعوا الى درجة الابطال الأول في مثل هـذه الحفلات الفخمة . وهذا ما يفسر لنا هذه الارقام التي يباهي اوغسطس بسردها في مذكراته : « امور الحكم » عندما يفخر علانية، وعلى رؤوس الاشهاد: « وقع علي الاختيار » للطواف مرة، ولزياح النصر ثلاث مرات، وأُعطيتُ لقب امبراطور ٢١ مرة ... للانتصارات التي سجلتها في البحر والبر ، انا شخصياً او بواسطة وكلائي ومعتمديّ" وأمر مجلس الشيوخ قيام صلوات شكر عامة للآلهة ، إقراراً برعايتها ، وعرفاناً بجميلها ٥٥ مرة . وهكذا بلغ عدد الأيام التي عيّد فيها الشعب مبتهجاً ، بناءً على اوامر مجلس الشيوخ ٨٩٠ يوماً » .

وهذه الفكرة بعينها يعبّرون عنها ، بصورة مادية او رمزية ، في سلسلة متصلة الحلقات من الوقائع والاحداث. فالإمبراطور وحـده يلبس الباليوم (*Paludamentum*) او الرداء الارجواني الخاص بقائد الجيش الاعلى ، إلا انه يجانب لبسه وهو في روما او ايطاليا ، وذلك ، ليس تكرماً منه ، بل خشية من ان يمس مشاعر المواطنين وإحساساتهم . فهو قائد حرب في الصميم ، وقائد دائم ، اينما وُجـد ، على عكس القواد في العهد القديم ، اذ كانت صلاحياتهم العسكرية محدودة ، تقتصر فقط على زمان ومكان معينين ، فما ان تنتهي مهمتهم حتى يلفهم النسيان في المناطق التي تولوا امر القيادة فيها تحت امرة حاكم مدني . ومن حقه، وهو في روما ، ان تسير في ركابـه مفرزة خاصة من الجيش الى جانب الحرس الذي يقوم دوماً بحراسته . فالجيوش تنادي باسمه امبراطوراً ، وتؤدي له القسَم المقدس ، قسم الولاء والطاعة ، وبدون موافقة هذه الجيوش وهتافاتها والمناداة باسمه ، فلن يصبح امبراطوراً . فهو الذي يقبل المتطوعة في الجيش ، ويتولى عملية تسريح من يجب تسريحهم من الخدمة العسكرية. وبيت المـال الذي

يترتب عليه دفع التعويضات العائدة للمسرّحين، لا يتحرك بدون اشارة منه او كلمة يقولها هو. فهو الذي يهب الاوسمة الحربية لمستحقيها، ويُعيّن الضباط، ويقر الترفيعات لذويها. فإليه وحده، يعود تقرير تشكيل الجيوش، وتعبئتها، وبقاؤها ونشاطها.

وهكذا، فالقائد العام هو السيد غير المنازع للقوات العسكرية. وله الرأي الأخير والكلمة الفصل، في كل امر ومشكلة، مهما كان طرفها الآخر. فعلى أثر الحوادث الدامية التي سببت مقتل كاليغولا، دون فائدة تذكر، والأزمة التي أنشبت اظافرها في البلاد، عام ٦٨ — ٦٩ للميلاد، لم يبق احد ليخدع نفسه. فالسر الحقيقي لهذه السلطة، كما يراه المؤرخ الروماني تاسيت *Tacite*، يكمن في تفاني الجنود والملاكات التي تنتظم عقدهم، لمن نادوا باسمه امبراطوراً.

سلطاته المدنية

وهذه السلطات والصلاحيات العسكرية التي تمت له وتمتع بها، لا يمكن فصمها او عزلها او تجريدها قط عن الصلاحيات والسلطات المدنية الواسعة، حسبما يدل عليه مدلول كلمة *Imperium* القديم الاستعمال. وهذا المعنى نفسه بدا مع ذلك، غير واف بتأدية المراد، واقتضى، بالتالي، تضمينه عدداً من السلطات والصلاحيات الخاصة جرى استنباطها من لا شيء، او جُردت اعتباطاً من بعض الوظائف والمراتب التي لم يمكن ان يستقيم لها كيان او قوام بدونها. وأُلبست الامبراطور عن طريق العرف وإطلاق العادة، او عن طريق قرارات قانونية سوّغت استعمالها، كالصلاحيات التي نصّت عليها مواد القانون الذي كرّس فسبسيانوس امبراطوراً، واولاه ما اولى، من سلطات وصلاحيات، وقد حفظ لنا التاريخ نصّ هذا القانون مكتوباً على احدى النقائش. وليس في وسعنا ان نستعرض هنا بالتفصيل والتبسيط الوافيين هذه السلطات، فلنقف عند بعضها هنيهة.

لما كان الامبراطور من طبقة الاشراف *Patriciens* مولداً، في عهد الاسرة «اليوليو-كلودية»، او شرعاً بقوة القانون، فيما بعد، فلا يمكنه، والحالة هذه، ان يصبح تريبوناً *Tribun* يتحدر من طبقة الكادحين او الطبقة الشعبية. وقد رؤي، مع ذلك، ان يُعطى هذا اللقب لاوغسطس ولخلفائه من بعده، فتتم له ولهم، بذلك، السلطات والصلاحيات الملازمة، شرعاً وعرفاً، لهذه الوظيفة *Tribunicia Potestas* التي تُولي صاحبها، جميع الحقوق التي تمتع بها الـ *Tribuns* في العهد الجمهوري. فالامبراطور على شاكلة التريبون، شخص مقدّس، مكرّس، لا يمكن مسّه. وعلى مثالهم، يستطيع ان يأمر بتوقيف أي كان وان يقاصص اياً من اعتدى عليه او هزىء به او سخر منه. وعلى شاكلتهم، له ملء السلطة والحق بأن «يشفع»، أي يعارض كل قرار او مشروع قرار، يتخذه مجلس الشيوخ او الحاكم. وعلى شاكلتهم، يستطيع ان يدعو للاجتماع، اعضاء مجلس الندوة، في الحال، وان يرأس اجتماعات مجالس الهيئات الحكومية، وان يتقدم اليها بما يرى من اقتراحات وتوصيات. فاذا صح النظر، وكانت هذه هي بالذات الامتيازات والصلاحيات التي نعم بها ومارسها تريبون الشعب، فهنالك مع ذلك فروق بعيدة

وتباين عميق ، بين ما تم للامبراطور منها وبين هؤلاء التريبون . فالسلطة التريبونية تُعطى لسنة واحدة ولذا اقتضى تجديدها وإقرارها سنة بعد سنة ، ولو بصورة شكلية . فالصلاحيات التي تخولها لصاحبها ، يُعمل بها وتبقى سارية المفعول ، على بعد ١٠٠٠ خطوة من روما . والى هذا فالتريبون الآخرون ، الذين يجالسهم ويصاحبهم، ويجلس معهم الى مقعد واحد، ليسوا طبعاً ، رصفاء له ولا زملاء . فليس في مكنتهم قط ، ولا لهم اجرأة ، ان يمارسوا ضده ، حق الرفض او الاعتراض . ولذا كانت السلطة التريبونية من هذه الدعائم الاساسية التي قامت عليها سلطة الامبراطور وصلاحياته الواسعة

ومع ان الامبراطور ليس من فئة التريبون ، فهو لا يتنزل ليمارس اية وظيفة من الوظائف الخاصة بحكدار البلدية. ومع ذلك فقد ألقى الامبراطور قبضته الشديدة على شرطة المدينة وعهد بها الى موظف ينعم برعايته، يستطيع هو، متى شاء، عزله وطرده . كذلك عهد الى احد خاصته، بمهمة تأمين وسائل الاعاشة لروما وسكانها ، وهي وظيفة أُلقِيت مقاليدها بين يديه . وحرص على ان يحتفظ بها ويؤمّن مهامّها بعد ان تم له من الامر والسيطرة المطلقة على مصر ، اخصب اهراء روما واغناها على الاطلاق . فنهض بأعباء مهمته هذه ، على احسن وجه، بعد ان استتب الامن في البلاد وتقلص خطر القراصنة في البحر .

وحرص الامبراطور على ألا يُهمل مبدئيا، او يسخر، او يُغفل او ينتقص من صلاحيات اية وظيفة من الوظائف العليا المعترف له بها شرعاً وقانوناً . وهمه جداً ان يقوم بها وفاقاً للتقاليد المرعية ، اي بالاستعانة بأحد الزملاء له في هذه الوظيفة . وكان باستطاعته ان يردد ما كان يردده اوغسطس حين يقول: «لم يكن لي من الصلاحيات أكثر مما لزملائي في الوظيفة الفلانية» . ولكن ما عسى ان يستطيعه زميل له ، وللامبراطور مثل هذه الصلاحيات ، ومثل هذه القوة والسطوة ؟

وتطل علينا ، من وقت لآخر ، في القرن الاول ، وظيفة *Censure* وصاحب هـذه الوظيفة (*Censor*) هو القيّم على النظام الاجتماعي في المدينة . وهي وظيفـة كانت دوماً من وظائف الرجل« الاول »في الدولة، إلا مرة واحدة جاءت ضد اوغسطس نفسه . وقد اتفق مرة ان قرر الامبراطور دومتيانوس الاحتفاظ بهذه الوظيفة ١٨ شهراً أي أطول من المدة المعينة لها قانوناً ، فأصدر قانوناً اصبح معه *Censor Perpetuus* ، أي «سنسور» الى الابد. ولم تلبث هذه الوظيفة ان تنوسي امرها ، فزالت الى الابد . وقد استطاع الامبراطرة ، بها او بدونها ، ان يراقبوا بعين يقظة ، النظام الاجتماعي والتسلسل الطبقي عن كثب، فرفعوا الى طبقة الفرسان *Chevalier* او الى مرتبة الشيوخ ، من شاؤوا من الناس ، دونما رقيب او حسيب وأنعموا برتبة *Patriciat* على من شاؤوا من افراد الاسر الرومانية .

اما وظيفة القنصلية ، فهم يتقلدونها كلما رغبوا فيها ، ومالوا اليهـا . ولذا نرى الامبراطرة

يعينون لها ، عدة مرات ، طيلة حكمهم ، ويقبضون عليهـا كلما تم لهم الامر . فالبعض منهم تولاها بصورة آلية في غرة كانون الثاني او(يناير). فالقنصليات التي هي من هذا النوع ، ملؤها الفخار ، لان السنة تُعرف اذ ذاك باسم القنصل. فمن اصل عشر سنوات ، فات فسبسيانوس منها اللقب مرتين ، وابنه تيطس ثلاث مرات . وعلى كل ، فلا نعرف احداً تولى هـذا المنصب في حياته ، اكثر مما تولاه الامبراطور اوغسطس .

ومهما يكن من شأن هذه الوظائف والرتب ، وضيعة كانت ام رفيعة ، ومن النفوذ الذي توليه صاحبها ، فسيان لدى الامبراطور اسقاطها واهمالها بالكلية او التمرس بصلاحياتها بصورة رسمية قانونية . فبفضل النصوص القانونية ، وبمـاله من قوة النفوذ ، فالامبرطور وحده يعين اصحاب هذه المراتب ، اما رأساً او يوصي بتعيينهم او يسمح لهم بتقديم ترشيحهم لها . فليس من امل قط ان تؤول احداها الى عدو له ، او شخص تحوم حوله الشكوك والظنون . وليس لاي من هذه الوظائف ، اي مدلول سياسي حقيقي ، فهي تتيح لحاملهـا او لصاحبها بالاكثر مناسبات الظهور امام الحاكم في الحفلات العامة وتلفت اليه النظر ، كما تتيح له ، في افضل الحالات واحسنها ، ان يكون موضوع تكريم ، مكافأة له على خدمة اتاها . وعلاوة على ذلك ، له الحق الكامل بانشاء وظائف شرفية ، تمكنه من تعديل سلم المراتب المعمول بها في ترفيعهم ، ويُقحمهم في طبقة حاملي عضوية مجلس الشيوخ وفي المرتبة التي يحلو له تعيينهم فيها .

هذه الامثلة ترينا ولا شك ، مدى الصلاحيات المدنية المضافة الى صلاحيـاته او السلطات العسكرية الأساسية التي يتمتع بها . في وسعنا ان نمضي قدماً في مثل هذا العرض ، ونجري مثل هذا التحليل على مجالات اخرى من مجالات الادارة العـامة في الامبراطورية ، ولا سيا في حقل السلطة التشريعية او السلطة القضائية ، فننتهي معها الى النتائج ذاتها . فالسلطة التي تمتع بهـا الامبراطور دوماً ، كانت سلطة مطلقة لا حد لها . فبعد ان كانت هـذه السلطة ، في بادىء الأمر ، ضمنية ، مستترة ، اذ بها تبرز وتتفتح بشكل اوضح ، في القرن الثاني . فعندما يكتب الفقيه الروماني اولبيانوس ، في مطلع القرن الثالث : « ان الشعب يولي الامبراطور جماع السلطة *Imperium* التي له ، كما يوليه كل سلطان *Auctoritas* » فهو انما يعترف ويؤكد النتائج التي آل اليها التطور الذي خضع له الحكم في العهد السابق .

السلطة *Auctoritas*

منذ البدء ، نرى اوغسطس يضيف شيئاً جديداً على جماع السلطات التي تمت له واستقرت في قبضة يده . فقـد رأينا عندما قرأنا العبارة التي وردت في : « امور الحكم » ، كيف انـه كان يدعي بأنه لم ينعم من السلطة ما جعله يتقدم به على رُصفائه ، في أي من « الوظائف والمناصب التي صارت اليه » . وقد قال بعكس ذلك تماماً في الفقرة السابقة لها ، كما يعترف ، هو نفسه ، عندما يقول: « فقد تَفوّقت في السلطة على الجميع » أي على جميع الموظفين . فليس في التصريحين المذكورين أي تناقض كما يبدو لأول وهلة ، لأن كلاً منهما يُنـاظر ناحية خاصة .

فالاصطلاح الاداري *Auctoritas* له مدلول فقهي ودستوري ، اذ ينظر الى صلاحيات الوظائف واختصاصات كل منها والتدابير الصادرة عنها . غير ان لهذا المصطلح اللاتيني من غموض المعنى وقلق المدلول ، ما لا نرى معه أي نص في القانوني الروماني يوضحه او يزيل منه ما يحِف به من إشكال: فهو يوحي معنى سلطة ادبية مشوبة بسلطة دينية. وهذه السلطة يستمدها اوغسطس من مجموع ما تم له من صلاحيات واختصاصات ، نالها شرعاً وقانوناً ، لا ندري انها توفرت لأحد غيره من قبل ، عرف كيف ينتسبها ويصيّرها اليه بعد ان تظاهر ، في بدء الامر، بالإعراض عنها والزهد فيها . وهذه السلطة أتته صاغرة بعد انفاضت خواطر الناس وأحاديثهم بالخدمات الجلى والمآتي العظام التي أداها للبلاد، كما أتته من إعجاب الشعب وتعلقه به وعرفانه لكبير جميله وتقديره السامي له . كل هذا جعل منه الرجل الاول – الامير (*Le Princeps*) ليس بين اعضاء مجلس الندوة فحسب ، بل ايضاً بين جميع المواطنين . وهكذا نرى اوغسطس يقطع بصورة جازمة ، ويفصّل بلا لبس ولا غموض ، ويحدد المضامين والمدلولات التي تمور تحت كلمة امبراطور ، وهي مفاهيم تتجاوز كثيراً ، كما سنتحقق ، فيما بعد ، الإطار الفقهي للكلمة . ومع ان خلفاءه من الامبراطرة لم يحظوا بشيء ، من هذا الماضي الثرّي الذي تم له ، فهم يستمسكون بهذه الكلمة ويشدون عليها بالنواجذ .

صاحب الجلالة في حمى القانون

وهذا الإبهام الشامل ، والغموض يغلّف كذلك ويلفّ « قانون الجلالة » الذي جرى تطبيقه ، منذ عهد اوغسطس ، لصالح الامبراطور ، كما نرى بعض الامبراطرة بعده، ولا سيا طيباريوس، يحرصون على تطبيقه بحذافيره. فنحن امام قانون مسنون قائم . ولذا لا بد لموضوع هذا القانون ، وهو افراغ «الشعب الروماني» في شخص الامبراطور،وتجسده فيه، ان يتم ، ولو شكلياً،بطريقة شرعية قانونية. فأمر تفويض السلطة الذي يجعل من الشخص الاول الممثل الحقيقي للشعب الروماني ، هو كنه هذه السلطة وجوهرها وصلبها . ومن ثم، فصلاحيات التريبون التي حملها وتمتع بها، كان لها هي الاخرى ولا شك ، اثرها العميق في جمام هذه السلطة ، اذ تجعل من الشخص الاول ، الممثل المكرّس ، المقدس ، للطبقة الكادحة *Plèbe* والوريث الادبي لوظيفة استخدمت في الماضي ما لها من صلاحيات واسعة ، للوقوف في وجه اعداء هذه الطبقة الكادحة المتقمصة في الشعب الروماني .

وهذا القانون الذي اورثته الجمهورية كان يعاقب بشدة وبلا رحمة ، كل من تجرأ على النيل من « جلالة » الشعب الروماني . وهذا المصطلح له من الطواعية والمرونة ما يجعل منه اداة رهيبة في يد الامبراطرة الذين تنتابهم وساوس الظنون والشكوك . فكل مخالفة او عبث لقسَم « اداه الامبراطور » والاخلال بواجب الاحترام ليس نحو شخصه فحسب ، بل ايضاً نحو تمثاله ، وابداء أي رأي معارض ينتقص من ارادة الامبراطور ومشيئته ، من قريب او بعيد ، كل ذلك اسباب كافية لملاحقة المتجنين قضائياً ، والحكم عليهم بالموت في اكثر الأحيان . ولذا تكاثر عدد السعاة والوشاة والعيون ، وراحوا يأخذون في غيرة آكلة ، الناس في الظنة ، ويرسلونهم امام

الحاكم ، طمعاً في حظوة صاحب السلطان ، او في المكافآت التي تعود عليهم بحسب القانون ، من مصادرة ثروات المتهمين .

وهكذا ، فالقانون الذي كان يراد به الحفاظ على « ذات الجلالة » والتسييج حوله، استحال، في بعض العهود ، سيفاً مصلتاً فوق الرؤوس ، يُنزل الرعب والهلع في الطبقة المشيخية ، حيث يقوم المعارضون ويعتصمون ، في القرن الاول ، اذ كان معظم من راحوا ضحية هذا القانون من اعضاء هذه الطبقة . ولما كان اعضاء الندوة يقومون هم انفسهم بالمحاكمات والنظر في قضايا ذات الجلالة ، فكم رأينا اعضاء هذه الهيئة ينحدرون الى ادنى دركات الجبن والخنوع في تنفيذ رغائب الامبراطور وتصفية من تحوم حولهم الشكوك ، الأمر الذي غذى الحقد والبغضاء في قلوب الناس ، ضد هذه الطبقة ، كما يشهد على ذلك ، أدب ذلك العصر . فاذا كان من المتعذر علينا ان نعرف اليوم الحقيقة كاملة حول اكثر من قضية من هذه القضايا ضد ذات الجلالة ، فالقانون المذكور كان ، ولا مراء في ذلك ، خير عدة واداة ، وخير مسعف لتأييد سيادة الامبراطور وسلطاته .

٢ ـ الرجل الذي أعدته العناية الالهية

الهالة الروحية التي تجلل الامبراطورية : تطورها ومنابعها

ولكن هذه الامبراطورية الملكية لا تقنع بجمع السلطة في قبضتها، ولا يكفيها ان يسير القانون صاغراً في خدمتها : فهي تدرك اكثر من سواها ، ما في هذا وذاك ، من وهن وضعف لما يتعرضان له من تقلب وتحول وتغير . فاذا كان فيها ما يرضي او يقنع ملكاً لا يقيم وزناً لنوازع الروح ، فالواقعية الجامدة ، تبدو جافة في نظر مواطنين تتطلع نفوسهم الى المثل الروحية ، بعد ان صقلتها الحضارة الهلينية . ولذا راحوا يحيطون الملكية بهالة من الرمزية الروحانية ، من الخير والمفيد لنا معاً أن نتعرف الى قسماتها البارزة . كذلك من اللائق ان نشير هنا بوضوح الى ما كان لهذه الهالة من وقع عميق وتأثير عملي . وبالطبع يجب الا يخامرنا الشك قط انها تطورت ،ودخل على الفكرة الاساسية ، مع الامبراطرة الذين تعاقبوا على الحكم ، والأجيال التي عاصرتهم، تغييرات اقتضتها موجبات الزمان والمكان . فكل نص قانوني ، وكل رمز من هذه الرموز التي احاقت بالامبراطور ، يؤلف حادثاً متميزاً عن غيره ، يتعذر على المؤرخ تقويمه وفقاً للمقاييس العلمية المعمول بها .

كان اوغسطس الرائد الاول في هذا المجال ، وأول من نسج على المنوال . فكل شيء حوله يبسط الأمور . من ذلك مثلاً ، الجميل الذي يرعاه له الجميع من دواني الامبراطورية الى اقاصيها ، عندما اعاد اليهم السلام والطمأنينة بعد ان اكتووا بلظى حروب اهلية ضروس لا تبقي ولا تذر ، ناؤوا بكلكلها وتضرسوا بويلاتها: وهذه الوحدة العميقة الجذور التي حققها فلمّت الشمث، وجبرت العظم المهيض ، وهذه الامبراطورية التي شيدها فبرهنت ولاياتها الشرقية ، خلال هذه

الحروب ، عما تجيش به من حيوية عارمة، مادية وأدبية على السواء . فالتجربة التي قام بها تباعاً، قيصر ثم انطونيوس بعده، اوضحت له الاخطار التي تكمن وراء نقل فلسفات الشرق ونظرياته الى روما ، نقلاً حرفياً مادياً . من المستحيل الا نظهر اعجابنا هنا ، كما اظهرناه من قبل امام مرأى البناء السياسي المشمخر الذي شيده ، بهذه الرويّة والفطنة والتحفظ يبديها في اقتباس بعض هذه المستوردات الأجنبية الصنع ، معرضاً عما جاء في غير اوانه ، مسقطاً منها ما لا يصلح للاستعمال في روما . كل هذه الحيطة حملت النـــاس على الشك في إخلاصه . فقد برهن عن كفـاءة ، ولربما عن تحيّل ايضاً ، وبكل تأكيد ، عن شعور حاد بالممكن الحدوث او الوقوع . ولكن ، مع هذا علينا الا نسقط من حسابنا ما كان عليه من روح تقوية ، صحيحة ، حملته احياناً على الاستسلام للخرافات والاوهام ، واثارت فيه التشكك كغيره من الناس .

ومهما يكن ، فقد ترك لنا ، لدى وفاته ، تراثاً ادبيـــاً له من وفرة الغنى ما نعجز معه عن الإحاطة به . وتم له من الألقـاب والرتب ما لم يتوفر مثله لاي من خلفائه . والقسم الاوفر من هذه التركة التي خلفها بعده ، لم يلبث ان ردها الناس الى فضل الوظيفة التي تمت له ، بمعزل عن الرجل . غير ان تطور هذه الهالة الرومـــانية التي جلببت الامبراطور ، تم وئيداً ، وبتمهل ، بخلاف التطور السريع الذي رافق السلطة السياسية . وقـــد راح بعض الامبراطرة : امثال كاليغولا ودومتيانوس وكومود يستعجلونها ، بينما سار فيها البعض الآخر الهوينا ، ان لم نقل القهقرى . وبمجمل القول ، ففي الحين الذي تبلغ فيه الاسرة الانطونية أوجها ، في القرن الثاني ، وتزداد فيه سلطة الامبراطور قوة وفعلية ، لم نلحظ قط ان هذه الهالة اتسعت وتضخمت عمـا كانت عليه في عهد اوغسطس. فعلينا ان ننتظر الحقبة التالية وبروز فعل المؤثرات الشرقية لنرى تغييراً ملحوظاً يطرأ على هذا الوضع .

ففي عهد اوغسطس نفسه ، كان تأثير العامل الهليني واقعاً متحيزاً لا داع لوجه الغرابة فيه . فمن بين البلدان المتمدينة الاكثر اتصالاً بروما ، هـــذا الشرق الذي عرف ضروباً من الملكية المنبثقة من انتفاضات عسكرية اخذت بتلابيبه منـذ فتوحات الاسكندر ، وخضعت لعوامل التطور والتكامل ، حتى بلغت تماماً ، اقله من الوجهة النظرية. وباستطاعة هـذا الشرق وحده ان يقدّم سوابق يمكن تطبيقها والنسج على منوالها بصورة فعلية ، بحيث ان كل ما أنتجته هذه السوابق من انجازات فنية ، وآثار فكرية ، ونظريات فلسفية ، عاد عليها بتأثير عظيم ، سواءاً أسقطت هذه الممالك تحت هجمات الجيوش الرومانية المتتالية ، ام انها راحت فريسة الفوضى ، فتداعت للخراب ، وزالت من الوجود ، دون ان ينتقص ذلك من سناء البنيان الفكري الذي شيدته . ومع ذلك ، فقد كان على النظام الملكي الذي اطلّ من جديد على روما ان يحسب حساباً لتقاليد روما ، هذه التقاليد التي في السير عليها والاخذ بها ، فخر له وحافز للمباهـاة . فمن الطبيعي ، والحالة هذه ، ألا يُهمل العناصر المستمدة من اعماق التقاليد الرومانية التي منهـا استقى سيلاّ من قبل ، وعنها اخذ قيصر من بعـــد ، ومنها اغترف اوغسطس وعنها صدر .

وكثيراً ما ظهر في آخر الامر، ان هذه العناصر المتباينة المنشأ والاصل، بين شرقي وبين روماني قومي محض ، التي كونت هذه الهالة ، قام بينها أكثر من شبه ومجانسة ساعدت على انصهارها معاً وذوبانها بعضاً ببعض في إلفة وانسجام .

وهكذا نرى انفسنا امام فلسفة متنوعة العناصر يحاول المؤرخون اليوم جاهدين، منذ أكثر من ثلاثين سنة ، تعيين وتحديد منشأ كل من هذه العناصر المقومة ، وتحديد قدر كل واحد منها، وكيفية تفاعلها بعضاً ببعض ، وأهمية الدور الذي لعبه كل واحد منها . وامام هـذا الضجيج المتصاعد من هذا الجدل العلمي المحتدم ، نرى، برة اخرى، ان من المستحيل ألا نقتصر إلا على بعض امثلة لا غير .

الامبراطور الحبر

بين هذه العناصر ، عنصر روماني الاصل، يعبر عن تقليد مكرّس ، يرى في الامبراطور : الحبر الاعظم او الكاهن الاعظم . فقـد حرص اوغسطس الحرص كله ، وهمه كثيراً ألا يُهمـل او ينتقص قط ، من قيمة هذه الوظيفة التي تلازمه مدى الحياة . فلم ينتزعه عنوة من صنوه ومنافسه ليبدس، بل لبث طويلاً ينتظر وفاته عام ١٢ ق.م، ليطالب بـه وينتسبه لنفسه . وحرص خلفاء اوغسطس من بعده ، على التمتع بهذه الرتبـة والوظيفة عند اعتلائهم أريكة العرش. فالحبرية العظمى تولي حاملها وصاحبها سلطات دينية غاية في الأهمية . وقد أعطى اوغسطس المثل في ممارسته لمهام هـذه الوظيفة بدقة واهتمام زائدين ، وهو مَثـل حرص خلفاؤه من بعده ، على احتذائه واقتفاء اثره .

والى هذا ، فالامبراطور عضو بارز في مجمع كبار الكهنة والاحبار ، بحيث يراقب عن كثب نشاطهم ويُهيمن على انتقائهم واصطفائهم وتعيينهم في مراكزهم. ومن بين هذه الرتب الكهنوتية، رتبة يباهي بالانتساب اليها والنهوض بأعبائها، كما يستدل جيداً من الانواط والميداليات التي تحمل صورته . وهذه الرتبة هي رتبـة العرّاف او العائف ، وذلك بالنظر للدور الذي يلعبه هؤلاء الكهان في الكشف عن الفأل واستطلاع الطالع . وقد رمزوا الى هـذه الرتبة بالعصا المعقوفة المعروفة عندهم باسم *Lituo* التي اصبحت ، فيما بعد ، من الشارات المميزة للامبراطورية .

وهكذا يبرز الامبراطور على رأس الحياة الدينية ويطل رئيساً لجميع الاحبار، ويصبح بالتالي، الوسيط بين الدولة والآلهة. فالواجبات والحقوق التي تخوله اياها رتبة الكهنوت ، تزيد كثيراً من شأن السلطات والصلاحيات التي يتولاها رأس الادارة و«الاول» في الدولة. فهو يرأس شخصياً أهم الاحتفالات الدينية ويضفي حضوره على أبسط الاعمال وأتفهها مهابة الطقوس الدينية ومراسمها. فهو المسؤول الاول عن بناء المعابد والهياكل ، وعن صيانتها وتأثيثها وحفظها . وموجز القول ، فالاسم الذي يحمله « اوغسطس » ، مشتق من أقدم المراسم الدينية واعرقها اصطلاحاً عندهم ، هي رتبـة العرافة *Augure* ، وهي رتبة تضفي عليه شيئاً من الجلال وتجلببه بهالة من التقوى والخشوع بما لهذه الكلمة في مفهومها الحديث من قوة المعنى ، بينما الكلمة اللاتينية *Pietas* لهـا

مدلول أعم واوسع . وبهذه الصفة يستمطر على الشعب الروماني عطف الآلهة ، ويستمد منها الرعاية والهداية . فالتعدي ، والحالة هذه ، على سلطته او مس شخصه ، هو التجني بالذات على الدين وعلى روح الانضباط الذي يمثله في المجتمع .

هالة النصر الامبراطوري

وهذه الآلهة التي تحرس الامبراطور وترعاه في حله وترحاله ، تظهر عطفها وحدبها عليه بما يُؤتاه، على يدها، من نصر مبين وتوفيق عظيم ، في جميع اعماله الحربية . فكل المظاهر الحربية التي تلازمه كقائد أعلى للجيش ، يجب ان تحمل عميقاً ، طابع الهالة الدينية . فالفازيلوس في بيزنطية ، مثله مثل الامبراطور في روما ، مدين بما يصيب من فوز مبين في ساحات الوغى ومن نصر في الحروب ، لفعل الآلهة وهديها . وهكذا تلتقي هنا ، مرة اخرى الايديولوجيا الملكية التي انطلقت من فتح الاسكندر ، بالنظريات الرومانية القديمة ، فيتمازجان وينصهران معاً . وهكذا نرى الايديولوجيا تؤيد الى حد بعيد هذه التقاليد وتقوّيها ، وإلا ، تعذر علينا ان ندرك كيف ان ، على شاكلة كلمة *Basileus* ، تصبح كلمة *Imperator* ، لدى قيصر اولاً، ومن ثمّ لدى اوغسطس ثم بسرعة، لجميع خلفائه ، اللقب الرسمي الذي يَردُ قبل كل الالقاب والرتب والكنى التي يحملها الامبراطور . وعلى هذا تصبح كلمةامبراطور مرادفاً لكلمة المظفّر او المنتصر، والمؤهّل من قبل الآلهة والمصطفى، بحيث راحوا يُضفون صفة الالوهية ، على نصر اوغسطس ، فيقولون: *Victoria Augusti* ، كما راحوا يرفعون هذا الرنم : النصر المجنح، على المباني الرسمية وأثبتوه على العملة والنقد. وفي عهد الاسرة «اليوليو كلودية»، كل شيء كان يدل على ان هذه الإلهة هي بالفعل، الإلهة ذاتها التي رعت مؤسس الاسرة ذاته ، أي اوغسطس المظفر، ومن ثم راح هذا المؤلّه ينتقل من امبراطور آخر ، مخلداً رسم اوغسطس الحي الدائم .

ثم تطور الامر بحيث راحوا يُفرّدون، أكثر فأكثر، هذه الإلهة. فاستنبطوا وتضرعوا وشكروا تارة *Victoria parthica*، وطوراً *Britannica*، وحيناً *Germanica* أي الإلهة التي بفضلها، تمت الغلبة على الفارثيين والبريطانيين والجرمانيين. ثم تطل علينا فكرة جديدة عُمل بها، بكل تحفظ وحيطة، منذ العهد الجمهوري، قامت بتسمية ابن الملك او ولي عهده، باسم العدو المغلوب على امره . واول حادثة نشاهدها من هذا النوع تعود الى عهد اوغسطس نفسه ، اذ لقب ربيبه دروسوس بلقب جرمانيكوس. ولم يمضِ كبير وقت حتى تركزت العادة في الامبراطور نفسه . وتفادياً للادمان الناجم عن العادة المتكررة، تتكاثر الالقاب والكنى وتضاف اليها نعوت وأوصاف تزيدها قوة ومعنى. فالامبراطور مارك اوريل لا يلبث ان يلقب بـ :صاحب الارمن او صاحب الفارثيين العظيم، بينما الامبراطور ترايانوس لم يلقب إلا *Parthicus* لا غير ، كما عُرف ايضاً بـ : صاحب الماديين ، وصاحب الجرمان ، وصاحب السرماتيين . وهذه الالقاب ، مثلها مثل قطع النقد الرومانية الحاملة صورة الامبراطور متوجاً بالنصر او الحاملة لرسوم أسرى حرب سجّد ، اشارة للبلدان التي اخضعتها الجيوش الرومانية ، انما يراد منها أكثر من مجد باطل لا طائل تحته . فهي ترمز الى

الشراكة التي لا انفصام ، لها بفضل القوة الإلهية، هذه الشراكة المؤلفة من الامبراطور ، ومن الظفر عربون السلام على الارض .

الفضائل الامبراطورية

كثيراً مـا تغنى الشعراء « بفضائل » ملوك الإغريق وبعطفهم ، ولذا راحوا يُضفون عليهم القاباً وكنىً منها : المنقذ او المخلّص. ولم تلبث هذه الالقاب ان انتقلت بعد ان تحورت قليلاً ، الى شخص الامبراطور . فقيام صاحب الأمر في روما هو عربون سعادتها ، ومنتهى الإسعاد ، كما يقول هوراتيوس في خطبة له القاهـا مرحّباً بعودة اوغسطس بعد غياب طال أمده : « فعندما تطل بطلعتك البهيـة على الشعب ، تستحيل ايامه بهجة ، بسامة ، كايام الربيع الضـاحك والشمس في رأد الضحى » . ومع اوغسطس نرى رتاج الصرح الامبراطوري مزيناً بالغار يعلوه اكليل من خشب السنديان ، هو « الاكليل الشعبي» الذي يقدمـه المواطنون لمنقذيهم . فالامبراطور ، هو بالفعل ، منقذ الدولة ، كما هو منقذ الرومان ، هو *Conservator* او *Servator* لا، بل هو اكثر من ذلك ، هو مخلص الجنس البشري باسره . فالخلاص او الفداء الذي بذله ، يبرر الى حد بعيد ، لقبه : بابي الوطن ، هـذا اللقب الذي اصبح من ألصق القاب الامبراطور . ففي بهو اجتماع مجلس الندوة الروماني في رومـا ، كان يُرى ، على مقربة من مذبح إله النصر، ترسٌ مذهب نقش تحته ما يشير الى انه تقدمة من مجلس الشيوخ والشعب لاوغسطس اعترافاً بما يتحلى به من فضل ، وحـلم ، ومن عدل ، ومن تقى . وكأن بقطع النقد الروماني ، في عهد اوغسطس ، سبحة لا تنتهي ، تقص على النـاس في تداولهم لها ، هذه الفضائل الاساسية التي تحلى بها ، كما انها تحاول ان تحيّز ، بما تحمل من شارات ورموز ، مناقب الامبراطور، ولا سيا الشعار الآخر الذي تحمله ويرمز للعناية الالهية تنويهـاً بالخيرات التي اسبغها ، والمنافع التي افرغها على الشعب الرومـاني والامبراطورية الرومانية : رمز السلام على الأرض ، والإسعاد لبني البشر .

وهذه الايديولوجيا الامبراطورية ، وما فيهـا من مفهوم ومدلول ، تفيض بالطبع ، ببعض الألفاظ والتعابير الرومانية الاصل والطابع. فاذا ما شاعت وذاعت بالسرعة التي نرى، فالفضل في ذلك ، للسوابق الهلينية التي اعتمدتها. فليس من المستغرب قط والحالة هذه ، ان نشهد عبادة الامبراطور تنطق بفكرة الرسالة او الدعوة الالهيـة التي تمت على يد شخص هو فوق البشر ، فتتبلور معالمها في ما رأينا من هذه المظاهر على اختلاف نواحيها .

عبادة الامبراطور

متشابهون وليسوا انداداً اكفاء . أُوتي اوغسطس من الفطنة مـا صانه من الانزلاق الى مبالغـات قيصر وتطرفه في روما ، ولا سيا من سفاهات انطونيوس وخطله في الاسكندرية . من يستطيع غيره ، باستثناء من اصيبوا بمس في عقولهم او دُخل على نفوسهم، ان يطلب لنفسه المجد والتكريم الذي ليس فيه ما يؤهله له ؟ فباستثناء بعض حالات شاذة ، غاية في الندورة ، ليس من يندفع في شهوة الشهرة بحيث يطلب لنفسه التأليـه

الكامل او المطلق ويُعترف له بذلك رسمياً . يكفي الانسان ويرضيه ان يقترب او يدنو من الالوهية ، او يبلغ منها نصف المرتبة او درجة وسطى فيها . وهذا التحفظ يبدو واضحاً جلياً في بادىء الأمر ، من خلال الحرية المتروكة للمبادهات المحلية او الفردية ، والتي يُفترض فيها ان تأتي عفوية تلقائية ، او عن طريق براعة الطلب واستدراج العرض ، بضغط من الهيئات الادارية الحاكمة . وكلها حالات تتبلور عملياً عن صور واشكال متباينة . فالتعميم لا يأتي الا بعد حين ، وبصورة تدريجية ، وعلى مراحل . وعهد فسبسيانوس الذي اطل على البلاد عام ٦٨/٦٩ بمثابة مولد ثان او جديد للامبراطورية ، يعتبر مرحلة حاسمة من مراحل التطور الذي مرت به هذه الفكرة ، مع بقائها غير مكتملة ولا مستجمعة لكل شرائطها . ولكن خلافاً للعرف المعمول به لدى بعض الممالك الهلينية ، فالامبراطور هو موضوع عبادة ، وهو في قيد الحياة ، تقدمها له هيئة عامة : كالدولة او الولاية او المدينة ، بصورة عادية وبصفته فرداً .

فالدولة ترفع له تكريماً إلهياً وتجعل من بعض ذكرياته الخاصة اعياداً وطنية عمومية ، فتطلق مثلاً على الشهر الذي ولد فيه قيصر باسم « يوليو » ، كما تطلق على الشهر الذي نال فيه اوغسطس القنصلية لاول مرة ، وفيه سجل اكبر انتصاراته الحربية : اسم اوغسطس . ودرج الناس على استعمال هذه المسميات المصطلحة حتى يومنا هذا . والحلف او القسم باسم الامبراطور ، هو شيء مقبول جائز ، كما ان رسومه وصوره هي من المقدسات . وراحت الحكومة تشرك عبادة جن اوغسطس او نبوغه بالتكريم الذي كانت احياء روما ، تقدمه للارواح المشرفة على مفارق الطرق او تقاطع الطرق ، فتصبح في الاصطلاح العام : الآلهة الاوغسطية . فالمعجم الهليني غني بمثل هذه المسميات . فاستمدوا منه اسماء الاشهر ، والقسم مثلاً . هنالك اكثر من شبه بين الجن *Génie* ، وبين تيخه *Tyché* . فالقدرة على الابداع لا تنضب .

ويتمتع الافراد ، في هذا المجال بحرية اكبر وأوسع . هنالك إهداءات وتقادم مؤثرة للغاية تشرك رأساً او مداورة ، اسم الامبراطور او احد افراد الاسرة المالكة ، بشتى اسماء الآلهة ، فنشأ في معظم المدن جمعيات تحتفل بهذه العبادة وتقيم لها المراسم والاعياد ، وتقدم الذبائح والقرابين على شرفها . وتنظر السلطات الادارية الى هذه المواسم التذكارية بعين الرضى . وهي تتدخل لتنظمها . وبعد ان كانت هذه الهيئات تحمل في الشرق اسماء شتى ، نراها على عكس ذلك ، في الغرب اللاتيني ، اكثر انسجاماً وانضباطاً ؛ من هذه الهيئات مثلاً هيئة الرجال الستة ، التي ما ان تنتهي مدتها القانونية حتى تتحول الى جمعية او شركة حقيقية .

ففي هذه الهيئات التي نوهنا بها ، ومن بينها *Seviri* ، يهيمن اسم واحد هو اسم اوغسطس الذي يتغير مدلوله ومفهومه مع تعاقب الايام والازمان . « فأوغسطس » انما يشير في اول الامر ، الى مؤسس لامبراطورية وموطد اركانها : فطالما هو في قيد الحياة ، فاللفظ إنما يشير الى فرد معين ، واليه تتجه ، بالطبع ، كل عبارات التكريم والتبجيل والعبادة . ثم يصبح الاسم لقباً او كنية ، يحرص على حمله كل خلفائه من بعده . واذ ذاك تفقد مظاهر التكريم والتقديس طابعها

الفردي او الشخصي ، وتتجه بالأكثر ، الى الرتبة والوظيفة أكثر منها الى حامل اللقب .

وهذا التحول نلاحظه كذلك ، يطرأ على عبادة « روما اوغسطس » التي انتشرت كثيراً خارج ايطاليا ، وهي عبادة لها طابع رسمي . تضطلع بها جمعيات عامة وتنطبع هـذه العبادة بطابع الامبراطورية نفسها من الوجهتين المحليـة (البلدية) والاقليمية . فمنذ العهد الجمهوري ، استبدلت مدن الشرق ومقاطعاته عبادة ملوكها *Basileus* بعبادة روما . غير ان اوغسطس يرفض ان تقام عبادة خاصة به ، إلا انه يسلم بانشاء عبادة خاصة : « بروما واوغسطس » تخصص لها الاعياد والمراسم ، إلا ان مدلولها الفردي الخاص ما لبث ان ضعف ، وفقد من شأنه في هذه الازدواجية واختفى تماماً مع خلفائه . وهـذه العبادة تأخذ بالانتشار والاتساع بفضل مؤازرة السلطات الادارية لها ، فيجري الاحتفال بها على نطاق البلديات المحلية ، ليصبح الاحتفال ، فيما بعد ، في إطار يشترك فيه عدة بلديات . وهكذا نرى انفسنا امام احتفالات تقوم في الولاية او تشترك بها مجموعة من الولايات ، وهي احتفالات تقام بانتظام ، وعلى قدر كبير من الابهة والفخامة فتنفق المدن عليهـا وعلى المباني الخاصة المعدة لها ، وعلى الالعاب والملاهي التي ترافقها ، وعلى الموظفين المكلفين بالسهر عليها وعلى اعدادها ، مبالغ طائلة كثيراً ما استنفذت سوازنتها. من هذه الاعباء ما عرف في الغرب باسم *Flamines* او *Sacerdotes* ، بينما قام منهـا في الشرق مواسم اتخذت مسمياتها من اسم المدينة متبوعاً بكلمة رئيس . فانتشار هـذه الاعياد ، ومدة قيامها ، والاحتفال بها ، والآلهة التي تكرّم فيها ، انما يشير بوضوح الى اشتراك النخبة الاجتماعية في هذه الاعياد الموسمية التي تقام في الولاية .

اما في روما ، فالدولة نفسها تنشىء عبادة خاصة هي عبادة الامبراطور الراحل ، وعمليـة التأليه هذه ، يقررها مجلس الشيوخ ، فيرفع الامبراطور الى مصاف الآلهة . ويكفي لذلك ان يتقدم شاهد للشهادة من الهيئة المذكورة ويؤكد ، بيمين مغلظة انه شاهد ، اثناء الاحتفال بجنازة الامبراطور وحرق جثمانه ، روحه تطير على اجنحة نسر . وهكذا يحتفظ مجلس الشيوخ بطريقة يرفض معها تكريم امبراطرة ، سيئي السيرة والسريرة . ورفضه هذا بمثابة حكم قاطع عليهم . إلا ان الطريقة لا تخلو قط من الخطر ، ولا تسلم دوماً من سوء المغبة ، ولذا تحفّظ المجلس بالمجازفة فيها إلا في الحالات الوراثية التي لا يتنطح فيهـا الخلف للدفاع عن سمعة السلف والحفاظ على ذكراه . وعلى كل حال ، فالاصطلاح الذي سار عليه اوغسطس في ما لقيصر ، واتبعه طيباريوس في ما لاوغسطس ، وكرسه العرف والاستعمال ، هو ان الامبراطور الراحل لا ينادى به إلهاً بل إلهي . فهو لا يؤلّه ، انما يكرّم كالآلهة . والبون شاسع بين الوضعين والاصطلاحين . ومع ذلك لم يحُل هذا دون تشييد معبد للراحل الإلهي ، ولا دون إنشاء مجمع كهنوتي او رهبنة خاصة تنقطع لتكريمه ، تحمل اسمه ، ينتخب اعضاؤها من بين أغنى طبقات المجتمع .

بين الجرأة والتشكك

استعرضنا في ما اجرينا من بحث ، للاستشهاد بكثير من الحالات والحوادث الفردية . فقد رأينا مثلاً ، أعضاء اسرة احد الامبراطرة يفوزون جميعهم بالتكريم الإلهي . كما جرى ذلك بالفعل للامبراطور ترايانوس : فقد لقي ابوه وشقيقته وزوجته

مثل هذا التكريم ، كما جرى إشراك عدد من المتألهين والمتألهات في عبادة جماعية واحـــدة ، وذلك ، لأسباب وراثية، خلافية او عملية ، كانتشار عبادة احد هؤلاء المتألهين في مدينة ما او أكثر ، من مدن الولاية ، فيخفف ذلك من حدة او من رواج عبادة « روما اوغسطس » وغير ذلك . فعلى ضوء هـــذه الوقائع المتباينة في كل من المناطق والجماعات والافراد ، نرى عبادة الامبراطور ، على عكس ذلك تماماً، يزول ما بينها من فوارق،فتتوحد او تكاد؛ دون ان تبلغ مع ذلك ، درجة كبيرة من التجانس والانسجام .

ولا يخطرنّ على بال احد ان الامر كله انتهى الى فشل ذريع . فهذا التجانس يأباه امبراطرة القرنين الاول والثاني ، ولا يرضون قط بتأليههم المطلق . فهم يرفضون ان يصيروا الى ما صار اليه الملوك البطالسة او بعض ملوك الدولة السلوقية . فهذا القلق او التشكك يجب رده اصلاً الى نفور بعض الامبراطرة ، امثال طيباريوس وكلوديوس وغيرهما ، من التكريم الإلهي . هـــذه العادة التي عرفها على أشدها وسار عليها إغريق بلدة « جيثيون » ، من اعمال ولاية لاكونيا ، وإغريق الاسكندرية . وهذا الإعراض او المجافاة مرده ، على ما يظهر ، لما أنسوه من اشمئزاز سكان روما ومن فشل التجربة المؤسفة التي قام بها كل من كاليغولا ونيرون ، ودومتيانوس وكومود ، فراح الشعب يقتص لنفسه منهم ، وأماتهم شر ميتة ، كانت درساً لقوم يعقلون .

ولكن النظام الملكي له منطقه الذاتي وهو اشد اسراً من التدابير والاجراءات المصطنعة مهما تفننوا في إعدادها وصياغتها . ومهما يكن من السبة او اللعنة التي لحقت بهؤلاء الامبراطرة الذين تجرأوا على التمادي في هذا المجال فدفعوا غالياً ، بدمائهم ، السخافات والاسفافات التي أتوهــا ، الى جانب تجنيبهم الاثيم ، فقد ساهموا ، مع ذلك في إعداد المستقبل وتهيئته اكثر مما ساهم فيه الامبراطرة المترددون . فقد خشي هؤلاء أشد ما خشوا منه ، الا يستطيعوا ، اذا ما هم وحّدوا النهج ، الاستجابة لالتماسات عفوية تلقائية . وعلى هذا الاساس اشتطوا في التنظيم وذهبوا فيــه بعيداً ، بحيث ان عبادة التكريم التي كانوا موضوعاً لهــا ارتدت طابع نظامٍ حكومي او بالاحرى ، نظمٍ حكومية ومؤسسات رسمية ساروا عليها وفقاً للتسلسل الاجتماعي والوظائفي الذي وضعته الدولة ، اذ مهما كان عرفان الجميل والاعجاب عميقاً ، فلا بد ان يفقد شيئاً من الحماس اذا ما افرغا في قوالب جاهزة وجرى التعبير عنها وفقاً لمراسم تضعها السلطات الادارية . وعلى هذا قس ايضاً الفوارق التي تميز الامبراطور المؤله عن الإله، حتى اذا ما نُظر اليهـــا نظرة واقعية ، قتلت او اضعفت الشعور الديني ، ومنعته من الانطلاق والتجلي على السجية ، بينما اعتبارها اجراءات سياسية ينتقص كثيراً من مبدأ العبادة في الصميم لما تحركه في المرء من تردد وتثير فيه من تشكك .

فالمستقبل ينفتح بالاحرى امام طرق اخرى ، وهي طرق يصح ان نتساءل معها ما اذا كانت انفع وأجدى ؟ بالطبع لا ، انما هي اوضح وأبين وأنصع ، كما انها اكثر ارتباطاً والتصاقاً ببعض الأفكار التي يزداد الاقبال عليها . فالامبراطور كاليغولا يتبجح بما تم له من مناقب وخصائص

هي من صفات الآلهة ، التي اقرها التقليد الموروث ، ويعمل على الانصهار فيها والذوبان معها . ونرى صوراً للامبراطور نيرون على بعض النقود الرومانية متوجاً باكليل يشع من كل صوب ، رمزاً للشمس المشرقة وتشبهاً بها . ففي الحين الذي يحرص فيه الامبراطور دومتيانوس على الظهور والبروز كرب *Dominus* نراه يتشبث ويتشدد في المناداة به إلهاً *Deus* . وفي عهد الامبراطور كومود ، برزت العادة باعتبار كل ما يختص بالامبراطور او يتعلق به « مقدساً » ، وكلها سوابق لم يلبث ان استفحل امرها وعظم بعد ذلك .

ولما كان الأمبراطور يباهي ويفخر بالرسالة السامية التي يعتقد بائتمانه عليها: الا وهي الدفاع عن الامبراطورية من تعديات البرابرة ، بؤرة الفساد على الارض ، وتأمين السلام ، والحفاظ على النظام في البلاد ، وتوزيع الخير والرفاه على الأرض ، فهو بالطبع ، يغض الطرف عن الذين يرون فيه إشعاعاً وانبثاقاً ، ومن ثم تجسيداً للالوهية او للآلهة التي تسيطر ، تحت اسماء شتى ، على النظام الكوني . وفي عهد الاسرة الانطونية التي احسنت الحفاظ على الكثير من هذه المظاهر ، رأينا هذه الافكار بعينها تستبد بالخواطر ، لتبرز بوضوح وجلاء للناس في عهد اسرة سفيروس .

٣ - الخلافة في الاسرة
بين الواقع والنظر

الخلافة الامبراطورية : البديل في الوراثة الممتنعة

ليس في هذا كله ما فيه حل المشكلة ، التي تلازم كل نظام امبراطوري أو ملكي من أي نوع كان . وهذه المشكلة هي اشد خطراً على الخلافة والوراثة الامبراطورية التي جاءت في اعقاب سلسلة من الانتصارات الحربية والامجاد العسكرية ، والتي سيبقى مصيرها مرتبطاً الى الابد بالجيش ، وبنسبة ولاء الجيش لهذه الامبراطورية . كل هذا يجعلنا نتساءل : كيف السبيل الى تأمين استقرار نظام الحكم القائم ، اي انتقال السلطة الشرعية الى امبراطور ، من صلب رسالته ومهمته ان يؤمن لروما وللامبراطورية ما يطمعان فيه وينتظران منه بحق ؟

رفض اوغسطس حل مشكلة الملكية ، فمنعه رفضه من الاخذ بالحد الادنى من الحق الملكي الذي استبد في اقطار الشرق الهليني . فمبدأ الخلافة الوراثية ، لم يكن من الممكن قبوله والاخذ به منذ اعلان العهد الجديد . ومع انه لم يكن احد ليجرؤ على الجهر به ، فمبدأ الحق الوراثي فيها كان كامناً او مضمراً ، اذ انها اي الوراثة ، نتيجة منطقية حتمية لكل نظام ملكي . وقد شاءت الاقدار ان يكون بين الـ ١٧ امبراطوراً الذين تعاقبوا على الملك والحكم خلال قرنين من الزمن ، ثلاثة منهم لا غير ، هم : كلوديوس وفسبسيانوس ومارك اوريل ، كان لهم ، عندما حانت منيتهم ، ابن شرعي يخلفهم على العرش . كذلك قضت الاقدار ان يكون الامبراطور كلوديوس ملكاً مستضعف الجانب ، ركيك الارادة والادارة ، ينال منه بيسر ، رهط من الافاكين الدساسين في بطانة لا ذمار لها ولا زمام ، عرفت كيف تقصي ابنه ووريثه الشرعي

بريتانيكوس لصالح حفيد اخيه وربيبه نيرون . ومن المؤسف لعمري ، ان تصبح الخلافة تقليدية في مثل هذه الظروف التي لابستها ، لتصبح فيما بعد ، شرعية بقدر ما يمكن لمثل هذا الامر ان يتم ويتوفر لنظام قام اصلاً ، على مبدأ إيلاء سلطة الشعب الروماني والعهد بسيادته الى رجل احد ، فرد .

ولئلا تضطر الدولة للاحتكام للسيف وبالتالي لحروب اهلية ، للبت في قضية الخلافة ، كلما اطلت من خلال موت امبراطور ، كان لا بد من إيجاد بديل له او عوض عنه ، فاتخذوا عدداً منهم ، بعضهم جرى اشراكهم معاً في وقت واحد . واكثر الذرائع استعمالاً ، كان التبني الذي يتلاءم جيداً والعرف المتبع واحكام قانون الاسرة عند الرومان . ولهذا العرف سوابق تقره، وتزكيه ، في سلوك قيصر بالذات الذي تبنى ابن اخيه اوكتاف المعروف تباعاً باسم اوكتافيان ثم اوغسطس، كما يبرره سلوك اغسطس في اعمال التبني التي اتاها في عهده المديد. وكثيراً ما اضافوا الى هذا الأسلوب طريقة اخرى هي اشراك المتبني في سلطات وصلاحيات امبراطورية صرفة: كالسلطة التريبونية والسلطة البروقنصلية . وكان من جدوى هذا الاسلوب ومنافع الطريقة التي ساروا عليها، الا تجعل العرش يشغر عندوفاة صاحبه الاول. والى جانب هذا التفويض الشرعي او بدونه احياناً، كانوا يعمدون الى تعيين الوريث او ولي العهد بصورة واضحة ، بعيدة عن اللبس والاشكال ، وذلك بتوليته وظائف كبرى ، قبل بلوغه السن القانونية ، مع ما في هذا من مغايرة للعرف المتبع ، او باعطائه ألقاباً تجعل منه بحق، المتقدم ادبياً. وهكذا نرى دومتيانوس يعيّن ست مرات قنصلاً ، قبل وفاة اخيه تيطس ، كما ان الامبراطور هدريانوس جادَ بلقب « قيصر » لمن رشحه لمنصب « اوغسطس » .

وخطا الامبراطور مارك اوريل خطوة أبعد الى الامام ، اذ منح تباعاً لقب « اوغسطس » للوسيوس فيروس *L. Verus* ، ابنه بالتبني ، ثم بعد موت هذا الاخير ، لابنه كومود ، واحتفظ لنفسه وحده ، دون سواه ، في كلا الحالتين ، بلقب ووظيفة كبير الاحبار ، وما تجرؤوا على الفصل بينهما إلا بعد ذلك بنحو ثلاثة ارباع القرن . وفي ما عدا ذلك ، كانت المشاركة كاملة فقد حق للاثنين ان يقابلا بالتحية الامبراطورية الرسمية ، كما استحقا ان يحملا الالقاب ذاتها التي في حملها إعادة لذكرى الامجاد الحربية . فبدلاً من ان تحمل قطع النقد الرومانية الجديدة صورة « نصر اوغسطس » *Victoria Augusti* ، فأصبحت تحمل رسم واسم *Victoria Augustorum* . وهذا الجديد الذي طلع به علينا مارك اوريل ، ما لبث ان أصبح القاعدة التي ساروا عليها ، والمثال الذي احتذوه في القرن التالي .

وهذا الاجراء بالذات ، يعيد الى الاذهان، عهد الوصاية المشتركة التي عُمِل بها حيناً في بعض الأسر الملكية الهلينية . فالطريقة كانت مرعية العرف ، متبعة لما كانت عليه من بساطة ويسر. ومن الغرابة ألا تكون الانظار اتجهت اليها والا تكون الامبراطورية الرومانية اخذت بها قبل سنة ١٦١ بعد الميلاد ، مع انها كانت تدبيراً معروفاً عُمِل به وجرى تطبيقه ، منذ أكثر من

مائتي سنة . إلا انه اتضح أكثر من مرة لمن يعنيهم الأمر عجز هذه الطريقة عن تأمين انتقـال الخلافة بسلام . ولذا صح لنا ان نعتبر هـذا التأخير ، مظهراً جديداً لموقف المداراة والتحفظ الذي اضطر العهد الجديد للوقوف عنده ، تمييزاً له عن نظام ملكي لم تكن روما لترغب فيه او لتتحمس له .

تطور الحق السلالي والاسرة اليوليو - كلودية *Julio - Claudienne*

كان لفكرة خلافة الأسرة وقع ، ولا شك ، شديد في النفوس . وهذا الاغراء بالذات كان له أثره البارز في واقع الخلافة السلالية . فالانسان نزّاع بطبعه ، للبقاء والديمومة . ونظرية الرجـل الذي أعدّته العناية الربانية ، مهّدت السبيل طبعاً امـام الفكرة الثانية وهي فكرة الأسرة المصونة ، الملهَمَة بنعمة الآلهة . فالامبراطورية الاولى تقدم للمؤرخ ثلاثة امثلة لكل منها طابعه الفردي المميز .

فمن عهـد اوغسطس الى عهد نيرون ، برهنت السلالة اليوليو - كلودية عما لاثنين من افراد هذه الأسرة من تأثير ونفوذ عظيمين، هما قيصر الذي كان من اسرة يوليوس ، واوغسطس الذي كانت جدته لأمه من هـذه الأسرة ايضاً ، ولم يلبث ان اصبح منها في الصميم بعد ان تبناه قيصر نفسه . وقد تزوج من والدة الشقيقين : *Claudii* ، واذ لم يُعقب تبنّى أكبرهما سناً ، وأرغمه على ان يتبنى بدوره ، ابن اخيه الاصغر ، بعد ان مات ابوه من قبل . وهكذا انصهرت اسرة يوليو بأسرة كلودي . وقد ازدادت الوشائج بين الاسرتين ، فيما بعد ، لصوقاً ومتانة ، على إثر المصاهرات والزيجات التي وقعت عبر الأجيال بين الاسرتين ، فضمت ابنة اوغسطس الوحيـدة وبناتها من بعدها الى افراد الأسرة الكلودية ، وقد وقع من حوادث التبني بـين افراد الأسرتين وأفخاذها وبطونها، ما يجعل من المستحيل اليوم ، تتبع خيوط هذه الوشائج المتشابكة . ولكي يبدو هذا التعقيد على أتم صوره يكفي ان نورد هنا شاهداً واحداً . فعندما تزوجت أغريبين الثانية من خالها كلوديوس ، كانت لحماً ودماً ، ليس فقط ابنة حفيدة اوغسطس وحفيدة ابنـة اخته ، بل كانت ايضاً بالتبني ، ابنة حفيدته . كل هذا التشابك والتراكب والتعاظل لم يخل من نفع وفائدة ، على شرط ان يعرف المستغلّون كيف منه يفيدون ، ومثل هذا الأمر لم يغب عن فطنة أغريبين وزكانتها . فآصرة التبني التي شدتها الى اوغسطس كانت احدى هذه الوسائل التي تذرعت بها لتحمل كلوديوس على تبني نيرون ، احد افراد اسرة دومتيوس *Domitius* ، فاستطاعت بذلك ان تقصي عن الخلافة بريتانيكوس ابنه الشرعي ، الذي كان بحسبه ونسبه ، بأبيه وامه ، حفيد اوغسطس .

وهكذا بدت الأسرة اليوليو - كلودية في عيون معاصريها، من هذه الاسر المختارة، المصطفاة، والمهيأة ، ان لم يكن شرعاً فوضعاً ، للاحتفاظ بالرتبة والسلطة الامبراطورية . غير ان مسائل هذه الشجرة وفروعها المتعددة ، وتشابكها بعضاً ببعض، كان من الأسباب التي حالت او منعت

تأمين انتظامها وانضباطها . فقد كان بوسع الامبراطور طيباريوس ان يلزمها التسلسل المدرّج ، وبعبارة اخرى ان يقصرها على التدرج المسلسل الذي كانت تفتقر اليه ، لو عرف كيف يحتذي حذو اوغسطس ويأتم بهدي فطنته ، عندما نظّم قضية خلافته ووراثته . غير ان ما كان عليه طيباريوس من نفرة للناس ، وابتعاده عنهم وبجافاته لهم ، كل ذلك وقف حجر عثرة دون المرتجى والمرغوب . ومنذ ذلك الحين ، اصبحت الوراثة السياسية كرة او ألعوبة ، تتقاذفهـا شعبية المرشح في الرأي العـام ، وقادة الجيش ، والدسائس المحيكة وراء الكواليس ، وسخرية القدر وعبث الأقدار . وعندما بادر حرس القصر كلوديوس بالتحية الامبراطورية ، إعلاناً له باعتلائه أريكة الحكم، خاف وأخذت فرائصه ترتعد هلعاً، فتوارى خلف سجف القصر وستائره. وهذا الوضع حمل كل امبراطور على ان يتخلص من انسبائه وذويه عندما يرى فيهم منافسين له على السيادة والسلطة . وهكذا أخذت الاغتيالات السياسية والسموم المدسوسة بعلم وفن ، من قِبَل طامع في الحكم خالع العذار، امثال «سيجان»، تفعل فعلها الذريع بين الاسرة الامبراطورية العديدة الفروع ، فحصدت افرادها البارزين حصداً ، وكادت تودي بها الى الهلكة والزوال . وعندما أُجبر نيرون على الانتحار عام ٦٨ بعد ان تخلى عنه حرسه، لم يكن بقي احد من افراد الأسرة ليطالب بامجاد قيصر وأغسطس ، ويلوح بها تعريفاً وانتساباً . وهكذا اصبحت الدولة والسلطة العليا فيها ، فريسة الاقوياء يتجاذبونهـــا كلما اشتد من احدهم الساعد او تراءى للقوي بسمة يفتر بها الحظ .

الاسرة الفلافية
Les Flaviens

اما الرجل القوي في هـذه الاسرة فهو تيطس فلافيوس فسبسيانوس ، اول امبراطور اخرجته للناس هذه العائلة ، التي تولت الحكم مدة قصيرة لم تزد على ٢٦ سنة، الا انها ألّفت كتلة بزت بتجانسها وتراصّها، ما تم منه للاسرة اليوليو – كلودية . كان تيطس بن فسبسيانوس البكر ، ولما لم يعقب الا ابنة ، فقد خلفه على العرش الامبراطوري ، عند وفاته ، شقيقه دومتيانوس . وهكذا نرى ان الحظ سار في ركاب هذه الاسرة ، فرتبت أمر الخلافة فيها ببساطة كلية ، وبذلك ، عرفت ان تُجري ، في روما ، حقاً وراثياً قام على قاعدة : الخلافة للبكر الذكر ، وجعلته بمعزل عن تقلبات الرأي ودسائس الدساسين .

وعرف الامبراطور فسبسيانوس ، بما أوتي من حزم وعزم ، ان يفيد من مؤاتاة الحظ له وسيره في ركابه . فما ان قبل تسنم أريكة الامبراطورية حتى رأى في وجود ولديه الى جنبه ضمانة كافية للخلافة في ذريته . « وكان له من الجرأة ان عالن مجلس الشيوخ » ، كما يؤكد المؤرخ سويتون ، بان ولديه سيخلفانه ولا احد غيرهما » . وفي هذا السبيل عمل مـا يترتب عليه عمله ، فعهد الى ابنه تيطس بالسلطة التريبونية والسلطة البروقنصلية ، كما رفع ابنه الثاني دومتيانوس الى رتبة القنصلية وثبّته فيها عدة مرات. وبفضل هذه الاجراءات الحكيمة والتدابير الرشيدة، بدت السلطة بين يديه حقاً وراثياً قائماً في الاسرة ، ينتقل من السلف الى الخلف بصورة تلقائية ،

دون صريف او صرير . ثم راح بعد هذا ، ينصرف من جهة اخرى ، لتنظيم عبادة الامبراطور وتقديسها . فليس ما يصدمنا او يثير دهشنا قط ، ان نرى ونقرأ على احدى النقائش التي عثر عليها في بريطانيا ، العبارة التالية التي كتب لها ان تعمر طويلاً ، وهي : « البيت الإلهي » وبعبارة اخرى : « الاسرة الإلهية » ، تنويها بالأسرة الامبراطورية واشارة اليها .

هذه النظم والانشاءات المستحدثة كان يلزمها ، لتعيش وتتعرق في نفوس القوم ، ان يطول بقاء هذه الأسرة على الحكم ويدوم الى مـا شاء الله . غير ان تصرفات دومتيانوس وسفاسفه كانت سبباً في هـلاكه وقتله . وما كاد جثمانه يواري الثرى ، حتى راح مجلس الشيوخ يلغي قرارات التبني التي كان اتخذها الامبراطور الراحل ، اذ كان تبنى بعد وفاة اولاده ، اولاد شقيقه الذين كانوا في الوقت ذاته ابناء عمومته . وهكذا وجدت خلافة الامبراطورية نفسها امام فراغ جديد وعلى حافة هاوية عميقة .

الاسرة الانطونية واختيار الاصلح

عرف المتآمرون ، هذه المرة ، ان يحكموا الحبكة ويسددوا الضربة ، وينفذوا بدقة ، التدابير المقررة ، فلم يجد العنف طريقه الى تعيين الامبراطور الجديد. فالامبراطور الجديدالذي نادوا به : نيرفا ، قبـل به الجيش راضياً مرضياً ، فكان طليعة الأسرة الانطونية التي اطلت على الحكم في شخصه واستقام لها الأمر قرناً تقريباً اي من سنة ٩٦ الى سنة ١٩٢ للميلاد. اما قضية الخلافة في عهد هذه الأسرة، فليس في التاريخ كله، بما فيه تاريخ روما والأسر الملكية التي تعاقبت على الحكم، اسرة أعلق في النفس واشد غرابة من هذه الأسرة. فالغرابة تكاد تلامس الخروج على العرف المألوف .

ولئلا نستطرد الى ما لا طائل تحته ، يكفي التأكيد هنا ان كل الاباطرة الذين أطلعتهم هذه الأسرة ، باستثناء واحد منهم، هو الأخير بينهم، الذي تم على يده وأد الأسرة ، مع انه الوحيد الذي جاء منها الى الحـكم بحق الوراثة الخلافية ، قد تعاقبوا على الحكم على أساس التبني وليس على أساس البنوة الطبيعية . ويجب ان نذكر هنا انه حدث مثـل هذا لطيباريوس ، اذ كان ابناً بالتبني لأوغسطس . فاستمرار تعاقب الأمر على هذا النحو ، يكوّن بحد ذاتـه ، حدثاً جديداً ، يستدعي النظر . صحيح انه كان هنالك وشائج من القربى بين السلف والخلف، كأبناء العمومة أو الخؤولة ، والمصاهرات التي ربطت بين الآباء والابناء ، بررت وزكّت اعمال التبني هذه . وليس من الغريب قط، لعمري ، ان نفرض ، في بعض حالات هذا التبني – وهو أغرب مـا في هذا النوع – وجود بنوة طبيعية ، ولكن غير شرعية . ومن المؤكد كذلك أن عمليـة التبني عند هؤلاء الاباطرة لم تكن سوى تدبير أعرج ، أُخِذ به في الحالات القصوى ، بعد ان رأى من لجـأ الى هذه الطريقة من بينهم ، أنفسهم بدون عقب يخلفهم. وأول امبراطور منهم رزق صبياً ، بادر للحال لتأمين الخلافة له ، حتى أن الامبراطور مارك أوريـل نفسه رأى ذاته ملزماً للأخذ بالقانون الطبيعي مع انه جاء في مصلحة كومود نفسه . فاذا كان ثمّة مـا يبرر ، بالفعل ، قرارات التبني هذه ويزكيها، فالشيء الذي يبقى غريباً ويصدم العرف ، لا بل يكوّن

المفتاح الحقيقي لهذا السر المغلق وينأى بعيداً عن الواقع : هو قبول الجيش لمثل هذه الاجراءات التي اتبعت لتأمين الخلافة والأخذ بها دون ان يحدث في الغالب ما يعكر صفو الأمن ، اذ كانت ترفع الى السلطة العليا قوّاداً ليس لهم من الحسب ولا من المجد العسكري – باستثناء ترايانوس – ما يستحقون معه ثقة الجيش والولاء الذي عرف بـــه ، وهم في الغالب افراد لمعوا في بطانة الامبراطرة الذين دُعوا لخلافتهم ، أو برزوا في المجتمعات الرومانية التي عرفتهم وقدرت مواهبهم بمعزل عن الجيش الروماني ؛ فاذا ما عرفوا ان يفوزوا بولاء الجيش فبفضل مـا جاؤوا به حالاً من دليل على كفاءتهم ومواهبهم ، أو بفضل ما كان عليه الجند اذ ذاك من احترام لروح الانضباط ، بلغ حداً من العمق لم تعرف البلاد له مثيلاً من قبل ، وهي فترة قصيرة الأمد ، اذا ما قيست بمدة بقاء الامبراطورية ، ولكنه طويل بالنسبة للامبراطرة الأنطونيين الخمسة ؛ فعرف هؤلاء الملوك ان يفيدوا من هذا التوازن المدهش الذي جمع بين القوى الأدبية والقوى الاخرى المتفاعلة في الامبراطورية .

هذه الملاحظات العابرة أعجز من أن تستنفد الاهتمام الخليق بالأسرة الانطونية ، والظروف التي أحاقت بها ، والوضع القائم الذي أوجب تكوين طبقة اجتماعية مُوجّهة تكون في مأمن من وصول امبراطرة الى الحكم يجيء بهم الجيش على سنان الرماح . واقتصرت هذه النظرية على تثبيت وضع قائم ، والترسيخ له في النفوس ، والعمل على رفع مستواه ، بعد ان قررت الأخذ بالنظام الامبراطوري ، وجعل الخلافة في الاسرة من حق « الأفضل » و « الأمثل » لها . وقد حرص العهد عـلى تسمية الوريث الأفضل ، واعلان امره ، وذلك تقويةً للامبراطرة الذين أقر مجلس الشيوخ الروماني خلافتهم . ولم يكن المؤرخ تاسيت ، وهو من معاصري الامبراطور ترايانوس إلا ترجمان حال زملائه من اعضاء هذا المجلس عندما راح يقصّ علينـا في « تواريخه » قصة تبني الامبراطور غلبـا *Galba* لبيزون *Pison* أثر مقتل نيرون ، فكتب على لسان المتبنّي : « لا يعني هذا قط ان لا أنسباء لي ولا رفاق سلاح ، ولم أبلغ الحكم لأني طمحت اليه ، وسعيت له ، كما يشهد على ذلك ، ممارستي للسلطة بنَصَفَة ، وبمعزل عن الأخذ بالوجوه ، وتفضيلي لك على باقي الناس ، ليس على خاصتي فحسب ، بل على خاصتك ايضاً ... فهذا الاختيار الذي صدر عنا هو الحرية بعينها . أمـــا الآن بعد ان انقطعت اسرة اليوليين واسرة الكلوديين ، فالاختيار والانتخاب أساسه : الأمثل والأفضل . ان يأتي المرء الى الوجود ودم الأمراء يسري في عروقه ، فأمر من صميم الحظوظ والاقدار ، التي يتعطل معهـا الفكر وينعدم النظر . فالمتبني هو الذي يقطع ويجزم في ما يُفصّل . فاذا ما قرر الاختيار كان له الرأي العام هادياً » . ورسالة الاطراء والمديح التي وجهها « بلين الاصغر » *Pline Le Jeune* للامبراطور ترايانوس تتضمن ، هي الاخرى ، تصريحات من هذا النوع . فالأخذ بهذه النظرية ولو ظاهراً ، أضفى كثيراً على السلالة الانطونية شيئاً من الوقار والنبل في تفكيرها : فعبثاً نحاول العثور على غيرهـا من الاسر الامبراطورية تتفتح في ظلها وعهدها ، مثل هذه الافكار السمحاء التي لم تنقضها الحوادث والماجريات الواقعية التي حدثت خلال أجيال متعاقبة . إلا ان هذا النقص كان لا بد له من ان يقع ويحدث . وقد شاء

القدر العابث ، الساخر ، ان يأتيها على يد مارك اوريل نفسه .

عدم اكتمال تجربة النظام الملكي الامبراطوري

قيّض لنا ان نشهد ، ونحن بصدد الحديث عن طقوس عبادة « روما واوغسطس» او عبادة الإلهي *Divi* ، عدم اكتمال الملكية الامبراطورية وبلوغها التام ، اذا ما قارناها بالملكيات الاخرى . هل كان من شأن تطوير أسرع في المظاهر الدينية ومناسك العبادة ، ان يساعد أكثر في تطوير نظرية الملكية لامبراطورية ليبلغ بها الى الكمال والتمام ؟ فالعبادة الامبراطورية كانت تفتقر ، بالفعل ، الى الكثير من روحانية الدين. فلا عجب ان يقابلها الكثيرون بالتشكك وان يعرضوا عنها ويولوها ظهورهم.

فلو بلغ هذا التطور تمامه لكان جاء ، على عكس الواقع ، بنتائج فعالة ، ربما تبلورت عن وضع قانونٍ لوراثة الخلافة الامبراطورية ، ثابت ، واضح ، وهو وحده القادر على ان يشيّد النظام الملكي على أسس ركينة من الشرعية والدستورية فيجعل من هؤلاء البشر المقدّر لهم ان يحصدهم الموت ، والذين تعاقبوا على الأريكة الامبراطورية، كلاً متجانساً ، اذ ان عدم توفر هذا العنصر الاساسي عرّض الامبراطورية ، الفينة بعد الفينة ، لهزات عنيفة وخضات شديدة ، أورثتها الفوضى والوهن . وهذه الامبراطورية ، باعتبارها مؤسسة بشرية ، وملكية عسكرية، لم يكن لها بدّ من التضرّس بما تضرّست به من إحنِ الدهر وصروفه ودُوَله ، انما قد يكون جاء هذا كله ، على نطاق اضيق وبعدد اقل . فغموض النظام الذي سارت عليه ، والإشكال الضمني الذي اتصفت به، اقامها، منذ الاساس، على خواء ، وجعلها واهية ، متداعية في الصميم . هنالك ، بالطبع ، عدد من النظم الملكية ، عانت ، منذ البدء ، الداء نفسه ، إلا انها عرفت ، فيما بعد ، كيف تنفض عنها اعراض هذا السقم فتعود اليها العافية سريعاً. ومسؤولية عدم اكتمال فكرة النظام الامبراطوري في روما ، انما مردها قبل كل شيء ، والحق يقال ، الى الظروف التي لابست هذه الامبراطورية وأحاقت بها ، وللأفراد الذين تولوا مقدّراتها خلال القرنين ، وهي الفترة التي امتد اليها عهد الامبراطورية الاولى ، وما خامرهم من شكوك وتردد وما أتوه من سخافات وترّهات .

ومع ذلك ، وبالرغم من هذا النقص الجذري في التكوين والبنيان ، استطاعت هذه الامبراطورية ان تحيا وتبقى وان تنتظم ، ان لم يكن نظرياً فأقله واقعياً .

٢ ـ النظم القديمة

عرف النظام الامبراطوري ان يشق طريقه في الدولة، وان يحقق نجاحاته على حساب النظم والمؤسسات الجمهورية التي لم تلبث ان خفتت حيويتها وضؤل نشاطها ، يوماً بعد يوم .

الاجتماعات الشعبية *Les Comices*

استمر العمل بالهيئات الشعبية القائمة، انما قلت دعوتها للانعقاد. فاذا ما عقدت جلساتها ، فلأمور تافهة وبصلاحيات اخذت تضيق وتدق ، شيئاً فشيئاً . وقد يحدث ان تدعى ، في القرن الاول للاجتماع ، عند مناسبة

عارضة للتصويت على بعض مشروعات القوانين ، بعد ان حُرمت من فرصة مناقشتها ، مع العلم ان قرارات مجلس الشيوخ والامبراطور ، لها وحدها قوة القانون ، بحيث لم يعد يبقى لهذه الاجتماعات الشعبية أية قيمة تشريعية على الاطلاق .

كذلك فقدت هذه الهيئات ما كان لها من صلاحيات انتخابية، بعد ان بطل العمل بها فعلاً، منذ عهد اوغسطس، وذلك على أثر تمتع الامبراطور بحق التوجيه وتقديم الاقتراحات التي احتفظ به لبعض الوظائف الكبرى بعد ان جرى تحويلها بكل بساطة ونقلها الى يد مجلس الشيوخ . واكتشفت عام ١٩٤٧ بعض كتابات ألقت ضوءاً على وجود نظام وسيط ، جرى العمل به قبل هــذا الانتقال ، تظهر بوضوح ، دهاء النظام الذي تم وضعه عام ٥ ق . م ، ثم أدخلت عليه تحسينات عديدة في الفترة الواقعة بين عامي ١٩ و ٢٣ للميلاد ، جعلت منه مجرد عملية انتخاب شعبي بسيطة . وكان اعضاء مجلس الشيوخ وخيرة طبقــة الشفاليه يتوزعون وفقاً للقرعة ، الى هيئات مائة *Centuries* تتولى اختيار مندوبين اولين *Destinati* ، من بين عدد من المرشحين تعرض قوائمهم على الهيئات الشعبية لاقرارها والتصديق عليها . وكان عشر من هيئات المائــة *Centuries* تحمل اسم حفيديْ اوغسطس ، توُفيا يافعين . وعندما توفي ابن طيباريوس وابنــه الآخر بالتبني، جرى إنشاء خمس هيئات مئة جديدة عند كل وفاة منها حملت اسماءهما. والاعتقاد السائــد هو ان هؤلاء الأمراء الذين رُفعوا الى مصاف الابطال كانوا اداة وحي وإلهــام للناخبين المشتركين بعملية الاقتراع كما يقترحون ، هم أنفسهم ، أسماء الاعضاء الجدد للهيئات الشعبية . إلا اننا نجهل الجهل كله ، الوقت الذي امكن فيه الاستغناء تماماً ، عن مثل هذه الاساليب . ومهما يكن ، فالاقتراع لم يكن سوى عملية صورية ، وهمية ، لا طائل تحتها البتة .

وقد بدا لاوغسطس ولخلفائه من الامبراطرة الذين تعاقبوا على الحكم بعده انــه اذا كانوا يريدون فعلاً الاستقرار للعهد الجديد ، كان عليهم ان يجعلوا الحياة السياسية في البلاد بمنأى من الدسائس والاضطرابات والقلاقل التي طالما اتصفت بهــا اجتماعات الهيئات الشعبية وافسدتها . فالشعب الملك كان بالفعل قــد فقد كل سلطة له ، عند اعتلاء الامبراطور العرش ، وفقاً لقرار يصدره مجلس الشيوخ يقتصر عادة، على المناداة به امبراطوراً، وتقليده مقاليد الولاية والسلطة. وقد حفظ لنا التاريخ نص القانون الذي تمت بموجبه الولاية لفسبسيانوس . فالامبراطور وحده يكفي لادارة مصالح الشعب والدفاع عنها .

المناصب والوظائف

فهذه الوظائف الكبرى التي كان الامبراطور يقلـّدها لأصحابها، اما رأساً ، كالقنصلية مثلاً ، او بالواسطة عن طريق البوح برغبته الخاصة ، بشأن بعض المرشحين ، لم تكن لتتمتع ، بالفعل، باي استقلال خاص. فهي مراتب بقي معمولاً بها كالقاب لا غير، لها درجاتها ورتبها المتسلسلة في الادارة، باستثناء وظيفة المراقب العام التي كان الامبراطور يحرص على الاحتفاظ لنفسه بكل صلاحياتها واختصاصاتها ، سواء أحمل هو نفسه ، هذا اللقب او لم يحمله ، وكثيراً ما ، لم يكن لهذه الالقاب سوى مظهر تبجيل خارجي تثقل على حامليهــا

احياناً ، نفقة تمثيل. ويذكر ديون كاسيوس في معرض حديثه عن الامبراطور كلوديوس ، ان عدداً من القناصل الرومانيين تخلوا عن الرتب القنصلية التي كانوا يحملونها ، مع ما هي عليه من علو الشأن ، لانهم عجزوا عن تحمل تكاليف تمثيلها .

هنالك ناحية من هذا التطور الذي خضعت له وظيفة القنصلية ، يمكن الوقوف عندها ملياً واتخاذها قياساً ، للدلالة على ما خسرته هذه الوظائف والرتب من قيمة الشأن البعيد الذي كان لها من قبل . ورتبة القنصلية التي بقيت محتفظة بكل شاراتها الفخرية وبعنايتها ببعض المراسم الدينية ، فقدت ، في الواقع ، كل ما كان لها من شأن وشأو ، بعد ان برز الامبراطور على رأس الدولة ، وتخلى مع نوابه وممثليه ، بما يتحلى به من سلطات واختصاصات عالية. وخسرت هذه الرتبة من قدرها وشأنها بعد ان ازداد عدد الحاصلين عليها ، مع انه لم يكن يوجد منهم معاً في الوظيفة ، في وقت واحد ، اسوة بما كان عليه الوضع في الماضي ايضاً ، اكثر من مائتي قنصل. فالذين كانوا يتقلدون هذا المنصب في غرة كانون الثاني (يناير) كانت السنة تحمل اسماءهم. وهذا الفريق من القناصل هم القناصل « العاديون » الذين تأثرت رتبهم والقابهم باقل مما تأثر به اخرى ، بالنظر للامتيازات التي تمتعوا بها . وقد جرت العادة ان يستقيل هذا القنصلان ، قبل بدء السنة الجديدة بقليل ليفسحوا المجال امام قنصلين جديدين يحلان محلهما . وكانوا يتعاقبون بسرعة في الوظيفة ، بحيث كنا نرى ، في القرن الاول ، القنصل يعين لفترة اربعة اشهر . وليس بالغريب او النادر قط ان نرى قناصل قبلوا التعيين لمدة شهرين او لشهر واحد . وهذه العادة كان لها ما يبررها من رغبة الامبراطور في ان تتوفر له سهولة اكبر في اختيار اصحاب بعض الوظائف التي لا يقوم عليها إلا من كانوا قناصل من قبل . وهكذا فقدت هذه الوظيفة كل شأن لها .

هذا الاستخفاف ينزل برتبة القنصلية يبرز على اشده ، عندما نعرف ان القنصلية كانت السبيل او الطريق المؤدي الى البروقنصلية التي لصاحبها سلطات شبه مطلقة على الجيش او الولاية التي يتولى ادارتها . فلم يبق في الامبراطورية سوى مركزين لصاحبيهما سلطة البروقنصلية ، يجري اختيارهما من بين فئة القناصل : هما بروقنصل آسيا (مركزه افسس) وبروقنصل افريقيا (مركزه قرطاجة) ويتقاضيان عن وظيفتهما هذه مرتبات ضخمة للغاية تنقطع معهما شهوة الارتكابات والاختلاسات وسوء الائتمان . وفضلاً على ذلك ، ان الاول منهما انتزعت منه ، في غرة العهد الامبرطوري ، كل سلطة على الجيش ، وكذلك الثاني منهما كان له المصير ذاته ، وكلاهما يخضع لسلطة الامبراطور ، يساعدهما في حكم الولاية وادارتها موظفون يأتي تعيينهم من قبل الامبراطور نفسه ، كما ان مدة تعيينهم في هذه الوظيفة لا تتعدى السنة ، ولا يمكن تجديدها عند نهايتها ، بأي حال . وهكذا يبدو ان معظم افراد الطبقة القنصلية لم يكن أمامهم من امل سوى التطوع في خدمة الامبراطور ووضع أنفسهم تحت تصرفه للانعام عليهم بأية وظيفة ينتدبهم لها . ولم تكن وظيفة القنصلية تعطى إلا لمن برهنوا عن كفاءتهم ، وجاؤوا بالدليل القاطع على ولائهم للامبراطور ، فاذا ما قبلوا بما يعرض عليهم منها انفتح امامهم الباب لوظائف أكبر وأعلى

تبقى دوما تحت المراقبة الضيقة واشراف الامبراطور المباشر .

ومثل هذا التحول والتبدل يطرأ على الوظائف الاخرى ، ولا سيما وظيفة البروقناصل الذين يعهد اليهم بحكم الولايات الامبراطورية وادارتها . ويجري انتقاؤهم غالباً من بين طبقة الـ المقدّمين *Prêteurs* الذين لم يكونوا أسعد حظاً، ولاأرفع حالاً من حكام ولايتي آسيا وافريقيا. « ان سلك التشريفات والامجاد » هو بيد الامبراطور وتحت رحمته . والوظائف المختلفة التي تتسع لمثل هذه التبجيلات لا تعطى ولا يعهد بها إلا لمن يقوم بمهام وظائف الادارة الامبراطورية .

مجلس الشيوخ *Sénat*

بين المؤسسات الجمهورية التي تضرست بالتغيير ونابها من التحويل والتبديل اقل من غيرها في الظاهر كان مجلس الشيوخ ، لا بل يبدو لمن يرى الامور من الخارج، انه نال المزيد من السلطات ، لأنه حل محل الهيئات الشعبية في الانتخابات التي كانت وقفاً على هذه الهيئات ، كما ان القرارات التي كان يتخذهـا ، كانت بمنأى عن الاستفتاءات الشعبية والانتقادات او الاعتراضات التي يثيرها في وجهها التريبون او محامو الشعب . وكان من سياسة اوغسطس ومعظم خلفائه حتى اواخر القرن الثاني ، الاعتماد ظاهراً ، على هذا المجلس في تجنيب البلاد ، خطر الاضطرابات الشعبية . فقد رموا من وراء ذلك الى تعزيزهم نفوذ هـذه الهيئة والرفع من شأنها . غير ان هذه المشايعة او السلطة الثنائية *Dyarchie* ، كما يسميها المؤرخ الالماني مومسن *Mommsen* ، لم تكن بالحقيقة، سوى تغرير او تعلّة. هل كان الامبراطور يرغب فعلاً ، باقتسام السلطة – وهو أمر يتنافى أصلاً مع رغبة الفرد بالسيطرة المطلقة – مع مجلس يتألف من ٦٠٠ عضو يضم العديد من العناصر التي لا يمكن استخدامها أو الانتفاع بهـا ، بينهم كثيرون معروفون بميولهم الجمهورية وحدبهم عـلى نظم العهد البائد ، كما ان بينهم من عرفوا بأطماعهم الاشعبية وطموحهم، وغيرهم من اصحاب الزلفى والمدلسين؟ ونرى اكثر منامبراطور يدخل في خصام مكشوف ، ان لم يكن مع مجلس الشيوخ، كهيئة قائمةبذاتها لم تكن لتجرؤ على الوقوف بوجهه ، فأقله مع بعض الشيوخ الذين تحوم حولهم الشكوك ويرتاب جداً باخلاصهم له، ويشك في ولائهم نحوه ، فيتفادى شرهم بقطع دابرهم أفراداً وافواجـاً . فالمزاج الشخصي الذي فرّد هؤلاء« الطغاة » الذين وصفهم مؤرخون من مؤرخي العصر ، كانوا مثلهم اعضاء في المجلس المذكور ، أمثال تاسيت ، بأبشع الأوصاف كان سبباً في ذلك أن عدداً كبيراً منهم ذهب ضحية الدسائس التي حاكوهـا ، كما ذهب غيرهم فريسة الوشاة النفاثين والأرصاد المبثوثة عليهم . ولم يصفُ الجـو ويصحُ إلا في عهد الدولة الأنطونية ، باستثناء حكم هدريانوس وكومود ، بعد ان لعبت عوامل كثيرة دورها الملطّف والمهدّىء ، منها مثلاً كفاءة بعض الامبراطرة الذين عرفوا ان يفرضوا الاحترام حولهم ، وقدرتهم على الذهاب بالاحقاد ، والتحسينات التي أدخلت عـلى تشكيل مجلس الشيوخ بعد ان اعتمدوا في الاختيار ، قاعدة جديدة هي خبرة العضو الجديد وحنكته ، دون حسبه ونسبه أو نشبه ، والرغبة المشتركة في تجنيب البـلاد أزمة كالأزمة التي وقعت فيها ٦٨–٦٩ ق.م. غير ان الحقبة لم تطل كثيراً ، اذ ما كاد ماركاوريل يتوارى ويخلو

العرش بموته حتى عادت الخصومة على أشدّها .

وفي هـــذا القران الافلاطوني الاستثنائي ، لم يتمتع مجلس الشيوخ ، مع ذلك ، بأية سلطة مستقلة ، اذ كان الامبراطور يشرف عن كثب ، على انتقاء الحكام وكبار الموظفين ، في حال عدم توليه امر تعيينهم بنفسه ، ويخلق وظائف شرفية لا طائل تحتها ، كما يحرص اشد الحرص على تشكيل اعضاء المجلس وتأمين التسلسل الدقيق في المراتب والدرجات . فالمجلس لا يخطر له يوماً على البال ، معارضة رغبات الامبراطور ، والقرارات التي يتخذها هـذا المجلس، تختفي وتنسخ عندما يصدر الامبراطور مراسيمه فيبادر اعضاؤه الى إقرار المشروعات التي يعرب عنهـــا في خطبه وتصريحاته . وللامبراطور ، كما لمجلس الشيوخ ، حق الاعتراض ، والاحتكام برفع القضايا الى مجلس أعلى ، غير ان الاعتراض ينتهي دوماً لمصلحته هو ، وليس لمصلحة المجلس . فاذا ما نال مجلس الشيوخ ، في عهد الأسرة الانطونية ، وحده ، الحق بمحاكمة احـد اعضائه جزائياً ، فهو يحرص على ان يتبين رغبة الامبراطور وارادته الخفية في الأمر وسريرته قبل اصدار حكمه ، كما انه يبادر في الحال الى الاعراب عن أسفه وندمه ، اذا ما خانه الظن وطاش فأله . ولعـــل اهم امتيازات مجلس الشيوخ الروماني ، هو ان يفوّض ، من قبل الشعب ، وباسم الشعب ، السلطة للامبراطور الجديد . غير انه لم يكن لرأيه إلا ما ندر ، وزن حاسم ، كما وقع للامبراطور نيرفا وللامبراطور ترايانوس . والموقف العادي المألوف الذي يقفه هو الاعتراف بمن وقع عليه اختيار الجيش واقراره له ، او المصادقة على قرار الامبراطور السلف بشأن الخلافة .

ولكي يتوفر له غير ما توفر من سلطة وهمية ، كان عليه ان يضطلع بتوجيه سياسة البلاد الخارجية ومراقبة حكام الولايات وما تحت إمرتهم من جيوش ، والسيطرة على اموال بيت المال . غير ان تحرر قادة الجيش ، قبل نهاية الحكم الجمهوري ، جرّد المجلس المذكور من كل هـــذه السلطات والصلاحيات ، ثم جاء عهد الامبراطورية فأجهز على ما كان تبقى له منها . فحقُّ الحرب او السلام هو بيد رئيس الجيش الاعلى . فمنذ اوغسطس ، خضعت البلاد لتقسيم اداري أُدخل عليه فيما بعد تعديلات لم تتعدّ الاساس القائم ، والمبدأ المعمول بـــه . فالولايات المشيخية وحدها هي التي لا تقوم فيهـــا فرق من الجيش ، وهي الولايات التي استتب فيها الأمن ولا اضطراب على حدودها الخارجية . تابع مجلس الشيوخ ، في اول العهـد الامبراطوري ، مراقبة الموظفين الذين يتولون ادارة بيت المـــال ، الملقب « بهيكل ساتورن » والذي لم يكن يتغذّى إلا من الرسوم المجباة من ايطاليا والولايات المشيخية ، وهي رسوم لم تكن لتغطي مصروفات الدولة في هذه المقاطعات . فعلى خزانة الامبراطور ان تبادر لسد العجز . ومنذ عهد نيرون ، اخذ الامبراطور يُعنى شخصياً بتعيين ولي بيت المـــال « *Aerarium* » والحدّ من صلاحية مجلس الشيوخ في ضرب العملة إلا البرونزية منها . كان في روما قطاعات واسعة في الادارة العامة يقتضي لها الاختصاص والتقنية ، كما يقتضي لها المضي في الخطة العامة الموضوعة لها . من هذه الادارات : مديرية البوليس ، ودائرة التموين *Annone* ودائرة القناطر المائية *Aqueducs* ، ومجرى نهر التيبر وشواطئه ، والمجارير

العامة ومباني الدولة ، وكلها دوائر بمعزل عن اختصاص الموظفين ، ترجع لاشراف الامبراطور مباشرة .

فالشكليات التشريفية والمظاهر الخارجية استمر العمل بها بعد ان بولِغَ في الحفاظ عليها. غير ان انحطاط النظم القديمة كان قطع مراحل بعيدة بالرغم من الاحتفاظ بالهيئات الشعبية ونظام الوظائف الادارية ، ومجلس الشيوخ ، وبذلك ألبس العهد الامبراطوري النظامَ الملكي الذي اقامه في البلاد ، رداءً جمهوري المظهر .

٣ ـ النظم والمؤسسات الجديدة التي طلعت بها الحكومة والادارة المركزية

ضرورة التطور ومصاعبه

قابل انحسار العهد الجمهوري ، في الجانب الآخر ، قيام ادارة جديدة اقتضت ما اقتضته من نظم ومؤسسات اخذت تتفتح وتنتظم تحت اشراف الامبراطور وبمعيته ، فضمت عدداً من الموظفين عُهد اليهم الاضطلاع ببعض نواحي الادارة ومساعدة الامبراطور في الحكم . ففي خلال هذين القرنين ، لم يقم احد من هؤلاء الامبراطرة ، حتى من اشتهر بينهم بموقفه المعتدل من مجلس الشيوخ ، وباستعداده الطيب نحوه ، بممالأة هذا المجلس الذي لن تسنح لنا الظروف بالتنويه به ، إلا بنسبة ما يتصل بأتفه الاحداث التي رافقت هذا التطور بعد ان اصبح لا يُقاوم . صحيح انه قطع بعض المراحل بسرعة ، وهي سرعة لم تتم في عهد الامبراطرة الأكثر فظاظة او ذوي النزعات الأكثر اضطراباً، امثال كاليغولا ودومتيانوس مثلاً. فقد جاء هذا التطور على يد امبراطرة تأثروا كالامبراطور كلوديوس، مثلاً، بنُصح بطانتهم النيّرة ، او كالامبراطور هدريانوس ، الذي كان عهده حاسماً ، فوضعوا نصب أعينهم ، في الدرجة الاولى ، مصلحة الدولة العليا .

وهذا التطور الموصول ، لا يمكن ان يفوت معناه احداً على الاطلاق . فمن شتيت من المقاطعات ولَمّ الولايات ضمت بعضاً الى بعض، بعد ان تم فتحها على يد مدينة مظفّرة، حكمتها ونظّمتها بوسائل مرتجلة، وأمّنت حاجاتها كما تبدت لهذه المدينة، وراحت تطبق هذه الاساليب بالذات ، حقاً او بطلاً ، على العالم الذي خضع لها ، كان لا بد للامبراطورية الرومانية ان تهدف لنظام دولة ، وان تصبح بالفعل ، دولة لتحقق الاهداف التي تضعها نصب عينيها ، والرسالة التي تضطلع بها . فقد تأثرت ، ولا شك ، بما عرفت من خبرات الممالك الهلينية التي قامت في الشرق او ربطتها بها علاقات نامية واخذت الكثير من نظمها السياسية والادارية. فأين يمكن لها ان تجد ، في هذا المجال، احسن من الشرق الهليني تجربة ناضجة، مكتملة ، والمناهج القوية التي لا بد لدولة عظيمة ، من الاعتماد عليها والركون اليها ؟ فلا عجب ، ان يَرِدَ الامبراطرة الرومانيون على مثل هذا المعين الثري يعبّون منه ويصدرون عنه . إلا انهم كانوا متحفظين جداً في ما

نقلوا ، وحرصوا ألا يكون القبس تقليداً حرفياً ، ونقلاً أعمى ، فراحوا يكيّفون ، وفقاً لأغراضهم وحاجتهم ، بعض النظم التي تلقّفوها ، كما استنبطوا من جهتهم حلولاً جديدة للمشكلات التي عرضت لهم .

يجدر بنا ، ونحن نستعرض لهذا كله ، ألا نعوّل كثيراً على تضارب آراء الكتبة الاقدمين وجدلهم الصاخب ، الذين رددوا ، من حيث يدرون او لا يدرون ، ورجّعوا ، عن وعي او غير وعي ، رأي مجلس الشيوخ المعروف بتمسكه بماض مرّ وانقضى ، أفزعه طلوع طبقات اجتماعية جديدة في البلاد ، وهاله سفح « الحرية » ، واستبداد النظام الملكي من كل جانب . ففي التاريخ القديم ، على ادنى تقدير ، لم نر أي نظام ملكي ، حتى هذا النظام الامبراطوري نفسه ، يقبل ، راضياً مرضياً ، على الأخذ بمثل هذه الوظائفية في الادارة . فهو يشعر مسبقاً بفقره واحتياجاته الشديدة للموظفين الفنيين ، الأمناء المخلصين ، كما انه لا يجهل قط كيف ان رسوم الجباية والضرائب مهما زيدت ، تقصر عن تغطية الزيادة الحاصلة في بابي النفقات والصرف ؛ فلا بد ، والتالي ، ان يصاب نشاط الدولة بشيء من الوهن والضعف ، من هذا كله . فلا يُقبل على الأخذ بالنظم الجديدة إلا بضغط من الضرورات القصوى . ففي هذا الظرف بالذات ، فلذة الاستبداد لا تدخل في الحساب ، بل الحاجة الملحة للتنظيم ، لجعل الادارة أكثر فعالية ولانقاذها مما عانت من سوء التصرف ، ومساوىء عدم الكفاءة وعدم الانسجام التي تضرست بها من قبل .

ففلسفة العهد في مرحلته الاولى ، لم تكن ذات نزعة مطلقة . فهي على عكس ذلك تماماً ذات نظرة شورى . فالألوف من القضايا والامور التي كانت تُعرض من قبل لنظر ، كبار الموظفين ، أو لحكام الولايات ، أصبحت تُرفع ، منذ الآن فصاعداً ، للامبراطور رأساً . وهذا التوزع الذي ساد الادارة من قبل ، وحال دون خلق دوائر وإحداث مصالح فيها ، ولو بشكل بدائي ، أولي ، زال وانقضى وحل محله تجميع اداري جعل من الضرورة انشاء مثل هذه الشبكة الادارية وتنظيمها . فلم تنشأ كلها دفعة واحدة ، مكتملة الجهاز والاختصاص . والذي تأخر ظهوره ، ولا سيما في بعض المصالح ، هو الاعتراف بالطابع الرسمي لهذه المصالح ، مع انه كان باستطاعة الامبراطرة فرضها بالقوة قبل ذلك بكثير ، انما آثروا بقاءها والاستعانة بها كأدوات مساعدة خاصة . وقد بدا ، لعمري ، شيء من التناقض ، ولو في الظاهر ، بين العهد الجديد ، من حيث كنه وجوده وطبيعته ، وبين النظام الوظائفي الذي تبناه وسار عليه ، هذا النظام الذي قام في الأصل ، على التفوق البارز الذي تجلى في مؤسسه ، فاذا بالدولة تخفض من أثره المباشر فأقصرت عمله الاكبر على التوجيه ، والإشراف على ادارة لها كيانها الخاص وتنعم بالديمومة والاستمرار .

مجلس الامبراطور الخاص .

هذه الملاحظات التي ابديناها هنا ، تلاحظ على الاخص ، مجلس الامبراطور الخاص ، والمصالح العديدة الاخرى التى اقتضاها حسن سير العمل في هذا المجلس ، والتي لم تدخل في صلب تكوين الدولة الا من عهد هدريانوس .

كان لاوغسطس، منذ البدء، اصدقاء حميمون، بينهم « مكيني » و « أغريبا » ، كما كان يحف به، في اوقات الحرب، رفاق سلاح لم يلبثوا ان ألـّفوا حوله اركان حربه. وهذا العرف التقليدي، له اصوله الرومانية البعيدة الجذور والمحترمة معاً - فعلى كبير القوم ان يستشير من حوله - كما له اصول هلينية ، ولذا استمر الاخذ به والحفاظ عليه . ومـــع ذلك لم يبلغنا قط ، ان هؤلاء « الاصدقاء » ألـّفوا يوماً، بالرغم مما بين الاسماء من مشابهات، طائفة او هيئة مسلسلة الدرجات والرتب، شبيهة، من بعض الوجوه، بما كان معروفاً من امثال هذه الهيئات، في الممالك اليونانية.

فالاهمية المتزايدة للدور النامي الذي لعبه الامبراطور في الحقلين العدلي والقضـائي هي التي تـُبرز التقدم الذي تحقق في انشاء « مجلس الملك » الذي كان يجتمع بصورة غير منتظمة ، كما ان تشكيله كان يختلف في عهد اوغسطس ، ولم يصبح قائماً ، ثابت الشكل إلا في عهد طيباريوس . وقد تجدد تشكيله رسمياً واعيد النظر جذرياً في قوامه ، في عهد هدريانوس . وكان اعضـاؤه يقسمون الى ثلاثة فئات ، ويتقاضون مرتبات سنوية ويعقدون جلساتهم برئاسة الامبراطور او برئاسة كبير امناء البلاط ، في حال تغيبه . وهم يتألفون عادة ، من شفاليه وشيوخ ، يقر مجلس الشيوخ نفسه تعيينهم في هذه الوظيفة . وبين اعضاء المجلس عدد من كبـار الفقهاء والمشترعين، يتحلون، مهما كانت الظروف، بالكثير من الحنكة والخبرة الواسعة ونفاذ البصيرة.، وذلك للبت بالقضايا المحالة الى مجلس الامبراطور او المستأنفة اليه للنظر فيها من جديد، وذلك تفسيراً لقانون جديد ، او شرحاً او تكملة لتشريع خاص . ففي مجال الشرع ، حقق مجلس الامبراطور الخاص *Concilium principis* عملاً تشريعياً عظيماً من ابرز الاعمال التي قام بها العهد الامبراطوري .

المكاتب الادارية

لا بد للامبراطور من كتابة سر او ديوان، اسوة بسراة القوم وعظمائهم عند الرومان . فاستخدم اوغسطس ، في هذا السبيل ، أمثل ما لديه من الأرقـاء أدباً ، وارفعهم ثقافة ، وابرزهم علماً ، وهم على الغالب ، اقوام اغارقة او شرقيون ، اعاد اليهم حريتهم ، وأعتقهم ، بعد ان رسفوا في العبودية طويلاً فاعتقهم وحررهم ، تقديراً منه للخدمات الجلى التي أدوها .. وكانت امانة السر في بادىء الأمر ، ديوان كتابة خاص ، لا مشاركة له في الصلاحيات والاختصاص . ومثل هذا الديوان تم انشاؤه على يد الامبراطور كلوديوس ، الذي انشأ ايضاً عدداً من الدواوين والمصالح ، فجعل واحداً منها للآداب ، وآخر للمظـالم ، وآخر للتحقيق القضائي، وآخر للدراسات، وبعد ذلك قام ديوان آخر هو ديوان بيت المال او المحاسبة. واستمر العمل بهذه الدواوين لتيسير مهمة الادارة ، كما نشأ غيرها كثيراً فيما بعد ، كديوان المحفوظات *Archives* . وهكذا قام الى جانب الحكومة المركزية اجهزة ادارية أتيح لها ان تقوم بعمل رتيب ، رصين ، موصول الاصول ، لم يكن بد منه للانضباط .

ويبقى رؤساء هذه الدواوين او المصالح الادارية ، لمدة ثلاثة ارباع القرن ، بين يدي المعتقين من الرق . من أشهرهم في عهد كلوديوس الامبراطور : نرسيس *Narcisse* وبـَلا ّس . فالنفوذ العريض الذي تم لهما ، والغنى الوافر الذي جمعـــاه بطرق وأساليب تختلف أمانة واستقامة ،

والاجلال الذي أُحيطا به وهما في بطانـة الامبراطور ، والملق الذي لاقوه من ذوي الالتماس ، جعل اعضاء مجلس الشيوخ يحرضون في ريقهم حسداً ، كل ذلـك لم يخفِ عن الناس ، الأصل الوضيع الذي انطلقوا منه . فاذا ما خدموا الامبراطور فخدمتهم هذه تذهب لسيدهم بكل ما في الكلمة من قوة شرعية أكثر مما تتجه للامبراطور نفسه . وعلينا ان ننتظر طلوع عهد هدريانوس لنرى تغييراً جوهرياً في طبيعة هذه الدواوين ، اذ اخذ الامبراطور يسندها ويلقي بهـا الى شخصيات لها شأنهـا في المجتمع ، فيأتي بهم ، في معظم الحالات ، من صفوف الشفاليه . فأعضاء مجلس الشيوخ لا يمكن الاعتماد كثيراً على ولائهم ، كما ان المنزلة التي لهم باعتبارهم اعضاء الندوة المذكورة ترشحهم لوظائف أكبر ، من الوجهة العملية ، مع انها ترتبط بالامبراطور من الوجهة النظرية .

وصاية ونيابة

وأجهزة التقرير والتبليغ هـذه ، كانت تهتم بشؤون العالم الروماني كله بينما أنشأ الامبراطرة عدداً من الوظائف الاخرى ، عُمل بها في ايطاليا وببعضها في روما فقط ، وهي وظائف وادارات لا يمكن فصلها عن الحكومة المركزية بشكل من الاشكال نعمت كلها بصلاحيات وسلطات محلية وفقاً لدوائر ادارية معينة ، كما لعبت دوراً مهماً في عالم السياسة .

وهذه الوظائف المتباينة في طبائعها وصلاحياتها وفي مسؤولياتها ، من الممل والنافل معاً ان نحاول هنا استعراضها جميعاً ؛ يعهد الامبراطور ببعضها الى مفوض او مندوب يدير شؤونهـا ويتحمل مسؤولياتها كوظيفة « نواب » *Préfets* ، اما الاخرى فوظائف مزدوجة لها طابع فني او تقني ، تستوجب من صاحبها الاختصاص والاستمرار ، وهي شروط لا تتوفر عادة في الحكام والمراقبين الذين ينتدبون لمدة سنة . ومن بين هؤلاء الموظفين : الاوصياء *Curateurs* الذين يتألف من مجموعهم لجان تقوم بالاعمال التي كان يعهد القيام بها من قبل الى « سنسور » المراقب . والخاصة المميزة لهؤلاء الموظفين هي انهم يعيّنون من قبل الامبراطور ، وهو يدفع لهم مرتباتهم ويخضعون للترقية والترفيع ، والعزل والرفت ، حسبما يراه مناسباً . وبما ان الادارة لا تنفصل عن العدل والعدالة ، فالامبراطور يتدخل بواسطة المندوبين والمعتمدين في معظم شؤون الدولة : العامة والخاصه ، على السواء .

بين هذه الوظائف ، عدد كبير يحتفظ به لاعضاء مجلس الشيوخ ، منها وظائف الاوصياء ، باستثناء ما كان منها خاصاً بالطرقات الثانوية او الفرعية الواقعة في ايطاليا ، ومنهـا الطرقات الرئيسية او الدولية ، وقناطر روما ، ومصلحة ضفاف نهر التيبر ومجارير المدينة ، الى غير ذلك. ومن هذه الوظائف : نيابة المدينة التي انشئت ، في الأصل ، لتمثيل الامبراطور في رومـا ، عندما يكون غائباً عنها ، وبقيت وظيفة دائمة ، استمر العمل بهـا ، بعد مكث الامبراطور طيباريوس الطويل في جزيرة كابري . وعلى صاحب هذه الوظيفة ، ان يسهر على الامن واستتبابه في جميع انحاء المدينة ، وتحت تصرفه ثلاثة طوابير من البوليس البلدي . وبعد ان استهدف صاحب هذا المنصب لمنافسة شديدة طويلة ، بقي على رأس القضاء الجنائي ، في روما وضواحيها ،

على مسافة ١٠٠،٠٠٠ خطوة او ما يوازي ١٥٠ كلم . فاذا ما جمع الى وظيفته وهي عضوية مجلس الشيوخ ، عد ذلك تكريماً لمجلس الشيوخ كما عـد اعترافاً من الدولة بالدور المجيد الذي لعبه هذا المجلس في تاريخ روما والامبراطورية التي انشأتها.

اما النيابات الاخرى فيشغلها موظفون من فئة الشفاليه، بينها ثلاثة خليقة بالاحترام تستحق التنويه بها بشيء من التفصيل .

فاولى منها هي نيابة الـ *Prétoire* او الولاية وتشبه رئاسة الاركان ، وهي عبارة عن مركز عالٍ متعدد النشاطات والصلاحيات . فنائب الولاية هو قائد حرس الامبراطور قائد الجيش الاعلى ، الذي يتألف عادة من تسعة طوابير ، يعد الواحد منهـا بين ٩٠٠ — ١٠٠٠ جندي ، ومركزها روما منذ عهد طيباريوس ، بينما لم يكن منها في عهد اوغسطس ، في ايطاليا كلها ، سوى ٦ فرق لا غير . وهذه القوة مكلفة بالسهر على الامن وتأمين اسبابه ، وتمكين الامبراطور من ممارسة سلطته غير المحدودة باعتباره القائد الاعلى للجيش.

ورئيس الحرس يحمل دوماً خنجراً صغيراً رمزاً لوظيفته وللصلاحيات الواسعة التي يمارسها، يقلده اياه الامبراطور تنويهاً منه بان له حق الموت والحياة . ويقوم نائب الولاية ، من جهة ثانيـة بدور رئيس اركان الجيش ، ويتعهد تجهيزاته لا سيما في اوقات الحرب ، ويمارس ، في ايطاليا ، السلطة الجنائية ، على مسافة ١٠٠ ميل؛ كما ان موظفي هذه الفئة هم، بحكم الوظيفة التي يشغلونها، اعضاء مجلس الشورى ، كما نظمه الامبراطور هدريانوس . فصاحب هذه الوظيفة ، يأتي في قمـة سلم الدرجات الوظيفية ، وهي وظيفة تحفظُ عادة لفئـة الشفاليه . غير ان أباطرة العهد الاول يترددون في امر صاحب هذه الولاية ، يعهدون بها ، من وقت الى آخر ، دونمـا تميز او تحديد في الصلاحيات ، الى اثنين من الموظفين ، او الى واحد ، على السواء . الا انهم يفضلون ، مراعاة منهم للفعالية وحسن التنفيذ، وضبطاً للادارة ، إسنادها ، في الغالب ، الى موظف واحد ، مع ما عرف عنهم من حذر وتحسب له مـــا يبرره ، اذ ان قصة سيجان ، في عهد طيباريوس ، وبيرينتّيس ، في عهد كومود لا تزال ماثلة في الأذهان . فلا عجب ، والحالة هـذه ، ان يوجس الاباطرة شراً مـــن العهد بمثل هذه القوّة والسلطة الى نائب تجيش نفسه بالاطماع. ومن الامراض التي اوهنت العهد وفتت كثيراً في عضد الدولة لتفشيهـــا ، عدم توفر الولاء في هؤلاء الحكام ، وافتقار الموظفين للاخلاص ، وحب الانتفاض والثورة التي كثيراً ما تمخض بهـا جنود الولاية . فلا عجب ان يكون والي الولاية هو المسؤول الاول عما يحدث في الولاية من امور تخل بالامن .

اما الولايتان الاخريان الاقل نفوذاً وتأثيراً : ولاية الحراس *Vigiles* (شرطة الليل وسرية مكافحة الحرائق) ومصلحة التموين والتوريدات *Annone* ، فلم يكن من خوف او تحوط من اصحابها . فقد أولت ظروف الحياة وملابساتها المتشعبة والمعقدة في روما ، هاتين الوظيفتين ، اهمية كبيرة لما كان يجب ان يتحلى به صاحباها من الاستعداد الفني والتقني . فلا عجب ، والامر كما ذكرنا، ان يُضفي عليهما منصب والي الولاية ، بعض الظلال الكاسفة ، وذلك بالنسبة للقوة

العسكرية والحربية التي كانت توضع عادة تحت تصرف هذا الوالي .

عدد كبير من هذه الوظائف المستجدة يعيد الى الاذهان سوابق من الوظائف الهلينية. فمدير الحرس يذكرنا حتماً ، بقائد الليل *Stratège de nuit* لدى البطالسة ، ووالي الولاية نفسه المستمد صلاحياته من القانون الروماني العام يحمل طابع قائد الحرس الملكي في الممالك اليونانية التي قامت في اعقاب خلافة الاسكندر المقدوني بما اعتوره من شوائب ولازمه من عورات . وذلك يعود بالفعل ، الى طبيعة الوظيفة ومهامها الاساسية لدى الطرفين : فهي واحدة هنا وهنالك، اذ تقوم اصلاً بالاشراف ، والعمل على كل ما من شأنه ان يزيل الاضطرابات والقلق والفوضى . فاذا ما عرفت الامبراطورية ان تحل المشكلة على مثل هذا النطاق الواسع من الاجراءات والاحتياطات، وعلى مثل هذا الاهتمام الشديد والمستوى العالي الذي لم يُبلغ الى مثله او بعضه في الممالك الاخرى، فمرد ذلك ، من جهة، الى انها افادت كثيراً من التجربة التي تلقتها من الخارج، كما انها راعت ، من جهة ثانية ، ما كان يحف بروما من وضع معقد بالنسبة لعدد سكانها الكبير والاهتمام الذي هم به جديرون والامجاد التاريخية التي يمثلون . ومهما يكن من الامر، فالاباطرة، لم يعودوا ليعنوا ، هم انفسهم ، بحل المشكلة عن طريق ايجاد مصلحتين لهذا المنصب او دائرتين، طالما راح غيرهم يبحث عن مثل هذا الحل ، ان لم يكن توصل بالفعل ، الى حله بعد . من ذلك مثلاً انهم اقاموا حاميات دائمة مستقرة ، كما عهدوا بالامر ، من جهة ثانية ، الى عملاء ، لهم كل الثقة بولائهم فأولوهم صلاحيات ومسؤوليات انتزعوها ، على نطاق واسع ، من مجلس الشيوخ ومن بعض الحكام ، بحيث يستطيعون معها تأمين الادارة البلدية .

فالنتائج النظرية جاءت جلية ، واضحة بينما كانت هذه النتائج ، من الوجهة العملية بسيطة لا يؤبه لها كثيراً . علينا مع ذلك ان نلاحظ هنا ان الصعوبات العملية جاءت من قِبل قسم من الجيش والحاميات المرابطة دون ان يشترك الشعب بهذه الاضطرابات او يساهم في إثارتها ، كما حدث في كل من الاسكندرية وانطاكية .

٤ ـ الادارة المحلية والاقليمية

كذلك كان من الضرورة بمكان، تأمين ادارة رشيدة للامبراطورية ، تبرز معها المسؤوليات، تقتضي وحدة في السياسة ، كما تقتضي مواصلة العمل على تحقيقها . وكان من الحتم على السلطة الامبراطورية ان تبرهن، منذ البدء ، عن سيطرتها المطلقة وامتلاكها ناصية الامور والاشراف على الادارة الحكومية التي اخذت بالاتساع والتضخم .

ايطاليا

مجرد التفكير بتجريد ايطاليا مما لها من وضع ممتاز في الامبراطورية ، والقضاء على الامتيازات التي كانت تنعم بها ، منذ عهد بعيد ، كان من شأنه ان يثير وحده ، العثار ويطلق الشكوك . ففي هذا القطر الذي كانت فيه روما تنعم بما تنعم به من وضع مدني

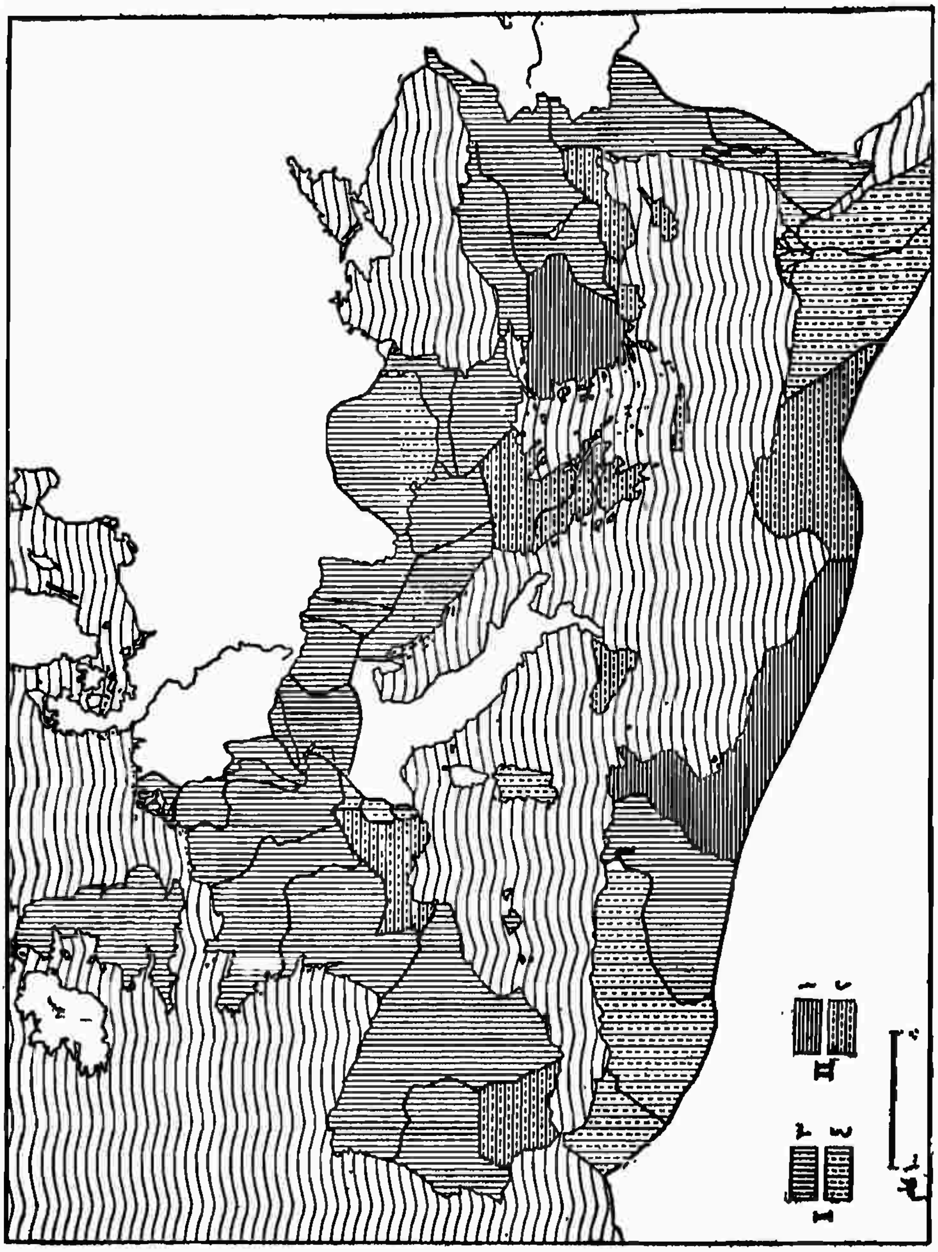

الشكل ٩ – خريطة التقسيمات الادارية للامبراطورية الرومانية في اواسط القرن الثاني

I – ولايات مشيخية يتولى الحكم فيها حكام من رتبة بروقنصل ؛ ١ – ولايات حكامها قناصل قدماء ؛ ٢ – ولايات حكامها بريتور مقدمون.

II – ولايات امبراطورية يتولى ادارة الحكم فيها ؛ ٣ – مندوبون بروبريتوريان من فئة قنصل قديم او مقدم قديم ؛ ٤ – بروكوراتور او ولاة من رتبة شفاليه .

من العسير تحديد الفئة التي كانت عليها جزيرة كورسكا – لم تكن ايطالية منقسمة اذ ذاك الى ولايات .

ممتاز ، كان الشعب يتمتع بشبه ادارة مستقلة، وتتولى الهيئات الشعبية ادارة شؤونها البلدية تحت مشارفة مجلس الشيوخ والحكام الاداريين المحليين . وقد أدخلت ، بعد ذلك بكثير ، تعديلات على هذا التقليد الموروث : فالشؤون البلدية فيها لم تستبد بالطبع بالاهتمام، كما استبدت به روما، ولا عرفت الحدة والدقة في الادارة التي اقتضتها روما في هذا المجال . ومع ذلك كان لا بد للادارة العامة من الالتفات لهذه الناحية ، وذلك بتعيين مندوب *Curateur* لهذه او لتلك من المدن التي تعاني البلبلة وعدم الانتظام في ميزانيتها ، وآخر ليعنى بشؤون العدل والعدالة. وقد طلع علينا الامبراطور هدريانوس في هذا المجال بتدبير جديد ألغاه خليفته ، ولم يلبث ان عاد اليه مارك اوريل وأصبح من بعده تدبيراً مرعي الاجراء رسمياً ، اذ قسم شبه الجزيرة الايطالية الى أربعة محافظات او ولايات ، قام على ادارة كل منها ، شيخ من اعضاء مجلس الشيوخ يحمل لقب « قاض »، اذ كان بين اختصاصاته القطع بالقضايا المدنية، بينما القضايا الجنائية كانت من اختصاص ولاة المدن والولاة الذين كانوا يعنون بمراقبة سير الحيـاة في المدن ، ويتدخلون بشؤونها ، كلما سنحت لهم الفرصة لذلك . وهكذا تم تدريجياً إعداد ايطاليا وتهيئتها للمصير ذاته الذي آلت اليه الولايات الأخرى ، بعد ان رؤي ادخـال تحسينات جديدة على اوضاع المدن في الولايات الأخرى .

توزيع الولايات والحكام تقدم ذكر الخطط الادارية الكبرى عندما جرى البحث عن وضع الولايات . ففي ١٧ كانون الثاني (يناير) عام ٢٧ ق . م ، صدر مرسوم قسمت معه الولايات الرومانية خارج ايطاليا، بين مجلس الشيوخ وبين اوغسطس ، على أساس من التوازن بين الجانبين . وما لبث هذا التوازن ان اختل فيما بعد ، لصالح الامبراطور، للتعديلات التي طرأت على هذا الاتفاق ، ولا سيا بعد ان ضمت الى الادارة الامبراطورية ، ولايات جديدة تم فتحها في وقت لاحق . ففي اواسط القرن الثاني ، كان الوضع بالنسبة للولايات الرئيسية التي كان حاكمها برتبة شيخ من اعضاء مجلس الشيوخ ، ومن بينهـا ولاية مصر التابعة طبعاً للادارة الامبراطورية، كما يلي: ٢٣ ولاية أمرها منوط بالامبراطور رأساً، و ١٠ ولايات مرتبطة اداريا بمجلس الشيوخ .

كان الامبراطور ، بالطبع ، يسيطر عن كثب ، على حكام الولايات الخاضعة لادارته ، وهم، في الغالب ، من اعضاء مجلس الشيوخ، سبق لهم ان شغلوا من قبل، مراكز قناصل او مفوضين، وفقاً لأهمية الولاية او الحامية العسكرية المرابطة فيها . فهم يحملون لقب « نائب اوغسطس » ، تدليلا على تابعيتهم ، ويضاف الى لقبهم هـذا الوصف *Proprétoriens* تدليلا على التحاقهم بالامبراطور لأن له الحق وحده في الدولة بأن يلقب بروقنصل في الولايات الآنفة الذكر . اما حكام الولايات الأخرى ، أي تلك التي أنيط امرها بمجلس الشيوخ ، فكانوا يؤخذون من طبقة الشفاليه ، ويعرفون باللقب *Procurateurs* ، فكانوا يتولـّون شؤون الولايات الصغيرة ، او ادارة المقاطعات التي لم تكن قطعت بعد شوطاً بعيداً في مضمار التطور الحضاري، مثل مقاطعات

موريتانيا الواقعة الى الغرب من افريقيا الشمالية . وعلى كل ، لم يكن تحت حكام هذه الطبقة أية فرقة من فرق الجيش. وعلى هذا الوضع بالذات كانت مصر وصاحبها يعرف بـ والٍ . وكانت مصر مركزاً لحامية عسكرية ، اختلف عدد فرقها على توالي الزمن ، فكانت ٣ في القرن الاول ، ثم اثنتان ، ثم واحدة منذ عهد هدريانوس . وقد دعا الى قيام مثل هذه الحامية في مصر ، ما كان لوادي النيل من أهمية بارزة ، في مد روما وايطاليا بما تحتاجان اليه من المواد الغذائية . ويكشف لنا المؤرخ الروماني « تاسيت » ما كانت تخفيه تولية الامبراطور لولاية مصر من سر خفي ، اذ كان يحذر الحذر كله من دخول أي عضو من أعضاء مجلس الشيوخ ، او أحد من فرقة الشفاليه له شهرته الواسعة ، مصر ، بدون ترخيص خاص منه مسبق ، وذلك لما يتعرض له من اغراء شهوة الخيرات الوافرة التي كانت ترفل بها تلك البلاد ، والرغبة في الاستمتاع بها ، فيأخذ في تبييت الدسائس وحبك المؤامرات للاستئثار بهذه الخيرات . فيحاول منع تصديرها الى الخارج ، وفي ذلك ما فيه من تهديد لسيطرة الامبراطور نفسه ولروما بالمجاعة. ولذا كان الامبراطور يولي الوظائف الادارية الكبرى لاداريين من رتبة الشفاليه ويعهد اليهم بوظيفة حاكم في الولايات الخاضعة لسلطته مباشرة .

ومهما يكن من أمر هؤلاء الحكام ، شيوخاً كانوا او شفاليه ، نواباً للملك او ولاة او مفوضين ، فهم من رجال الامبراطور وخاصته ، يصطفيهم بنفسه ، ويعينهم على رأس الادارة ، فيبقون فيها ما طاب له بقاؤهم عليها ، وهم مسؤولون عن ادارتهم امامه وحده ، او امام من ينتدبه من قبله لمحاسبتهم ، ينزل بهم القصاص الصارم ، اقله الرفت والعزل ، اذا ما اساؤا الى ما أؤتمنوا عليه ، من مهام ومسؤوليات ، او يجزيهم خيراً بمنحهم الألقاب الفخرية وترفيعات سنية ، اذا ما رضي عن اعمالهم ونتائج ادارتهم .

ولم يكن من النادر قط ان نرى موظفاً من اعضاء مجلس الشيوخ يتقلب تباعاً بين الوظائف الكبرى فيمارس تارة وظيفة *Proprétoriens* او بروقنصل ، اذ لم تكن مثل هذه الوظائف توزع على فئتين من الموظفين : اصحاب الاولى من الشيوخ الذين يمكن نعتهم بالحياديين او الأحرار ، واصحاب الثانية من الموظفين التابعين للادارة الامبراطورية . فهذه المناصب الادارية ذات الدرجة الادارية المشتركة والصلاحيات المختلفة التي اقتضت مصلحة الدولة وحسن سير الاعمال انشاؤها بكثرة ، وما يحدد لها من مسؤوليات وصلاحيات واغراض ، لم تكن سوى درجات في سلم التوظيف الخاص بالشيوخ ، وفقاً للعرف المتبع ، يعملون جميعاً ، كل واحد ضمن اختصاصه ، في خدمة الدولة ، وتأمين مصالحها . والى جانب الأخذ بهذا العرف الاداري المعمول به ، كثيراً ما كان الاباطرة يتخذون ، ابتداءً من مطلع القرن الثاني ، قرارات ومراسيم ، بتعيين عدد من كبار الموظفين يُنتقون من فئة الشفاليه ، في رتبة توازي عضوية مجلس الشيوخ أو أعلى درجة من بين الحاصلين على الرتبة الأولى من هذه العضوية ، الأمر الذي أدى بالتالي الى توحيد السلك الاداري ، وتأمين التجانس بين سلم الدرجات. وهكذا اصبحت هذه المفارقات النظرية ،

بين مرتبة وأخرى ، لا معنىً لها وليس ما يبررها . فالاشخاص الذين يقع عليهم الاختيار لملء هذه الوظائف ، سبق ان اعطوا الدليل على كفاءتهم وعلى ما يتحلّون به من قدرات ومؤهلات ادارية، وعلى جدارتهم المسلكية للمهمات التي ينتدبون اليها او تناط بهم. فتعيينهم لهذه الوظائف يُعتبر ترفيعاً استحقوه ، بعد ان عرفوا ان يجمعوا الى الاختصاص الذي يحملونه ، شعوراً قوياً بالاخلاص للمصلحه العامة المشتركة التي يعملون على خدمتها ، وان يزدادوا ولاءً للامبراطور ، بمنأى عن روح الزلفى والملق التي تطبع عادة رجال الحاشية والبلاط .

روح جديدة تغمر الادارة

في هذه الروح تقوم بالفعل احدى المفارقات التي ميزت العهد الجديد الذي طلع على البلاد ، والى مثل هـــذه النتائج الطيبة ، افضت التطورات التي طرأت على جوهر الادارة المحلية في الولايات .

فالمركزية الادارية التي سار العهـــد الجديد على مبدئها وطبّقها في الولايات ، لم تجلب معها المزيد من الحرية لسكان الولايات . فمثل هـــذا الجهاز الاداري البطيء الحركة والثقيل الوطأة لم يقتصد عليهم بالمتاعب . فالحريات التي ما زالت بعض الجماعات والهيئات الشعبية المحلية تتمتع بها ذهبت ، هي الأخرى ، ضحية الاصلاح الاداري ، فجرت على الأمور الادارية وقضاياها شيئاً من البطء والتمهل في معالجتها ، والتثاقل في تحريكها والانتقال بها ، اذ كثيراً ما كانت الادارة المحلية تضطر لرفع الأمر للادارة المركزية للموافقة على التدابير والاجراءات التي تتخذها في امر معين . فانشاء مصلحة البريد الرسمي للدولة وتنظيمها في عهـد الامبراطور هدريانوس تحمّل اعباءها ، السكان القريبون من طريق البريد ، اذ فُرض عليهم ان يُؤمّنوا ما يحتاج اليه البريد من حيوانات الجر ووسائل النقل .

ومع ذلك ، فاذا ما رحنا نقارن بين المنافع التي عادت على الشعب في العهدين شالت كفة الامبراطورية ورجحت . فالولايات التي لم تكن لتبالي باحتضار مجلس الشيوخ وحشرجته ، لم تتضرّس كثيراً بما حيك من دسائس في البلاد ومن الاغتيالات السياسية التي أتأمتها احياناً . فالمصالح الادارية الكبرى عرفت ان تؤمن التعاون بين مختلف الدواوين، وان تطبّق بحذافيرها، نصوص القوانين المعمول بهـا من قبل ، وذلك حتى في احلك الأزمات التي هزت الامبراطورية وفي عهد أسوأ الاباطرة . ان امبراطوراً من طينة نيرون مثلاً ، لم يكن كله سيئات، فترك اثراً اختلف قدراً لدى سكان الولايات. فما عسى ان يكون الوضع ، والحـالة هذه ، مع اباطرة خيرين ، عرفوا بنشاطهم العارم ، وتفرغوا للعمل الجدي على صعوبته ، امثال : طيباريوس ، وفسبسيانوس ، وترايانوس ، ومـــن جاء بعدهم . وهكذا جاشت الحكومة بادارة جديدة ، غمرها ، أكثر فأكثر ، شعور الولاء للسلطة ومكـّنت لهـذا الشعور في نفوس الناس وقلوبهم ، صهرتها التجربة ، وصقلتها الاختبارات الماضية فتأثرت ، الى حد بعيد ، بالنظريات والفلسفات الهلينية ، ولا سيا بالنظرية الانسانية التي تنزّت بهـــا فلسفة الرواقيين فانسجمت مع النزعات الرومانية بعدان لقحتها. وتمتعت هذه الادارة، الى جانب الثقة التي اولتها السلطة الامبراطورية،

بما يلزم من الوسائل لفرض مشيئتها وللتعبير عنها بأعمال واجراءات حظيت بتأييد السلطة ومساعدتها . وهكذا رأينا حكومات الولايات تنعم ، هي الأخرى ، بجهاز اداري ، تم له في جميع درجاته ، الملاكات والأطر اللازمة ، والمؤهلات الادارية التي لا بد منها . فكان من المتوجب على كل حاكم ولاية ان يراقب ، عن كثب ، مرؤوسيه، كما كان يخضع ، هو الآخر ، لمراقبة أعلى ، من قبل الادارة المركزية ، بما حوله من عيون مبثوثة وأرصاد قائمة . وقام الى جانب الوالي دوائر ومكاتب ديوانية محلية ، انتظمت أعمال الادارة ، وسارت بها على شكل ما قام من امثالها في روما . ولم يكن ليبدو لأحد قط ان الأمر بلغ حد الكمال والتمام في هذا كله ، انما ساد الجميع شعور بأن الوضع الإداري احسن حالاً بكثير ، مما كان عليه من قبل .

العدالة

برزت هذه الحقيقة على أنصع صورها في مرفقين هامين من مرافق الادارة العامة في الامبراطورية ، هما : العدل والوضع المالي في البلاد .

قام فوق السلطات البلدية حاكم الولاية الذي أخضع ما كانت تتمتع به هذه البلديات من حريات، لقيود وتضييقات متزايدة. فكان قطب الادارة الاقليمية ومرجعها الأكبر. فهو الذي يتولى النظر في أهم القضايا المدنية التي تعرض عليه ، ويُقِرّ الأحكام بالموت التي تصدرها المحاكم ، كما حدث ذلك لبيلاطس البنطي ، والي اليهودية ، عندما صدّق على الحكم بصلب السيد المسيح . كان للرعايا الرومانيين الحق بأن تجري محاكمتهم في روما اذا ما راحوا يتمسكون بحقهم هذا، فيمثلون امام محكمة الجزاء فيها وليس امام مجالس الهيئات الشعبية التي فقدت تباعاً كل صلاحياتها القضائية . وقد افاد القديس بولس وغيره كثيرون ، من هذا الحق الذي تمتعوا به بوصفهم يحملون الرعوية الرومانية . وهنا مجال للتساؤل كيف ان تكاثر عدد من يحملون هذه الرعوية لم يفضِ الى ازدحام هذه المحاكم بالمتداعين، إلا ان يقال بوجود حالات خاصة متميزة ، او الافتراض بأن بعض الحكام تجاوزوا صلاحياتهم دون ان ترتعد فرائصهم او يؤنبهم الضمير . فها مثلاً الحاكم « غلبا » ، نائب الامبراطور في اسبانيا ، قبل اعتلائه العرش ، يأمر بقتل متهم يحمل الرعوية الرومانية بالرغم من احتجاجه بجنسيته الرومانية، ويعلّق على صليب ابيض عال ، آخر لتسميمه ربيباً له، ثم تراه هو ذاته، بعد ان أصبح امبراطوراً، يحكم بالموت على نائب الامبراطور وممثله في جرمانيا السفلى، لاهماله التماس مجرم رفع محاكمته الى روما فضرب بالتماسه عرض الحائط . ومهما يكن ، ففي بعض الحالات عندما تكون الجريمة فاضحة نكراء ، كانت القاعدة المألوفة ان تجري المحاكمة في المكان الذي تقع فيه الجريمة .

حرص كل الولاة الرومانيين على ان يقوموا بواجباتهم القضائية خير قيام . ولذا نراهم يجرون دورات تفتيشية منتظمة في ولايتهم ، ويقيمون مجالس للعدل والنظر في أمور الناس ، في كل المدن الرئيسية التي يمرون بها ، وهم في هذا كله ، يستعينون بأهم رجال القانون ومشاهير الفقهاء ، فيتولون بأنفسهم ، او بالوكالة ، التحقيقات القضائية التي لا بد منها . وكانت بعض الولايات تقسم الى أقضية ولكل قضاء نائب عمومي يقوم بالمحاكمات . وكانت طبيعة الأحكام التي

يصدرها الحاكم هي الدليل الأكبر على ما فيه من مقدرة وعلى ما يتصف به من نزاهة ونصَفة ، اذ لم يكن هنالك مجال قط لتجد الرشوة طريقها اليه .

والخطر من ان يركب القاضي رأسه فيُصدر احكاماً اعتباطية ، كان يحـد" منه حق المتهم بطلب محاكمته في روما كما كان للامبراطور الحق برفع كل قضية اليه . فعلى صاحب الظلامة ، في الولايات الامبراطورية ، ان يرفع ظلامته للامبراطور نفسه . اما في الولايات المشيخية ، فبإمكان المتظلم ان يلتمس محاكمته امام الامبراطور او امام مجلس الشيوخ ، إلا انه كان يفضل دائماً المثول امام الامبراطور . وبالفعل كانت الأحكام تستأنف أغلب الأحيان ، حتى ان الحكام انفسهم ، كانوا لدى أدنى شك يخامرهم في قضية ما ، يبادرون باستئنافها الى روما . وهكذا نرى النشاط الحقوقي والقضائي يحتدم كثيراً في الحكومة المركزية، وفي اصغر الدوائر القضائية التابعة لها ويتوسع. فالامبراطور الذي كان ينزع في الصميم ليصبح المصدر الوحيد للتشريع والقانون ، كان يغتنمها فرصة ذهبية لتوجيه هذا التشريع حسبما تقتضيه الضرورات والنظريات الجديدة والعمل على توحيدها . وهذا التطور عاد بالنفع ليس على روما وايطاليا فحسب ، بل بالأكثر ، على الولايات التي عانت ما عانت من عَنَت الحكام المتعاقبين ، سنة بعد سنة ، على الحكم واستبدادهم في الأحكام التي كانوا يصدرونها .

المالية : استمرار التفاوت بين ايطاليا والولايات الاخرى

وعلى مثل هذا قس وضع المالية في الدولة . فالولايات كانت ملزمة بتقديم القسم الاوفى من مواردها ومحاصيلها. ومهما تعرضت له من احداث مفاجئة كان عليها ان تستمر في تقديم ما كان يتوجب عليها تقديمه لسد الحاجات المشتركة. فالامبراطور كان يتولى ادارة واستغلال «املاك التاج» وهي ممتلكات واسعة كان دخلها يسد جانباً من النفقات العامة. وممتلكات التاج هذه ، كانت تتألف اصلاً ، من عقارات خاصة صادرتها الدولة في إثر احكام سياسية صدرت على اصحابها ، ومن تركات اوصى بها اصحابها للامبراطور ، وهي عادة جرى عليها سراة القوم في روما ، ومن بعض ولايات بينها مصر ، التي كانت تخضع لنظام استثماري خاص، وتدر على الدولة الرومانية فيئاً يبزّ بضخامته كل ما كانت تدره ممتلكات التاج الأخرى مجتمعة. والى هذا، يجب ان نضيف الرسوم المستوفاة كضرائب غير مباشرة تُفرض على سكان الولايات والرعايا الرومانيين على السواء الذين كانوا يتحملون وحدهم ضريبة على التركات تعرف بضريبة واحد من عشرين ، أي ٥ ٪ من اصل التركات التي تذهب الى اباعد الأقارب التي كانت قيمتها تتجاوز ١٠٠ ٠٠٠ *Sesterces* [1] . وهذه الضريبة كانت تغذي« صندوق الجندي »، هذا الصندوق الذي كان يدفع تعويضات لأفراد الجيش عند صرفهم من الخدمة العسكرية . وكان اوغسطس يشعر ببعض الأسف لفرضه مثل هذه الضريبة على المواطنين ، لأنها تمس في الصميم، الإعفاء من الضرائب المباشرة ، هذا الامتياز

---

(١) السسترس عملة رومانية تساوي ربع دينار فضة.

الذي تمتعوا به منذ عام ١٦٧ ق. م . غير ان الولايات الايطالية بقيت وحدها بمعزل عن الضريبة الكبرى وهي الضريبة التي تقع على الولايات التي تم امتلاكها بالفتح ، وذلك بفضل ما تمتعت به من امتياز : « الحق الايطالي » *Jus Italicus* الذي ساواها بالعاصمة، فاعتبرت بموجبه ارض الفاتحين . وهكذا لم نلبث ان َطلَع علينا اخيراً ما ُعرف بتبرع التاج *L'or Coronaire* وهو تبرع اختياري ، من حيث المبدأ ، إلا انه بالفعل تبرع إلزامي ، على الجميع ان يقدموه للامبراطور ، سواءً أكانوا حاملين الرعوية ام لا ، وذلك في مناسبات خاصة ، كوقوع حوادث هامة سارة . فاذا ما رفض ترايانوس رفضاً كلياً مثل هذا التبرع عند اعتلائه العرش ، او اقتصر الامبراطور انطونين على تقاضي نصف هذا التبرع ، من الولايات الأخرى وأسقطه عن ايطاليا، فما هذه، إلا بعض حوادث يمكن اتخاذها دليلاً على ان هذه الاجراءات المستجدة كان في الإمكان ان تفضي الى طريقة في توزيع الضرائب أكثر انصافاً ومساواة ، إلا أنها بقيت ، مع الأسف محاولات بدائية لا غير . فالمساواة امام الضرائب ، كالمساواة امام القضاء او الادارة ، لم تكن ساعتها قد حانت بعد . ومما هو أدهى من ذلك ، فالاقتراب من مثل هذا الوضع كان يتم بتردد كلي لما فيه من مساس لمصالح الطبقات الممتازة الشديدة الحساسية .

المداراة الضرائبية وتوحيد رسوم الجباية

استمرت الولايات تتحمل وحدها تقريباً هذه الأعباء المالية المرزحة التي زادها وطأة قيام جيش لَجِب ، دائم ، وادارة متشعبة ، متداخلة ، ُتدفع لها مرتبات وأجور آخذة بالارتفاع والصعود ، يوماً بعد يوم .

والجدير بالملاحظة هنا انه لم يسبق للامبراطورية ان عرفت عهداً من اليسر والازدهار المالي كالعهد الذي مر عليها اذ ذاك . فقد راحت تنفق بسعة على مشروعات كانت تعد، اذ ذاك، من الكماليات ، وذلك بانشاء بلاط فخم كثير التكاليف ، وتزيين روما وزخرفتها بالمباني والصروح الفخمة ، والترفيه عن الشعب ، ولا سيما عن سكان روما ، بتأمين أسباب عيشه ولهوه ومرحه . وهذه التكاليف الباهظة اقتضاها جوهر النظام الذي سار عليه العهد الجديد ، اذ يكفي ان يتجاوز امبراطور ما ، كما حدث لنيرون مثلاً ، الحد المألوف في الانفاق حتى يدب الاضطراب والبلبلة في مالية الدولة وُتْرمى بالعجز والعسر. وقد رأينا فيما سبق، كيف ان الوضع العسكري في الامبراطورية كان يتأثر، في الأوقات العادية ، من نتائج سياسة التقتير التي تضطر الدولة للسير عليها ، في بعض الأحيان ، مع انه لم يكن اذ ذاك ، ما يحول دون فرض ضرائب جديدة او زيادة معدل الضرائب القديمة . كل هذا دليل قاطع على ظهور روح جديدة لدى الأسياد الذين تعاقبوا على الحكم . فقد اختفى من بينهم رجل الدولة الروماني ، المتعنّت المعروف بخشونته او جفائه ، وبرزت للعيان مثالية ملك يهمه في الدرجة الأولى تأمين رفاهية رعاياه الى ابعد حد . وهذه المثالية جاءتهم ولا شك ، من هذه الممالك الهلينية مع ما جاءهم من النظم السياسية التي اقتبسوها عن ملوك هذه الدول: كالبطانة، والبلاط ، والحاشية ، والمظهر الخارجي الفخم لمدينة روما ، التي اصبحت ، ليس فقط عاصمة البلاد وقاعدتها الكبرى بل ايضاً كرسي المملكة .

كل هذا الجديد يوحي بفكرة الحكم عند السيد ، كما يوحي بما يكنه من رعاية وعطف وروح النَصَفة للجميع .

وهذه المؤثرات الهلينية تظهر في أكثر من ناحية من نواحي النظام المالي الذي سارت عليه الامبراطورية الرومانية. فبعد ان فرضت سيطرتها على مصر ، راحت هذه الامبراطورية تفرض عليها نظاماً اقتصادياً أساسه : الاحتكار ، والاقتصاد الموجه ، وضرائب متعددة ترتكز على التعداد، والمراقبة الشديدة، التي أمنت للبطالسة مثل هذا الغنى الذي رفلوا فيه ،وللامبراطورية الرومانية صندوقاً عامراً بالنضار . وهذا الاستغلال المنظم الذي خضعت له مصر حسبما سمحت به تقاليد البلاد ، والنظام الاجتماعي السائد فيها ، لم يمكن تطبيقه في كل مكان . فقد اقتبست الامبراطورية من النظام المعمول به في وادي النيل ما رأت فيه نفعاً لها . من ذلك مثلاً فكرة الضرائب غير المباشرة على المبيعات بالمزاد العلني او الحراج ، بمعدل ١ في المائة ، كما فرضت رسماً مقداره ٤ ٪ على عمليات بيع الرق ووسعت العمل بهذا المبدأ وطبقته في تحصيل الضرائب وجباية الرسوم .

ولعل أهم الضرائب المباشرة هي الضريبة على العقارات . وفي هذا السبيل اخذت الدولة ، منذ اوغسطس حتى عهد الامبراطور ترايانوس، بعملية مسح للامبراطورية. كذلك كان هنالك ضريبة أعناق ، على أساس إحصاء لعدد النفوس . وفي عهد مارك اوريل ، أنشئت مصلحة الأحوال الشخصية وإلزام الناس بالتصريح بالمواليد . كل هذه الطرق كانت مرعية الاجراء في مصر منذ عهد بعيد . وقد تطورت اساليب جباية الضرائب، بعد ان توارت عن المسرح، خلال ازمة الحرب الأهلية التي عانت منها البلاد الامرّين، جمعيات الجباة والعشارين القوية. وامام هذا النقص في الجباية، راحت الدولة تعتمد ، في بادىء الامر ، تلزيم الخراج الخاص بالضرائب غير المباشرة ، ثم اعتمدت الطريقة المتبعة في مصر ، وهي تلزيم الخراج ولذا استعانت بجباة من الطبقة الاجتماعية المتوسطة حتى ومن الطبقة السفلى ، وفي ذلك تيسير لعمل هؤلاء الجباة لسهولة اتصالهم بالناس من جهة،ولسهولة مراقبة عملهم من قبل الادارة المركزية وتقويمها عند الاقتضاء. اما الضرائب المباشرة ، فقد استغنوا فيها عن المتعهدين والملتزمين وعهدوا اليها للادارة البلدية ، كل في ما يعنيها ، وبعد الجباية يكلف موظفون كبار باستلام المبالغ المحصلة ليجري تسليمها لبيت المال .

ففي الوقت الذي انقطع فيه دابر عهد الارتكابات والاختلاسات التي اتاها متعهدو الخراج، انقطع فيه كذلك،او قلّ كثيراً جداً،سوء تصرف الحكام والولاة وإرهاقهم الأهلين بصنوف من المظالم بعد ان اخضعوا لمراقبة شديدة من قبل مفتشين ماليين،مسؤولين مباشرة أمام الامبراطور. كما أجبروا على ارسال معظم الاموال التي يجبونها من الولايات الامبراطورية الى بيت المال *Fiscus* الذي كان يخضع مباشرة للامبراطور . كذلك ، كان المفتشون يراقبون ، عن كثب ، أعمال الجباية في الولايات المشيخية ، ويؤمنون تحصيل الرسوم والضرائب المترتبة على أصحابها، ولاسيما

الرسوم المفروضة على الارث والتركات ، فيرسلونها لمصلحة صندوق الجندي ، كما كانوا يؤمّنون، من جهة اخرى ، ادارة املاك التاج ويرسلون بدخلها الى صندوق الامبراطور الخاص . وهؤلاء المفتشون الماليون كانوا برتبة تحصيلدار ، اما الذين كانوا في الدرجات العليـــا ، فكانوا من فئة الشفاليه . وهكذا نرى هذه الطبقة الاجتماعية تؤمن ، هنا ، في العهد الامبراطوري ، ما كانت تؤمنه في النظام الجمهوري السالف، من جبـاية الضرائب والاموال المستحقة للدولة. إلا ان هذه المشابهة لم تكن لتصح الى هذا الحد ، وسنرى بعد قليـل ، التغييرات التي طرأت على تشكيل طبقة الشفاليه . ويكفي ان نشير هنا ، ولو بصورة عابرة ، الى التعديل في الدور الذي كانوا يقومون به . فلم تعد الدولة لتختار من بينهم متعهدين لتأمين الضرائب والخراج ، بل أصبحوا، من الوجهة النظرية، على الأقل ، مديري مال، بعد أن كانوا رجال اعمال ، في خدمة رجل يحكم الدولة ويدير شؤونها ، أي انهم اصبحوا ، اكثر فأكـثر ، موظفين اداريين يقومون بواجباتهم بروح جديدة .

مجالس الولايات

ليس بغريب قط ، ان يرتاح سكان الولايات ارتياحاً شديداً لهـذه التغييرات المدهشة التي طرأت على هذا القطـاع من الخدمة العامة في الدولة ، فراحوا يعبّرون عن غبطتهم للامبراطور ، بشق الوسائل ، منها مثلاً ، عبادة « روما واوغسطس »التي أدى الاحتفال بها الى ما عرف من بعد ، باسم « مجالس هيئات الولاية ».

فاللفظ المستعمل لا يعبر عـن المعنى المقصود الا بصورة تقريبية . والمراد بهذه المجالس : اجتماعات سنوية لمندوبين يختارون من بين المدن والحواضر القائمـة في هذه التقسيمات الادارية التي تتباين مساحتها وتختلف، لتشمل حيناً ، ولاية بكاملها ، وأحياناً اكثر من ولاية أو أقـل . من ذلك مثلاً مجلس « غاليـا » الذي كان يُعقد كل سنة ، في مدينة ليون ، فيجتمع فيه ممثلون عن الولايات الغاليّة الثلاث . وهكذا كان المجلس الواحد يؤلف وحدة تضم جمهرة الممثلين للأفراد الواقعين خارج نطاق بلديات المدن ، وهي الوحدة التي كان من مصلحة الادارة الاعتراف بها ، لما توفره لها من منافع وخدمات : كالشرطة والادارة المالية وغير ذلك . والتسليم بوجود هذه المجالس والاعتراف بها كان بمثابة تنازل من قبل روما عن بعض قوتها وسلطتها ، للشعوب التي أخضعتها لسيادتها والتي لم تشأ ، ان تكف ، كما كان باستطاعتها ان تفعل، عن العمل على التفريق بينها ، عملاً بالمثل القائل: فرق تسد . وهذا المجلس كان يتشكل عند الشعب الذي يمثـله ، وفقاً للتقاليد المرعية عنده ، وحسبما يقتضيه واقعـه العنصري أو السلالي ، ويؤلف عاملاً ضامنّاً يزيد من وحدته ويشد من روابطه .

وهذه الفكرة بالذات تفسر لنا كيف أنه لم يظهر مثل هذه المجالس في قطرين اثنين من أصل الاقطار التي تتألف منها الامبراطورية الرومانية ، هما مصر وايطاليا .

اما الأولى ، فقد كان لهامن غنى مواردها الطائلة ، ووفرتها ما جعل الهجوم الذي قامت به كليوباترا على روما مليئاً بالتهديد لهـــا ، وخطراً شديداً على مصيرها بالذات . ولهذا ، رأى

الرومان، في كل وحدة أو محاولة تكتل تقوم فيها خطراً يهدد الامبراطورية الرومانية في الصميم ، عدا عن انه لم يكن يقوم فيها ، اذ ذاك ، سوى عدد قليل من المدن . اما ايطاليا فقد كان عندها ما هو افضل بكثير من هذه المجالس ، اذ ان سكان المدن فيها كانوا رعايا رومانيين ، لاسيا وان وحدتها برزت على احسن صورة ومثال ، في هذه الحكومة المركزية التي قامت فيها وانبثقت منها بالذات . وهذه النظرية تفسر لنا كذلك القيود التي وضعوها للحد من نشاط هذه المجالس خشية ان يساء استعمالها ويوجه في غير الاتجاه الذي حدد لها عند قيامها . فلم يكن باستطاعتها ان تقيم فيا بينها شيئاً من التحالف او التوحيد، فتعمل معاً لهدف واحد مشترك ، لا سيا ومهمتها الأساسية هي التعبير عن عواطف من انتدبوها لتمثيلهم بهذا الاحتفال الديني أكثر من اجتماعهم لتكريم سيدهم وولي امرهم . وهكذا كان هؤلاء السادة ، المعدود الاصغر المشترك لهذه المجالس التي تمثل مختلف شعوب واقوام الامبراطورية الرومانية . فقد كانوا ما هم عليه ، لأن اوامرهم كانت عنصر انسجام وأداة تأليف للجهود المبذولة ، ولأن العبادة التي كانوا موضوعها كانت العاطفة الوحيدة التي تسمح لها بالتعبير عن نفسها .

إلا انه عندما اتضح للسلطة الرومانية ، على مر الزمن ، ان لا خوف عليها ولا خشية قط ، من هذه المجالس ، راحت تخفف من القيود والتضييقات الموضوعة على اجتماعات هذه المجالس ونشاطاتها. فالاحتفال بعبادة الامبراطور، وتعيين الكاهن الذي يتولى باسم جميع المجالس ترؤس الاحتفال المشترك ، بقي وحده غاية الاجتماع وهدفه الاوحد . فلم يعهدوا اليها بأية مهمة ادارية كتوزيع الضرائب مثلاً بين البلديات ، او تنفيذ الاشغال العامة ذات المنفعة المشتركة . فاذا ما احتج احدهم ببعض شواهد فهي من الندرة ما يؤلف شذوذاً دعت اليه واقتضته ظروف خاصة. فاقتصروا على ان يسمحوا لهؤلاء المندوبين بالاعراب عن وجهة نظرهم بشأن ادارة حاكم انتهت مدة حكمه ، على شرط ان يحملوا تفويضاً من قبل من انتدبوهم للتكلم باسمهم في هذا الموضوع بالذات . وعلى هذا ، كان يحق للمجلس ان يتخذ اذ ذاك، حسبا تقتضيه الظروف ، قراراً بالثناء او بتوجيه الشكر للحاكم السابق ، أو إقامة تمثال له ، وإلا فارسال قرار الى روما للمطالبة بمحاسبته حساباً عسيراً او بملاحقته امام القضاء .

وهذا النهج الذي برز وتبلور منذ القرن الثاني انما ينم ، ولا شك ، عن نزعة متحررة إلا انها ما تزال مترددة وستبقى خافتة مكبوتة لوقت طويل بعد . ولربما تجاوز المرء الواقع بعيداً وبصورة تدعو للاستغراب، اذا ما حاول ان يتخذ من هذا المسلك دليلاً على طلوع او بروز شيء من المركزية ، ان لم نقل صورة باهتة لنظام تمثيلي مر في الخاطر . وهذه المحاسبة العسيرة او بالاحرى هذا الحكم الجماعي لا يأتي إلا بصورة عكسية ، اذ ان الحكم الذي يعمل على رأس الادارة لديه أكثر من وسيلة ليوفر على سلفه ، إلا في الحالات الفاضحة التي لا يمكن طمسها ، إهانة تحقير بتوجيه اللوم اليه بصورة رسمية . غير ان محاكمته لا يمكن ان تقع او تأخذ مجراها إلا اذا سمح الامبراطور بذلك. فاذا رأى من المصلحة ان الأمر يهمه ويستلزم المزيد من المعلومات،

فالطلب الذي جاءه من الولاية ليس سوى وسيلة من الوسائل الكثيرة التي تتوفر لديـــه لدرس القضية وتكوين فكرة صحيحة له عنها ، وان لم تكن أفعل الوسائل وأقطعها . ومها يكن من الأمر ، ان هيئة دينية في الاساس لا يصح ان تتحول الى مجلس للمداولة والجدل الرصين ، ومن الصعب ان نتصور المدن تعمد الى تعيين مندوبيها ، قبل ان تقطع في مؤهلاتهم وصلاحياتهم للتشكي والتذمر لدى الامبراطور .

الادارة المحلية والمبادىء التي قامت عليها

هذه النزعة التحررية عُرفت مع ذلك ، انما على نطاق آخر ، في نطاق المدينة المتمتعة بالرعوية الرومانية ، وهي نزعة لم تنبثق عن أية نظرية فلسفية او حقوقية حول الحرية والمساواة وما للانسان من حقوق طبيعية اخرى . فقد أوحى بهذه النزعة اعتبارات عملية بحتة ، بعضها مادي الطابع والغاية ، والبعض الآخر على مستوى ارفع ، وعلى صعيد أعلى وأسمى .

فالرومان كالاغريق قبلهم ، رأوا في المدينـــة الإطار الأمثل ، لا بل الاوحد والممكن ، للانفتاح على الحضارة والاستبحار فيها ، وحرصوا كما حرص البطالسة من قبل، على قطع السبيل امامها في مصر وسد الطريق في وجهها اليها ، اذ جل همهم كان ان ينصرف النـاس فيها للعمل الصامت ، والشعب للانتاج ، ليس إلا . ومع ذلـــك ، فامهات المدن في المحافظات المصرية وحواضرها ، استحالت تدريجياً ، بفضل ما استجابت له من تطور بطيء لم يحاول ذوو الأمر مقاومته والحد منه ، الى وضع قريب من وضع المدن المتمتعة بالرعوية الرومانية . اما في غـير مصر ، فالامبراطورية تشجع الأهلين وترغبهم على الاخذ بأسباب الحياة في المدينة . فقد حرصت الحرص كله على المحافظة على وضع هذه المدن والاستمرار عليه ، كما حرصت على خلق ما يشبه هذا الوضع حيث لم يكن معروفاً . فالى جانب هذا الدور المتعدد الوجوه الذي تستطيع ان تؤديه ، المدن التي تتمتع بمثل هذا الوضع ،وهو دور لا نود هنا الاستطراد في تفصيله وتبسيطه ،فقد كان من شأنه ان يسهل كثيراً مهمة الادارة المركزية ويخفف من مسؤولياتها ، اذ يحررها مـن واجبات ومهمات ومتاعب كان عليها ان تتربص بها . فالدولة كانت على أتم استعداد لأن تترك لرعاياها المؤهلين ، معالجة الأمور العادية المحدودة الأفق ، لا سيما والعهد الجديد ، لم يكن تم له بعد ، لطراوته ، الموظفون الاكفاء للاضطلاع بالادارة .

وكان لا بد ، بالطبع ، ان يبقى هذا الاستقلال الاداري محدوداً ، وفي نطاق تقسيمات بلدية صغيرة الحجم ، نادراً متوسطة ، تعجز عن النهوض بأوَد ثورة مسلحة . هذا هو بعينه تحديـــد المدينة . ففي البلاد التي لا يمكن انشاء أكثر من ٦٠ مدينة فيها ، تتمتع بالرعوية الرومانيـــة ، كمقاطعة غاليا مثلاً التي تم فتحها على يد قيصر، حيث حركة تجميل المدن البطيئة كانت تضطر الادارة الى توسيع الدائرة الجغرافية للمدينة الواحدة ، قضى التطور الحضاري والأخذ بأسبابه، بتكوين مجتمعات مدنية لم تعتم ان رُفِعت الى مستوى المدن المتمتعة باستقلالها الاداري. كذلك، من الواضح ايضاً ان كل الوسائل كانت تتخذ لتصبح ادارة هذه المدن ، اينما قامت ووُجدت ،

في ايدي عناصر اجتماعية وحضارية توحي الثقة لروما وترتاح اليها ، كطبقة الارستوقراطيين والبورجوازيين ، وجنود دوماً على استعداد لكبت أية اضطرابات تنشأ في المقاطعة ، ورعايا رومانيين قديمي العهد في رعويتهم ، وإلا فمن عهد حديث ، وجنود متقاعدين ألِفُوا النظام ، وشابوا على روح الانضباط ، وأقاموا على الولاء للسلطة ، او سكان أصليين في البلاد ، أخذوا بالمثُل الحضارية الرومانية ، وهم على اشد من اليقين بوجوب التعاون مع الحكومة لنشر هذه المثُل بالذات ، تحسساً منهم بالواجب المترتب على المواطن الواعي بوجوب الاخذ بأسباب التمدين . وهكذا اصبحت الإدارة البلدية معيناً أمدّ الامبراطورية باداريين أكفاء خدموها خدمات صادقة ، وبرهنوا ، أثناء توليهم الوظيفة ، عما أُوتوا من مواهب مخبوءة تتفتح ، بينما يتدربون على اعمال الادارة ويتمرسون بها. كذلك من الواضح ايضاً ، ان السلطة المركزية كانت تمارس مراقبة شديدة لهذه الخلايا الاجتماعية الناعمة ببعض الاستقلال الاداري ، وذلك لتحول دون انتقاضها او تمردها ، او لتحول دون انزلاق أمورها الى الفوضى ولتقوّم منها العوج ، وتصحح الاتجاه عند انحرافه .

وكان بالإمكان التعويل على الادارة الامبراطورية المحترزة والتي لم تكن لتلقي بالكلام على عواهنه والتي لم تكن لتتهاون بأمر التحذيرات الصادرة عن صميم الشعور بالسلطة، والمستوحاة من تصرفات الدولة السلوقية ، فترضى بالتنازل لهذه المدن عن بعض صلاحياتها الادارية في القطاع المحلي. فحذت الامبراطورية حذو سياسة خلفاء الاسكندر المقدوني في آسيا ونزلت عند الأسباب ذاتها التي نزل عندها هولاء الملوك ، فطبقوا سياستهم الجديدة على نطاق ارحب ، وفي اقاليم واقطار اوسع بكثير، محتفظين فقط ، وبصورة استثنائية ، بادارة الأملاك التابعة لهم ضمن هذه الخلايا الاجتماعية شبه المستقلة ادارياً. فلو قـيّض لهذه التجربة ان تأخذ مداها الكامل، لأصبحت الامبراطورية عبارة عن شبكة متصلة الحلقات من وحدات متجاورة بعضاً من بعض ، متمتعة بحرية ، تعمل الادارة المركزية على توجيهها وتأمين التنسيق والانسجام بين جهودها في كل ما يؤول لخدمة المصلحة العامة ، وتأمين اسباب الدفاع عن الامبراطورية . غير ان هذه المحاولة لم تؤت أكلها حتى في عهد الاسرة الانطونية التي كانت أقرب الى تحقيقها وتحييزها من سواها . ومن ثم راح تنظيم المدينة يخدم فيما بعد اغراضاً أخرى . فتعميم هذا النظام وانتشاره لم يكن ليكوّن خطراً يهدد الامبراطورية ، بل جاء على عكس ذلك تماماً في خدمتها ومصلحتها لأنه هيأ لشيء يقرب من الوحدة الادبية فيها ، كما لم يكن ، من جهة اخرى، بَدْوَة من بدوات سلطة نزقة مستبدة . فقد تجاوز هذا الاستقلال الاداري للبلديات ، في مفهومه وكيفية تطبيقه على الوجه الذي جروا عليه ، طاقات هذه المدن وامكاناتها الصميمة .

المؤسسات البلدية

عرفت مدن الشرق الاغريقي ، منذ عهد بعيد ، النظم البلدية ومؤسساتها . فقد جاء تشكيلها مطابقاً للطراز الذي اتّبعته روما في المدن التي كانت تعترف لها بحق الرعوية . وبالرغم من مفارقات عديدة عرضية في تفصيلاتها، تتعلق بالحكام، فقد توصلوا

مع ذلك بيسر ، الى نموذج واحد مشترك بين الجميع .

اشتملت هذه التنظيمات فيما اشتملت عليه ، هيئـــة اولية للمواطنين في المدينة مهمتها ، في الدرجة الاولى ، تعيين الموظفين الاداريين ، واتخاذ القرارات التي تقتضيها ادارة البلدية ، بعـد بحثها ومناقشتها . كذلك ضمت الى جانب هذه الهيئة ، مجالس الاختيارية ، ويضم الواحد منها مئة عضو ، مهمته مراقبة الموظفين وتزويدهم بالتوجيهات والارشادات والتوصيات التي يقتضيها حسن سير الادارة . كذلك تضمنت هذه التنظيمات عدداً من الوظائف يقوم عليها موظفان يُنتخبان في كل سنة ، ويتدرّجان تباعاً في سلم المراتب الفخرية . وكان الاعلى درجـــة بينهما يُكلـّف ، في نهاية كل خمس سنوات ، باعداد جدول مفصل ، لشيوخ البلدة ، حسب درجاتهم ومراتبهم ، تذكر فيه أسماء الموظفين القدامى ، كما تذكر في لائحة أخرى اعيان المدينة ووجوهها البارزين .

كل هذه الهيئات والمجالس كانت تخفي تفاوتاً بين مدينة وأخرى . إلا ان ما خضعت له من تطور مزدوج من قبل الحكومة ، عفوياً كان ام موجهاً ، أوجد بينها تجانساً كبيراً .

من هذا التطور ما تناول وضع هذه المدن بالذات ، على ما بينها من تفاوت بيّن واختلاف ظاهر . فبينما كان بعضها خاضعاً لارادة الحاكم المستبد ولمشيئته ، كان ينتظم البعض الآخر منهـا شيء من التحالف او الاتحاد وتنعم ، بفضل المواثيق والمعاهدات السابقـــة التي عقدتها ، بحق التمتع باستقلالها الاداري ، شريطة المحافظة على ولائها في الأمور السياسية والعسكرية . وهذا الوضع نزع ، اينما قام وَوُجد ، الى التوحيد ، سواءاً أكان على نظام « المستعمرة » او « البلدية » *Municipe* ، او بموجب « الحق اللاتيني » ، او ، في احسن الحالات ، « الحق الرومـــاني » . وراحت المدن تلتمس من الامبراطور ، الإنعام عليها بمثل هذا الوضع وما استتبعه من مثل هذه الحقوق ، وان فقدت معه شيئاً من أصالتها ، لما في ذلك من ربح أكيد وفائدة كبيرة للمواطنين ، اذ يكتسبون ، باعداد أكبر ، وبصورة تلقائية ، الرعوية الرومانية ، فيصبح المواطنون ينعمون بالحق اللاتيني المألوف ، كما ينعم مجلس شيوخها ، بالحق اللاتيني «الأكبر» الذي اعطاه الامبراطور هدريانوس ، وجمهرة المواطنين بكل الحقوق الرومانية .

أما الوجه الثاني لهذا التبدل أو التطور الذي لم يكن بد منه بعد ان أخذت روما بأسبابه منذ مطلع الامبراطورية ، فانه أحال شبه طيف أو خيال ، الهيئة البدائية ، مع استمرارها على عقد اجتماعاتها كمألوف عادتها . كذلك راح مجلس الاختيارية يجرّدها من كل صلاحية ، بعد ان أخذ من الألقاب والكنى اعلاها وأسناها ، منها مثلاً : « النظام الإلهي » . وجرت العادة ، في عهد مبكر ، وهي عادة جاء نص رسمي يكرسها ، بالتبرع لصندوق البلدية ، بمبلغ من المـال ، عندما يحظى المرء بترقية أو تعيين في رتبة : كالكهنوت ، أو عضوية لمجلس الاختيارية او الحاكمية . وكثيراً ما دعا حب الظهور المقرون بمحبة الوطن الأصغر ، للتنافس في التبرع والسخاء . وهكذا آلت الادارة البلدية الى أيدي الطبقة البورجوازية في المدينة ، تحت رعاية الاسر النبيلة ورعايتها

وفقاً للتقاليد المتوارثة أباً عن جد . أما الطبقات الوسطى ، فقد كانت دوماً بعيدة عن الادارة، لأنها لم تحظ بحق الرعوية في المدينة ، هذا الحق الذي فقد عند الفقراء والمعدمين ، كل معنى ومدلول ، ما لم يتدرج الواحد منهم في السلم الاجتماعي ، قاطعاً درجاته عن طريق الاثراء .

سير الادارة وبدء الأزمة

كان باستطاعة الادارة المركزية ، والحالة هذه ، ان تتظاهر بالتسامح والتجاوز : فهي تترك للسلطات البلدية المحلية طائفة من الاعمال والمهام الصغيرة ، كالمحافظة على النظام ، وتأمين أسباب العدالة ، وتشييد الأبنية البلدية وصيانتها ، وتنظيم امور العبادة والطقوس الدينية ، وإدارة الاملاك البلدية ، وتنظيم موازنة المدينة ، حتى وجباية الرسوم والضرائب المباشرة العائدة للدولة ، وغير ذلك . وقد عرفت ان تحتفظ بحقها في التدخـــل بشوون المدينة وان تمارس هذا الحق في كل مناسبة ، وتمارسه اكثر فأكثر ، وبصورة اوسع .

فقد نال هذا النظـام رضى الفريقين ، وبالرغم من بعض الشكوك والصريف يتردد صداه ، الفينة بعد الفينة ، فقد بدا للجميع انه نظام قابل العيش والبقاء . فبفضل هذا النظام، كثيراً ما استطاعت مدن عديدة ان تزدهر ، كما عرفت ان تشيد المباني والصروح فتبرز في اطـار مادي فخم ، كما انه أفسح المجال أمـام التمثيل الحضاري ليحقق نجاحات عظيمة استطاعت الطبقـة البورجوازية معها ان تنعم بالرعوية الرومانية . وبفضل هذا النظـام ، عرف الاباطرة ان يختاروا من بين المواطنين الحديثي العهد بالمواطنية الرومانية ، ما هم بحاجة اليـه من الموظفين الاداريين الذين اتصفوا بالرصانة ، وصدق الولاء ، والتجربة الواسعة . وهذا النظام عينه يفرض وجود أقلية مختارة في الولاية تُباهي بمـا تتمتع به من مراتب ومراكز، هي ابداً على استعداد للاهتمام بالشوون البلدية وتخصيص ما يلزم لهـا من الوقت والمال ، الى ان جاء وقت رأت فيه هذه الأقلية المتميزة أن تتوارى عن مسرح عملها ، بعد ان تبينت ان الغُرم الذي نابهـا يفوق الغُنْم الذي تنعم به وهو غُنم لا يتفق ومنزلتها بين الجماعة، كما ظهر لها انها لا تستطيع سد النقص الذي طرأ على ثروتها. وهكذا لم تعتم ان قامت الصعوبات . ومن الراجح جداً ان الادارة اضطرت حتى في عهد ترايانوس، الى تعيين أعضاء مجالس الاختيارية ، غصباً عنهم وبغير رضاهم . ولعـل ما هو أدهى من هذا وأنكى ، ما وقع في عهد الأسرة الأنطونية ، وهو عجز الأموال الجبـاة محلياً عن تغطية نفقات العيش الرضي الذي سار عليه عدد كبير من المدن. فسخاء بعض أغنياء المواطنين وكرمهم الحاتمي لم يستطـع سد العجز ، فراح الأباطرة يغدقون المساعدات لهـــا ويتنازلون لهذه المدن عن متأخرات الضرائب المستحقة عليها ، الى ان اضطروا للذهاب الى أبعد من هذا ، بصورة فردية ، آنيّة اولاً ، ثم بشكل أقوى وأبقى ، وذلك بتعيين مندوبين ، وفي الغرب سموا مفوضين *Curateurs* ، وعند الاغريق مفتشي مالية *Logistai* ، بغية تحقيق التوازن بين المدخول والمصروف . وهكذا أخذ استقلال هذه البلديات بالزوال .

الخلاصة

النظام الملكي وبناء الدولة

عند انتهاء هذين القرنين لم يبق شيء من الأوضاع والاحوال التي لابست الحيـــاة السياسية والادارية في الامبراطورية .

فزوال عهد الجمهورية وحلول النظام الملكي محله ، هما ابرز هـذه التطورات وأقربها للنظر . فمن المغالطة والخطل في الرأي ان يحاول المرء تجاهل هذا التبدل او الانتقاص من شأنه وأهميته . وهذا التغيير تردد صداه ليس في الخارج فحسب، بل في النفوس والأذهان ايضا. فقليل من الواقع السيكولوجي يكمن دوماً وراء التعابير والاصطلاحات والرموز الرسمية . ولكي يستمر الأخذ بهذا التطور في عهد اباطرة كثيراً مـا صدم سلوكهم كما صدمت اعمالهم اعتقاد النـاس وايمانهم انهم من جبلة فوق جبلة البشر ، وانهم مسارّ الآلهة ، لا بد ان يكون أطلّ شيء جديد عـلى العالم . وهذا الشيء الجديد الذي لا يمكن لأحد نكرانه او تجاهل ضرورته وجدواه هو الدولة، دولة لها جماع الطاقة وجماع القدرة ، بعكس السلطة التي زالت وتوارت ، تستطيع ان تؤمّن الحد الأدنى لوحدة ادبية تشد العالم الروماني بعضاً الى بعض، وتحافظ على اسباب الامن وتصونها من عبث العابثين والطامعين، وتعرف كيف تستمد منه ما يلزم للدفاع عن كيانها ، وان توزع الضرائب بالعدل والسوية ، دون ان ترهق فريقاً او تزهق الآخر ، وموجز القول دولة لها مـن السلطة ما يؤمّن اشاعة نمط من العيش شامل ، رتيب . وقد سارت النجاحات التي حققها تنظيم هذه الدولة جنباً الى جنب مع النجاحات التي حققتها السلطة الملكية بحيث لا يمكن لعمري فهم هذه دون تلك ، لما بينها من تفاعل وانفعال.

ليس ما يحول،من الوجهة النظرية، دون النظام الجمهوري لتحقيق مثل هذه الدولة التي تؤدي مثل هذه الخدمات . والامر الثابت الذي لا مراء فيه هو ان الجمهورية لم تتمكن من تحقيق مثل هذه الدولة ، مع ان العهد الذي جاء بعدها استطاع ذلك .

فالدولة الجديدة كانت لها نظمها ، ومؤسساتهـا المركزية التي عرفت ان تؤمن لها الاستقرار والبقاء بمعزل عن شخص الامبراطور ، كما كانت لها نظمها الاقليمية التي عرف الامبراطور ان يراقب منهـا النشاط وان يوجهه ، وكان لها موظفوها الاداريون وخبراؤها الذين تحلـّوا ، على الإجمال، بالنزاهة والمهارات الضرورية ، لأنهـا عرفت ان تفوز من الطبقات الاجتماعية التي كانت تصطفي من بينها هؤلاء الموظفين ، بالاخلاص للمناهج والأساليب التي اخذت بأسبابها، فراحت تطبقها لمصلحة الجميع .

فقد دفعت البلاد غالياً من حرياتها الرومانية والايطالية ثمناً لهذا كله ، وهو ثمن مشروط لم يكن بد منه ولا محيص عنه . فقد جعل ازدياد عدد المواطنين الرومانيين وانتشارهم في جميـع اطراف العـالم الروماني ، وجود المجالس البلدية امراً يدعو للهزء والسخرية . اما مجلس الشيوخ الذي اعجزه الحفاظ على روح الانضباط في الجيش ، فلم يكن اسعد وضعاً ليؤمن بواسطته حكام ينتخبهم كل سنة ــ كثيراً ما تجلى تخطلهم ــ حسن سير الادارة المدنية مع هـذه المشكلات

العويصة التي كانت تعترض سبيله . فالفوضى الكيانية التي كان لا بدّ لهذه المجالس التمثيلية ان تخلقها ، لم تشهد ابتداءها في هذه المجالس الاقليمية ذات الدور المتواضع الخاص . ولذا كان أكثر فعالية وابسط للأمور ان يصار الى نظام ملكي .

وقد جاءهم بالفعل مثل هذا النظام، واضطروا للإقبال عليه والايغال فيه اكثر فأكثر.اما ما طرأ من تغيير على استقلال البلديات الاداري ، فدل على ان كل خطر أطلّ منه تهديد لحسن سير اداة الحكم والادارة المركزية للدولة، أعقبه بصورة عفوية توطيد للسلطة الامبراطورية وترسيخ لها في النفوس . فمن يستطيع ان يتبين التقدم الذي كان بامكان هذا النظام ان يحققه في البلاد لو لم تصدمه أزمات مفاجئة ؟

الفصل الثالث

الحياة الاقتصادية والاجتماعية

لا يمكن للوحدة الادبية في الدولة ان تكتمل ما لم يتحقق حد ادنى لوحدتهـــا الاقتصادية والاجتماعية تشد بين اطرافها جميعاً . فالجمهورية ليس انها لم تفعل شيئاً في سبيل تحقيق مثل هذه الوحدة ، بل لم تهيء لها الظروف لظهور عفوي ، اذ ان جل همها انصرف لاشباع حاجات روما المباشرة بالنهب والسلب ، والان توفر للايطاليين ، غالباً بغير رضى منها ، المنافع التي يتمتع بهـا المواطنون من سكان المدينة ، دون ان تعدّهم للوضع الحقوقي الذي ينعم فيه المواطن الروماني. اما الامر فقد تم على غير ذلك مع الامبراطورية ، تحت تأثير ارادة واعية ، مدركة لاغراضها ، ناشدة لاهدافها ، من جهة ، ومن جهة اخرى ، بفضل هـذا التطور الذي خضع له وضع الامبراطورية العام بعد أن عرفت ان تهيء له الأسباب. وأهم هذه التغييرات كان ، فعلاً : « السلام الروماني » وانتظام الادارة في الولايات الرومانية . وقد صحب هذه التغييرات انقطاع دابر الارتكابات ، وتوقف استثمار هذه الولايات المفرط لصالح اقلية ضئيلة من اصحاب الامتيـازات . صحيح انه بقي شيء من هـــذه الامتيازات في الدولة الجديدة انحصرت في بعض مقاطعات وفئة من الناس تميزت على غيرها من هذه المناطق والطبقات . الا ان الفارق الذي كان يميز وضع هؤلاء عن وضع اولئك ، لم يكن ليثير الحفائظ ويبعث الحسد والضغينة في القلوب والنفوس ، بينما انتقاء اصحاب هذه الطبقات ، اقله فيما يتصل بالافراد ، اخذ يتم بصورة اوسع ، وبشكل ارحب ، ووفقاً لقواعد واصول جديدة . وهكذا أطلّ على الدنيا ، في الحقلين الاقتصادي والاجتماعي ، طراز حيـاتي جديد ، شاع وعم ولم يلبث ان رسخ في الارض واعرق. وكان من اسباب هذا الوضع ومن نتائجه ايضاً ان روما لم تشارك فيه على قدم المساواة وبقيت محافظة على بعض مـــا كانت تتمتع به من امتيازات ، الا انها عولت الا يكون دورهـــا فيه غير دور عاصمة تؤمن الانسجام بين الاجزاء المقومة وتجري بينها العدل بالسوية .

١ ـ الاقتصاد

والشعور الذي ساد الجميع ، هو ان الحياة الاقتصادية تميزت ، خلال هذين القرنين ، بالانطلاق والازدهار . هنالك ، لعمري ، نقط سود في الصورة : أُفول نجم ايطاليـا ، وتشابك التبادل

والعطاء مما لا بد منه لتأمين شيء من التوازن المرغوب ، وعدم الاستقرار في ما كان عليه الوضع من سرعة العطب . الا انه لم يحدث شيء مهدد للآن ، والازمة الايطالية التي استشعر الناس قرب وقوعها وثقل وطأتها ، امكن ايجاد مُلطّف وقتي لها ، اذا ما امتنع الدواء . فساد الهدوء والاطمئنان القسم الاكبر من القرن الثاني ، بحيث اصبح جائزاً القول بطلوع شعور عام بالرضى والارتياح .

هموم الحكام وهواجسهم : روما والجيش

راح معاصرو العهد يعزون الفضل في هذا كله للادارة الامبراطورية ، ولا سيما للاباطرة انفسهم ، وهم في ذلك انما يرددون ما تنفخ به ابواق الدعاوة الرسمية . الا اننا لا نستطيع ان نعزو ذلك اليهم الا بالمداورة ، نتيجة فرعية لسياستهم الحربية والادارية . فقد احترزوا كثيراً من تطبيق سياسة اقتصادية ، ولا سيما من وضع فلسفة اقتصادية . ولعل خير ما كانوا يرجونه الا يتدخلوا في امور وموضوعات كثيراً ما اعوزتهم الحيلة لمعالجتها بعلم واصول . وما كانوا أرغموا للتمرس بمثل هذه الأمور لولا اضطرارهم لمواجهة قضيتين عصيبتين هما : تأمين تموين روما ، وتموين الجيش الروماني .

فقد كانت روما ، اذ ذاك ، مدينة ضخمة جبارة ، اختلف المؤرخون وتباينوا كثيراً فيما بينهم ، حول عدد سكانها ، وذلك لقلة المصادر الركينة التي يصح الاعتماد عليها . فقد فرّط بعضهم وراح يقترح ٢٠٠,٠٠٠ ، عدد سكان هذه المدينة ، بينما القول بمليون لم يكن بمستغرب قط . ومهما يكن من الامر ، فهذه الجماهير الجمهرة التي تعمر بها العاصمة ، لم تكن لتنتج كبير امر ، منذ عهد بعيد . فقد اقتصر نشاط اليد العاملة فيها على بعض مصنوعات يدوية لسد الحاجات المحلية . فالمدينة قبل كل شيء مستهلك ، أكول ، دون اي بديل او عوض . وهي الى هذا ، مستهلك ، ألف منذ عهد سحيق ، ان يعيش حياة رخيصة ، نظراً للتدابير التي كانت تتخذها الحكومة لتبقى اسعار الحنطة رخيصة ، ولتوزع الطحين مجاناً على المواطنين الفقراء والمعوزين . ولما كان من المستحيل مجرد التفكير بقطع هذه التقاليد المرعية وضرب عرض الحائط بها : فروما سيدة العالم ، وهي في الصميم من هذه الفتوح الرومانية العريضة ، وما الى ذلك من مشاعر ومصالح واعتبارات تتعلق بهذه الجماهير التي ترى في الامبراطور الخليفة الشرعي للحزب الديموقراطي ، وممثل التريبون حامي الشعب ونصيره .

فكان على الامبراطور ، والحالة هذه ، ان ينظم على احسن وجه ، مصلحة التجهيزات والتوريدات ، لتأمين أوَدَ العيش ، لما لا يقل عن ٢٠٠ ٠٠٠ او ما ينقص قليلاً عن هذا العدد ، في عهد اوغسطس ، من رؤساء الأجناس القاطنة في روما ، الموزعين على ٤٥ دائرة ، يتلقون على مدى ايام الشهر ، مجاناً ، كمية القمح اللازمة لاعالتهم . اما الباقون فكان على دائرة التموين ان تسعى جهدها لتأمين حاجاتهم بصورة منتظمة ، وبأسعار مقبولة . اما في اوقات الفاقة والمجاعات ،

كما حدث، سنة ١٩ مثلاً بعد الميلاد ، في عهد طيباريوس ، فكان الامبراطور يدفع مبلغاً للتجار لتأمين أسباب العيش للشعب .

كل هذا وما اليه ، الى جانب الاعياد والالعاب المعدّة للترفيه عن الشعب ، كالأعطيات التي توزع عيناً ، ومقدارها ٤٤٥ ديناراً في عهد اوغسطس وهو الرقم المألوف ، ثم ارتفعت الكمية في القرن الثاني بحيث تجاوزت ٦٥٠ في عهد ترايانوس ، وبلغت ١٠٠٠ في عهد هدريانوس ، لتنزل الى ٨٥٠ في عهد مارك اوريل ، واستقرت على ٨٠٠ في عهد كومود ، وهي مبالغ كانت توزع على المواطنين ، الذين لا يستفيدون من المساعدة المجانية ، اثناء بعض الاعياد . هذا فيما يتعلق بالمساعدات النقدية . اما من جهة الادارة الفنية ، فكان ذلك انما يعني إنشاء مفوضية التموين *Annone* ، ومصادرة وسائل النقل البحري ، واعداد أرصفة نهر التيبر وتجهيزها ، الى جانب تجهيز مرفأ مدينة اوستي ايضاً .

اما امر تموين الجيوش ، وتجهيزها بالعدد والعتاد ، فقد وضع الدوائر المعنية امام مسؤولية ثقيلة، كان حلها مع ذلك ابسط واسهل من تموين الشعب. فمجموع افراد الجيش المطلوب اعالتهم كان اقل بكثير من إعالة هذه الجماهير الشعبية التي يجب مساعدتها في روما . ثم ان هذا الجيش لم يكن مجتمعاً او محتشداً كهذه الجماهير المتراصة في روما والتي تعجز اخصب السهول المجاورة عن إشباعها ، بل كان موزعاً على الحدود: حاميات تحمي حمى الاراضي والمزدرَعات التي كانت تستغل في المؤخرة . وكان يكفي لتأمين حاجته ان يحصل من الولايات القريبة منه فائضاً كافياً من محصول الارض ، وان يؤمن نقله بحيث يصل للمستهلكين بسلام . فالمشكلة الاولى كان يمكن حلها بواسطة الدراهم . اما المشكلة الثانية ، وهي ادق وأصعب لوقوع هذه الحدود في منأىً بعيد عن البحر المتوسط وموانئه . وهذا ما دعا لشق طرقات برية عندما يتعذر النقل النهري . وفي سبيل هذا التجهيز وتأمين اسبابه المزدوجة الغرض – اذ ان الطرقات كانت تستعمل لنقل الجيوش ايضاً – امكن توفير اليد العاملة ، وذلك بتسخير افراد الجيش وتشغيلهم في شق الطرقات وتوسيعها .

العالم الروماني وجهاً لوجه مع مسؤولياته

وهذه المسؤوليات الحكومية، تقتضي للنهوض بها المال والاخصائيين . فاذا ما نظرنا اليها بمنظار العالم الروماني ، والمستوى الحضاري المادي الذي حققته بعض اجزاء هذا العالم، فلم تكن هذه المهام والمسؤوليات التي توجبها ، فوق طاقته ، اذا ما توفرت له ادارة حكيمة رشيدة . فالمال الذي كان لا بد منه لتحقيق هذا كله ، كانت توفره موارد البلاد الاقتصادية ، ولم يكن ليكلف عبئاً ثقيلاً عليها .

فباستثناء مصر التي بقيت خاضعة لنظام خاص من الاستقلال والاستثمار لا رحمة فيه للفلاح المصري ، كان الوضع القائم مؤاتياً لحياة اقتصادية ناعمة تعم جميع اطراف الامبراطورية ، لا سيما والاستقرار الذي تنعم به البلاد كان يشجع على القيام بهذه الجهود . فروما والجيش ألّفا في الامبراطورية ، سوقاً للاستهلاك لا حدود لها تقريباً ، اذ كان من اتساع هذه الحاجات وتنوعها

ما يتطلب المزيد من انتاج محاصيل الارض . فالى جانب الحنطة التي كانت تؤلف اساس الغذاء وقِوام أوَد العيش، يجب ان نضيف محاصيل غذائية اخرى متنوعة يطلبها الكثيرون من الزبائن والمستهلكين ، ومقادير هائلة من المنسوجات والمصنوعات المعدنية التي يمكن نقلها على الطرق القائمة في جميع اطراف الامبراطورية .

فقد كانت روما قطب جذب ومركز ثقل هائل، لكل ما يمكن ان يبلغ في طريقه الى موانىء البحر الابيض المتوسط ، حتى ما كان منها من الكماليات الغالية الثمن ، لوجود اصحاب ثروات طائلة في احيائها وصروحها . اما قيام الجيوش: حاميات على اطراف الامبراطورية وحدودها المتاخمة لشعوب البرابرة ، فقد بعث في هذه الاقطار المتأخرة في تطورها عن ركب الحضارة ، نشاطاً عارماً لم تكن لتعرفه ، كان من بعض نتائجه الخيّرة ، احياء موات الارض وإعمارها ، وحرثها وتزايد السكان فيها ، وانشاء المصانع والمعامل في ارجائها . ثم ان إنشاء شبكة اتصال منتظمة الحلقات ، بين هـــذه الحدود والاقطار الواقعة في مؤخرتها امتدت الى اطراف البحر المتوسط الذي كان ، مع ايطاليـا ، واسطة العقد وملتقى الخطوط ، ساعد على إنشاء المجاري المائية او النهرية الكبرى والطرقات الرئيسية ، ومهّد السبيل امام حركـة تجارية جبارة ، لم تقتصر المبادلات فيها على بضائع الاستهلاك وحدها .

وهكذا ، فالنتيجة المحسوسة الكبرى التي تهم الى حد بعيد المؤرخين اليوم كما همت المعاصرين لهذه الحركة الاقتصادية ، تبلورت عن تشعب العلاقات التجارية وتشابكها، وضم الاقطار الشاسعة الواقعة على شواطىء البحر الابيض المتوسط الغربية الى الوحـدة الاقتصادية التي اقتصرت ، من قبل ، على شواطىء البحر المتوسط الشرقية ثم ربطتها الفتوحات الرومانية بقلب ايطاليـــا ، واخذت هذه الوحدة تتسع لتضم في نطاقها : قطاعـات الدانوب والرين ، وجنوبي ايكوسيا . وهكذا نرى البريطانيين يتجرون مع منطقة بوردو ، كما راح سكان مدينة آرل يتـّجرون مع لبنان، في الوقت الذي كان فيه التجار السوريون يجوبون جميع اطراف العالم الروماني الذي كان قبل كل شيء وحدة سياسية وعسكرية ، لم يلبث ان اصبح وحدة تجارية واقتصادية ناشطة ، حيـة ، بفضل الروابط التي شدت دوانيه الى اقاصيه عبر البحر المتوسط .

التجارة ووسائلها التقنية

وهذا الازدهار التجاري توفرت له عوامل تقنية في غاية الملاءمـة . فمن مقومات هذا الازدهار ، هذه الامبراطورية المترامية الاطراف ، ذات الانتاج المتنوع ، والغلال المتعددة ، والمحاصيل الزراعية المختلفة ، والاساليب الصناعية المتباينة . وكان السفر والتجوال والرحلة في جميع أطرافها حر لجميع رعايا الامبراطورية، لا يحد من امكانات الرحلة إلا هذه الازدواجية في اللغة : اليونانية في الشرق ، واللاتينية في الغرب . ومع ذلـك لم تؤلف هذه الازدواجية عقبة كأداء، استعصى حلها . وانتقال المحاصيل الزراعية حظي بالحرية نفسها ، باستثناء الحبوب المصرية التي لم يكن الامبراطور يسمح بتصديرها لغير ايطاليا إلا في ما ندر . وكانت هـــذه المبادلات تخضع ، بالطبع ، لرسوم وضرائب لم تكن ابداً رسوم حماية ،

معتدلة في أقدارها ونسبها . من هذه الرسوم ، مثلاً ، رسم الدخولية وهو رسم كان يجبى عند مداخل بعض المدن ومنها رسم اقليمي *Portoria* ، تجبيه الدولة عندما تجتاز البضاعة شبكة طرق مركزية، كما لو مرّت في غاليا مثلاً، بما فيها المقاطعات الألبية التي تفصل بينها وبين ايطاليا، او في اقليم آسيا الصغرى. كان معدل هذه الرسوم المختلفة يوضع على نسبة قيمة البضاعة المستوردة او المصدرة . وقد بلغ الحد الأعلى لهذا الرسم في صقلية ٥٪ مع انه قلما تجاوز ٢،٥٠٪ عادة .

وقد أنشأت الدولة شبكة من الطرق الممتازة وتعهدتها بالصيانة والرعاية . وتبرز أهمية هذه

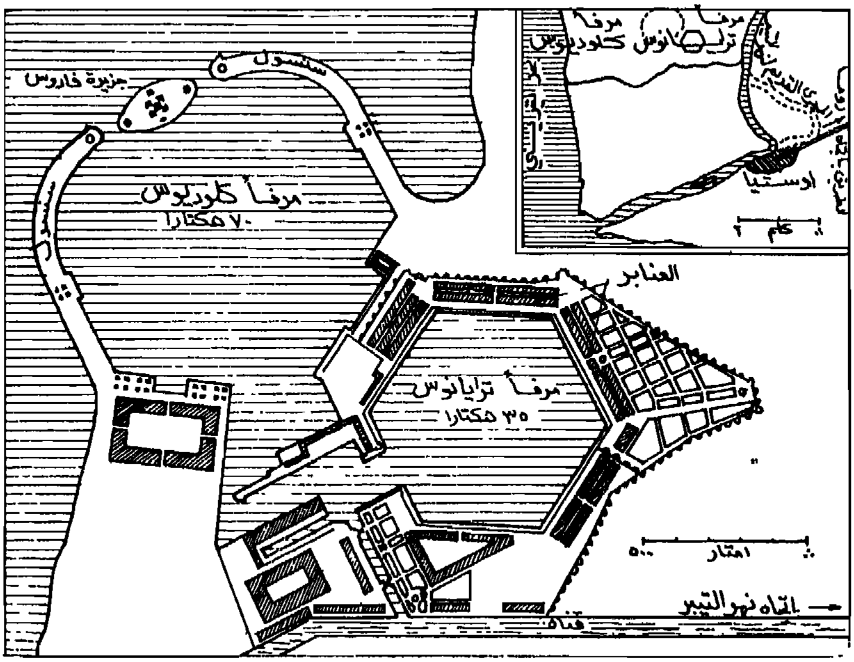

الشكل ١٠ – مرافىء أوستي القديمة
في هذا الرسم تظهر القناة المؤدية الى المرافىء القديمة وتدعى الفيوميسيو

الطرق اذا ما قارناها بما كان منها ، من قبل ، اذ كانت مجرد معالم مسالك تسلكها حيوانات الجر. وقد حقق مهندسو الطرقات إنجازات هندسية جبارة تُعد بحق، من المعجزات اذ ذاك، لتخطي بعض النواتىء الطبيعية ، من جبال ووديان ومنحدرات صعبة الاجتياز . كما ان هذه الأعمال الهندسية كانت مثالاً للجرأة. فكل عهد من عهود الأباطرة الرومانيين الذين تعاقبوا على الحكم ترك آثاره المعمارية البارزة التي تحدت الدهر في بقائها ، ولا يزال بعضها ماثلاً للعيان حتى يومنا هذا . ولكن حذار من ان نضخم أكثر مما يجب ، واقعاً متحيزاً ، لا نزال نطأطىء الرأس امام روعته . فالخرصانة الرومانية (الباطون) التي اقتضت من المهندسين جهداً كبيراً من الحيلة والتصور ، لم يعتمد عليها في رصف الطرقات، فاستعاضوا عنها بالبلاط القوي المقصوب، يرصفون

به الطرق رصفاً جميلاً. كذلك لم تأتِ وسائل استخدام الحصان كحيوان للجر والنقل على مستوى النجاحات التي حققها الفن الروماني في مجال بنـــاء الطرق . فبيطرة حيوانات الجر بقيت عادة محدودة لم يشع استعمالها . وطريقة كدن الحصان الى العربة لم تعرف، على ما يظهر استعمال طوق المنكبين ، بل استمروا في استعمال سيور يؤثر ضغطهـــا على صدر الحيوان وحركة تنفسه. ولذا قلما زادت حمولة عربة يجرها جوادان على ٥٠٠ كيلو غرام ، وهي كمية قليلة تبهظها تكاليف السفر والرسوم وترهقها . فالطرقات الامبراطورية التي كانت تبعث في النفس الدهش والإعجاب لانسيابها في صراط قويم غير مبالية بالنواتىء الطبيعية، كانت تصلح لتنقلات الجيوش والمسافرين الذين لم يكونوا ليحملوا معهم مهاماً كثيرة ، كما تصلح لسير البريد الذي ينقل المخابرات الادارية .

ولهذا راحت الحركة التجارية تعول بالأكثر، على النقل البحري. فقامت عمارات وأساطيل يقودها مجذفون ، تذرع مجاري الأنهر ذهاباً وإياباً ، حتى ما كان منها صعب المسالك ، عسير المرتقى كنهر الرون ونهر الأود . ولو اقتضى الامر جر السفن بالليان او نقل البضائع على الظهر . فمن الغريب جـــداً ألا يعمد المهندسون الرومان ، الذين عرفوا بجرأتهم ومغامراتهم في مجالات التعمير ومرافق أخرى ، الى حفر الترع والأقنية . ومن الأقنيــة القليلة التي عرفت عنهم ، قناة تتعلق بمجرى الرين الاسفل ، ولا سيما القناة المعروفـــة اليوم باسم إيسّيل التي كانت تربط النهر المذكور ببحيرة فليفو *Flevo* المعروفة اليوم ببحيرة زويدرزيه .

وعرفت الملاحة في البحر المتوسط ازدهاراً غريباً، بعد ان ُقضي او كاد ، على اعمال القرصنة التي تعرضت لها ، وذلـك بفضل يقظة البوليس وحراسته الصارمة للطرق والمسالك البحرية . فالسفانة لم تسجل تقدماً ملموساً ، وبقي حجم السفن على مثل ما وضعته عمارة السفن البحرية في تلك العصور ، اذ كان ، على الاجمـــال متوسطاً ، باستثناء الاسطول الخاص بدائرة التموين ونقل الحبوب من مصر الى ايطاليا ، اذ كانت هندسة هذه السفن تخضع لتصميم خاص اتى «بلين الأكبر» على وصفه، حتى ما كان منها معداً لنقل مسلة فرعونية او قاعدة تمثال لا يقل وزنه عن ٥٠٠ طن ، بقطع النظر عن صابورة السفينـــة التي كانت تبلغ احياناً ٨٠٠ طن ، وهي ، على الاجمال ، من العدس . اما الترعـة التي شقت برزخ كورنتس لتفادي الدوران حول شبه جزيرة البيلوبونيز ، والتي وضع تصميمها قيصر ، وتابع نيرون العمل فيها ، فلم يتم انجازها . وقد أدى إعداد المرافىء : البحرية منها والنهرية ، وتهيئتها ، الى اشغال عظيمة ، حذا فيها المهندسون الرومان حذو اسلافهم المهندسين الاغريق ، وبزّوهم في اشياء كثيرة . ولم تبلغ هذه الاشغال من العظمة والجهد ما بلغه إعداد مرفأ مدينة اوستي وهو مرفأ روما المفضل . ولا تزال ماثلة للعيان معالم الإنشاءات الجبارة التي قام بها هؤلاء المهندسون على شواطىء ايطاليا والشرق الادنى ، في مواقع على سيف البحر ، مثـــل شلتوميليه ، وتيرّاسينا ، وترابيزو واسكندرية–ترواد ، وبمبيوبوليس في كيليكية ، وبقايا الارصفة الضخمة التي اقاموها لكسر قوة الامواج المهتاجة ، والجزر الاصطناعية ، والمنائر الكبيرة ، والارصفة التي اقاموها في وجه الامواج العاتية . ولعل

غلطتهم الكبيرة هي انهم لم يفطنوا للحؤول دون غشيان الرمول لاحواض السفن ، او لترسب مياه الانهر . فما من مرفأ من هذه المرافىء عرف مدى كالمدى الذي عرفه ميناء الاسكندرية ، اذ كان تيار مائي يحول دون غشيانه بطمي النيل .

النقد الرومـــاني والعملات المستعملة

قام في خدمة التجارة ، حتى اواخر القرن الثاني ، نقد روماني قوي، سليم. فقد اجيز لعدد من المدن الكبرى في الشرق نعمت بالرعوية الرومانية ، سك بعض النقود من البرونز والفضة. ومثل هذا الامتياز الذي كان قابل الالغاء، خضع بطبيعته ، لمراقبة شديدة من قبل السلطات الرومانية . والتعامل بهذه العملات التي وصفها علماء النُميّات في عصرنا هذا « بالمسكوكات » الاستعمارية ، وكان التعامل بها في نطاق ضيق ، فتح المجال امام اعمال صرافة محلية عرفت الحركة التجارية العامة ان تتفاداها بيسر، لوفرة النقد الرسمي المتداول بين الناس أماكن سكّه.

فالعملة البرونزية كان سكها حقاً محصوراً بمجلس الشيوخ، ويخضع بالتالي، لمراقبة شديدة من قبل الادارة الامبراطورية لانها كانت عملة رسمية للدولة . وهكذا عرفوا ان يتفادوا ، في آن واحد ، تضخم النقد وهبوط قيمته. اما هبوط قيمته ، فقد اعتُمد في تفاديها خليط من الرصاص والزنك مع النحاس والقصدير . فقطعة البرونز المثاليـة كانت قطعة الـ *Sesterce* التي كانت تساوي ربع دينار فضة . وهذه القطعة بقيت الوحدة الاساسية في التداول ، حتى في المبـــالغ الكبرى ، اقله في ايطاليا والغرب .

واحتفظ الامبراطور لنفسه بحق سك العملة الذهبيـــة والفضية ، ممثلة بريال الذهب ، والدينار . وقد طبق دوماً ، خلال هذين القرنين ، القرار الذي صدر في عهـد اوغسطس بجعل قيمة ريال الذهب تساوي ٢٥ ديناراً ، بالرغم من التطورات التي لحقت، فيما بعد ، بهاتين العملتين بنسبة الواحدة الى الاخرى، وكان من جراء سيطرة الامبراطورية على مناجم الذهب في مقاطعة داسيا ، بعد فتحها على يد الامبراطور ترايانوس ، ان اضعف القيمة الشرائية لعملة الذهب ، التي بعد ان كانت ١٢ ضعف قيمة الفضة ، في عهد اوغسطس ، اذ بها تهبط الى ٩ اضعاف. وهذا بعينه يفسر لنا الهبوط الذي لحق بالدينار من حيث وزنه وعياره. فاذا ما بقي عيار ريال الذهب عالياً ، اي بنسبة ٩٦ ./. ، واذا كان وزنه لم يهبط الا بنسبة عشرة في المائة ، فالهبوط الذي لحق بالدينار كان أشد ، لا سيما ما تعلق منه بالعيار ، اذ سقط من ٩٨ ./. في عهد اوغسطس ، الى ٨٨ ./. منذ مطلع القرن الثاني .

هذه المعطيات والارقام التي اتينا على ذكرهـا اعلاه ، تثبت بوضوح ، ان الاباطرة ، عموماً، باستثناء الامبراطور نيرون، لم يلجأوا الى المضاربات والتلاعب بالنقد للتخلص من الصعوبات المالية التي كانوا يعانونها ، وهي صعوبات طفيفة ، غير ذات بال على الاجمـــال ، الى عهد مارك اوريل ، فصادفت الامبراطورية الرومانية ، اذ ذاك ، من جميع الوجوه ، صعوبات ارغمتها على الاخذ بالتضخم المالي الذي صحبه هبوط مريع في عيار الدينار .

بالرغم من تنوع ولاياته وتباعدها وتنائيها ، بقي العالم الروماني قبل كل شيء، عالم البحر المتوسط،وان أطلّت بعض اقاليمه على المحيط الاطلسي. وهـذا العالم الشاسع الفسيح كان اعجز من ان يشبع مطلب الطبقات الاجتماعية وحاجاتها لبعض المنتوجـات والمحاصيل التي تصنع في الخارج ، وهي منتوجات ، استبدت باذواق هذه الطبقة المرفهة ، المترفة ، التي نما فيها هذا الترف خلال اتصالاتها الطويلة العهد بسراة الشرق الهليني وأغنيائهم ، فتطبعت باذواقهم وتخلقت باخلاقهم وعاداتهم . هنالك لعمري ، اقطار ومدن عرفت الاتجار مع هذه الأقطار النائية فكان ذلك باعثاً على ازدهارهـا وغناها . فقطع هذه الاصناف عن رومـا فيه ذهاب هذه الثروات عن اهلها . وهكذا اكتملت التجارة في الداخل بحركة تجارية في الخارج لم يكن ليستهان بها، وان كانت دون الاولى اهمية وشأناً. وهذه التجارة الدولية ، على نشاطها، اكثر من دليل وبرهان، في اكثر من مصدر ومرجع ، كما عليها اكثر من دليل ، في هذه الآثار المادية التي خلـّفتها ، اذ نجد في بعض انحاء الامبراطورية حاجيات اجنبية الصنع ، كما نجد نقوداً وعملات رومانية من جميع الفئات في بلدان اجنبية مختلفة .

وهكذا راح المؤرخون يدرسون اليوم ويبحثون قضية الميزان التجاري في الامبراطورية الرومانية . والأمر الذي لا شك فيه هو ان الميزان التجاري كان يشكو عجزاً تسبب في خروج المعادن الثمينة من البلاد وانسرابها الى الخارج . ويرى بعضهم ان حركة نزوح الاموال هذه ، بلغت من الشدّة بحيث نشأ عنها هبوط اقتصادي محسوس .

فالاتجار مع شمالي اوروبا وشرقيها لم يسجل اي هبوط من هذا الشكل. فبعد ان كان العنبر (الكهربا) يتبع في انتقاله ، طرقاً شتى ، كان ينتهي به المطاف الى ايطاليا عن طريق مدينة اكيليه التي بقيت، حقبة طويلة ، عقدة للمواصلات التجارية مع بلدان الدانوب. وقامت في القرن الثاني حركة تجارية انطلقت رأساً من بلدان نهر الرين الاعلى باتجاه الدانوب ، كما ان بلاد غاليـا الشمالية كانت تصدّر على نطاق واسع ملاقطها ومشابكها الموشاة بالمينـا . واخذ الغز او السكيثيون ، في جنوبي روسيا ، يصدرون عن طريق نهر الدانوب الاسفل ومرافىء البحر الاسود اليونانية ، الى جانب القمح والسمك المعد لاستهلاك الجيران الاقربين ، الفراء والرقيق ، ثم تنقل هذه السلع الى الموانىء النائيـة . وكان هؤلاء الاقوام يحرصون على شراء المشابك ومصنوعات الخزف والزجاج ، اذ نجد بعضاً منها في القبور والمدافن التي عثروا عليها في انحـاء روسيا الجنوبية . كذلك نجد نقوداً رومانية السكة يجري التداول بها في القرن الثـاني ، في اصقاع سكندينافيـا اذ ان خروج مثل هذه العملات لم يكن يتسبب قط بنزيف مالي يهدد الامبراطورية الرومانية باي خطر .

وعلى هذا المنوال جرى الأمر مع اواسط افريقيا . فالتجارة عبر الصحراء الكبرى بقيت دوماً ، قليلة الشأن . فقد عوّلوا في النقل على الجمل ، مركبة الصحراء الأولى ، واتخذوا منـه

الرواحل للتنقل بين الشرق والغرب ، فلم تبلغ هذه الحركة بعض الاهمية الا مع مطلع القرن الثالث . فالبدو الرحـــل في الصحراء ، كانوا قبل كل شيء ، اهل غزو وسلب ونهب ، ولذا لم يكن بالامكان تنظيم قوافـل تعمل على مواعيد منتظمة . والاستيراد اقتصر على شراء بعض أرقّاء الزنج اذ كان اقتناؤهم من سمات الغنى والثراء ، يثير وجودهم لدى البعض الشهوة والرغبة عند البعض الآخر ، في اقتنائهم . كذلك كانوا يستوردون بعض حيوانات غريبة ، مرآها يثير دهش الجماهير وحيرتها . اما التجارة عن طريق صعيد مصر ، فكانت ناشطة ، كما ان الحبشة وبلاد اريتريا ألـّفت سوقاً رائجة لمصنوعات الاسكندرية تصدّر هي ، في المقابل ، الاخشاب الصلبة النادرة والعاج والذهب ، وغير ذلك من انتاج تلك البلاد ، الامر الذي جعل الميزان التجاري مع هذا الجانب من الارض حسناً .

اما الاتجار مع الشرق الاقصى ، فقد ألـّف المشكلة الكبرى ، اذ كانت الطبقة الثرية في روما تسعى وراء محاصيل تلك البلاد النائية الثمينة . فإلى جانب الطيوب والعطور والروائح الزكية ، والبخور والمر والافاويه على انواعها ، والحجارة الكريمة ، واللآلىء والماس ، وكلها مواد كانت تستورد ، منذ عهد بعيد ، من بلاد العرب والهند وأقطار آسيا الجنوبية الشرقية ، يجب ان نضبط الآن ، بالرغم من احتجاج المتزمتين من الاخلاقيين ونواهي الامبراطور بمنع الرجال عن لبسه وارتدائه ، الحرير الذي كان يستورد من الصين . وكانت هـــذه البضائع الخفيفة الوزن ، والغالية الثمن ، تدرّ ارباحاً طائلة اذ كانت تباع بأسعار لا تعرف حداً إلا ما يضعه لها المترفون ممن ألِفوا اقتناءها وأطلقوا العنان في امتلاكها . ولذا كانت هذه السلعة الغالية تتحمل بسهولة ، نفقات النقـــل : رسوماً وضرائب متعددة وعمولة الوسطاء . ولذا نشبت منافسة شديدة حول استعمال الطرق التي تتبعها في سبيلها نحو الغرب ، والمشرفين عليها والمتحكمين بها (راجـــع شكل ٣٠ : طرق المواصلات بين اوروبا وآسيا) وهي اصناف وبضائع مـــن شأنها ان تثير أعنف الرغائب واقواهـــا وان تسيل اللعاب في حلوق طالبيها . فبعد ان رأت حكومة الامبراطورية نفسها ، عدم جدوى الحملة التي شنتها عـــلى هذه الكماليات ، راحت تترك الحرية لرعاياها والواقعين تحت حمايتها للاتجار بها ، ثم اخذت تشجعهم وتدافع عنهم ، ولو بقوة السلاح احياناً ، وهي الدولة التي لم يكن يهمها التدخل في الشؤون الاقتصادية .

وكانت مملكة الفارثيين التي خلفت السلوقيين وحلت بسيطرتها محلهم على بابل وقسم مـــن ايران ، تهيمن على عدد من هذه الطرق التي تسلكها التجارة مع الصين . وكانت احدى هـــذه الطرق البرية تجتاز ايران من الغرب والشمال لتصل الى مدينة مرو في ولاية مراغا ، ومنها تتفرع الى مفترق يتجه احدهما نحو التركستان والآخر نحو الهند عن طريق كابول . وهنالـــك طريق بحرية كانت تنطلق من مصب دجلة والفرات (شط العرب) فتصل الى مصب نهر الهندوس . ولكي نفهم حقيقة هـــذه الحروب القاسية التي قامت ، غِبّاً ، بين الفارثيين وترايانوس على الاخص ، ثم تتابعت متواصلة بينهم وبـــين مارك اوريل ، يجب ألا نهمل من حسابنا الدور

الكبير الذي لعبه فيها اعداء الامبراطورية من وراء الكواليس الذين كانوا وسطاء هذه التجارة وعملاءها .

هنالك امبراطرة اكثر تمسكاً بأهداب السلام ، اهتموا بهذه القضية وراحوا يبحثون عمن يغنيهم مؤونة هؤلاء الوسطاء. فاتجهوا بأنظارهم شطر البحر الاسود بعد ان اهمل الاغريق امره، غب تدويخهم لايران وفتحهم لها . وما الكتاب الذي وضعه المؤرخ تيريان بعنوان: « رحلة حول البحر الاسود » سوى تقرير منفصل رفعه صاحبه الى الامبراطور هدريانوس، هو حلقة في سلسلة من هذه البحوث حول هـذا الموضوع ، سبقها كما عقبها محاولات اخرى . فبعد ان يبلغ التجار التركستان متجنبين بحر قزوين شمالاً او عابرين له، يتجهون منه شمالاً نحو مجرى نهر الاوكسوس القديم (اموداريا اليوم) ليلتقوا بالتجار الصينين القادمين من لوب - نور . وهنالـك سبيل آخر لتفادي طريق الفارثيين ، وذلك باتخاذ مسالك الجنوب . فقد اتاحت الرياح الموسمية ، منذ عهد بعيد ، قيام علاقات بين بلاد العرب والهند ، عادت عليهم بأرباح ومغانم طائلة . فقـام اوغسطس بتجريدة كبيرة ضد العربية السعيدة بين المدينة وعدن. وبعد فشل هذه الحملة انصرف الرومان لتنظيم علاقات تجارية انطلقت من الموانىء المصرية الواقعـة على البحر الأحمر ، مثل ميوس هورموس على مقربـة من خليج السويس ، وبَرَنيكي ، الواقعة على موازاة اسوان ، فربطت هذه الموانىء مع الهند مباشرة ، او عن طريق الاسكلة التي قامت الى الجنوب من شبه الجزيرة العربية قبل الإيغال في مضيق باب المندب . ويُعزى الى احـد البحارة الاغريق المدعو هيبالوس اكتشافه الرياح الموسمية في الصيف ، هذه الرياح التي عرفت بموسمية الصيف . اما تاريخ هذا الكشف الجغرافي ففيه نظر ، اذ يرجع بعضهم به الى اواخر القرن الثاني ق . م ، بينما يردّه البعض الآخر ، الى بدء ظهور النصرانية ، وهو الاصح على ما يراه الثابتون في العلم.

وعلى هذا الشكل استطاعت السفن الرومانية بلوغ الهند وسيلان والوصول منها الى الهند الصينية . ويذكر الجغرافي المؤرخ اليوناني بطليموس أقصى نقطة انتهى اليها البحارة الرومان : كاتّيغارا الواقعة ما وراء كيرسونيز الذهب،وهي شبه جزيرة الملايو، ولعلها التونكين او الصين الجنوبية . فقد عثر على حوائج واغراض من صنع الرومان ، في ضواحي مدينة بُنديشري في الهند، وعند مداخل « اوك - ايو » في الكوشنصين، وفي هذا دليل على ان بعض التجار الغربيين بلغوا في رحلاتهم البعيدة ، هذه المناطق النائية ، وان لم ينشئوا لهم فيها مستعمرات ثابتـة . ويحدثنا التاريخ عن وفادتين ارسلهما احد ملوك الهند ، تحملان هدايا سنية لاوغسطس وهو مخيم في بلدة تاراغون ، في اسبانيا ، وفي جزيرة ساموس ، عام ٢٥ و ٢٠ ق . م . وهنالك روايات تحدثنا عن سفارات اخرى وردت على ترايانوس وبعض خلفائه ، كما تحدثنا المروايات الصينية عن جهة اخرى من بلاد : تا - تسين التي كانت تقع فيما يرجحون ، عـلى شواطىء البحر المتوسط الشرقية ، وعن عاصمتها الكبيرة وصروحها الخمسة الشهيرة التي قد تكون مدينة انطاكيا بالذات وهي تنوه على الأخص بقدوم موفدين ، عام ١٦٦ ، أي في عهد الامبراطور مارك اوريل ، من

قبل آن ـ تون ، وبلوغهم الصين الجنوبية . والمعروف ان مارك اوريل الذي تبنّاه الامبراطور انطونين ، كان يحمل هـذا الاسم عندما جرى تبنيه . وليس مـا يمنع ان يكون هؤلاء تجاراً تكنّـوا بهذا الاسم الرسمي .

فالحركة التجارية ، التي قامت على هذه الطرقات ، بلغت شأواً مهمـــاً ، ولا شك . ويقول سترابون ان ١٢٠ سفينة كانت تنطلق كل سنة ، في عهد اوغسطس ، من مدينـــة ميوس هورموس في اتجاهات عديدة . والكتاب الذي ظهر تحت اسم : « رحلة في بحر اريثريا» (البحر الاحمر) ، كان يشير الى بعض السلع ، كالنبيذ والزجاج ، ومصنوعات معدنية متنوعة،ويذكر بلين الكبير ان المرجان كان نادراً في جميـع انحاء الامبراطورية ، لانه كان يصدّر الى الهند. وقطع الفخار والخزف الاحمر ، ذات الرسم النافر التي عثر عليها المنقبون في الاماكن الاثريـــة في الشرق الاقصى ، تشهد على تصدير الادوات الفخارية . غير ان الصنّاع الهنـود تمكنوا من تقليد هذه الاصناف . كذلك عثر المنقبون في هذه المواقع الاثرية ، على بعض الحلى والجوهرات وان جاءت على نطاق ضيق جداً . وكان الرومان يقبضون ثمن هذه السلع معادن ثمينـة ويقدر بلين بـ ١٠٠ مليون سسترس (٢٥ مليون فرنك فرنسي من عملة ١٩١٤) مبلغ مـا يصدرونه من هذه الاصناف الى البلاد العربية والهند والصين ، كان نصفها يمر عبر البحر الاحمر. وكان سكان الهند ، يبحثون باهتمام ، عن النقد الروماني ، والعمـلة الامبراطورية ، ثم راحوا يقلدونها ويزوّرونهـا ايضاً ، اذ ان قطع الذهب الهندية كانت من نفس عيـار الريال الذهب الروماني ، حتى ان كلمة دينار *Denarius* اللاتينية الاصل انتقلت الى اللغـة السنسكريتية. واكثر العملات الرومانية التي يعثرون عليهـا اليوم في الشرق الاقصى ، يعود تاريخها الى مطلع العهد الامبراطوري ، اي الى هذا العهد بالذات الذي تنوّه به كتابات بلين وسترابون . ولكن فلنحذر الاستنتاج بسرعة لنقطع جازمين بأن التجارة خفّت حركتهـا بعد هذا العهد . فسكان الشرق علقت نفوسهم بهذه السلع ، وكانوا يحرصون الحرص كله على الحصول على ذات البضائع والمصنوعات التي ألِفوا تعاطيها .

وقد راح الأمبراطور طيباريوس يتململ ، أمام مجلس الشيوخ ، من أن ثروة الامبراطورية وغناها يتسربان الى البرابرة ، والى الاعداء ، ثمناً للحرير والحجارة الكريمة ، والحلى والجوهرات التي كان الأغنياء يسعون وراءها ويتيهون بلبسها . غير ان طيباريوس الذي عُرف بروحـه التشاؤمية ، كان من هؤلاء النفر المتزمتين المنقطعين عن معاشرة الناس . ولكي نتمكن مـن تقرير الأذى الذي لحق بتجارة الامبراطورية الرومانية لا بد لنـــا من احصاءات دقيقة حول مقادير المعادن الثمينة المنتجة اذ ذاك ، ومقارنتها بما يتسرب منها للخارج . يبقى بعد هذا أن ليس بين هذه البضائع والسلع التي كانوا يتصيدونها بأغلى الاثمان ، ما كان ضرورياً ، فراحوا يسعون وراءها ترفاً ويتباهون بحملها. فقد حالت اخلاق العصر المتمكنة من النفوس ، دون امتثال الناس لتوصيات السلطة ونواهيها ، وفوّتت على الامبراطورية ، امكانية الاكتفاء الذاتي

المتوفرة لديها، وهكذا راحت طبقة غنية ثرية في روما تستسلم بكليتها لتيارات البذخ والاسراف والتنعم التي استبدت ، منذ القدم ، بالطبقات الثرية في الشرق .

الزراعة : قصور وسائلها التقنية

هذا الاكتفاء الذاتي توفرت امكاناته ، من حيث المبدأ ، في المجال الزراعي . ومع ذلك لم تستطع الامبراطورية ان تنسى يوماً ، او تتناسى ، خطر المجاعة الذي كان يطل عليها من وقت لآخر ، فيقلق منها البال ويقض مضجعها .

ليس من الخطل بشيء ان نرد اسباب هذا الخطر ودوافعه الى هذا الوضع الزري الذي كانت تتسكع فيه الاجهزة الزراعية وعتادها ، من الوجهتين العلمية والفنية . وتنقضي الأيام وتجري الأمور ، والزراعة ، كالصناعة ، في شبه دوامة تدور على نفسها ، ليس من تحسين او تكامل في الانتاج . وكيف تتطور ، وقد خيّل الى المسؤولين وعلية القوم ومن بيدهم الامر والتوجيه ، انهم انما يأتون إدّاً اذا ما هم خصوا شؤون الحياة الدنيا وضرورات العيش ومقتضياته ، ببعض الشيء من الجهد الكريم الذي بذلوه وجادوا به، في هذه الانشاءات العظيمة التي اتوها ممثلة بهذه الموانىء والمباني، والطرقات العريضة والصروح الشاهقة. وقد نظروا الى هذه الانشاءات، ملوكاً كانوا ام نصراء للعلم ، كبان لا بد منها لتأمين حاجة المدينة بالماء والغذاء ، يخلدون بانشائها ويبذلون في سبيلها ما أوتوا من قدرات وسخاء . فأمور عادية كاحياء موات الارض ، والفلاحة والزرع ومضاعفة الانتاج قمحاً وحنطة، أمور لا تضفي على صاحبها الجاه ، ولا تعود عليه باي فخر ، ولا تجعله في مأتى العين ، او تشرئب اليه الأنظار . فقد جهلوا او تجاهلوا ان في هذا كله خير ما يترتب عليهم من مهمات ، وفي تحقيق هذه الامور ، اسمى المسؤوليات التي يضطلعون بها ، وان هذا الواجب يجب ان يعلو سواه من الواجبات المترتبة على ذوي السلطان . ولعل افتقارهم للاحصاءات حال دون بروز هذه القضايا امامهم بوضوح وجلاء . غير ان الكرب المزمن الذي عانت منه بعض مناطق الامبراطورية كان من شأنه ان يفتح عيونهم ويزيل الغشاء عن نواظرهم . ومما لا ريب فيه البتة ، ان القضية ازدادت تعقيداً وارتباكاً نظراً لما كانت عليه اليد العاملة من ندرة في أكثر من ولاية ، غير ان أسباب هذه الازمة كانت اجتماعية اكثر منها ديموغرافية . ولم يكن المستوى العلمي ، اذ ذاك ، ليضيق ذرعاً عن الحد من وطأة الحاجة الماسة لليد العاملة ، عن طريق تحسين انتاج العامل .

ففي هذه الاقطار المترامية الاطراف التي تألفت منها الامبراطورية الرومانية ، كان همهم الاكبر ، وحرصهم الاشد ، الا يقع اي تغيير في محل كان . فقد همّ الادارة الامبراطورية ان تُعنى بمصر وان تُسيّج حولها . او ليست مصر اهراء روما الاولى ؟ فترمم اقنيتها ، وتجفف غياضها ومستنقعاتها في ضواحي الفيوم . كل ذلك واجب محبب في سبيل تأمين عيش روما . فقد اقتصرت عناية الادارة على الترميم والاصلاح، دون التفكير في التعمير والاحياء. فلا عجب ان يرتفع محصول البلاد وانتاجها ، في عهد الرومان ، على ما كان عليه في ايام دولة البطالسة .

صحيح ، هنالك تطورات ملحوظة ، لا ينكرها إلا كل عنيد مكابر ، برزت معالمها للعيان في كل من اسبانيا وغاليا . ولذا يصبح من نافل الامور التأكيد بان محاصيل هذه البلاد سجلت ارقاماً لم تسجل مثلها من قبل،لانه لم يسبق في تاريخها ان خطط احد لمثل هذه التنمية في الانتاج.

فاثارة هذه القوى والطاقات الطبيعية ، جاءت استجابة لوعي عفوي أكثر منها لتوجيه او تشجيع ، يجيئها من فوق ، وهو وعي مصدره الاستقرار والطمأنينة التامة ، وتحسين طرق المواصلات واصلاحها لتصدير السلع والبضائع الى بلاد بعيدة نائية،ونمو المدن وتطورها الاجتماعي، مما زاد من حاجاتها ومستلزمات العيش ، واخيراً هذا التفاعل السياسي والاقتصادي الذي مهّد السبيل لتلاقي الحضارات والبلدان النامية . والشيء الذي افتقر اليه الجميع ، لعمري ، في كل قطر ومصر ، مع انــه كان من حق الجميع ان يروه ماثلاً امام اعينهم ، محققاً ، لو ان الاباطرة الرومان اهتموا بتطبيق الاساليب والمناهج التي سبق لبعض الدول الهلينية، ان طبقتها في بلادها فأعطت بذلك المثل الصالح ، هو مساهمة الدولة ومعاضدتها لهذه الحركة ، قولاً وفعلاً ، نظرياً وعملياً ، على السواء. فالدولة حاولت دوماً،انما بتردد، وبشيء من الوجل ، ان تلطّف وتخفف من هول الخطر الجلل الجاثم على الصدور ، والفاغر ابداً شدقيه ، للانقضاض. والشيء الذي كان الجميع بحاجة اليه،هو رعاية هذه الطبقة الموجّهة التي كان في مقدورها ان توجه عمل الفنيين .

وهكذا لم يحدث ، على الاجمال ، أي تغيير جذري ولا أي انقلاب ثوري، في مرافق الزراعة يتبلور عن طلوع مزروعات جديـدة ، وبروز اساليب ومناهج جديدة ، وعدة فنية جديدة . فقلما نرى اعمالاً واسعة لاحياء موات الارض ، وان حدث شيء من هذا فندرته تعفو ذكره . وبدلاً من ذلك اخذت الطبقات الاجتماعية الممتازة ، ولا سيما الطبقة الارستوقراطية في مختلف الولايات ، بأسباب هــذه الرياضة البدنية وهي الصيد والقنص . فلم نرَ اعمال تجفيف ولا اشغال تصريف في البـلاد . فقد اقتصرت معظم أعمـــال الري والسقاية ، عـلى المناطق نصف الصحراوية الواقعة على تخوم الامبراطورية الخارجية ، وذلك بدافع من اعتبارات عسكرية وسياسية اكثر منها زراعية . فنظام تحويل الاراضي ، كل ثلاث سنوات ، لم يسجل اي تطور ، كما بقي على حاله ايضاً نظام فلاحة الارض الموات. وهنالك لعمري، بعض النباتات او بالأحرى، بعض الاشجار تدخل الغرب . والكرمة ، هذه الغرسة الخاصة ببلدان حوض البحر المتوسط ، راح الرومان يزرعونها في أقاليم لا تصلح كثيراً لهـا . وهكذا استبدت زراعتها في مناطق لا تزال زراعة الكرمة مزدهرة فيها لليوم ، كما هي الحال في مقاطعة بوردوليه وبورغونيا ، مع ان هنالك من يزعم ، أن ظهور الكرمة في هذه الاقطار ، سبق عهد سيطرة الرومان عليهـا . كذلك ازدهرت زراعة الكرمة في وادي الرين والموزيل. فالحد الذي تقف عنده زراعة الكرمة في المانيا ، اليوم ، هو حد المقاطعات التي خضعت لسيطرة الامبراطورية وسيادتها . والكستنا انتشرت زراعتها في فرنسا ، كما أن شجرة الدراق أو « تفاح الفرُس » ، كما يلقبونها ، دخلت ايطاليا ، في أواسط القرن الاول للميلاد ، بنوعيها : الصيفي والخريفي .

وهكذا ، فالتطور الذي طرأ على الزراعة ، اقتصر ، في أجلى مظاهره ، على الانتعاش الذي عرفته زراعة الاشجار المثمرة ، وعلى البستنة . وكلاهما مدينان بهذه الحركة لنمو الحياة في المدينة ، ولزيادة الاستثمار في مرافق الزراعة الاخرى ، انما استثمار قلما جاء مدروساً أوموجهاً، اذ كان الاغنياء ينزعون ، اذا ما شغّلوا أموالهم في الارض ، لكسب المباهاة والجاه الاجتماعي والتأمين على أموالهم ، أكثر منه الى إنشاء مزروعات يسخون عليها بالمال والجهد والعمال ، يتعهدونها بعرق جبينهم ، لتؤتي أُتيَها ، لهم ولذراريهم من بعدهم . ومهما يكن من أمر هذا التطور ، فلم يُحدث ،ولم يكن في مقدوره أن يُحْدِث أي تحسين في انتاج المواد الغذائية الاساسية ، أي الحنطة ، بل النتيجة الكبرى كانت في إشباع حاجات بعض الطبقات الاجتماعية على تنوعها ، ولا سيما ما قام منها في المدن ..وبهذا يمكن مقارنتها ، الى حد ما — مع الاحتفاظ بالنسبة — بالتوسع الذي بلغته التجارة الخارجية .

المجاعة : خطرها وواقعها

كان من بعض نتائج هذا التطور الذي لمسناه في بعض مرافق الزراعة ، أن وجد العالم الروماني نفسه ، في بحبوحة من الاثمار والفاكهة ، من أي نوع كانت ، ومن الزيت والخمور على ألوانها ومذاقاتها . بينما بقي انتاج القمح على غير انتظام ولا استقرار ، لا يوحي للأهلين بأي طمأنينة للغد الطالع. ومعالجة لهذا الوضع المتأرجح ، أصدر الامبراطور دومتيانوس الذي ندين له بالكثير من التشريعات العصرية ، مرسوماً حذّر بموجبه انشاء كروم جديدة في ايطاليا ، كما قضى بوجوب إتلاف نصف الموجود منها في الولايات الرومانية . إلا انه عدل هو نفسه عن تنفيذ قراره هذا ، استجابة منه لما لقيه قراره من المعارضة ، ولما أثاره من الاحتجاجات الصارخة ، وهو لو أراد العمل به لامتنع عليه التنفيذ لتجاوزه كثيراً امكانات الادارة التقنية . وابعد ما يمكن ان نذهب اليه في الافتراض ، هو ان الادارة تسلحت بهذا القرار لتحول دون إنشاء كروم جديدة او لتحد من توسيع رقعتها في البلاد. وهكذا لم تسجل أية نتيجة ملحوظة في هذا المضمار . فبالرغم من التحسينات التي أدخلت على اسباب النقل ووسائله ، عرفت البلاد ، خلال القرن الثاني ، ازمات مزعجة جرت عليها الوبال لشدتها وتكرارها .

وخطر المجاعة كان أشد بالطبع ، على الولايات الشرقية في الامبراطورية منه على الولايات الغربية . فالولايات التي عرفت دوماً ، بنقص انتاجها الزراعي وعدم كفايته ، أوصدت في وجهها اسواق التموين التي كانت تعول عليها ، منذ عهد بعيد . فمناطق البحر الاسود كانت تمد جيش الدانوب بحاجاته ، كما كانت بلاد ما بين النهرين ترزح تحت سيطرة الفارثيين . واحتفظت روما لنفسها بحصول مصر وانتاجها ، بعد ان كان هذا الانتاج ، في ظل دولة البطالسة ، نعمة الممالك الهلينية وبركتها . كذلك احتفظت ايضاً بقمح افريقيا ، مع انه سبق لهذه الولاية ان ارسلت ، في عهد مسّينسا ، شحنات من قمحها لمناطق بحر ايجه . وتتفق المصادر الادبية والنقائش الأثرية ، على التنويه بأخطار المجاعة التي كانت عرضة لها مقاطعات اليونان وآسيا الصغرى ، كما

تأتي على وصف التدابير المتخذة لتفادي مثل هذه الأزمات او للتخفيف من حدتها . من ذلك ، مثلاً ، ان تعهد الحكومة ، في أكثر الأحيان ، الى اغنياء القوم وكبار المتمولين بينهم في المدينة، بتدبير شؤون التموين والاعاشة بأسعار معقولة ، فتنعم عليهم بألقاب فخرية ورتب شرفية تضطرهم عند احتفائهم بها للانفاق بسخاء، كلٌّ بحسب امكانياته . إلا انالادارة كثيراً ما اضطرت للجوء الى المصادرة .

بقطع النظر عن هذه الولايات التي كان انتاجها الزراعي يخضع لتقلبات الاقليم وتغييرات الأحوال الجوية ، عانت بعض مدن ايطاليا ، من وقت الى آخر من هذا الخطر الذي كان دوماً ماثلاً ، وعرفت القلق فريسة لهذه الهواجس . وكثيراً ما تحدثنا المصادر التاريخية التي لدينا عن مندوبي مصلحة التموين *Curatores Annone* الذين يشبهون ، الى حد بعيد، مراقبي الأسواق او مفتشي تجار الحبوب في الشرق الاغريقي . عرفت افريقيا ومصر، هما ايضاً، مثل هذه الأزمات من القحط والمجاعة ، نشأت عندهما ، على ما يظهر، ويرجح العارفون ، عن مصادرة كميات أكبر من انتاجها الزراعي . فالولايات الواقعة غربي الامبراطورية ، ومن بينها غاليا، في مقدورها ان تكفي نفسها بانتظام فتسد مطلب الاهلين كما كانت تلبي حاجات الجيوش المرابطة على مقربة منها وتمدها بالميرة اللازمة .

فاذا ما نظرنا الى وضع الامبراطورية في المجال الزراعي في كلا شطريها : الشرقي والغربي ، رأينا ان الحالة السائدة في كل منهما لم تكن مؤاتية لايطاليا قط ، التي لبثت باجماع المعاصرين ، منذ عهد طيباريوس ، فريسة سهلة للمجاعة . فقد انخفض انتاج الحبوب فيها منذ عهد بعيد ، إلا ان ازدهار زراعة الاشجار المثمرة اتاح لها ، منذ عهد اوغسطس ، تصدير كميات كبيرة منها ، استطاعت معها ان تتلافى حاجتها الشديدة للحنطة . غير ان تكاثر انتاج الفاكهة والأثمار في كل مكان راح ينافس المحصول الايطالي ، حتى في عقر دار المدن الايطالية وفي روما بالذات . وهكذا اصبح انحطاط مرافق الزراعة في ايطاليا ، شغل الحكومة الشاغل ومبعث هواجسها ، لا سيما بعد ان اصبحت شديدة الحساسية لكل قلق ، او لأي رسيس اضطراب يلوح في البلاد المجاورة .

والواقع الذي همّ الجميع هو وحدة العالم الروماني ، هذه الوحدة التي برزت على اشدها ، في هذه الحركة التجارية التي عمت جميع اقطار هذه الامبراطورية وشملت جميع ولاياتها واخذت بالاتساع والنمو . كانت مرافق الامبراطورية الزراعية ناشطة ولا شك ، على الاجمال ، غير انه ازدهار سريع العطب ، وسر عطبه ناتج ، شيء لا يصدق ، عن ازدهاره بالذات . وهذا الازدهار قوامه وفرة انتاج البلاد من الزيت والخمور ، وسلع الكماليات ونصف الكماليات . اما سر هذا الأزدهار فيكمن ، قبل كل شيء ، في امكانية تصريف هذا الانتاج وتنفيقه . وهذا نفسه قائم على مستوى رفاهية العيش الذي ينشط الاستهلاك ، كما يكمن في حسن شبكة المواصلات وأمنها . والذي زاد هذا الوضع حراجة ، القلق المستحوذ على النفوس في كثير من هذه الولايات،

لعجزها عن تأمين حاجتها من الحبوب . فحسن سير الجهاز الاداري ودقته ، مُرتهن دوماً ، بعوامل متعددة ، غير مستقرة لا يمكن التحكم بها . فلا عجب ، والحالة هذه ، ان تؤدي الحوادث المؤسفة التي ألمت بالامبراطورية ، منذ اواخر القرن الثاني ، فارزحتها واقعدتها ، لأن تسبب لها بعض الشلل .

فقدان التجدد الصناعي وانعدامه

والصناعة كالزراعة ، عانت ، هي الاخرى ، أعراض ركود فني وتقني ، ارزحتها فاقعدتها . فقد تم لمهندسي العصر ، في هذا المجال ، من العلم والمهارات ، ما لو حاولوا معه ، صادقين ، وضع هذه المعلومات الفنية ، موضع التحييز والتحقيق ، بعزم واصول ، لكانوا احدثوا ثورة صناعية عارمة .

ويروي لنا المؤرخ «سويتون» كيف ان الامبراطور فسبسيانوس وعد مهندساً ميكانيكياً قدم اليه مشروعاً ادعى معه انه يستطيع نقل أعمدة ضخمة دون كبير كلفة ولا عناء الى ساحة الكابيتول، بإجزال سني العطاء ، بينا اعرض الامبراطور نفسه وضرب عرض الحائط باختراع او اقتراح زعم صاحبه انه يمكن الامبراطور من « تدبير إعالة الشعب بيسر وسهولة » . قد يكون من المغري والمحرك للشجون ان نضفي على هذه النادرة قيمة رمزية فنفرض بداهة او نتصور عفواً ، ان هذا الاقتراح انما دار على انشاء مشاريع انسانية من شأنها كسب عطف الطبقات الموجهة ، او انه تبدى لصاحب الاقتراح ، بثاقب بصره ، ما يكن في بعض الآلة من قوة مدهشة تستطيع ان تأتي بالمعجزات ، غير ان تفرد هذه الطريقة يمنعنا من ألا نرى فيها اكثر من رمز او تورية للامكانات والطاقات الكامنة في بعض ميكانيكيات العصر ، اذ ذاك .

والحقيقة التي لا مراء فيها هي ان إعالة روما ومن فيها من طبقات كادحة ، يُرزح الدولة ويُفدحها ويؤلف وضعاً استثنائياً خاصاً . فاليد العاملة في جميع انحاء الامبراطورية ، وفي كل مرافق العمل ، لم تكن لتفيض عن الحاجة ، ناهيك عن ان حاجات السوق الداخلية ، بقطع النظر عن الاسواق الخارجية ، كان يمكن توسيعها لو امكن تخفيض كلفة الانتاج بعض الشيء ، وجعلها بالتالي ، في متناول زبائن جدد .

وهذا التفكير القديم الذي يكره انتاج البضائع التي يتوقف تنفيقها على رغائب الزبائن بقي مسيطراً على الناس ، وان خفت وطأته ، مع انه بقي متحكماً بالاذهان في الشرق الهليني . ولم يبلغنا انه دخل الغرب ، ولم يَحُلْ ، اقله في ايطاليا ابان العهد الجمهوري، دون انصراف بعض اصحاب رؤوس الاموال الى إنشاء معامل لصنع القرميد والطوب والخزف . وقد تألفت هذه المعامل من وُرَش او مشاغل ، قامت جنباً الى جنب ، لكل واحد منها نشاطه وشأنه ويتولى ادارته والاشراف عليه مهني يتمتع بثقة صاحب المعمل . ومهما يكن ، فلم نرَ احداً يبذل صادقاً، أي جهد موصول في هذا الصدد، او يعوّل على رأس مال كبير، جعل نصب عينيه اكتشاف او اختراع آلات ميكانيكية جديدة ، او حاول ادخال تحسينات تذكر على ما كان منها قيد الاستعمال .

فعمل من هــذا النوع كان جر على صاحبه ، لو وقع في بلاد اليونان ، العار والشنار ، ادبياً واجتماعياً .

فلا عجب ، والحالة هــذه ، ان تأتي النجاحات التقنية ضعيفة جداً ، ان لم نقل معدومة . فالطاحون المائي اخذ استعماله يطل على الناس ، مع ظهور المسيحية ، وإن تباطأ انتشاره . فتقارب الناس بعضاً من بعض بفضل هذا النمط الجديد من الحياة المشتركة ، وتواصل الاقطار بعضها من البعض ، على ما بينها من جهل الواحد للآخر ، بالرغم من تجاورها ، كل ذلك سهل ايضاً انتشار استعمال القوالب اليدوية والآلة . وقد عرفت التقاليد والاعراف المهنية المحلية ان تحافظ على نشاطها ، ولو جاءت مغايرة لكل منطق سليم . من ذلك ، مثلاً ، اختراعان تمّا على يد بعض الغاليين ، في ايطاليا الشمالية ، هما : برميل الخشب ، والمحراث ذي السكة . فبالرغم من المنافع الجزيلة التي كان في مكنتها توفيرها للناس ، فقد بقي القوم يعوّلون في شؤونهم المنزلية على الجرة السريعة العطب ، وعلى المحراث الخشبي الذي يكاد يخدش اديم التربة وسطحها البراني . فقــد سجّلت كل مهنة او حرفة على حدة ، تطورات مدهشة . فصناعة الزجاج ، مثلاً ، استطاعت ان تسجل تقدماً محسوساً عن طريق انتقاء احسن ، للمواد الاولية التي تستخدمها ، واستعمال طريقة جديدة في النفخ او الإفراغ في القوالب ، فأخرجت للناس زجاجاً شفافاً متنوع الاشكال. غير ان انعدام البحث العلمي ، وعدم طلوع طرق ومذاهب فنية جديدة ، كل ذلك حمل الناس على الاعتصام بالتجربة الشخصية او الاكتفاء باحتذاء ما يسير عليه العمال الصناع من عدة وأساليب.

لامركزية صناعية

ومع ذلك ، برز النشاط الصناعي في العالم الروماني ، اذ ذاك ، على شكل ترك اثره العميق في الخواطر . نرى ولا شك ، ما بلغته ايطاليا من انحطاط صناعي ملحوظ ، منذ منتصف القرن الاول . فبعد ان كانت تصدّر ، في عهد اوغسطس ، الكثير من مصنوعاتها المعدنية والخزفية ، ان لم نقل النسيجية ، فقد فقدت كل قدرة صناعيــة وعجزت عن تقديم اي انتاج صناعي لتسويق السفن بعد تفريغ شحنها في الموانىء الايطالية . ومع ذلك ، فوضعها من هذا القبيل هو افضل بكثير مما كانت عليه مرافق الزراعة فيها ، اذ انها عرفت ان تحافظ على البقية الباقية لصناعة صغيرة تستطيع معها ان تلبي حاجاتها الاوليــة ، بينما نرى عدداً من الولايات الاخرى في الامبراطورية يعرض خدماته لاشباع مطالبها الاخرى . والمثير للعجب ، هو ، بالفعل ، هذا النشاط المتجدد او الجديد الذي نرى بوادره تطل على الولايات. فبعد ان نعم الشرق الاسيوي ومصر ، بالنظام ، وخيمت الطمأنينة على ربوعها ، انصرفت هذه الأقطار الى إنتاج هذه الكماليات التي عُرف بصنعها وانتاجها ، منذ القدم ، صنّاع مهرة ، وفرت لهم اسباب التمدن ، ما يحتاجون اليه من الخامات والمواد الاولية التي ترد من الخارج . اما الغرب ، فقد عرف نشاطاً وحركة من الازدهار لم يسبق ان عرف لها ؛ من قبـل ، مثلاً ، ولاسيما مقاطعة غاليا التي سرعان ما تعرفت الى اسرار الحرف اليدوية عن طريق ايطاليا وقد توفرت لهــا اليد العاملة الماهرة والخامات الاولية . وخير مثل على ذلك ، صناعة الخزف ، اعرق صناعات ايطاليـا واجددها طراً . فعند مطلع المسيحية ، كانت ايطاليا بلداً يصدر بكثرة مصنوعات

الفخار والخزف الموشى بالرسوم الناتئة. وما ان انتصف القرن الأول حتى نرى غاليا تبز ايطاليا بهذه الصناعة فتبلغ فيهـا المرتبة الاولى ، ولاسيما مقاطعات الاقليم الجنوبي . فبرزت فواخير *La Graufesenque* (في مقاطعة افيرون) فغزت مصنوعاتها ايطاليا واخذت تنافسها في عقر دارها . فقد عثر المنقبون بين انقاض مدينة بومبيي التي انساحت تحت حمم بركان الفيزوف، في ثورانه التاريخي الفظيع ، عام ٧٩ ، على صندوق مليء بالمصنوعات الخزفية في غاليا ، لم يكن فتح بعد . ولم يلبث ان انتقل مركز انتاج الخزف والفخار الى شمالي غاليا وتركز في مقاطعة الالزاس ، في رينانيا . وهذه اللامركزية الصناعية هي من المميزات العامة للصناعـة اذ ذاك فقد شملت المقاطعات التي تم فتحها منذ عهد قريب أو أخذت حديثاً باسباب الرقي والتطور، وراحت بدورها تساهم في هذا النشاط الصناعي الشامل . فافريقيا اخذت تصنع المصابيح وتصدرها الى الخارج . وهنالك مشروع استغلال مناجم الرصاص والقصدير في بريطانيـا . كما راح الناس يستخرجون الذهب والحديد من مناجم داسيا . وهكذا قابل هبوط ايطاليـا الصناعي نشاط صناعي عم انحاء الامبراطورية وزاد من انتاج السلع على اختلافها .

الانتاج ومشكلاته

كل الدلائل والنتائج المسجلة تشير بوضوح الى ان هـذا الانتاج كان ضخماً . وكيف لا يكون ضخماً، ليستطيع العالم الروماني ان يجهز جيوشه الجرارة، ويُلبّي حاجات تجارة عريضة ناشطة ، مع ما تستلزمه من وسائل النقل ، ويحقق مثل هـذه الانجازات والمشروعات العامة، ويشيد مثل هذا العدد من المدن والصروح والفيلات، التي تفيض رفاهية ، وترفل بالبذخ والجاه العريضين، ويرفع مستوى الحياة لدى الطبقات المتوسطة ، اذا ما كان يفتقر للخامات الضرورية وللمواد الاولية اللازمة لمهرة الصناع ، فيخرجونها للناس ادوات وحاجيات؟ والثابت فعلاً ، ان نمو الانتاج وازدياده، واللامركزية الصناعية يصحبه دوماً هبوط في الجودة . فالمستوى الاجتماعي الوسط وذوق الزبائن انحط وهبط بعـد الذي بلغ من اتساع وانتشار . وعلى هذا يجب ان نقيس تجربة اليد العاملة الآخذة بالازدياد وحرصها المتزايد على التجويد والاتقان . ويكفينا دليلاً على ذلك تناقص صناعة الاوعية المنمقة امام ازدهار صناعة الخزف المطلي المحلى بالرسوم البارزة . ومقابل هذا تضاءلت صناعة الفخار الغليظ الصنع ، ذي الطينة الدكناء ، الخالي من كل حلية ، او على الاصح اقتصر استعماله على الطبقات الاجتماعيـة الدنيا . وهذا شأن كل الحضارات المادية، فتدفع غاليا ما يترتب عليها دفعه مقابل كماليات لم يعد استعمالها مقصوراً على قلة ، او فئة صغيرة من الناس محظوظة .

ومع ذلك فالتوازن لا يزال غير مستقر ، اذ نرى ، منذ اواسط القرن الثـاني ، تطل علينا بعض البوادر التي جعلت فريقاً من الناس يستشعرون الخطر الطالع ويعمل جاهداً على تجنبه .

وبالفعل ، نرى الدولة تتدخل رسمياً لتنشيط الانتاج وتوجيهه وتنظيمه ، بعد ان كان تبدى لها انه من الافضل ترك شؤونه للمبادرة الفردية . فقد اتسعت املاك هذه الدولة واطيانها . فبعد ان كانت دوماً ، وبازدياد مطرد من كبار الملاكين ، فقد رأيناها تصبح بالفعل ، المالك الوحيد

للمناجم وللمقالع الحجرية المهمة، الموجودة في جميع اطراف الامبراطورية. فقد سارت من قبل، في استثمار الثروات الدفينة في بطن الارض، على تلزيمها لعدد كبير من المتعهدين، بعد أن حددت مواصفات هذه الاستثمارات المتنوعة ، وحددت منها الحقوق والواجبات ، وذلك تسهيلاً منها لعملية مراقبة الملتزمين والمتعهدين ، الذين ترسو عليهم العطاءات . ثم لم تلبث ان اعتمدت طريقة الحكر وانتهجت في ادارته نظاماً عسكرياً ، اذ اسندت الى ضباط الجيش ، ادارة هذه الاحتكارات ومدها بما يلزم من الموظفين. وفي الوقت ذاته ، تطالعنا استثمارات عديدة للمقالع، كما نشهد تأسيس معامل وورشات عمل جديدة او استئناف العمل في ورشات قديمة ، عُهِد بادارتها الى عسكريين . وهكذا اخذت مؤسسات وفرق تضطلع بمهام اضافية جعلت منها بحق دوائر استثمار في المجال الصناعي . فاتساع نطاق هذا النهج الجديد في الاستثمار لا يبرره عدم اطمئنان الحكومة لهذه الفئة من المتعهدين والملتزمين، بل هو امر طبيعي تلتزمه كل ادارة ترغب في ادخال تحسينات على مناهجها والموظفين التابعين لها ، والاستفادة على وجه افضل ، من اوقات فراغ اليد العاملة في الجيش، بل يجب ان نرى فيه وسيلة لتفادي النقص في طبقة المتعهدين، كما يشهد على ذلك ، قانون صدر في عهد الامبراطور هدريانوس ، عثرَ عليه المنقبون في منطقة للمناجم ، تقع الى الجنوب من البرتغال .

والى هذا ، اخذت الدولة بتنمية علاقاتها مع النقابات العمالية والجمعيات المهنية وتوطيدها . فقد وقفت ، في البدء ، من هذه التكتلات المهنية ، موقف المتسامح المتساهل الذي اعترف بوجودها ، ثم اخذت تسبغ على بعض اعضائها انعامات خاصة انطلاقاً من الهيئات النقابية التي لها علاقة بتموين روما وتأمين وسائل إعاشتها ، لتشمل ، فيما بعد ، اصحاب السفن المتخصصة بنقل الحبوب والحنطة ، وذلك منذ عهد الامبراطور كلوديوس ، واصحاب الأفران والخبازين ، في عهد ترايانوس . فلا عجب ان تتقاضى بانتظام ، بعد هذا ، رسوماً خاصة من هؤلاء العمال ، وهي رسوم اتسمت بالاعتدال في بادىء الأمر. فاذا ما اضطرتها الأيام الى تعميم هذه الرسوم وزيادة وطأة هذه الضرائب ، فقد كان لها من مثل هذه السوابق ، حجة .

هنالك ايضاً ثورة اخرى تبرز بوادرها في هذه الحقبة بالذات ، لم تعتم ان قويت بسرعة وتضخمت وبقي اثرها ظاهراً في الاجيال التالية . فقد عرف الشرق ، منذ القدم ، مصانع وورشاً صغيرة ، قامت الى جانب الهياكل والمعابد الدينية المعروفة بوفرة غناها وبما تملكه من أملاك واقطان واسعة ، عمل فيها العديد من الفعلة والعمال في وضع لا يختلف كثيراً عن وضع الارقاء تقريباً . وقد بقيت هذه المشاغل تعمل بعد زوال معامل الخزف التي يملكها متمولون ايطاليون ، او انخفض نشاطها . وظهر في بعض الولايات الغربية ، خلال القرن الثاني ، كبار الملاكين ، ينشئون لهم على مقربة من استثماراتهم الزراعية ، مشاغل تعنى بصنع الاغراض والحاجيات الحديدية والانسجة ، صدّرت منتوجاتها الى مناطق نائية . فمن المشاغل الريفية التي انشئت في الشمال من غاليا ، خرجت هذه المشابك او الملاقط التي جرى تصديرها الى بلدان

وادي الدانوب ، بحيث استطاع العالم الاثري الفرنسي فرانز كومون ان يحدثنا بحق، ولو بصورة لا تخلو من الغلو ، عن « رئيس ورشة الحدادين » في مقاطعة الأردن . وكان من جملة أهداف هذه المشاغل ان يفيد صاحب الأرض من ايراد ارضه وخيراتها، فيستعمل خاماتها لما فيه مصلحته ونفع السكان الواقعين تحت حمايته ورعايته . وقد ينتهي مثل هذا التصرف العام الى اللامركزية الصناعية . كذلك من المستحيل الا نرى في هذا ايضاً دليلاً على ان الصناعة في المدن لم تكن لتفي بحاجات سكان الامبراطورية .

فعدم استقرار الوضع الاقتصادي في جميع أنحاء الامبراطورية كما تشير الى ذلك الحوادث التي أتينا على ذكرها، والنظر في الاسباب التي هيأتها ، كل ذلك من شأنه ان يضع المؤرخ امام مشكلة يتعذر تناولها بالنقد الدقيق ، لعدم توفر الاحصاءات اللازمة. فعليه ان يقنع من ذلك بانطباعات واحاسيس دون البراهين والادلة القاطعة . فقد رأينا ما كانت تعانيه البلاد من ركود تفشى في جميع مرافقها . كذلك نوهنا بالوهن الذي عرف به التوازن الزراعي، وهي علة مزمنة لمدنية كل ما فيها يقوم على الزراعة التي تمد الانسان ليس بالمواد الغذائية فحسب ، بل ايضاً بالمواد الأولية الضرورة له : كالمنسوجات والجلود والخشب . ولا بد من الاشارة اخيراً الى ما كان عليه النظام العام من تشابك وتعقيد يتطلب انتظام المبادلات الدولية التي تتأثر بأقل الحوادث ، مهما كانت طفيفة . وبعد هذا الذي ذكرنا ، يبقى علينا ان نذكر أشياء أخرى كثيرة ، هي بالطبع أهم وأخطر ، بحيث نبحث عنها في غير النظام الاجتماعي الذي كان عليه المجتمع إذ ذاك .

٢ ـ المجتمع

جاءت الامبراطورية ثورية ، في نشأتها ودوافعها ، ولا سيما تلك التي أخرجتها من مصطرع الأحزاب التي مزّقت روما شر ممزق ، وأقامتها بعضاً على بعض ، وراحت تحاول حمل الثورة ونقلها بقضها وقضيضها ، الى المجتمع الروماني . فقد قامت ، اصلاً ضد مجلس الشيوخ ، فجردته من كل سلطة سياسية فعلية كانت له ، ثم اخذت بمصانعة الطبقة المشيخية وممالأتها بعد ان أبقت على امتيازاتها الفخرية وما جمعته من ثروات طائلة ، ان لم تُبقِ على المرتبات التي كانت تدفعها لأصحاب هذه الطبقة . فهي لم تكن تتحسس، من حيث الاساس ، بأي موجدة أو حقد عليها ، انما وجدت نفسها ، عندما أطلت على الحياة ، امام وضع قائم شهد زوال الثروات المختزنة واضمحلالها، ابان الحرب الاهلية الماحقة، وقبلت بالامر الواقع لانها لم تكن لترضى بتجديد مثل هذه الثروات على حساب رعايا روما والمواطنين الرومانيين . وقد كان همها الاكبر ان تبقي الطبقات السفلى في روما ، ناعمة بالهدوء والسلام ، فلا تشكل لها عبئاً يبهظها ، طالما لا تستطيع التخلص منها، فعلى الاقل، الحد من خطرها باصطناعها . وهكذا بدا اوغسطس صاحب تجربة تشربت نفسه بنزعة محافظة . فما عسى ان يكون تصرف يوليوس قيصر لو كان محله ؟ شيئاً آخر ، ولا شك في ذلك ، مع الاعتراف بالعجز، على وجه التحديد ، فليس بين خلفاء اوغسطس من حاول

ان يجاريه او يبزه جرأةً في الاصلاح والتجديد ، فخضعوا في كل ما يتصل بالمجتمع الروماني ، لضغط الحوادث ، بدلاً من ان يعملوا وفقاً لتدابير حكيمة ، وخطة مرسومة .

وهكذا طلعت على العالم حركة تطورية لم تبلغ قط حد الثورة أو الانقلاب الجذري . فهذا المجتمع الذي قام في جمهورية ارستوقراطية ، بقي هو نفسه قائماً ، في عهد النظام الملكي ، كما ان المجتمع الذي ساد مدينة فاتحة ، غازية ، اصبح هو نفسه ، مجتمعاً لدولة كبيرة سادها النظام والانضباط .

وهذا التطور الذي تم تدريجياً ، أعرق في الارض ، ورسخ وطيداً بالفعل ، ولذا تحتم علينا ان نعرف المدى الذي بلغه ، والحدود التي وقف عندها .

١ ـ النظام الملكي واقع اجتماعي

وعلى رأس هذا المجتمع الروماني القديم قام ملك . وهذا الحادث البارز الذي يوجز وحده التاريخ الروماني في هذا العهد ، استأثر لعمري باهتمام الكتبة والمؤرخين القدامى الذين اطلعتهم ارفع طبقات المجتمع الروماني ، او خاطبوها في كتاباتهم . الا ان اعترافهم باهمية هذا الحادث لا يعني قط مقاسمة الاغلاط والمساوىء التي شابتهم .

الامبراطور

« الاول » بين المواطنين . فالامبراطور ، هو ايضاً ، الأول بين اشراف روما ورأس ارستوقراطيتها . وفي مقدمة هذه الارستوقراطية : آل يوليوس وآل كلوديوس الذين جمعوا المجد من اطرافه : حسباً ونسباً ونشباً . فالاسرة الامبراطورية التي توارثت الملك بعدهم وتعاقبت عليه ، خرجت من الارستوقراطية الايطالية الوسطى ، كالاسرة الفلافية ، او من بين مواطنين سكنوا الولايات القديمة ، كمعظم افراد الاسرة الانطونية ، محاولة جهدها الارتقاء لبلوغ مستواهم ومصافهم . فالانتماء الى الارستوقراطية هو من حق كل امبراطور جديد . فالامبراطور ليس بالواقع ، سوى سري او نبيل من سراة القوم ونبلائهم اضطلع بواجبات ومسؤوليات تفوق بكثير المسؤوليات والواجبات التي يضطلعون بها . وهكذا نراه بالفعل يبرز سريعاً عن الارستوقراطية ويتميز عنها، مع ان التقاليد والاعراف الرسمية تستمر على اعتباره واحداً منها . فهذا « الأول » لا مثيل له ولا كفاء البتة . فبدون ان نعود بالفكر الى ما كان عليه من تسام وما يتحلى به في طبيعته البشرية وشخصيته الدينية ، من افضلية على الناس طراً ، وبدون ان نأتي من جديد ، على تعداد رتبه ووظائفه وسلطاته ، وما كان يحف به من حرس وجنود ، وما يعمل في خدمته من موظفين ومأمورين ، فمن الجلي الواضح، انه على الصعيد الاجتماعي ، لا يمكن مقارنته ولا تصح مقابلته ، باي سليل لهذه الأسر الأرستوقراطية ، مهما سما او تعالى . فالثروة التي له ، والتي هي دوماً في ازدياد وارتفاع مطرد من جراء المواريث والمصادرات العديدة والفتوحات الواسعة ، تبز بكثير اية ثروة يمكن ان تتم لانسان ، اذ ان

خزينته الخاصة وخزينة الدولة التي يرأسها ويتصرف بها، لا تختلف الواحدة عن الاخرى بشيء، فهما تابعتان له . وهو الغني الاكبر ، والثري الامثل ، الذي يمكن بسخائه وجوده وكرمه ، ان يأتي العجب العجاب.

فهل من غرابة او دهشة ، بعد هذا ، ان تقوم حوله ، حاشية ، عريضة ، وان تلتف حواليه بطانة قوية ؟ ووجه العجب الوحيد في ان لا يكون لهذا البلاط عند تكوينه ونشأته ، ما بلغه ، فيا بعد ، من مهابة وفخامة وعظمة . وقد قيل : اذا عرف السبب زال العجب . علينا ان نحسب حساباً هنا للأصول التي انطلق منها نظام الملك الجديد ، والاتفاق الظاهري الذي جاء عربوناً له او رمزاً اليه . « فبيت » الامبراطور ، لا يمكن ان يرتفع على غير غرار البيوتات الارستوقراطية العليا ، ليصبح بعد ان يخضع لحركة تطورية تقدمية لا تقاوم ولا تضام « بلاطاً» حقيقياً ، شبيهاً من جميع الوجوه ، بالبلاطات الهلينية ، الا انه يحتفظ تقريباً ، في العهد الاول للامبراطورية ، بطابعه الاساسي . والى هذا ، فكلا المثالين تجمع بينهما اكثر من ميزة واحدة . فمنذ ان راح عظماء روما يتصلون، في القرن الثاني قبل الميلاد ، بهذه البلاطات الهلينية ، اخذوا يحتذون حذوها وينهجون على منوالها ، واضعين نصب اعينهم المستوى المادي لحيـاة ملوك الاغريق ، سواء لجهة رفاهية العيش ، او لجهة ما تحمله الملكية من رمز للرجل السوبرمان . فقد مثلت الملكية اليونانية في اعينهم الحضارة الرفيعة بالذات .

وكان لا بد من « بيت » للامبراطور ، في روما ، فشيد اوغسطس له صرحاً متواضعاً فوق رابية البلاتين حيث كان سبق لفريق من سراة الرومانيين، من بينهم شيشرون ، ان شيّدوا لهم عليها من قبل ، الصروح والحدائق الغناء . وما عتمت ان زالت هذه البيوتات الخاصة ، عندما راح طيباريوس وكاليغولا وغيرهما من اباطرة الاسرة الفلافية ، يشيدون لهم صروحاً عليها ؛ ولذا صارت رابية (*Palatin*) رابية الصروح *Palatium* والقصور ، ومنهـا اشتق الاصطلاح الفرنسي *Palais* — او المدينة الامبراطورية ، داخل العاصمة روما . وكأن هـذا التوسع لم يكف اباطرة الاسرة اليوليو ـ الكلودية ، فقـد توصلوا ، بطريقة او بأخرى ، الى امتلاك معظم الجنائن والحدائق الواقعة على هضبة الاسكلين. ثم اغتنم الامبراطور نيرون مناسبة حريق روما ، عام ٦٤ ، فاستولى على الاملاك الواقعة عليها وأنشأ محلها ما عرف في التاريخ بـ « الصرح الذهبي » وزيّنه بأبهى حلل الزينة ، بحيث ان قبة الصالة الكبرى ، وهي صالة الطعام ، كانت تدور على نفسها كالقبة الزرقاء ، ليل نهار ، بينما أنشأ له ، في الحديقة المجاورة ، بحيرة حاكت البحر في موانئها ومواقعها ، احاطت بهـا المباني إحاطة السوار بالمعصم ، متخذة شكل المدن ، يليها منظر ريفي أخاذ، تنسرب فيه الحقول والكروم والمراعي الخضراء ، وتسرح فيها وتمرح، قطعان الغنم ، وانواع الحيوان والطير . وقد اتضح فيا بعد ، ان هذه البقعة كانت حائلا دون انتظام شبكة المواصلات . وما ان صار الامر الى الاسرة الإنطونيـة حتى بادر اباطرتها الى دك معالم هذه المباني ، وشق طرقات فسيحة فيها قامت على جوانبها المؤسسات والمباني العامة .

والى جانب هذه الابنية الرومانية الفخمة ، لم تلبث ان قامت فيلات حرص أغنيـاء القوم في ايطاليا وسراتهم ، على تشييدها وفقاً للتقاليد المرعية . وحرص كل امبراطور على ان يكون له صرحه الخاص، وبعضهم عدة صروح، يتفنـنون في هندستها وعمارتها ما شاء لهم التفنن، حسب رغائبهم ونزواتهم ، ويشيدونها على شاطىء البحر او على هضاب منطقة اللاتيوم . وأشهر هذه الفيلات وأبهاها طراً ، الفيلا التي شيدها الامبراطور هدريانوس ، في تيبور *Tibor (Tivoli)* وراح يتفنن بحدائقها الغنّاء بانشاء المناظر الطبيعية ، او المباني التاريخية التي ورد ذكرها على لسان الادباء والرحالة ، امثال الليسيه ، والاكاديمي، ورواق بيكيل *Poecile* في اثينا، ووادي تمبيه في تساليا ، وكانوب في دلتا النيل ، والجحيم عند قدماء اليونان .

وعبثاً تبحث في روما او في خارجها، عن «القصر» الامبراطوري او الملكي بالمعنى الحديث، الذي يستوقف منك النظر بمظهره الخارجي ، وبفخامة رياشة من الداخل ، يصلح بما فيه من اثاث وحُجر ، وصالات فسيحة ، لمظاهر الابهة والفخامة . فالامبراطورية لم تشيد بعد لنفسها ، مثل هذه المباني الفخمة . فهي لا تقيم منها إلا ما يؤمّن راحة المالـك سعيداً الفعلي او الرمزي معاً ، الا وهو الشعب ، فترتفع في طول البلاد وعرضها : الهياكل الضخمة ، والميادين الشاسعة ، والساحات العامة ، والحمامات والمسارح العظيمة . وأمثل هذه المسارح وأفخمها طراً « المسرح الفلافي » المعروف اليوم باسم الكوليزيه. فقد احتل قسماً من قطعة الارض التي انشأ نيرون فوقهـا « صرحه الذهبي » . وبدلاً من قصر منيف ، يفكر الامبراطور بانشاء الحدائق الملكية التي تحاكي من قريب ، الحدائق التي قامت في العواصم الهلينية ، حيث كانت تطالعك المبـاني الفخمة ، تحيط بهـا الحدائق السندسية . فاذا ما انعمنا النظر ملياً في هذه المنازل او البيوت الملكية رأينا لكل واحد منها شبيهاً او مثيلاً يضاهيها حسناً ورواء في هذه الفيلات التي يروح اصحابها يتنافسون في فن يبز الواحد منهم الآخر ، في زركشتها وتحليتها وتزويقها من الخارج والداخل. والفارق الاكبر الذي يميز منزل الملك عن غيره من منازل سراة القوم وعِلّيتهم ، هو عدد الفيلات التي يملكها ، وتعاقبها الواحدة تلو الاخرى ، على هضبة البلاتين .

كذلك بقيت على نطاق ضيق مراسم الاستقبال الرسمية في القصر الامبراطوري . فالوصول الى الامبراطور ، والدنو منه ، والمثول بين يديه ، ميسور كل يوم ، لاصدقائه الخلص وخاصته ، ولاعضاء مجلس الشيوخ ، كما كانت ابواب قصره مفتوحة على مصراعيها ، للاستقبالات بالجملة في ايام الاعياد ، بأعداد كبيرة من الزوار. فهو يدعو من يشاء لتناول الطعام على مائدته ، كما يقبل بدون صعوبة ، الدعوات للخارج ، ويحرص ، مع كلوديوس ، على ان يرافقه ، فريق من حرسه الخاص، بينما نرى الامبراطور ترايانوس يضرب بهذه العادة ، عرض الحائط. فاذا ما نال اعضاء الاسرة الامبراطورية إنعامات وألقاباً ومراتب ، فليس عملاً بقاعدة مقررة ، او اخذاً بعادة مرعيـة . فالالقاب : « سيد وسيدة » (باليونانية كيريوس وكيريا) وباللاتينية دومينيوس ودومينا ، لم يجر العمل بها بصورة عامة ، مع وصول الاسرة الانطونية الى الملك ، عندما يوجه

الكلام الى الامبراطور او الى احد اقاربه. فلم تعتم هذه الالقاب ان عم استعمالها وانتشرت بين المجتمع المثقف. كذلك سرت بين هذه الطبقة عادة القبلة او التقبيل بعد ان ظهرت سوابق لها في البيئـــة الامبراطورية، شجبها الامبراطور طيباريوس لانها تنقل عدوى الامراض الجلدية، شأنها في ذلك شأن تقبيل اليـــد، وكلا العادتين اغريقية الاصل والمنشأ. اما عادة، السجود وتقبيل القدم التي شاء الامبراطور دومتيانوس فرضها على زائريه، فقد زالت بزواله وموته لانها مُحِطة من شأن المرء ومهينة له.

كل هذه الأمثلة والشواهد، تدل صريحاً على أنه لم يكن هنالك أي فارق نوعي أوجوهري، بين حيـاة الأمبراطور الخاصة وحياة سراة الرومانيين وأغنيائهم. فالشبه القائم بين الجانبين، الذي يمكن ملاحظته بسهولة، إنما يعود ولا شك، لاعتباره نظرياً على الأقل، بأنه واحد من الرومانيين. وتستمر هذه المحاكاة على أساس من الزلفى والملق، فيسارع عليّة القوم الى الاقتداء بالمَثَل الهابط من فوق احتذاء حذوه، فيعتمد الناس في مخاطبتهم نيرون، مثلاً وتوجيه الكلام اليه، على الصور البيانية والمحسنات اللفظية والتوريات الشعرية وعلى التنغيم، كما يعتمدون، مع مارك أوريل، الأسلوب الفلسفي. ويأخذ الرجال بارسال لحاهم تشبهاً بالامبراطور هدريانوس، كما أن النساء أخذن تأتم، بزي الامبراطورة، في لبسها وهندامهـا، فيأخذن بتصفيف الشعر وعقصه وتقصيبه، وغير ذلك من الازياء التي تعتمدها الامبراطورة. كل هذه العادات انمـا تدل دلالة واضحة الى التطورات التي ألـمّت بنمط الحياة في البلاط. وقد ساعدت على بقاء الامبراطور على الصعيد البشري وعلى احتفاظه بأعلى مستوى حياتي لأرفع الطبقات الاجتماعية في الامبراطورية.

بطانة الامبراطور

وهذا الامبراطور الذي يأتمّ الناس به في كل مـــا ينهج ويشرع، هو أقوى الناس، وأشدهم بأساً، وأوفرهم غنىً وثروة. ليس في مقدور أحد أن يجاريه في ما ينهج، وفارق الدرجة أو الرتبة بينه وبينهم، بقطع النظر عما بينه وبينهم من فارق الجوهر، أو الطبيعة، يزداد بروزاً وظهوراً. وعلى شاكلة ملوك اليونان في العصر الهليني، فهو قبلة أنظار الارستوقراطية الرومانية، وموضوع تقليدها ومحاكاتهـا له، نرى الامبراطور الذي في مقدوره وحده أن يعدلـهم وأن يبزّهم، يأخـذ تحت حمايته ورعايته شؤون الفكر، وحملة الأدب، فيحتاط بعدد كبير منهم، بين فلاسفة وخطباء وعلمـــاء، ويجزل لهم العطاء والتكريم. ويعين لامراء العائلة المالكة مهذّبين ومربين لهم شهرتهم الواسعة، ويتشدد في انتقائهم واصطفائهم، فيعين الفيلسوف سنيكا مهذباً لنيرون، والخطيب المفوّه كونتليانوس مربياً لدومتيانوس، كما يختار من بين مشاهير الاساتذة في عهد مارك أورل، المربيين: فرونتون وهيرودوس أتيكوس. وإلى هذا العدد العديد من الاطباء الذين أوكل اليهم السهر على صحة رجال حاشيته، فالامبراطور لا يحجم أمام أية تضحية ليُلحِق ببطانته أشهر نطس الاطباء، إذ ذاك. وعندما رفـع الامبراطور كلوديوس، الى ٥٠٠٠٠٠ سسترس (١٢٥ ألف فرنك فرنسي من عملة ١٩١٤)، فقد ضاعف المرتب الذي يُعطى عادة لطبيب الامبراطور، وذلك لكي

يحمل الطبيب اسكلابيازيس ألكومي ليكون في عداد أطبائه الخاصة ، كما أصبح فيما بعد ، الطبيب المشهور جالينوس البرغامي *Gallien* الطبيب الاول للامبراطور مارك أوريل ، ثم للامبراطور كومود .

ومن باب التنويه بالفرق ، من حيث الرتبة او الدرجة ، بين ما عليه بلاط الامبراطور وبطانة اغنى ثري من اثرياء الرومان ، في اواخر العهد الجمهوري ومطلع العهد الامبراطوري ، هذا العدد الذي لا يحصى ، من اصحاب اللهو والتسري والحشم ، من كل لون وصنف ، والسراري والجواري ، والمهرجين والممثلين ، والمغنين والراقصات والقيمين على الالبسة الخاصة بالممثلين والممثلات . وكان السواد الاعظم من هؤلاء الحشم والخدم عبيداً ارقاء او من المعاتيق ، الذين انتقلوا الى حاشية الامبراطور في جملة ما انتقل اليه من مقتنيات وخدم بالوراثة ، او أهدوا اليه متاعاً من قبل اقارب واصدقاء. وبين هذا الحشد عدد كبير من الاغريق او المشارقة المتأغرقين ، صَقَلت طباعهم ، ورهفت اذواقهم ، فبزوا بعيداً هؤلاء الغربيين المخشوشنين . فالاقاصيص والنوادر المستملحة التي نرى المؤرخ سويتون وواضعي كتاب : « تاريخ اوغسطس » يتندرون بمروياتها ، وقصائد الهجو والثلب التي يتبارى شعراء البلاط القول في بعضهم البعض ، تملأ صفحات بكاملها مع .سماء الأشخاص التي قيلت فيهم هذه النوادر المضحكة . وبين سوانح الكلم هذه ما فيه عبرة وعظة ، اذ ان الغيرة على الاخلاق حيناً ، والحسد احياناً ، اتخذ اداة للحنق او للاستشاطة ، لمرأى هذه الشواذات أو لهذه البدوات يأتيها بحضور ملك أبطرته النعمة ، أو أسكرته الكأس ، فريق من الناس جرّأهم الإغضاء عن الخروج على المألوف ، كما شجعهم على ذلك ، تساهل الامبراطور مع خلانه ومحظياته ، وهذه الأعطيات الجزيلة ، والالقاب الفخرية العريضة التي يُنعم بها عليهم ، وهذه الدناءات والزلفى يأتيها المتملقون المدلسون الذين يشترون بدناءتهم أو بذهبهم مداخلات الملك لصالحهم. ونقرأ في هذه الكتب النوادر والنكات المستملحة حول بخل فسبسيانوس وخساسته ، اذ يرغم احد الاكارين العاملين في اسطبلاته ان يدفع له ، نصف ما قبضه من صاحب قضية ، تعويضاً لتسهيل مقابلة له مع الامبراطور ، او يصورونه لنا يبيع المقاعد ، بواسطة احدى محظياته ، هي انطونيا تشانيس ، وهي أمَةٌ أعتقتها والدة كلوديوس التي كانت ابنة انطونيوس من شقيقة اوغسطس .

في مقدورنا متابعة هذا السرد دون توقف ، الى ما لا حد له. فاذا ما أسقطنا من هذا القصص ، ما هو ثرثرة وهراء ، يبقى مع ذلك ، واقع مؤسف :هو هذا الدس ، وهذه الموبقات المخجلة والمجرمة احياناً . وكيف السبيل الى تجاهل هذا الزبد وهذه الرغوة الطافية التي تبرز في جو كل حاشية وبطانة ، حتى ما ليس منها بقديم ؟ والشيء المهم ، بعد هذا كله ، ان لا نقف عند هذا وحده ، بل ان نردّه الى مسبباته الحقيقية ، ألا وهو ضعف الطبيعة البشرية ، وعدم تدرع الناس بتهذيب صحيح ، وفقدان تقاليد ادارية في دولة حاول الامبراطور إنشاءها فراحوا يرتجلون لها ادارة قوية . وقد اضطروا ، بعد ان أرغمتهم الحاجة ، سيراً منهم مع العادات المرعية بين سراة القوم

في روما ، ان يلجأوا ، كما رأينا ، الى خدمات من لديهم من حشم وخدم ، هم ، على الغالب ، ممن أعتقوهم من الرق . فلا نعرف في روما غير ثروة احد الخاصة المدعو نرسيس التي بلغت ٤٠٠ مليون سسترس والتي راح جوفنال يقارنها بثروة قارون او بكنوز ملوك الفرس . غير ان « حكم دولة المعتقين » الذي ازدهر في عهد كلوديوس، زال وتوارى عن الأنظار عندما استطاعت الدولة ان تجهّز نفسها بالأُطر والملاكات الادارية التي كانت تفتقر اليها عند تأسيسها .

اصل كلمة « نظام »

فلنعد الى ما هو أسمى من هذا وأهم بكثير ، الى هذا الجهد الموصول الذي انطلق من اوغسطس وبلغ ذروته مع الامبراطور هدريانوس فاستهدف تنظيم الطبقات الاجتماعية العليا وفقاً لمقتضيات حاجات الدولة ، من جهة ، وللخدمات التي باستطاعة هذه الطبقات ان تؤديها لها من جهة أخرى . وهـذا الجهد كان الغرض منه تأمين الامتيازات والمنافع التي حَلِمت هذه الطبقات دوماً بها،والمرتبات المعينة للوظائف العامة الموقوفة على اعضاء هذه الطبقات، ودخلاً كافياً للحفاظ على منزلتهم الاجتماعية . فتحقيق تكافؤ من هذا النوع كان ابداً من المثُل الرومانيـة القديمة التي دغدغت خواطر القوم منذ القِدم . فجاءت الامبراطورية الرومانية تجعل من هذه الرغائب نظاماً ، كما ان اضطرارها لإنشاء دولة لها هيكلها الاداري القويم ، أوجب عليها ، توفير الأسباب التي تساعد على تحقيق هـذه المثُل . وهكذا باشرت مهمتها وسارت في عملها على بركة الرحمن وأخذت تكمّله وتوسّع فيه الى ان استقامت لها ادارة بزت ما عُرف من أمثالها من قبل ، فيهـا الكثير من أساليب مصر الفرعونية كما ابتسرت بعض عناصر الـ « تشن » *Tchin* الروسي .

وهذه الطبقات الاجتماعيـة العليا تتألف من « منظمتين » هما المنظمة المشيخية او السناتوس ومنظمة الشفاليه. فالمصطلح « منظمة » او نظام جَروا على استعماله من قبل ، لا سيا عند التكلم عن الشيوخ الذين كانوا يسيرون على نهج يستوجب بالفعل مثل هذا الوصف او النعت . ويستبدّ هذا التعبير مع الاستعمال ويجري تطبيقه على هاتين الطبقتين الاجتماعيتين او هاتين المنظمتين ، اذ يتضمن دلالة جديدة لا تتوفر في كلمة « طبقة » او فئة . فاللفظ يفيد معنى النظام والتنظيم ، وهو عنصر اساسي ، مميز في حياة المنضوين الى هاتين الطبقتين ، اتضح مدلوله ، وبرز وخلص مما علِق به من غموض او لـُبْس ، مع بقائه مع ذلك ، مرناً مطواعاً . فاذا ما أُدخل عليه التنظيم والتقييد،اصبح مفهوماً، وسهُل بالتالي،على العقل ادراكه. وهكذا يجب ألا يتبادر الى الذهن من كلمة طبقة، شيء وراثي، ان لم يكن بالاسم فبالفعل، ولكن مع شيء من القيد وبشروط معينة، وعلى شيء من التسلسل او التابعية المسلسلة ، على أنساب محددة ، واضحة ، لا لبس فيها ولا غموض ، بحيث لا يمكن لدخيل ان يندسّ بين الصفوف، او لصاحب درجة سفلى ان يندسّ بين أصحاب الدرجات العليا . وللدخول في هاتين المنظمتين او الطبقتين ، والبقاء فيها ، والترقي في معارجها ، لا بد من رضى الامبراطور وموافقته ، وكثيراً ما يكون هو نفسه المرجع الصالح ، الأول والأخير ، للترفيع والانتقال من مرتبة دنيا الى مرتبة عليا . فاذا ما نظرنا الى قيام النظام

الامبراطوري من هـذه الزاوية وما كان له من نتائج اضافية على تنظيم الدولة ، برزت امامنا من جهة أخرى ، النتائج الاجتماعية الخطيرة التي ترتبت على هاتين المنظمتين .

ومع ذلك ، يجب ألا نجهل او نتجاهل ان الامبراطورية ، باعتمادهـا مثل هاتين المنظمتين ، قبلت مسبقاً ، أن تقيد حرية تصرفها ، من حيث اختيارها موظفيها الاداريين وترفيعهم . فقد التزمت الدولة بمراعـاة المبادىء العامة المرعية الإجراء ، دون خرقها خرقاً فاضحاً ، هذه المبادىء التي ترعى وتصون هذه المُثُل القائمة في احترام التسلسل الإجتماعي . وعلينا ان ننتظر طويلاً ، أي حتى أواخر العهد الامبراطوري ، قبل أن نرى الدولة تضرب بهذه المبادىء عرض الحائط ، أو أن تعبث كما تشاء بهذه الأنظمة المعمول بها .

طبقة الشيوخ وطبقة الشفاليه

الانتساب لهاتين المنظمتين يقتضي له الغنى الوافر ، أي مليون سسترس لطبقة الشيوخ ، و ٤٠٠ ألف لطبقة الشفاليه. وقد حرص العهد الامبراطوري الحرص الشديد ، على أن لا يدخل على هذا الترتيب أي تعديل ، مهما كان طفيفاً أو صغيراً . وقد حرص أوغسطس عـلى الحفاظ على هذه التقاليد . وقد طُلب من هذه الطبقات الموسرة اكثر مما طلب اليها في الماضي ، وبروح جديدة غير الروح القديمة ، أن تتفرغ لخدمة الدولة ، وينقطع أفرادها لهذا الأمر . وتعويضاً لها على خدماتهـا ، وعربوناً للثقة التي يشرّفها بها الامبراطور، فهو يحتفظ لها وحدها ، بهذه المنافع . فقد أصلح ببعض العطايا السخية التي جاد بها في مناسبات معروفة قسوة المبدأ وصلابته . فاقتسام الإرث ، من جهـة ، ونوازل الدهر من جهة أخرى ، كثيراً ما هددت أحد أعضاء هاتين المنظمتين بفقدان رتبته وباقصائه ، بالتالي ، عن العضوية . وكثيراً ما حدث أن أغضى الامبراطور عن مثـل هذا الوضع ، وبادر لمد يد المساعدة لمن ذهب فريسة الأقدار أو لمن عضه الدهر ، من ماله الخاص ، اذا ما رأى انه يستحق مثل هذه المساعدة . فما بلغ علمنا قط ، خبر أو ذكر احدى هبات امبراطورية أُريدَ بها رفع صاحبها للمستوى اللازم . غير انه لم يكن من الصعب على موظف يخدم الدولة بأمانة أن يوفر من مرتبه ما يلزم لإصلاح شأنه ، اذا مـا عمل بجد موصول ، وعرف أن يقتصد من نفقاته اليومية . كذلك لم يهملوا الأخذ بمبدأ التحوط المتبادل : فالغنى والثراء وحـده لا يولي صاحبه الحق بالوصول تلقائياً ، الى هذه أو تلك المنظمة أو الطبقة . فالثلاثون مليون سسترس التي أنفقت على وليمة تيملكيون، كما جاء في الرواية « ساتيريكون *Satiricon* » للمؤلف الروماني : بِترون لم تفِد صاحبها شيئاً ، ولم تقدم أو تؤخر في إيصاله الى عضوية احدى هاتين المنظمتين . وكيف تبلغ به هذه المرتبة ، وهو لم يستمع يوماً لفيلسوف ، ولم يُسمع له شعر ولا روى شعراً لأحد . فهو جاهل لا ثقافة له . كذلك تنوه القصة بأصله ؛ فقد طلع من العدم : كان رقيقاً فأعتق ، ثم بسم له الحظ ، فجمع ما جمع بشتى الطرق والأساليب الملتوية ، هـذه الثروة الطائلة . فاذا كان وصول بعض المعتقين الى مرتبة الشفاليه عُدّ خروجاً عـلى المألوف وشذوذاً عن القاعدة ، فقد أوصدت في وجوههم تماماً ، أبواب المرتبة المشيخية ، وحيل بينها وبينهم مطلقاً . وكان سبق

لأوغسطس أن حظّر عقد أي زواج بين معتق أو معتقة وبين أحـــد اعضاء مجلس الشيوخ. فالعضوية في الطبقة المشيخية يقتضي لها العضوية في مجلس الشيوخ، وان يكون حاملهـا مارس بصورة قانونية، صلاحيات ومسؤوليات أدنى الوظائف الموقوفة ممارستها عـلى أعضاء مجلس الندوة، وهي المراقبة *Questure*. ويحق له أن ينعم هو وزوجته وأولاده بامتيازات هـــذه الطبقة، وفقاً للدرجة التي هو فيهـا. وبالفعل، فأولاد عضو مجلس الشيوخ يصبحون دونما صعوبة، مراقبين بعد أن يكونوا أدوا الخدمة في الجيش، ضباطاً في بعض وحداته، أو عملوا موظفين في إحدى الوظائف الادارية الصغرى. والتسلسل في داخل هذه المنظمة، يجري وفقاً لجدول أو لائحة يضعهـــا مجلس الشيوخ، ويأخذ بالتدرج صُعُداً في سلم المراتب والدرجات. فالمناسبات عديدة أمام الامبراطور لإظهار عطفه أو عدم رضاه، عن صاحب العلاقة. وقـد أخذ يمارس أكثر فأكثر ويطبق حقه المشروع، في تعيين من يشاء من أعضـاء طبقة الشفاليه في العضوية المشيخية، وفي المرتبة أو الدرجة التي يريدها له.

وهنالك مـــا هو أغرب من ذلك وأوقع. فالانتماء الى طبقة الشفاليه مرتبط أبداً بارادة الامبراطور وحده، دون سواه. فليس في الأمر أية عملية اقتراع أو ما يشبه ذلك، في تعيين المراقبين، وتلقائية الإرث عند هذه الطبقة، أقل بروزاً هنا، منهـا في الطبقة الممتازة الأولى. ولذلك، فنشاط الشفاليه، يُصرّف، منذ عهد اوغسطس، في خدمة الامبراطور، فيختار من بينهم الوكلاء الذين يُدعون للخدمة في بطانته، الى أن ينتقلوا الى الخدمة في الادارة العامـة. فهو يختارهم كما يشاء. ومن الطبيعي ان ينعم أبناء الشفاليه، هم الآخرون، بشيء من الاطمئنان الى مستقبلهم، انما لا بد من اختيارهم وبلْو ولائهم. ومهما يكن، فعددهم لا يفي بحاجة الادارة التي اتسعت وتشعبت كثيراً، وأخذت تستوجب المزيد من الموظفين. وهكذا رأينا كيفـانهم، خلال هذين القرنين، تفننوا كثيراً في طريقة تزويد الإدارة بحاجتها من الموظفين. فوضعوا في هذا السبيل، القوانين اللازمة لاختيارهم وتدربهم، وفقاً للحاجات البادية. فبينما كان الامبراطور يفرض، في بادىء الأمر، على المرشحين للعمل في الادارة، الخدمة في الجيش: ضباطاً في الفرق الاضافية، وهم بعد في سن الشباب، كثيراً ما نراه في القرن الثاني يختار من صفوف الادارة، من يحتاج اليهم للعمل في الجيش، ويرفـع الى الدرجات العليا قواد المئة، أي هذا الفريق من الضباط الذين خرجوا وبرزوا من بين صفوف الجيش. فـــاذا كان الامبراطور هو المتصرف الأوحد، والمهيمن الأول والأخير، على الانتساب الى طبقة الشفاليه، فمن الطبيعي جداً، ان يكون السيد المطلق في كل ما يعود الى ترقيتهم وترفيعهم في داخل هذه المنظمة، فيعين مرتباتهم وفقاً لدرجاتهم، اذ كانت نهايات المرتب في السنة تتراوح بين ٦٠ الف سسترس للصغرى، و ٢٠٠ الف للكبرى.

السلك وامتيازاته

فالمنظمتان المذكورتان، هما بمثابة سلكين اداريين. فسلك الرُتب الفخرية الذي عمل به في العهد الجمهوري استمر وبقي معمولاً بـه على نطاق اوسع في السلك المشيخي. فالدرجات والرتب تكاثرت وتفرعت وتشعبت مع تنوع الوظائف في العهـد

الامبراطوري وتكاثرها في الادارة الجديدة. والتجديد الأكبر في هذا المجال تمثل في انشاء السلك الشفاليه الذي كان يُفضي بصاحبه : اما للسلك المشيخي ، وإما لوظائف عالية أخرى كالولاية ، التي تأتي في القمة من هذه الوظائف ، وتليها النيابة ولا سيا نيابة مصر ، وادارة مصلحة التموين *Annone* . ومن بين الوظائف التي يؤلف التدرج فيها اساساً للسلك ، هي وظيفة الكهنة والقضاة الذين لم يكونوا ليتناولوا مرتبات ولا أجوراً ، بينا اصحاب الوظائف العليا كالبروقنصل في آسيا وافريقيا ، كان الواحد منهم يتناول مليون سسترس مرتباً سنوياً . فما من احد ، بعد الذي ذكرنا ، حتى من كان من الموسوسين، يقضي حياته معدماً في خدمة الدولة ، بل على عكس ذلك تماماً ، ففي استطاعة الموظف ان يكوّن ثروة له ويزيد من غنـــاه . وعلاوة على ذلك ، يتمتع الموظف بامتيازات اجتماعية كثيرة هي سبيله الى الإثراء والغنى : كالاخلاص للمصلحة العامة ، والتمتع برعاية الامبراطور ، والنفوذ الذي يلازم الانتساب لهذين السلكين. فقد احتفظنا بكل مراسم التشريعات الخارجية التي عمل بهـا منذ عهد الجمهورية ، كالطوغة الارجوانية التي تُخاط على الرداء طولاً او عرضاً ، والخاتم الذهبي ، والأحذية الخاصة بأعضاء الشيوخ ، والمقاعد التي تحفظ لهم في المسارح وحفلات الألعاب الرياضيـة . وقد نالوا ، مع الزمن ، امتيازات ومنافع جديدة لم تلبث ان أصبحت من مستلزمات السلك ، منـذ منتصف القرن الثاني للميلاد ، اذ ان كل اعضاء الطبقة المشيخية ، بما فيهم النساء والأولاد، وجب في مخاطبتهم وتوجيه الكلام اليهم، استعمال ألقاب وألفاظ خاصة بكل رتبة ومرتبة، منها مثلاً « السَّنِي او السنيّة » ، بينا اعضاء الشفاليه يُخاطبون بنعوت وألفاظ فخرية ، منها : نيافة *Eminentissimus* ، وهو نعت يوَجّه لمدير الشرطة او لقائد الحرس عنـــد مخاطبته ، او « كلي الكمال *Perfectissimus* » لكبار النواب والمفوضين ، او « سامي *Egrejius* » . وهكذا فالتسلسل الاداري يقابله تسلسل بروتوكولي او تشريفاتي في المخاطبات الرسمية وفي المعاملات العادية. وهكذا أطلّ على الادارة، طبقة من النبلاء ، تألفت من زهرة الموظفين .

الشعب الروماني

وهذه الطبقات الممتازة تهمنا ايضاً من نواحٍ عديدة أخرى . إلا انه يحسن بنا ان نقف عند هذا الحد لنتابع النظر في الأثر الذي أحدثه في المجتمع الروماني النظام الامبراطوري الجديد .

لِنرَ ، قبل كل شيء ، أثر هذا النظام على سكان روما وشعبها . والشيء البارز في الأمر هو اضطلاع الدولة بمهمة ومسؤولية إعالة السواد الأعظم من مواطنين روما الفقراء ، وذلـــك بتوزيعات منتظمة من القمح والطحين على أقدار وأنساب معينة ، وتوزيع الدراهم عليهم ، في بعض المناسبات البارزة ، لتوفير اسباب العيش لهم ، بينا توفر لهم الاعياد والاحتفالات الرسمية والألعاب كل ما يحتاجون اليه من وسائل الترفيه والسلوى . « الخبز والملاهي *Panem et Circenses* » كلمتان اوجز بهما المؤرخ الروماني جوفنال الوضع الذي هيمن على روما واستبد بها . ويكفي ان نشير هنا الى هذا الهَوَس الجنوني ، والاندفاع الحماسي ، والشعبية التي لا حد لها ،

التي كانت ترافق بمجرد التلفظ بأسماء الممثلين والمغنين ، والراقصين ، وسباق المركبات في حلبة المصارعة او حلبة الطراد اذا كان الميدان الكبير يضم أكثر من ٢٥ ألف مقعد في عهد الانطونيين ، والتنافس الحاد الذي كان يجري بين فرقاء يرتدون ثياباً من ألوان مختلفة للتمييز بينهم : احمر ، وازرق ، وابيض واخضر ، الى ان أضاف اليها الامبراطور دومتيانوس الذهبي والارجواني ، ومعارك المصارعين التي كان يحضرها ١٥٠ ألف متفرج جالسين على مقاعدهم في كوليزيه تيطس ، يشترك في احدى حفلاتها الضخمة ، وهي حفلة التدشين ، ٩٠٠٠ حيوان . فقد برهنت الجماهير ، في كل أين وآن ، عما تجيش به من نزوات الاستبداد والبطش والقوة ، كما برهنت دوماً ، من جهة أخرى ، عن عفوية حماستها ، وعن ثورة غضبها . ولذا ترتب على ذوي الأمر ان يعرفوا كيف يثيرون هذه ويتفادون تلك .

فما من امبراطور حاول جاداً ، ان يقاوم هذا الهوس حتى عندما كان يوجس شراً من نتائجه المالية وتأثيره الأدبي السيء ، بل على عكس ذلك ، نرى معظم الاباطرة يتملقون الجماهير ويتحببون اليها محاولين ان يبز الخلف منهم السلف في هذا المضمار . فقد أحيا الامبراطور ترايانوس ، بعد ان تكاثر عدد الأسرى والعبيد ، إثر حروبه في مقاطعة داسيا (رومانيا اليوم) وتدويخه لها ، نحواً من ١٢٠ يوماً على التوالي ، من الأعياد الصاخبة وحفلات المصارعة اشترك ١٨٠٠٠ مصارع ، في هذه الأعياد الشعبية الضخمة التي أحياها عام ١٠٩ . غير ان هذه الامبراطورية لا يمكن ان تستمر على هذا النحو من الإنفاق والإسراف والاملاق . ولكن ألا يحق لهذا الشعب ان ينعم ، مقابل ما يقدمه للامبراطور ، من سلطة يوليه إياها ، وسمات ملك عريض عزيز ، وجيوش جرارة ، بالخبز واللهو والمسرح ، وان ينال كل ما يطمع فيه او يطمح اليه؟ كما يقول جوفنال . ويحقّ نَطـَق وقال . كل هذا يمثل بالفعل الثمن الذي يدفعه النظام الجديد تزكية لوجوده وقيامه ، وهو ثمن زهيد جداً ، امام اعتزال الشعب الملك ، أي كل السلطة الفعلية وتخليه عنها ، طوعاً واختياراً للامبراطور . ففي تأمين أوَد عيش هذا الشعب ، وتوفير اسباب تسليته ، والترفيه عنه ، أمْن الامبراطور نفسه وسلامة النظام ، وصَوْن له من أيّ انقلاب سياسي يقوم به الشعب ، ودون أية انتفاضة تخطر له على بال ، كما ان نهجاً من هذا النوع يجعل الطبقات الممتازة بمعزل عن كل ثورة اجتماعية . وبالفعل ، فالخطر عليه وعليها لا يمكن ان يطل من هذه الناحية .

غير أن البطالة داء قتال بالفعل ، وفيها الخطر كل الخطر على العاصمة روما . فالشعب فيها لا يتألف من هؤلاء المواطنين المسجلة اسماؤهم في سجلات الاعاشة المجانية . فهنالك حشود بين هذه الجماهير لا ينالها شيء من هذه التوزيعات ، بينهم مثلاً : المواطنون القادمون من الولايات الاخرى ، القريبة والنائية على السواء . فعلى هؤلاء ان يعملوا وان يشتغلوا ليكسبوا عيشهم اليومي ، عندما تبوء بالفشل محاولتهم الانضمام او الانضواء تحت حماية او رعاية أو تبعية بعض الزعماء والاثرياء المعروفين بالجود والسخاء . فقد كان ، في روما ، ما يوازي اصحاب المهن الحرة عندنا

اليوم . فالانصراف لهـذه المهن لا يؤمن لاصحابها ثروات ضخمة أشبه بالثروات التي يستطيع تحقيقها نطس الاطباء، مثلاً . ويوجد الى جانب هذه الطبقة ، طبقة وسطى اخرى ، هي طبقة الشغيلة والمستخدمين وأصحاب الحوانيت والصناع. فبالرغم من كثرة المصادر الأدبية التي تصف لنا اخلاق العصر أكثر مما تستطيعه الرُقم والنقائش ، فهي تلتزم الصمت التام عندمـا تتعرض لذكر الطبقة البورجوازية المتواضعة . وهـذه المصادر بالذات ، سواءاً أكثرت من النصح والموعظة ام راحت تقدح في الاخلاق، فهي لا تفرق بين هذه الطبقة وثفالة الشعب. فان لم تخلُ مدينة كبيرة او عاصمة مملكة من الممالك،من رُعاع تفح منهم رائحة العطن والنتن،فمثل هذه الحثالة كبيرة في روما الامبراطورية الى حد مدهش . فهي تجد في جو الاغنياء والاثرياء مرتعاً خصباً لتنمو وتتكاثر ، شأنها في ذلك شأن المدن الضخمة التي لا حركة تجارية كبرى فيها ، ولا انتاجاً ضخماً لها فتحاول الدولة ان تجعلها، مع المواطنين العاطلين عن الاشغال، في مأمن من عضة الجوع أو لسعة الفاقة ، حؤولاً منها دون انحدارها الى ادنى دركات البؤس والتعاسة.

اليد العاملة في املاك الدولة

والبطالة عند هذا الفريق من الناس يجب ان يقابلها العمل عند الفريق الآخر . فالامبراطور اعجز من ان يواجه هذه الاعباء المالية الضخمة ، لولا ما هو عليه من غنى وثروة طائلة يستمدهما من استثمار أملاكه الواسعة واطيانه التي لا حد لهـا ولا حصر . فهو اكبر ملاك في الامبراطورية ، واملاكه الواسعة هذه لا قيمة لها ولا شأن الا بنسبة ما يستطيع استغلالها واستثمار ما فيها من خيرات دفينة ، وذلك بفضل اليد العاملة التي يتصرف بها .

نحن نجهل تماماً، كم هو عدد العبيد الارقاء في حوزته. فهم ولا شك يتجاوزون بضع عشرات من الألوف بينهم قلة من الخدم والحشم . وترينا النقائش الأثرية التي عُثر عليهـا ، هؤلاء العمال موزعين الى فئات وطوابير، مكتَّبين في كتائب شبه عسكرية، تحت أمرة عدد من ضباط صف أو باشراف بعض المعتقين ، وقد توزعوا على أملاك الامبراطور في جميع أطراف الامبراطورية ، ليقوموا بجميع الاعمال التي يقتضيها استثمار هذه الأراضي ، بعضهم كتبة في الادارة ، وبعضهم يعمل في المناجم او المقالع . فالحياة التي يعيشونها ، والآمال التي قد تبتسم لبعضهم في المستقبل تختلف كلياً بين الواحد والآخر . اسعدهم حظاً وأقدرهم كفاءة لا يلبثون ان يُعتقوا من العبودية التي يرسفون فيها ، فينالون بذلك أولى خطوات الحرية . اما الباقون الذين يكدحون في المناجم والمقالع ، فوضعهم قاس ، مرير ، إلا ان وضع « ارقاء قيصر » ، كان أخف وطأة مع ذلك ، مما كان عليه وضع الذين كان حُكم عليهم بالاشغال الشاقة ، أولئك الأرقاء الذين كانوا يعملون في هذه الاشغال التي يتعهدها ملتزمون . هنالك بعض تدابير خاصة كانت تتخذ مسكّناً لهم بعض الشيء ، كاعفائهم من ثمن احذيتهم ورسوم الحمامات ، ورسوم غسل الثياب والحلاقة، كما يستدل من النظام العمالي الذي عمل بموجبه في مقاطعة المعادن ، في بلدة فيباسكا ، في البرتغال ، مما عثر عليه مؤخراً . وفي هذا دليل على رسيس من عاطفة الشفقة والرحمة التي تجلت بصورة اجلى في اواسط القرن الثاني . وكان همّ الادارة الاكبر في ان تتمكن من تجديد هـذه اليد العاملة ،

وقد استفحل امرهـا بحيث أصبحت مشكلة كبرى في عهد الأسرة الأنطونية عندمـا خفت الحروب، وقلّ بالتالي ، عدد الأسرى الذين كانت تؤمنهم هذه الحروب .

ومع ذلك ، فهذا العدد العديد من الارقاء ، لم يكن ليكفي قط لاستثمار أملاك الامبراطور على الوجه الاكمل ، اذ ان جانبـاً كبيراً من اليد العاملة الممثلة بهؤلاء الاسرى ، لم يكن ليصلح للعمل في الحقول والزراعة . ولذا نرى الامبراطور يستعين بعمال أحرار . ومـع ذلك فهو يجد صعوبة في توفير حاجته منهم . والطريقة التي كان يعتمدها عادة ، هي تلزيم استثمار أراضيه الى متعهدين وملتزمين *Condoctores* وفقاً لعقود خاصة يعقدها معهم ، على ان يترك أمر مراقبتهم لوكلاء يعينهم الامبراطور . فالكتابات الاثرية التي وجدت في مقاطعة المناجم في فيباسكا ، تبين المصاعب والمشاق التي كان يجدها هؤلاء المتعهدون قياماً بتعهداتهم الاستثمارية ، وذلك لقلة اليـد العاملة . وقد أصدر الامبراطور هدريانوس قانوناً خاصاً بالمناجم ، أجاز بموجبه لاي كان، ان يستثمر لحسابه الخاص ، أي منجم أو مقلع أهمل المتعهد الرسمي استثماره مدة ٦ أشهر متعاقبة. كما ان القانون المذكور ، حدد الواجبات المترتبة على كل من المتعهد القـديم والمستثمر الجديد . ويدل عدد من الرُقم والنقائش التي عثر عليها في تونس ، ان تدابير من هذا النوع اتُخذت بشأن أملاك الامبراطور المتروكة بوراً من قبل المتعهدين ، أوسع حرية من السابقة ، وهذه الاراضي هي عادة أراضي ممسكة ، لا تصلح لزراعة الحبوب ، ولا لها كبير مردود . والقانون المذكور ينصح بالاستعاضة عن الحبوب ، بزراعة الاشجار المثمرة كالزيتون مثلاً ، والكرمة والتين ، كما انه ينص على تأجيل جباية الرسوم عنها لعدة سنوات. وعلى الاعتراف بملكية الارض لمن يقوم، من تلقاء نفسه ، باستثمارها فجعلها بجده وتعبه ، تثمر وتغل . وعندمـا لا يتوفر للامبراطور متعهدون نشيطون او يحتاج لليد العاملة ، نراه يستعين باناس يكونون بـأمن من السخرة او من تعسف الملتزمين ، وهو يستجيب في ذلك ، ليس لعاطفة انسانية ، بل لضرورات اقتصادية ، حتى اذا ما أعجزته الحيلة ، التجأ الى وسيلة اخرى هي السخرة .

٢ - وحدة الامبراطورية والمجتمع الروماني

فاذا ما أثـّر واقع الامبراطورية على تطوير المجتمع الروماني ، وأحياناً بشكل قوي عنيف، فهنالك عامل آخر لم يقلّ شأناً وأثراً ، في توجيه هذا التطور وطبعه بميسم خاص ، يتمثل بهذه الاتصالات والعلاقات التي ربطت بين مختلف أقطار الامبراطورية وأمصارها ، فكان في آن واحد ، عِلة ومعلولاً ، في تكوين دولة ، ان لم نقل أمة ، من هذا اللفيف من الولايات التي كانت، من قبل ، متجاورة متلاصقة ، غـير متعارفة . وهكذا يبدو لنا ، مرة أخرى ، أثر هؤلاء الاباطرة البارز في بنـاء هذه الدولة الرومانية وترسيخ أسسها . وليس بغريب، قط ، ان نرى هذا التطور يأخذ مجراه، على عكس ارادتهم، بعد ان عجزت عن الصمود في وجه التيار المعاكس.

روما مرآة الامبراطورية وبوتقتها. حركة العتق

وهذا التقارب يجري بين مجتمعات متباينة أصلاً وفصلاً ولساناً، توافرت له عوامل كثيرة للالتقاء والاندماج والانصهار. وهذا الانصهار والاندماج يتم في روما: عاصمة الامبراطورية ونقطة الثقل فيها ومقر عظماء الرجال وأصحاب المال والأعمال، وقبلة انظار الطامحين والطامعين الذين راودتهم الحُلُم الذكية والأمجاد الأدبية والفنية، وملتقى المغامرين والمتآمرين، من رجال ونساء في سعيهم وراء الشهرة وتصيد الحظوظ. وقد تلاقت في هذه المدينة العظيمة جميع العناصر والأقوام والشعوب، ممثلة على أدنى حد، في هذه الأعداد المتزايدة من الأرقاء والعبيد الذين يردفون الأسر الثرية بحشود من الخدم والحشم تتجاوز الألوف، هم غنى وثروة الطبقات الارستوقراطية من التوابع واللواحق، من كل عرق وصنف ولون. والمشارقة بينهم، كثر، حاذقون، مَهَرة، دوماً على استعداد لكل خدمة، هم، في الغالب، على مستوى طيب من الثقافة والمعلومات العامة، وعلى أتم استعداد للقيام بالمهات المشبوهة، وبكل أعمال الشطارة والمخرقة حتى أحطّها وأدناها، يمارسون النجامة والعيافة والقيافة والعرافة، والسحر والكهانة، ويشاركون في كل الطقوس والحرتقات الملتوية، ويتّجرون بكل شيء، حتى بأنفسهم وبغيرهم من الناس، وبالفنون والألعاب حتى بأخس الأصناف. فلا عجب بعد هذا، ان ينشد الشاعر الروماني قائلاً: «منذ عهد بعيد راح نهر العاصي يدفق مياهه في نهر التيبر»، ومثل هذا الانصباب لم يبتدىء بالطبع مع الامبراطورية. إلا ان هذا الدفق تضخم مع الزمن وتجاوز الزبى، بعد ان عم الرخاء وتشعبت الادارة العامة وفروعها.

فلا عجب ان يوجس الاباطرة خشية من هذا التيار الجارف، فيعهدون، من حين الى آخر، الى الشرطة باخراج العناصر الطارئة واقصائها بالجملة، كما حاولوا جهدهم، ان يحدّوا من حركة العتق التي انتشرت عادتها وأصبحت زياً ينتهجه كبار القوم، ومادة دعائية يتنافسون بها ويتبارون. ولذا قام اوغسطس يحاول، بما عرف عنه من روح اجتماعية محافظة، الحد من حركة العتق هذه، فأصدر عدداً من القوانين الرادعة، فمنع العتق عن الرقيق قبل ان يبلغ الثامنة عشرة من عمره، كما حظر عتق الخمس من العبيد، دفعة واحدة، وباصدار براءة عتق رسمية كما كانت تقضي العادة المتبعة. كذلك شدد في تطبيق الأحكام القانونية الصادرة من قبل التي لم تكن لتسمح إلا لحفيد المعتوق ان يتمتع بكافة الامتيازات الخاصة بالرعوية الرومانية.

وقد بقي معمولاً بهذا القانون في حياة صاحبه، انما بصورة مخففة، لأن الملك الذي يتمتع بحق الاعفاء، لا يستطيع ان يقاوم التماسات أصحابه والمقربين اليه من معتوقيه أنفسهم. ومهما يكن، فالحواجز التي أقامها، لم تستطع سوى التخفيف نوعاً من سير هذه الحركة التطورية العارمة التي لا تقاوم. وبفضل حركة العتق الواسعة هذه، استطاعت روما ان تمازج بين العناصر المتباينة التي تألف منها السواد الأعظم من سكانها، بعد ان قصدتها من جميع اقطار الامبراطورية وأطرافها النائية. وهكذا اختلطت ذراري الفاتحين بذراري المغلوبين على أمرهم واندمجت بعضاً

ببعض . وهذا الانصهار العرقي ، صحبه ، من جهة ثانية ، حتماً انصهار أدبي وخلقي .

استبدال السكان ونقلهم

وقد تم في الولايات شيء من هذا القبيل ، أشد فاعلية ، وأعمق أثراً، وان جاء على شكل أقل ظهوراً وبروزاً، لأنه لم يقتصر، على العاصمة وحدها .

قلما عمد الأباطرة الى نقل السكان بالجملة من بلادهم الاصلية واقتلاعهم منها لإسكانهم في قطر آخر . فلم يكن في أيّ من البلدان التي دوّخوها وكونوا منها امبراطوريتهم الشاسعة فائض بشري يصح استخدامه في إعمار أقطار أخرى قليلة السكان . فالاجلاء الجذري ، المنهجي ، لم يكن من الوسائل المحببة عندهم لتأديب الخارجين على السلطة او المارقين على القانون . فقد اعتمدوا بدلاً عنه ، الاستعباد والرق بالجملة . فالرعب والهلع الذي أنزلوه بفلسطين بعد سحقهم الثورة الدامية التي قام بها اليهود تحت أمرة شمعون بركوكبا، في عهد الامبراطور هدريانوس، أجبر اليهود على الهرب والجلاء عن البلاد ، الامر الذي أدى الى إفقارها . وكذلك قل عن مقاطعة داسيا . فبفضل هجرة فردية موصولة ، خلواً من كل ضغط ، كما يبدو ، تـلـتّـنـت هذه الولاية بعد فتح ترايانوس لها . وهكذا نرى ان الامبراطورية الرومانية لم تلجأ حتى آنذاك، لاساليب العنف والإرهاق التي سبق لبعض الدول الغاشمة ان عوّلت عليها من قبل ، وان اعتمدت على مثل هذه التدابير ، فيما بعد ، حتى أصبحت عندها تدبيراً مألوفاً . وهكذا نرى بعض الاباطرة يقتلعون من أقطارهم ، اقواماً من البرابرة ، غرباء عن الامبراطورية ، ليسكنوهم مقاطعات ايطاليا الشمالية ، كما فعل اوغسطس ، في منطقة الرين ، ونيرون في منطقة الدانوب ، ومارك اوريل في بعض الولايات الدانوبية . فكان هذا التدبير الذي لجأوا اليه ، ذريعة من الذرائع التي مكنتهم من توفير ما يحتاجون اليه من يد عاملة لاستثمار الاراضي التي استباحوها ، كما أتاحت لهم ان يتفادوا الضغط الذي تعرضت له تخوم الامبراطورية من قبل شعوب وأمم استهواها فاجتذبها الازدهار الذي نعمت به الامبراطورية، لم يسبق ان رأت مثل هذا الازدهار أو ما يشبهه في بلادها . وكان وضع هؤلاء الدخلاء ، في بادىء الأمر ، وضعاً متدنياً لا يختلف كثيراً عن وضع الأرقاء تقريباً . إلا انهم لم يعتموا ان اختلطوا بالشعوب القائمين بينها او المجاورة لهم وانصهروا فيها واندمجوا معها .

وقد تفاعلت عناصر اخرى بهذا الاندماج . فقد سبق واشرنا من هذا القبيل ، الى الدور الذي لعبه السوريون في الحركة التجارية ، بعد ان انتشروا في كل قطر وصقع ، وحلوا تحت كل سماء . والشيء الذي لا يمكن ان نمر به هنا في غير مبالاة ، هو هذا الاضطهاد الديني الذي أكتوى بناره مسيحيو مدينة ليون ، في عهد الامبراطور مارك أوريل . فقد بلغنا خبره من رسالة باللغة اليونانية أرسلها مسيحيو مدينة فيينا وليون الى أخوتهم في الايمان، في آسيا وفريجيا. وهنالك عامل غير عامل التجارة يجب الا نسقطه من حسابنا ، ساعد كثيراً في تعجيل خطى هذا التطور ، وهو يتمثل في هذه المناقلات التي استوجبتها مقتضيات الخدمة العسكرية وموجبات الادارة العامة . فمعظم طوابير الجيش وفرقه كان يجري تشكيلها ضمن المقاطعات

القريبة من معسكراته . غير ان دواعي الدفاع عن حدود الامبراطورية ، والذب عن حياضها كثيراً ما تسبب في نقل فرقة بكاملها ، من الشرق الى الغرب ، فيفضّل من بلغ من أفرادها ، سن التقاعد، عند انتهاء خدمتهم العسكرية، ان يقيموا ويستقروا حيث هم، منصرفين الى استثمار قطعة الارض التي كانت تُقطع لهم عند خروجهم من الجيش ، بعيدين عن وطنهم الاصلي . ومهما يكن فحياة الضابط في الجيش كثيراً ما تكون عرضة لمناقلات عديدة ، شأنها في ذلك شأن موظفي الادارة ، ولو كانوا من الدرجة الوسطى . فالازدواج اللغوي ، في الامبراطورية ما كان قط حائلاً دون ابناء الغرب الذين كانوا يحسنون اللاتينية ، في ما تلقوا من تربية . وهذه الازدواجية اللغوية ، لم تعد لتؤلف ، منذ القرن الثاني ، حائلاً دون الاغريق في شرقي الابيض المتوسط ، بعد ان صارت الامبراطورية ، منذ عهد هدريانوس ، تعتمد على خدماتهم ، فراحوا يستسهلون الصعاب في سبيل تعلم اللاتينية ، بعد ان انفتحت امامهم ابواب الوظائف ، سواء في الجيش أو في الادارة . وقد استتبع ذلك حركة مصاهرة وتزاوج ، بين بعض طبقات المجتمع، بين قطر وآخر وبين هذه الطبقات بالذات التي كانت ذخر الامبراطورية وعمادها ، تمدها بالملاكات والأطُر الادارية ، فأدت هذه الحركة الى التخفيف من حدة الفوارق الدينية والتصديقات العقائدية ، وتصادم الافكار والآراء ، والتوحيد فيما بينها . وهي حركة ستقوى وتشتد في المستقبل الطالع .

الاعتراف المتزايد بحقوق الرعوية الرومانية للمدن

فما من شيء أثّر ، مع ذلك ، أكثر من انتشار نظام البلديات الذي كانت تشوبه نزعة غلابة نحو المزيد من التجانس والتقارب ، عملاً بالمُثُل التي جاش بها هذا النظام ، ونتيجة لهذه الانعامات التي كان الامبراطور يجود بها ويسخو ، ممثلة بحق الرعوية الرومانية التي كان يسبغه على بعض المدن .

فقد تباين الاباطرة الأول سخاءً في هذا المجال ، بين مُكثر من هذه الانعامات ومُقلّ . ولكن لا نستطيع التأكيد ، لئلا نفرط في القول ونغلو ، ان اوغسطس وطيباريوس قد « اوصدا باب المدينة » ، اذا صح القول ان غيرهما من الاباطرة ، كالامبراطور كلوديوس مثلاً ، قد « فتحوا منها الابواب وشرعوها على مصراعيها » . اما الشيء الثابت والأكيد، فالقضية قضية نسبية ونزعة عامة ، اذ لم يتخلف احد من هؤلاء الملوك ، عن الإنعام بمثل هذا الحق ، ولمرات عديدة ، لعدد كبير من الموطنين الجدد . وحق الرعوية الرومانية يكتسبها بصورة تلقائية، هذه او تلك من الطبقات الأجتماعية الوجيهة ، ضمن نطاق البلدية ، وفقاً لوضع مدينتهم الشرعي . ويستتبع هذا الحق امتيازات فردية وانعامات خاصة تُعطى لمن يتطوعون للخدمة في الجيش أو عند انتهاء خدمتهم العسكرية في فرق الجيش الاضافية . فاذا ما خفت الحركة أو تباطأت في عهد ترايانوس ، فقد استشرت واتسعت في عهد الأسرة الانطونية ، اذ انعم اباطرة هذه الاسرة ، على معظم المدن الكبرى وقواعد الولايات ، بحق الرعوية الرومانية ، بحيث ان كل المواطنين في المدينة يكتسبونها اذا لم يكن يتمتع بها بعضهم من قبل ، بصورة شخصية . وهكذا فالظهير

الامبراطوري الذي كان كركلا سيصدره عام ٢١٢ فيعترف فيه بهذا الحق لجميع الرجال الاحرار الذين ولدوا ضمن الامبراطورية ، كانت قد تهيأت له اسباب الإعداد وزكاه شمول الحركة .

من العبث أن يحاول المرء التقليل من شأن هذه الحركة الشاملة التي كانت ترمي لإقامة وضع شرعي قانوني،يساوي بين الشعوب المغلوبة على أمرها في الامبراطورية والشعب المظفر الغالب. وهذه الحركة تجري بالطبع تحت سيطرة ومشارفة امبراطور ، مطلق السلطة والارادة، امتدت سلطته الى أقصى أطراف الامبراطورية ، لا تجرّ على سكان الولايات غُنماً مادياً ملحوظاً ، بل على عكس ذلك ، تعود عليهم ببعض الغُرم ، إذ يصبحون بفضل ما كسبوا من حق جديد ، عرضة للضرائب التي لا تقع إلا على المواطنين ، إلا اذا كانت مدينتهم تتمتع – وهذا شيء نادر جداً – برعاية « القانون الايطالي » ، فيُعفَون إذ ذاك من ضريبتي الأملاك والمسقّفات . ومع ذلك ، فهذا الحق كان يولي صاحبه امتيازاً كبيراً ، إذ يؤمن له المساواة القانونية والأدبية بالمواطنين الرومانيين . ولكي يقدر المرء هذا الحق قدره وفضله ، في المراحل التي قطعتها هذه الحركة في تطورها الصاعد، عليه أن يرجع بالفكر الى ما كان عليه وضع سكان الولايات الرومانية في آخر عهود الجمهورية .

فالإنسانية لم تعرف في تاريخها القديم دولاً كثيرة سارت الى النهاية ، على هذا النهج الذي سارت عليه الامبراطورية الرومانية .

الواقع الاجتماعي في المدن : البورجوازية البلدية

وهذه الحركة التطورية ، لم يكن لها أن تحدث لو لم تقترن بحركة تطورية مماثلة لها ، طلعت في المجتمع الريفي ولفّته لفاً، فتفاعلتا معاً وتكاملتا . فمثل هذه الحركة لم تكن بمستجدة، في الشرق الهليني. فقد جاءت فيه تتمة لحركة بدائية ، انطلقت عنده من زمن بعيد . أما في الغرب ، فقد اقتضى لها التأسيس والتمهيد من الأصل ، وانشاء كل شيء من البداية ، أي من نقطة الانطلاق . فالأمر ، في نظر الامبراطور ، ليس مجرد إنشاء هيئة أو منظمة محلية ، يتنازل لها عن مهام الادارة المحلية . فهي عنده بمثابة مَشْغل ، أو بوتقة تُطلِع طبقة اجتماعية يريدها ان تتعاون معه وتخفف عنه بعض الأعباء. فالطبقة الارستوقراطية في هذه الولايات التي عانت ما عانت من حروب الفتح الروماني ، وتضرست بويلاته ، لم يكن في مقدورها قط أن تقدم له المادة البشرية اللازمة للادارة . وهو ، من جهة ثانية ، لا يثق بالطبقات السفلى المشاغبة ، غير المثقفة. ولذا ترتب عليه أن يشجع هنا ، وان ينشىء هنالك ، طبقة وسطى ، طبقة عريقة ، رصينة ، مثقفة ، وبالاختصار ، طبقة بورجوازية . وهكذا ترتدي السياسة التي اتبعها في حمل المدن على الأخذ بأسباب الحضارة، طابعاً اجتماعياً له أهميته الكبرى .

ومهما تنوعت طرائف تكوين هذه البورجوازية البلدية وتباينت وسائلها ، فهي لا تمثل مع ذلك ، من حيث عناصرها المقوّمة ، قطاعاً مصغراً لسكان الامبراطورية . فلم يدخل فيها ، إلا في القليل النادر ، عناصر من الطبقة الريفية الأكثر عدداً ، هي طبقة العمال الزراعيين ، اذ كانت

لا تملك ، في البدء ، سوى رأس مال متواضع ، فترغمهم الحاجة للعمل في الأرض عند الآخرين . ولم يدخل ابداً في هذه الطبقة من كانوا يؤلفون اليد العاملة ، ولا سيا هؤلاء الذين كانوا يقومون بأحَطّ الأعمال وأشقّها ، كالعمل في المناجم والمقالع الحجرية والأشغال الشاقة الأخرى . فقد كان وضع العيش عند هؤلاء واولئك ، على السواء ، على جانب كبير من الشظف بحيث لو أوتوا العجائب في ما كانوا عليه من تقتير وتوفير وحرمان ، لما استطاعوا ان يوفروا الحد الادنى من الكفاف الذي يسد بُلغتهم ، ولما كانوا ، من جهة أخرى ، خارج المدن ، لا سمير لهم ولا عشير سوى رفقة لهم في العمل والشقاء معاً، يفصل بينهم وبين رؤسائهم هوة اجتماعية عميقة تنعدم معها كل علاقة بين الجانبين . ولذا لبثوا عاجزين ، متخلفين عن تحصيل أي قدر ونصيب من العلم او الثقافة حتى ولو رغبوا في ذلك ، حتى من نَعمَ بينهم بحريته الشخصية .وقلما نعموا بحق الرعوية المدنية ، اذ كانوا في نظر الأحوال الشخصية مجرد « قاطنين » او مستوطنين لا غير .

وهذه الامكانات التي حُرموا منها ، توفرت مع ذلك ، لعناصر اجتماعية أخرى من الاثرياء وكبار الملاكين وأصحاب الأقطان كبيرهم وصغيرهم ، وسكان المدن . وقد جاءت السابقة من الأغنياء من بين سكان الولايات الذين لم يلبثوا ان انضموا الى الطبقة الاجتماعية العليا ، وانصهروا فيها ، كما جاءت من المواطنين الرومانيي الايطاليي المنشأ ، او من اقدم الولايات الرومانية ، او من قدماء المحاربين الذين نالوا الرعوية الرومانية ، او عن طريق اصحاب الاراضي والاطيان او صغار الموظفين الذين اصبحوا فيما بعد ملاكين بعد ان أُقطعوا بعض الاراضي واشتروها . وكثيراً ما شكّل هذا الفريق ، الى جانب سكان المدن ، مجتمعاً ثانياً واستقروا معه على وضع عُرفوا به قانوناً *Conventus Civium Romanorum* الذين بالرغم من قلة عددهم ، كانوا اسوة طيبة لغيرهم . وهذه الشواهد نأتي على ذكرها هنا ، ألفت مثالاً احتذاه معظم سكان المدن ، وقد ساعدهم على تحقيق ذلك ، التسهيلات الاقتصادية والثقافية ، التي توفرت لهم من جراء سكناهم في المدن وحواضر البلاد الكبرى . وهكذا رأينا عمالاً وصناعاً من اصل متواضع جداً لا يختلف وضعهم عن الوضع الذي كان يرسف فيه سواد المعتقين ، يصبحون من أشدّ الناس ولاء للامبراطور ويصبحون ، بعد لأي قصير ، اعضاء في هيئة نقابتهم *Seviri Augustales* ، ثم يباشرون وظائف البلدية ويتحملون مسؤولياتها . وبقيت أسمى هذه الوظائف وأعلاها مرتبة ، مع ذلك ، موصدة تقريباً امام الجيل الاول لهؤلاء الناس ، الى ان انفتحت ابوابها على مصراعيها امام ذراريهم فيما بعد ، عند اول بسمة يفترّ عنها ثغر الحظ ويرضى بالسير في ركابهم .

وهذه النجاحات جاءت تعبيراً عن يسر مالي متزايد ، كما كانت ، من جهة اخرى ، توجيهاً آخر للنشاط الاقتصادي . عمل الانسان بيده ، لا بد منه عند الانطلاقة الاولى ، وما ان يلبث الدكان الخشبي حتى يستحيل مشغلاً يعمل فيه بعض الارقاء والعبيد . .فالتجارة ، هي ولا شك في ذلك ، اوسع يداً وأرحب مجالاً ، لا سيا اذا ما عرف صاحب المتجر ان ينظم عماله وان يقيم له عملاء ومراسلين في أماكن أخرى ، فلا يلبث ان يستوي في مرتبة اجتماعية أعلى . والفئة

المختارة بينهم كانت تحاول توظيف قسم من ثروتها في شراء الاملاك والاقطان ، وبذلك يتاح لاصحابها النهوض الى مرتبة الاعيان والوجهاء في الناحية او القضاء .

فالاعتبار الاجتماعي للمرء كان يختلف باختلاف طريقة استثماره لما يملك من رأس مال، والدخل الذي يؤمنه ، كان يعود عليه بأشياء لا يقل تأثيرها بشيء عن نمط الحيـاة التي يحياها ، والمظهر الخارجي الذي يظهر عليه ، كالعلاقات التي تربطه بمن هم عيال عليه ، او بمن هو دونهم ، وكيفية استمتاعه بأوقات الفراغ التي تتوفر له ، فيتصرّف بها على هواه ، والتربية التي كان يحاول تنشئة بنيه عليها ، وغير ذلك من وجوه الحياة . فالاهتمام بأمور الفكر والادب احتل محلاً بارزاً بين المـُثـُل التي دغدغت هذه البورجوازية . ولم تكن تتحرج من استقبال اصحاب المهن الحرة التي عرفت ان تؤمن لأصحابها السَعة وراحة البـال . اما اهل الادب ورجال الفكر وحملة الاقلام فكانوا ، اينما حلوا ، موضع التجلـّة والاكرام .

سخاء البورجوازية وجودها

من بين المناقب التي لا بد للبورجوازية من الاتصاف بهـا : الكرم والجود ، الذي يدفع اليه مبدئياً ، حب الوطن الاصغر ، والرغبة في رؤيته اجمل وأبهى ، محتفلاً دوماً بالاعياد ، يشارك بها الناس القادمون اليها من بعيد، فيكتسب بذلك شهرة ويذهب صيته بعيداً في الولاية بين المدن والقرى والدساكر . فلا عجب ان يحتـاج صندوق البلدية للمال الوافر يستطيع معه مواجهة مثل هذه النفقات، التي لا يمكن للرسوم المجباة ان تؤمنها، حتى ولا تلك التبرعات التي يجود بها، نقداً او عيناً، وفقاً للتقاليد المرعية والشرائع المعمول بها ، متى ينال من ابناء البلد ، منصباً جديداً ، مهما صغر شأنه أو دق وزنه . ولذا كانت ترد على صندوق المدينة ، رأساً او بالواسطة ، هبات شتى وتبرعات مختلفة . فلا غرو ان تشتد في مضمار التبرع ، منافسة حامية بين البورجوازيين القاطنين في المحلة ، وبين هؤلاء الذين أتاح لهم وضعهم المالي القوي ومنزلتهم الاجتماعية، ان يعيشوا بعيداً عنها. فقد همهم بعد ان برّزوا وترقوا في درجات السلم الاجتماعي ان يبقوا دوماً على اتصال وثيق بمنشئهم الاول ، او بالبلدة التي رأت نشأتهم الاولى ودرجوا صغاراً على دروبها ، ولا تزال تربطهم بهـا وشائج من القربى والمصلحة والاملاك ، وغير ذلك من المقتنيات ، وهي بدورها تفخر ببنيها المبرزين وتجليهم ، وتحرص على الاحتفاظ بهم ، وتحفل بهم عند حضورهم اليهـا ، فتسجل أسماءهم في سجل النابهين من أعضاء البلدة جذباً لهم واستمطاراً لأعطياتهم ومبراتهم .

وهكذا راح كل واحد ممن طلعوا فلمعوا، يتفنن كل على طريقته الخاصة، بتمثيل دور النصير، تشبهاً منهم بالاباطرة والملوك في حدبهم على المواطنين ، والعطف عليهم والبر بهم ، واكتساب محبتهم وولائهم عن طريق التبرع بسخاء . وهكذا نستطيع اليوم بفضل ما عُثر عليه من الرُقم والنقائش التذكارية ، اعداد قائمة بهؤلاء المحسنين لا آخر لها ولا حد . فلنقتصر من ذلك على بعض شواهد وأمثلة لنكوّن فكرة صحيحة عن ماهية هذه الهبات ونوعها ومقدارها . من ذلك مثلاً المبالغ التي ضرب بها أصحابها الرقم القياسي بالسخاء ، والمآدب الحافلة التي أدّبوها ، والولائم

السخية التي أولوها ، والتوزيعات التي قاموا بتوزيعها عيناً ، واقامة الانصاب التذكارية ، وتقديم النفقات التي أوجبها تشييد بناء ذي مصلحة عامة او تزيينه وتحليته بالاثاث والرياش، او خدمة مثلى أداها لبلده او مدينته ، او محلته او للامبراطور ، او تسليف الادارة المحلية ما تحتاج اليه من مال ، والاكتتاب بالمبالغ اللازمة لتموين البلدة ، او السعي لتوفير ما يلزمها من حنطة واستيرادها على نفقته الخاصة في اوقات الجدب ومواسم القحط ، والتركات التي يُوصُون بها لأغراض شتى ، وغير ذلك .

وغني عن القول ان بعض وجوه هذا السخاء كانت تذهب لبعض الفئات او الهيئات الخاصة، فينتفع بها فريق معين دون أهل المدينة كلهم. فالحصول على ترفيع او تقدير او ترقية ؛ مهما كان صغيراً او متواضعاً ، يكفي وحده مبرراً لإبراز أريحية صاحب الانعام وكرمه ، وإلا لما عُدّ أهلاً لرتبة أعلى وأرفع .

وكان الترفيع من رتبة دنيا الى رتبة أعلى يستدعي حتماً من صاحب الحظوة اظهار كرمه وجوده على وجه دخل معه الناس في شبه سباق يتبارون فيه ، ويتنافسون . فان فاتتنا المصادر الوثيقة هنا ، فشيء من علم النفس يحملنا على الظن ، بأن ممارسة بعض الوظائف كانت تؤمن ولا شك ، لأصحابها ، بعض المنافع المادية . فالبورجوازية البلدية كانت تؤمن ادارة المدينة ، إذ كان عليها أن تسهر، الى جانب الموظفين الامبراطوريين ، على تأمين الشرطة واستتباب الأمن والنظام فيها ، وهي إمور حرصت على تأمينها الحرص كله . فهي تعرف كيف توفق بين مصلحتها ومصلحة الأشخاص التابعين لها، في كل ما يتصل بتوزيع الضرائب ، حق البلدية منها، وجبايتها . ولكن هذا الاحتمال الثاني ، لم يكن ليتوفر في المستويات الدنيا . ومهما يكن من مبررات هذه الشكوك ، فهي لا تمنعنا من أن نؤكد هنا بأن هذا النظام كلف الطبقة الوسطى غالياً . فقد كان هنالك حوافز اخرى تحفزها على العمل كالمُثُل التي تترسمها المدينة ، وهي مثُل لا تتعدى عادة، المنفعة الشخصية المبنية على المباهاة والتفاخر في الخارج. فالواهب او المتبرع كان ينال ، لقاء سخائه وتبرعه ، مكافأة له أو تقديراً لعمله ، قراراً يأخذه أعضاء المجلس البلدي يشيد بسخائه وكرمه ، اذ كان خبر هذه التبرعات ينقش على الرقم والأنصاب تخليداً لاسم صاحبها ، او تُنصَب له ولذويه التماثيل . وكثيراً ما كان يأخذ هو نفسه ، على عاتقه ، تكاليف هذه الكتابات أو كلفة صنع التمثال ورفعه . وعلى كل ، فالشاهدة التي توضع على قبره، بعد الوفاة، كانت تحدّث القوم عن ألقابه وأخبار أياده، ووجوه كرمه ، والأشياء التي ابتدرها لمصلحة البلدة .

الحياة البلدية عنصر من عناصر وحدة الامبراطورية

فأمام هذا التنويه العالي والأماديح الفخرية التي تطالعنا بها كتابات الرقم والنقائش التي لا تحصى ، يعتري الواحد من رجال هذا العصر شيء من الإشفاق والتصاغر عندما يرى هذه المباهاة والمنافسة ينبري لها المحسنون تخليداً لاسمائهم في اذهان مواطنيهم . كذلك فهي تثير في النفوس غير هذا التأسف

ايضاً. فقد كان بالامكان، ولا شك، الافادة من هذه التبرعات في وجوه أفضل اذ كثيراً ما ذهبت جزافاً، في سبيل شهوات ونزوات لا طائل تحتها، لا سيما اذا عرفنا انه لم يكن من السهل دوماً جمعها، الا بشق المرائر، مسخرين في سبيل ذلك العديد من الناس.

ولكن، هل يجوز بعد هذا، ان نجهل او نتجاهل بان الولايات مدينة لهذه المشاعر والاحاسيس الكريمة بالكثير من هذه التبرعات والانعامات الجزيلة التي أسبلت عليها، كما انها مدينة لها بالكثير من هذه المباني والزخارف الفنية المدهشة التي تتباهى بها اليوم، والذي وحّد بينها: ذوق مترف يتجلى على أتمه، في هذه الزخارف، بالرغم من تباعدها بعضاً عن بعض. فالادارة الامبراطورية التي عولت كثيراً على هذه البلديات في تحقيق رسالتها التمدينية، واخذت بتشجيعها ومؤازرتها، وجعلت من حياة البلديات، اذ ذاك، عاملاً كبيراً وعنصراً قوياً مشتركاً في عملية دمج الأقوام التي تألف منها سكان الامبراطورية وصهرها، وتأمين الوحدة بينها، وذلك من جراء قيام مثل هذه المثل الفنية، في كل أطراف الامبراطورية، والشكل الذي استقرت عليه في تحقيقها وبلورتها. فاينما دفعت حوافز الحياة، المواطن الروماني، وانى رمت به ظروف الوظيفة او المهنة او نزق الطبع، فهو لا يحس نفسه غريباً عن بلاده، في كل ما يتصل بالمهام والمسؤليات التي يضطلع بها كفرد من افراد المجتمع، مهما كانت الولاية او المقاطعة التي القت به اليها الأقدار. فاينما هبط او حل، طالعته، في خطوطها الكبرى، نظم سياسية واحدة، واعراف واحدة، وتقاليد واحدة، والقيم الاجتماعية ذاتها، أدبية كانت او مادية، والزخارف المعمارية الواحدة، والاعياد ذاتها، ومختصر القول، الكثير من مقومات الحضارة الرومانية الواحدة. فلا عجب والحالة هذه، ان يرى نفسه مأخوذاً بقوة هذه الحضارة وسطوها اينما برزت وكيفما تجلت، فيقتنع في قرارة نفسه بانه أمام الحضارة الوحيدة التي تستحق هي وحدها، دون سواها، هذا الاسم، فتنبعث فيه عاطفة نبيلة من الزهو والفخر والمجد عندما يرى نفسه جزءاً منها، كما تمتلىء نفسه جميلاً لهذا النظام.

المنشأ الهليني لهذا النظام

من الواضح ان التطور الخلاّق الذي تم من هذا القبيل، خلال القرنين الاول والثاني، كان تكملة واستطالة لهذه الحركة التطورية التي أخذ الاغريق بأسبابها ونهضوا بها منذ ان جعلتهم فتوحات الاسكندر أسياد العالم الفارسي، وهي حركة لم تتعدّ في الشرق رقعة ضيقة، حدّها قيام دولة الفارثيين على الفرات، بينما بلغ مدها الزُبى في الغرب مع الفتوحات الرومانية. فاتساع المدن القديمة، وإنشاء الحواضر الجديدة، وتزيينها بالمباني، وتحليتها بالزخرف، والتطور الذي طرأ على الطبقة البورجوازية في المدن التي كانت تتمتع بيسر مالي مكنها من ان تجود بما جادت به من تبرعات سخية دعائية، وجمعت الى رغبتها في توفير المرفهات المنزلية الاجتماعية، اللذة في توفير ثقافة فكرية. كل ذلك جاء تعبيراً صادقاً لهذه النزعة التي حاول السلوقيون، جاهدين، وبكل ما أوتوه من قوة وسلطان، تحقيقها. وأخذ الاباطرة بدورهم في تشجيع هذه الحركة، اذ انهم، بعد ان تبنّوا المبادىء

الحضارية ذاتها ، راحوا يعملون على توسيعها والترحيب لها والدفاع عنهـا ، اذ وجدوا في هذا المسلك ، الطريقة المثلى لتوطيد السلام ، في الداخل ، ومقاومة هجمات البرابرة وغزواتهم ، في الخارج . فبعد ان عرفوا كيف يفيدون من اختبارات الماضي ومن إقبال اللجنة في المدن عـلى هذه المُثُل ، استطاعوا ان يبزّوا ملوك اليونان من هذه الناحية بكرمهم وروحهم السمحة ، فهيأوا لحواضر الولايات ، في مصر اسباب الاخذ بهـذه النظم التي رأيناها تطلع في ولايات رومانية أخرى ، باستثناء الاستقلال الاداري ، بالطبع .

المستحدثات الرومانية : المصارعون

هنالك ولا شك ، أكثر من وجه من وجوه التباين بين هـذه المدنية التي انتشرت على هـذا الشكل ، في جميع أنحاء الامبراطورية الرومانية ، بفضل العمل الاجتماعي الذي قامت به هذه المدن ، ضمن إطارها البلدي، وبين الحضارة الهلينية التي تقدمتها وسبقتها الى الظهور . فالجديد ، في الاثر الروماني ، يبرز على الأخص ، في هذه القوة او الصلابة التي امتازت بهـا النُظُم الادارية عند الرومان ، وفي اهتمام أولي الأمر الكبير، بالمصلحة العامة . فعندما نتملى النظر في الموقف الذي وقفتـه الطبقات البورجوازية في الشرق منالامبراطورية الرومانية وأسيادها في روما، لا نرى شيئاً يمكن مقارنته بهذا في الموقف الذي وقفته هذه البورجوازية من الدولة السلوقية والعراقيل الكثيرة التي أقامتها في وجهها . فلم تقتصر روما في عملها على إخضاعها وبسط سيطرتها عليها ، فراحت تغرس فيها شيئاً من كرامة الذات والمهابة الرومانية ، وذلك عملاً بفلسفة الرواقيين وتعاليمهم .

من بين هذه التغييرات الأدبية التي تجلت بصورة أوضح من خلال المظاهر الخارجية ، لا بد من ان نذكر هنا ، بنوع خاص ، هذا الجديد الذي طلع بـه الرومان فلم يلبث ان احتل حيزاً كبيراً في حياة المدن في جميع أنحاء الامبراطورية ، وان أثار اليوم دهشة المحدثين من رجال هذا العصر وبعث فيهم النفور والاشمئزاز ، الا وهو ألعاب المصارعة . وكان سكان المدن يجدون في معارك المصارعين ، منذ عهد بعيد ، سلواهم المفضلة، بعد النجاح العظيم الذي لقيته هذه الالعاب أينما قامت. فاذا ما شيدوا في الشرق من المسارح اقل مما شيدوا منها في الغرب، فلأنهم استعملوا لها ما كان قائماً من هذه المسارح والملاعب في المدن الشرقية . فالصفوة الثقافية والأدبية عنـد الاغريق قلما اظهرت نفرتها من هذه الالعاب ، بل على عكس ذلـك لقيت لديها الاستحسان ، بينما النخبة الاجتماعية التي رضيت طوعاً واختياراً بتحمل النفقات المالية التي أوجبتها هـذه الملاهي، راحت تزهو بها وتفخر، كما تشهد على ذلك النقائش العديدة، من يونانية ولاتينية ، على السواء . فلم تُثر هذه الملاهي الدموية التي طلعت علينا بها ايطاليا ، أية عاطفة نفور او اشمئزاز في هذه البلدان التي تعاقبت عليها عصور وعصور من الحضارة المرفّهة .

فالظروف الواحدة والمطالب الملحفة الواحدة تلاقت متشابهة في كل مكان. فالمصطلح اليوناني *Philotimia* , *Philotimos* , *Philodoxos* أصبح فيما بعد مرادفاً للمصطلح اللاتيني *Munerarius* و *Munus* ، وهو يفيد معنى : العطاء والبذل ، ثم اكتسب فيما بعـد، لدى كهنة عبادة

الامبراطور معنى المعركة والمصارعة ولا سيما المعركة بين البشر ، ثم تصارع أناس ضد البهائم والوحوش لإثارة حماسة الجماهير . وكان النظارة يحفلون بالمعارك التي يستعمل بها السلاح المثلوم وهو سلاح كان المصارعون يستعملونه . فالمعركة ، في نظرهم لا قيمة لها ان لم يتخللها عطاء او بذل شيء . كذلك لم يكونوا ليحفلوا كثيراً بالمعارك التي لا تساوي فيها ولا كفاء ، او تلك التي يلتقي فيها منافسان تنقصهما الخبرة لأنها اعجز من ان تثير اللذة او الحماسة ، كما ان خلوها من الشجاعة والإقدام يُعطّل عند المشاهدين كل عاطفة إعجاب وإكبار وإيثار . ومهنة المصارعة *Gladiature* كثيراً ما أعادت الينا وبعثت فينا صورة : « الجحيم في التاريخ القديم » ، وهي معارك فيها من اللهو البشري الوحشي ما تتضاءل دونه لذة مشاهدة مصارعة الثيران او سبق الخيل . ويكفي المؤرخ ان يسجل وقوع مثل هذه المصارعة وما كانت تثيره في النفوس من أحاسيس وانفعالات مهتاجة ومهيجة . والحال ، فاذا كانوا يستخدمون لها أرقاء مدربين يتعهد بتقديمهم ملتزم معين او يبيعهم بيع خيول الاصطبلات ، فكثيراً ما كان يبرز لهذه المعارك ، رجال أحرار طمعاً منهم بالربح والجوائز التي كانوا يفوزون بها ، اذ كان يتقاضى المصارع المتمتع بحريته ، ربع قيمة الايجار ، بينما يأخذ المعتوق خمسها ، ناهيك عن التنويه بهذه الأمجاد ، وذلك بحفرها على شواهد قبورهم .

ومهما يكن ، فالنفقات التي كان يتحملها المتبرعون في هذا السبيل ، كانت باهظة ، مرهقة . وبلغ من شدة تنافسهم وهَوَسهم في التبرع ما أربى على الجنون ، بحيث اضطر مجلس الشيوخ ، في عهد الامبراطور مارك اوريل ، الى إصدار قرار نظّم فيه أصول هذه المصارعة وضبط أساليبها ضبطاً محكماً جعل من اللازم اخذ نصف المتصارعين في اليوم الواحد من الفئة الأرخص والأقل كلفة . وكان المصارع الواحد من هذه الفئة يؤجر نفسه بمبلغ ١٥٠٠ سسترس . ونرى في غرة القرن الثالث ، عيناً من اعيان الغاليين أصله من مدينة فيدوكاس (بالقرب من مدينة كان في نورمنديا) ، ترقى فيما بعد ، الى رئاسة الكهان في منطقة ليون ، يحافظ على أحكام هذا القرار ومنطوقه ، عندما يتعهد بتقديم ٣٢ زوجاً من المصارعين ، كل يوم ، ولمدة أربعة ايام فقط ، بأجر بلغ ٣٢٢٠٠٠ سسترس . وهكذا نرى كيف ان مبالغ طائلة هدرت هدراً في سبيل ترهات ومجد باطل ، كان بالامكان استخدامها في وجوه أكثر نفعاً ، وأبقى للمصلحة العامة من هذه السخافات والاستباحات التي لا طائل تحتها .

الطبقات الممتازة : احتياجاتها والملع الامبراطوري

هذا الدور الذي لعبته الطبقة البورجوازية في البلديات ، لم يقتصر على المدن وحواضر البلاد الكبرى . فقد وجد فيها الأباطرة الرومانيون المعين الاكبر الذي أمدّهم بالعناصر الطيبة التي ألّفوا منها طبقة الأشراف في الدولة . وكان من جراء هذا التغيير ، ومن طبيعة الحياة الاجتماعية التي طبعت نهج العيش في المدن ، ان جعل الامبراطورية الرومانية أكثر تجانساً وأشد صلابة .

فعندما أنشأ اوغسطس بنظامه الجديد ، تألّفت الطبقة المشيخية ، في سوادها الأكبر ، من

أشراف روما وسُراتها ، بينما تألفت طبقة الشفاليه ، على عكس ذلك ، تماماً من أعضاء جرى اختيارهم واصطفاءهم من بين الطبقة البورجوازية في المدن الايطالية ، ولعبت الوراثة دورها في كل من هاتين الطبقتين، إلا ان دوافع عديدة متباينة حملت الأباطرة على توسيع النطاق الجغرافي في تشكيل هاتين الطبقتين . من ذلك مثلاً، حاجتهم المحافظة على العدد المعين أو المحدد لكل منها . فاذا كان عدد اعضاء الشيوخ ٦٠٠ عضواً كما كان في عهد سيلا، فرضت ظروف وصروف لا يمكن التحكم بها ، على الاباطرة ان يعينوا عدداً لا يحصى من الشفاليه الجدد ، سداً منهم لحاجة الادارة ، وإملاءً للمناصب والمراكز المختلفة التي أنشأتها الدولة تباعاً . ولعل أهم هذه العوامل كلها : الضمور والانحلال الذي اعترى تدريجياً الأسر الممتازة القديمة .

فالمؤامرات والهول الذي كان يزرعه الاباطرة في قلوب الناس، للقضاء عليها، حملهم في القرن الاول ، على التخلص ، دونما شفقة او رحمة ، ودفعة واحدة ، بعدد كبير من صفوف اعضاء مجلس الشيوخ. فمجرد حوم الشبهة او اخذ البعض بالظِنة في محاولة اعتداء على صاحب الجلالة ، كان كافياً وحده ، لحملهم على الانتحار ، امتثالاً منهم للقدر الغاشم ، وغيرة منهم على شرف الرتبة بشكل يحرك مشاعر النفس ويثيرها . فليس من عجب ان يسيطر الهلع على اعضاء مجلس الشيوخ خلال ملك طيباريوس ونيرون ودومتيانوس ، ويدفع بالكثيرين الى الانتحار تخلصاً مما يحوم حولهم من شبهات . وعندما خفت حدة هذا الخوف وخفتت وطأة هذا الهلع ، نوعاً ما ، في عهد نيرفا وترايانوس ، راح الناس يسلقون هذه العهود ، بألسنة حداد مستمطرين عليها وعلى أصحابها اللعنات . فاذا ما كانت الأسرة الانطونية ، في مجموعها – باستثناء الامبراطور هدريانوس الذي لم يتردد بانتهاج سياسة البطش – عرفت ان تضع حداً لهذا العهد المرعب ، فمرد هذا يعود بالأحرى ، للحلم الذي اتصف به افراد هذه الأسرة الحاكمة ، بل لهذه الروح الجديدة التي تجلت بين صفوف المنظمة المشيخية بعد ان جددت شبابها ونفضت عنها ما تراكم عليها من غبار الماضي ، وقطع أعضاؤها كل صلة لهم بالدس والتآمر . وهكذا قطفت الاسرة الانطونية ثمار سياسة الضغط والشدة التي انتهجها أسلافها من قبل .

الثراء وقلة الإنجاب

وعملية الفتك، بالجملة ، بالعديد من اعضاء الطبقة المشيخية، لم تكن بالطبع، لتقضي وحدها عليها بالفناء والمحق ، كما ان هذه الأحكام بالاعدام لم تكن لتلحق الأذى المادي في أبناء المحكومين، هذا اذا ما سلمنا بوجود اولاد لهم . والمفجع في الأمر، هو ان معظمهم لم يكن لهم اولاد . ومما زاد الطين بلة والامر حرجاً هو ان طبقة الشفاليه لم تصب ، على الاجمال ، بسوء في عهد الارهاب والهلع الذي سيطر على اعضاء مجلس الشيوخ ، لأن خطرهم كان دون خطر اولئك ، على الاباطرة . وكانوا ، على الغالب ، يموتون دون ان يعقبوا اولاداً. وقد لفتت ظاهرة الاضمحلال التي اعترت الطبقات الاجتماعية العليا، نظر المؤرخ الروماني بوليب ، فسماها *Oliganthropia* ، وعرّض للكتابة عن هذه الظاهرة في معرض حديثه عن المجتمعات اليونانية في العهد الهليني . وعندما راح يُحلل اسباب هذه الظاهرة ، ويُعلل الدوافع

التي أدت اليها، وقف في تحليله لها عند الاسباب الخلقية والادبية دون سواها ، بعد ان تدهورت الاخلاق العامة بين أبناء الطبقات الممتازة في روما ، خلال العهد الامبراطوري ، واتخذ هذا التدهور صوراً وأشكالاً من الفساد والشر. وقد تجاوز بوضوح عن ذكر أسباب أخرى ، محافظة منه، ولا شك في ذلك، على الاخلاق العامة، مع ما استرسل اليه من اللوم ، والشجب والانتقاد، ولو تعرض هو نفسه لتهمة الموعظة والارشاد .

كان المجتمع الروماني العالي يغص بالغنى ويرفل بالثراء . فقد بلغت اكبر ثروة بلغنا خبرها ، اذ ذاك ، ٤٠٠ مليون سسترس ، ملك احداها معتوق يدعى نرسيس ، من توابع الامبراطور . اما الثانية ، فخصت احد اعضاء مجلس الشيوخ ، في عهد اوغسطس . فلاعجب اذا ما راح بلين الاصغر يشكو امام مشاهدته هذه الثروات الهائلة ، زمانه وقسوة حظه ، ويقابلها بامكاناته المتواضعة ، مع العلم انه خلّف، وراءه ، كما تنص عليه وصيته الأخيرة ، وفقاً لمنطوق احدى النقائش التي وصلت الينا ، ٢٠ مليون سسترس لا غير. وقد رأى بالطبع ، مجتمع على مثل هذا الغنى ، ان يستمتع بالحياة ، على ما يرغب فيه ويشتهي . فقد شهد القرن الاول للامبراطورية بذخاً لم يعرف العالم مثله من قبل ، كما انه بلغ حداً من الترف لا مزيد عليه ، والكل يحاول ان يبز غيره في لذائذه ، ويتفنن بالاستمتاع بها حتى الخروج على المألوف ، وذلك ببذخ واملاق تجلى في كل مظاهر الحياة المادية : في هذه القصور الشاهقة ، وهذا الجيش اللجب من العبيد والارقاء ، وهذا الاثاث والرياش والملابس الفخمة والحلى والجوهرات ، والولائم المترفة ، وانواع اللذائذ على اختلاف طعومها والوانها . من السهل ان نورد على هذا ألف شاهد وشاهد ، هي من الواقع بحيث تبدو صعبة التصديق تبعث الشك في النفوس لشدة غرابتها لولا اتفاقها مع النصوص الأدبية والتاريخية التي خلفها لنا الأقدمون فتجعلها فوق شبهة ومظنة . وهذه الشواهد التاريخية ، على صحتها ، هي من الكثرة والتوفر اوردها كتاب وشعراء أقدمون ، بحيث لا خوف قط من ان يعوزنا الدليل . وبالرغم من الأمثلة الكثيرة التي جمعها المؤرخ الألماني لودفيغ فريدلاندر ، في كتابه الضخم الموسوم : « تاريخ الآداب والأخلاق في روما قديماً »[1] لا يزال هنالك مجال واسع لاضافات كثيرة من النقل والمأثورات . ومهما تكن الصورة التي تطبعها في النفس قراءة هذه الوقائع التاريخية التي أُخرجت للناس حديثاً ، أفلاماً سينمائية تضؤل كثيراً أمام ما نقرؤه عنها في آثار كتبة الرومان ، أمثال بترون *Pétrone* و مرسيال وجوفنال ، فهي تبقى دون الحقيقة بكثير .

ومهما بلغ من زهو هذه الحياة التي عاشها اغنياء الرومان ، والبذخ الذي تجلى في مآدبهم ، والتفنن الذي بلغوا فيه القدح المعلّى في ولائمهم، بحيث انهم فاقوا كل ما عُرف من امثاله في التاريخ القديم ، فالذي يهمنا هنا ، من هذا كله ، هي النتائج الديموغرافية التي ادى اليه هذا المسلك . ففي روما ، كما في اليونان قديماً ، لم يكن الاب الذي يستطيع ان يورث أولاده ثروة بعد موته

(١) *Histoire des Moeurs de Rome*

يطرحهم في الشارع . غير ان الانصراف للحياة الحرة ، الطليقة ، المترفة ، جعل كثيرين من الشباب ، يفضلون البقاء عازبين حتى اذا ما تزوجوا في ما بعد ، لم يعقبوا ، هذا ان لم يتعرض زواجهم للطلاق ، وان أنجبوا ، فبعدد قليل وتعرض اولادهم للوفاة . وهـذا النقص الفاضح في المواليد جاء يتم، من جهته ، عمل الفتك والتقتيل بالجملة ، الذي امتاز به عهد بعض الاباطرة .

فشل قوانين محاربة البذخ والتشريعات الديموغرافيـة

حاول المسؤولون جهدهم ان يكافحوا ما أمكن ، اسباب الداء وان يجتزوا الداء من الاساس . واقتداء بالقوانين التي سبق لقيصر ان سنها من قبل ضد بَطـَر البذخ والاسراف والاملاق ، راح ابنه اوغسطس يشترع بدوره قوانين بهذا الصدد للحد من موجة الانفاق بامـلاق وأسراف جنونيين . فحدد بـ ٢٠٠ سسترس لليوم نفقة الأيام العادية، و٣٠٠ سسترس لأيام الأعياد ، و ١٠٠٠ سسترس ليوم الزفاف والتالي بعده . ثم أصدر قانوناً جديداً ، لم يكن له اثراً اكبر من غيره ، نظم فيه كيفية مراقبة المشتريات بصورة عملية . وقد رفض الامبراطور طيباريوس ، بمـا عرف عنه من سلامة المنطق ، الاستمرار في تطبيق هذه القوانين ، معلناً بان الاسراف على شؤون التغذية ليس سوى وجه من وجوه الاملاق والبذخ، متسائلاً: « كيف نبتدىء الاصلاح وما الذي يجب تخفيضه ، في الدرجة الأولى ، للرجوع بالاخلاق الى البساطة الاولى؟ هل نبتدىء بتخفيض مساحة البيوت التي نشيدها في الأرياف ؟ او هل نخفض هـذه الجيوش الجرارة من العبيد والارقاء ؟ او هذه المبالغ الضخمة من الفضة والذهب ؟ أو بالاحرى هذه الاواني المنزلية البديعة الصنع ، من البرونز ، أو هذه الرسوم التي يعنّي الرسام نفسه برسمها بصبر جميل ؟ أو هذه الثياب الفخمة الفاخرة ، أو هذه المقادير من الحجارة الكريمة والجوهرات ؟ هذه القوانين التي سنها السلف ، وغيرها ممـا استنّه اوغسطس وعفي العمل به او ما هو ادعى للخجل ، مما الغي احتقاراً للقانون ودوساً له . كل هذه القوانين والتشريعات ، ألم تشجع على الإثم وتدعو للشر » .

ومضى الامبراطور اوغسطس في سن القوانين الرادعة وتحسينها ، للحد من اسراف الطبقات الثرية ، وحملها على الإكثار من الولد والبنين . وقد أوصت هذه التشريعات على املاء مناصب البروقنصل من بين اعضاء الشيوخ الذين لهم أولاد ، كما انها تصعبت في قضايا الطلاق. وفي مصلحة أرباب الاسر ، ولاسيما الاسر التي تضم ثلاثة أولاد واكثر ، راحت تفرض رسوماً على العازبين وتحول دون ان يتناولوا من إرث يأتيهم من ثالث او من نسيب بعيد القربي ، اكثر من مبلغ معين . وهذه القوانين التي كان من الصعب فرضها على الناس وتطبيقها ، ازعجت الى حد بعيد الطبقة الاجتماعية الراقية ، حيث كانت عادة التوصية بالارث تتبع بسخاء منذ عهد بعيد . ولكي يحولوا دون تطبيق هذا القانون راحوا يعقدون خطوباتهم مع بنات صغار ثم يلغونها بعد قليل ليعقدوا غيرها ، الامر الذي كان يستدعي إيقاف مفعول القانون. وكثيراً ما كانوا يبرمون عقود تبنـّي مزيفة. غير ان اكثر الوسائل استعمالاً اسهلها على الاطلاق . فقد اعطى اوغسطس نفسه المثل على ذلك ، اذ انه اعترف لزوجته ليفيا التي لم يكن لهـا غير ولدين ، بذات الحقوق

المستحقة لزوجة لها « ثلاثة اولاد » . وقد احتذى كثيرون من الاباطرة ، فيما بعد حذوه ، الى حد اساءة الاستعمال والتجاوز المفرط ، الامر الذي حدا بالامبراطور ترايانوس لان يُعين حداً اعلى للمنتفعين بهذا التحيّل على القانون . ولكن كيف يستطيع اباطرة عرفوا بقلة الولد ، ان يصمدوا ولا يلينوا امام أولادهم ، هذا ان كان لهم أولاد ؟ وعلى عكس القوانين الخاصة بمكافحة البذخ ، استمر العمل جارياً بالقوانين الديموغرافية ، اذ ان في المحافظة عليها مصلحة لصندوق الدولة التي كانت تضع يدها على المواريث الواهية او المشكوك بها . ومع ذلك ، بقيت عاجزة عن معالجة الوضع .

الاستعانة بالنخبة في الولايات

وهكذا لم تلبث الدولة ان وجدت نفسها امام عجز فاضح ، ألحق الضرر بمصالح الحكومة وبالادارة على السواء . صحيح ان الطبقة الاجتماعية الوسطى في ايطاليا عوضت بعض الشيء ، إلا انها لم تكن تتجدد بالسرعة اللازمة بعد ان اخذت البلاد تشكو من تأخر الوضع الاقتصادي ومن هبوطه . فلم يكن بدٌ ، والحالة هذه ، امام الدولة ، من اللجوء الى النخبة في الولايات والاستعانة بها ، وفيها معين لا ينضب ولا يجف من المادة البشرية ، بعد ان كانت هذه الولايات اخذت بأسباب الحضارة الرومانية واقبلت عليها تستمرئها . وساعد الازدهار الذي نعمت به أُسر عديدة ، على بلوغ هذا الوضع الاجتماعي . وجاء هذا التدبير تتمة او بالأحرى ، نتيجة لانتشار حق الرعوية الرومانية للمدن ، لما بين هذين الاتجاهين من ترابط وثيق . فقد سبق للجمهورية ان أعطت المثل الاول ، وذلك بتعميم هذا الحق تدريجياً على كل المدن الايطالية والشروع بإيلائه للمدن القائمة في اقدم الولايات الرومانية ، في الخارج . غير ان الدولة سارت في هذا بتمهل كلي ، كما برهنت من جهة أخرى عن إمساك مفرط في كل ما يتصل بالوظائف الكبرى ، اذ ان الارستوقراطية الايطالية استطاعت وحدها ، ان تبلغ مرتبة الشيوخ بعد ان امتزجت بالارستوقراطية الرومانية وانصهرت بها . وكان لا بد من حدوث الحرب الأهلية وما جرته معها من اضطرابات وويلات ، كما كان لا بد من ظهور دكتاتورية قيصر ، بالتالي ، لتشهد وصول سكان الولايات الى مجلس الندوة الروماني ، اذ نرى ، عام ٤٠ ق. م ، اسبانياً يُعيّن قنصلاً ، كما رأينا ، سنة ٣٥ رجلاً غالياً من ولاية ناربون ، يعين هو الآخر ، في مثل هذه الوظيفة . إلا ان هذه السياسة الجديدة لم يتسع الاخذ بها إلا في ظل العهد الامبراطوري .

وهذه السياسة الجديدة ، حريٌ بنا ان نقف عندها ونتملى فيها النظر ، اذ كان عليها ان تتغلب على عاطفة النفور ، وأحياناً على المعارضة المكشوفة ، ان لم يكن من قبل الطبقتين الممتازين ، فأقله من الطبقة العليا . ففي عام ٤٨ ، وقف مجلس الشيوخ موقفاً عدائياً صريحاً من التماس رفعه وجوه «غاليا» وأعيانها ، بعد ان تم تدويخها على يد قيصر ، رجوا فيه إعطاءهم حق الوصول الى الوظائف الرومانية العليا ، أي الى مجلس الشيوخ ، بعد ان نالوا حق الرعوية الرومانية وتمتعوا بما توليه من امتيازات لحاملي هذا الحق . فاضطر الامبراطور كلوديوس نفسه للتدخل في الأمر ،

في خطاب ألقاه بهذا الصدد، عُثِر على موجز له في مدينة ليون، مكتوباً على لوحة من البرونز. وبالرغم من تحمسه للقضية ، والحرارة التي ابداها في تأييده هذا الطلب ، فلم يستجب مجلس الشيوخ لهذا الالتماس إلا تدريجياً ، وعلى مراحل ، مبتدئاً من شعب الأدُوِين (اوتون اليوم) بوصفهم اقدم حلفاء روما في غاليا قديماً ، ثم جاء تباعاً دور الولايات الاخرى . فولايات افريقيا لم يطلع منها قناصل قبل عهد الاسرة الفلافية ، والشرق الاغريقي ، بعد ذلك بكثير . ثم قوي التيار واصبح لا يقاوم . وعندما انقرضت الاسرة الانطونية كانت مصر وحدها ، بين الولايات الرومانية الكبرى ، الولاية التي لم تُطلع قنصلاً رومانياً بعد . وسيصبح لها واحد في عهد أسرة سفيروس *Sévères* .

ولم يستفد من هذه السياسة ، حتى عهد الاسرة الفلافية ، سوى الطبقة الارستوقراطية العليا التي حاكت ، بما تم لها من غنى وثراء ، الطبقة الارستوقراطية الرومانية ، اذ كان بامكانها ان تقتني لها، املاكاً طائلة في ايطاليا وان تستوطن روما مع احتفاظها بمصالح واسعة لها في منشئها الام ، أي في الولايات التى انطلقت منها . الا ان ما كانت عليه من قلة العدد اجبر السلطة على توسيع طريقة انتقائها العدد اللازم لها ، وذلك على اساس النظام الاجتماعي دون الاقتصار على النطاق الجغرافي وحده . وقد باشر السياسة الجديدة الامبراطور فسبسيانوس الذي خرج ، هو نفسه ، من الطبقة البورجوازية الصغرى . فقد كان ، قبل ارتقائه العرش الامبراطوري، الاول في مجلس الشيوخ كما كان ابوه ، الشفاليه الاول من بين اسرته . وبعد ان تسلم مقاليد السلطة العليا ، إثر ازمة ٦٨/٦٩ ، لم يتردد قط ان أدخل ، الى عضوية الشيوخ ، عدداً من الشفاليه من اصل ايطالي او اختارهم من بين الولايات الاخرى . وسار خلفاؤه من بعده على شاكلته ، بحيث ان الطبقة المشيخية عدت بين صفوفها ، اعضاء خرجوا من بين الطبقة الوسطى ، ازداد عددهم مع الزمن .

اما طبقة الشفاليه ، فلم يكترث الامبراطور يوماً باي اعتراض او مقاومة من قبل مجلس الشيوخ مما لم يضطره يوماً للدخول معهم في مساومات ، اذ انه كان السيد المطلق ، والمشرف الاوحد على تعيين اعضاء هذه الطبقة ، يختارهم ويصطفيهم كيفما شاء . وكان يكفيه ان يكون المرشح حاملاً الجنسية، مسجلاً في دائرة الاحصاء والنفوس ، معروفاً بولائه للامبراطور الذي لم يكن غير الولاء للدولة ، له الحد الادنى من الخبرة ، وعلى استعداد لاكتسابها. وعندما أطلت هذه البورجوازية في الغرب راح الامبراطور يستفيد منها . ولكي يستفيد منها في الشرق حيث كانت طلعت وبرزت منذ عهد بعيد ، ترتب عليه ان يتغلب على بعض الصعوبات منها حَنَق الشرق على الغرب اللاتيني ، كما ان الاخذ باسباب الحضارة الرومانية كان شرطاً لا بد منه في المرشح العتيد . ولكن هذه المحاذير لم تلبث ان فقدت شيئاً فشيئاً من حدتها ، ابتداء من عهد هدريانوس . فبعد ان كانت الولايات الغربية تقدم لهذه الطبقة ، عدداً اكبر من العدد الذي كانت تقدمه الولايات اليونانية في الشرق ، فقد خف هذا التفاوت كثيراً واصبحت منظمة

الشفاليه ، من حيث تشكيلها ، تعبيراً صحيحاً لوحدة الامبراطورية .

التغييرات التي لحقت بالمنظمة المشيخية

لما راح الامبراطور يُرَقي الى عضوية مجلس الشيوخ من يرغب بتكريمه وترفيعه من اعضاء منظمة الشفاليه الذين لا يرغب في الاحتفاظ بهم لتسلم الوظائف والنيابات الكبرى ، كانت المنظمة المشيخية قد لحق بها ، منذ القرن الثاني ، تغييرات جذرية من نتائجها المباشرة ، هذا الشعور العام الذي بدا على الجميع ، بالتوازن والاعتدال والجدية وغير ذلك من المناقب التى ميزت « عصر الاسرة الانطونية » .

فالأسَر التي برزت في العهد الجمهوري قد انقرضت وغربت أسماؤها عن جو مجلس الشيوخ . فاذا ما عمّرت واستمرت — وهذا أمر نادر للغاية — فبتدبير مصطنع أي عن طريق التبني. ولذا ألـّف الأعضاء الذين جرى انتقاؤهم من الولايات ، أكثرية ساحقة في المجلس المذكور. فقد طلعوا، على العموم ، من أسر برهنت ، على مر الزمن ، عن كفاءتها وتوصلت تدريجياً ، الى مصفّ الأشراف والنبلاء ، غِلاباً وجهاداً ، بعد ان أدخِل على الادارة دم جديد من الموظفين المؤهلين، تم لهم، مع الزمن ، خبرة واسعة في الأمور الادارية والعسكرية . وهكذا قـيّض لهذه الطبقة ان تقدم للامبراطور مساعدين أكفاء يعتمد عليهم في تصريف الأمور وتدبير شؤون الامبراطورية. ولما كان الامبراطور يتحرج من مجلس كثير الاعضاء ، نزّاع للمناقشات والمجادلات التي لا طائل تحتها ، فقد آثر ان يكون تعاونه مع قلة منتقاة من بين أعضائه ، يختار من بينهم الموظفين الذين يرى نفسه بحاجة الى خدماتهم . وعلى هذا ، نما في هذا الفريق، الحس بالمصلحة العامة ، والوعي الوطني أكثر من ذي قبل ، وأدركوا ان الامبراطورية هي غير روما ، وانها تشرّع وتعمل للملايين من البشر موزعين بين ولاياتها .

وقد تبدلت اخلاقهم وعاداتهم . فكان اعضاء المجلس على جانب من الثراء ، انما اقل ثراءً من اسلافهم في المجلس . وقد جمع معظمهم ما تم لهم من ثروة ، من مصادر لا تمت بأي سبب للمضاربات وأعمال الابتزاز والاعتصار او النهب ، بعد طول عناء وجهد موصول ، استمرت عليه اجيالاً متطاولة . ولذا كانوا يستعملون هذه الثروة بفطنة وحكمة وتحفّظ . فبلين الاصغر الذي كان يملك في عهد ترايانوس، الى جانب صرحين له في مقاطعة كوم الواقعة الى شمالي ايطاليا، حيث مهبط رأسه ، يسمى الاول تراجيديا ، والثاني كوميديا ، امتلك ايضاً صرحين آخرين ، في ايطاليا الوسطى ، هما : صرح لورانتس بالقرب من مدينة اوستي ، وصرح توتشي ، عند منحدر جبال الابنين ، كان يُمثل طبقة في سبيلها الى الانقراض والزوال . ونهج الحياة الذي سار عليه اعضاء مجلس الشيوخ ، اذ ذاك في روما ، كان اقل زهواً وفخفخة مما مضى ، لأن معظم اعضاء المجلس كانوا يقتنون لهم اقطاناً واسعة في المدن التي تعتبر محتداً لاسرتهم . فكان عليهم ، والحالة هذه ، ان يحتفظوا بحد أدنى من المبلغ المخصص لعاصمتهم ، يستثمرونه في شراء عقارات تقع في ايطاليا . وهذا الحد الادنى تدنى وتناقص هو الآخر : فبعد ان كان الثلث ، في عهد ترايانوس ، اصبح الربع في عهد مارك اوريل . فلم يبق لهم من اثر ظاهر على محيطهم إلا عندما

يقطنون ، ولأمد قصير ، في احدى فيلاتهم المحببة القائمة وسط املاكهم الواسعة في الولاية . وهذه البقية الباقية من النفوذ في محيطهم الريفي ، يجب رده الى عوامل ادبية : فقد كان وليد إعجاب سكان المنطقة بالنجاح الذي حققه العضو الجديد من اعضاء المجلس ، وبالنفوذ او الحظوة التي كانت له عند اولي الامر في العاصمة .

بقي مع ذلك شيء هنالك : بالرغم من هذا التغيير الجذري ، وهذا الضمور الذي يلاحظ على هـذه النخبة الاجتماعية ، وعلى الرغم من انقضاء عهد الدسائس والمؤامرات والاغتيالات واحكام الاعدام بالجملة ، فلم تكن أية أسرة مشيخية لتعمر أكثر من جيلين او ثلاثة اجيال ، اذ تكون جفّت فيها وماتت هذه الحيوية المجاهدة التي برهنت عنها الاسرة قبل تحقيقها ما حققته من اهداف ، وما استشرفت اليه من مآت وامجاد. وذلك على اثر انغماسها بموجة الترف والبذخ التي اجتاحت روما واغرقتها في لججها .

الارتقاء الاجتماعي

وهكذا فالسير الاجتماعي صُعُداً لم يكن ليقف او لينقطع . وهـذا المد التطوري ، بما بلغه من اتساع ومع ما كان عليـه من استمرار نظيم ، يؤلف احدى المميزات التي اتصفت بها مدنية الامبراطورية الرومانية في هـذه الحقبة المتأخرة من تطورها ، وفرّدتها عن المدنيات الأخرى التي تقدمتها .

ويحسن بنا مع ذلك ، ألا نجهل الحدود الجغرافية لهـذا التطور وعدم تساوي الفرص التي وفرتها هذه المدنية ، للولايات التي تألفت منها الامبراطورية الرومانية . فقد كان من المسلّم به اساساً ، ان باستطاعة المقدّم من النـاس ان يتمكن من تكوين رأس مال له يكون ، على وضاعته ، نقطة انطلاق الأسرة في جهادها نحو الرقي والتطور ، يعمل اولاده من بعده ، عـلى استثماره وإنمائه . و لم نكن لنشاهد في ايطاليا أي مصير من هذا النوع، بالنظر لما كانت عليه من تأخر وانحطاط في اقتصادياتها ، ولا في مصر ايضاً (بالنسبة لما كانت ترزح تحته اليد العاملة فيها من كابوس مرهق) . كذلك كانت ضعيفة ايضاً امكانات الصعود الاجتماعي امام سكان الأرياف ، وفي الولايات ، إلا من جاشت نفوسهم بالطموح من أبناء الشعب ، فيُقدِمون ، وهذا أيسر السبل ، على الانخراط في خدمة الجيش ، فيقطعون مراحل الترقي على مهل ، فتنفتح امام صاحبنا ، عندما يرقى الى رتبة قائد مائة ، ابواب طبقة الشفاليه . فسكان مدن الولايات أتيحت لهم الافادة من مثل هذا الوضع عن طريق تدرجهم من مهنة يدوية الى طبقة البورجوازية البلدية ، ومنها يتدرجون الهوينا ، الى ابواب منظمة الشفاليه ، ليصلوا منها الى ابواب المنظمة المشيخية . وهـذا الصعود كان يقتضي له عدة اجيال . فقد عرف العهد الامبراطوري ان ينظم هذه الترفيعات في محاولته تجديد طبقة الاشراف ، هذه الطبقة الآخذة بالانقراض والزوال ، مهما كان من الأمر . دون ان يحدث انقلاباً جذرياً في السلم الاجتماعي ، اذ عرف ان يحافظ على هذه المراحل ، ناهيك عن ان تنظيم الحياة الاقتصادية ، اذ ذاك ، لم يكن ليساعد كثيراً على بروز أغنياء جدد . كل هـذا يقتضي له جهوداً موصولة واخذ النفس باقتصاد صارم ، وحساً مرهفاً يعرف معه صاحبه كيف

يحافظ على التوازن بين الاقتصاد النظيم والبذل الحكيم في المناسبات العارضة . كل ذلـــك ، الى شيء من تفتح العقل والذهن ، ومسحة من الثقافة المتوسطة ، والتمرس بوظيفة ادارية . كذلك اقتضى الأمر الاعتصام بشيء من التقاليد والاعراف المتبعة في القطاعين الاجتماعي والسياسي ، إذ ان بطء الارتقاء كان يساعد على التكييف واكتساب الخبرات . وكان على المعني بالامر ان لا يظهر ، في أية مرتبة بلغها ، انه من حديثي النعمة ، كما كان عليه ان يحترز من إثارة الشكوك حول ولائه للدولة .

وهذه الطريقة التي قامت على الاختبار والتي اكتملت بفضل التجارب التي مرت بهـــا عبر الأجيال ، وفقاً لمقتضيات الظروف خلال القرن الأول ، سارت سيرهـا النظم خلال القرن الثاني . فقد أمدت العهد الامبراطوري بهيكل اداري شغله أكفاء الموظفين ، كان خير ما عرفه التاريخ القديم من امثال هذه الملاكات ، وكان له فضل عميم في تأمين هذا التجانس الذي وان لم يبلغ تمامه ، فقد فاق ، مع ذلك، ما عرفت من أمثاله، اكبر دولة قامت في التاريخ الى ذلــك العهد. ومن بين الاشكال التي تبلورت عنها ، فكانت قواماً لها، كما كانت تعبيراً صادقاً عنها، بعد ان ربطت بينهما مثُل المدنية الواحدة التي كانت امتداداً لها ، هذه الوحدة العميقـــة الجذور، الممثلة في هذه الطبقة النبيلة التي تتألف من كبار موظفي الدولة ، الذين جيء بهم من ولايات متباعدة ألـفوا معاً طبقة واحدة تمرست بهذه المناقلات التي خضعت لها وفقاً لمقتضيات الوظيفة. فالفروق بين اصل الاباطرة الرومانيين الطبقي، سواءٌ اطلعوا من هذه الارستوقراطية الرومانية القديمة ، كالاسرة اليوليو ـ كلودية ، او من طبقة البورجوازية الايطاليـة المتواضعة ، كالاسرة الفلافية، او جاءت من بين هذه النخبة التي أطلعتها الولايات الرومانية القديمة كاسبانيا او مقاطعة ناربون الغالية، كالاسرة الانطونية، لا تبرز على نصاعتها إلا متى وضعناها جنباً الى جنب مع هذه الحقيقة . فبنظر هذه الطبقات الموجهة ، كانت الامبراطورية الرومانية تؤلف امة .

غير ان حسن سير النظام الامبراطوري كان يستدعي استمرار الازدهار الاقتصادي، مصدر كل ثروة واساس كل ارتقاء اجتماعي وكل حركة تقدمية . كذلك كان يستدعي طاعة الطبقات الاجتماعية الدنيا ، واقبالها على هذه النُظم تستمرئها وتتمثلها .

٣ ـ الطبقات الاجتماعية الدنيا

والحال ، كان هذا الازدهار سريع العطب، والطبقات الدنيا تتألم وتتضوّر . فغنى الطبقات الثرية يقوم على عمل ذوي الحرمان الذين لا حصر لهم ولا حد .

اليد العاملة

عرف الشرق ان يحافظ على هذه المشاغل والورش المهنية التي كانت تقوم في ظلال الهياكل والمعابد ، وعلى من فيها من أيدٍ عاملة كادحة، شبه مستعبدة . وعلى هذا سارت المدن فاحتفظت بدورها ، بالمشاغل الصناعية واصحاب الحرف . ومعلوماتنا حول وضع هؤلاء العمال ، قليلة ، مُصرّدة ، لا تفي بالغرض . إلا أنه، على الاجمال ، وضع لا يوحي بالرضى

ولا بالارتياح ، اذا ما اخذنا ببعض الظواهر العارضة . قد تكون المُثُل اليونانية القديمة التي اعتمرت بها النفوس فبعثت روح الثورة الاجتماعية ، بقيت تعتمل في الاذهان وتختمر بها الارواح ، اذ ما كادت روما تبسط ، منذ عام ١٣٣ ق . م سيطرتها على اقطار آسيا الصغرى الغربيــة ، وترسّخ نفوذها فيها ، حتى اضطرت لمواجهة ثورة هبت في وجهها بقيادة أرستونيكوس قوامها هذه الطبقات الاجتماعية الدنيا في مملكة أتال القديمة . ومما لا ريب فيه قط ان مواسم القحط وارتفاع اسعار الحبوب ، في اواخر القرن الاول ، فعلت فعلتها في النفوس ، بالرغم من محاولات الحكام الاداريين للتخفيف من حدتها . فقامت في اواخر القرن الاول ، في هذه الاقطار الأسيوية إعتصابات أثارت شكوك الامبراطور ترايانوس وأهاجت حفيظته ضد الشعب في مدن مقاطعة بيثينيا *Bithynie* ، كما يبدو من مطالعة الرسائل المتبادلة بينه وبين صديقه بلين الاصغر ، حاكم تلك المقاطعة وممثل الامبراطور فيها .

وكان الأمر يتعلق ، في الدرجة الأولى ، بهذه النقابات المهنية المعروفة عندهم بـ « كولـّيج *Collèges* » ، وهي في الأساس هيئات دينية الهدف ، جنائزية . تألفت ، على الغالب ، من رفاق متواضعي الحال ، يتناهدون فيما بينهم بدفع رسوم معينة ، للاحتفــال بمراسم بعض العبادات وتأمين جنائز محترمة لذويهم ، يدخل عضويتها ، بصورة طبيعية ، أصحاب المهنة أو الحرفــة الواحدة ، بدافع من شعور التضامن والتكافل ، الذي يشدهم بعضاً الى بعض .. وقد قام مثل هذه الهيئات أو النقابات في الشرق قديماً ، قبيل الفتح الروماني ، ونشأت مثيلات لها في روما ، خلال العهد الجمهوري ، وفي غيرها من حواضر البلاد الايطالية . ولما كانت هذه الحركة النقابية أخذت تلعب دوراً شبيهاً بدور النوادي ، وأخذ اعضاؤهــا يشاركون بالمظاهرات السياسية ، راحت الامبراطورية ، في مطلع عهدها توجس شراً منها ، وتنظر اليها بالتالي شذراً ، ولذا اشترطت عليها ان تأخذ علماً وخبراً بتأسيسها ، ووضعت لنشاطها حدوداً وسدوداً ، عرفت الشرطة البلدية ان تلزمها بها فلا تتعداها . ولما تغير موقف السلطة من هذه الهيئات بعد ان أولتها رضاها في القرن الثاني ، أطلقت لها حرية العمل والاجتماع ، واعترفت بها رسمياً من الوجهتين القانونية والمالية . ومرد هذا التحول في موقف الحكومة من هذه الحركة النقابية ، انتشار الروح الانسانية والمبادىء التي تقول بها ، كما أن اعتبارات اقتصادية لعبت ، هي الأخرى ، دوراً فعالاً في هــذا التطور . إذ راح أولو الأمر ، يتوقعون من هذه النقابة بعض الخدمات والقيــام بدور حساس في تطوير الطبقات الدنيا من الوجهة الاجتماعية .

أما في الغرب ، فقد اخذ عقد هذه النقابات ينتظم مع مطلع العهد الامبراطوري ، فساعدت بما لهـــا من نصراء يرعونها ، ومن مجالس ادارية تنتظم سلكها ، ومن أعياد تقيمها في بعض المواسم الخاصة ، في طلوع البورجوازية البلدية ، وتلقيح هذه الطبقة والمناطق الريفية بدم جديد . فاليد العاملة في المدن ، لم تكن أخذت تشكل بعد ، مشكلة اجتماعية في هذه المناطق ، وذلك نظراً لما كانت عليه التجارة والحرف المهنية والصناعية من ازدهار ، اذ كان كل شيء يتوقف عـلى

استمرار مثل هذا الازدهار، واستبدال الشغيلة أو اليد العاملة التي لم تلبث ان برز شأنها في المجتمع.

اليد العاملة في الريف

أما وضع اليد العاملة في الريف فجاء على شكلٍ آخر. فالملكية العقارية الواسعة كانت دوماً آخذة بالنمو والازدياد. وهنا تبرز لنا الكلمة المأثورة التي جاءت على لسان بلين الأصغر، إذ قال: «كبار الملاكين، هم الذين جلبوا الدمار لإيطاليا»، وهي عبارة يحسن تكلتها بالفقرة التالية: «وكذلك قل عن الولايات ايضاً، اذ ان ستة لا غير من كبار الملاكين، كانوا يملكون نصف افريقيا (أي تونس اليوم)، عندما حكم عليهم الامبراطور نيرون بالموت. أي ان نيرون صادر أملاكهم وضبطها»، غير ان طريقة استثمار هذه الأملاك الواسعة لم تتبدل، سواءً أخضعت للامبراطور أو كانت ملكاً للخاصة. والطريقة التي انتهجها نيرون في توزيع هذه الأراضي على الفلاحين، قطعاً صغيرة بعد ان تم مسحها على أيدي مهندسين مساحين، جيء بهم من المدن، لم تخفف من تضخم هذه الملكية. فأينما استمر الاخذ بهذه الطريقة، كان استثمار الاراضي الصغيرة على ايدي اصحابها آخذاً بالتدهور، قبيل طلوع النظام الامبراطوري، على البلاد.

واستثمار الاراضي بكاملها على يد فريق دائم من الارقاء يضاف اليهم عدد آخر من الاجراء عند تمام المواسم ونضجها، يعملون جميعاً، جنباً الى جنب، تحت اشراف صاحب الارض المباشر او وكيله، قل جداً بحيث اصبح نادراً. ولم يكونوا يلجأون لمثل هذه الطريقة التي لم تكن نتائجها مرضية إلا في هذا القسم من الارض الواقع على محاذاة قصر رب الارض او على مقربة منه، اذ يصبح الاشراف على عملية الاستثمار اذ ذاك، أسهل وأيسر، فيضحي ببعض المنافع الاقتصادية. وكانوا يفضلون العبيد باعداد كبيرة كيد عاملة في المعامل والورش الصناعية القائمة على مقربة من صروح الملاكين. اما الباقي من هذه الأملاك، فقد كان، على الغالب، يستثمر مباشرة، من قبل صاحب الارض، او بالواسطة، عن طريق شركاء مرابعين، احياناً، لقاء قسم من غلة الارض، يعود «للمعمرين» الاحرار بالاسم، وان كانوا، بالفعل، خاضعين لارادة صاحب الارض وهواه.

وهؤلاء العمال، احراراً كانوا ام عبيداً، اتسمت حياتهم بالبؤس والشقاء. ولدينا في هذا الصدد معلومات دقيقة تتعلق على الاخص ببعض الأقطار. فقد قاست مصر، مثلاً من افراد العبيد (*Anachorésis*) الذين كانوا يعملون في الاراضي الزراعية، ليختبئوا بين غياض المستنقعات وأجمات الغدران الملتفة، في الوجه البحري (الدلتا) وهو امر شكت منه مصر، في عهد البطالسة، واستفحل شأنه في القرن الثاني. وتطالعنا نقيشة عُثر عليها في افريقيا تحمل نص عريضة دفعها المعمرون الى الامبراطور كومود يتململون فيها مما يرهقونهم به من اعباء فيحمّلونهم اكثر مما يستطيعون ويسلطون عليهم الجيش لاجبارهم على دفع ما يترتب عليهم دفعه، ويزجّون بهم في غياهب السجون مكبلين بالسلاسل الحديدية، ويقاصونهم بالجلد. ونطالع في رسائل بلين الأصغر وصف الصعوبات والمشقات التي يلاقيها الملاكون، اذ يرفض الفلاحون دفع المتأخرات

المستحقة عليهم . وإنشاء نظام الاعاشة في الارياف الايطالية وتوسيعه على مختلف الولايات فيها ، انما يدل بوضوح على أن صغار الملاكين الذين يعملون في اراضيهم واملاكهم يلاقون صعوبات جمة في تدبير امور معيشتهم. وقد جمع نظام الاعاشة هذا بين الاسعاف العام وبين التسليف الزراعي. فمنذ عهد ترايانوس ، راح الامبراطور او بعض الخاصة من كبار الاثرياء ، يؤسسون شيئاً اشبه ما يكون بالبنك الزراعي او مصرف تسليف، برأس مال معين عند المباشرة بالعمل ، يستطيع معه المزارعون الاستلاف بفائدة ٥ ٪ بدلاً من ١٠ – ٢٠ ٪ كما هو المعتاد ، مبلغاً من المال ، لقاء رهن ارضهم، على ان تخصص هذه الفوائد في توزيعات شهرية، الغرض منها مد يد المساعدة لأولاد الاسر الفقيرة . غني عن التنويه ان مثل هذا التدبير اقتصر على ايطاليا في الدرجة الاولى ، بعد المنافسة الشديدة التي لاقتها من الانتاج الزراعي في الولايات الاخرى المعروفة بخصب تربتها ، اذ كان انتاجها الزراعي آخذاً بالتدهور والانحطاط .

من الواضح ان العمل في الزراعة لم يكن ليكفل الغنى لصاحبه ، حتى في هذه المناطق التي لم نسمع يوماً ان ارتفع فيها اصوات شاكية او وقع فيها ما يثير الحفائظ.

الشعور بالعاطفة الانسانية

ومع ذلك نشاهد ان الشعور الانساني والانعطاف على المساكين والفقراء اخذ يرقّ وينعم في المجتمع . والدليل على ذلك الاخذ بنظام الاعاشة، وحركة العتق، وتحرير الارقاء، والاتساع الذي اتخذته ، على اساس من المباهاة والدعاوة اكثر منه نتيجة تفكير سليم . ومع ذلك لم تخل هذه الحركة من تأثير طيب على حرية الفرد ، بالرغم من القيود القانونيةً والشرط التي قيدوا المعتوق بها بالنسبة لسيده القديم . ومن جهة اخرى نرى مجاميع التشريعات القضائية تأتي على ذكر نصوص كثيرة هي في صالح الارقاء والمعتوقين .

سار هذا التطور سيرته الاولى ، وئيداً في باديء الامر . فقد استند أولو الامر ، في عهد نيرون ، على قانون قديم ، كما استنجدوا بالجيش ، لِسوق فريق مـن العبيد ، بلغ عددهم ٤٠٠ رقيق ، كانوا تابعين لاحد اعضاء مجلس الشيوخ ُعثِر عليه مقتولاً ، وذلك بالرغم من احتجاج سكان روما، بحجة انه كان عليهم ان يسهروا على سلامة سيدهم. وقد أخضعوا للتعذيب والتنكيل، في عهد ترايانوس ، كل العبيد التابعين لاحد سُراة القوم وجد مقتولاً ، وذلك لحملهم على الإقرار والاعتراف بكل ما يعرفونه حول قضية مقتل هذا الرجل . وفي عهد خلفه على كرسي الحكم ، اقتُصِر في عملية استجواب الشهود، على من كان منهم على مقربة من مكان الجريمة. فالتعديلات التي أدخلت على التشريع القديم الذي كان يعترف لصاحب العبد بحق الموت والحياة، لم تظهر إلا في القرن الاول ، ثم اخذت بالاتساع والانتشار، منذ عهد هدريانوس ، اذ اصدر امراً حظر معه على مالكي الأرقاء واصحابهم، بيع أية أمَة ما للمتجرين بالنخاسة او القوادين، او بيع رقيق لأي من المتعهدين حفلات المصارعة والمضارعين ، او باجراء عملية خصاء له ، او بالحكم عليه باسم مـا كان يتمتع به سيد العبد من الحقوق المنزلية ، دون الرجوع في امره الى القضاء . وأوردت مدونة يوستنيانوس (*Digeste*) أكثر من ٧٠ نصاً او مرجعاً ، صدرت كلها في القرن الثاني ،

توصي بالدفاع عن الرقيق العامل في بيت صاحبه . والنزعة الواضحة التي تبرز ، أكثر فأكثر ، فيما بعد ، هي الاعتراف بشخصية الرقيق الفردية . وهنالك نصوص اخرى يجب وضعها بازاء النصوص التي أشرنا اليها أعلاه ، تقف الى جانب الحرية والعتق في الحوادث التي يشتبه فيها بوضع فرد ما : عبداً كان ام حراً . فالحرية والعتق هما من حق ابن ، نعمت امه بحريتها ، ولو ليوم واحد ، خلال حبلها به . ونشاهد ، في الوقت ذاته ، تطوراً يلحق وضع العتقاء ، اذ يحظر على كل منتفع من هبة او من وصية إرث ، من بين شروط تنفيذها العتق ، استعمال أساليب ملتوية للتهرب من الواجبات المترتبة عليه ، والاعتراف بصورة سريعة للمعتوق بالحقوق التي من حق الانسان الحر ان يتمتع بها *Natalium Restitutio* ، وفقاً للامتياز الذي طالما جاد به الامبراطور ، بعد عهد مارك اوريل .

وهذا التشريع الجديد لا يمكن فصله بالطبع عن هذه التدابير والاجراءات القانونية التي طالما اعتمدوا عليها ، فيما بعد ، وكان الغرض منها الحد من سلطة الاب الشرعية على زوجته واولاده ، او من سلطة الوصي الشرعي على الارملة واليتيم . ومنذ عهد مبكر ، لم يعد للأب الحق بأن يفرض على ابنته زوجاً لا ترغب فيه ، او لا ترضى عنه . فحوادث المقاومة لزيجات مبكرة تفرض على الاناث ، يجب اعتبارها خطوة لها معناها الرمزي عند الاخذ بهذا القانون والعمل بموجبه ، بالرغم من ندرة وقوعها . كذلك ، نرى الاب ، في القرن الثاني ، يجرد من الحق الذي كان معترفاً له به ، نظرياً وعملياً ، بالغاء زواج ابنه . وهنالك امثلة وشواهد عديدة يمكن الاتيان بها ، تكفي وحدها ، اذا ما ضمت الى زوال هذه الزيجات ، وفقاً للاعراف والتقاليد القديمة ، اذ كان للزوج فيها كل حق على زوجته واولاده ، لنتبين كيف تم القضاء على حقوق السلطة الوالدية *Patria Potestas* . فقد تطور هذا الحق في مفهومه ومدلوله ، واخذ أكثر فأكثر ، بعين الاعتبار ، قيمة الشخصية الانسانية .

ان وفرة هذه النصوص التشريعية والتوافق الكبير الذي نراه بينها ، تعبّر مجتمعة ، عن تطور عميق لحق بالاخلاق والعادات المرعية ، اذ ذاك . فبدلاً من ان تحاول هذه النصوص والاحكام التي تنطق بها ، خلق عادات جديدة ، نراها تقتصر ، بالاحرى ، على تكريس العادات والاعراف التي في السير عليها والأخذ بها ترسيخ لها بين الناس ، والتي كانت مخالفتها تثير الشكوك وتوجب ملاحقة المخالفين لانزال ما يستحقون من عقاب . فليس بغريب ، بعد هذا ، ان يعيش الرقيق والعتقاء في روما ، منذ زمن بعيد ، وفي عهد الامبراطورية المتأخر ، على اختلاط مع الاحرار من سكانها ومعايشتهم . فهل من عجب ، بعد هذا ، ان تتقارب الاوضاع نصاً وروحاً ، بعد ان تشابهت بالفعل ! ففي الطبقة الاجتماعية العليا في روما ، حيث يتكاثر عدد العبيد والارقاء الشرقيون ، اخذ تأثير الاخلاق والافكار اليونانية التي عرفت بقلة تصلبها وبانعطافها الانساني ، يتغلغل بين التقاليد الرومانية ، وينتشر بينها أفقياً وعمودياً . فقد لاقت الفلسفة الرواقية ، على الاخص رواجاً عظيماً بين سراة القوم من الرومان بحيث جعلت الفيلسوف سنيكا يتساءل بحق

قائلاً : « أعبيدٌ هؤلاء الرجال ؟ » لا لعمري ، انهم بشر — أعبيد هم ؟ — لا بل عشراء لنا ، وندامى ، ورفاق الحياة — أعبيد هم ؟ — لا بل اصدقاء حميمون ، أعبيد هم ؟ — لا ، بل إخوة لنا يرسفون في قيود العبودية اذا عَرَفْتَ ان الأقدار لها عليك كما عليهم، مثل هذا السلطان ».
صحيح ان سنيكا لم يأخذ هو نفسه بتطبيق فلسفة الرواقيين بصورة عملية ، لا بوصفه فرداً من أفراد المجتمع الروماني يهتم بادارة ورعاية ثروة طائلة ، همه الوحيد أن ينميها وان يزيدها ، ولا بوصفه من رجال بطانة الامبراطور وحاشيته ، مهذباً لنيرون ومستشاراً له ، وكان على اتصال مباشر بهذه المؤامرات التي حيكت خيوطها ، وهدرت ما هدرت من دماء مطلولة ، كما اتصل عن كثب بالإدارة الحكومية . ومن كتاباته الفلسفية نرى جيداً ، كيف أن أغنياء الرومان ، رموا ، هم أنفسهم ، الحجر الأول، ووجهوا الضربة الاولى لهذا الحصن الذي أقاموه من فظاظتهم الخلقية ، وما لبثوا ان انفتحوا لهذا التعاطف الانساني الخيّر ، والحدب على الفقراء والبائسين . فتطور هذه الأفكار التقدمية الذي اقتصر في بادىء الأمر على مجالات الفكر ، لم يلبث انأدخل الى القانون الروماني القديم ، قانوناً « طبيعياً » يجعل الناس كلهم سواءاً ومتساوين .

حدود هذه النزعة الانسانية وقيودها

مهما برزت مظاهر هذا التعاطف الانساني ، وتكاثرت الشواهد على تجلي هذه المشاعر الرقيقة التي ألانت الأخلاق ولطّفت من حدة القوانين الرومانية ، فلم يتجمع هذا كله في ثورة اجتماعية عارمة .

ولا يحسن بنا قط أن نتخذ من هذه الظواهر دليلاً على التحسس بالخوف ، فأوحى هذا الشعور بمثل هذه التنازلات: فلم نرَ فرداً واحداً بين كبار الملاكين وصغارهم،رأى فيهذه الظاهرة نذير خطر مداهم.فاذا ما راح أحدهميلبي لأسباب دنيوية، نداء عاطفة انسانية نحوالطبقة الفقيرة الكادحة ، فلم يبدُ لأحد منهم ، من قريب أو بعيد ، احتمال قيام ثورة في هذا المجال . إن اطّلاع المؤرخين المحدثين على حوادث لاحقة لهذا العهد ، حملهم على الظن بأحقاد تتجمع وضغائن تتكدس . إلا اننا ، من جهتنا ، لم نرَ سوى شكاوٍ وتذمرات وتململات لم تتبلور يوماً عن كلمة سر أو صرخة استنفار تدعو للثورة . فالفلاسفة المرشدون الذين عُرفوا ، في الشرق، بدعوتهم للثورة ، كالفلاسفة الكلبيين مثلاً (*Cyniques*) لم يخطر في بالهم قط إهاجة الجماهير وإثارتها ، بل على عكس ذلك تماماً ، دعوا لرذل الغنى واحتقاره . وعلى هذا الحال سارت الديانات الشرقية ومن بينها المسيحية الناشئة التي لم ترَ محلاً ولا زمناً تتم فيه المساواة إلا في الحياة الاخرى الباقية . وتناقص عدد العبيد والأرقاء جعل بدوره حروب الاسترقاق أثراً بعد عين . فالنظام الاجتماعي القائم،هو في نظر المعاصرين جميعهم،وباتفاق الرأي ، نظام قوي،متين،راسخ.

وهذا النظام ، عرف أن يقيم لهمراكز دفاع تُحسن صد العدوان، والصمود في وجه المهاجمين. فليس في النظام الامبراطوري نفسه أي مغمزَ ضعف أو مكن وَهَن . فالإدارة المركزية التي كانت تراقب بعين يقظة ، وعن كثب ، الهيئات البورجوازية القائمة في المدن ، لم تكن لتتهاون معها في التخفيف من شكيمتها على الشرطة . والعقوبات القانونية ، هذا السيف المُصْلَت فوق

الرؤوس ، بقيت على شدتها ولم تتخفف بشيء . صحيح ان الحُرج الديني كان يوجب الحكم بالموت على مَن مِن كاهنات الفستال *Vestales* تعبث بنذر العفة أو تحدثها نفسها بالتحلل منه . ففي عهد دومتيانوس مثلاً ، صدر الأمر بوأد رئيسة كاهنات الفستال حيةً لعبثها بنذر العفة ، كما أن شريكها في هذه الفعلة النكراء ، وهو من مصاف الشفاليه ، لقي من الضرب الشديد والجلد العنيف ما قضى معه في العذاب . أما في ما يختص بالحق العام ، فالأحكام التي يصدرها لم تفقد شيئاً من قسوتها ولا فظاظتها ، بالرغم من المراحل التي قطعها الشعور الانساني . فالامبراطور هو نفسه بحاجة ماسة « لمن يحكم عليهم بالاشغال الشاقة في المناجم » ، فلا يستثني منها إلا من عنده الدليل القاطع ، على انه يعاني من مرض عضال مزمن ، تنفيذاً منه لواجب يترتب عليه في الدرجة الاولى . وجماهير الشعب هي الاخرى بحاجة ماسة للمحكوم عليهم بالموت ، وتنفيذاً لهذه الاحكام ، تعرض اجسامهم للوحوش المفترسة فتتناهشها وتنهبها نهباً ، اوبتعليقهم على الصليب إمعاناً في تحقيرهم واذلالهم ، أو بجلدهم وتعذيبهم ، أو بحرقهم أحياء أحياناً ، كما حدث لبعض المسيحيين الذين استشهدوا في روما اثناء الاضطهاد الذي رماهم به نيرون ؛ كل هذا ألوان من التنكيل تزيد في حماسة النظارة والمشاهدين الذين يتلذذون بمرأى هذه المظاهر الوحشية . وقام سنيكا يشجب بشدة بروقنصلاً عاملاً لروما على إحدى الولايات في آسيا ، لقتله ، دفعة واحدةً ، ٣٠٠ من فجّاج الآفاق وقطاع الطرق . ونرى موظفين في بعض المدن يبحثون جادين عن محكومين بالاعدام ، وعندما تعييهم الحيلة يلتمسون من مدن مجاورة لهم تزويدها بشيء من هذا .

فاذا ما رأينا ، من حين الى آخر ، بعض الملطفات تؤخذ في هذا المجال ، فليس بالطبع ، في مصلحة منكودي الحظ تبذل . فمراعاة المراتب الاجتماعية لها مقتضياتها ومستلزماتها ، وهي اعتبارات يشتد التمسك بها ، لما يقوم بين هذه المراتب الطبقية من تضامن ووشائج تشدها بعضاً الى بعض . فأعضاء منظمتي الشيوخ والشفاليه يحملون شارات مميزة ويُعرفون بألقاب شرفية وكنى فخرية . وتخطو الحُظوة خطوة أخرى الى الامام ، في عهد الأسرة الانطونية . فالاشراف والاعيان يُستثنون ، من حيث المبدأ ، من التعذيب والتنكيل ، ومن الحكم بتعريضهم للحيوانات الضارية . ومنذ هذا العهد فصاعداً ، اخذ التشريع الروماني ، ببطء ، في بدء الأمر ، ثم بسرعة ، فيما بعد ، يميز بين الاحكام الواحدة ، من حيث شدتها او خفتها ، وفقاً للطبقة الاجتماعية التي ينتمي اليها المحكوم عليه ، فتشتد وتقسو ، ان كان من الطبقات الدنيا او السفلى *Humiliores* ، وتلطف وتحلُم ، ان كان من الطبقات المحترمة *Honestiores* . وهذه النعوت ، بما بينها من مفارقات ، تنتقل بدورها الى المعجم الرسمي . فهي تميز من جمهرة الشعب ، هؤلاء الذين تجمع بينهم روابط شتى : كالعضوية في المنظمات ذات الامتياز ، او الهيئات البورجوازية في المدن .

من العبث ان نحاول هنا التخفيف من حدة التضاد العنيف القائم بين هذه النزعة التي ترغب في ان تبرز على هذا الشكل ، والنزعة الاخرى التي لمسنا محاولاتها للتخفيف من حدة القوانين المتداولة ، في سبيل حماية الضعيف والدفاع عنه . وهذه النزعات والميول كانت تعكس ، ولا

شك ، نظريات متضاربة ، متباينة : ادبية اخلاقية ، هنا ، سياسية هنالك . ويكفي ان نتبين هنا انها ازدادتا شدة وقوة ، من كلا الجانبين ، لنسجل ان المعاصرين نظروا اليها نظرتهم الى أشياء تكميلية .

٤ ـ الازمة الطالعة وأسبابها القريبة

وهكذا نرانا ، من جديد ، وجهاً لوجه ، مع المشكلة الكبرى التي تثيرها المدنية الرومانية في عهد الامبراطورية المتأخر ، من الوجهة المادية ، وهي كيف ان هذا النظام الاقتصادي والاجتماعي الذي بلغ ، ان لم نقل الكمال ، فأقله جانباً كبيراً منه ، عاد فظهرت عليه ، منذ اواسط القرن الثاني ، امارات الضعف والوهن .

حضارة ذات طابع مديني مغرق

بعبارة تستبد بالفكر لعمقها ودقتها لانها تصدم دونما عنف ، هذه الأوهام التي وجدت طريقاً سهلاً الى الاذهان ، هي هذه التي تفوه بها انطوان البرتيني ، بعد ان أبى عليه علمه الا ان يرى في العالم الذي سيطرت عليه الاسرة الانطونية ، شيئاً آخر « أقل سوءاً بين هذه العوالم التي عرفها التاريخ قديماً » . وقد بنى حكمه بعد ان رأى بثاقب نظره ، الوضع الخطير الماثل في هذه الازمات الاقتصادية المتكررة ، وما ألحقته مراراً ، في الطبقات الاجتماعية العليا ، في مناطق كثيرة تابعة للامبراطورية الرومانيـة ، من اوصاب وما جشمتها من مشاق . وهي حقيقة تبرز صحتها لكل عين باصرة . وليس من الغلو في الجرأة بشيء ، ان نبحث عن سبب آخر ، أعم واعمق لهذا الوضع ، وان نجده ، كما نعتقد ، في فقدان الانسجام بين البناء السياسي والحياة الاجتماعية لهذا العالم الروماني ، وبين الاوضاع الاقتصادية التي استبدت بها وهيمنت عليها .

فالنظام الجديد – وهذا هو دوره – فكر ، قبل كل شيء ، بتأمين المقتضيات السياسية والادارية التي يستلزمها العهد . فقد شجع وناصر هذا التطور الذي تمناه والذي جاء معظمه عفوياً ، واوجد روابط وثيقة بين الدولة وبين الحضارة التي ساهم في بنائها وتشييدها ، متنكباً تارة ، عن العنف المنهجي ، ومتجافياً طوراً ، عن وسائل الضغط ، مقتصراً في اغلب الأحيان ، على توفير اسباب الاغراء ووسائله ، وعلى توزيع المكافآت بالتقتير . وهي دولة لقي العهد العنت في إقامتها وتنظيمها لفرط حاجتها للموظفين الاكفاء ، وحضارة اتاحت لها النجاحات الجغرافية والبشرية التي حققتها ان تخفف كثيراً ، من وطأة هذه الحاجة بعينها ، فلم يطلع عليها من المثل غير التي تبينها الشرق الهليني من قبل بكثير ، والجمهورية الرومانيـة نفسها ، التي لا تزال نصب اعين الطبقات المتطورة . وهذا الترابط او المشاركة التي رُغِب فيها والتي لقيت قبولاً لدى كل هؤلاء الذين دعاهم العهد للتعاون معه ، ليس من احد ينكر النجاحات الباهرة التي اصابتها ، ولا عظمة الإنجازات التي استطاعت تحقيقها ، فكانت موضوع اعجاب الجميع ودهشتهم .

ولكن ، هل كانت هذه الحضارة ضخمة ، واسعة ؟ فقد تجاوزت في محاباتها وتغرضهـا ،

واخذها بالوجوه ، حد المنطق ، اذ قصرت عنايتها واهتمامها على المدينة دون سواها ، وحرصت على تأمين وسائل التطور والتألق لها ، لتبرز زاهية ، مشرقة على حساب غيرها .

فانشاء المدن الجديدة في جميع ارجاء الامبراطورية ، والازدهار العجيب الذي عرفته هذه المجتمعات المدنية ، وإلباسها هذه الحلل القشيبة من انواع الزخرف والنقش والتحلية ، بدا ، في نظر الجميع ، اكمل تعبير لهذه الحضارة واجمل صورة لها . والنخبة التي بيدهـا مقاليد الامور ، وهي بمعظمها من المدينة ، أصلاً ومنشأ ، كانت تتيه فخراً بهذا كله ، فلم يبق مـا يدعو خيال الامبراطور ومخيلته للتفتق والخروج بشيء اكمل وأمثل ، اذ كان يجد في هذه المدن الادارات الثانوية التي تخفف عنه اعباء المسؤوليات التي يضطلع بها ، والاداريين الذين ينبرون لخدمته بعد ان يتمرسوا بالاعمال الادارية ويبرهنوا عن شديد ولائهم له . فبعد ان اهمل هؤلاء الاباطرة ، عن سابق قصد وتصميم ، امور الريف وشؤون الولايات ، امعنوا في هدر مصالحها في سبيل مصالح المدن التي اخذ عددها يتكاثر وينمو باطراد ، وافرطوا في تجميلها وتزيينها . فقام فيها من المباني الفخمة والصروح الجميلة الضخمة اكثر مما يجب ان يقوم ، وعقدوا فيها من الاعيـاد والحفلات واسباب اللهو ، اكثر من المألوف ، وأنفقوا عليها جزافـاً ، بصورة تقرب من الجنون ، وبدون طائل ، ما انهك خزينة الدولة فأرزحها ، وجمعوا لها من الحيوانات والسباع والرجال ، مـا لا يقع تحت حصر ولا عد . وبعد ان اخذت هذه الحضارة بألق هذا الغنى وبالدعة التي عرف العهد ان يؤمنها لها ، شأن غرّ أخذ بثروة هبطت عليه بغير توقع منه ولا انتظار ، فلم تستطع العيش، فكَبَت بها الحياة بعد أن أعجزها توفير مثل هذا الفيء العظيم الذي تم لها من قبل، الا في ارتهان الحاضر ، وارتهان ما هو ادعى للخطر : ارتهان المستقبل .

ولكي تتمكن الامبراطورية من السير على هذا المنوال كان لابد لها سنوياً من تأمين حصول طيّب من المواد الغذائية ومن الخامات الأخرى التي لا غنى لها عنهـا ، وان تؤمن المزيد منها ، منذ الآن على ان تضاعف هذا الانتاج فيا بعد ، بحيث يكفي كل مطلب طارىء . ولكن لم يحدث شيء من هذا في سبيل تحقيق هذين الشرطين .

حاجاتهـا

فأدوات العمل وعدته لم يدخل عليها أي تحسين يذكر ، واصحاب رؤوس الاموال المتوفرة ، لم يحاولوا يوماً توجيهها في الصدد القويم والصراط المستقيم ، فأنفقوها في وجوه لا تجدي فتيلاً ، كما انهم أهملوا الافادة مما عرض لهم من عبقريات خلاقة ونوابغ مبدعين ، فواكبوا الحركة العلمية التي نشطت اذ ذاك وساروا في ركابها . هنالك مدنيات عديدة قامت في التاريخ قديماً ، تكشّفت عن مثل هذا النقص الفادح ، وعن مثل هذه الحاجات . غير ان التفوق الذي بلغته الحضارة الرومانية في ما تمّ لها من الوسائل المادية والذرائع العلمية ، جعلها وجهاً لوجه امام مسؤوليات أكبر وأخطر .

وهكذا ، فأمام عدم كفاء العدة ، وقصور الوسائل اللازمة ، رأينا الانتاج مرتبطاً الى حد بعيد ، باليد العاملة . ومهما كان من الغرور في ان يحاول المرء تكوين رأي له حول هذا الموضوع ،

عليه ان يعتمد على انطباعات محتملة التصديق بعد ان فاتته الاحصاءات العلمية الدقيقة . والحال، فاذا لم يكن من شك قط بأن سكان الامبراطورية زاد عددهم ، على العموم ، فليس من شك قط ايضاً ، في ان هـذه الزيادة جاءت متفاوتة غير متعادلة ، بين الولايات المختلفة التي تألفت منها الامبراطورية، وذلك باختلاف النشاطات التي تجلت فيها . فولاية غاليا ، كما يبدو ، أفادت أكثر من أية ولاية أخرى . هنالك عدد من المؤرخين يعزون اعتباطاً ، الى جميع ولايات الامبراطورية ما يجب إقصاره على ولاية غاليا وحدها . فالمدن ، اينما كانت، هي التي استفادت بالأكثر من هذا التطور ، الأمر الذي أفضى الى المزيد من الاستهلاك . ومهما يكن ، فلم نر في أي محل كان ، اليد العاملة في الزراعة او في صناعة التعدين ، مع انها عماد الانتاج في البلاد وعليها يتوقف تأمين مثل هـذا المحصول الاساسي ، تسجّل أي زيادة يمكن مقارنتها بالزيادة التي سجلها نمو عدد السكان في المدن .

ومن الثابت ايضاً ان عدد السكان تناقص ، هنا او هنالك ، في بعض الولايات . فالوضع الذي أحاط بالسكان لم يسؤ ، وقد يكون سجّل ، مع ذلك ، بعض التحسن . ولكن عنـد معارضة هذا الوضع بالوضع الذي كان ينعم به سكان المدن ويتحملون هم ، أي سكان الارياف كل أعبائه ، فكيف لا يجدون وضعهم أثقل من قبل ؟ ومن هنا هذا التظلم ، وهذه التشكيات ، وهذا اليأس ، وحوادث الفرار المتكاثرة ، وهرب العمال المتزايد في مصر *Anachoréseis* الذي كان نذيراً بتأزم الوضع .اضف الىذلك تناقص عدد العبيد والأرقـاء . فحوادثالعتق بالجملة جعلت عددهم ينخفض باستمرار . صحيح ان حركة العتق هذه أفادت كثيراً هذا الفريق العامل منهم في المنازل ، او الفريق الآخر الذي يتعاطى، في المدن، الحرف والمهن الصغيرة ، او يعملون مع مولاهم فيهبهم العتق والحرية على حسابهم الخاص ، لقاء رسم يدفعونه له كل يوم ، ويحتفظون بالفائض لحسابهم ، وهي عادة جرى عليها القوم في اليونان، قديماً. ولكن هذهالنخبة من الارقاء كان يؤتى بها من الرق ، احدى نتائج الحروب ، الأمر الذي كان يوجب بقاء هذا المعين الأكبر للعبيد على معدل عالٍ . فاذا ما كان اسياد العبيد واصحابهم ، عملاً منهم بالروح الانسانية ، او طمعاً في زيادة دخلهم عن طريق منحهم بعض الاعفاءات ، قبلوا بسخاء أكبر من الماضي ، قيام اتحادات لهؤلاء الارقاء ، فالمواليد بقيت نسبياً ، قليلة لأن الاشغال الكبرى التي كانت تستهلك العبيد وتستنفزهم ، لم تكن لتأخذ سوى الذكور منهم . ولعل ما هو افظع من ذلـك ، هؤلاء المواليد الجدد منالعبيد الذين يرضىمولى امهاتهم باعالتهم وإعاشتهم الى ان يبلغوا سن المراهقة .فلم نر مدنية واحدة من بين المدنيات القديمة ، رضيت بأن تضارب بتربية العبيد ، وذلك بالنظر لما يخبئه هذا النوع من التجارة من خطر . ومن جهـة اخرى كانت اسواق الرق اقل ازدهاراً في هذا العهد منها في الماضي ، كما ان مادتها كانت تتجدد اليوم بصعوبة أكثر من الماضي ، وذلـك بعد ان قلـّت الحروب وانقطع عن هذه.الاسواق ، سيل هذه القطعان البشرية التي كانت تباع في اسواق النخاسة بيع السائمة . ومن جهة اخرى ، فاتساع حدود الامبراطورية جعـل شراء العبيد أكثر صعوبة بعد ان راحت الامبراطورية تجاور شعوباً لا ترضى ببيع رجالها بيع النعاج.

واخيراً وليس آخراً ، فمعارك المصارعين ، ومصارعة الوحوش جاءت هي الاخرى ، ضغثاً على أبالة ، وثالثة الاثافي فتحصد صفوفها ، فتنتقص من عددهم ، وتستنزف دماءهم في هذه المعارك الوحشية ، فأحدث هذا كله رد فعل سيء جداً . كل هذه الاسباب جعلت المورد الرئيسي الذي اعتمد عليه الرومان لتوفير ما هم بحاجة اليه من اليد العاملة يجفّ ، وينقطع بالتالي معينه . فاذا كان عدد اليد العاملة الخشنة ، لم يطرأ عليها أي نقص من حيث قيمتها المطلقة ، فقد سجلت مع ذلك نقصاً لا يستهان به من حيث قيمتها النسبية ، مع انه كان من المتوقع ان تزداد ، قيمة وعدداً ، بحيث تستطيع مواجهة الطلب وتلبية حاجات المدن والجيش معاً .

خطر الازمة وأولى مداخلات الدولة

وهذه المدنية الرومانية المغرقة في حركتها الحضارية والتمدينية معاً والتي انحصر كل هم السلطة في الدفاع عنها والعمل على بسطها ونشرها ، لم تهتم هي ، الاهتمام الكافي ، بتأمين حاجاتها من الانتاج . فكانت النتائج ما لا بد ان تكون ، وجاءت على الشكل الذي لا يمكن ان يكون سواه . فالاستقرار الغذائي ، في اكثر من ولاية ، بقي تحت رحمة موسم رديء، او مرتبطاً بعدم انتظام وسائل النقل في ارجاء الامبراطورية. فاذا ما أضفنا الى الجهود التي كان لا بد للدولة من بذلها لمواجهة حرب تطل عليها من الخارج ، والخراب الذي ينتج عن غزو طارىء او عن كارثة طبيعية ، مهما كانت محدودة، تبيّنا الاضطراب الذي يلم بالبلاد ، والمدة الطويلة التي يقتضيها ليعود الاستقرار الى نصابه . فاذا ما تضافرت كل هذه العوامل والمسببات واتفق حدوثها معاً في آن واحد ، رأت البلاد نفسها امام ازمة تهزها من الاركان .

فبعد ان كانت هذه الأزمة في الاساس أزمة انتاج ومواصلات ، كان من المتوقع لها ان تستفحل ويتسع نطاقها بحيث تهدد بالخطر ، اكثر ما تهدد المدن الكبرى ، أي ، نقطة الثقل في النظام الاجتماعي والاداري في الامبراطورية. وقبل ان يستفحل أمر هذه الازمة كان الوضع الحرج الذي تتخبط فيه المدن يبدو قاتماً ، مقلقاً من خلال هذه الاعراض والمظاهر الخارجية التي تطبع نمط الحياة فيها، والتي يجب ردها الى هذا الغلو في الترف، وهذا الاسراف والاملاق المتجاوز لحدود العقل، في البذخ والزهو، الأمر الذي ارهق الطبقة الثرية في هذه المدن وارزحها. وقد رأينا كيف ان بعض هذه المدن اخذ يعاني شديداً من الضيق المالي الذي اطبق على خناقها. كذلك رأينا كيف ان هذه القصور التي كانت محل دعة واستجمام لسيد الأرض ، اخذت تصبح تدريجياً ، عالماً صغيراً باستطاعته ان يكفي نفسه بنفسه ، بفضل ما له من انتاج زراعي كاف ، وبفضل هـذا الدخل الطيب الذي تؤمنه له معامل وورش النسيج ، ومصانع الحديد القائمة على مقربة منه . واخذ الاغنياء يهجر المدن الى الريف ليتفرغوا ، اكثر فاكثر ، لاملاكهم ويعنوا باستغلالها ، متفادين بذلك مضايقات الجماهير التي اخذت تضايقهم بتبرعات شخصية . فامام هذه الحركة العفوية الاقتصادية اللامركزية ، اخذت الصناعة والتجارة في المدن تفقد قسماً من زبائنها من سكان الريف ، كما انها كثيراً ما وجدت نفسها امام منافسة شديدة مع الفيلات التي بعد ان كانت ،

مدة طويلة ، عبالاً على المدن ، اصبحت اليوم مزاحمة لها . فاذا ما بدت هذه الاعراض وبرزت للعيان في اوقات الرفاه والطمأنينة ، منذ اواسط القرن الثالث ، فما عسى ان يكون الوضع ، والحالة هذه ، عندما تتعقد قضية تموين المدن وتصبح مشكلة خطيرة بعد ان تتعطل حركة المقايضات التجارية ، الامر الذي يهدد بانقطاع الثروة عنها ويساعد تدريجياً على تقلص الثروات الخاصة فيها ، كما يهدد بنضوب صندوق المدينة ، فتقف بذلك حركة العمران ، وتنعدم اسباب الترقي والتطور ، ويحال دون انتقال، او بالاحرى ، دون استحالة الطبقة الكادحة، الى الطبقة البورجوازية ، وانتقال هذه الاخيرة الى طبقة النبلاء والاشراف في الدولة .

يشك المؤرخ في ما اذا كان الاباطرة الرومان تحسّسوا بمثل هذه المخاطر التي كانت تتهدد الامبراطورية في الصميم . فلم يسبق لهم ان خبروا او تمرسوا بمثل هذه الازمات . وهب ان تمّت لهم مثل هذه التجربة، لكانوا أبَوْا ان يُذْعنوا للواقع ويسلّموا، انهم ورعاياهم ، أولَوْا بعض مظاهر الحياة في المدينة ، من العناية والاهتمام ، أكثر مما يجب : فهل في مقدور حضارة ما، ان تقرّ وتعترف بأذى او بعدم ملائمة المُثُل التي راودتها فتمثلتها ؟ وهكذا ما كادت تصدمهم المصاعب الاولى حتى راحوا ، بشجاعة واقدام ، يعالجون الوضع ، بوسائل تجريبية ، خلواً من كل خطة ومنهجية ، تحدوهم الرغبة الصادقة لمعالجة وضع لم تفتهم نتائجه الخطيرة ، دون ان يتمكنوا من النفاذ الى اسبابه الحقيقية وتحليلها . فاذا ما كانوا اقوياء او ظنوا انهم أقوى بكثير، بالنظر لما هم عليه من وهم او جهل، راحوا يعتقدون ان ليس من صعوبات تعترض سير الدولة يستعصي حلها، او لا يمكنهم التغلب عليها ، وذلك لأنهم لم يلاقوا ، حتى الآن ، سوى احداث بسيطة ، تافهة للغاية ، وبالاكثر ، ازمات محلية لا تذكر . فالتدابير التي تسلحوا بها لا تشير بشيء الى الاتجاه الذي سيضطر ضغط الحوادث، خلفاءهم ، لاتخاذها عندما يجدون انفسهم ، وجهاً لوجه، امام أزمة عامة كاسحة : اهو التدخل المباشر او الشدة والعنف ؟

فالمبادىء التي تقوم عليها العاطفة الانسانية لا تكذب القول القائل : عندما تنصرف الدولة للتمكين للاخلاق والترسيخ لها ، تصبح بذلك حامية للمستضعَفين ، وهو شيء لا يصعب علينا اليوم رده للنزعة التي تدعو للتدخل . وستحتفظ الدولة بهذا الدور تلعبه الى نهاية التاريخ القديم ، مضيفة اليه ، ما لم تأخذ به من قبل ، الا وهو الشدة او الضغط ، وذلك حفاظاً منها على سلامة الواقعين تحت رعايتها ، اذا لم يدفعهم تحسن وضعهم القانوني للانصراف له .

فالقوانين والتشريعات التي سنها هدريانوس بشأن الاراضي الموات، واستثمار المناجم، عنَت، في الدرجة الاولى ، صغار الناس ، وذوي الحال المتواضع . غير ان ما اتسمت به من إرهاق ووقفها الى جانب القانون المعمول به، يدل بأن الدولة كانت على استعداد لبذل كل شيء في سبيل المحافظة على الانتاج . كذلك ، فاذا كانت المنافع التي نالتها النقابات المهنية ارضت ، على السواء، العمال ومتعهدي الاشغال في المدن ، فقد اخذت الدولة تفرض عليها رسوماً جماعية ألحقت الضرر

بالمنظمات البورجوازية في المدن وأصابتها في صميم حرياتها الاقتصادية ، كما اخذت من جهة ثانية ، تشدد على النبلاء والأشراف وتجبرهم على قبول الوظائف البلدية غصباً عنهم ، ولم يتورعوا من تجريدهم من حق ادارة شؤونهم المالية المحلية . إلا ان الامتيازات الجديدة، من فخرية وقضائية، التي أسندت الى الطبقات « الارفع منزلة » جاءت تعوض ، بعض الشيء ، عن هـذه التدابير القاسية ، اذ كان لا بد من المحافظة على عامل الاغراء الملازم اصلاً للوظائف العامة ، والتي ، في السعي للفوز بها ، ما فيه من منفعة الدولة والحضارة معاً .

اما نحن الذين نعرف جيداً المصير الذي آلت اليه هـذه التدابير ، فقد رمزت الى المستقبل وهيأت له الأسباب. ولم يكن في وسع احد، اذ ذاك، ان يفهمها او يدركها على وجهها الصحيح، اذ لم يكن بوسع احد ان يتصور أهمية المشكلات التي لا بدّ من إيجاد حل لها يوماً . هنالك شيء واحد أكيد ، لا يمكن الاستغناء عنه، لأنه وراء كل دولة كما انه وراء كل حضارة، ولا سيما هذه الحضارة المدنية بالذات ، فيفرض نفسه ، في كل الظروف وفي كل مكان .

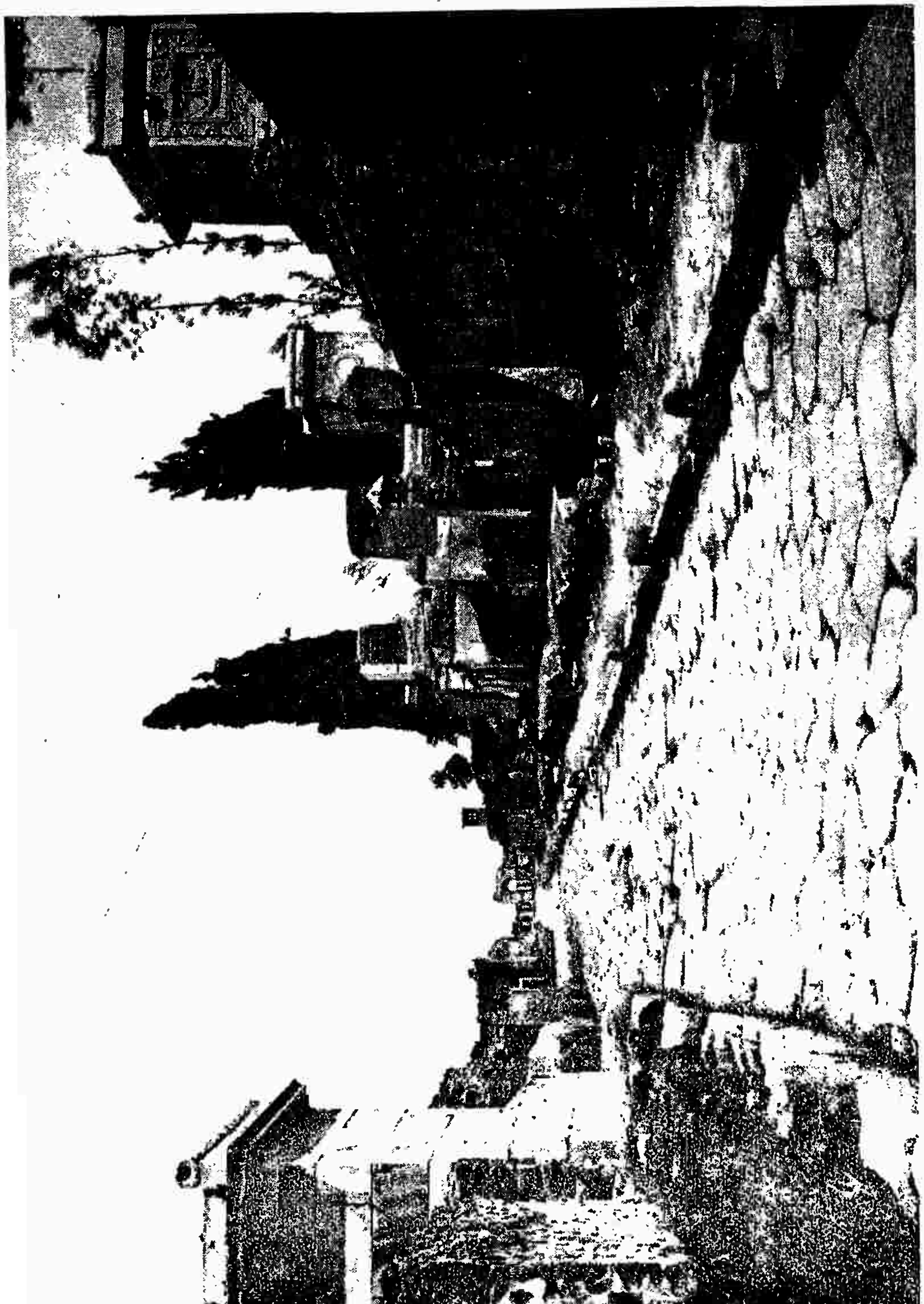

١٧ – بومبيي : طريق المدافن خارج باب هرقل .

١٨ – عرس الدوبرنديني

١٩ – تقدمة خنزير وكبش وثور . نقش رخامي

٢٠ – سر ديونيسي

٢١ — اول الطريق الأبيّة من جهة روما

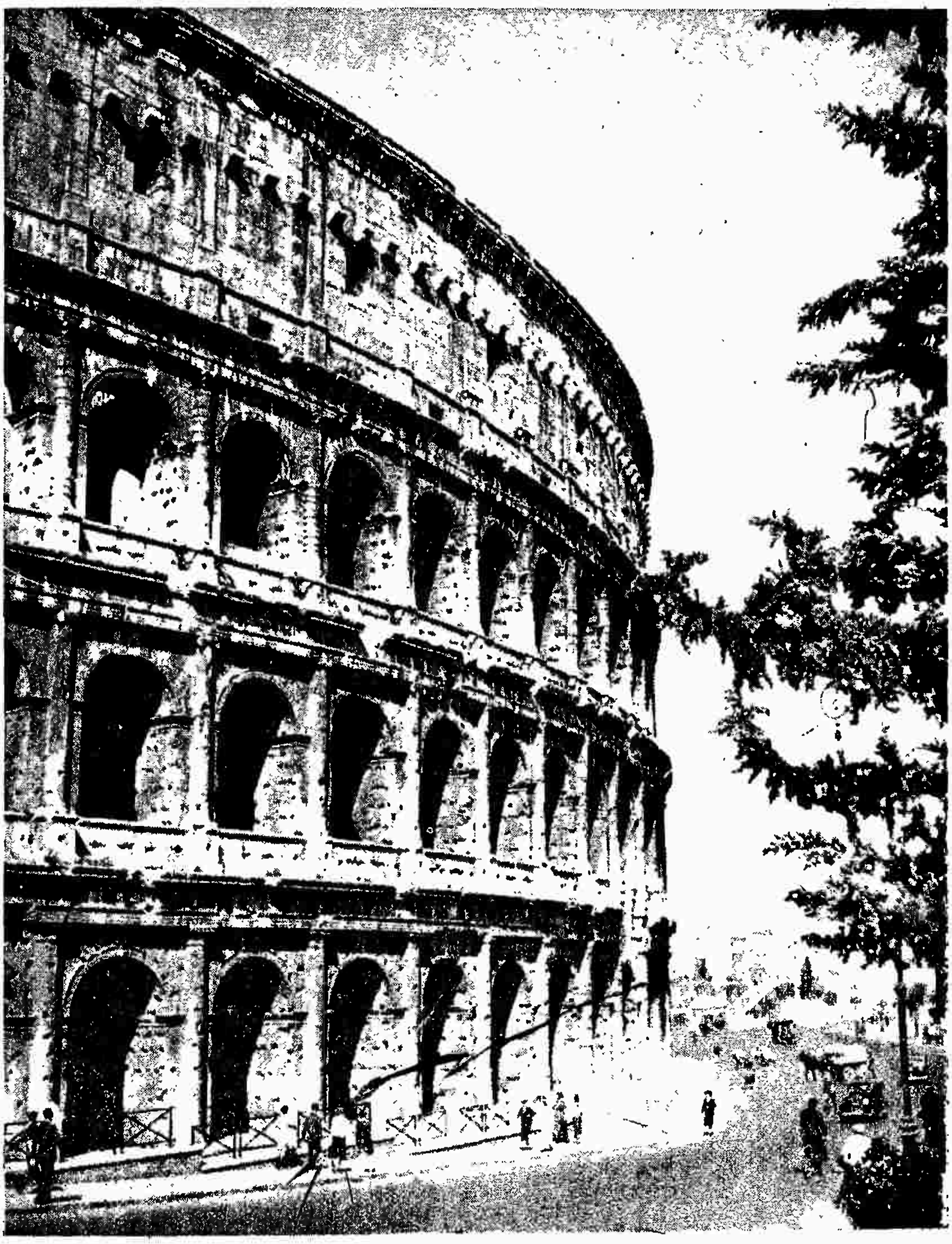

٢٢ – روما : الكوليزه

٢٣ — روما : عمود ترايانوس

٢٤ – القوس المعروف بـ« قوس ترايانوس» في تمغاد (الجزائر).

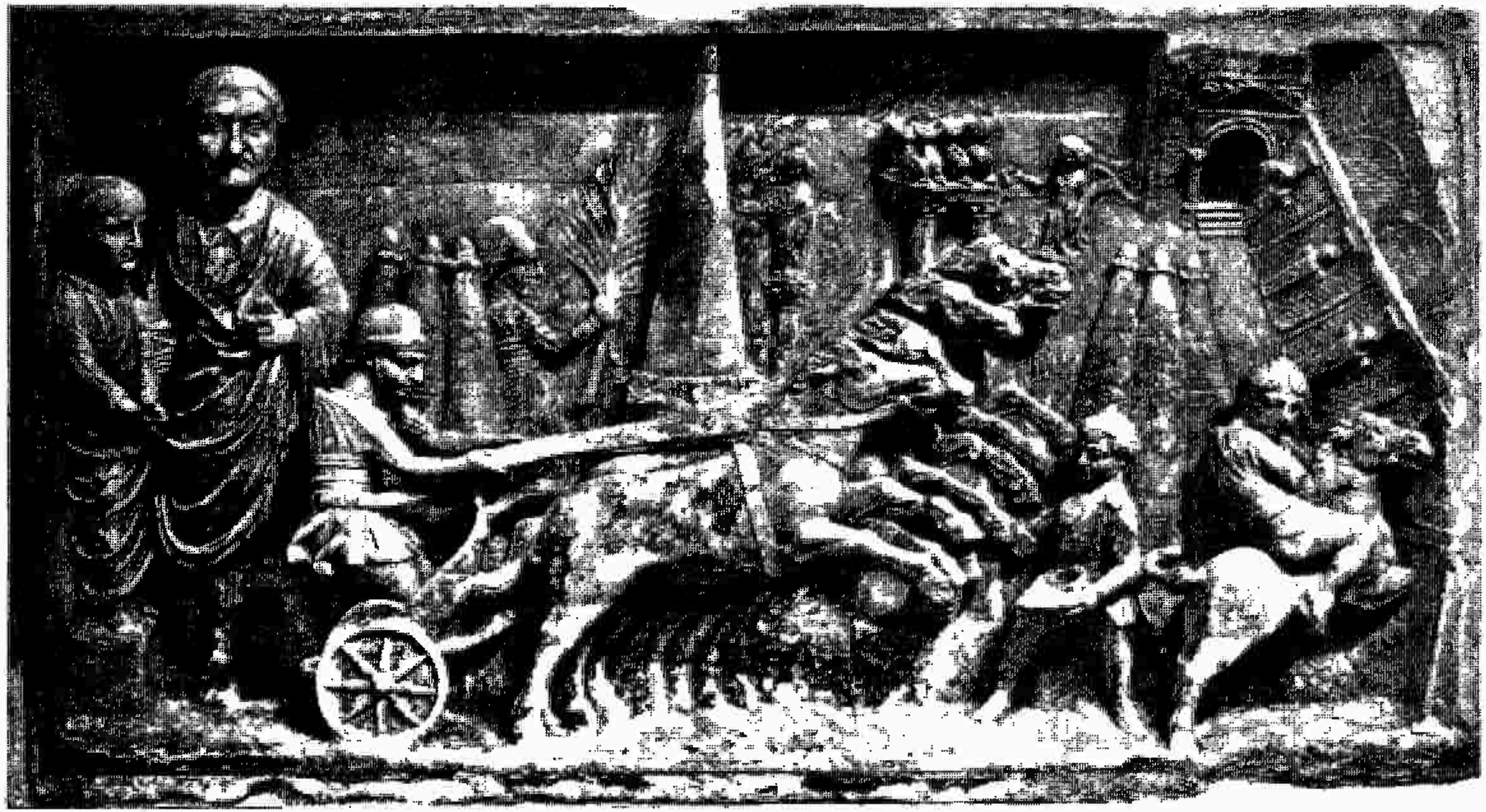

٢٥ – صورة محفورة تمثل مأتم احد الزعماء

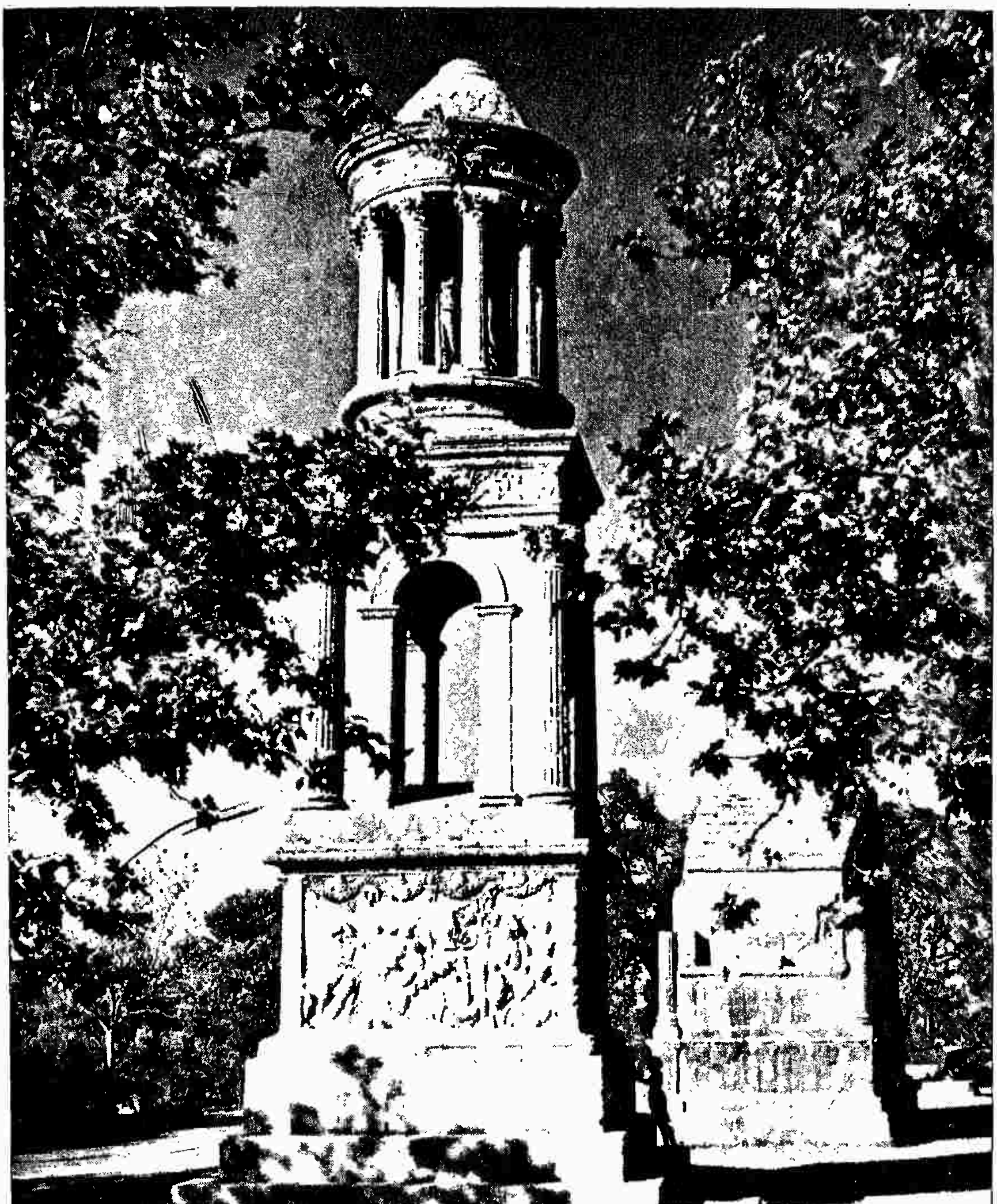

٢٦ – ضريح آل جوليوس في سان ريمي في مقاطعة بروفنسا .

٢٧ — بقايا مسرح اوستيا

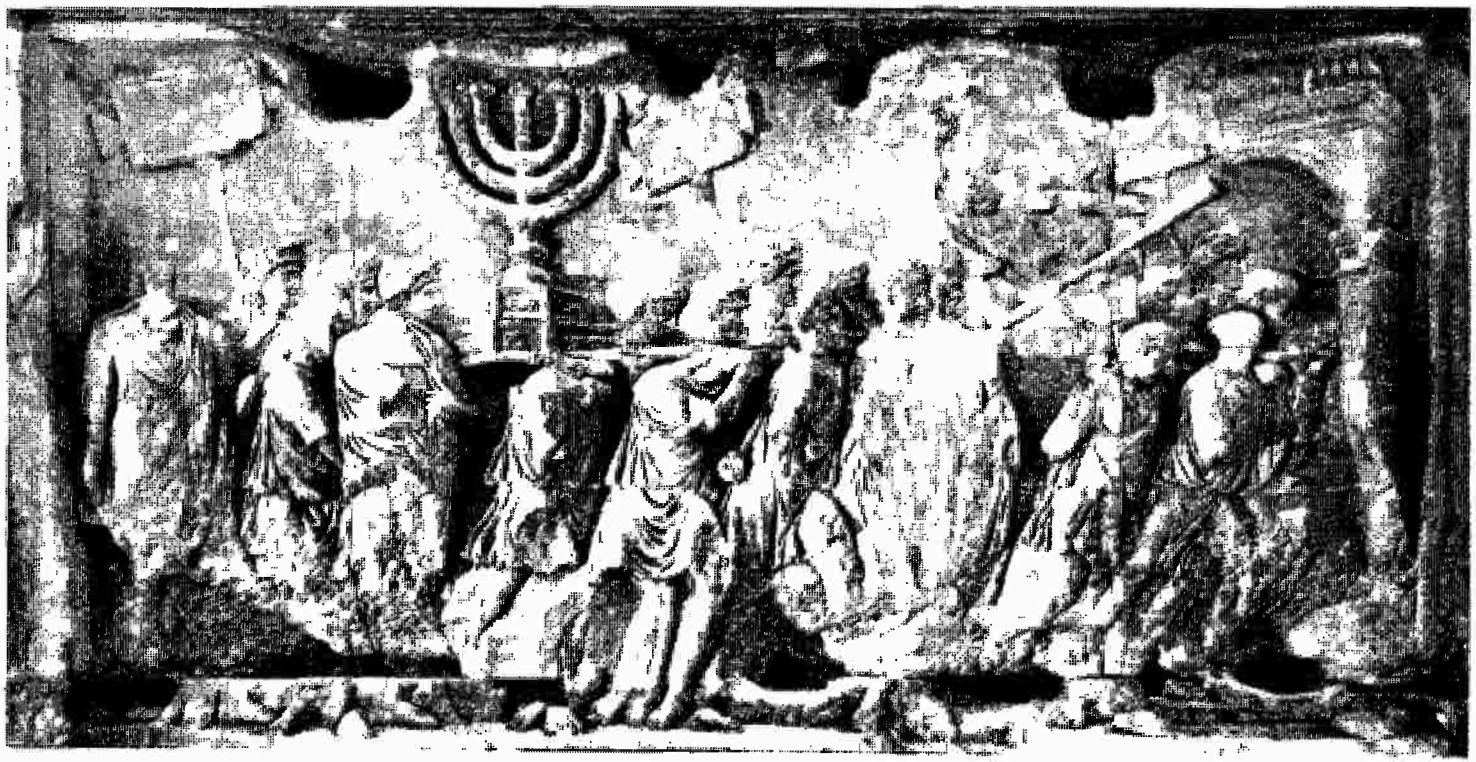

٢٨ – غنائم وأسلاب اورشليم. نقش في قوس تيطوس في روما

٢٩ – ميترا يقدم الثور قرباناً

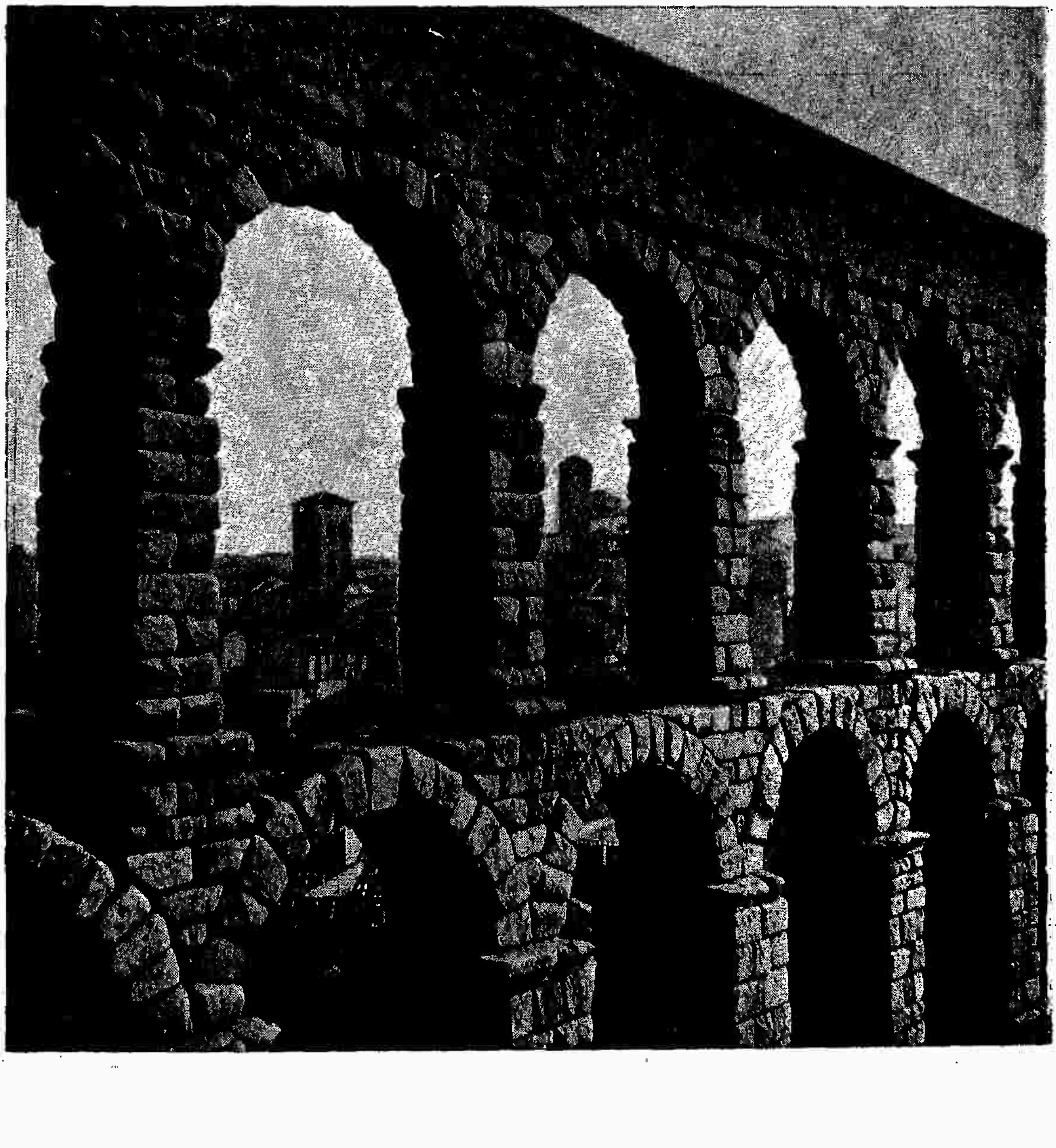

٣٠ - قناة ماء سيغوفيا (اسبانيا) .

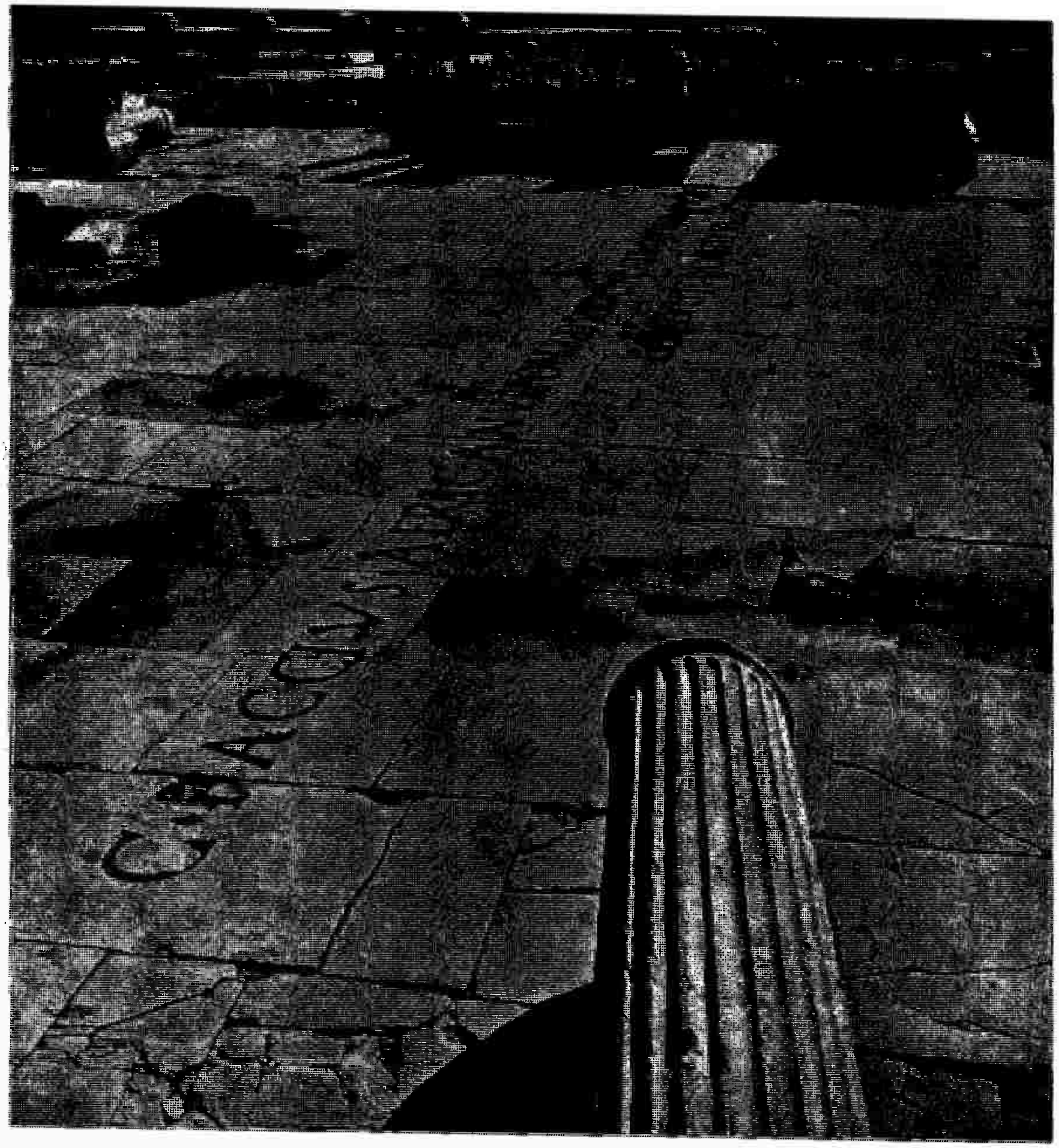

٣١ – الفوروم في هيبون (عنابة ـ الجزائر) .

٣٢ – مسرح سبراتا ـ ليبيا

الفصل الرابع

الديانات القديمة والجديدة

الوضع الديني في عهد الامبراطورية المتأخر كان أكثر دلالة على المستقبل من الوضع الاقتصادي والاجتماعي ، يكشف عنه بصورة اوضح واجلى . فالعقائد الدينية المتباينة ، قامت في هذا جنباً الى جنب بعد ان يسّرت الاتصالات بين الولايات المتباعدة ، وسهلت سبلها ، وانفتحت منها الابواب على مصراعيها امام الديانات والعقائد الأجنبية ، فأدّت المنافسات التي اشتدت بينها ، قبل نهاية القرن الثاني ، الى فوز العقائد التي حُوربت بعنف في الماضي ولاسيما مع مطلع الامبراطورية ونشأتها ، باعتبارها منافسةً للنظام القائم في البلاد ومغايرة للتقاليد الرومانية . فبعد ان لقيت بعض الاغضاء والتسامح لم تلبث ان فازت بحق الرعوية وأصبحت مهيأة ليس لزعزعة الامبراطورية فحسب ، بل ايضاً لنفخ روح جديدة فيها وبعثها من عثارها والركود الذي صارت اليه .

العاطفة الدينية

اوغسطس وموقفه من الديانة

اتصفت النخبة التي تولت مقاليد الحكم في روما ، في اواخر العهد الجمهوري ، بعدم مبالاتها بالدين . فهذه الطقوس الدينية الرسمية التي ارتبطت مظاهرها بحياة الدولة ، والتي كانت تمثل بقيةً من هذه العقائد الايطالية الرومانية ، أضيفت اليها فيما بعد ، عناصر يونانية لم تكن تمثل في نظر هذه النخبة ، سوى مراسم لا بدّ منها للنظام العام القائم ، رمزاً بالاكثر ، لمبدأ ديني عانى ، هو الآخر ، من هذا القلق الروحي الذي استبدّ بالأذهان . فالاعياد تُهمل جانباً ، ويعفو ذكرها ، ويُتناسى أمرها ، والهياكل يتجافى الناس الدخول اليها ، والوظائف الكهنوتية يُزهد بها ويُعرض عنها فتبقى شاغرة ليس من يملؤها.

وما ان أطلّ اوغسطس بعد ان تم له من الأمر ما تم ، حتى راح يصحح الاوضاع ويكافح هذا الإعراض ، ويُحِدّ من تدهور المشاعر الدينية . فقد تمنى ان يكون ، وأصبح بالفعل ، المصلح الحقيقي للديانة الوطنية حتى في اقدم مراسمها ، وأخذ يرمم المعابد ويعيد اليها رونقها ويضفي على هذه المزارات الدينية والاساطير التي تمثلها او ترمز اليها ، بهاءً لم تعهد مثله من عهد بعيد ، ويملأ الوظائف الكهنوتية الشاغرة. كذلك حرص ان يعيد تشكيل المنظمات والجمعيات

الدينية وينفخ فيها نشاطاً جديداً بدخوله في عضويتها . هنالك حادثان يمثلان خير تمثيل سياسته الدينية : رفضه انتزاع لقب « رئيس الاحبار » *Pontifex Maximus* من لبيدس *Lépide* ، زميله السابق مع انطونيوس في الحكومة الثلاثية *Triumvirat*. فقد آثر ان ينتظر حلول أجله حتى يُكرّس ، هو نفسه ، في هذه الوظيفة السامية ، وفقاً للقوانين المرعية لتتم له بذلك أعلى سلطة دينية دون ان يمسّ الشرعية بشيء . اما الثاني ، فاحتفاله بأبهة وجلال ، طوال ثلاثة ايام وثلاث ليال ، بالأعياد القرنيّة *Jeux Séculaires* التي كانت تحيي ذكرى تأسيس روما ، وذلك باستمطار البركات السماوية على المدينة الخالدة وعلى سكانها .

وبعد الجهود التي بذلها العلماء لسَبر مشاعر اوغسطس الدينية ، وتحليل نوازع نفسه الدفينة، من حيث حقيقة موقفه من الدين ، يبدو من المستحيل اليوم ، التشكك في اخلاص سلامة نواياه او الارتياب في صدق عواطفه الدينية الصادرة عن إيمان حي . فالعمل الذي انجزه في هذا المجال ينسجم كل الانسجام مع العمل السياسي العظيم الذي قام به والذي رمى منه الى اصلاح الدولة والنظام الاجتماعي القائم في الامبراطورية . غير ان النجاح الذي اصابته السياسة العامة التي انتهجها لا تسمح لنا بان نرى فيه غير مصلح واداري ماهر، كما ظهر بالفعل رجلاً شديد الايمان برسالته . فاخلاصه يبرز بهذا الاستمرار في العمل الذي اضطلع به ، وبمواصلة الجهد فيه ، والإستدامة عليه ، وفي مداخلاته المتكررة ، وفي سخائه وبذله على شؤون الدولة واصلاحها ، وفي هذا الاهتمام الذي برهن دوماً عنه والذي طالما نوه به وألمع اليه باسهاب وبشيء من الرضى الذاتي ، في كتابه : « امور الحكم »،وفي خطبه التي شدد فيها على هذه الامور وبالاخص على هذه العناصر الجديدة التي لقح بها الديانة الرومانية في محاولته اصلاحها والرفع من شأنها . وقد ادخل على هذه الديانة التي كانت عبارة عن طقوس دينية تشير الى هذا الترابط بين الألوهية من جهة ، وبين المؤمن او جماعة المؤمنين ، من جهة اخرى ، شعوراً حياً اتصف بالعمق ، وصدق العاطفة ، وهذا الوقار والجلال الذي اضفاه على الاحتفالات الدينية الرسمية . فاخذه بالخرافات والاساطير جعله يستنطق الأحلام التي تراوده ، ويطلب تفسيراً لها ، ويعتمد على زجر الطير ، وتعليل الحوادث الطارئة التي تملأ النفس دهشاً : كالصواعق والالتقاءات المفاجئة ، والحوادث العادية في الحياة ، وكلها ظواهر طبيعية حاول الرومان ، منذ القدم ، ان يلبسوها معنى خاصاً ، وغيرها من الامور التي يعلقون عليها في الخارج ، مدلولاً رمزياً خاصاً ، كالطالع الذي اخذ له وهو بعد حدث يافع ، وبرج الجدي الذي ولد تحته ، وهي طوالع خلدوا ذكرها بنقشها على احدى قطع النقود الرومانية ، كما حُفرت حفراً ناتئاً ، على رصيعة عُرفت برصيعة « فيينا » . وقد تأثر هو وبطانته تأثيراً عميقاً بالفيثاغورية الرمزية ، كما راح يستلهم بعض الطقوس المستمدة من الشرق الهليني وأبى ان يدخل يوماً هيكلاً في مصر ليسجد للإله ابيس او هابيس (*Apis*) ويقدم له القرابين، وامتدح حفيده لأنه رفض ان يقدم القرابين، هو الآخر، لإله اليهود في القدس، وحظر الاحتفال بعيد إيزيس على ارض روما ، بينما أظهر مشاعره الدينية نحو الآلهة اليونانية المنشأ والمصدر ،

المشهود لها بالحسب وشرف المحتِد . وقد علّق أهمية كبرى على اشتراكه بأسرار الفسيس ، والاعياد القرنية التي حدد وقوعها بدقة كلية ، هذه الاعياد التي لقحت التقاليد الرومانية بأشياء كثيرة استمدها من الميثولوجيا عند اليونان ودياناتهم وطقوسهم العبادية . كل هذه الامور تشير بوضوح الى انه صدر في الحركة الاصلاحية الدينية التي قام بها ، عن يقين صادق وايمان حي وطيدين ، وانه لم يرض او يقنع بنظام ديني ، حرفي ، جامد ، بـل اراده ان ينبض بعاطفة دينية مشبوبة .

ليس من يُنكر قط ان الحركة الاصلاحية الصادقة التي قام بها تركت اثراً عميقاً في التطور الادبي الذي طلع على المجتمع الروماني . فلم يستدعِ عمله الاصلاحي بين الطبقات الشعبية الوسطى والدنيا جهداً كبيراً ، لأنها كانت ، على الاجمال ، بمعزل عن موجتي الكفر والالحاد اللتين غمرتا الطبقات العليا ، ولأن مثل الامبراطور وسلوكه كان له أكبر الوقع كما كان أكبر مشجع لها . فالشواهد الكثيرة التي يمدنا بها علم الآثار ، والرُقم القديمة التي عثر عليها المنقبون في ايطاليا وفي غيرها من الولايات الرومانية ، تنطق عالياً بما كانت عليه هذه الطبقات من عاطفة دينية ملتهبة بالرغم مما شابها من خرافات صبيانية . اما الطبقة الاجتماعية العليا التي غمر الكفر والالحاد معظم بنيها ، فقد انقلب فيها الوضع فجأةً . ويميل المرء الى الاعتقاد بأن طيباريوس ، وهو من أتباع مذهب العقليين ، كان خاتمة الملحدين ، اذ ان استلطاف الامبراطورة بلوتين لتعليم الفلسفة الابيقورية ، كما تشهد على ذلك ، احدى النقائش التي عُثِر عليها في اثينا ، لا يستدعي قط ، تسليم ارملة الامبراطور ترايانوس بالنتائج التي تفضي اليها تعاليمهم . وليس من الحق ولا من العدل بشيء ان نعزو الفضل كله لنفوذ اوغسطس وسطوته . فالقلق النفسي الذي استحوذ على نفوس النـــاس خلال الحرب الاهلية الدامية كان له تأثيره الظاهر ، ولا شك ، هو الآخر ، اسوةً بهذه العقائد والفلسفات التي قدمت من العالم اليوناني . وليس من الصدفة بشيء ان يكوّن عهد اوغسطس الطويل الذي شهد مطلع الامبراطورية وزافق نشأتها ، من هذه الناحية ، نقطة الانطلاق لتطور حاسم خلاق .

الفلسفة والدين

وهذا التطور الذي اخذت الامبراطورية بأسبابه ، مهّد لازدهار التعاليم والنظريات الفلسفية الكبرى ، كما اسهم في النجاح الذي لقيه الناهضون بالدعوة لها والعاملون على نشرها ، بحيث لو اخذنا نبحث ، منذ الآن ، في تعاليم هـــذه الفلسفات وننعم النظر في مبادئها ، قبل ان نتفرغ لدرس الحياة الفكرية والادبية التي ازدهرت في ارجاء الامبراطورية اذ ذاك ، لكنا وقعنا في مغالطة فاضحة ، ليس من حيث الشكل فحسب ، بـل من حيث الاساس ايضاً .

بين هذه المذاهب الفلسفية ، يمكن ان نضرب صفحـاً ، عن ذكر ، الفلسفة التشككية أو السفسطائية التي لم يكن لهـــا أي صدى ، والفلسفة الكلبية التي اتجهت بالأخص من الجماهير والشارع وبقيت كلتاهما شبه مجهولتين في روما . فالفلسفة الابيقورية (*Epicurisme*) وحدها ، كانت ملحدة ، معطّلة ، اذ أن الخوف والرجـاء المرتبطين بالعمل الإلهي المتوقع ، يذهبان

بالهدوء التام الذي تتوقف عليه سعادة الانسان . فقد عرفت هذه الفلسفة ان تحافظ بكل دقة، مصونة من كل تغيير أو تبديل ، على فكرة المعلم الذي وضع اسس هذه الفلسفة ، في مطلع القرن الثالث ق.م . كما عرفت أن تحتفظ بحب الناس له واحترامه . فقد اطلعت في روما ممثلها الاكبر لوكريس، اذا شئنا ان نضرب صفحاً عن هؤلاء الذين بعد ان شوّهوا تعاليمها وغيروا من مقالتها، راحوا يدعون ان فيها ما يبرر إشباع شهواتهم وملذاتهم . وقد خف تأثيرها، أقله في روما، بعد ذاك . أما في الشرق الهليني حيث راح أتباع هذه الفلسفة ينتظمون في نوادٍ وحلقات خاصة ، فقد تمكنت من ان تحافظ على نشاطها الى عهد الامبراطور مارك اوريل ، فأسند اليهم أحد الكراسي الأربعة التي أسسها في أثينا ، ولم يتورع اتباعها من اظهار كفرهم وجحودهم في هذه المناقشات والمجادلات ، وفي هذه المظاهرات العامة التي قاموا بها إذ ذاك ، فأثاروا تشكك الجماهير ، واستهدفوا ، نتيجة لهذه الأعمال ، لردود خصومهم المفحمة ولرشقهم بالشتائم وبأقذع الكلام أحياناً .

فراحت الشيع والمذاهب الفلسفية الاخرى تتكتل ضدها، بعد ان تجند من رجال الفكر بينها من تصدى لها بالرد العنيف، اذ لم يكونوا ليفرقوا بين الفلسفة والدين . « يا بني » كن ورعاً تقياً » كما جاء في نص يوجز جيداً الكثير من مأثور الكلام في هذا المجال»؛ « فالتقوى هي رأس الحكمة ، كما ان ليس باستطاعة أحد ان يبلغ التقوى الحقيقية بدون الفلسفة » .

أما الفيثاغورية *Pythagorisme* ، فقد تقدمت من أذهان الناس ديناً جديداً اكثر منها فلسفة . فقد عاف الناس التحدث عن نظرية الارقام والاعداد التي قال بها مؤسس هذه الفلسفة وعلّم ، كما انها تخلت ، هي ايضاً ، عن تحرياتها وتقصياتها العلمية التي كانت يوماً ، سبب شهرتها ومجدها . وبعد مراسم عديدة من التطهير، ومجالدة النفس بالصبر وطول الاناة ،وشظف العيش والاعتصام بحبل الاخلاق الفاضلة ، راحت تعلل اتباعها بالسعادة في الحياة الاخرى. وقد راح بعضهم ينتحل القدرة على اجتراح المعجزات والتنبؤ بالكشف عن الغيب كالمجوس . فقد نهج السواد الاكبر بينهم نهجاً ليناً في الحياة ، مفضلاً الانطواء على نفسه ، رحيماً ، حليماً ، وانقطع للتأمل والتجريد العقلي ، مرتدياً لباساً من الكتان الابيض وهو مسترسل الشعر .

فالاعمال التي قام بها في روما نيجيديوس فيغولوس، في اواخر العهد الجمهوري وسكستيوس، وحفيده ، في عهد اوغسطس ، عادت على الفلسفة الفيثاغورية بنجاح عظيم ، كما يشهد على ذلك نشيد مبنى « الباب الكبير » *Porte Majeure* وقد أهمل هذا المبنى ، فجأة ، في اواسط القرن الاول ، لاسباب نجهلها . ولم تحافظ المدرسة الجديدة على حيويتها ونشاطها إلا في اليونان. فوقع بلوتارخوس (بلوتارك) نفسه تحت تأثيرها ، كما عدّت لها ، في عهد الاسرة الفلافية ، ممثلاً كبيراً في شخص ابولونيوس دي تِيان ، الملقب بصانع العجائب *Apollonios de Tyane* .

لم يتمكن الافلاطيون من كسب اتباع لهم في روما، بينما تكاثر عددهم في الشرق الهليني، فقد عرفوا ان يقوّوا الدعوة الدينية التي بشّر بها مؤسس هذه الديانة ، وجعلوا من فكرة الله ،

أكثر من أي وقت آخر ، محوراً لتأملاتهم ، وحاولوا ان ينقـوا هذه الفكرة من الشوائب التي علقت بها ، وان يعيدوا اليها صفاءها ورواءها ، فجردوها وأبعدوها عن صفاتية العالم المادي ، واقاموا بين الله والعالم وسطاء ممثلين بهؤلاء الابالسة الذين لا حدّ لهم ولا حصر ، وبذلك انفتح المجال للأخذ بكل صور الديانة وأشكالها بما فيها من الخرافات والاساطير الشعبية .

ولم يختلف الوضع كثيراً هنا عما كان عليه في الفلسفة التي سجّلت أكبر قدر من النجاح اذ ذاك ، هذه الفلسفة التي طلع بها زينون والمعروفة بفلسفة زينون *Stoïcisme* . فبعد ان كان زينون رقيقاً عند احد معتوقي الامبراطور نيرون ، وطرده دومتيانوس من روما ليعود اليها من جديد في عهد هدريانوس ، تمكن أبكتيتس من مواصلة النهج ذاته الذي وضعه باناتيوس وأكمله بوزيدونيوس. وهكذا استطاعت فلسفة زينون ان ترفع باسم الفضيلة صوتها عالياً في وجه الاباطرة الذين عُرفوا بشططهم ، في القرن الاول ، كما استطاعت ، في القرن الثاني ، ان تؤثر عميقاً في حلقات المثقفين ونواديهم وجمعياتهم ، قبل ان يساعد مارك اوريل بسلوكه على تكثير اتباعها ولو في الظاهر . وبقيت هذه الفلسفة ناشطة في الشرق طيلة هذين القرنين . فقد عرفت تعاليمها بعض التطور اثر وفاة مؤسسها زينون ، واحتلت القضايا الادبية او الاخلاقية محلا مرموقاً من اهتمامها ، كما انها جعلت من الإله الذي آمنت به وحدة نظام هذا الكون وباعث الحياة فيه . فالقدرية بقيت قائمة كما بقي من واجبات الانسان ان يرتفع الى مستوى النظام العام ليصبح بطاعته وخضوعه « جندي القدر » . إلا ان تابع هذه الفلسفة لم يلبث ان تبيّن الضعف البشري الذي عليه الانسان ، والحافز الذي يحفزه للتعلق بالالوهية ، الا وهو القلق المستحوذ عليه أكثر من دافع العقل . وكان بحاجة لمن يُقنعه بأنه في حراسة الالوهية التي تسهر كذلك على الانسان ، فكلاهما موضوع حبها . وقد برهن مارك اوريل عن تقوى مفرطة حتى حدود الخرافة ، مُعنياً نفسه بتقديم القرابين والاضاحي وبطوالع الغيب ، حتى ان بعضهم تاهوا وراء رمزية سقيمة .

العناية الإلهية

تلاقحت هذه النظريات الفلسفية الدينية وتمازجت . ولم تبق على صفائها سوى الفلسفة الابيقورية ، وذلك بفضل ما عرفت به من صلابة العقيدة؛ وقد قبست مقالات فلسفية أخرى كثيراً من تعاليمها . وقد تكاثرت أسباب التلاقي والاتصالات بين هذه المذاهب الفلسفية لكثرة ما بينها من تجانس وتقارب في نزعاتها الدينية . وزاد هذا الاختلاط فيما بعد ، لما قام من تجانس بين المبادىء الاساسية لتعاليمها وبفضل اتصالات الحياة العامة ، باستثناء الاتصالات التي قامت بين مختلف فئات هذه الشيع . وقد تفادوا المجادلات الدينية ولاسيا بين اتباع هذه الفلسفات التي عرفت بمشاحناتها الشديدة في اقطار آسيا الصغرى المتهلّينة .

فلا عجب ان يوجد بينها في امور الدين ، من يقول بوجود عناية إلهية او ربانية ، وان اختلفت هذه التعاليم فيما بعد ، حول نسبة تدخل هذه العناية في تقرير مصائر الحياة على الارض ، ولا سيا حياة البشر ، اذ كان الاعتقاد السائد لدى العموم انها تتدخل في بعض الظروف الخاصة ، اما مباشرة أو بالواسطة . وقد توصلت الى شيء يشبه الإجماع فيما بينها ، إذ سلمت بأن هذه

العناية هي عطوفة على الانسان ، فيقف حيالها موقفاً كله أمل ورجاء ، يستنزل بركاتها ، كلما أنس من نفسه الضعف والتعاسة ، وهو ابداً على استعداد ليعرب لها عن شكره وامتنانه بجميع الوسائل التي بين يديه .

ومع ذلك ، فهذه الفلسفة التي خضعت لتطور ذاتي ، هل بقيت صالحة لتكون هادياً أميناً ، أم انها اقتصرت على تطوير تعاليمها وفقاً لتيار عقائدي أو شعوري غلاّب خارج عنها ؟ فبدون ان نقطع في الامر نفياً او اثباتاً ، يكفي ان نرى ، على الاقل ، كيف توفرت جميع الظروف الملائمة لقيام شيء من اتفاق المشاعر بين الاوساط المثقفة وبين الطبقات الجماهيرية التي سيطر عليها الجهل فوحّد بينها بقدر الامكان . وبالفعل ، لم نرَ بين كل المدنيات التي قامت قديماً وتركت وراءها ما يحدثنا عنها ، مثل هذا الاجماع او الاتفاق التام . ومن الواضح جداً ان تحقيق مثل هذا الاجماع لا يتطلب ان يكون الشعب بلغ مثل هذا المستوى الرفيع المعقول . فالوضع ، على العكس من هذا تماماً ، اذ بقيت الاوساط المستنيرة في المجتمعات الهلينية ماضية في انطلاقها الى الامام ، منذ عهد الاسكندر ، أي مُتنكّبة عن النظرة العقلانية ، متوقفة عن تنقية الدين من المعطيات المادية . وهذا الانطلاق اشتد قوة واندفاعاً ، اذ انـه انتهى عند الكثيرين ، ولكن ليس عند افضلهم مع هذا — مثال ذلك مارك اوريل — الى الاقتناع عن بذل أي جهد قوي . أوليس من الاعتباط بمكان ، ان نجد في هذا كله ، اثراً لنظام سياسي آسر ، سيطر على كل سكان الامبراطورية فخضعوا ، في مشارقها ومغاربها لرئيس او سلطان واحد ؟ فالصورة التي تجلت لهم في سلطة امبراطور كلي القدرة ، اوحت ، ولا شك ، بأكثر من سبب لمقارنتها بفكرة العناية الإلهية .

النتائج المترتبة على هذا الاعتقاد

وقد نتج عن مثل هذا الوضع ، في المجال الديني ، نتائج عدة . منها ما يتفق لعمري ، مع هذه المشاعر التي تأثر بها أوغسطس نفسه ، الا انها تجاوزتها بشكل غريب بعد ان اضفت عليها من إتساع وشمول كان من شأنه ان يسمّر الخوف في قلب اوغسطس . من ذلك مثلاً ، هذه العاطفة الدينية المفرطة التي تغلغلت الى اعماق شعور الانسان ، والتي ، ان قادته من جهة ، الى حلم معسول راودته فيه رؤىً من الاماني العذاب ، فقد عرّضته من جهة اخرى ، الى مواقف مخزية من التسكع والتذلل . ومن ذلك مثلاً الاعتقاد بما توجهه هذه الآلهة من وعد ووعيد ، بحيث يرى المرء نفسه مضطراً للتصديق بالعجائب والمعجزات تطالعه كل يوم لتفسير وتعليل ما يتعاقب عليه من بركات . ومن هذا الباب المسدوف ، اي الذي فتحه اوغسطس قليلاً ، تدافعت الى الاذهان والنفوس والعقول اغرب العقائد تصديقاً وأصدمها للعقل السليم ، فاستقرت فيها واستبدّت بها . فكيف السبيل بعد الآن ، للابقاء على هذه الحدود والسدود التي يعزون اقامتها الى اوغسطس ضد بعض الآلهة ، وفي وجه بعض العبادات والطقوس الغريبة المنشأ .

فقد سلموا ، بالفعل ، بوجود وسطاء او آلهة ثانوية ، بين العناية الالهية وبين عالمنا الهيولي

هذا. وبين هولاء الوسطاء من هو مجردفكرة، مجهول، غير معروف البتة. ومن الطبيعي جداً ان يُنزل الانسان ، حتى من كان منه عالي الثقافة، جميع آلهة الوثنية ، هذه المنزلة : فالتضرع اليها ليس فيه ما يضر او يسيء . وهكذا يحافظ الانسان على الطقوس والعبادات التقليدية ، وعلى مراسم عبادة هذه الآلهة وتكريمها . كذلك يحافظ على الاعتقاد بهواتف الغيب ، اذ يرى ان باستطاعة الجن او الابالسة تقديم النصح لابناء البشر. ومهما يكن ، فالتقليد الوطني او ما ينزلونه منزلته ، لم يعد في وسعه ان يقدم ، في هذا المجال ، ركيزة يمكن قبولها او التعويل عليها . فهذه العناية الإلهية التي تغمر الكون باسره ، لا تعرف الحدود والسدود . فالتمييز بين إله وإله، غريباً كان ام يونانياً ام رومانياً ، مُتهليناً كان ام مُتليتناً ، لا محل له على الاطلاق . فعلى نسبة استلطاف الناس لهذه الآلهة يأتي تأثيرها ، مشروطاً بدرجة الاخلاص، وحرارة العاطفة، ونوع التكريم الذي يُرفع اليها. وفي هذه المنافسة الحرة ، فلا عجب ان تحظى الآلهة الغريبة او الاجنبية، ولا سيا آلهة الشرقيين بينها، بالمرتبة الاولى، وذلك بفضل ما تتمتع به من طابع غير رسمي ، وبفضل مالها من غنى الرمز ، وبفضل ما توحي من ثقة بالنجاة والخلاص .

ومع ذلك ، ففوق الاسماء والكنى والالقاب والجنسيات تُلاحظ المشابهات بأيسر مما تلاحظ الفروق ، عند الذين لم تُعَطّل حرارة العواطف والرغبة في التمتع بالعطف والحماية، القوة العاقلة والناقدة في النفس . ومن هنا طلعت حركة التوفيق بين الاضداد المتباعدة التي ربما انتهت الى شيء من توحيد المنصر الالهي اينما وجد . وهذا بالذات ما حدا باديب بثينيا ، ديون ده بروس الذي لقب بحق : « فم الذهب » الى ان يكتب في اواخر القرن الاول ما يلي : « أخذ البعض يدّعي ان ابوللو ، وهيليوس (الشمس) وديونيسيوس هم واحد ، وانت تقول القول ذاته . واكثر من هذا بكثير يُجمِع عدد كبير من الناس ببساطة كلية . على ان يروا ، في كل الآلهة مجتمعة ، قوة واحدة ، وقدرة واحدة ، بحيث لم يعُد من فرق قط ، بين تكريم هذا أو ذاك ، من بينها » .

وأخيراً اخذ الناس يُعللون النفس ان باستطاعة الابالسة ، اخياراً كانوا أم اشراراً ، حتى الصغار منهم الذين يَسْمون فوق ضعف البشر بكثير ، ان يُرغموا الناس ، ببعض الوسائل المغرية التي لديهم ، على التصرف حسبا يريدونه منهم . وهكذا نرى باشكالها المختلفة ، اعمال السحر ، والتعزيم والشعوذة آخذة بعضها برقاب البعض ، في حياة الانسان .

وهكذا شهدنا طلوع ثورة دينية حقيقية ، تجلت في الشعور الديني ، بفوز الرمزية الفردية . اما الحياة الدينية فقد تلبست مظاهر لا حصر لها ولا حد، لم يلبث بعضها ان زال ومات، تاركاً وراءه مغزى الطقوس الدينية التي تجلى بها ومعناها ، بينما استأثر البعض الآخر بكل الشهرة . فالمراسم الميتة هي التي احياها اوغسطس وبعثها حية من جديد. اما الحية منها فهي التي أقصاها او وضع لها حدوداً لا تتعداها . والتطور السياسي الذي اخذت الحضارة الرومانية بأسبابه انما تم وفاقاً للاتجاه الذي أراده اوغسطس واستطاع ان يوجهه . اما التطور الديني فقد تم بصورة معكوسة تماماً .

٢ ـ الوثنية وطقوسها

العبادات

من الجائز ان نمر سريعاً على ما يسمونه بالعبادات التقليدية، أي هذه الطقوس التي سِيرَ عليها في الديانة اليونانية اللاتينية ، وفي عبادة الامبراطور . فقد ازداد عددها : فالاولى منها هي عبارة عن فلسفات جديدة انضمت الى الايديولوجيا الامبراطورية ، وفقاً لاعراف سِير عليها في روما منذ عهد بعيد ؛ اما الثانية فتقوم في هذا التقليد المتبع عند الاباطرة وأعضاء أسرهم اذ يصبحون متألهين ومتألهات *Divi et Divae* عند وفاتهم . ولهذه الطقوس العبادية ميزة مشتركة تقوم في ارتباطها جميعاً بالدولة . وعلى الدولة تتوقف حياة هذه الطقوس واستمرارها وازدهارها ، والاحتفال بمواسمها بكل انتظام ، اذ ان هذه القوى او الكائنات الالهية التي تتجه اليها مراسم العبادة ، هي الحارسة لروما ، وهي التي تلهم الحكام، وتهديهم الصراط المستقيم .

ولهذه الاسباب ، كانت اجهزة الدولة تحرص الحرص الشديد على الاحتفال بهذه العبادات بكل دقة . فالامبراطور يعطي فيها المثل الصالح ، كما ان مجلس الشيوخ لا يمكن له ان يتهاون يوماً بأمرها . فليس من منصب ديني إلا ويُملأ ، وليس من رتبة دينية إلا ومن يمارسها ، اذ لكل واحد دوره وعمله المحدد ، في هذه الرُتب التي تتدرج صُعُداً لتبلغ أعلى المراتب . فالوظائف الكهنوتية الصغرى والحلية كانت تُمهّد الطريق لاصحابها الى البورجوازية ، بينما ينال الشفاليه درجات صغرى تخول حاملها ترؤس الاحتفالات الدينية التي تقام في ضواحي روما وأرباضها، كما كان يؤخذ من بين اعضاء مجلس الشيوخ، اعضاء المجامع الرومانية. اما الامبراطور فكان يرقي اسراً جديدة الى مرتبة الحاكمية وذلك لتوفير ما يلزم من الموظفين لإشغال بعض الوظائف الخاصة ، ككهانة المشتري وجوبتير ، مثلاً . ولم تكن المعابد والهيا كل يوماً ، أكثر منها عدداً ، ولا أبهى منها زينة ، كما لم تكن الذبائح والاضاحي أسمى منها وأبذل . والاعياد لا افخم ولا أبهى، موزعة على ايام السنة. والرغبة في ممالأة الشعب والتزلف الى الجماهير، والظهور بمظهر السخاء والبذل والعطاء ، كل ذلك جعل سراة القوم واعيانهم من الامبراطور الى حكام المدن الصغيرة يندفعون في هذا المضمار . وعبثاً حاول مارك اوريل تحديد عدد الاعياد الرسمية التي تقفل فيها ابواب المحاكم بجعلها ١٣٥ يوماً في السنة . فما كاد يتوارى عن المسرح حتى عادت الامور الى مجراها الاول باندفاع لا يقاوم . وكان إطار هذه الاعياد وجوّها خالياً من كل تقوى او خشوع حقيقي ، إلا اذا رغب المرء ان يرى فيها تعبيراً خاصاً ومدلولاً يبتعد كثيراً عن الفكرة الاولى .

ولكن لم يكن في الامكان ان نزدّ هذه التقوى الى الرغبة في تقليد روما وذلك عن طريق تبني حضارتها ، ولا إضفاء شيء عليها من عواطف الشكر والولاء لها . وقد راحت المدن في كل مكان، ولا سيما في الولايات الغربية التابعة للامبراطورية الرومانية حيث حركة الليتنة كانت

ترادف التقدم الثقافي والاجتماعي والقضائي ، تتبنى آلهة الديانة الرومانية . فالمستعمرات الرومانية واعضاء المجالس البلدية كان يهمهم جداً ان يشيدوا « كابيتول » أي هيكلاً خاصاً بعبادة جوبتير « العظيم » الخيّر ، الكبير » ؛ فكان ذلك التكريم موجهاً بالفعل لروما ولمظاهر حضارتها الخارجية أكثر منها لعقائدها . قد تكون عبادة الامبراطور في الاساس ، أكثر تعقيداً ، اذ انه حَدَث ، تبدو مظاهره ولا شك ، عفوية طوعية ، قامت بها جماعات من متوسطي الحال ، بحيث أصبحت هذه العبادة ، بالضرورة ، متشابهة بالنسبة لاستمرارها وللازدياد المطرد لجماعة المتألهين (*Divi*) الذين كان لا بد من تصنيفهم الى فئات حسب الأسر . زد على ذلك ان تكاليف هذه الطقوس الدينية الباهظة ، كثيراً ما أرهقت ، ان لم يكن في روما ، فأقله في البلديات والنواحي الاقليمية ، موازنة هذه الهيئات والمنظمات ، كما انهكت موارد الخاصة . وعندما ذابت هـذه الثروات الخاصة امام النكبات والازمات الاقتصادية ، اخذ اصحابها يُعْرِضون عن الوظائف والمراتب الكهنوتية ويتحولون عنها . وهكذا زهد الناس بهذه الوظائف كما زهدوا بالوظائف البلدية الاخرى ، مما حدا بالحكومة على فرض هذه الوظائف بالقوة ، كما اجبرت البعض على قبول وظيفة رئيس العشرة *Décurion* . غير ان لجوء السلطة الى الاساليب ذاتها ، انما يعني ، ان هـذه الوظائف ، في نظرها ، هي على مستوى واحد في كلا الجهازين الاداري والسياسي .

العبادات الاجنبية : الغرب

فالحياة الدينية الحقة لم تكن هنا في روما . فقد كانت خارج روما ، حيث كان باستطاعتها ان تجد ، كما وجدت فعلاً ، الآلهات والعبادات التي لم يكن تبنيها من قبل الدولة والاعتراف بها ، ليجعل منها مؤسسات رسمية ، كما كان من شأنها ان تتحجر وتجمد من جراء إشراكها بالاحتفالات الرسمية . فباقتباس روما هذه العبادات : تارة من رعاياها ، وطوراً من الخارج ، جعلها تصدر عن تقليد عرفته من عهد بعيد ، وسارت عليه طويلاً . فقد عرفت ان لا تُقصِر نفسها على السلبية ، بل استقبلت باهتمام كلي ، وبَحثت جادة ، عن مؤثرات دينية طلعت من ايطاليا واليونان . فرحابة الامبراطورية واتساعها وسّع امامها مجال القبس في امور العبادة والدين ، لم تقف الحدود الجغرافية حائلاً دون عملية الاختيار والاصطفاء . فالعلاقات التجارية التي كانت تستأنف بسهولة في فترة ما بين حربين ، كانت تحمل مع السلع التجارية ، آلهة وعبادات جديدة .

فباستثناء افريقيا القرطاجية القديمة ـ وقرطاجة جزء لا يتجزأ من الشرق ـ كان من الطبيعي جداً ان يقل اقتباس روما من الديانات والعبادات المعمول بها في الغرب . فهي لم تقف موقفاً معادياً لهذه العبادات ، ولم تضطهدها قط ، انما تشددت في تحريم القرابين والذبائح البشرية ، كما راحت تجتث من الاساس ، في غاليا ، لاسباب سياسة محضة ، المنظمات الدرويدية وتشكيلاتها الكهنوتية . فالمدنيات التي قامت فيها مثل هذه الطقوس الدموية ، هي من التأخر ، في نظرها ، بحيث لم يكن بين هذه العبادات ما يغري بالاقبال عليها . ورغبةً من الموظفين الرومانيين في اكتساب

عطف احد الآلهة المحليين واستمالته ، وعملاً بايمانهم بقوة إلهية شاملة تتجلى بكائنـات متعددة الاشكال ، راحوا يقدمون ، هنا وهنالك ، حتى من كان بينهم من أصل ايطالي ، وفقاً لظروفهم الادارية والتنقلات التي تفرض عليهم من جانب الادارة المركزية ، بعض القرابين والنذور لبعض هذه الآلهة التي هي موضوع عبادة محلية ، في اسبانيا او في غاليا . ثم ان طبيعة الجيش الروماني وطريقة تشكيله وتكوينه من عناصر عرقية متباينة ، وتنقل فرق هذا الجيش من مركز الى آخر ، كثيراً ما تسبب في توطين احد الآلهة الغريبة عن البلاد، في المنطقة المرابط فيها الجيش ، فتظهر فيها طقوس وعبادات جديدة . ففي بعض فرق الخيالة مثلاً ، نرى الإلهة إيبونا الغالية ، تزاحم بصورة غير متعادلة، عبادة الإلهة التراقية الاصل « هيرون » التي انتشر تكريمها والتعبد لها بين الاوساط العسكرية الهلينية ، وغير ذلك من الشواهد والامثلة التي تبقى ، مع ذلك حوادث فردية لا كبير شأن لها. فروما لم تقتبس من الغرب ، في الدين ، شيئاً يذكر . فهي ، على عكس ذلك تماماً ، اعطت الغرب كثيراً من طقوسها وعباداتها الاصيلة كما اعطته عبادات اجنبية بعد ان اضفت عليها لبوساً رومانياً ، او انها كانت ممراً لهذه العبادات في انتقالها من بلد الى آخر .

تفوق الشرق وتساميه الديني

وقد حدث عكس ذلك في الشرق تماماً ، حيث نشاهد عملية إلباس الآلهة المحليين لبوساً رومانية . فالإله بعـل ، الذي كان موضوع عبادة في مدن سوريا كهليوبوليس (بعلبك) ودمشق ، والإله دوليخـه الذي كانت عبـادته تقام في مقاطعة كوماجين والذي اخـذ الاغريق بتسميته زفس استحال المشتري « جوبتير » عند الرومان ، دون ان يجري تجريده من الصفات والمناقبية التي عرف بها في مواطن عبـادته الاصلية ، كما حاول الغرب السير على هذا النهج ذاته مع الآلهة التي اقتبسها ، دون ان يبدّل من عبادتها وطقوسها الدينية . فقد اقتبست روما الكثير ، دون ان تعطي الشرق شيئاً يذكر ، وذلك بالرغم من موقف اباطرتها المعارض ، الذين لجأوا ، للحد من هـذه الحركة ، الى اساليب شتى من العنف والشدة كالنفي ، ان لم نقل الاضطهاد ، صحبها حوادث اعدام بالجملة . فبعد ان تم لاوغسطس النصر على انطونيوس وكليوباترا ، اخذ على عاتقه إصلاح الديانة الرومانيـة وبعث مناسكها ومراسمها من جديد ، فوقف في وجه هذا التيار للحد منه . وسار سيرته طيبـاريوس ونهج نهجه بصورة اشد واعنف . ثم عقب ذلك فترة من التساهل والتسامح والقبس من جديد لم يكن الاباطرة قط بغرباء عنها .

هنالك دوافع كثيرة وبواعث عدة لهذا الاندفاع الشديد الذي لا يقاوم. فالشرق أمدّ روما بالكثير من الأفكار الجديدة والنظريات الفلسفية على اختلاف ألوانهـا من سياسية واقتصادية وفكرية، كما أمدها بالكثير من الرجال والأرقـاء الذين امتازوا بحدة الذكاء وبالمرونة، وبالخدمات التي أدّوها لأسيادهم ، كما أتاحت لهم حركة العتق التي نشطت بين صفوفهم ، مخالطة جميـع الطبقات الاجتماعية . ومع هـذا الدّفق من الهجرات ، وهذه المجاري الفكرية التي دخلت روما، دخلها في الوقت ذاته ، صدر كبير من آلهة الشرق وما لها من عبادات ومراسم وطقوس، عرفت

ان تستبد بنفوس الرومان ، وتملك عليهم مشاعرهم ، وذلك بما أضفت على الحياة الدينية من أشياء لم تكن معروفةعندهم من قبل، لقيت هوىً في قلوب الرومان لإشباعها منازعهم الروحية، وعرفت ان تجتذبهم وان تُغريهم على اعتناقها . وهذا الاغراء او الانجذاب خضع له الاغريق من قبل ، قبل ان تضمهم فتوح الاسكندر وجهاً لوجه مع الشرق ، فكان لها الوقع الآسر نفسه على الرومان ، للأسباب ذاتها . فهذه الطقوس الجافة والمراسم الباردة التي كان يحتفل بها رسمياً باسم الدولة وتجري برئاسة أولي الامر فيها ، كانت تتجه من الفرد دونما نظر الى وضعه الاجتماعي ، اذ كان يجد نفسه معها امام آلهة قريبة الى نفسه، بعد ان احسن تجريدها مما أضفوا عليها من مسحة الخلود والجبروت والقسوة ، وهي آلهة جاشت مثله بالاحاسيس والمشاعر : كالخوف والقلق والحب، تتألم وتموت ثم لا تلبث ان تنفض عنها غبار القبر، ناهضة مشرقة، جياشة بالحياة، تشبهاً بالطبيعة . وكثيراً ما كانت هذه الطقوس تثير في نفسه الشجى والأسى، كما تثير فيه الرجاء بالخلاص بعد قيامه ، بما توجب عليه من مراسم الوضوء والتطهير والنضج ، جسدياً وروحياً ، بعد ان زكت وطابت بهذه القرابين التي يرفعها لها عن رضى وطيب خاطر . ففي مشاركة القوم هذه الاحتفالات وما يجري فيها من طقوس العبادة ، وفي مشاركتهم الأسرار الدينية ، كانت نفوسهم تقع في شبه انخطاف وذهول روحي ، بعد ان خلُصت من ادران المادة . وكانت هذه الطقوس في مراسمها المختلفة ،تفسيراً لهذا الكون وتعليلاً لأسرار الحياة،وذلك باشراكها الفرد نوعاً ما ، في عمل القوى الغامضة التي تسيطر على مصائر الانسان ، كما تعطيه ، عن طريق السحر والنجامة ، مسحة من العلوم الطبيعية . وهكذا أشبعوا بهذه المراسم ، شتى الرغائب والمنى التي كانت تجيش في النفس البشرية ، بينما طقوس الاحتفالات الرسمية كانت تجري في جو بارد ، جاف ، عار من الوقار الرسمي ، برئاسة وإشراف ممثلي السلطة .

الفوران الديني في الشرق

ولكن هيهات ان يأتي هذا الفوران الديني خالياً من الشوائب . فقد راح فريق من المشعوذين والممخرقين، والسَحَرة والمنجمين، والمجوسية والمريدين الكلدان ، واتباع إيزيس ، ممن عجّت بهم روما افواجاً وفرقاً لا حد لها ولا حصر ، يستثمرون سذاجة عاطفةهذهالجماهير الدينية ، بالرغم من سهر الشرطة واستعمالها الشدة احياناً، وذلك بما يأتونه، مأجورين، من ألاعيب تنزّى بالخداع والغش والتضليل . فاذا ما رأينا انفسنا عاجزين اليوم عن تحديد التبِعة التي تقع على جوفنال في ما نمّ به من الافتراءات التي غلّف بها الشتائم التي كالها ، فقد وجد في هذه الاعمال المشبوهة ما يغذي حقده الحقين . ولكي يُلهبوا الاخيلة ويهيّجوا الأعصاب ، لم يكونوا ليتورعوا قط عن اللجوء الى أقذع الوسائل وان يفتعلوا الحوادث الغامضة، ليثيروا دهش الجماهير فيقيموها ويُقعدوها، فينصبون في الأماكن التي تجري فيها حفلات الاشتراك بالأسرار الدينية ، التماثيل الناطقة او المتحركة ، وأطياف من الصوت والضوء، والابواب التي تنفتح او تغلق من ذاتها ، والتنكر بالازياء والملابس الغريبة اثناء الحفلات الدينية ، والآلات الموسيقية الصائتة ، والهتافات الهستيرية والصياح المهتاج . فمن الطبيعي جداً

ان تتحرك مشاعر الجماهير وان تهتـاج ، وان يطفو عليها زَبَد الطفيليات و نزَق المتطرفين والروافض وأعمالهم النكراء : فالحفلات الخاصة بقطع العَفْص *gui* ، وتمثيل بعض الاسرار الدينية المخالفة للآداب العامة ، او حفلة رش المؤمنين بدم الذبائح ، كلها أمور وشؤون من شأنها ان تثير في نفوسنا اليوم الانقباض والاشمئزاز. ولكن ، هل كانت بعض الطقوس الدينية الأكثر مراعاة للتقاليد ، بأقل إثارة لأذواق المعاصرين اليوم ؟ ان تاريخ الاديان المقارَن يقدّم لنا أكثر من مَثل وشاهد على ان التقوى والورع كثيراً ما تلبّسا بمظاهر انقبضت لها النفوس ، وأثارت المقت والكره، ومع ذلك يجب ألا يغرب عن بالنا قط، ان الطقوس الدينية الشرقية التي اقتبسها الرومان ، بعد اليونان ، غذّت نفوساً وأعدّت قلوباً عُرفت بنبل الاخلاق والمبادىء السامية.

وقد زخر الشرق بمثل هذه الديانات وخصبت فيه العبادات . وهذا الخصب الذي افترّ عنه منذ ألوف السنين ، لم يبد ما يشير الى انـه أصيب بالنضوب والنزوح . فطلوع النصرانية ليس بالشاهد الوحيد على هذه الخصوبة . فلنقتصر هنا على الدليل الذي تمدنا به ، بكثير من التفاصيل المثيرة ، وان لم تكن كلهـا صحيحة ، الرسالة النقدية التي وضعها لوكيانوس *Lucien* بعنوان : « الكسندروس او النبي الكاذب » يقصّ فيها على لسان احد الملحدين الكَفَـرَة ، مولد احـد الآلهة المعنيين بالكشف عن طوالع الغيب ، في احدى مدن بفلاغونيـا الصغيرة ، يُعرَف باسم ابونوتيخوس ، في عهد الاسرة الانطونية . وهذا الإله تلبّس صورة أفعى لها رأس انسان ، عُرفت باسم غليكون وهي تجسيد للإله أسكلابيوس . وقد راح الكسندروس بوحي من الآلهة يستقبل الإلهة وأحلها محلاً لائقاً بها ، في احد المعابد ، واخذ يجيب باسمها على الاسئلة التي يتلقاها او تطرح عليه، ويردّ عليها بهاتف صوتي يخرج من قمقمة جهاز تألف من عدة مواسير او انابيب رُكّبت على وضع خاص . ومثل هذا الهاتف كان يكلف طالبه أغلى بكثير من الهواتف العادية الاخرى . وسواءً أصحّت ام لم تصح، تُهم التضليل والخداع التي عزاها لوكيانوس للقائمين بهذه الألاعيب ، فالمهم في الامر تلاقي مثل هذه المعلومات وصَهْر هذه التقاليد والاساطير المتباينة الاصل والمنشأ في ألفة تامة ، وذلك بفضل مذهب توحيد الآراء ، في الحقلين الروحي والطقسي الذي كان ضارباً أطنابه اذ ذاك . كذلك من المهم ايضاً هذا النجاح البعيد ، المستمر ، تلقـاه هـذه العبادة الجديدة ، وهو نجاح بلغ من الشدة والقوة بحيث ان احد اعضاء مجلس الشيوخ ممن تولوا منصب القنصلية في روما من قبل ، وأصهر فيما بعد ، لالكسندروس المذكور أعلاه، نقل الى الامبراطور مارك اوريل ، هاتف غيب ، يدعو الامبراطور لإلقـاء أسدين في نهر الدانوب فيؤمّن بذلك، النصرعلىالبرابرة.اما شاهدالاستمرار فيقومفي ان،بالرغم من وفاةالكسندروس، حوالي عام ١٧٠ ، نرى نقوداً تضرب في بلدة ابونوتيخوس التي اصبحت تعرف في عهـد مارك اوريل بـ : إيونوبوليس ، وهو اسم نجهـل وجه التسمية فيه ومعناه ، انما بقي باسمه الحديث : اينبولي ، وتحمل صورة غليكون ، بعد ذلك بخمس وسبعين سنة .

هذا المثل ضربناه، يرينا الى اية درجة بلغ الاختمار الديني في ربوع الشرق بعد الازدهار العظيم

الذي نعمت به الامبراطورية ، والسهولة التي كانت تتم بها اتصالات الناس بعضهم ببعض ، فجاء ذلك يكمل الفوران الديني والغليان الروحي الذي طبع العهد الهليني من قبل. فعبادة الإلهة تيخه خسرت كثيراً من جراء الطابع الرسمي الذي اتسمت به عبادتها . ومثل هـذا الأمر لم يخل من اثر بيّن على طالع الامبراطور والمدينة او الجماعة. فالاهتمام بامر الخلاص، وتوق النفس البشرية اليه، كل ذلك أوجب حلولاً اكثر فردية وتحللاً من الرسمية الجامدة : فلم تلق يوماً الآلهـة الصانعة العجائب، والآلهة التي في ظقوس عبادتها اسرار، من الرواج، ما لقيته ، اذ ذاك . فقد تكاثرت انواع هذه الآلهة واصنافها، وكانت تماثيل سيرابيس وهي من الفئة الاولى، تنافس اسكلابيوس، كما نافست تماثيل ديونيسوس ، وهو من الفئة الثانية . كذلك انتشرت عبادة هذه الآلهة الشخصية واقيمت لها هياكل ومعابد في اماكن كثيرة : منها هيكل برغاموس على اسم اسكلابيوس ، حيث رأى والد الطبيب المشهور جالينوس حلماً أوحي فيه اليـه بوجوب تعليم ابنه الطب ونال هذا الهيكل من سعة الشهرة ما وازى الشهرة التي تمتع بها هيكل أبيدور . فاينما يتجه المرء كان يطالعـه ناطقون بهواتف الغيب ، من كل شكل ونوع ، يتوافد اليهم، للكشف عن طوالع الغيب واسرار المستقبل ، اكثر الناس اخذاً باسباب الثقافة ، وتصديقاً منهم للغرائب والمدهشات التي طالما نعتوها بالمعجزات ، او سعياً وراء تفسير الرؤى والاحلام. وانتشرت بالتالي اعمال النجامة لاستطلاع طِلع الأقدار المخبوءة أيما انتشار . وهذا الاتجاه العارم الذي بلغ الهوس ، نحو القوى الخارقة الطبيعة ادى الى حركة شاملة من تبادل الطقوس والعبادات ومزجها بعضاً ببعض .

العبادات الشرقية في الغرب

كل هذا السيل الجراف من عديد الآلهة ومناسك عباداتها وطقوسها الغريبة الطابع ، سواء أصدرت من الشرق عامة ، او من هذا الشرق الخاضع لسلطة روما وسيادتها ، او من هذا الشرق الأبعد مثلاً ببابل وايران ، الخاضعتين للفارثيين ، اندفع نحو الغرب ، فاغرق ايطاليا وروما بسيله ليتجاوزهمـا أبعد الى الغرب: الى الولايات اللاتينية اللسان واللغة .

فما من إله شرقي قط ، الا ونرى أتباعه ومريديه يروّجون له لدى جميع الشعوب ، وفي كل صقع وناد ، جاهدين مجاهدين لكسب المزيد من المريدين . فمن المغرب الاقصى الى اصقاع بانونيا في شرقي اوروبا ، نرى افراداً في الجيش الروماني من اصل عربي يُحيُون مناسك آلهتهم الوطنية ويقيمون مراسم عبادتها ، كالإلهة ثياندروس ، ومنف . من الثابت كذلك ان بعض المواطنين الرومان من الافارقة اصلاً، ادّوا خدمتهم العسكرية ، في الفرقة « التدمرية » فادخلوا طقوسهم الدينية الى بلدة القنطرة في المغرب ، ومنهـا جنوباً الى لاغوات ، وقدموا نذوراً لإله بلميرا : ملاغبيل . فمن غير ان نأخذ بتعداد هذه الطقوس والعبادات المختلفة ، نقتصر منها على تلك التي لقيت عبادتها رواجاً اكبر . « قربة الآلهة » سيبيل، الفريجية الاصل ، جرى توطينها في روما منذ نهاية القرن الثالث ق.م . الا ان عبادتها وتكريمها وفقاً للطقوس الشرقية ، لم تصبح رسمية الا في عهد الامبراطور كلوديوس ، عندما أدخل الى روما عبادة الثالوث الذي تألف من ابنها

وعشيقها أتّيس . وقد احتاط الامبراطور للامر عندما راح ينظم هيئة الكهنة الذين عهد اليهم بالكهانة لهذه الإلهة . الا ان اهم مادة في هـــذا التنظيم بقيت حبراً على ورق : ففي الحين الذي كان فيه القوّامون (*Archigalles*)على هذه العبادة يُختارون من بين المواطنين الرومان وتجري تسميتهم في روما ، من قبل مجلس الشيوخ ، وفي الملحقات ، من قبل الادارة المحليـة ليتولوا رئاسة خدمة المعابد ، كنا نرى عُمُداً (*Galles*) من الخصيان ، يمارسون ، بالرغم من الشرائع والقوانين التي كانت تمنع الخصاء وتحرمه ، هذه المراتب الدينية في بلدان لا تقع في آسيا ، وهي القطر الوحيد الذي سمح بقيام هؤلاء الخصيان بمثل هذه المراسم .

وكان هؤلاء الكهان يحتفلون بهذه الطقوس ، علانية في شوارع المدن خلال فصل الربيع ، في مواسم يستمر الاحتفال بها ١٣يوماً متواصلاً . وكان يسبق هذه الاعياد مراسم من الصوم ، وطقوس من التطهير تشبه هذه الطقوس التي كانت تذكرنا بقصة أتّيس وما اليهـــا من نوح النائحين وندب النادبين ، وتشويه الرافضة اجسامهم بصورة وحشية تقشعر منها الابدان ، خلال حفلة الجنائز ، تمازجها قهقهات صاخبة من الضحك خلال تمثيـل عملية قيامها من بين الاموات . والحفلة الوحيدة المعروفة تفاصيلها لدينا بالتدقيق ، هي تلك الحفلة التي كان يرافقها ذبيحة الثور *Taurobole* او الكبش *Criobole* ، اذ كانت ترمز الى انتقـــال عنصر الحياة من الضحية الى الانسان الذي يُنضح بدمائها ، فيكون ذلـك عربوناً لخلوده ، ويُرمز الى دفنه في القبر بوجوده في حفرة ، والى تنقيته من ادران الخطيئة وتجدده ثانية . كما ان في ذلك إشارة الى الولاء السياسي وان كنا نجهل وجه الرّمز في هذه الضحية التي كثيراً ما تُقدّم لخلاص الامبراطور ، واحياناً لخلاص افراد أسرته .

وكان يشارك سيرابيس في هذه العبادة ، الإلهة المصرية إيزيس التي ما لبثت ان تغلبت عليها . فبعد ان حظّر كل من اوغسطس وطيباريوس الاحتفـــال بمراسم هذه العبادة في روما ، راح كاليغولا يعترف لها بحق المواطنية . ومنذ ذلك الحين احتـُفِل بأعيادها وطقوسها بكل حرية دون ان يثير الاحتفال بها أية معارضة . وما ان أطلت سنة ٦٩ حتى كان لها هيكل ارتفع على هضبة الكابيتول . واضطر يوماً الامبراطور دومتيانوس ان يتنكر بزي أتباع ايزيس لينجو من مطاردة جنود خصم ابيه له . وكانت مناسبة الاحتفال بأعيادها مجلى لحشود شعبية ضخمة ، ويقوم على مراسمها طغمة من الكهان بثيابهم البيضاء ، حالقي الشعور ، يسيرون وئيداً ويقيسون خطاهم على وقع انغام الزمر والقيثارة . فتعتري الجميع هزة من الغبطة والفرح بعد بكاء ايزيس وذرفها الدموع سخينة على جثمان اوزيريس . وكانت تقام مع هذه الاحتفالات اسرار من شأنها تأمين الحياة في دار البقاء للمريدين . واذا كانت هـــذه الطقوس تفرض على المؤمنين واجبات قاسية وفرائض شديدة من الوضوء والتطهيرات ، كالاستحمام في مياه نهر التيبر خــلال فصل الشتاء القارس ، فقد كانت ، من جهة ثانية ، تعبيراً ، ولا شك ، عن كفّارة تعيد الى الخطاة نقاءهم الروحي . وكانت ايزيس تبرز للناس : الإلهة المثلى بين اناث الآلهـات ، وذلك حسبما تصورها

التقاليد المتوارثة، في حنانها الاموي وضراعتها القوية. وكان اتباعها يقومون بعملية إزالة هذه الفوارق في ما هو لصالح هذه الإلهة. «ها انا ذا»، نراها تؤكد في آخر اسرار *Métamorphoses d'Apulée*، قبل ان توحي الى الحمار لوسيوس الممسوخ، بكيفية استرجاعه شكله وقوامه البشري ... «ها انا ذا» القادرة، الوحيدة التي تعمّ عبادتي الارض كلها بأشكال مختلفة، وطقوس متباينة، وتحت مسميات لا حد لها ولا عدد، بعد ان عُرفت بأسماء: سيبيل، ومنيرفا، والزهرة، وديانا، وبروسيربين، وسيريس، ويونون وبللونا، وهيكاتا ونميزيس.

لنضرب صفحاً هنا عن الإلهة السورية أترغاتيس هيرابوليس، وقد راحت زمرة من الخصيان تطوف المقاطعة تجمع لها، على نغم المزمار، التقادم والعطايا التي يجود بها المتعبدون لها. كذلك، لنضرب صفحاً عن الإله الساميّ الاصل: بَعْل، بأشكاله وصوره المختلفة، منها بعل حمص الذي رُفِع، لفترة قصيرة، الى مصافّ الآلهة العظام في الامبراطورية، وعقد قرانه على الإلهة شلسلس، أي الإلهة تانيت، إلهة قرطاجة، وذلك بفضل عبادة وغيرة رئيس أحبارها: إيلاغابال *Elagabal* الذي تولى، من سنة ٢١٨ - ٢٢٢، مقاليد الامبراطورية الرومانية. الا ان التطور العظيم الذي عرفته هذه العبادة فيما بعد، يحملنا على ان ننوّه هنا باسم الإله ميترا *Mithra*.

هو إله فارسي المنشأ ومن المرتبة الثانية بين آلهة الايرانيين القدامى. وقد تطورت عبادته فيما بعد بما أضيف اليها من لواحق وزوائد اقتبسها من الطقوس الأسيوية الساميّة. وقد تجلى للناس كالنور والشمس، وارتبط اسمه بالنظام الكوني، يحمل بين يديه الظفر والخلاص كما يهب الفضائل الكبرى: كالحقيقة، والولاء، والإخاء، واحترام القسَم. وقد انتشرت عبادته فعمّت جميع انحاء الامبراطورية، وأقيم له، بفضل العناصر الشرقية العاملة في الجيش الروماني، من الهيا كل والمعابد ما نعجب لكثرتها في ضواحي نهري الرين والدانوب. وقد كان له بالطبع أتباعه ومريدوه الكثر في روما، بحيث ان الامبراطور كومود همّه أن يشترك في اسرار عبادته ويدخل عضواً في هيئاتها. وكثيراً ما كانوا يعبدونه في المغاور والمنحنيات المعزولة عن الناس، فتبرز ناتئة صور الاله الشاب مرتدياً ثياباً شرقية ومعتمراً قبّعته الفريجية بعد ان أرغم الى الارض ثوراً ضخماً وأدماه. وبعد مدة طويلة من الاختبار يمر بها المريد، يخضع لمراسم أشبه ما تكون بمراسم العماد، واذ ذاك فقط يحق له الاشتراك عملياً بالاحتفالات الطقسية وما يتخللها من ولائم. وكانت عملية الاطلاع على اسرار المذهب لا بد ان تقطع سبع مراحل او مراتب هي مرحلة: الغراب - الخاتم - الجندي - الأسد - الفارس - بريد الشمس، الى ان يصل في خاتمة المطاف الى «ابي الآباء». وكل مرتبة من هذه المراتب توجب على صاحبها واجبات ادبية ومراسم طقسية عليه ان يتقيد بها بدقة. وكان يترتب على الضالعين في اسرار عبادة هذا الاله ان يتحلّوا بالصبر، ومجالدة النفس، وطول الأناة بحيث يُسهمون في إعلاء الخير على الارض، لينالوا المثوبة التي عرفوا ان يستحقوها، يوم الدينونة العظيم، برئاسة الاله ميترا.

وهذا النجاح العظيم تلقاه عبادة هذا الإله جاء صدمة عنيفة للعرف العام اذ جاء دليلاً ، اذا ما اعوزنا الدليل، على مدى النوازع الدينية في الامبراطورية الرومانية وإقبالها بتوق، على تمجيد وتبني إله، وتعاليم دينية اقتبستها من ايران وهي اذ ذاك اعدى اعداء الامبراطورية الرومانية ، واحاطته بمثل هذه المظاهر من التبجيل والتكريم ، وأحلته من آلهتها مثل هذا المحل الرفيع . وقد حملت عبادة هذا الإله الاجنبي المنشأ، الغريب الاصل، معها، للنفوس العطش وللقلوب الظمأى تقوى حية ، وسمواً في الآداب والاخلاق لم نعرف له مثيلاً عند الرومان من قبل . ومنذ القرن الثاني اصبح الوثني شخصاً نكاد لا نميزه ولا نتبين معالمه . فهو انسان يختلف تماماً عما كان عليه في زمان كاتون، حتى وفي عهد اوغسطس نفسه.

٣ـ الديانات الموحّدة وأتباعها

الشرك والتوحيد

هذه المستحدثات الدينية تمثلت في ديانتين رأتا النور في الشرق ، هما اليهودية والمسيحية . فكيف نفسر ، والحالة هذه الموقف العدائي الذي وقفته منها الامبراطورية الرومانية ، بعد الموقف اللين، العطوف ، الحليم ، الذي وقفته من الديانات الشرقية الاخرى ؟ فبعد ان وقفت منهما هذا الموقف الخشن والعنيف احياناً ، عادت فألانت لهما الجانب وتركت لهما مجال العمل حراً طليقاً وعملت على تشجيعهما . فبعد ان وقفت من اليهودية والمسيحية موقفاً متساهلاً في بادىء الامر ، عادت فقلبت لهما ظهر المجن ولجأت الى القوة والعنف للحد منْ انتشارهما .

فالمنطق السليم يدعونا للظن بان ما امتازت به هاتان الديانتان من طابع التوحيد الذي فردّهما ، جعلهما غير مقبولتين لدى الوثني المشرك. فقد كان يسلم بآلهة غير الآلهة التي يعبدها شريطة ان يسلموا هم بالآلهة التي يؤمن بها هو ويقول بوجودها، اذ ان تعداد الآلهة وتنوعها من شأنه ان يفتح المجال اما للانتقاء والاختيار بين هذا العديد من القوى الفائقة الطبيعة، ولكل منها قيمته ومنزلته ، يمكن التوحيد بينها في عملية إزالة الفوارق المتضادة وبالباسها شيئاً من الصفاتية المشتركة، نسج خيوطها الاغريق من قبل، ونسج على المنوال نفسه الرومان من بعد . فليس شيء من هذا مع التوحيد او عقيدة وحدانية الله ، وهو قول يجمع في نظر المشرك الخطل في الرأي ، والعناد المتشاوف والتعصب الشديد . ففي هذه المقالة نفي جذري وحكم قاطع ، لا استئناف فيه ولا تمييز، في نظر القائلين بوجود آلهة اخرى، فضلاً عن ان رفض عبادة الامبراطور من شأنه ان يخرج الحكومة عن موقف اللامبالاة تقفه ازاء الاديان .

فاذا ما اخذنا بهذا التعليل والتخريج نكون اعطينا أهمية كبيرة لمتناقضات متماندة نظرياً. فالتاريخ السابق لليهودية وضع ملوكاً فاتحين امام مشاكل من هذا النوع، قبل ان يواجه الرومان شيئاً منها ، وقبل ان يُعنّي الاباطرة الرومانيون انفسهم بها ، كما ان أمثلة مستمدة من تاريخ الامبراطورية الرومانية تنطق جلياً بما تم من تسويات في مثل هذه الظروف العارضة. فالاصطدام

الاشد خطراً انما قام فعلاً ، على صعيد أدنى بكثير ، ونشأ من مواجهـــة وضع بعينه قائم في ماجريات الحياة اليومية . فالحقد والعداء ، كثيراً ما ظهر من الجماهير التي تنكرت لغرابـــة الطقوس الجديدة والتعاليم الاخلاقية فأحدثت فيها صدمة دونها بكثير الصدمة التي أحدثتها التعاليم الدينية المستحدثة . فالحكومة تستجيب عادةً لردة الشعب وقلّ ان تسبق الجماهير الى الخطوات الاولى ، فلا يستحوز عليها القلق . ويضطرب منها البال بصورة عفوية وبغير حدوث سجس او اضطراب الا عندمــــا تأنس خطراً كبيراً يهدد مصالحها السياسية ، ومثل هذا الأمر لم يحدث الا ما ندر .

اليهودية واليهود

وعذر اليهود ، في نظر الرومانيين هو انهم يعبدون إله آبائهم . فكان تمسكهم العنيد بالناموس وبشريعتهم، هو مثار فخارهم عبر التاريخ الذي ربطهم بروما منذ القرن الثاني قبل الميلاد . فقد عرف زعماؤهم ان يؤدوا لهم خدمات تذكر وان يظهروا ولاءهم في الوقت المناسب: لقيصر اولاً ولاوغسطس ثانياً ، خلال الحرب الاهلية التي مزقت البلاد، فقدر لهم اوغسطس موقفهم هذا وبدا نحوهم متسامحاً ، لين الجانب احياناً .

إلا ان خلفاءه من بعده احتلوا بلادهم واضطلعوا فيها بمسؤولية الادارة بينما حرص اوغسطس ان يترك شؤونها الداخلية لملوك توابع . وقد جاء تعيينهم لبعض الولاة غير موفق، لا بل سيء الطالع ، كثير الشؤم، اذ كان لا بد للحاكم الروماني من لباقة ومقدرة ادارية تقـــارب الاعجوبة ليستطيع معهـــا تفادي الاحداث لكثرة الاسباب التي تولدها . وقد توزع اليهود الى شيع وانقسموا فيما بينهم الى طوائف عديدة متشابكة متداخلة ، اقامها بعضاً على بعض مـــا بينها من اختلاف في الرأي والنظر، حول قضايا كثيرة تتعلق بالعقيدة والتشريع وطقوس العبادة لدرجة نعجز معها عن تعدادها والتعريف بها. من بين هذه الفرق: فرقة الفريسيين وفرقة الصدوقيين[١]. فقد عرفت الاولى بتصلبها وتمسكها بتفسير الناموس وتطبيقه حرفياً بينما استمسك اتباع الفرقة الثانية بالناموس المكتوب ، ومنها كذلك فرقة الأسنيين (الورعين – القديسين) الذين كانوا يعيشون هانئين ، جماعات معاً ، في عزلة تامة عن العـــالم ويخضعون لنظام وقوانين القت عليها اضواء كاشفة، مجموعة المخطوطات النادرة التي عثروا عليها حديثاً بجوار البحر الميت. من بين هذه الفرق كذلك فرقة المغالين او الرافضة (*Zélotes*) التي عُرفت بشدة طباعها وبحبها للقتال ، الأمر الذي حدا بالرومان الى تلقيب اتباعها بـ القتلة *Sicaires* المشتق من كلمة *Sica* اللاتينية ومعناها : الخنجر ، اذ كانوا دوماً على استعداد لينتضوا الخنجر ويستعملوه للتخلص من خصومهم السياسيين . وقد بلغ من شدة هوسهم وضغائنهم ان راحوا يقذفون الكهنة باقذع التهم ويرمونهم بالخيانة ، والمروق عن جادة الدين اذا ما أنِسوا فيهم ميلاً الى مصانعة الحكم الروماني في البلاد . ولعل ما هو ادهى من هذا كله المنازعات التي كثيراً ما شجرت بين سكان المدن خارج اليهودية ،

(١) نسبة الى صدوق رئيس الكهنة في القدس ، خلال عهد الملك داود .

بين اليهود والوثنيين ادت الى معارك دامية بين الطرفين . ولا بد من الاعتراف هنا ان المحافظة على الهدوء والنظام في فلسطين كان عبئاً ثقيلاً ومطلباً عسيراً ، فلا عجب ، والحالة هذه ، ان تضطر الفيالق الرومانية للتدخل في الامر واعادة الهدوء الى نصابه بدون رحمة او شفقة .

غير ان هذه القضية او قضية اليهود لم تكن مقتصرة على يهود فلسطين . ففي الخارج جوالي عديدة منهم بعد ان بدأ شتاتهم (*Diaspora*) باكراً منذ القرن السابع قبل الميلاد مع سبي العديد منهم الى بابل . وقد ازدادت حركة تشتتهم اتساعاً مع توالي الحكم الاجنبي على فلسطين وانتقاله تباعاً الى الفرس ، فالبطالسة فالسلوقيين ، فالرومان . ومنذ انتهاء العهد الجمهوري ، كان يوجد في معظم مدن الشرق الكبرى جاليات يهودية قامت منها في روما نفسها جالية مهمة تجاوز عدد افرادها الألوف ، مما حمل طيباريوس اولاً ثم الامبراطور كلوديوس على اتخاذ تدابير شديدة ضدهم ، منها النفي والاجلاء ، دون ان يكون لها تأثير يذكر . وبلغت هذه الجوالي شأناً كبيراً في عواصم الشرق الكبرى كانطاكية ولا سيا الاسكندرية الواقعة على مقربة من فلسطين . وقد اخذت هذه الجوالي ، منذ عهد بعيد ، بالجانب الثقافي من الحضارة الهلينية حتى ان بعض افرادها وقعوا تحت تأثير الفلسفة والادب اليونانيين وهذا يبدو واضحاً في آثار فيلون الاسكندري الكتابية اذ راح في القرن الاول ، يفسر حوادث التوراة تفسيراً مجازياً ، منها ظهور يهوه ومداخلاته في شؤون بني البشر . وهكذا توصل بفضل ما اقتبس من نظريات افلاطون وزينون الفلسفية ان ينسخ كل اتصال مباشر لله مع العالم الخارجي . ومع ذلك بقي عدد المارقين والمعطّلين ضئيلاً جداً ، بينما راح السواد الاعظم من اليهود في الشتات يعتصمون باهداب الدين ويستمسكون بالناموس الاسرائيلي . ولذا لم تذب هذه الجوالي في الاوساط والمجتمعات التي عاشت بينها ، حتى في حال تمتعها بالرعوية المحلية والرومانية منها . فليس بعجيب قط ، ان يشعر نحوها سكان المدن ، ولا سيا اليونان منهم بشيء من الكره والاحتقار ، بالنسبة لاخلاقهم وعاداتهم الخاصة ، دون ان نرى اثراً لاي عاطفة او شعور تم عن قطيعة اقتصادية . حدث ولا شك في ذلك ، ارتدادات بين الوثنيين اعتنقوا اليهودية . ولكن ليس عندنا اية فكرة عن عددها : اكثيرة كانت ام نادرة ؟ ولعل هؤلاء المرتدين قد اقتصروا إجمالاً ، بسبب الختان ، على ان يكونوا في عداد « خائفي الله » بعد ان أُخذوا بالديانة اليهودية ، فقنعوا منها ببعض التعاليم والوصايا ليس الا . وقد بقيت غالبية السكان في المدن تكنّ لليهود بغضاً وعداءً ، كثيراً ما ادى الى مشاجرات لم تكن بذات بال الا انها لم تلبث ان استحالت الى اشتباكات دامية . فقد ارسلت كل من جوالي اليهود والاغريق في الاسكندرية ، وفوداً معاكسة ، الى الامبراطور كاليغولا ، يرأس الاولى فيلون ، ويرأس الثانية العالم اليوناني أبيون . وكم رأى ولاة الرومان انفسهم مضطرين للتدخل لاعادة السلام الى نصابه والأمور الى مجاريها بين الكتل والفئات اليهودية التي شجر بينها من الخلافات ما عكر صفو الأمن ، قام بعضها من جراء الكرازة بالنصرانية الناشئة حديثاً .

وبالاختصار ، فقد كان اليهود في نظر السلطات الرومانية شعباً صعب المعاشرة ، صعب

الانقياد والحكم، كما كانوا من جهتهم، برمين بسيطرة الرومانيين عليهم يستثقلون ظلها ويتحينون الفرص السانحة للتخلص منها . فهل نعجب ، بعد هذا ، من هذا التكالب وهذا العناد يظهره كل فريق ضد الآخر ، في هذه « الحرب اليهودية » التي نشبت بين الفريقين . قام منها إثنان في فلسطين نفسها، دامت الأولىمنها من سنة ٦٦ — ٧٠ وانتهت بسقوط القدس بيد القائد الروماني تيطس ، بعد حصار عنيف مميت امتد بضعة أشهر، استسلمت بعده المدينة وراحت طعماً للسلب والنهب والحرق والهدم . اما الثانية ، فقد وقعت في عهد الامبراطور هدريانوس ، واستمرت من سنة ١٣٢ — ١٣٥ ، بقيـــادة « امير اسرائيل » شمعون بن كوزيبا الذي رأى فيه مواطنوه : المسيح المنتظر الذي يخلص شعبه . وقـــد حدث في فترة ما بين الحربين ان اضطر الامبراطور ترايانوس الى وقف حملته ضد الفارثيين ، ليتفرّغ الى إخماد فتنة واسعة قام بها اليهود في جميـع مدن الشرق ، بين سنة ١١٥ - ١١٧ . وقد جرى الدم أنهراً في كل من هذه الحروب العنيفـة . ويروي لنا ديون كسّيوس كيف ان يهود القيروان ثاروا في عهد ترايانوس ، و « ذبحوا الرومان واليونان وأكلوا لحومهم ، وتمنطقوا بامعائهم ، ونضحوا أجسامهم بدمائهم ، وصنعوا لهم ألبسةً من جلودهم ، ونشروا من الوسط عدداً كبيراً منهم ، وعرّضوا جماعات عديـــدة منهم للسباع والضواري ، وأرغموا بعضاً منهم على العمل مصارعين في حفلات وملاهي المصارعة » . وهكذا فقد فتكوا بأكثر من ٢٢٠ ٠٠٠ منهم ، بعد ان فقدوا هم في حروبهم ضد هدريانوس ٥٨٠ ٠٠٠ قتيلاً ، ما عدا الذين قضوا نحبهم « جوعاً او حرقاً بالنار » . ومهما يكن من تجسيم هذه الارقام ، فهي تعطينا، مع ذلك فكرة صحيحة عن هذه الوحشيةْ والفظاظة التي اصطبغت بها هذه الحروب التي رأى العالم الروماني نفسه امام اليهودية ليس كديانة فحسب ، بل كقومية تمثلت في مثل هذا الشعب ، وهذه الامة، وهذه المدنية الاسرائيلية.

اما النتائج فقد كانت خطيرة، فادحة. فقد اتسع شتات اليهود، ونجا كثيرون منهم بأنفسهم ورحلوا عن فلسطين . وحل محلهم فيهـا اقوام جديدة من عروق مختلفة . وقد قام محل القدس التي حُظّر على اليهود دخولها الا مرة واحدة في السنة ، مدينة جديدة عرفت باسم : « إيليا (١) كابيتولينا » وشُيد فيها هيكل لجوبتير ، في المحـــل الذي كان فيه هيكل سليمان . وأحيوا في المدينة الجديدة عبادة الامبراطور ونصبوا تمثال الزهرة عشترت فوق جبـل الجلجلة . وأجبر اليهود في جميع أنحاء الامبراطورية على دفع رسم معين ، بدلاً من الرسم الذي كانوا يدفعونه من قبل للهيكل، ويذهب لخزينة الدولة، وهو رسم زهيد للغاية : لا يزيد على عُشر الدراخم الواحد أي ما يوازي لفرنكين فرنسيين ، في عام ١٩١٤ . وبذلك تمكنت الدولة من احصاء عدد اليهود في الامبراطورية ومن مراقبتهم مراقبة شديدة . وقد حُظّر عليهم البطالة يوم السبت كما حُظّر عليهم الختان ، وهي مراسم كثيراً ما أثارت حفائظ الناس عليهم وأهاجت الشعب ضدهم . إلا

(١) هو اسم اسرة الامبراطور هدريانوس قبل ارتقائه العرش .

ان الامبراطور انطونين رأى من الحكمة التخفيف من حظر الختان – بالرغم من بعض الاضطرابات التي قام بهـا اليهود – وأقصر مراسمه على اليهود وحدهم الذين يستطيعون ان يبرهنوا عن صحة محتدهم . كذلك حظر عليهم القيام بأية دعوة او دعاوة للدين اليهودي .

المسيحية واليهودية

وهذه الدعوة كان قـد امتنع عليهم القيام بها امام التوسع والانتشار الذي حققته ديانة جديدة أطلّت على العالم من بين قمط اليهودية ، فاطّرحت جانباً طقوسها المتعارفة وقطعت كل صلة لها او نسب مع اسرائيل .

وعندما قام يسوع يبشر العالم بالدين الجديد، في عهد الامبراطور طيباريوس، ظن كل من سمع بخبر الكرازة الجديدة ، بما فيهم الوالي الروماني بيلاطس البنطي الذي صادق على الحكم بالموت – هذا الحكم الذي أصدره عليه رئيس المجمع اذ ذاك قيافا – ان الامر لا يتعدى ظهور شيعة يهودية جديدة . وهو أمر لم يأت عندهم بشيء جديد ، وطالما خبروا منه مثل هذه الدعوات ، بين شعب حرص دوماً على بقاء العاطفة الدينية مشبوبة بين بنيه ، وحرصت كتبه المقدسة على تغذية نفوسهم بأمل مجيء المسيّا ، وفي امة أطلعت على مر السنين ، مثل هذا العدد من الشيَع والملل . ولم تكن الشيعة الجديدة، لتختلف ، في مناهج دعوتها وانتشارها وفي اوليات تعاليمها، ظاهراً ، كثيراً عما عرفنا من شؤون الشيع اليهودية الأخرى . وقد راح أولوا الامر والمسؤولون عن شؤون الشعب اليهودي ، يحكمون بالصلب على المسيح ، تفادياً منهم لحركة انشقاق وقيام اضطرابات بين الشعب ، للحد من دعوة ناشطة رأوا فيها الخطر كل الخطر عليهم ، وقد فاتهم ، في تصرفهم هذا التصرف انهم يبتدعون جديداً .

ففي كل بساطة ودعة ، قام يسوع يعلن للناس من ذوي المسرة ، عواطف نبيلة : اقتراب يوم الدينونة ، ممهداً الطريق امام ظهور ملكوت الله ، محبة الله ومحبة القريب ، الايمان الحي ونقاء القلب وطهارة النفس من كل رجس ، وكلها تعاليم افضل من التمشي على طقوس حرفية . وعلى هذه البشارة الجديدة والمبادىء التي عمل بها وعلم، وختم على صدقها بدمه وايدها بقيامته من بين الأموات ، اسس اتباعه إيمانهم ، وهو ايمان، اهل لعمري ، بان يغري على اعتناقه واتّباعه، البشر من اي امة كانوا ، ومهما كانت تربيتهم السابقة . كل هذا كان يقتضي له بالطبع ، تحديد مفهوم بعض الاشياء وتوضيحها وإغنائها ، وان يوسع نطاق الدعوة والكرازة بالدين الجديد الى مجالات اوسع من اليهود ، بعد ان اقتصرت الدعوة في بادىء امرها عليهم وحدهم .

وفي سبيل هذا التطور ، قام بولس بالخطوة الحاسمة ، وهو يهودي من ابناء الشتات ، ولد في مدينة طرسوس من اعمال كيليكيا ، حيث كان ابوه ينعم بالرعوية الرومانية . كان يزاول مهنة صنع المضارب او الخيام ولا يزال الجدل يرتفع بين العلماء والمؤرخين حول نوع التربية التي تلقاهـا والمؤثرات التي تأثر بها قبل اعتناقه المسيحية ، ومـــا تدين له المسيحية من اثر الفلسفة والديانة الهلينية . ومهما يكن من الأمر ، فمن الثابت انه راح يبشر الامم، فروّل في هذا السبيل، وحمل

الناس على رَذْل الناموس اليهودي لانه لم يعد صالحاً للاستعمال ، لا يفيد بل يضر . فالقطيعة لم تتم دون ان تحدث مشاقات بين جماعة المؤمنين الاول والكنيسة التي انشأوها في القدس وملأتهم غماً. وقد سهّل القطيعة، الاضطهادات التي تعرض لها المسيحيون من قبل السلطات الدينية. وكان من جراء الحرب اليهودية الاولى ان حملت جماعة النصارى المتهوّدين على الفرار من القدس واللجوء الى بعض المدن الشرقية حيث بقيت جواليهم، عدة قرون، بين بين، لا نصارى معروفين ولا هم بيهود . ولولا هذه القطيعة لبقي باب المستقبل موصداً امام الديانة الجديدة . وقد انفتح هذا الباب على مصراعيه بفضل النشاط الذي بذله بولس . ولم تعتم ان رسّخت العقيدة الجديدة أقدامها في سوريا وآسيا الصغرى اولاً ، ثم في مقدونيا وبلاد اليونان ، وحملها الى روما مبشرون نجهل امرهم قبل ان يصلها بولس ، حوالى عام ٦٠، ويَمْثُل امام«قيصر» ليحاكم، أي امام والي الولاية ، بناء على طلبه بعد ان ابرز رعويته الرومانية .

اضطهاد نيرون

طبيعي ان تحتاج الحكومة الى بعض الوقت لتستطيع التمييز بين المسيحيين واليهود . فقد اختلط الامر على الامبراطور كلوديوس نفسه ، عام ٤٩ ، اذ راح يأمر بنفي اليهود من روما وابعادهم عنها لما « سببوه فيها من الاضطرابات بسبب المدعو المسيح » . اما خلفه نيرون فقد كان اكثر احاطة بالامر واطلاعاً عليه ، ربما عن طريق محظيته بوبيه *Poppée* التي تزوجها فيما بعد، والتي قُيّض للمؤرخ فلافيوس يوسيفوس ان يلقاها في احدى وفاداته الى روما، ووصفها بانها «تبارك الله» اي انها على عادات اليهود ، كما هو مرجح . وبالفعل فقد عرف نيرون ان يميز المسيحيين لما هم عليه من وضع متميز، حتى جعلهم مسؤولين عام ٦٤، عن الحريق الذي شب في المدينة ، اذ ذاك ، والتهَم جانباً كبيراً منها .

وشهرة الحادث بعينه لا تمنع من بقائه غامضاً جداً. فكل محاولة لإلقاء بعض الأنوار الكاشفة عليه هنا، لا تفيد شيئاً لا بل هي مضيعة للوقت . فالجماهير كانت تحمل البغضاء للمسيحيين لأنها كانت تجهل عنهم كل شيء . وكانت تحمل البغض ذاته لليهود الذين لم يكونوا احسن وضعاً بالنسبة لها ، حتى في عهد ترايانوس ، اذ راح المؤرخ تاسيت ، الذي كان في وضع يمكنه مع ذلك من الاطلاع على الحقيقة ، يأخذ بالأقاويل المغرضة والتهم التي يعزونها جزافاً الى هؤلاء واولئك على السواء دونما تمييز ، وينسب اليهم جميعاً « الحقد » الذي يحملونه على الناس أجمعين . ومع ذلك، فقد كانوا يعرفون ان بين الجماعتين أكثر من فارق يميز بينهما، وبالرغم من الجدل والمناقشات التي دارت حول الموضوع اذ ذاك، وأكثر الاحتمالات اخذاً بالتصديق ، راح الامبراطور نيرون، تفادياً لنقمة الشعب وغضبه من جراء الحريق الذي التهم روما، والذي اتُّهم به هو نفسه، ينسب هذه التهمة لأقل هذه الفئات عدداً. فاذا لم تأت المبادرة من الجماهير فقد عرف ان يستغل البغض الذي كانت تجيش به ضدهم .

ومن الثابت ، على كل حال ، ان الاضطهاد الذي اعلنه انما اقتصر على روما وحدها ؛ وهذا

ما يقلل من قوة عبارة تاسيت عندما يؤكد : « العدد الغفير » ممن اكتووا بلهيب هذا الاضطهاد الدامي، وهو اول اضطهاد يعلن عن سابق قصد وتصميم، وينفذ بمنهجية، تميزت بأساليب التعذيب وأفانين العذابات التي اخضعوا لها المسيحيين. وهل من بأس في الامر، بعد ان اصدر الامبراطور مرسوماً اعتبر جناية تستوجب الموت، مجرد اعتناق المسيحية. وهكذا فقد كان قرار نيرون فاتحة عهد وبدء تاريخ طويل مديد، من التعصب الديني عبر الاجيال.

الاسرة الانطونية والمسيحيون

فالاجتماعات التي كان يعقدها المسيحيون سراً، وإعراضهم عن المناصب الاجتماعية وبهارج هذه الحياة، ومقاطعتهم العلنية لكل التقاليد المتوارثة، والتأثير على الموعوظين من غير اليهود للنسج على منوالهم، وعدم اشتراكهم بعبادة الامبراطور، والدعاية التي كان يشنها بعضهم ضد الزواج والحياة العسكرية، كل هذه الأمور وما اليها، أدخلت القلق على أولي الأمر، في عهد الأسرة الانطونية. فقد كان متوقعاً من واحد من أتباع الفلسفة الرواقية، كمارك اوريل مثلاً، ان يقدّر عالياً قوة ارادة الشهداء وحماستهم، ومع ذلك فلم يستطع ان يرى في مثل هذا التصرف سوى مظهر من مظاهر التعصب الذميم، وطريقة دعائية ليس إلا. « أي نفس هذه، يا ترى، التي تأنس من ذاتها القدرة على الزهد بالحياة والتخلي عنها في الحال؟ قلت القدرة، وعن سابق قصد وتصميم، لا عن عناد او اصرار، بل عن طيبة خاطر، كما يفعل المسيحيون، بحيث يؤثر اقناعهم ويقينهم الوطيد، على الآخرين، بدون زهو منهم او مباهاة ». كما جاء في مذكراته، بالحرف الواحد. فالمسيحيون لم يأتوا بحركة ابّان « الحروب اليهودية » ؛ هنالك، الى هذا شعور، بالعدالة وبالكرامة الانسانية، كان يجول في خاطر الحكومة ويحملها على سلوكها هذا المسلك. وفي هذا ما يكفي لحملها على التحلي باللين والحلم.

فاذا صح ان الامبراطور نيرون استند في المرسوم الذي أصدره الى الجريمة التي عزوها الى المسيحيين كما يؤكد ترتليانوس ذلك، وان دومتيانوس تأثر بهذا المرسوم الى حد بعيد، فقد ألغت الأسرة الانطونيـة المرسوم المذكور وأبطلت كل مفعول له. وعندما راح بلين الاصغر يستفتي صديقه الامبراطور ترايانوس، الموقف الذي يترتب عليه وقوفه حيال المسيحيين الموجودين في ولاية بيثينيا، بلغه رد الامبراطور بألا يسعى اليهم، وألا يكترث بالسعايات الغُفل التي ترده ضدهم، وألا يصدر أي حكم على من لا يرضى منهم بالصلاة للآلهة. فاذا ما راح، بعد هذا، يحتاط لسلامة الاجراءات القانونية فلأنه بقي يرى في اعتناق المسيحية جرماً يعاقب عليه القانون. إلا ان مثل هذه الخيطة زالت في عهد هدريانوس، عندما أصدر امره لوالي آسيا بألا يحكم إلا اذا وجّه بعضهم اتهاماتهم الى أشخاص بالذات، وجاؤوا بالدليل على مخالفتهم لقوانين البلاد، كما حرص على ان يأتي القصاص معادلاً « لأهمية الجرم » المقترف عمداً وعن سابق تصور وتصميم. وقد حافظ الامبراطور انطونين *Antonin* على هذا المبدأ، وان لم يكن لدينا أي برهان حسي يخولنا الجزم بأن مارك اوريل ألغاه بالفعل.

ومع ذلك، فالأحكام بالموت لم تقل في عهد الانطونيين. فالتقليد المتبع في إحصاء سيّر

القديسين الذين استشهدوا في عهد كل من الاباطرة ، هو أن يصار الى وضع قائمة متصلة بهم ، لا يستطيع النقد الصارم ، مهما تشدد واقتطع من نوافل الاوصاف والاستطرادات التي زينوا بها قصة استشهادهم ، ان يدعي بطلانها او يقول بعدم صحتها . وقد اكتظت القوائم التي وضعت في عهد مارك اوريل بأسماء الذين بذلوا حياتهم في سبيل دينهم واستشهدوا من المسيحيين . فقتل ٤٨ شهيداً في مدينة ليون، عام ١٧٧، بينهم الأسقف بوتين الذي مات في زنزانته ، وله من العمر ٩٠ سنة، بينا الأمة الشابة بلاندين التي عرّضوها عبثاً لفتك الاسود الضارية، أجهزوا عليها بضربة سيف وهي في الحلبة، ثابت بفضل وثيقة تاريخية لا يمكن دحضها او تجريحها، هي الرسالة التي بعث بها شهود عيان هم خدام المسيح ، القاطنون في مدينتي فيينا وليون ، في غاليا الى إخوتهم بالرب، في آسيا وفريجيا. ولا سبيل الى الانكار ان الامبراطور مارك اوريل وافق على هذه المجزرة وأقرها بعد ان عرض حاكم المدينة الامر عليه، اذ كان بين المحكوم عليهم واحد يحمل الجنسية الرومانية، أجلسوه على صاج أحمي على النار ثم اجتزّوا رأسه .

فهل يحمل الامبراطور الفيلسوف انطونين ، كما يلقبة التاريخ ، وزر الجريمة والمسؤولية المترتبة عليها ، كما يحمل خلفاؤه جريرة الشهداء الذين قتلوا في عهودهم ؟ لا شك في ذلك ، إنما بنسبة ما سمحوا ، لدى مراجعتهم واطلاعهم على إنزال ما أنزلوه بهم من آلام مبرّحة ، ومثلوا بهم مثل هذا التمثيل الوحشي ، دون ان يأمروا بملاحقة الذين اتوها . غير ان معظم تراجم هؤلاء الشهداء ترد ، في معرض وصفها لعملية استشهادهم بكل إسهاب وتفصيل ، هذا كله ، لحماسة الجماهير وهيجانها وهي تطالب ، بالحاح ، ملاحقة المسيحيين . فلم يتمكن الحكام ، امام هذه المظاهرات العدائية الصاخبة إلا ان يرضخوا ، على اقدار من التواطؤ معهم ، تقل او تكثر، حتى اذا ما رُفِع الامر الى الامبراطور وجد نفسه مسوقاً تحت ضغط الشارع ، للنزول عند الطلب . فالرأي العام بقي ، في كل مكان تقريباً ، معادياً للمسيحيين . ويطالع المرء بشيء من الذهول ، التهم الدنيئة يلصقونها بالمسيحيين ، وما نسبوا اليهم من اعمال الفسق والفجور ، التي لم يتورع أناس مستنيرون امثال الكاتب الروماني فرونتون ، وهو من مشاهير رجال الفكر، اذ ذاك ، ومن اقرب المقربين الى الامبراطور انطونين ومن جاء بعده ، من الأخذ بها وتأكيدها . فأمام الكوارث والتهديدات التي اخذت تتراكم على الامبراطورية، في النصف الثاني من عهد الامبراطور مارك اوريل ، لم يستطيعوا ان يقاوموا الاغراء بعزو هذه الامور، الى غضب الآلهة واستيائها من كفر خصومها ، وعدم اعترافهم بها واحتقارهم لها : هنالك قوى مجتمعة ، مادية وسيكولوجية على السواء ، لا يستطيع اشد السلاطين والملوك استبداداً وبأساً ، ان يوقفوها او يحدّوا منها ، لا سيا عندما يرون في مسايرتها والنزول عندها ، المثال الصوري للتقوى والتقرب الى الآلهة والتسليم بالاساطير المحكية عنها .

اسباب هذا التقدم والنجاح

وهكذا لم نلبث ان رأينا ترتليانوس ، يكتب في سنة ١٩٧ ، في كتابه : « ابولوجيا » او الدفاع، العبارة المشهورة : « دم الشهداء بزار المسيحية » (*Semen est sanguis Christianorum*) . فللاستشهاد سيكولوجية خاصة هي

واحدة في كل زمان ومكان ، خالدة . فالاضطهادات الدامية التي أنزلوهـا بالمسيحيين تلقي نوراً ساطعاً على هذه القضية وتضفي عليها ادق المعلومات واوسعهـا . فالنخبة بين المسيحيين كانت تنظر الى العذابات التي ينزلونها بها ، نظرتها الى معركة يخرج منها الشهيد ظافراً ، مكللاً باكليل المجد،لانه « فاز برضوان الله » ونال الغفران الكامل عن كل خطاياه، وتأكد عنده الفوز بالحياة الابدية الخالدة . فلا عجب ان نرى بينهم من يجودون راضين مرضيين ، بارواحهم في سبيل هذا الشرف المؤثل ، وفي سبيل هذه المغانم ، أمثال هؤلاء المسيحيين الذين تقدموا ، في عهد كومود، من الحاكم الروماني ، في آسيا ، باعداد غفيرة للشهادة ، حتى اذا ما حكم بالاعدام على فريق منهم ، رد الآخرين بعنف ، داعياً لهم الى شنق انفسهم والى الانتحار ، مع العلم ان تعاليم الكنيسة الصحيحة كثيراً ما شجبت مثل هذه الغيرة الزائدة . اما في نظر الذين لم يعتنقوا بعد المسيحية ، فالاستشهاد وبذل الحياة رخيصة في سبيل الدين هو « شهادة » حتى لصحة دينهم ، كما يدل على ذلك الاشتقاق اليوناني لهذه الكلمة ، اذ كان الاستشهاد حجة على صحة العقيدة وعلى الشجاعة التي يبعثها الايمان الصحيح ، في نفس الشهيد وقلبه ، وبالتالي لصدق الرسالة التي اؤتمنوا عليهـا وراحوا يحملونها .

علينا مع ذلك ، ان نحذر من ان نولي ، اكثر من اللازم ، أهمية كبرى على العامل النفساني والحافز السيكولوجي لتعليل انتشار المسيحية في الامبراطورية الرومانية وتكاثر عدد النصارى، بالتالي ، فيها . ومع انه لا سبيل لاحصاءات دقيقة، يبقى امر عدد الشهداء ، مع ذلك ، قليلاً نسبياً . ثم هنالك أقطار بكاملهـا لم تعرف الاضطهادات الدينية لمدة طويلة ولم تتضرس قط بالشدائد التي انهالت على المسيحيين في غير مكان. ومع ذلك فقد انتشرت فيها المسيحية بسرعة، وعلى نطاق واسع ، فقد كان بلغ عدد المسيحيين في افريقيا حداً بعيداً ، عندما أهرقت فيها دماء الشهداء لاول مرة ، عام ١٨٠ .

والحقيقة التي لا تماري ولا لبس فيها ولا غموض ، هنالك عوامل كثيرة أثرت بعيداً في هذا الأمر . فقد همنا ان نعرف ، على الوجه الصحيح ، المناقب التي ميزت شخصية كبار المبشرين بالديانة الجديدة، والصفات التي توفرت لهم للقيام بمطلب الكرازة الدينية ورسالة حملها الى اطراف العـالم الروماني ، اذ ذاك وكلهـا عوامل واعتبارات ساعدت جدياً في نشر الدين الجديد وتأمين النجاحات الباهرة التي حققها بين شعوب الامبراطورية واقوامها المتباينة عرقـاً ولغة . نحن نجهل كل شيء عنهم تقريباً حتى اسماء الذين نهضوا بهذه الكرازة بعد الرسل . ولذا كان لا بد من ان نعوّل هنا على الاسباب العامة والمميزات المفرّدة التي تميزت بها النصرانية من الداخل اي من ذاتها ، طالما لم تكن الوحيدة ، في الميدان، لتتخذ يداً وحدها ولتستفيد دون غيرها، من إعراض الناس عن الشعائر الدينية، وموقفهم موقف اللامبالاة والاستهتار بالطقوس الرسمية. فقد جمعت الديانة الجديدة جماع الصفات التي توفرت للديانات الشرقية الكبرى فأمنت نجاحهـا وانتشارها : قوة التأثر المنبثقة من حادث موت المسيح وقيامته ، وتعاليم ادبية واخلاقية رفيعة

سامية ، ووعد اتباعها بخلاص الابرار منهم ، واحتفالات مهيبة تحرك مشاعر النفس في المؤمنين . ومع ذلك ، وبالرغم من هـذه العوامل المتشابهة المشتركة ، فالتوحيد الذي علّمت به وعملت، صانها من كل مصانعة خطرة . فقد عرفت ان تتفادى كل حركة التفاف ، او محاولة انصهار او ذوبان، يقوم بها مذهب توحيد الفروق الذي تغلغل في كل الديانات المعمول بها اذ ذاك، محاولاً التلطيف من حدة الفروق التي تباعد بينها . فبعد ان عرفت كيف تكسب مؤمنـاً جديداً ، قلما خشيت من ان تفقده . وهكذا بحرية رأي واستقلال فكر ، راحت تمكّن بصورة اقوى لشرعية مبادئها ، وتنمي ثقتها الوطيدة بالفضائل التي تعمل بها وتعلمها . زد على ذلك ، ان ابوابها كانت مشرعة دوماً للجميع من رجال ونساء ، وكبار وصغار ، دون ان يخضعوا لدور شاق ، صعب ، من الوعظ والارشاد ، فتقدم لهم مجموعة متناسقة من التعاليم العقائدية ومبادىء الايمان ، مبسطة ، تستطيع إشباع كبار الحُجَى ، ويستمرئها ذوو العقول الحصيفة .

النتائج الثابتة

فماذا كان من امر هذه الديانة الجديدة ، في اواخر عهد الاسرة الانطونية ، يا ترى ؟ يؤسفنا وايم الحق، الا نستطيع الحكم الا على انطباعات ترتبط صحتها، الى حد بعيد ، بنسبة ما تؤيدهـا وثائق ونصوص ادبية محفوظة ومصونة تعود لذلك العصر ، وإكتشاف الرقم والنقائش القديمة التي تتعلق ، من قريب او بعيد ، بهذه الامور . ولعل ما هو ادهى من هذا واخطر ، هو ان نخرج من هـذا بما ينفي وجود مثل هذه الوثائق . هنالك لعمري ، مَعَامِل شك او ارتياب يلابس المسح الجغرافي الذي لا بد من ان نستعرض له فيما يلي.

دون ان تكترث المسيحية للحواجز الجغرافية التي انتصبت في وجهها، فلم تلبث ان تجاوزت بسرعة ، من الشرق ، نهر الفرات . وليس ما يشير قط انها رسخت اقدامهـا في المقاطعات الفارسية الاصل، إلا انها تغلغلت بعيداً في اواسط بلاد ما بين النهرين ، وفي مملكة *Osrhoène* ، حتى ان الملك أبجر التاسع كان على وشك اعتناق المسيحية ، وعاصمة ملكه اذ ذاك ، الرُها ، وهو اسم مقدوني الاشتقاق والاصل ، أطلق عليها ، بعد الاسكندر بقليل ، بعد ان عُرفت من قبل باسم *Oshoe* او *Orrhoe* وبالعربية اورفة، التي أصبحت مركزاً لإحدى الكنائس الكبرى في الشرق ، ومنها شعّت اللغة السريانية ، احد فروع الأرامية ، وانتشرت في هذه الأرجاء من الامبراطورية أيما انتشار . ومن الرها تسربت المسيحية الى الشرق ، لتدخل عبر التركستان ، مشارف الشرق الاقصى ، دون ان نتمكن ، مع ذلك، من تتبع الصِوَى التي قطعتها، والمراحل التي سجلتها .

ومع ذلك ، فقد بقيت ، اساساً ، احدى ديانات الامبراطورية الرومانية وان اقتصر انتشارها على بعض ولايات منها لا غير .

اما من هذه الناحية من الفرات ، فقد غزت النصرانية مدن سوريا الكبرى دون الأرياف ، بعكس بلاد الاناضول حيث نرى كرازة الرسول بولس تلاقي نجاحاً كبيراً بين اهل فريجية واهل

غلاطية وانتشرت المسيحية بينهم على نطاق واسع ، ولا سيا بين سكان الارياف . وكان الوضع على عكس ذلك تماماً في الاقسام المتبقية من الشرق حيث بقي انتشار الديانة الجديدة ضيقاً ، باستثناء مقدونية .

اما في الغرب ، فاننا نشاهد عناصر عديدة من المسيحيين تقوم في العاصمة روما ، ملتقى جميع الملل والطوائف ومحجة الشعوب على اختلافها ، اذ ذاك . فلا عجب ان تتجه اليها ، في تاريخ مبكر ، أنظار أتباع الديانة الجديدة . هنالك مسيحيون انساحوا وتغلغلوا بين طبقات المجتمع الروماني العالية ، حتى أننا نراهم يغشون البلاط الامبراطوري نفسه . أفلم يحكم الامبراطور بالموت ، على قنصلين سابقين ، ويأمر بنفي ابنة أخيه التي كانت زوجة لأحدهما ، هو في الوقت ذاته ابن عمه ؟ هنالك دلائل قوية تحملنا على الظن بأن اتهامهم «بالالحاد» والعادات اليهودية ، التي رموهم بها لم تكن في الواقع سوى الاخذ بالمسيحية وتبني مقالتها العقائدية. مسيحية ايضاً مارسيا ، محظية الامبراطور كومود ، التي حاولت ان تدسّ له السم . ومع هذا فالأكثرية من أتباع الدين الجديد تتألف من صغار القوم وضعفائهم .

وهذا الدين الجديد ، لم يرَ في مكان ما من النجاح الذين حققه ما رآه في ولاية افريقيا . لا ندري كيف وصل اليها ، ولا كيف تغلغل فيها ، اذ تطلع علينا فجأة ، في اواخر القرن الثاني ، جماعة كبيرة من المسيحيين ، ناشطة في المدن والأرياف ، جعلت من قرطاجة مركزها الرئيسي ، ومقرها الأكبر . وعندما يقوم ترتليانوس يعتز مفاخراً ، عام ١٩٧ بعدد المسيحيين ، فهو بالطبع يتصور عددهم في هذه الولاية التي شهدت مسقط رأسه . فاسمعه يقول : « نحن أبناء امس الغابر ، ومع ذلك فقد ملأنا الارض... بوسعنا ان نُحصي افراد جيوشكم ، اما عدد النصارى في ولاية واحدة من ولاياتكم، فقد تبز كثرتهم عدد جيوشكم بكثير ».فهو في حماسته يعمم كثيراً ويغلو ، إذ لا يمكننا ان نذكر خارج نطاق افريقيا ، بالاستناد الى اضطهاد عام ١٧٧ ، سوى جماعة المسيحيين في وادي الرون . ثم انه يصف عدد الذين استشهدوا في سبيل ايمانهم في مدينة ليون ، هم أغارقة شرقيون – وليسوا قط من اهل البلاد – اعتنقوا فيها الديانة الجديدة . فاذا كان بولس ، بين دخوله روما لأول مرة وموته فيها، قد وصل في تنقلاته الى اسبانيا وتوقف عند ساحل غاليا ، فمروره في تلك الأرجاء لم يترك بعد، أثراً يذكر .

وعلى هذا ، فقد سجلت المسيحية نجاحات تذكر . علينا هنا ان نأخذ بعين الاعتبار ، عدد الولايات التي تدخل في نطاق الامبراطورية الرومانية ومساحتها الشاسعة ، التي لم تكن وطئتها بعد ، اقدام المبشرين . ففي مطلع القرن الثالث ، نرى الاسقف الفريجي أبيركيوس يذكر في رسالة له نقشت عبارة منها على شاهدة ضريحه ، تعبر بصورة مجازية وبتوريات تقوية ، عن الانطباعات التي عاد بها من سلسلة من الاسفار والرحلات ، حملته تباعاً الى روما وسوريا وبلاد ما بين النهرين ، جاء فيها : « أينا حللت ، ألفيت الإيمان المسيحي قد سبقني . فقد وجدت اخوة لنا أنّى نزلت واينما هبطت » . بالطبع لم يحط اسقفنا هذا رحاله، الا في المدن.

نحس جيداً دون الحاجة للافصاح عنها ، اسباب هـذه الحماسة وأسباب النشاط العارم ، تجيش بها الديانة الجديدة . فهي لا ترى نفسها غريبة عن أي بلد دخلته مهما كانت اللغة المحكية فيه .

حياة الكنائس الاولى وتنظيماتها الداخلية

فاللغة الوحيدة التي عولت عليها المسيحية دون سواها هي اللاتينية . فلا يوجـد للكتاب المقدس ، في مكان ما ، ترجمـة لاتينية ، حتى في افريقيا نفسها التي أطلعت اول كاتب مسيحي تجرّأ ، ان يعالج ، في مثل هـذا الوقت بالذات ، باللغة اللاتينية ، قضايا لاهوتية بحتة ، هو ترتليانوس . فجماعة المؤمنين ، في روما ، لا تستعمل في طقوسها ، غير اليونانية . وكذلك مسيحيو وادي الرون يكتبون باليونانية ، الرسائل التي بعثوا بها الى اخوتهم في الايمان ، في آسيا الصغرى. فاللغة اليونانية هي وحدها اللغة الطقسية في جميع البلدان . فالمبشرون الاكفاء الذين يحسنون اللهجات الوطنية الشعبية لا يزالون قلة يبقى معها أثر الكرازة التي يقومون بها ، وفعلها في النفوس ، محدوداً ضيقاً . فأحادِيّة اللغة ، كانت الى حد بعيد ، وراء تأخر انتشار المسيحية ، في الشطر الغربي من العالم الروماني ، إلا أنه تأخير أفاد ، من جهة أخرى ، مع ذلك ، في الحفاظ على اولوية اللغة اليونانية بين اللغات واللهجات المحكية ، اذ ذاك .

تبرز وحدة الكنيسة ، على الأخص ، في مراسم العبـادة والطقوس . هنالك عشاء مشترك يجمع بينها عرف باسم *Agape* . والكلمة يونانية الاصل ، إنما تعني «انعطاف» او مقاسمة عاطفية في اجتماعات مسائية . وبالفعل ، ان كلـمة « كنيسة » انما تعني : جماعة . وبعد ان وقع مجيء المسيح وظهر على الارض بجسده ، صار من المتوجب ، على أتباعه ان ينتظموا وان ينظموا ذاتهم . ومنذ ذلك الحين ، اخذ التسلسل الوظائفي ينمو ويتطور على مر الزمن ، وفقاً للحاجة العارضة . فقد نزعوا الى تأخير سر العماد او التنصير ، عن الموعوظين ، أي عن الذين بلغهم الصوت وتردد فيهم « الصدى » ، أي من لُقّنوا الايمان بالصوت الحي ، فأخروا العماد عن موعـده سنتين او ثلاث سنوات . وقد برز عن جمهرة الشعب (*Laos*) فريق الاكليروس ، لفظ اشتق من كلمة يونانية (*Clèros*) عنَت في بادىء الأمر : حصة او نصيباً ، ثم اخذت في الترجمة السبعينية معنى اكليروس او طغمة الرهبان ، وهي طغمة تألفت من رُتب ومراتب عديدة . ومن هـذه المراتب برزت كلمات : « كاهن » ، و « شماس » و « اسقف » . فالكهنة *Presbyteroi* او الشيوخ (المتقدمون في السن) يتألف منهم مجمعاً يتولى وضع القرارات ، والشمامسة *Diaconoi* الذين يناط بهم تأمين مهام الطقوس المادية . ولم تلبث ان تفرعت مهام اعمالهم الى شماس رسائلي ، وقارىء ، ومُعزّم ، وحارس الابواب ، ثم الاسقف او المشرف على التعليم وعقائد الايمان ، وعلى سلوك المؤمنين . وقد اخذ النظام الجديد ، بالنظر للخطر الخارجي ، وبالنظر لمقتضيات تأمين خَدَمة الهيكل مما يؤثر على النوع او الكيفية ، ينزع الى الحكم المطلق. ففي كل مقاطعة ، يقوم على رأس الجماعة ، بدون استثناء ، اسقف واحد. فالشعب يصطفيه ويختاره ، بدون ان يخضع لمراسم خاصة ، من بين اشخاص يقترح أسماءهم الكهنة . فله وحده حق القطع او الجزم في القضايا التي

يتناقش الكهنة حولها ويتبادلوا فيها الآراء . وعندما تتكاثر أمكنة العبادة يصبح الكهنة مجرد خدّام لها ، يرعون جماعة المؤمنين فيها ، تحت اشراف الأسقف . فهو وحده يقوم بكسر الخبز وتقديس القربان ، وبدونه تنعدم الحياة المسيحية .

وهكذا تُصان وحدة الجماعة وتحفظ . وهي وحدة لا تذهب ابعد من ذلك . فبالرغم من وحدة العقيدة والطقوس فلا توجد كنيسة بل كنائس . ولكل منها إطارها الخاص، له حجيرته الادارية الاساسية، ممثلة بالمدينة التي تمثل في المنطقة ملء الحياة المحلية في مختلف مظاهرها . وهذا الأسقف يمارس سلطته على الجماعات المسيحية في المدن القريبة طالما عدد الأتباع فيها لا يسمح بوجود أسقف خاص يتولى رَعيتهم . وعندما يصبح هذا العدد كافياً تنشأ كنيسة جديدة مساوية في وضعها للكنيسة التي انفصلت عنها ، مع الاعتراف لها بأولوية ادبية . فليس ما يدعو الاساقفة لإقامة علاقات فيما بينهم ، غير ان المصلحة العملية المشتركة تحدو بهم لتبادل الرأي : إما عن طريق رحلات فردية يقومون بها ، او عن طريق تبادل الرسائل او موفدين خصوصيين . ثم لم يلبثوا ان أخذوا يعقدون « سِينُودساً » وبالعربية مجمعاً إطاره الطبيعي الولاية ، هذه الوحدة الادارية الكبرى في البلاد .

كل هذا اولى أساقفة بعض الكنائس الموجودة في حاضرة الولاية او في مركزها الإداري ، او في القواعد الحضارية التي تؤلف قطب جذب فكرياً او اقتصادياً ، نفوذاً خاصاً ، فهو بالفعل والواقع وليس شرعاً اسقف المدينة . فالسلطة التي يتمتع بها اسقف روما لم تكن لتوازي سلطة بعض الاساقفة في مدن مثل انطاكية او افسس مثلاً. فترتليانوس يعرف جيداً شأن السلطة التي يتمتع بها صاحب الكرسي التي اسسها بطرس في روما عاصمة الامبراطورية. ولكن هذا الاسقف لا يستخدم الحق الذي اولاه اياه شرف الانتساب الى هامة الرُسل او رئيس الحواريين، إما لانه لا يرغب في ذلك او لانه لا يستطيع الى ذلك سبيلاً . فهذه الادارة التي تتصف بنظام مطلق يتوزع بين مدينة واخرى ، لا يبدو عليها ما يشير قط انها في سبيل التكامل ، حتى اننا اخذنا نشاهد بعض الصعوبات والعراقيل تعترض سبيلها الى هذا التكامل .

من غير الممكن ان يخفى مثل هذا الوضع على فطنة الادارة المسؤولة او ان تتجاهله، لا سيما بعد ان تكاثر عدد المؤمنين في الكنيسة بين الطبقات الاجتماعية المتواضعة واخذت تتكون الاوقاف الكنسية وتنشأ . وتكوين هذه الاوقاف لم يلبث ان أثار مشكلات قانونية اخذ الجدل يرتفع بشأنها ، كما اخذت الآراء تتضارب حولها . ومهما يكن بالفعل الحل المقترح في تبريرها: سواء أُنسبت الى هيئات جنائزية او الى جمعيات غير شرعية، فجماعات المؤمنين لم تلبث ان رأت نفسها مالكة لعقارات واملاك على وجه يختلف عن ملكية الفرد ، او لمبان يستخدمونها في اجتماعاتهم الخاصة او يتخذون منها مدافن لهم. فمن بين الفئة الاولى من هذه العقارات، لم يُتَح لعلم الآثار ان يدرس خرائب اقدم عهداً من خرائب كنيسة دورا يوروبوس، هذه المدينة التي كانت قائمة على نهر الفرات، في الوضع الخاص الذي كانت عليه، في الربع الثاني من القرن الثالث . فمبنى هذه

الكنيسة القديمة لا يتعدى ان يكون منزلاً قديماً خاصاً ، كانت الغرفة الخاصة باقامة شعائر العبادة فيه تضم مقعداً مستدير الشكل وقد زينت جدرانها بنقوش مختلفة يبدو بينها زمّارات لتقليد الأصوات ، ومساخر للوجه . كذلك نرى غرفة العماد مزدانة برسوم مستمدة من احداث العهدين القديم والجديد . امـــا الفئة الثانية ، وهي فئة المقابر ، فقد اتاح لنا درس النواويس الموجودة تحت روما ان نتتبع توسعها وامتدادها عن طريق الدهاليز والممرات التي شُقت تحت الأرض انطلاقاً من مدفن اسرة من الأسر . وقد أنشئت مثل هذه النواويس، في المدن الكبرى، منذ ان شاع عنهـا خبر احترام بقايا الاموات المدفونين فيها . فوجود نواويس اليهود ونواويس اخرى في مدينة الاسكندرية يدل على ان عادة النواويس لم تكن محصورة على المسيحيين ولا على الرومان. ففي هذا العهد كانت روما الجوفية لا تزال في بدء امرها . وقد اقتضى تطورهـــا واتساعها ان تكون الشرطة قد أغضت عن هذه الأعمال التي تجري في الخفاء او تحت الأرض ، كما انهـا غضّت النظر ، ولا شك ، عن هذه الاجتماعات التي كان يتكرر عقدها في الكنائس .

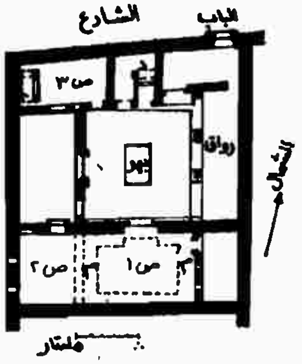

الشكل ١١ – كنيسة دورا يوروبوس. د ، درج يفضي بصاحبه الى الدور العلوي المهدوم؛ ص١ ، صالة لمراسم العبادة جرى توسيعها باضافة ص٢ اليها وذلك بين ٢٣٢ – ٢٣٨ ؛ م ، مقاعـــد من القرميد ؛ ص ٣ ، جرن المعمودية .

والحياة العادية للجماعات المسيحية لدى تكوينها ،قامت، مثلها في ذلك مثل انتشار الديانة المسيحية على التسامح الضمني الذي أبدته السلطات العامة ، كما تنطق بذلك الشواهد التي استعرضناها وكما يعلمنا تاريخ الاضطهادات نفسه .

الجدل الديني والبدع

كانت المسيحية قد أصبحت ، في مثل هذا الوقت بالذات ، واقعاً روحياً عظيم الشأن والخطر ليبقى بدون صدىً في مجالي الفكر والنظر .

وقد استهدفت لهجمات جاءتها من أوساط مستنيرة ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالوثنية ، هي من مجلى الحضارة نفسها ، اذ ذاك . فبقطع النظر عن الافتراءات والسعايات التي ألصقوهـا بالدين الجديد فتركت أثرها ولو الى أمد قصير ، فقد وجدوا فيهـا مادة ثريّة لمؤلفات لم تخـلُ من الأهمية ، وان لم يصلنا منها شيء يذكر عن طريق الكتبة المسيحيين انفسهم الذين لم يحفلوا بجمعها ولم يأتوا على ذكرها إلا بنسبة ما أتاحت لهؤلاء الكتبة من غبطة ورضى في دحضها والرد عليها . وخير ما تمثله هذه الكتابات، الكتاب الذي وضعه ، حوالي عـــام ١٨٠ ، أحد اتباع الفلسفة الافلاطونية المدعو سَلْس *Celse* بعنوان: «خطاب حق *Discours vrai* » والذي يمكن اعادة تكوينه وجمعه من جديد عن طريق الاستشهادات التي ضمنها أوريجينس ردوده عليـه في كتابه الموسوم : « ردّاً على سَلس » . والطعون التي يحاول فيها الكاتب الوثني مهاجمـــة تعاليم الدين الجديد ، انما تصدر كلها عن نظريات فلسفية، كما انها ترتكز الى نظرات سياسية واجتماعية حرية

بالنظر . فهو يرمي المسيحيين بِفريّة تمسكهم بالوعود التي يقطعونها ، اكثر من محافظتهم على « الإيمانات المُغلَّظة » كما يأخذ عليهم ، من جهة اخرى ، مخالفتهم وتجاوزاتهم لشرائع البلاد والقوانين المعمول بها ، وإعراضهم بسخرية ، عن « التعاليم والعقائد التي غذّت عقولهم يوماً وشبّوا عليها ». فكتابه هذا هو عبارة عن مستودع أسلحة ، كثيراً ما عوّل عليها وصدر عنها، واتخذ لهم منها يداً الكتبة الجدليون من الوثنيين الذين تنطّحوا ، فيما بعد لدحض المسيحية .

فليس من عجب قط ، والحالة هذه ، أن يهبّ المسيحيون للرد على خصومهم . فها هو القرن الثاني يمدنا بطائفة من أصحاب الردود الأوَل الذين لا يكتفون بدحض الاتهامات التي يحاول خصومهم إلصاقها بهم ، بل راحوا يهاجمون بعنف الديانات الرسمية المعمول بها في الامبراطورية. فأسماؤهم تؤلف قائمة طويلة ، واصحاب هذه الردود معروفة اسماؤهم لدينا جيداً بعد أن وصلت آثارهم الينا بينا عَفَت آثار خصومهم من الوثنيين ، بعد ان جرى تعقّبها وراحوا يتصيّدونها للقضاء عليها وإتلافها . وبيساطة كلية وجرأة لا يخشون معها لومة لائم، نراهم يوجهون ردودهم للأباطرة أنفسهم ، كما فعل اسقف أثينا كوادراتوس مع الامبراطور هدريانوس ، وكما فعل ايضاً الأسقف ارستيدس الاثيني مع الامبراطور أنطونين ، وغيرهما . ويوستينوس ، هذا الفيلسوف الافلاطوني المتنصّر ، السامري الاصل ، يطلب بجرأة من الامبراطور مارك اوريل ، وهو ايضاً فيلسوف مثله من اتباع المدرسة المذكورة ، ان يوافق على نشر كتابه المعروف باعتدال لهجته، يرى نفسه مديناً باستشهاده مثلاً لحقد زميل له منافس . وتتيانوس « الذي رأى النور على ارض الأشوريين » في مدينة نَصيبين من اعمال ما بين النهرين ، قد يكون اشدهم تهكماً وسخرية. ولكي يكوّن القارىء فكرة له عن عنف ردوده وشدة اتهاماته الديانةاليونانية ـ الرومانية، وتعاليمها الادبية والاخلاقية، يستهجن مستنكراً تمثالاً يُشيّدونه في روما لأم انجبت ثلاثين ولداً، عشرون منهم كانوا احياء عند وفاتها . يجب ان نشير هنـا بنوع خاص الى ترتليانوس القرطاجي ، وهو اول كاتب مسيحي باللغة اللاتينية ، وضع ، في اواخر القرن الثاني ، كتابه المعرف: « دفاع » عن المسيحية ، وجهه لأولي الامر في الامبراطورية ، كما وضع كتابه الثاني : « الى الشعب ». وهذان الاثران الادبيان ينطقان عالياً، ببلاغة هذا الكاتب وفصاحته ، ووقاره ومقدرته، وكلها امور تثير الاعجاب .

إلا ان ترتليانوس اشتطّ في تعليمه وانتهى به الامر الى الهرطقة . فقد عرفت المسيحية في القرن الثاني شقاقاً وجدلاً حول شؤونها الداخلية ، وهي امراض ملازمة للطفولة رافقت نموها وسيرها نحو التكامل، فعانت منها وتضرّست بهـا ثمناً للنجاحات التي حققتها ، وللمقدرات الفكرية والعلميـة التي توفرت لعدد من كبار اتباعها ، وللوهن الذي رافق تنظيمها في البدء، فأوجب عليها إكمال هذا التنظيم وتقويته ، ولطراوة إيمانها وتعاليمها . وكان لا مندوحة من هذه الهرطقات لتدفعها على تقوية النظـام الداخلي لكنائسها ، ولتحديد قضايا الايمان وتفسيرها وتبسيطها، وهي بعد في مستهل تاريخ وحركة تطورية طويلين، خصبين بالحوادث الجسام التي تخللتها.

بقيت الهرطقات قليلة نسبياً ، في ذلك العهد ، اثنتان منها طلع بها داعيتان تميّزا بالفردية . اما الاول ، فهو مونتانوس الفريجي الذي راح يتنبأ مدّعياً نزول الوحي عليه . وقد تأثر ترتليانوس بتعاليمه ، قبل ان يؤسس هو نفسه شيعة مستقلة ، عاشت بضعة قرون في افريقيا ، انتهج لها نهجاً صارماً مجافياً لكل الاوضاع البشرية المعمول بها ، حتى الزواج منها . اما مارسيون الذي رذله ابوه ، اسقف سينوب وحرمه وقطعه من شركة المؤمنين ، فقد راح يعلم طريقة لم تقلّ زهداً وتقشفاً عن سابقتها . ولم يلبث أتباعه ان ألّفوا منهم جماعة لعبت ، مدة طويلة ، دوراً بارزاً ، في امور الشرق . وعندما راح يعارض العهد القديم ، صنيعاً غير مكتمل لباري الكون *Démiurge* ، بالعهد الجديد ، صنيعة المسيح المرسل من الإله الحقيقي ، حمل المسيحيين على الشروع بتحديد قانون الكتب المقدسة ، وهكذا امتد أثر هذه البدعة واستطال .

هنالك بدعة ثالثة هي بدعة الغنوسية التي راحت تعمل على إبهان شأن العهد القديم ، بالطريقة ذاتها التي اعتمدتها البدعة السالفة ، كما انها رأت في المسيحية نفسها ، وجهاً خاصاً من وجوه «الغنوس» ، أي المعرفة الحقيقية التي أضفت على اللاهوت تفسيراً رمزياً للكون . وكانت هذه البدعة أدهى الهرطقات التي عرفتها المسيحية ، الى هذا العهد ، لما حوته من سحر وإغراء ، وللنتائج التي أدّى اليها انتشارها السريع ، اذ يصبح المسيح معها كائناً إلهياً بالطبع ، انما ينبثق عن إله أكبر ، ابدعته الفلسفة اليونانية ، كما أضفت على حياة المسيح تفسيرات رمزية او مجازية ، وجعلت حياته وموته امراً صورياً وليس حقيقياً . ومن هذه المقالة المشاقّة ، برزت منذ القرن الثاني ، تعاليم أخرى ، تحارب الواحدة منها الأخرى . ولو ان المسيحية انزلقت الى واحدة منها لكانت راحت ، هي الأخرى ، فريسة لمذهب توحيد الفروق . إلا انها أظهرت ، منذ الاساس مقاومة كان عليها ان تزيدها أكثر صلابة على مر الاجيال ، وأكثر حيوية ويقظة .

الفصل الخامس

الانجازات الأدبية والفنية

حدودها ونجاحاتها

يشعر المؤرخ بشيء من الارتباك عندما يحاول وضع صورة اجمالية لما كانت عليه الحياة الادبية والفنية في الامبراطورية الرومانية . فقد كانت تؤلف هذه الامبراطورية ، عندما أطلّ عليها النظام الجديد عالماً قائماً بذاته ، تباينت منه الشعوب ثقافة ، واختلفت عروقاً وأخلاقاً وعادات . فهو عالم شاسع ، رحب ، مترامي الأطراف والنهايات ، تمّت له مع ذلك من اسباب المواصلات وانتظامها ما قرّب قواصيها الى دوانيها . وهـذا العالم متنوع المظاهر في أقسامه وأجزائه المقومة ، بالرغم مما يشد بينها من عوامل مادية تقرب بين أشتاتها ، وتسهّل لها جميعاً عيشاً مشتركاً ، وادارة حكومية واحدة ، وتؤمن العلاقات المتنوعة بين هذه الأقاليم والمناطق التي يتألف منها ، وتبني الطبقات الموجهة كمثل مشتركة فيما بينها ، كما تبني لها هذه الوحدة الروحية التي يقوم عليها التطور بعد ان اخذ بأسبابه . فليس ما يذهب بهذا التفاوت القائم بين المدينة والريف ، وهذه الفروق التي نراها بين أنماط الحياة التي يحياها الأهلون في المناطق الزراعية المتحضرة ، ونهج الحياة التي ينهجها سكان المناطق الصحراوية الواقعة على حدود هذه الامبراطورية ، في الشرق والى الجنوب الشرقي من البحر الابيض المتوسط . وليس ما يسد او يملأ ابداً هذه الفجوة والهوة التي قامت بين الشرق الهليني والغرب اللاتيني . فالعامل الوحيد الذي يجمع بين هذه المفارقات المتضادة ، ويؤمّن لها نوعاً من الوحدة الادبية ، هو هذا الشيء الذي يؤلف في صميمه معجزة ، لأن لا مثيل له في التاريخ ولا كفاء ، اذا ما تعدينا النتائج لنقف عند نقطة الانطلاق . فالفوارق لا تزال قائمة بالرغم من ان التطور الذي ينبع من أفكار مشتركة ، وينزع لأهداف واحدة ، ويتجه من غاية واحدة ، هي العامل المقوّم لهذه الحضارة ، حسبما تتبلور في مظاهرها العامة اذ ذاك ، عند مقارنتها بهذا العالم البربري المتوحش القائم على اطرافها ، وهو عالم أعجز من ان يصل الى خط "سوي" ، لأنه لا يجري على حركة منسقة واحدة مؤتلفة بين جميع الأطراف.

ومهما يكن ، فهذه النزعة نحو الوحدة لا تبدو للعيان في مطلع العهد الامبراطوري . فاذا ما استشعرها بعضهم ، فلم يخطر قط على بال احد انها قريبة المنال ، دانية القطوف . وعلى نسبة

ما يتصف هذا الجهد البناء بالوعي، فهو يستهدف شيئاً آخر، لا مندوحة عنه في نظر أولي الأمر. وهذا الجهد الذي اقتصر سواده الاكبر على روما، لقي النجاح الكامل وتكلل بالفوز الأتم.

١ ـ عصر اوغسطس

هذا النجاح يصيبه العهد هو السبب بعينه الذي لأجله اصطلح المؤرخون على تسميته بـ: «عصر اوغسطس»، على غرار ما فعلوا بعهد آخر شابهه من وجوه عدة، وان جاء بعده بوقت طويل، هو: «عصر لويس الرابع عشر».

روما منافسة للمواصم الهلينية الاخرى

فالوضع القائم، كما تبلور في روما من حيث تعبئة الجيوش البرية والاساطيل الحربية في السنوات العشرة الاخيرة من أزمة الحرب الاهلية كان تعبيراً رسمياً لا يختلف كثيراً عن المدلول الظاهر للعيان. ففي أكتيوم، جمع اوكتاف او اوغسطس الذي سيكونه، حوله كل قوى الغرب، وانتصر على انطونيوس وكليوباترا المسيطرين على موارد الشرق الهليني وطاقاته الضخمة ومواردها التي لا تنضب. ولما كانت روما قد نالت الفوز بقوة السلاح، كان لا بد لها من ان تأتي بالدليل القاطع على ان لها من الاهمية والشأن، في المجالات الاخرى، ما لا يقل بشيء عما تم لها في الميدان الحربي، وانها ليست على استعداد قط لتسيء استعمال تفوقهما البارز في جميع الميادين. فالشيء الذي كانت الاسكندرية تمثله او ترمز اليه، لم يخرج عن مظاهر خارجية، دعائية، ممثلة بهذه الديانات الفاسدة، التي طالما عبثت بالاخلاق والآداب، وبهذا البذخ المحلل، وبهذا الترف الفكري والفني الذي يوهن النشاط ويضعفه. فان عجز هذا العالم الشرقي عن ان يرفع رأسه عسكرياً وحربياً، فهو، بالرغم من الازدراء له والاستهانة به، له، مع ذلك وقعه في النفوس واغراؤه للعقول والقلوب، ويجب بالتالي، اللحاق به والتساوي معه.

وقد رغب أولو الامر في روما، دون ان يبدو عليهم شيء من هذا، ان يحققوا لوطنهم، هذا التجلي الفكري والادبي والفني الذي اكسب الادب الكلاسيكي: الاغريقي والهليني، هذه الشهرة البعيدة التي تمتع بها، وهذه التربية التي تمت له، هذه التربية المشبعة بالفلسفات والتعاليم اليونانية الاصل التي عكست على مرآتها هذا التسلسل الآسر للقيم البشرية التي لم يكن ليخطر على بال احد الإنتقاص منها لئلا تصاب هذه التربية بشيء من رذاذ هذا الانتقاص، فيخدش من رواء أديمها ويتنزل بها الى منسوب البرابرة. فالكل رأى ان تسير القوة في ركاب الحضارة وخدمتها. ولكي تزكي روما انتصارها الباهر وفوزها المؤثل، كان لا بد لها من ان تظهر، عندما تم لها الأمر، على ما ظهرت به أثينا وبرغاموس، وانطاكية والاسكندرية. وكان عليها ان تسير على النهج الذي نزعت اليه منذ نحو من قرنين واحتضنته باحتضانها الادب، وان تشجعه، وان تزدان بالمباني الضخمة الجميلة والصروح الفخمة. فالإعراض عن مثل هذا المطلب انما كان يفسّر بالتخلي عن تفوقها، والاعتراف ضمناً بعدم اهليتها، والتنازل عن حقها الشرعي في الدفاع

عن الحضارة والثقافة ، وفقدان كل أمل بالتفاف الطبقة المستنيرة وسكان الريف حولها ، والالتقاء معاً في محرابها ، والسير بهديها .

كان هنالك ولا شك ، احتمال لا يخلو من خطر ، لم يفت بصر النخبة المستنيرة من الرومان وبصيرتهم ، وهو ألا يقتصر على جعل روما مجرد عاصمة هلينية ، على شاكلة العواصم الهلينية الاخرى ، بما يحف بها من جيران مزعجين ، ومن فيض فكري وفني لا ضابط له ولا وازع فيه ، يزرع الخوف في القلوب وينزل الرعب في النفوس . كان عليها ان تستلهم مُثل العالم اليوناني بحيث تتفادى السقوط في المساوىء التي انتهى اليها هذا العالم . كان عليها ان تقتبس من هذا العالم ما حققه من وسائل تقنية بشرط استخدامها بعقلية جديدة وروح جديدة ، وان تعمل بهدي الأمور التي استبدت بخاطره على ان تصطفي منها أفضل ما توصل اليه . كان عليها انتهاج السبيل الذي انتهجه شريطة ان تعرف كيف تجانب هذا السبيل عند الاقتضاء ، فتضع هي لنفسها ، سُبلاً جديدة تتفق والتقاليد الوطنية بما ينسجم مع الوقار والرصانة التي عُرفَ بها الرومان وبها تميزوا .

هذه هي الخطة او المنهج الموضوع تحت الانظار ، وهو منهج لا بد من النهوض به ، والسير معه الى آخر الشوط ، وفقاً للخطوط العريضة التي وضعها له قيصر قبل موقعة أكتيوم ، وللجيل قيصر فضل السبق على اوغسطس في وضع مثل هذه الخطة وترسمها . وقد باشر قيصر نفسه وشيشرون وغيرهما كثيرون من النخبة لدى الرومان تحقيقها . وكان من نصيب جيل اوغسطس ان ينهض بهذا المنهج ويحققه على نطاق اوسع وارحب .

« عصر » في صميمه من صنع اوغسطس »

وأي عصر !... فالعرف التاريخي المعمول به، لا يتبنى كل الالقاب والنعوت التبجيلية من هذا النوع التي اعتاد المدلسون إغداقها على بعض الملوك والعهود. ولكن ما من شيء يجعل من العرف قانوناً او يقيم منه قسطاساً . وهذا أمر يحمل التدقيق في الاماديح التي تكال لرئيس دولة كيلا ، عملية عسيرة للغاية . كذلك ، ليس بين المقاييس التي يمكن ان تخطر على البال ما لا يصح تطبيقه على وضع اوغسطس بالذات ، أهي مدة حكمه المديد التي تبرر إطلاق كلمة «عصر» عليه ؟ فقد مرت اربعون سنة ، منذ ان أطلقوا عليه ، لأول مرة ، هذا اللقب ، في غرة كانون الثاني (يناير) ، من سنة ٢٧ ق . م ، مع انه كان منذ عهد بعيد ، سيد روما المطلق ، وبقي سيدها الأوحد حتى وفاته في ١٤ من آب (اوغسطس) سنة ١٤ للميلاد .

أهو لعمري ، الدور الذي لعبه ؟ فالسلطة المطلقة التي تمت له في الحقل السياسي ضاعفت من شأن الدور الذي لعبه في عالم الفكر والادب . صحيح ان عمله في هذا المجال لم يكن كله مجرداً : فقد عمل جاهداً في سبيل المجد ، وفي هذا السبيل وجّه رجال الفكر والفن ، واوحى اليهم بالموضوعات التي يهمه ان يراها مجلوة . فاذا ما اخذهم تحت رعايته واجرى لهم العطاء ، فمن الغلو القول بانه أوعز او تقدم بطلبات ، إلا ما تعلق بالمباني والانشاءات العمرانية . فلا

بفرجيل ولا بهوراتيوس بستكتبين عنده. وقد قام بهذا كروماني من ابناء زمانه ومن ابناء طبقته، حفيّ بالآداب والفنون الرفيعة. وكلمة «هويّ» *Amateur* يقصر مدلولها عن التعبير تعبيراً صحيحاً، كما لا يحسن التعبير عن كثيرين من اسلافه او خلفائه الذين عنوا، من قريب بشؤون السياسة. فاسم صديقه وخدينه «مكيني» اصبح رمزاً لنصراء العلم والادب بما اغدقه من مكرمات وأعطيات وهبات كان من شأنها ان تحمل كبار القوم على الاهتمام بامور ابقى وأخلد. الا ان الاكتفاء بالتنويه، والاقتصار على استعمال نفوذ مكيني وكرمه وسخائه على هذا الوجه من شأنه ان ينتقص من قيمة النشاط النير الذي تفرد به نصير من اكبر نصراء العلم والادب في كل زمان ومكان. فقد راح يجرب، هو نفسه حظه ويدلي بدلوه بين الدلاء، فيكتب، ويؤلف في كل موضوع، على شاكلة كتاب ذلك العصر، وعلى مثال الملوك الهلينيين، فراح يقصّد القصائد ويدير المحاورات ويضع كتباً في التاريخ الطبيعي. والحال فالمَثل معدٍ، ولذا لم يبق وحده في الميدان، فتطلع علينا وجوه عديدة تحلق بصورة ابرز بينهم اول نصراء فرجيل المدعو أزينيوس بوليون. فهو ايضاً يأخذ بنصرة العلماء والادباء نظير مكيني ويرعاهم برعايته، مع انه كان في عداد المعارضين للعهد وإن اعترف به ومالأه، فاعترافه هـذا لم يتعدّ طرف لسانه، بعد ان كان من انصار انطونيوس ومن مريديه. فراح يهتم بجمع التحف والأعلاق الثمينة، وينشىء لافراد الشعب مكتبة عامة، في الوقت الذي انقطع هو فيه للتأليف المسرحي ووضع التمثيليات، وكتابة تاريخ عام للحروب الاهلية. واليه يعزى الفضل الاول في اطلاع النـاس على المؤلفات التي يضعها اصحابها، وذلك بقراءات علانية منها، امام الناس، تعريفاً بهـا وبواضعيها.

وقد عاصره، في الوقت ذاته، في موريتانيا، الملك يوبا الثاني، احد ملوك النوميد المعروف بخصومته لقيصر. فقد جيء به يافعاً الى روما وسار في ركاب قيصر عند دخوله روما مظفراً. اعاده اوغسطس الى ملكه هو وزوجته الشابة، كليوباترا سيلانية، ابنة كليوباترا وانطونيوس التي كانت في الموكب الحافـل الذي رافق دخول اوغسطس ظافراً الى روما، بعد معركة أكتيوم. وهذا الملك الهزيل الشأن، البربري المحتد، الذي ملك على قبائل بربرية استنكف اوغسطس من ان يضمّها الى الادارة الرومانيـة مباشرة، ونشأ في روما تحت إشراف عائلة الامبراطور نفسه، يبرز، في غير مغالاة ولا زهو، من كبار نصراء العلم والفن اليوناني: كاتباً، عالماً، عرف ان يُضفي على عاصمته قيصريّة (مدينة تشرشل، اليوم، في المغرب) سناءً بهياً وإشعاعاً عالياً، بما شيّد فيها من المباني والصروح الفخمة، وبما حشد في قاعدة ملكه هـذه من الآثار والتحف والمباني بحيث بدت كأنهـا متحفاً رائعاً، ضمت فيما ضمته، قصراً منيفاً، عثر المنقبون في خرائبه في فولوبيلس، على مقربة من مدينة مكناس، ما وجدوا من الاواني البرونزية التي تثير الدهش بدقة صنعها. وقد وضع هذا المُلَيك، في الوقت ذاته، عدداً كبيراً مـن المؤلفات باللغة اليونانية، بشتى المواضيع: كالتاريخ والجغرافيا والتاريخ الطبيعي وغير ذلك، وهي

كتب اعتمد عليها ومنها عب ّ ، فيا بعد ، بلين الاكبر .

فالاستشهاد ، في معرض الحديث عن أوغسطس ، بمثل هذا الملك الغريب الهزيل ، قد يبدو من الهزل بمكان ، وهو ، مع ذلـــك ، استشهاد لا بد منه لندرك جيداً ، الى أي حدّ طبع اوغسطس عصره ، وانسجم محيطه به . وهكذا نرى بصورة حيّة مُشرقة ، كيف ان أثرياء الرومان وعظماءهم تبنـّوا المـُثـُل التي نهض بها من قبل ، الفاسيلفس الهليني ، ومنهم امتد الى مثل هذا المـُليك النوميدي الذي كان مديناً بكل شيء، لسراة القوم في روما. وراح اوغسطس نفسه يقرض الشعر ، ويضع المسرحيات التمثيلية ، ويكتب مفكراتـــه ، ويتعهد بالتهذيب والتشطيب مذكراته : « امور الحكم » ، احتذاءً منه بقيصر الذين كتب هو الآخر ، مذكراته التاريخيـــة *Capitulaires* ، وألـّف ما ألـّف بما عرف عنه من مقدرة . وعندما زيـّـن روما وحلاّها ، وعندما أنشأ فيها مكتبتين عامتين ، وعرض على هوراتيوس وظيفة كاتم سره ، وعندما يأخذ بباسطة ومفاكهة المؤرخ تيت ـ ليف الذي رأى النور في مدينة بومبيي ويتعهد اليه بشرف تهذيب حفيده كلوديوس الذي اصبح فيا بعد ، امبراطوراً ، وتوجيهه وجهة علم التاريخ ، وعندما يأمر باتخاذ جميع الوسائل لتأمين نشر الانياذه *Enéide* لفرجيل بعد ان أوصى هذا عند موته ، باتلافها ، راح يحقق ، على مثل هذا النحو من الشمول والرحب الذي تتسع له نظرة الامبراطور الواسعة ، والمقدرة التي اشتهرت عنه ، وبوسائل أوسع وأشمل بكثير مما تمّ منها لمعاصريه ، هذا المثال الذي تبرز صورته الحقة والمثلى في خلفاء هوميروس وطغاة بلاد اليونان القديمة . وهــــذه الصورة التي نرسم هنا قسماتها الكبرى ، تفاعل على تركيزها وتحييزها نوازع ودوافع عدة . من المحال ان ننكر مثلاً ، رغبته في التلهي والتفريج عن مهام الحكم ، والرغبة في استثارة إعجاب الناس والفوز منهم بالثناء العاطر والأماديح المستملحة ، والميل الشديد لاكتساب المجد والعظمة والفخار يخلد ذكرها الدهر . والى هذا ، ارادة صادقة في ان يبرز للناس رجلاً مثالياً لا يُقصِر أطماعه على تأمين نجاح زمني . والى جانب هذا كله ـ كما يشهد بهذه العظمة النخبة الرومانية التي يكفيها شرفاً ان تكون تسامت في تقديرها للرجل الى مثل هذا الحد ـ الارادة الصادقة في ان يطلع على الناس برجل نموذجي المِثال لا يُقصر طموحه على نجاح زمني زائل .

كل هذه النظريات وما تثيره من ملاحظات ، لأعجز من ان تستنفذ مدلول كلمة « عصر » .

ولكي تستحق حقبة من الدهر ان توصف بمثل هذا الوصف ، يجب ان تشهد ازدهاراً عجيباً من الروائع الفكرية والادبية والفنية ، ومثل هذه الأجيال من العظماء والمشاهير في كل علم وفن ، وتجلـّياً منقطع النظير من النوابغ والعباقرة لم يسبق لروما ، في تاريخها المديد ان رفلت بمثلهم .

كذلك من الواجب ، ان تعبر هذه الآثار الادبية والفكرية ، ربما بنسبة اكبر ، وعلى قدر اوفى ، عن نزعة نفسية ليست عادية فحسب ، بل ايضاً وبالاكثر ، كلاسيكية ، إتباعية ، أي تصلح مِثالاً ، في خطوطها الكبرى ، لاجيال اخرى وعصور اخرى. فجاء ازدهار الآداب والفنون ، في عصر اوغسطس يحقق ، الى حد بعيد ، هذا المطلب المروم . فانى أجلنا النظر ، طالعنـــا ،

هنا وهنالك ، توق عارم : للنظام والانضباط ، والاتزان والوضوح ، وكلها مطالب عقلية او بالاحرى عقلانية ، تهيمن على المشاعر وتضبط انطلاقها والتعبير عنها ، وتمحصها وتنقيها مما يُشتم منه العنف او العرض ، فتترك فيما بعد دوياً بعيداً ، خالداً ، يتردد صداه على مر الزمن . فوضع هذه الروائع جنباً الى جنب مع روائع الادب الكلاسيكي الاغريقي ، واتخاذها غذاءً روحيـاً لنفوس الاجيال الطالعة ولاذواقها ، منذ عهد النهضة والانبعاث الى يومنا هذا ، في كل المدنيات التي توالت على مسرح التاريخ ، ليس فيه ما يدعو للدهش او للعجب . ففي ذلك شهادة حق ، تنطق عالياً بما فيه من جهد كريم حاولنا معه تجاوز نطاق الهواية ، وايمان رشيد قويم بصحة ما يقول ويعمل للوصول الى طريقة صورية ميسرة لا تستحيل لعبة مـع نبوغ عارض ، لتمكين العقل من مراقبة تصادم الاهواء والنزعات ، ولاخضاع الشعورية الفردية لمعايير العقل ولقسطاس مثالي من التناسق والانسجام المشرق .

وهنالك ملاحظة اخرى ُتزكـّي أيضاً، اذا كان ثمـّة حاجة بعد للتزكية، اطلاق اسم اوغسطس على هذا العصر ، تقوم في هذا التوافق البيّن بين تفجر هذه النزعات الكلاسيكية وازدهـــار الآداب والفنون ، وبين السياسة العامة التي انتهجهـا الامبراطور . فعندما راح يعيد تشكيل الدولة والمجتمع الروماني ، بعد الفوضى التي رزحت فيها البلاد إثر الحرب الاهليـة ، استوحى مبادىء النظـام والاتزان التي هي قوام الأدب الكلاسيكي بالذات . فالسلام الذي نشر لواءه على الامبراطورية ، في الداخل والخارج ، شاده سلاماً لا يقوم على الضغط والإكراه ، بل عـلى العقل والاقناع لدى من توخى تهذيبهم ، وحذّر عليهم السير مع الفتنة ، وهو سلام يعكس تماماً روح الانضباط والنظام الذي طبع الروائع الادبية التي طلع بها ذلك العصر وميزهـا . وهذه الانضباطية التي حققها في المجالات السياسية والاجتماعية والعسكرية كان لا بد لها ، لكي تقوى وترسخ في النفوس ، من ان تقترن بانضباط الناس في اهوائهم ونزعاتهم وطبائعهم . فقـد كان يشوقه ان يرى القلوب والأفكار تنعم بجو روحي ملؤه الدعـة والطمأنينة بحيث ترسخ وتتوطد الانجازات التي حققها للامبراطورية . فكما ان العنصر الديني لعب هو الآخر دوره البارز في هذا البناء ، وفي هـــذا البعث الروحي ، ترتب على الآداب والفنون التي يشدها الى الدين اكثر من رابطة وآصرة ان تلعب هي الاخرى ، دورها الفعال في هذا البنيان القومي .

فلا عجب بعد ، ان يستجيب أهل الأدب ورجال الفن لهذا المطلب ، وان يبادروا لتحقيق رغائب الامبراطور على النحو الذي خطط وصمم . فقد تألموا كثيراً هم ايضاً ، روحياً ومادياً ، من هذه الأحداث الدامية التي اصطلحت على البلاد وانزلت بها ما أنزلت مـن الإحَن والمِحن ، فزعزت روما وهزت منها الأركان، وهددت حضارتها بالدمار والزوال .وقد راحوا في زكانتهم يستجيبون لهذه الرغائب ويحققون هذا الانسجام المرتجى بين نزعاتهم الشخصية وبين مقتضيات السياسة الرشيدة التي انتهجها الامبراطور . فتجاوبت مشاعرهم عميقاً لما تبينوا الأسس التي ستقوم عليها عظمة روما، والرسالة التمدينية التي تضطلع بها لرؤية لواء السلام يرفرف خفاقاً فوق الجميع.

فقد أتاح لهم حاضرهم الماثل ان يدركوا جيداً ماضيهم المجيد ، وألا يقبعوا متغنين بالامجاد مجترين ذكريات الماضي البعيد. ولذا راحوا، طوعاً واختياراً ، يتبينون بعفوية ظاهرة، المطالب القومية الكبرى ومستلزماتها الركينة : حب الوطن ، والتمسك بالتقاليد والاعراف الوطنية التي هذبتها وصقلتها النظريات الفكرية المقتبسة من الخارج، ولم تعتّم ان انصهرت بها وتمازجت معها ، والتحدث بفضائل السلف الكريم بعد ان تعرّت من شوائبها الخشنة ، والاعتداد بهذه الامجاد الحربية التي حققها لخير المغلوبين على امرهم . من هنا ايضاً هذه الأماديح والتقاريظ العطرة التي ضَفَرها القوم للمَليك المنقذ ، المخلص، حبيب الآلهة، الذي أعاد الى الامبراطورية: هذا الأمن وهذا الانسجام وهذا التناغي الذي كادت تفقده الى الأبد. وروح هذه الكلاسيكية نفسها، كانت تأبى ان تنطلق عاطفة الامتنان المتأججة في صدور القوم، بعبارات نابية تشذّ عن الصدد لتتنزل الى الزلفى المخزية . وهذا الآمر الناهي ، المطلق ، الذي كانه اوغسطس ، لم يأتِ آيةّ أفضل على ما تم له من مهابة ووقار ، وعلى ما كنّه من احترام عميق لهذه المثل التي عمِل بها وعلّم ، لو لم يكن على جانب عظيم من المقدرة الفائقة ، بعد ان استعصى على الناس النفاذ الى أغوار نفسه وقلبه ، اذ لم يرض قط ان يوعز ، ولو من طرف خفي ، أو ان يُلمِع ولو من بعيد ، الى خاصته ، وصحبه المقربين من رجال بطانته، وهم بشر كغيرهم من الناس، وله في أعناقهم ما له من أياد بيض وغُر الفعائل ، ودانوا له بكل ما لديهم من نعمة ورخاء ، وجاه ونفوذ ، بشيء من هذا الثناء أو من هذا التدليس ، يحسنه أهل البطانة . فكلا الجانبين عرف أن يتفادى مثل هذا الإفراط ومثل هذا الانزلاق الذي كان من مميزات البلاطات الهلينية . وبذلك صَونٌ لكرامة الرجل وعزته وإبائه .

ولكن هذا التوافق لم يعمّر طويلاً، وقد تجلى ذلك على أتمه ايضاً في الجيل الذي عايش لويس الرابع عشر وعرف بالتالي سيطرة غير سيطرته. ولد كل من فرجيل وهوراتيوس قبل اوغسطس بسبع سنوات الاول ، وبسنتين ، الثاني ، وماتا قبله بـ ٣٢ سنة و ٢١ سنة . وبين كبار رجال الادب في هذا العصر ، كان المؤرخ تيت – ليف وحده أصغر من اوغسطس بأربع سنوات ، كما عاش بعده ثلاث سنوات . فقد عمّر اوغسطس طويلاً ، وعاش في مجتمع اعتنق كبار مفكريه فكرة الملكية وتبنوها بعد ان نسوا او تناسوا الاضطرابات العنيفة التي هيأت لها اسباب الطلوع، كما تناسوا ، على ما يبدو ، مدى المشاغل التي جاشت في صدور اسلافهم .

التاريخ : تيت-ليف

وهذا السَلَف اهتم كثيراً لهذا الوضع الذي نجم عن إنشاء النظام الملكي . ولكي نقف عند أبسط هذه النتائج ، لننظر ملياً الى فن واحد من هذه الفنون الادبية الذي راج من قبل أيّما رواج في روما، هو الخطابة فنفهم كيف به ينحط ويهبط بعد ان انقطعت مناقشات الهيئات والمنظمات السياسية والجدل الذي كانت تثيره، اذ لم يعد مجال لهذا الفن يتغذّى منه . فالتاريخ والشعر استأثرا وحدهما باهتمام الجميع ، وهو اهتمام له ما يبرره اذا ما اخذنا بعين الاعتبار الصفات التي تحلّت بها المؤلفات التي وصلت الينا من هذا العهد .

هنالك بالطبع ، مؤلفات ماتت وضاعت وعفا أثرها ، بعد ان لاحقها النظام القائم وجدّ في اثرها لتجاوز أصحاب القيود والحدود التي فرضتها السلطة على حرية المؤرخ . فقد أمر مجلس الشيوخ مثلاً ، بحرق آثار كاتب من المتحمسين للعهد الجمهوري ، لما تبين فيها من نقد جارح للعهد الجديد .

فالتاريخ يتمثل هنا على أحسنه بالمؤرخ تيت ليف ، كما تبدّى في نظر معاصريه وكما نراه نحن في يومنا هذا ، تشيل كفته عالياً اذا ما قارناه بمؤرخي العصر من اليونان امثال ذيوذوروس الصقلي ودنيسيوس الهاليكارناس، كما ان المؤرخ الغاليّ ترُوغ بمبيوس الذي لا نعرف من آثاره التاريخية سوى مقتطفات ذكرها يوستينس ، ليس بشيء يذكر تجاهه . صحيح انه لم يصلنا تاريخه الضخم الذي أرّخ فيه لروما منذ تأسيسها الى منتصف عهد اوغسطس ، وهذا التاريخ الذي جاء في ١٤٠ جزءاً ، لم يصلنا منه سوى ٣٥ جزءاً لا غير ، تقسم الى قسمين متميزين . يتألف الاول من ١٠ اجزاء، بينما يضم الثاني ٢٥ جزءاً ، يقص علينا حوادث الحقبة الممتدة من سنة ٢١٨ الى ١٦٨ ق . م . وفي هذا لعمري ما يكفي لنتعرف الى هذا الكاتب، ونتبين مناهجه وأسلوبه والطرق التي اتبعها في وضع هذا التاريخ الضخم ، وميوله الفكرية ، ونزعاته الشخصية ، ومقدرته الفنية وغير ذلك من العوامل التي تقوم عليها كتابة التاريخ .

علينا ألا نتوقع منه أي جهد كبير يبذله في البحث الشخصي وفي التحري عن الحقائق ، او أي نقد متدبر للمصادر التاريخية التي عوّل عليها واستقى منها ، ولا أي تحليل لأغوار النفس البشرية عندما تعرض للحديث عن الاشخاص والجماعات التي يحدثنا عنها ، ولا الاطلاع الكافي ، لا نظرياً ولا عملياً، على عوامل التاريخ والمبادىء التي يخضع لها تطور المجتمعات البشرية . فبينه وبين ثوقيذيذس اليوناني ، وبوليب الروماني ، بَوْن شاسع من هذه الناحية ، فهو يفتقر اصلاً الى تربية الرجل السياسي وحنكة القائد العسكري المجرّب ، كما ينقصه ما قد يكون فيه بديلاً عنها : النظرة السديدة المحللة في آثار السلف ، والتفهم العميق للصفات التي تحلّوا بها . فهو يرغب ، تشبهاً بمن سبقه من بعض المؤرخين ، ان يقدم خدمة نصوحة للقارىء من باب تزويده بأخلاقية صحيحة دون ان يهيئه للعمل ويسلمه له . « فالمفيد في علم التاريخ والمثمر معاً هو ان يرى المرء وكأنه على قمة بناء شامخ ، كل الامثال الصالحة التي يجب عليه الاقتداء بها لخيره وخير وطنه، كما عليه ان يتجنب كل ما من شأنه ان يجرّ الخزي والعار ، في هذه الامثلة ، من مفاتيحها الى مغالقها » . فبين المؤرخين الذين سبقوه في هذا الفن يطالعنا بالطبع بوليب الذي أرّخ لفتوح الرومان في الاقطار الواقعة حول حوض البحر المتوسط . ويشقّ علينا كما يؤذينا في الآن ذاته ، ان يستعمله ، في الحين الذي عثر عليه ، على نسبة واحدة ، مع بعض الرواة الرومان ، دون ان يتبين ما تفوّق به بوليب : من جمع مصادره والاستيثاق بها ، والمقدرة الفكرية التي عالج بها الاصول التي عوّل عليها ، كما ان تيت ليف لم يأبه بشيء الى ما تحلى به تاريخ بوليب من تناسب في معطياته، وما فيه من دقة ملاحظة وتدبّر ، حتى انه يبدو عليه وكأنه لا يهتم كثيراً بفهم النص الذي بين يديه .

فهو ، اذا ما اشتط وغلط، فليس عن سوء قصد او نية ، اذ ان اتساع المهمة التي يضطلع بها، ورحابة المدى التاريخي الذي وضعه نصب عينيه، كل ذلك يرغمه على العمل بسرعة. فالاغلاط التي تتزى بها شق قلمه لا توهن بشيء نزاهته ، هذه النزاهة التي هي في الصميم من هذه الفضائل السامية التي تشكل ، في نظره هـــذا التراث القومي الجيد . فهذا المواطن البدواني الاصل ، والغالي المحتد ، الذي رأى النور في منطقة قاومت الفتح الروماني وحاولت صده ، بلغ منه التمسك برومانيته والشد عليها بنواجذه بحيث راح يقول : « فأما ان حبي للمهمة التي ندبت لها نفسي يعميني ، واما ما من دولة فاقت روما: عظمة ونقاء وغنى بهذه العظات البليغة الخيرة التي يجيش بها تاريخها المديد » . ولكنه يتحرز من الوقوف موقف المبرر دوماً لروما ، ويتمالك عن حمل الحقد والبغضاء ضد خصومها الألداء او الأكثر خطراً عليها . كذلــك ، كتاباته عن القلاقل والاضطرابات الشعبية التي وضعها ، لا تتزى بأي حقد او ضغن . فهو يقف منها موقف اللائم ، الشاجب، انسياقاً منه مع الولاء الذي يحمله لروما . قد يهتز لأمر ما وتتحرك نفسه بعاطفة الاعجاب نحوه . إلا انه يتورع عن البغض والكره ، ليس رغبة منــه بفهم الأمور ، بل انسياقاً لما عرف به من اعتدال ومن نـصفة .

وكانت وطنيته خير مسعف له ، وهي وطنية قوامها الانعطاف النابض والاستلطاف الذي يحمله على تقدير الحقب التاريخية الحاسمة ، وتقدير رجالات روما الذين نهضوا بالامر فيها . واشد ما تجيش هذه العواطف في صدره عندمــا يروح يقص علينا حروب هانيبعل الذي يجعل منها ملحمة وطنية تتعاقب فيها الويلات والامجاد ، الى ان أقبل اخيراً النصر المظفر ، مـكافأة لهذه الروح الوطنية التي تجلت على أتمها في هذه المحنة التي جثمت على صدرها ، وهذه التضحية والبذل السخي الكريم تجود بها الدولة دونما حساب ، وهذا الاباء في النفس والعزة والكبر ، ومكارم الاخلاق يتحلى بها الشعب وافراد الرومان على السواء ، واحترام الآلهة الذي ، استبد بالنفوس . فبدلاً من ان ينطلق في عظات مملة منفرة ، نراه يعرب عن اسفه الشديد لفقدان هذه الفضائل التي عرف بها السلف الكريم ، وراح يكشف عن جذورها الاصيلة بهذه الامثلة التي يضربها لنا وبهذه المواعظ التي يسترسل فيها . وهكذا ، بفضل هؤلاء الرومان الذين يجلو لنا تاريخهم ، والذين قال فيهم لابروبير انهم « أشد رومانية » مما يمكن ان يكونه بالفعل اي إنسان ، يضع امامنا تاريخاً لروما ملؤه الجلال والعظمة . فليس من غريب قط ، انه بالرغم من تعلقه الموصول ، بالنظام الجمهوري ــ أقله في المرحلة الاولى منه ، طالما انــه يسلم بانحلال الاخلاق فيه في المرحلة الاخيرة – يرى فيه اوغسطس عــاملاً من العوامل التي يمكن الاعتماد عليها في عملية الاصلاح العام الذي نهض له . كذلك ليس بمستغرب قط ان يعتمد عليه كورنايل ايضاً كما اعتمد على كثيرين غيره من مؤرخي الرومان ، لجلو هذه الصورة البديعة التي رسمهـا عن روما والرومانيين .

وبالفعل فقد استطاع المؤلف ان يحافظ ، بعد سقوط روما القديمة على مــا في فنه من قوة

الاغراء والتشويق ، وإلا لما تمكن ان يزوي لنا قصصه بشكل جمع فيه بين الحساسية المرهفة ودقة الوصف مع المحافظة على مـــا فيها من حيوية وجاذبية ، متنكباً في الوقت نفسه ، عن التصنع والتكلف . قلما نراه يرسم لنا شخصيات كاملة، ومع ذلك فشخوصه متنوعة، لكل منها فروقها المميزة ، تتحرك على أقدار وتساهم في الاحداث التي يعرضها، فتمر امامنا سراعاً دون أن نشعر بها أو ان نتبين حركتها ، ومع ذلك فهي تلفت اليها النظر . وهذه الشخوص تعرّف بنفسها في هذه الخطب والأحاديث التي يضعها على ألسنتهم ، وهي من الكثرة والوفرة بحيث تصدم ذوق أهل هذا العصر ، ولذا رأت برامج التربية الحديثة ان تخفف من المناهج التعليمية بالغاء تمارين الخطابة في منهاج اللغة اللاتينية التي نرى طائفة طيبة منها في المجموعة المعنونة *Contiones*، والتي منها استمد واضعو المناهج المحفوظات النموذجية . وهذه الخطب تخلو مع ذلك ، من كل قيمة تاريخية ، اذ أنها من نسيج خيال تيت ليف، كتبها هو بنفسه أو أعاد كتابتها، وقد سار فيها، ولو من بعيد، على نهج شيشرون ونسج على منواله ، وان كان دون شيشرون بكثير ، جزالة ونصاعة مهما اكثر من استعمال المحسنات اللفظية . وقد استطاع هذا المؤرخ المتحمس كثيراً لتاريخ روما القديم ان ينوّع فنه بحيث يضفي على عبارته قوة تعبيرية اكبر ، لما من قوة الايحاء والابانة ما مكن من إلهاب خيال العديد من الأجيال التي جاءت بعده .

الشعر : فرجيل

وبزّه قوة في شدة تأثيره وبلاغته الآسرة، شاعر العصر الاكبر : فرجيل الذي اطلق الشعر من عقاله وألهب بحماسته أخيلة الشعراء . فهو ايضاً من مواليد مقاطعة غاليا ما قبل الألب ، وأُخِذَ على غرار تيت ليف، بعظمة روما وسمو فضائلها . نزعت نفسه دوماً للعيش في الريف والابتعاد عن محيط المدينة ما امكن ، فبقي ريفياً في قراره نفسه . ولم يقلّ حبه لايطاليا ، هذه الأرض الثرية ، منبت عظام الرجال والابطال ، عن حبه لروما ، فسكب نفسه الشاعرة على سجيتها في ذوب كلي مع هـــذا النشيد الكوني ، الشجي ، الخفي ، يطلع علينا من اغوار نفسه .

وقد تم لهذا القروي من ضاحية مدينة مانتو ثقافة أدبية وفلسفية مُعرقة، يونانية ولاتينية، على السواء . ولا نخاله يغلو عندما يروح فيؤكد لنا انه استمر يتعهد هذه الثقافة بالنماء والغـذاء الموصول . وهذا الشاعر الفنان ، المفتنّ ، اللبق والظريف ، النحيل البنية والقوام الذي تأثر الى حد بعيد ، بثيوكريتس ، كما يبدو من قراءة قصائده الرعائية *Bucoliques* ، عمل دومـاً على صقل قريحته وشحذها . فقد تعهد عشر سنوات متواصلة ملحمته الخالدة الإنياذة ، ومـع ذلك تبدت له ، وهو يحتضر ، انها غير خليقة بالحياة ، فأمر باحراقها وإتلافها . خضعت فلسفته هو الآخر للتطور . وهذا الفيلسوف الابيقوري الذي نستشف قسماته من شعره الرعائي ، نراه في «قصائده الزراعية» *Poésies géorgiques* « يطـوّب سعيداً محظوظاً من استطاع النفاذ الى اسرار الطبيعة، ووطىء تحت قدميه الخوف من القدر الذي لا يرحم ». نراه يأخذ، في ملحمته الخالدة، بقدرة وفن عظيمين، وعلى نسبة متساوية ، بين الفيثاغورية وبين الرواقية . فكل أثر من آثاره

الفكرية يكشف لنا عن نوع المطالعات والقراءات التي أقبل عليها بتدبر، يتمثلها ويستمرؤها. فقد استلهم الفكرة الاولى لقصائده الزراعية من ملازمته قراءة هزيودس ومنظوماته في علم الفلك، ولم تتبلور في وضعها الاخير الا بعد ان قرأ ما كتبه فارّون عن الزراعة. من ينعم النظر ملياً في الإنيادة، ير ان الشاعر اتخذ له يداً من كل ما اتصل به او بلغه خبره، من آثار التاريخ القديم الفكرية، منذ هوميروس الى معاصريه من علماء الآثار الرومانية. وهذا الطابع الموسوعي الذي يبرز في الانيادة ليس سوى إلفة متناغية من آداب اليونان والرومان وكان له فضل كبير في النجاح الذي اصابته هذه الملحمة الخالدة خلود الدهر، اذ كانت تعبيراً بليغاً ولقاء جميلاً لهذه الروائع الفكرية التي تناثر نضيد درّها على لـُجَيْن التاريخ القديم.

غير ان فرجيل لم تُرْضه هذه الثقافة الكتابية التي تمّت له من عشرة موصولة للكتاب. فبالرغم مما عرف عنه من «دماثة» ولين الجانب، فقد عرف ان يتحامى عن شقشقة هذه المجادلات التي ارتفع عجيجها في عصره. ومع ذلك، فلم يَحُل ما عرف عنه من استسلام للأحلام المعسولة، دون الاهتمام بما يجرى حوله من شؤون السياسة وتصرفات رجال عصره، حتى ولو شاء ان يتجاهلها بالكلية لما استطاع الى ذلك سبيلاً، بعد ان أقلقه وهمّه كثيراً، أمر مصادرة أملاكه في الوقت الذي كان فيه منقطعاً لنظم قصائده الزراعية. ومعظم قصائده هي رجع صدى احداث زمانه، وصدى الاحداث البارزة التي ماج بها تاريخ روما. فها هو في احدى قصائده الرعائية يغني السلام الذي أمكن تحقيقه، ولو الى حين، في مدينة برنديس، بين انطونيوس واوكتافيان، كما غنى في احدى قصائده الزراعية الجهد المبرور الذي بذله اوكتافيان لتركيز مكانة ايطاليا الزراعية والأدبية، على أسس ركينة قوامها حياة الريف. وفي الإنياذه، نراه يربط اوغسطس عن طريق أسلافه الذين غبروا، وعن طريق المآتي الغر التي حققها، بتاريخ روما، هذا التاريخ الذي ملك عليه جماع عقله ولبه، فراح يكتشف لأينه *Enée* أسراره المكنونة باسلوب ساحر، خلاب، كما راح يعظّم هذا التاريخ ويمجده ويرسم لنا التطور العظيم الذي أخذت روما، منذ البدء، بأسبابه، وفقاً لما قدّرته لها، إرادة جامحة لا تُرَدّ. وهكذا نراه يتحزب لأوغسطس باكراً، وفقاً للخطة الموضوعة التي دغدغت اماني اوغسطس العِذاب. واذا ما راح ينافح عن رسالته بمثل هذا التسامي، فقد عرف مع ذلك، ان يتنكب عن كل خسّة او دناءة، او يميل مع الغرض او الهوى. كل ذلك بدافع من نفسه دون أي وازع من اوغسطس، مدفوعاً بعامل الشكر والمِنـّة لإعادة أملاكه المصادرة اليه، ولا سيما بهذه العظمة التي تتجلى بهذا السلام وهذا النظام الذي عرف ان يؤمنها للامبراطورية. وهب ان فرجيل كان مدفوعاً، فقد عرف كيف يتعالى كثيراً بما أوتي من نبل الأحاسيس والمشاعر السامية.

هذه الميزة طبعت شعره وأضفت عليه ما فيه من السحر الحلال والروعة المثيرة. فاذا ما وقفنا عند المعنى الاشتقاقي لكلمة «مبدع»، نرى ان فرجيل لم يكن قط شاعراً مبدعاً، اذ كانت تنقصه الشاعرية الخلاقة. فقد ألبس «إينه» شخصية معقدة تثير البسمة على الشفاه، وعلى

هذا ، برزت ايضاً من شق قلمه ، شخصية جوبتير المهيب . وبالرغم مما تم له من حدة الذكاء ، فهو أعجز من ان يحرك العواطف في النفوس ما لم تحوّل عاطفته قراءاته ومشاهداته الى أحاسيس حية نابضة . وقــد منعه طبعه الحيي عن إظهار خوالج نفسه بصورة بارزة إلا ما ندر ، وهي خوالج من الدعة والحنان تشوبها سحابة من الحزن أكثر منها عاطفة مشبوبة . فاذا ما عرف ان يسمو بعواطفه الى الأوج، فأمام رهبة الموت وامام البؤس البشري والاوصاب التي تترصد الانسان. وبهذا يُدوّي الصدى الذي أحدثه اثره الادبي العظيم ولا سيا ملحمته الخالدة الإنياذة . فكل شيء روماني فيها ، يبدو ، في ظلال هذه الملحمة ، مــع الدهر وكرّ السنين ، موعظة بليغة في الوطنية وحب الوطن .

فالانياذة والالياذة فرسا رهان ، لا بل صنوان في عملية صقل العقول وتهذيب الارواح . فليس من عجب ان تُنقل الى اليونانية ، وفي هذا النقل الباكر شهادة حق على قيمتها الكبرى ومنزلتها السامية . فحاول الشعراء القدامى ان ينهجوا دوماً على منوالها ، وان يترسموا ما فيها من أصالة في الشعر وعفوية . فها هم المسيحيون أنفسهم يقفون حيالها وقفة الخاشع امام الخشوع والتقوى التي شعّت من أغوار النفس عند هذا الشاعر الوثني ، وما تحلى به من وقار ديني يبعث النفس على التأمل. ولا يزال يزداد كل يوم عدد المعجبين بهذا الشاعر الملهم لما يأنسون فيه من خصوبة العاطفة ، ومن انعطاف انساني وترّصن ظاهري ، وحدب شغوف على كل ما ينبض بالحياة في الطبيعة ، وبهذه الابيات الشعرية العامرة التي تبعث الكِبر في النفس والاعتزاز بالقيم الانسانية .

هوراتيوس والشعراء الوجدانيون

وهوراتيوس نفسه يبدو دونه منزلةً شعرية ، إلا انــه في نظمه املك للصناعة الشعرية من فرجيل. فلا عجب ، والحالة هذه ، ان تبرز للأنظار قدرته الواعية على قرض الشعر . فهو مشبوب العاطفة ، فياض الشعور، صادق في تعبيره ، متحمس للتغني بأمجاد أوغسطس العسكرية ، ملتهب الخيال لا سيا في القصيدة التي نظمها بمناسبة الاحتفالات بالسنة القرنية تعبيراً عن بهجة الجميع للاصلاح الديني والأخلاقي الذي جنّد له اوغسطس ملكه العريض وعمره المديد . هو ابن رقيق أعيدت اليــه حريته السليب ، ودخل الجيش ورُقي صدفة ، وهو يخدم في اليونان ، الى رتبة عالية في جيش قَتَلَــة قيصر ، ثم طارت شهرته بعد ان عانى ما عانى من مشقات وآلام ، وقــد عرف كيف يصون نفسه من العاطفة التي استسلم لها صديقه فرجيل . وقد نحت لنفسه نوعاً من الأبيقورية جاءت على هواه : مزيجاً من هذه الحساسية الناعمة ، واللذة المترفة الرقيقة على شيء من نِفــاذ البصيرة والتهكم الساخر حتى من نفسه ، واللباقة التي عرف معها أن يحافظ على فرديّته في تشابك هذه التيارات التي أخذت بتلابيب حياة العصر، اذ عرف ان يقف موقفاً وسطاً بين إرضاء مسراته والابتعاد عن سحر المدينة ومفاتن العيش فيها ، يفرغ أيامه في دارته ، المدين بهــا لكرم نصيره مكيني وأريحيته . فلم ينته به تجرده الى المذهب التشككي وصانه من الاستعلاء والكِبْر . وكان يصدر في سلوكه عن حكمة واعية ، وهي حكمة تجردت من كل عاطفة وحرارة بحيث أدت به

الى الاثرة وحب الذات. فلا عجب أن تلقى عقلية من هذا النوع الكثيرين من المريدين والمعجبين حتى بين مجتمعاتنا العصرية . الا انه يبدو اليوم بارداً بعض الشيء . فالأهمية التي يتمتع بها جاءته من الدور الذي لعبه في تطوير مدينة روما من الوجهة الجمالية . فقد أغنى الآداب اللاتينية بأهاجيه *Satires* وبأغانيه وأناشيده وبرسائله الشعرية ، وكلها روائع اتصفت بالاتزان بين قريحته الفياضة وبيانه المقتضب ، ناحياً في ذلك منحى المُثُل اليونانية والروائع الكلاسيكية التي صَدّر عنها ، دون العَبّ كثيراً من شعراء اللاتين القدامى أو من الشعراء الاسكندريين المتحذلقين .

وقد تأثر به كثيراً، أكثر الشعراء المعاصرين لأوغسطس، ممن وصلتنا آثارهم الفكرية، أمثال: تيبول، وبروبيرس، واوفيد. ولا شك في اننا نظلمهم كثيراً وننزل بهم حيفاً كبيراً اذا لم نصِفْهم بأكثر من مقلدين ماهرين لهوراتيوس ، نهجوا نهجه وساروا على منواله . فقد امتاز شعرهم بالرقة والجزالة كما امتاز بالعاطفة المشبوبة وبهذه الحساسية المرهفة والخيال الجنح ، والنكتة المستملحة ، وبمقدرتهم الفنية في التعبير عن خوالج النفس الدفينة التي يعلوها تارة الفرح ، وطوراً مسحة من الألم الشاكي الباكي. فقد عالجوا، باستثناء تيبول بينهم، الموضوعات العزيزة على قلب اوغسطس، وطنية كانت أم دينية . ومن مطالعة شعرهم يبرز أمامنا مجتمع دنيوي ، زاهٍ ، ثقيف رقيق بلغ في تألقه حدود الخفة ، وفي أدبه الأناقة والهيام .

هذا هو المجتمع الذي خرج منه أوفيد بعد ان حز الحرمان شديداً في نفسه وهو في بلدة تومي (كونستنزا اليوم) الى الجنوب من مصب نهر الدانوب ، حيث كان اوغسطس امر بنفيه وإبعاده بعد ان اشترك في مؤامرة دبرتها بطانة الامبراطور . وهكذا نرى ان الادب اللاتيني في روما الامبراطورية اخذ يتسم بطابع الصالونات الادبية .

الفن الرسمي

كان على الفن ان يلعب هو الآخر، اسوة بالادب، دوره البارز في الخطة التي وضعها اوغسطس للنهوض بالامبراطورية ، وحرص على الافادة منه الى ابعد حد . فهو يتبجح بانه تسلم مدينة من اللبن وسلم مدينة من المرمر » . في الامكان الاعتماد على كتابه : « امور الحكم » لننظم قائمة طويلة من المباني والصروح الضخمة التي شيدها ، او رممها ، والمبالغ التي تبرع بها افراد اسرته او بعض اصدقائه الخلص لترميم او إنشاء عدد آخر من هذه المباني . ان رفيقه الاول في الجهاد ، أغريبّا الذي اصبح فيا بعد صهره ، كان عنده بمنزلة وزير الاشغال العامة او التعمير . فالانشاءات العديدة التي شيدها في روما كانت غاية في الاهمية ، فجعلت من هذه المدينة عاصمة تليق بعظمة العهد الجديد ، ثم راح كل الاباطرة الذين تعاقبوا على الحكم من بعده ، يتنافسون في تجميلها وتزيينها واستبدال الكثير من معالمها الاولى . ففي هذا المجهود العمراني الموصول الذي كان يوليوس قيصر نفسه اول من أخذ به، والذي استمر العمل به طويلاً، كان مُلك اوغسطس حلقة طويلة في سلسلة الحلقات التي استمر الاخذ بهـا قروناً ، بحيث لا يجوز التغاضي عن التنويه هنا بهذا الفضل ونحن في معرض الحديث عن عصر اوغسطس .

اما في النحت والنقش ، فكان الامر بعكس ذلك ، اذ ان بعض آثار هذه الفترة ، ولا سيما تلك النقوش التي تزين « هيكل السلام » او تلك التي ازدانت بها تماثيل اوغسطس وعلى الاخص تلك التي قامت منها في قصر زوجته ليفيا في بريما بورتا ، على مقربة من مدينة روما ، فقد جاءت كلها منسجمة تماماً مع السياسة الثقافية والحضارية التي انتهجها الامبراطور ، كما جاءت متفتحة تماماً مع روح ادب العصر . الا ان هذه النقائش لا تتم بعد عن بلوغ روما ، في هذا المجال درجة من الاستقلال تستطيع معها البروز والاكتفاء الذاتي . وهذه الآثار هي إغريقية في معالمها الفنية كما هي اغريقية في طريقة صنعها وانجازها، لسبب وحيد بسيط جداً هو وجود الفنانين الاغريق بكثرة في روما اذ ذاك ، ولهم فيها القِدح المعلى من هذا القبيل ، اذ ان بقاء هذه الآثار غفلاً من اسماء الفنانين الذين تولوا صنعها ، انما يدل صراحة على وضعهم الاجتماعي المتواضع ، اذا ما قيسوا ، من هذه الناحية ، بالادباء الذين كانوا روح الندوات الادبية وراحها . فلم يكن من الصعب قط على اوليـــاء الامر ، ان يوحوا لهؤلاء ، بما يرغبون فيه ، بعد ان يقيدوهم بالموضوع ، ويوجهوهم في انجازه وتحييزه الوجهة التي يرغبون .

وتبدو على هذه الآثار الفنية نزعة ظاهرة نحو الواقعية ونحو الحقيقة المجردة ، كل ذلك بمـــا ينسجم مع اصدق التقاليد الرومانية . كذلك يبدو عليها نزعـــة الى التجريد البطولي ، والى الرمزية الميثولوجية انسجاماً مع هذه التقاليد ايضاً . غير ان النزعتين الفنيتين هما في خدمـــة المشاعر الوطنية ، ملكية كانت ام دينية ، وتؤولان معاً ، وفقاً للروح المسيطرة على النظام الجديد بحيث تؤول الواحدة الى تقوية الاخرى ودعمها . فتمثال اوغسطس لا يصدم الحقيقـة الا بعري الرجلين ، وهو آخر الآثار الباقية من العري الكامل الذي لازم ابطال اليونان ، بينما تفاصيل التوغة تظهر بوضوح كلي وتُبدي الدقة الكلية التي لازمت صنعها . فهامة التمثال ، بالرغم بما يبدو عليها من المثالية المصطنعة ، استطاعت ان تحافظ ، مع ذلك ، على قسمات الشبه ، والتشدد في الحفاظ على المهابة والوقار يبرز واضحاً في النظرة التي تفيض بالوقار ، وبهذه المهابة الهادئة التي تُستشف من الوقفة . فرسوم الدرع النافرة تبرز قسمات هذه الوقار هي الاخرى ، لانهـــا تستحضر في الذهن حدثاً تاريخياً ، هو إعادة احد ملوك الفارثيين ، العلم الروماني بصورة سلمية بعد ان استولى عليه العدو اثر هزيمة نزلت بفرقة رومانية ، في اواخر العهـــد الجمهوري ، على الحدود الشرقية للامبراطورية . والرموز المجازية تطالعنا من كل مكان في هيكل السلام . فالاجزاء المتقطعة التي وصلت الينا من افريز هذا الهيكل ، تمثل هي ايضاً حادثاً تاريخياً آخر : موكب حاشد من جمهرة الشعب الروماني من شيوخ وحكام ، وموظفين وقضاة ، وعائلة اوغسطس يرافقون الامبراطور في مسيرة كبيرة لتقديم الشكر للآلهة ، عند رجوعه مظفراً ، بعد غياب طويل عن روما . فالواقعية التي تشع من خلال الملابس والوجوه والمواقف لا تمس بشيء الفكرة الاساسية الا وهي التفاف المدينة بأسرها حول الامبراطور ، اذ ان الخاطرة الاولى التي تنط الى ذهن المشاهد هي القيام بعمل ديني هو تقديم الشكر .

ويجمل بنا ان نقارن هذه النقوش الفخمة بهذه التحف الثمينة الممثلة بنفس الحجارة الكريمة ،

كالحجر المعروف بـ : « حجر فيينا » الذي نُقش ، ولا شك ، في حياة اوغسطس، بيد النحات الأسيوي الاصل ذيوسقوريذس. والحجر الكريم الآخر المعروف بـ « حجر فرنسا » – وهو دون الاول منزلة ، من الوجهة الفنية – والذي اختلف المؤرخون حول تاريخ حفره ونقشه ، ليس ببعيد كثيراً عن موت اوغسطس. وهذه التحف الفنية ، هي بدون شك ، من وحي الفن الهليني وإلهامه المباشر ، لتأييده فكرة الوراثة السلالية ، اذ شدد الفنان فيها على بعث فكرة تأليه الامبراطور . وفي حجر باريس صورة امير مسجى على سريره .

اما النقوش التي تتجه من نظّارة واسعة فيبدو عليها تحفظ كبير ، اذ همها الأكبر هو ان تُبرز الجلال الامبراطوري منسجماً مع العظمة الرومانيـــة ، وان توحي للرأي بأن كليهما من مشيئة الآلهة وصنعها ، ولذا توجب على البشر التقدم نحوها بالشكر . وهذه الموضوعات تتخلل بكثرة، الادب والفن الرومانيين . فليس من المنتظر ان يسكب فيها نحاتون غير رومانيين ، روح التقوى والخشوع التي سكبها فرجيل مثلاً ، في قصائده . ان تشبيه مقاطعة غاليا ما قبل الألب بروما هو شيء آخر يختلف عن الخضوع ، حتى ولو كان خلواً من كل فكرة مُضمرة ، للشرق الهليني . فقـــد قام هؤلاء الفنانون بتنفيذ هذه الطلبات بشيء من المرونة والتفهم السيكولوجي الذي فيها دليـل على ما أوتوا من مهارة فنية ، وعلى انهم الورثة الخليقون بهذه السلسلة الموصولة الحلقات من هؤلاء الفنانين الذين أنجبتهم الكلاسيكية اليونانية .

٢ ـ الظروف والاوضاع العامة

فاذا كان العهد الامبراطوري استهل بمثل هذا الازدهار البديع للآداب، فلا بدع ان ينتهي عصر اوغسطس بمثل هـذه الكلاسيكية الإتباعية التي عرفنا . فذروة المرتقى برهة وتنقضي . فالحياة لا تتسمر مكانها . فاذا كان من التقاليد المتوارثة التكلم عن رومانطيقية نيرون، فلا حرج قط من التحدث ، والحالة هذه، عن حركة انتكاس ورجعة الى الوراء في عهد هدريانوس . غير ان هذا النوع من التصنيف يصح تطبيقه ، على ما يبدو ، على روما بالذات ، وعلى هذه النزعات التي عملت الدولة على تشجيعها . فالنتائج المسجلة ليست في نتائجهـا على شكل تلازمنا ، وفقاً للوضع القائم في عهد اوغسطس ، الاخذ بهذه النظرية الضيقة .

فالتيار الحضاري راح يتسع ويرحب جغرافياً واجتماعياً، والمظاهر التي تلبسها لم تكن لتصدر عن رجل فرد او عن بطانته التي واجهت مشكلة سياسية ترتب عليها حلّها على اساس ادبي وطيد.

الثقافة والطبقات الاجتماعية العليـــا .

هنالك بعد ، ولاشك ، نخبة تردفهـا بدم جديد ، وتغذيها الطبقات العليا في المجتمع الروماني ، على نطاق أوسع من ذي قبـل ، اذ تبقى ابوابها مُشرعة أمام فريق طيب مختار ، قائم في الولايات. والتربية التي تتلقاها هذه النخبة تصقل فيها الذوق الذي تحمله للآداب والفنون الرفيعة ، كما تذكي عاطفة جياشة

مستمدة من مبادئها ، وان لم يلازم النجاح والتوفيق نتائجها ، في كل ما يتصل بنتـاج الفكر والفن . وهذه النخبة هي مناصرة للعـلم ، مشجعة له ، تتعهد حَمَلته ورجاله ، وتحنو عليهم وتغمرهم بوابل من سخي الوجود وكريم العطاء، وقد وقفت من رجال الفكر موقفاً مشرباً بالعطف والرعاية دونما نظر الى فوارق الحسب والنسب ، والعرق والدين ، وان بدت الفنون نوعاً ما ، دونهم رعاية وعطفاً ، فأمنت لهم الشهرة الواسعة ، والصيت الحسن والحال الرضي . فمرتيال *Martial* يؤلف وحده استثناء للقاعدة ، اذ بقي ، طوال حياتـه ، في كرب وعُسر ونصَب ، أصاره الى بسط الكف والاستجداء ، بينما تنفتح أمام الكاتب ابواب الرزق الحلال ، فيعيش من شق قلمه ، فيدخل عدد كبير من الكتاب الادارة ، ويساعد نجاحهم الادبي عـلى الارتقاء سريعاً في درجات السلم الاجتماعي ليبلـغ بعضهم مرتبة القنصلية . فقد لعب الفيلسوف سنيكا هنا دوراً سياسياً مرموقاً ، وتاسيت عهد اليه بمنصب بروقنصل آسيا ، كما ان بلين الأصغر عُين حاكماً لولاية بثينيا ، ونال فرونتون القنصلية مرتين .

ويهم الامبراطور كثيراً ، ألا ينأى أو يعزل نفسه عن هذه النخبـة المثقفة . فأباطرة هذا العصر كلهم من كبار البناة، وقليلون جداً بينهم من لا يتذوق الأدب أو لا يرعى لرجاله وحَمَلته حرمة . فالامبراطور كلوديوس نفسه مؤرخ كبير، فقيه باللغة وعلومها، بينما أخوه جرمانيكوس قـد شمل بعطفه صاحب القصائد الفلكية : الشاعر أراتوس ده سولس *Aratus de Soles* . ونيرون نفسه ، ألم يكن ذوّاقة ، موسيقياً ، مغنياً ، وشاعراً . والامبراطور فسبسيانوس الذي لم يسمع أحـد نعته بالكرم ، هو اول من عيّن مخصصات ومرتبات عالية ، بلغت أحياناً ١٠٠ ٠٠٠ سسترس، في السنة، أي ما يوازي مبلغ ٢٥ ألف فرنك فرنسي من العملة عام ١٩١٤، تدفع من خزينة الدولة لأساتذة ، أحدهم استاذ الخطابة والبيـان اللاتيني ، هو كونتليانوس ، والآخر استاذ البيان اليوناني، ودومتيانوس نفسه الذي طالما استهدف لألسنة حداد فهتكت منه كل ستر مغطّى ، أسس الى جانب المباريات الموسيقية ، مباريات لفن النثر باليونانية واللاتينية ، لم تلبث ان استبدلت بمباراة للشعر تقـام على شرف جوبتير الكابيتولي ، كل اربـع سنوات . والامبراطور هدريانوس الذي كان هو نفسه كاتباً مجيداً ، عالمـاً ، فناناً ، امتاز بثقافة عالية ، مكنته من معالجـة موضوعات موسوعية ، بيـنما عُرف الامبراطور الفيلسوف مارك اوريل بنزعته الروحانية ، العميقة التي شرّفت ليس الامبراطورية فحسب ، بل ايضاً البشرية جمعاء .

وفي مثل هذه الاوضاع والظروف المسعفة ظاهرياً، والتي توفرت لروما ، راح مؤرخو الفلسفة والادب والفنون، يتساءلون بحق ، ومنذ عهد بعيد، عن الاسباب التي جعلت الحضارة الرومانية التي بلغت الأوج في السياسة والحرب لم تبلغ مثل هذا التسامي في المجالات الاخرى . فاذا كان العقل السليم يأبى الأخذ بهذه الأقاويل الفارغة ، وهذه الآراء السفسطائية التي جاؤوا بها ، باسم العلم تعليلاً لهذا التقصير ، فلا بد من التسليم مع ذلك بأن هنالك سراً لا نزال نجهله . فلا تفتّح الروائع الفكرية او فشلها الذريـع مرتبط بسببية يمكن تعليلها على مثل هذا الشكل المبتسر .

النظام الاستبدادي

كثيرون رأوا ، وما زالوا يرون ، على أنساب وأقدار متباينة ، ان النظام الاستبدادي الذي عُمِل به اذ ذاك ، هو المسؤول الاول عن هذا التنافر . فكل الذين حاولوا ولا يزالون يحاولون تعليل هذا الشذوذ ، يُقصرون تفكيرهم على الامبراطورية الرومانية وحدها . فاذا ما لاقت هـذه الطريقة ارتياحاً كبيراً لدى احرار الفكر في منتصف القرن التاسع عشر ، فهي تبدو مبتسرة جداً في نظر احرار الفكر ، في منتصف القرن العشرين. لا مراء بأن نظام الحكم في العهد الامبراطوري كان نظاماً مستبداً ، وكان من بعض نتائجه ان يحول دون قيام أية معارضة صريحة ، حتى ولو اقتصرت على مجال الفكر . من الثابت كذلك ان هذا الضغط الفكري تَلَبَّس ،في بعض الاحيان ، ولفترات طويلة ، ولعدة مرات ، في نظر كل من يقيم وزناً بعد ، لحرية الفكر ، مظاهر فظة ، وحشية ، حتى درجة التحقير . كذلك من الثابت اخيراً ، وليس آخراً ، ان علم التاريخ – هذا التاريخ الذي عُرف بأخذه بالوجوه والسير مع الهوى والغرض ، بما لا يتفق ومقتضيات العلم الحديث اليوم ، أثار هواجس السلطات العامة وشكوكها . فقد رأينا اوغسطس ، في اواخر ملكه، يأمر بحرق كتاب في تاريخ الرومان وضعه مؤرخ عُرف بنزعته الموالية للعهد الجمهوري . وفعل الفعلة ذاتها الامبراطور طيباريوس مع مؤرخ آخر ، للسبب نفسه ، فأوذي صاحبنا واضطر ان ينتحر متخلصاً مما استهدف له مـن أذىً وضرّ .

ومع ذلك ، فقـد عرف العهد فترات خفّ فيها الضغط الفكري ، ان لم يكن ارتفع . فالامبراطور فسبسيانوس يهزأ بالهازئين وتنكيت المنكتين. وكثيراً ما سلق النقاد بألسنة حداد، تصرف وسلوك المتوفين من اباطرة هذا العهد . فسنيكا ، مهذب ابن الامبراطور كلوديوس بالتبني وخليفته على العرش (نيرون) ، تهكم بسخرية لاذعة على الامبراطور كلوديوس ، في قصة لا تعني كبير شيء ، وضعها عنه بعنوان *Apokolokyntosis* ، أي المستثنى من شراكة الآلهة ، اذ نرى الـ *Divus* الحديث العهد لا يستحيل يقطينة ، أطلق فيها القاص الفيلسوف العنان للسانه السليط وقذف الامبراطور الراحل بقواذع الكلم . وعندما تستلم اسرة ملكية زمام الحكم ، كالأسرة الانطونية ، مثلاً ، تسترسل في قذف سابقتها في الحكم بأبشع النعوت . فلم يقف الأمر عند حد الهجو ، كما فعل جوفنال ، بل راح المؤرخون امثال تاسيت وسويتون يكشفون ، بكل صراحة وحرية في التعبير ، مساوىء القياصرة الراحلين ، وعوراتهم .

ولِمَ نقف في استعراضنا هـذا عند التاريخ وحده ؟ فأسوأ عهود الارهاب يفتح الباب على مصراعيه امام النامين والنفاثين ، فاذا ما جاؤوا من فنون الخسة والدناءة ما يجعل النفوس تتقزز لسماعها ، فلدى البعض من افانين البلاغة والبيان ما يؤهلهم للتنويه بالفضل في تاريخ الخطابة . فالقضية هي اوسع من هذا بكثير وارحب ، اذ انها تتعلق بجميع مظاهر النشاط الفكري والثقافي، حيث يمكن لبعض القطاعات ، ولا سيما لقطاعي الفن والعلوم ، ان تنعم برعـاية صاحب الامر دون ان تخشى شيئاً على نفسها من رعاية ضاغطة او خانقة ، ولا من نزواته المنتقمة . كان لا بد

من بوالو ليوجه ، الى شخص لويس الرابع عشر ، كلمة جاءت على لسان مرتيال بشأن نصراء العلم من شاكلة مكيني قالها إيهاماً لسامعيه ، بأنه : « سهل على اوغسطس ان يخلق رجالاً على مثال فرجيل » ، فهو حكم تصدمه الحوادث ويكذبه الواقع . كذلك من الجرأة بمكان ان يذهب المرء الى عكس الآية ، مهما كش من كان على شاكلة شيشرون ، لدى التأكيد بأن باستطاعة اشخاص على مثال طيباريوس ونيرون ان يحولا دون بروز او ظهور اشخاص من عيار فرجيل ومنع تجليهم . فاذا ما حاول المرء اطلاق مثل هذا القول على الحفارين او على علماء الفلك ، او على علماء التاريخ الطبيعي، على نسبة ما كان يسمح العلم اذ ذاك بظهورهم ، فيكون مثله مثل من يتشبث بالمحال او يتعلق بحبال الهواء او بمخاط الشمس .

الشعوبية

يعلل بعضهم هذا الوضع بنظرية أخرى، لا حرج عليهم قط باعتمادها اكثر فأكثر، شريطة أن تكون على جانب من الاقناع او تعيد الفكرة الأساسية التي عالجها الكونت دو غوبينو *De Gobineau* في كتابه الموسوم: « بحث حول التفاوت القائم بين العرزق البشرية » . وتشدد النظرية المشار اليها بنوع خاص ، على الشأن الخطير الذي لعبته الشعوبية في روما من جراء توافد سكان الولايات اليها ، من كل جنس ولون ، ومـا سببته هذه الظاهرة الاجتماعية من فقدان التوازن عـلى الصعيد الإجتماعي في روما ، ومـا ألحقت بالوقار الروماني من انتقاص، بعد أن كان هذا الوقار من السمات البارزة التي طبعت الحضارة الرومانية وفرّدتها.

ان علم الأجناس ، شأنه شأن علم تاريخ الحضارات ، يشجب بشدة الرأي القائل بأن التهجين أو الخلاسية مدعاة للانحدار والهبوط ، يجمع بين الشوائب أكثر مما يوحد بين المناقب . ففي هذا الانبساط أو التوسع العرقي والخلقي الذي شهدته روما والذي انتقصوا كثيراً من قدره بعد ما ألصقوا به من ابشع النعوت وأحطها، لم يكن كل شيء، بالطبع، عاطلاً او سيئاً. فالهلينية حملت معها ثمرات جهادها وجهودها الطيبة . وهذه الفلسفات والديانات التى حملتها معها ونقلتها بما انمازت به من طابع شرقي أجنبي ، على ما بينهـا من فروق أصيلة او عرضية ، مكتسبة او مستوردة ، أغنت ولا شك ، عقول القوم ، وأخصبت قرائحهم ، واطلقت مشاعرهم . وليس ما يدل قط على ان فلاسفة اللاتين ومفكريهم وكتابهم فسدت منهم حيالها النفوس والاذواق. وعلى عكس ذلك تماماً نرى ، بشيء من الغرابة ان ما من واحد منهم، باستثناء « ابوليه » لا غير، تأثر بما انطوت عليه من جمال ، ولا حاول باي حال من الاحوال ان يعبر عن الخشوع الذي بعثته في قلوب اتباعها . فالفن نفسه، باستثناء روما بالذات ، لم يجد فيهـا اي معين يساعده على التجديد والانبعاث .

اما الغرب ، فقد قدّم لروما ، عدداً من الكتاب وحملة الاقلام الذين بالرغم من اتخـاذهم اللغـة اللاتينية ، ليعبروا عن آرائهم ومشاعرهم ، كتابة وتكلماً ، لم يتخلوا قط عن ميولهم الفردية الخاصة ونوازعهم النفسية ، مع العلم انه ليس من اللائق ولا من الجائز قط ان يبادر المرء للاستنتاج ، بصورة لا تخلو من الاساءة ، استمرار الخصائص الاقليمية فيهم ومحافظتهم عليها .

فالامر لا يتعدى نزعات فردية ، شخصية، لا يصح تعميمها الا اذا افترضنا فيهم اعتباطاً، مهارة وقدرة خفي علينا خيطها المدود . فقد كشف ، احد المعاصرين ، على ما قيل ، في لغة المؤرخ الروماني تيت ـ ليف، تعابير ومصطلحات لغوية، إقليمية او محلية اللهجة ، من العسير جداً على العلم اليوم ان يلحظها او ان يتبينها لما نحن عليه من جهل مطبق لهذه اللهجة البدوانية التي رضعها تيت ـ ليف في حداثته . ولم نرَ احداً قط يدّعي انه وجد في عبارة فرجيل او عبارة بلين الاصغر — مع العلم ان تاسيت تشده الى ايطاليا الشمالية وربما الى غاليا الجنوبية وشائج متينة — ما يدل او يشير لغوياً ، الى ارتباط هذين الكاتبين ، بمقاطعة غاليا قبل الألب . فلقد كان لروما من قوة التمثيل والامتصاص ما استطاعت معه القضاء على هذه الخصوصيات . فلماذا يريدونها ، اذاً ، ان تفشل هنا، وفي هذا المجال بالذات، برسالة ومهمة قامت بها على الوجه الأمثل ، في جميع اطراف ايطاليا ؟

وقد راح بعضهم يتذرع بذرابة اللسان التي عُرِفَ بها الخطباء اللاتين الذين انحدروا من مقاطعة غاليا . فقد عدت منهم روما ، اذ ذاك ، عدداً كبيراً اصابوا فيها شهرة واسعة . اما ان نرميهم مجاناً ، بثرثرة سطحية، فافتراء رخيص لا يستند الى دليل ، ولا يمكن ان يستحقه ، لا «دومتيوس أفير» الذي ينحدر اصله من مدينة نيم *Nimes* ، في فرنسا ، اذ تمت له في اواسط القرن الاول مكانة عالية في الخطابة عادت عليه بالصيت الحسن ، ولا الآخر يوليوس الافريقي الذي ينسب اصلاً الى مقاطعة سانتونج، ولا هؤلاء الاساتذة الذين يصورهم لنا تاسيت في كتابه : « حديث عن الخطباء » امثال : يوليوس سيكوندوس الذي كد وجد ، وماركوس أبير الذي كان خير من مثل الخطابة والبلاغة في زمانه والذي جمع الايجاز الى الاعجاز واشتهر ببيانه المنطلق الذي يفيض حماسة واندفاعاً . كذلك ليس من الغلو في شيء ان نرى سنيكا وابن اخيه لوقين ، وكلاهما من مواليد قرطبة ، في اسبانيا ، يبذلان جهداً ظاهراً للتبريز في صقل اسلوبها البياني للفت النظر والبروز للعيان ، وهي من مفارقات الاسبان ، كما يدعون ، اذ عبثاً نحاول العثور على هذا الاسلوب عند غيرهم من الكتبة المنتمين الى مقاطعة اسبانيا الشمالية ، امثال كونتليانوس ومرتيال . وهذا القول يمكن إطلاقه ايضاً على هذا الفريق من الكتبة المعروفين بالكتبة الافريقيين ، امثال فرونتون من بلدة سيرت (قسنطينة اليوم) ، وابوليه مادور ، وترتليانوس القرطاجي، مع ان الأول بينهم استثمر ما عرف به من بلاغة ومقدرة خطابية في روما، بينما لم يُقم الآخران فيها الا لماماً . ولا يسع المرء الا ان يأنس عندهما ميلاً ظاهراً للغلو ، والعبارة المعقدة البناء ، المتعاظلة التركيب . اما حماسة ترتليانوس المناضل عن المسيحية بحرارة وايمان ، فيقابلها، من جهة اخرى، المقدرة البلاغية التي يبديها مواطناه الآخران دونما طائل، اذ تستحيل عند ابوليه ، الى شيء من هذه الرمزية المخلخلة . فهذه الاحكام العامة لا يؤبه لها ولا يؤخذ بها ، بعد تسليط هذه الاضواء الكاشفة عليها . ومهما يكن من الامر ، فليس من يعتقد ان هؤلاء الكتبة الذين وردوا على روما من الولايات ، اساؤوا بشيء الى هذا التجلي الذي تفتّح عنه النبوغ الروماني ، بما تم له من طاقات وقدرات كامنة فيه .

ولكي نصل الى صميم القضية ، علينا الا ننسى، فهم الشعب المبطن الذي تخفيه كلمة «شعوبية» التي اطلقوها هنا ، وبهذه المناسبة بالذات ، ضد السياسة الثقافية التي انتهجتها روما . والتهمة الصريحة التي يوجهها اليها الناقدون هي أنها استقبلت بالترحاب الحار ابناء هذه الويالات التي سبق لها ودوختها وضمتها الى سيطرتها . لا يستطيع المرء ، على عكس ذلك تماماً ، الا ان يقدر عالياً هذه الروح الطَّلَعَة التي تميزت بها روما فراحت تحتفي بحرارة، بهذه العلوم والافكار ، والآراء والاذواق التي حملها معهم من ورد عليها من الخارج ؛ وهذا النداء الذي وجهته لجميع الناس ، الى اي عرق اوجنس او طبقة اجتماعية انتموا، وعلى اي مستوى كانوا، وهذه القابلية التي برهنت عنها في استيعاب هذه المؤثرات وتمثلها ؛ وهذه الحفاوة التي احتفظت بها للشرق الهليني ، والعون المؤزّر الذي بذلته للغرب المتخلف ، اذ ذاك ، عن ركب الحضارة فساعدته على قطع المراحل حثيثاً واللحاق بالمستويات المسجلة ؛ ففي هذا كله ، تتجلى على أتمها امثل الفضائل التي حققتها الحضارة الرومانية فكانت منار مجدها المؤثل، بالرغم من بعض الشوائب التي اعتورتها، فضفرت لها اكليلا من المجد الابلج الذي لا يخبو له سناء ، مهما تراكمت عليه الدهور .

رهافة الذوق عند النخبة الواعية

وبدلاً من ان يصيخ المرء أذناً صاغية لهذه التعِلاّت المحمومة التي ظاهرها حق وباطنها بطل ، يحسن بنا ، ونحن نسجل توقف ، ان لم نقل افول ، هذا الازدهار الذي شرّف عهد اوغسطس، من الوجهة الفكرية والفنية على السواء ، ان نتبين ما كانت عليه النخبة في المجتمع الروماني العالي من ذوق رهيف ، بعد ان اصبح البحث عن اسباب هذا الوضع الجديد والدوافع اليه ، بمنأى من مناهج التاريخ وأساليبه . وهذه النخبة القليلة العدد نسبياً ، التي هي وقف على العاصمة روما او تكاد ، والتي تنعم بما تنعم به من ثراء عريض ، وبما هي عليه من ظرف عالٍ وثقافة عريضة ، والتي تهفو منها النفس الى المتعة العقلية والمادية على السواء ، كما تهفو الى كل ما يزيد منها الحياة بهجة وبهرجاً من حلي في الخارج ولذة في الروح ، وكلها أمور هيأت ، على ما يظهر ، هذا المجتمع لعبث النوادي وطيش الحلقات ، رأت نفسها مفطومة من كل غذاء ، ومقطوعة عن كل اتصال بدافع الحياة . صحيح هذا كله . ولكن ، ما الذي جعل الكلاسيكية تشيل في فرنسا وتنتصر على تيار التصنع والتحذلق ، دون ان يطرأ أي تغيير على المجتمع الفرنسي اذ ذاك ؟ والى هذا ، فليس من ميزة واحدة من بين هذه المميزات التي توفرت لعصر اوغسطس ، بقي معمولاً بها او متوفرة حتى نهاية الامبراطورية الرومانية العليا . فالارستوقراطية القديمة زالت وتوارت من الوجود ، بينما الارستوقراطية الجديدة كانت تغتذي دوماً، وبدون انقطاع ، بعناصر جديدة طلعت من مجتمعات طبقية مدنية او اقليمية اوسع . ولم تكن اذواقها المكتسبة لتصدر عن نوازع وراثية، كما لم تكن ميولها ميول اصحاب الذوق الرفيع من أبنائها . وهذا البذخ الجنوني عند الخاصة ، استبد مرة واحدة ، في منتصف القرن الاول ، وفي عهد الاسرة الانطونية ، بينما لم تحدث هذه النخبة فيما نعمت به من غنى وثراء، كان ولا شك، على الاجمال ، دون ما تم من أمثاله للنخبة

السابقة مثل، ما احدثت هذه حولها من جَلَبَة وقرقعة. غير ان ما تميزت به من نشاط فكري وثقافي وتهافت على كل المظاهر الجالبة، والاستمتاع بكل ما ينم عن ذوق رهيف في تعبيره اللفظي والفني، كل ذلك لم يطرأ عليه تغيير يذكر. وليس من اقل فضائل هذا العهد واخلاقيته، وهو شيء لازمها حتى نهاية التاريخ القديم، ان تحافظ هذه النخبة من نبلاء الدولة، نزولاً منها عند رغائب الأباطرة، وان تقدم الدليل دوماً، على تمسكها بهذه المناقب، كما تحافظ على هذا المستوى الثقافي والحضاري الذي خُيّل لها انه بلغ سدرة المنتهى.

من الظلم الفاضح، وأيم الحق، ألا يقدروا هذه الحضارة حق قدرها، كما انه من العَمَه ألا يلاحظ المرء هذا الصغائر التي شابت هذه الحضارة والتي لا يمكن الاشارة اليها كلها لكثرتها.

الاعجاب بالماضي

ليس من أقل هذه الصغائر شأناً، سوء الاستعمال في المعرفة او الافراط فيها الذي أدّى الى تفضيل آثار العهود الماضية المقليسة باعتبارها أقوى وقعاً، وأوفر متعة في النفوس. ولقد كان سبق لبعض الاغريق في العهد الهليني ان نحوا هذا المنحى. ألم ينشئوا في مدينة «برغاموس» شيئاً يشبه المتاحف الفنية؟ وهذه النزعة العارمة نحو القديم والحرص على جمعه والاحتفاء به، ظهر اول ما ظهر، في روما بالذات، اذ راحت تحفل بآداب الاغريق وتُقبل على تلقفها واستمرائها، اذ لم يكن يوجد بعد آثار رومانية قديمة حريّة بالاهتمام. وقد رغب اوغسطس بنقائش الاغريق وهذه النقوش التي كانت سبب شهرة مدينة كورنثس، منذ القرن السادس ق. م، ودفع طيباريوس ثمناً باهظاً لصور ورسوم من ريشة الفنان اليوناني برّاسيوس من مشاهير رجال الرسم عندهم في القرن الخامس بعد ان نزلت من نفسه منزلة عالية فضلها على رسوم أبّيل الاغريقي الذي عاصر الاسكندر. وهذا التصنيف لم يلبث ان استبد بالنفوس فاتخذوا منه منوالاً نسجوا عليه، بحيث ان آثار بوليكليت وميرون صادفت تقديراً أعلى مما صادفته نقائش فيدياس. ومع ذلك، لم يظهروا أي إعراض او ازدراء بالاعلاق الادبية الكلاسيكية، حتى ما عاد منها للقرن الثالث. وراح كل روماني على جانب من الثروة والغنى ينشيء له منها مجموعة شخصية، فذهبوا في ذلك كل مذهب وغالوا فيه حتى خرجوا عن حدود العرف والمعقول، واستهاموا بالآثار القديمة حتى حدود الهوس والجنون بحيث ان المهندس فتروف خطط في التصميم الهندسي الذي وضعه لمنزل نموذجي، محلاً لحفظ مجموعة خاصة من الرسوم والصور يأتيها النور من الشمال، كما عثروا في جميع أنحاء الامبراطورية على مخابيء لمجموعات من الجوهرات، بينها مجموعة من ١٠٠ قطعة وجدوها في بوسكوريال، على مقربة من مدينة بومبيي، وعلى مجموعة أخرى من نحو ٦٠ قطعة، في مدينة برتروفيل، على مقربة من برناي، من اعمال مقاطعة نورمانديا. ومهما بلغ انتاج الاغريق قديماً من الآثار الفنية، ومهما بقي هذا التراث الفني متوفراً بالرغم مما تعرّض له على مر الدهر، من سلب ونهب، وتَلَف وعبث، فلم يكن بالطبع ليَسدّ او ليُلبّي رغائب الهواة. ففي الحين الذي نشطت فيه حركة الاتجار بهذه المصوغات والمصنوعات الفنية القديمة منذ العهد الهليني، راح النسّاخ والمقلدون يزيفون الكثير من هذه

النفائس لتلبية شدة الطلب لها وإشباع نَهَم الطامعين فيها، المتحرقين لجمعها بعد ان اشتدت حولها رغائب القوم وافتتنوا بها دونما حساب . والى جانب هـذه القطع المزيفة التي بلغ الزيف منها درجة من الدقة والاتقان ، بحيث اختلط على أمهر خبراء العصر اليوم ، التمييز بين الزائف منها والأصيل ، كما نشاهد ذلك ، مثلاً ، في صورة هرمس لبراكسيتل التي عُثر عليها في مدينة اولمبيا. فقد كانت معظم الآثار الفنيـة الجديدة تستلهم القديم من هذه النقائش والأعلاق فيها ، احتذاء بالامبراطور هدريانوس الذي افتتن بهذه الهواية الى درجة الهوس . غير ان الانجذاب نحو الماضي أتى فعله السيء على الجهود التي لا بد منها لتأمين مقومات النجاح لكل حركة تجدد وانبعـاث تروم الانفتاح وتسعى الى الانتشار لتبلغ النضج والتمام.

شيء من هذا الهوس ظهر في عالم الادب على اختلاف مجالاته وقطاعاته . فالى جانب روائع الأدب اليوناني الذي كان محط آمال وانظار من يحسنون اللغتين اليونانية واللاتينية ، توفر للادب اللاتيني محصول طيب سَهُل الحصول عليه لمن يرغب فيه. وقد أخذت المكتبات العامة وخزائن الكتب الخاصة يزداد عددها في روما ، بعد ان طلعت على الناس اول ما طلعت في عهد يوليوس قيصر بحيث اصبح عدد المكتبات العامة فيها ، في القرن الرابع للميلاد ٢٨ مكتبة . ومن ناحية اخرى ، اتاح توفر الارقاء والنساخ ، استنساخ الكثير وتضعيف العديد من الآثار الفكرية القديمة التي كانت من الكثرة والوفرة بحيث راح الناس يختصرونها ويؤلفون مجاميع من مقتطفاتها الأثيرة ، واكثروا من هذه المختصرات الأمر الذي افضى الى إهمال المطولات وتعريضهـا بالتالي للزوال ، كلياً او جزئياً ، وبذلك فقدنا الامكانية للتعرف عن كثب ، الى آثار الآداب اليونانية واللاتينية . ولكن لم يكن الوضع ، اذ ذاك ، بلغ مثل هذا الحد من الخطورة. وعلى عكس ذلك تماماً راح الناس يتدارسون هذه الآثار وينعمون النظر فيها ملياً بشيء من الاحترام تجاوز التقديس الى الوثنية، أفسد منهم الروح ، وبهّم المعنى المقصود بحيث اضطر المعنيون بامرها الى استنباط المعاجم الخاصة ، ووضع الشروح والتفسيرات والتعاليق الايضاحية ، للاساليب البيانيـة والتعبيرية ، بدلاً من ان يستوحوا منها موضوعات جديدة ، في معناها ومبناها ، والتعبير عن الاحاسيس التي يجب ان تفيض بها. وقد بلغ منها التبذل في التقليد والمحاكاة بحيث انتحلت شعراء وكتاب العصر الكلاسيكي . ونسج كثيرون على منوال الإنياذة عدداً من الملاحم الاسطورية ، فوضع سيليوس إيطاليكوس ، في عهد الاسرة الفلافية ، ملحمة أدارهـا على تاريخ الحرب البونيقية الثانيـة ، كما يقص لنا تيت ـ ليف خبر ذلك ، واضاف اليها اضافات كنزول شيبيو الافريقاني الى الجحيم رغبة منه في استشارة ابيه والعمل بنصحه وهديه، تشبهاً بإبنه الذي راح من قبل يستفتي اباه أنكيز . وقد اوغل بعضهم بعيداً في هذه الحركة بحثـاً عن غذاء اكثر استساغة لاذواقهم . نرى ، منذ اواخر القرن الثاني ، كونتليانوس ، وهو على ما اشتهر به من تعصب للكلاسيكيين يتساءل عمـا اذا كانت دواوين الشعراء الاقدمين تفيد في تربية النشء الجديد وصقل اذواقهم. فلا عجب، والحالة هذه، ان يطرحوا على بساط البحث مثلاً كتاباً بشهرة شيشرون وفرجيل ايضـاً . ولم يتورع هدريانوس من ان يفاضل بهم كاتون وأنّيوس. ففي

الرسائل التي ارسلها فرونتون الى تلاميذه من امراء الاسرة المالكة والتي لم يبخل لهم فيها بالنصح والارشاد حول الكتب المستحسن مطالعتها وقراءتها ، لم نره يأتي ، ولو مرة واحدة ، على التنويه باسم فرجيل . وفي النصف الثاني من عهد الاسرة الانطونية ، كان أنثيوس موضوع تقدير الجميع كما كان له الكثير من الانصار المتحمسين والمريدين الاشداء . ويروي لنا «أولوجيل» وهو من المتعصبين لأنيوس ، كيف كان يثير حماسة سامعيه في احدى المدن الايطالية عندما يقرأ لهم في مسرح المدينة قصائده القديمة .

الانحرافات الدنيوية

القراءات العلانية، هذا ما يطالعنا من مستحدثات العصر ومن عادات المجتمع التي أطلّت علينا من شيوع هذه الثقافة الادبية وانتشارها بين الطبقات الرفيعة من المجتمع الروماني ، اذ ذاك ، والذي يشير بجلاء ووضوح الى الاتجاه الذي اتجهته هذه الثقافة . وهذه القراءات العلانية *Recitationes* التي ادخل اسينيوس بوليون استعمالها في روما، لأول مرة في اواخر عهد الحروب الأهلية ، والتي جعل منها الرومان بديلاً لنظام المحاضرات التي عرفها الاغريق منذ عهد السفسطائيين ولقيت نجاحاً منقطع النظير بما أثارت ، لمدة طويلة من حماسة وألهبت من مشاعر . فقد عرفت ان تجمع بين المتعة العقلية وبين لذة اللقاءات الاجتماعية، كما وجدوا فيها عِوَضاً عن هذه المناقشات والمجادلات التي عفا كل أثر لها في المجتمعات والمؤسسات الادارية، ولا سيما في جلسات مجلس الشيوخ . وسواءاً تناولت هذه القراءات الشعر او النثر ، فلم يبق مؤلّف إلا وراح يقرأ تباعاً، على حلقات من المستمعين والمستمعات يتحلقون حوله ، كلما انتهى من وضع فصل او جزء من كتاب يعمل على وضعه ، فيحاولون ، بشيء من التمثيل المسرحي الرخيص ، كالتصفيق الداوي المأجور والالقاء المتصنع المصحوب بالاداء ، ان يثيروا اعجاب القوم، فينطلق الحضور والنظارة بالثناء والمدح الرخيصين، قبل ان يكتمل نشر الكتاب ويرى فيه المتمكنون من العلم . ولا يخفى ما في هذا الاسلوب من أذىً يقع على فكرة التأليف المنهجي في الكتب الطويلة النفس ، كما ان هذه الطريقة أفضت من جهة أخرى ، الى اضاعة وقت الكاتب وهدره جزافاً في البحث عن النكتة المستملحة والتعابير المستظرفة ، والكلمات المثيرة ، والمجازات الغريبة ، والتوريات النابية ، والاستدارات المستهجنة والمفارقات الصارخة، والتراكيب المعبّر عنها بالمعادلات، وغير ذلك من حوشي الألفاظ والاوضاع التي تنبو عن الذوق السليم . كل هذا ظهر في ادب العهد الامبراطوري ، فصبغه بهذا البهرج الزائف وبهذا الطعم التافه الذي يمجه الذوق .

وهكذا ساعد هذا النمط من القراءات العلانية على تقوية هذه النزعات الجديدة التي طرأت على المجتمع الروماني ، فاستسلم لها منذ عهد بعيد . وهذا الانزلاق الى هذا المنحدر الأدبي ، هل نسأل عنه المرأة الرومانية التي رضعت افاويق هذه الثقافة وحلبت أشطُرَها فلعبت دوراً بارزاً في هذه الحلقات والصالونات الادبية ؟ انه لفخر أثيل لروما ان تسهل عتق المرأة بتحريرها اجتماعياً وفكرياً وثقافياً ، سيراً منها مع الحركة التي وجدت منطلقها في المجتمعات والمنظمات

الهلينية. ومهما يكن، فاذا كان الامبراطور هدريانوس هو خير من يمثل هذه الهواية التي استبدت برجال العصر ، اذ ذاك ، فليس المسؤول عن هـــذا التدهور او الانحدار الأدبي هؤلاء النسوة الدَعِيّات المتحذلقات ممن شاركن حياة البلاط ، كهاتين الشاعرتين : بَلْبِيلا *Balbilla* وتريبولا *Trébulla* اللتين اشتركتا في الرحلة الى مصر عام ١٣٠ ، وفيها ماتتا ونقش احد اشعارهما علـى حافة تمثال ممنون *Memnon* الى جانب أسماء الامبراطور وزوجته وعشرين غيرهم ممن اشتركوا في هذه الرحلة .

وهذه الهواية التي كانت تتم في الصميم عن فضول عام وحب اطلاع، حملت الناس على السفر والقيام بالرحلة الى الأماكن والأقطار التي كانت مثاراً للخيال بما يرافق تاريخها السحيق مـــن أسرار ، كانت ملهمة لعدد من الكتب والأبحاث في مجالات الفن والادب ، حتى ان بعض الأباطرة راحوا هم أنفسهم يستعملون ريشة الرسام ومنقش الحفار . وهكذا اخذت تدفع الناس الى الاكتفاء بالسطحي من العلم والثقافة ، او الى التصنع في هذه الفنون التي هفت اليها اذواق القوم اذ ذاك ، كالادب مثلاً . فالظهور بالظرف وتكلف الذكاء في الصالونات ، وقرض بعض القصائد من مجزوء الشعر ، وتنميق بعض الرسائل او صقلها ببهرج الكلام والمحسنات البيانيـة والمجازية ، كل هذه السمات الصغيرة اخذت حق التقدم والصدارة على غيرها من الصفات الاصيلة في صناعة القلم . ولئلا نستفيض في هـــذه الشؤون ونسهب في تفاصيل لا كبير جدوى منها ، يكفي ان نحيل القارىء الى الاجزاء العشرة الأولى من رسائل بلين الاصغر ، اذ ان العاشر منها يؤلف مجموعة رسائله الرصينة مع الامبراطور ترايانوس . ففي كل صفحة من صفحات هـــذه الرسائل مثال حي لسخافة هذا الاسلوب الذي ينم عن اغراف الذوق الذي تثير قراءته مع ذلك ، اللذة لما فيها من رقة ومتعة .

نظام التربية اذ ذاك : الخطابة

من التقاليد المتعارفة ان نجعل نظام التربية التي خضعت لهـا الشبيبة ، اذ ذاك ، والتي كانت تُعنى ، قبل كل شيء ، بالبيان والخطابة ، مسؤولاً الى حـد بعيد ، عن الاتجـــاه الفكري بالمجتمع الروماني الرفيـع ، في ذلك العصر .

بالفعل ان ايثار البلاغة والبيان ، كما نصح بذلك ايزوكراتيس ، منذ القرن الرابع ق . م ، وتفضيلها على سواها باعتبارها قوام الفلسفة الحقيقية وخير المناهج التربوية وامثلها يكوّن ، ولا شك في ذلك ، احد هـــذه الاقتباسات التي تعترف الحضارة الرومانية صراحة بنقلها عن الحضارة الهلينية .

فظهور النظام الامبراطوري في روما اوجد شروطاً جد ملائمة لازدهار البلاغة والفصاحة والبيان ، فجاء هذا الظرف شبيهاً بالظروف ذاتها التي هيأها لها منذ عدة قرون، الاخذ بالنظام الملكي في البلدان الواقعة الى الشرق من البحر الابيض المتوسط . فقد انقضى عهد هذه المجادلات والمناقشات التي كانت تدور امام المجالس والهيئات البلدية ، كما زال وانقضى عهد هـــذه الدعاوى

التي كثيراً ما تخللها قضايا سياسية كبرى . فعلى الخطيب ، الآن ، ان يلقي دفاعه في نطاق ضيق وحول قضايا خاصة ، او ان يقصر دفاعه على خطب وهمية ، تقرأ ولا تلقى ، كما فعل ايزوكراتيس ، مع وجوب التقيد بالمبنى او المعنى أو والشكل والصورة ، او ان يُسهم مع غيره من الخطباء في ما يلقى في بعض المناسبات كالاعياد والحفلات يضمنها الثناء العاطر للملك والتغني بمآتيه وأعماله . وهكذا يبدو من غير المعقول ، كما يبدو مخالفاً للعرف والتقاليد المرعية في العالم الروماني والعالم اليوناني ، على السواء، الا تنعم الخطابة بمثل هذا الشأن الخطير في النظام التربوي المعمول به ، اذ ذاك ، في العالم الروماني ، في الوقت الذي فقدت الخطابة كل اهمية عملية لها .

وكانت الخطابة والبلاغة والبيان خاتمة المطاف في النظام التربوي الذي بقي على ما كان عليه دون ان يطرأ عليه اي تبديل ، وكما انتقل الى البلاد اللاتينية كما هو ، وعمل به فيها على علاته . وقد أهمل في هذه التربية شأن العلوم فقنعوا منها باوليات الحساب بينما كان تدريس العلوم وقفاً على بعض الخاصة ، ينصرفون اليه بعد انتهاء فترة التعليم العام . والمنهج التربوي العام لم يكن ليهدف الا لتكوين ادباء وحمَلة اقلام ولا سيما خطباء ورجال بلاغة . وبعد التعليم الابتدائي الذي كان ينحصر في الأجرومية ، من صرف ونحو ، كان الطالب يُلقن بعض مبادىء الادب عن طريق تعريفه الى مشاهير الشعراء وآثارهم البارزة، امثال هوميروس وفرجيل، يحفظها الطالب عن ظهر قلبه مع بعض الشروح والتفاسير والتعاليق . والى هذه المبادىء في اللغة والادب كان الطالب يلقن دروساً في المعجمية والشعر والنحو ، كما يلقن دروساً في الاخلاق والميثولوجيا . وعندما يبلغ سن المراهقة يأخذ الطالب بدرس الخطابة وما اليها من بيان وفصاحة وبلاغة ، في شروح وتفسيرات تتناول كبار الكتاب والخطباء ومشاهير المؤرخين ، وأمثلة من الخطب التي ينحلونها والامثلة العديدة التي يتمثلون بها أو يأتون بها شواهد ، مع ذكر طائفة من النوادر والنكات المستملحة التي تدل على سرعة الخاطر وحضور الذهن ، كان على الخطيب ان يطلع عليها ليستشهد بها . وتدريباً للطالب على فنون الادب ، كان يطلب اليه معالجة موضوعات غير واقعية ، فيعد لها مذكرات تؤيد او تدحض ، كما يقوم بمذاكرات ومناقشات ، أو ان يقوم باعداد دفاع عن أمر ما *Suasoriae* . ولكي يلهبوا من طالب الخطابة الخيال ، ويبعثوا في مُحيّاه النشاط ، كثيراً ما كانوا يضعونه ، عن سابق قصد وتصميم ، امام مواقف خيالية أو اوضاع يواجه فيها صعوبات معقدة ، مستعصية الحل من الوجهتين الادبية والقانونية . ولم يكن ليهول الحكومة او ليحركها ما كان يبلغ مسامعها او ما يُنقل اليها من الدعوة الى الحرية أو التغني بها، او تحبذ من يدعون للطغيان والاستبداد في الحكم وغير ذلك من المبادىء الهدامة في ظاهرها مما تتجاوب ارجاء المدرسة أو المعهد باصدائه ، اذ لم يكن ليخطر على بال احد ان هنالك من يستجيب لهذه الدعوة أو ينهض بها ، اذ لم يقصد من هذا القول سوى الارتياض العقلي والذهني ، والتخرج بافانين البيان .

وكان السواد الاعظم من الشبان الذين باستطاعة والديهم ان يكفلوا لهم اسباب التعلم يقتصر

على مثل هذا المنهج الدراسي ، وقليل بينهم من ينهض لدراسة الفلسفة . إلا ان التطور الذي رافق الحركة العلمية والتربوية أوهن كثيراً من الوشائج التي شدّت طويلاً ، عند الاغريق قديماً ، بين الفلسفة، من جهة ، وبين الرياضيات وعلم الفلك، من جهة أخرى . فقد ازداد عدد مدارس الطب غير ان فريقاً كبيراً من الأطباء كان يتخرّج بهذه المهنة عملياً ، بالمراس والمران ، وذلك بالتحاقه ببعض الأطباء فيلازمهم ويأخذ عنهم. ومن فضل الرومان على تطوير التربية والتعليم، سبقهم غيرهم الى تدريس الحقوق والشريعة بمعاهد خاصة أنشأوها لهذا الغرض ، بعد ان تبينوا الأهمية الكبرى لهذا العلم. فدرجوا على إعطاء شهادة تخرّج في الحقوق لمن أنهى دراسته القانونية، وهو أمر لم يجرِ ما يشبهه في الطب . فاذا كانت هذه الشهادة تفتح امام حاملها ابواب الوظائف، فلم تكن مع ذلك بشرطٍ أساسي لولوج الادارة ، كما ان ممارسة المحاماة بقيت دوماً حرة من كل قيد .

فليس بغريب قط ان تحتل فنون البلاغة والخطابة ، في مثل هذا البرنامج الطويل الهادف لتأمين الاختصاص ، محلاً هاماً أكثر من اللازم ، لا سيما وقد خصوا البيان والفصاحة بدروس ارادوها على مثل هذا الشكل من التقعر والتطويل ، بعيدة عن الحياة العملية ، وهي دروس ادنى الى ادب الخيال والتخصص لا تقيم وزناً إلا للمقدرة البيانية والصياغة الزخرفية ، بعد ان قضت الظروف بابتعاد هذه الدروس عن واقع الحياة العملي، مما لم يغب يوماً عن أعين ايزوكراتيس.

وكانت هذه الدروس تهدف ، في الاساس ، للبحث عن الأفكار والكشف عنها والتنسيق فيما بينها ، وفقاً للتسلسل المنطقي ، والتعبير عنها بأناقة ووضوح ورشاقة ، اد تمكن من تلقاها من مواجهة أدق المواقف وأصعب المهمات التي تعرض له. فهل حققت ، يا ترى ، الاهداف التي رُسمت لها ؟ ومهما يكن ، لا بد من الاعتراف هنا ما كان للتربية والتعليم عند الرومان من فضل ، اذ زودت الامبراطورية بالأُطر والملاكات التي شغلها افراد تسلحوا بالعلم والمعرفة ، بالرغم من بعض النواقص التى شابتها والأمور المستهجنة التي اعتورتها ، وسلحتهم بفضائل ومناقب تمثلت على احسن وجه بهذه النخبة التي قامت على خدمة الادارة ، ونهضت بأسبابها .

هنالك ملاحظة لا بد من ابدائها هنا تتعلق بالسهولة التي يأخذ بها البعض في نقد هذا النظام التربوي فيرمونه بكل َفريّة. فاذا ما انتسخ هذا النظام مع روما القديمة، فقد كُتب له ان يُبعث حياً فيما بعد . فعندما نرسم الخطوط الكبرى التي سارت عليها هذه التربية فاننا نلمع ، ولو من طرف خفي ، الى النهج الذي تبنته الدول الكبرى في غربي اوروبا ، منذ القرن السابع عشر حتى اواخر التاسع عشر . فقد نسجت روما في هذا المضمار على المنوال الذي تسلمته من الحضارة الهلينية. فمسلكها هذا انما يعني السير معها على المُثل السامية التي سارت عليها الانسانية، وليس بمجرد التزام تقليد متبع ، وعرف مستبد . ويبدون ان نحسب بان هذه المُثل قد زال عهدها وانقطع ، فبالامكان ، مع ذلك ، التزام مناهج اخرى تضمن تحقيق هذه الاهداف . فاذا ما راحت مدنية هذا العصر تتنكر لهذا الدّين الذي تحمله في عنقها والذي طوقها به الاقربون من الأنسباء ، فتكون بذلك قد أتت أمراً إدّاً واستهدفت بحق لتهمة العقوق ونكران الجميل .

من الانصاف ألا نُهمِل هنا التنويه عالياً بهذه الجهود التي بُذلت اذ ذاك ، لنشر الثقافة عن طريق المدرسة . فالاصطلاح الاداري نَحَتَ من عهد قريب كلمة : التعليم المدرسي *Scolarisation* ، وهو مصطلح يحمل بنا استعماله تنويهاً بالحاجات المشتركة ، من جهة ، وبالحلول المتشابهة التي يعتمدونها لسد هذه الحاجات ، من جهة أخرى ، إذ لو صح ان المبادرة جاءت من افراد يكلفون بالتعليم ، فالادارة الحكومية استجابت بدورها لهذا الشيء الذي طلع حديثاً وشجعته .

ولا بد من ان نردد هنا ما سبق وقلناه من قبل وهو ان الفكرة ، ليست في الاصل ، رومانية ، بل هلينية . وقد قطعت الطريقة الجديدة شوطاً بعيداً في تطورها نحو التكمل ، سواء في الشرق او في الغرب الذي راح يضاعف الجهد ويلهب الخطى ويحث السير ، اذ كان عليه ان ينشيء كل شيء وان ينطلق من الاساس. فباستمرار الأمر الكبيرة على الاستعانة بمربين خصوصيين أخذ عدد المدارس يزداد ويتسع باطراد . وكان التعليم في معظم هذه المدارس تُعين له رسوم وأجور كما يعين للمعلم مرتب لا بأس به ، ان لم يوفر لمعلم الصغار مستوىً كريماً من العيش ، فقد أمّن لمعلم المدرسة الابتدائية دخلاً محترماً . أما أساتذة البيان والبلاغة فكانوا ، على الاجمال ، من اصحاب المقامات المحترمة في البلد . وكثيراً ما كان العبء الذي يقع على الوالدين يخف او يزول تماماً من جراء هبة او تبرع يقوم به احد الخاصة يُسَبِّلُها على إنشاء مدرسة او مكتبة ، او يقفها على اقامة احتفال تذكاري ما ، او يخصصها لبناء نصب او مؤسسة من المؤسسات . وكان الاهتمام بهذه الوقوفات وتأمين ادارتها يقع على المجلس البلدي فيخصص لها من الاعتمادات ما يكفل لها حسن سير العمل ، ولذا راحت السلطة المحلية تضطلع بالاشراف على هذه المدارس ، وتختار لها المدرسين الاكفاء ، كما انها كانت تعين لها طبيباً تدفع له المرتبات لقاء سهرة على الصحة العامة في المدرسة او المؤسسة .

وكثيراً ما كانت المدن الصغرى تضطر أكثر من الكبرى لبذل جهود أكبر من التضحيات ، في هذا السبيل بالنظر لما للأخيرة من عدد السكان وشهرة المعلمين ما يؤمن حاجتها من الاساتذة والمدرسين والطلاب . وهذا الوضع بعينه يفسر لنا كيف ان الادارة الامبراطورية لم تتدخل حالياً في الأمر إلا بعد تاريخ متأخر . فالاباطرة الذين لم يكن ليستطيعوا الاهتمام بكل المدن الصغيرة اقتصر اهتمامهم على شيء بسيط جداً في المدن التي كانت تدبر شؤونها بنفسها . ولكن إياها ورميهم بالتهاون او عدم الاكتراث . فمنذ ان ضُمّت مصر الى الامبراطورية أرصدت في باب الموازنة الاعتمادات التي اقتضاها حسن سير المعاهد الثقافية والعلمية التي رأت النور في الاسكندرية في عهد البطالسة : كالمكتبة والمتحف اللذين ألفا معاً معهداً عالياً للآداب والعلوم والفنون جعل منها مجتمعة ، جامعة الاسكندرية التي طبقت شهرتها الآفاق ، في التاريخ القديم . وانصرف الاباطرة ، في عهد مبكر من النظام الامبراطوري ، الى تأسيس المكتبات في روما . وعندما اخذت هذه الامبراطورية ، في عهد الدولة الفلافية ، على عاتقها تخصيص مساعدات مالية ليس

للشؤون الثقافية فحسب ، بل ايضاً للمدارس الخاصة ، فقد استجابت في ذلك، لرغبتها الصادقة في إظهار عطفها وتشجيعها أكثر منها لواجب مفروض . فلم يكتف الامبراطور فسبسيانوس بتخصيص مرتبات ضخمة لاستاذين من اساتذة البيان والبلاغة في روما ، بل عمم مكرمته هذه على اساتذة الصرف والنحو والخطابة ، كما جعلهم يستفيدون من الاعفاءات التي تمتع بها الأطباء منذ عهد اوغسطس . وعلى هذا سار ايضاً اباطرة الأسرة الانطونية . فقد حمّل الامبراطور مارك اوريل خزينة الدولة مرتبات أربعة اساتذة للفلسفة ومرتب استاذ للبلاغة والبيان ، في اثينا ، وهذه المرتبات كانت دون المرتبات التي كانت تدفع لأساتذة العاصمة ، اذ كان معدلها يتناوح بين ٦٠٠٠٠ و ٤٠٠٠٠ سسترس (١٥ - ١٠ آلاف فرنك فرنسي من عملة ١٩١٤) ، بينما كان يتقاضى الاستاذ في روما ١٠٠٠٠٠ سسترس . صحيح ان الدولة لم تذهب الى ابعد من هذا الحد في امر تمويل التعليم ، إلا انها اخذت تحث المدن على مضاعفة البذل في هذا الحقل . وهكذا لم تلبث المدرسة البلدية ان أصبحت المدرسة النموذجية .

وكانت الدولة تضع نصب اعينها في هذا كله تأمين تربية الذكور بنوع خاص، وقد ساعد تطور الاخلاق على التوسيع من الحريات للمرأة . وهكذا فلم تلبث ان قامت مدارس خاصة بالاناث ، حتى ان المربي الفيلسوف موسونيوس روفوس اخذ يتمنى ، منذ اواسط القرن الاول، لو سير في تربية الاناث على الخطة التعليمية او المنهج الذي تخضع له مدارس الذكور . ومن النادر جداً ان نرى المدن او بعض نصراء العلم يولون مثل هذه المدارس اهتمامهم او يخصّونها بمكارمهم.

بين الثقافة والسياسة : الاهداف والنتائج

لم تكن قضية تعليم الذكور لتخفي وراءها أو لتبطن اية فكرة سياسية . فلم يبد اى مسعى أو أية رغبة ، من اي نوع للالتزام بتفسير معين للتاريخ او لفرض أية نظرية او فلسفة ملكية ، استبدادية ، على المدرسة . وعلى عكس ذلك تماماً ، كان العرف، التشديد عموماً ، على موضوعات تتصل اكثر بطبيعة النظام الجمهوري . فاينما أجلنا الطرف وجدنا هيئات وجمعيات للاحداث *Juvens* تشبه الى حد بعيد، ما عُرف عند الاغريق بمنظمات الفتوة *Ephèbes*. واقتصر نشاط هذه الهيئات على احياء حفلات واقامة اجتماعات تكريمية تتجه من الامبراطور، باستثناء الجمعيات أو المنظمات التي قامت في مناطق الحدود ، اذ كان نشاطها يُصرف في وجوه الرياضة البدنية والتربية العسكرية . وفيما عدا ذلك ، كانت هذه المنظمات توفر لأعضائها أسباب اللهو والتسلية والتفريج . وتبدو هذه المنظمات اذا ما قارناها بشبيهاتها في عصرنا اليوم ، بدائية للغاية ، عدا عن انها اقصرت عضويتها على شباب الطبقات الرخية . وموجز القول ، فالامبراطورية لم تكن لتصدر، في التربية كما في غير قطاعات من شؤون الفكر ، عن نزعات اجماعية ، دكتاتورية ، عرفنا منها نماذج عدة خلال التاريخ الذي يحدثنا بشيء من الاستفاضة عن التربية في سبارطة قديماً بحيث لم نعد نجهل شيئاً من اسبابها بعد اليوم . فاذا ما حاز هذا النوع من التربية رضى البعض وفاز باعجابهم ، فقد اعتُبرَ مع ذلك قاسياً ، منفّراً بحيث كان الاغريق اول من اعرضوا عن هذا النهج ، بحيث لم يخطر في بال احد ، في روما ان يتبنى مثل هذا النهج أو ان يقتبس منه ، لعدم صلاحه .

من الخطل في الرأي الظن بان المؤازرة التي بذلتها السلطات العامة في جميع درجاتها ، لتطوير الاسرة انما صدرت عن اهداف مجردة . فقد انطوت حتى عند اكثرهم اخذاً بالمبادىء السامية من اصحاب مذهب الرواقيين ممن تحسسوا بسمو واجباتهم، على أمر مروم ومنفعة يُسعى اليها، فهي تقوم وترتكز على هذه المعطيات الاولية التي تُعَلّم بان الامبراطورية الرومانية والحضارة امران متلازمان مترابطين لا يمكن فصل الواحد عن الآخر، بعد ان اخذت الامبراطورية على نفسها صيانة هذه الحضارة والمحافظة عليها من عوادي الدهر وعبث البرابرة ، كما ، انه اصبح مترتباً على كل مواطن روماني ان ينعم باسباب هذه الحضارة عن طريق التربية وان يُخلص لها الولاء ، وان يكون دوماً على اتم استعداد لمناصرة الامبراطور والشدّ منه الازر في كل ما يبذ له من الجهود للدفاع عن المصلحة العامة وتأمين الخير للجميع .

من يعرف الى اين انتهى الامر بهذا التطور يدرك جيداً ان هذا الحسبان كان باطلاً اذ ان النجاحات التي حققها التطور لهذه الامبراطورية لم تحُل قط دون تفسخها وانهيارها . وهذا التفسخ والانهيار الذي أتأمته جاء نتيجة منطقية لاسباب خارجية تمثلت في هذه الغزوات المتلاحقة التي شنها عليها البرابرة في أمواج متتالية ، ولاسباب داخلية ايضاً ، ولا سيما لسبب سلبي يبرز من خلال تملي النظر في هذه السياسة الثقافية التي سارت عليها الامبراطورية ، بالاضافة الى الاعتبارات الاخرى التي طالما اشرنا اليها في تضاعيف الفصول الماضية .

فالتعليم التزم حدوداً اقتصرت على سد حاجات الادارة ، ومتطلبات الحياة الاقتصادية ، والبنيان الاجتماعي الذي ساد المجتمع اذ ذاك . فهو ان اشبع ، أو سد مطلب المدينة فقد قصر كثيراً عن اشباع حاجات الولايات والريف. هنالك امثلة فردية قليلة جداً على قيام بعض مدارس في الاقاليم التي قامت فيها المناجم والمعادن . ويستدل من نصب رسمي ان هنالك مدارس قامت ايضاً في ما اصطلحوا على تسميته بـ *Vici* ، وهي كلمة اطلقوها على بعض مجتمعات او اوساط اختلفت شأناً واهمية فيا بينها ، فلم يكتب لها ان ارتفعت الى مرتبة حاضرة او قاعدة القضاء . ومهما يكن من امر هذه المدارس ، فهي لم تؤمن سوى تعليم ابتدائي متواضع ، ولم يكن لها ، بالتالي ، اي شأن في القضاء على اللهجات المحكية المباعدة أو التخفيف من حدتها . صحيح ان باستطاعتنا ان نشاهد بعض اساتذة اعلام للصرف والنحو والبيان في مدن الغرب المتواضعة ، اذا ما قارناها بالوضع الذي قام في الماضي . ومهما بلغ من اتساع الجهد المبذول في هذا المجال ، فهو لم يتناول سوى قسم ضئيل جداً من سكان الامبراطورية . وكان التوسيع من نظام التعليم بحيث يتناول اكبر عدد ممكن يقتضي له مبالغ طائلة لم يكن بوسع الامبراطورية ولا في مكنة منظماتها تقديمها ولا تحملها ، كما كان يقتضي، على الاخص مفهوماً آخر للمجتمع ونظرية جديدة للحضارة لا تحتل فيها المدينة روما مركز الصدارة الضاغط . فليس من عجب ، والحالة هذه ، ان تبقى جمهرة السكان في الريف غير مبالية ولا بمكترثة لمصير حضارة اهملتهم فاسقطتهم من حسابها وكادت لا تشعر بوجودهم .

وهكذا باءت بالفشل الاماني العِراض التي دغدغت خيال احسن الاباطرة وراودت خواطرهم

ولم يكن معدٌ من هذا المصير المحتوم ولا محيصَ منه ، مع انه لم يكن لعمري ، في الأمر شيء عسير او بمستحيل ، اذ يكفي ان نتذكر النجاح الذي حققه لدى قسم من سكان الامبراطورية . فالعناصر المدنية ، أينما كانت ، انضمت صادقة لهذه الحركة . فالتطور التدريجي الذي اخذت هذه العناصر بأسبابه وئيداً ، جيلاً بعد جيـــل ، من الوجهة الاقتصادية والاجتماعية ، وطلبها الثراء والغنى وانصرافها نحو الوظائف البلدية وهو البــاب المفضي الى طبقة الأشراف الجديدة ، رافقه تطور ثقافي وفكري . وهذه الحركة التطورية عولت على التربية واتخذت منها عماداً لها، ومكّنت لها الاسباب في المدن اذ كان في مقدور هذه المدن وحدها ، بسبب ما لها من موارد طائلة ، ان تؤمن وسائل التعليم والتربية ، اذ ان التعليم كان الشرط الاول الذي لا بد منه لمن يبغي دخول الوظيفة والتدرج الى أعلى درجاتها . وهـــذا بعينه أتاح للنخبة المثقفة التي بيدها تصريف الامور ان تنصهر بعضاً ببعض ، وان تقيد ، على نطاق واسع ، بالرغم من اختلاف مصادرها وتباين المناطق التي خرجت منها، من مصدر واحد يغذيها . ولذا رأت الامبراطورية نفسها مدينة لهذا الوضع القائم بكل ما اتصفت به من اتحاد وتضامن ، من الوجهـــة المادية والادبية على السواء .

الوضع اللغوي

فوحدة اللغة كانت أمثل رمز لهذه الوحدة . غير ان حكومة الامبراطورية لم تجعل من الوحدة اللغوية هدفها الاول لأنها كانت امام لغتين مختلفتين للثقافة اذ ذاك، ولم يُدر في خلدها قط ان تعتمد الواحدة منها دون الاخرى . فاللاتينية كانت اللغة القومية ، وكل شيء كان يؤهلها لتصبح اللغة الرسمية الوحيدة التي لا بد منها لوحدة الامبراطورية . غير ان اللغة اليونانية كانت هي الاخرى ، تنعم بنفوذ فكري وتكوّن قطب جذب لا يستهان به . فمنذ القرن الثالث ق . م ، كل الذين كانوا على شيء من النفوذ في روما ، كانوا يدرسون اليونانية ويحاولون تجويدها منذ حداثتهم الاولى بحيث كانوا يحسنونها كلغتهم الام ، مستجيبين في ذلـك لمقتضيات الادارة والثقافة، على السواء . وهذا ما حدا بالجماعة للبحث عن طريقة واحدة للعيش المشترك . وفي هذا السبيل ، قام الرومان بتضحيات واسعة تجاوز بعضها المعقول ، وفي ذلـك دليل على ما كانت روما مستعدة لبذله في سبيل الحفاظ على هـــذه الحضارة التي كانت تشد عليها بالنواجذ .

وقام في الامبراطورية حد لغوي انشطرت معه الى شطرين متناظرين ، وان تعادلا تقريباً ، هما : الشرق الهليني والغرب اللاتيني . اما الى الجنوب من البحر المتوسط ، فقد وقع هـذا الحد بين مقاطعة القيروان وبين ولاية افريقيا التي تبعتها مقاطعة طرابلس الغرب ، ولم تلبث اللاتينية ان غزت صقلية وايطاليا الجنوبية بعد ان كانت ارضاً يونانية اللغة من قبل . اما في البلقان ، فالحدود بين الشطرين انطلقت من شمالي مقاطعة أبيروس ممتدة نحو الجنوب من مجرى نهر الدانوب الىسواحل البحر الاسود . واستقرت على هذا الشكل بفضل مرابطة الجيش في المنطقة، باستثناء بعض تغييرات طرأت فيا بعد .

وكل من هاتين اللغتين: اللاتينية واليونانية، راح بدوره يعمل على كسب مجالات جديدة محاولاً السيطرة على اللهجات المحكية محلياً. وبدلاً من ان تحاول روما الحد من اللغة اليونانية، راحت تعمل على تأمين انتشارها، اعتقاداً منها، وبحق، ان كل كسب تحققه في البلدان المتخلفة في تطورها الفكري والثقافي انما يعود عليها هي بالمنفعة والخير العميمين. وهكذا استطاعت اللغة اليونانية ان توسع من نطاق النجاحات التي حققتها منذ العهد الهليني. وبفضل هذه المؤازرة من جانب روما تمكنت اليونانية من ان تكمل ما ابتدأت به قبل الاسكندر بكثير الا وهو السيطرة، لغة" وثقافة"، على مقاطعات آسيا الصغرى. اما في سوريا ومصر، فقد شهدت طلوع مدن لم يكن عددها، مع الأسف، كافياً بحيث تتغلغل بصورة قاطعة في الريف. غير ان ترك اهل الريف وشأنهم أظهر لنا واضحاً الدور الذي لعبته كل من اللغة السريانية، احد فروع الآرامية، واللغة القبطية احد فروع المصرية القديمة. اما اللاتينية في الغرب، فلم يأت نجاحها نهائياً كاملاً، في كل مكان، للاعتبارات ذاتها. فقد غزت اللاتينية شبه الجزيرة الايبيرية واستبدت بها. اما في غاليا، فقد زالت اللغة الكلتية من الاستعمال، الى ان اعاد اليها شيئاً من النشاط الرهبان الارلنديون في مقاطعة الارموريك، وبقيت جارية الاستعمال في بعض مناطق الريف حتى القرن الرابع للميلاد. اما في افريقيا فقد اندرست اللغة البونيقية كلغة محكية، على الاقل، منذ مطلع القرن الثاني. ولعل آخر استعمال لها يبرز في هذه الكتابة الثنائية اللغة، المسماة *Leptis Magna* المؤرخة عام ٩٢ للميلاد. إلا ان اللاتينية لم تصبح لغة الريف الدارجة، ولا عبرة قط هنا للنعت: «بونيقية» عندما يشير القديس اوغسطينوس ويقول ان اللغة المحكية في عهده في ضواحي هيبونة كانت البونيقية، فالاصطلاح يجب ألا يؤخذ هنا بحرفيته. وبقيت البربرية الليبية قيد الاستعمال في ليبيا الى يومنا هذا. وهكذا، فكل توسع تسجله احدى هاتين اللغتين، يجب رده، في الدرجة الاولى الى الإشعاع الثقافي الذي انطلق من المدن وحواضر البلاد الكبرى، في هذا الوقت او بعده بقليل.

ومؤازرة السلطات العامة الرومانية لليونانية في تأمين انتشارها وتوسعها، انما يدل بوضوح على ما اتصف به اولو الامر في الامبراطورية، من عمق التفكير والتفهم الصحيح للاوضاع القائمة، وهي مؤازة تبدو على وجهها الصحيح في موقف السلطة من هذه اللغة وسلوكها معها. كل الدلائل تدل على ان الادارة الرومانية أبت ان تلزم الاغريق الأخذ بتعلم اللاتينية واستعمالها في معاملاتهم اليومية ومخاطباتهم كأنما يخشون فرض شيء ينتقص من كرامتهم، 'محط لهم. كذلك لم يكن بالامكان، من جهة ثانية، ان يتخلى الرومان عن هذه الإزدواجية اللغوية التي قامت عليها ثقافتهم، وعوضاً من ذلك راحوا يفتشون جاهدين عما يؤول الى تأمين حياة مشتركة وتعايش تعاوني. ففي هذا القسم اليوناني من الامبراطورية الرومانية، كانت اللاتينية وحدها اللغة الرسمية في الجيش والقضاء، مع العلم ان المناقشات والمرافعات القانونية التي كان يقوم بها المحامون كانت تجري باليونانية مباشرة دون ترجمة. وفي ما عدا ذلك، عوّلت الادارة دوماً على اليونانية، كما ان الديوان الامبراطوري في روما، كانت فيه دوماً دائرة يونانية لتضميف

النسخ بهذه اللغة ايضاً . فمن كان يرغب بين الشرقيين في احتراف مهنة ما في روما كان عليه ان يتعلم اللاتينية ، وهوامر لم يقبلوا عليه الا متأخرين ، أي منذ القرن الثاني فقط . وعلى عكس ذلك ، فقد وجدت روما في الشرق ، منذ مطلع الامبراطورية ، موظفين اكفاء احسنوا اللغتين وجودوهما ، كما ان نوع التربية التي سادت في البلاد اذ ذاك ، أمّن لها دوماً حاجتها من هؤلاء الموظفين . ففي الاسر الثرية ، كان المربون الخصوصيون من اهل الشرق ، من الكثرة والوفرة

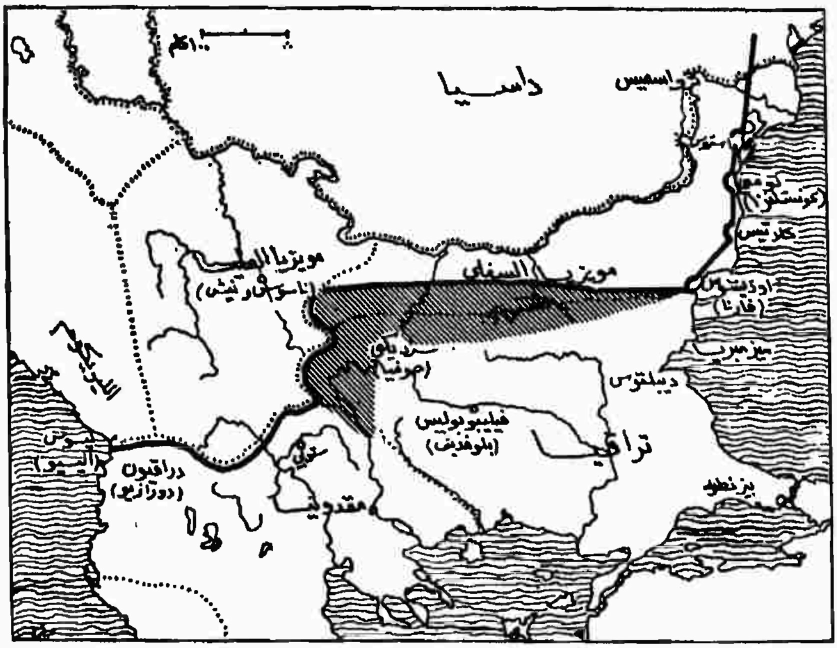

الشكل ١٢ – مواطن اللغات وحدودها

الخطوط المنعكسة تشير الى المناطق التي انتشرت فيهـا اللاتينية في القرن الثالث . اما في الجنوب ، فالمستعمرات التي أنشأها الاباطرة للمعمرين اللاتين ، امثال ديراكيوم ، وستوبي وديبلتوس ، فقد اقتبست اللغة اليونانية أداة للتعبير .

بحيث لم يقلوا بشيء عن المربين اللاتين . وفي روما بالذات احتل الشعر والبيـان باليوناني ، في في المدارس وفي المباريات الادبية ، المنزلة ذاتها التي كانت للشعر وللفصاحة والبيـان باللاتيني . وكان مدرسون اغريق يعلمون الصرف والنحو والبيان في كل الولايات الغربية . وكان من يرغب من الشبيبة في متابعة دروسه العالية ، يذهب لمرسيليا التي كانت تفخر بمحافظتها على نصاعة اللغـة اليونانية ، وعلى الثقافة الهلينية التي عرفت ، في هذه الحقبة بالذات ، حركة تجدد عادت عليها بالازدهار والاشعاع ، او يذهبون لاثينا كما فعل ابوليه الافريقي وغيره كثيرون . فانتشار هذه الحركة واستمرارها طويلاً عاد بالثناء العاطر على هذه المجتمعات الغربية التي كان معظمها من اهل البلاد وكان عليها ان تجدّ في السير وتقطع المراحل بسرعة في سبيل تحقيق التطور المرغوب.

ومن المستغرب ، وأيم الحق ان يقتصر الاتصال مع الحركة العلمية الهلينية إجمالا ، على نتائج جاءت في معظمها سطحية . فما مثل هدريانوس ومارك أوريل سوى نجاح يمكن اعتباره استثناءً من القاعدة . غير ان الجهود والنشاطات التي بذلت في هذا المجال ادت ، على الاجمال ، الى نتائج لا يجوز الانتقاص منها او مقابلتها بمد َطرَف اللسان . فليس نرى بين المدنيات الحديثة ما استطاع ان يعطي على مثل هذا القدر من العطاء، وعلى مثل هذه النسبة من العظمة او اعطت بالفعل شيئاً يصح مقارنته بما اعطته روما في هذا المضمار .

ثقافة ووحدة ، كل هذه النتائج التي سجلناها هنا تثبت كيف ان قسمة الامبراطورية من الوجهة اللغوية ، لم يُفض الى انقسامها ، وهو انقسام تم بعد ذلك بكثير . فالحدود اللغوية التي قامت الى الجنوب من البحر المتوسط ، أصبحت بعد وقت طويل ، حدوداً سياسية . وهذا الفارق اللغوي لم يؤلف فيهذا الإنقسام، سوى سبب فرعي او عذر ثانوي افادت منه واستثمرته، على نطاق واسع ، القوى الدافعة عن المركز ، كما يفيد الصقيع من تخاريب الصخور حتى اذا ما جمد الماء فيها عمل على تفسخها وفلعها ، والا لبقي بدون أذى . اما في شبه جزيرة البلقان ، فالحدود اللغوية الفاصلة لم تكن لتلتقي. وهكذا نرى ان استعمال اللغتين معاً طيلة اجيال متطاولة لم يؤد الى شيء من خلخلة وحدة الامبراطورية .

ولهذا السبب ، فالمشكلة اللغوية ، لم تكن سوى وجه من وجوه مشكلة الثقافة العامة . والحل الذي لاقته هذه الاخيرة ترك اثره في حل القضية الاولى وزادها تعقيداً . فاذا كانت إزدواجية اللغة ، والحالة هذه ، وضعاً لا مندوحة لسكان الغرب ، في الامبراطورية الرومانية ، للاخذ به ، فلأنهم رأوا في هذه الازدواجية عاملاً يشد من وحدتهم ويزيدها تماسكاً ، وذلك توخياً منهم الوصول للمستوى الثقافي الذي بلغه الاغريق في الشرق . وهذه الوحدة اخذت تتحقق في المجالات الاخرى من الحضارة، تارة وئيداً ، وطوراً بصورة سريعة ، حثيثة. وكانت تنهج ، فيما يتعلق بالدين مثلاً ، سبلاً حاول الاباطرة صدها أو الحد منها ، بينما راحوا كلهم يناصرون هذه المساعي ، عندما كانت تتعلق بامور الفكر والذوق الفني ، وكلها من توابع الكلاسيكية اليونانية ومن مشتقاتها ، التي لم تكن مستوردة كهذه العبادات والطقوس الدينية التي وردت على الغرب من الشرق البعيد، والتي اقبل الشعب الروماني يتلقفها ويتبناها ، بينما تلك كانت من صميم الثقافة التي لم يكن احد ليجرؤ على الانتقاص من كرم محتدها أو الحط من منزلتها السامية . والحقيقة ان الكلاسيكية اليونانية بعيدة لم يطلع عليها الرومان الا من خلال الشروح والتفاسير والتعاليق التي وضعها كتاب العصر الهليني . واي ضر او بأس من هذا ، يا ترى ؟ فالكل رأى في هذه الثقافة الفنية والفكرية التي طلع بها العالم اليوناني ، الثقافة الحقة التي يتوجب على روما اقتباسها وتبنيها ونشرها كعنصر ضام ، موّحد لهذه الامبراطورية المترامية الاطراف التي انشأتها .

فاذا ما تعرّف الغرب الى هذه الثقافة وأقبل عليها ورضع أفاويقها فالفضل كل الفضل في

ذلك لروما وحدها . فقد أشرنا مراراً الى النجاحات التي حققها انتشار هذه الثقافة في الغرب . كذلك نوهنا بخواء الابحاث التي تنطح للقيام بها بعض المفكرين من رجال هذا العصر ، وعدم جدواها . كذلك لا بد من بعض التحفظات التي لا بد من الاعراب عنها هنا والتي لا تتعارض ، مع ذلك ، مع الشيء الذي جئنا به أعلاه ، إلا بصورة ظاهرية ، لأن الخطر المزدوج الناتج عن تجريد النخبة ، من جهة ، ومن سخافات الجماهير من جهة أخرى ، يكون خطراً على الثقافة كما عليها خطر من هذه التفاهات وهذا الاطراد والمحاكاة والفوضى على أشكالها التي تتحالف عليها . وهنا كما في اي ثقافة أخرى في أي زمان ومكان ، فإلى جانب انتاج النخبة المثقفة ، نرى الانتاج العادي جيء به طبقاً لأذواق زبائن يؤلفون الغالبية التي لم تصقل منها الاذواق : فكان ان انحط المعدل الوسط ، لا سيما في ما يتعلق بالانتاج الفني . ومن جهة أخرى ، فهذه الثقافة التي جاءت من فوق ، ومن بعيد ، لم تكن لتمثل سوى ثقافة جماعة اقتلعوا من بيئتهم وانقطعوا عن كل اتصال مباشر بالجماهير ، حيل بينهم وبين كل غذاء دسم تؤمنه تربة أصيلة . فلا يجوز ، والحالة هذه ، إلا ان نتصور ، ولو بالخيال ، ما عسى ان تكون عليه النتيجة لو استعملت وسائل أخرى . والشيء الذي لا يختلف فيه اثنان هو ان هذه الوسائل كانت ستفضي الى وحدة مملة في السياقة دون ان تتمكن من انتاج أي رائعة من روائع الصف الاول .

وهذه الملاحظات التي لم يكن بد من إبدائها هنا والتي أبديناها بالفعل ، لا تمس بشيء عظمة هذا المشهد الذي يستبد بنظر المؤرخ ، الا وهو هذا الاجماع ، وهذه المطابقة التي اتصفت بها جهود الطبقات الموجهة ، العديدة ، والقابلة للنمو والازدياد ، والاستجابة التلقائية التي لقيتها نداءات الاباطرة ، لدى النخبة بين رعايا الدولة في جميع الولايات . وهذه الامبراطورية الضخمة التي تألفت في البدء من أشتات متباعدة ، متنافرة ، وعلى جانب كبير من البربرية ، أقله في مطلع أمرها ، والنازعة الى الوحدة عن طريق نشر وتعميم ثقافة واحدة ، مؤتلفة ، هي أعلى وأمثل ما عرفه الانسان او ما حلم به عبر التاريخ حتى الآن ، وهذا الايمان الذي اعتلج في صدور الجميع بأن هذا العمل كفيل بأن يؤمن الهيكل اللازم لهذه الوحدة السياسية والادارية والاقتصادية والاجتماعية ، ويضفي عليها ما يلزم من زينة وحلية ، وهذا الحلم بالذات الذي راود خيال الاسكندر من قبل ، وأثار في وجهه معارضة معاونيه ومساعديه ، وسبب موته الباكر وعجل في اجهاض الفكرة قبل ان تلد وأدى بالتالي الى فشلها ، فهل من يشك بعد انه كان باستطاعة الامبراطورية الرومانية ان تخرج او ان تأتي بما هو دون ذلك ؟

٣ - العمل العقلي والادبي

هذه الازدواجية اللغوية تتلبسها الامبراطورية الرومانية ، أفضت الى أدبين مختلفين لا بد من درسهما هنا ، على انفصال الواحد من الآخر . غير ان الحياة العقلية والادبية لا تنطبق ، بالضرورة ، الواحدة منها على الأخرى . هنالك مظاهر في النشاط الفكري او العقلي لا تؤثر ازدواجية اللغة فيها كثيراً على الوحدة ، في مجتمع كالمجتمع الروماني ، حيث اجادة اللغتين معاً ، أقله في

الغرب ، وعلى مستوى واحد ، لم يكن من الأمور النادرة قط . وهكذا يحسن بنـــا ان ننظر فيها دون ان نهتم بشيء باداة التعبير اللغوي التي استعان بها من انقطع لمثل هذا العمل .

١ ـ انحطاط الروح العلمية

بين النقيضين : توقف هنا وانحراف هناك

هذه الروح العلمية التي طلعت في الشرق المتوسطي، تجلت بزخم عارم، خلال العهد الهليني . ثم بلغت روما حيث وجدت من الظروف التي هيأتها لها الامبراطورية ، ما اتاح لها الانشاء وتوسيع الفتوحات التي حققتها في هذا المضمار . وتهيأت لهذه الروح العلمية اسباب جديدة اتاحت لها التوسع والافادة بما تم لها من هذا العلم العريض الذي امكن لهـا جمعه وتحصيله والتحكم به وضبطه . فانتشرت في البلاد دور للكتب ومكتبات ، وانشأت لها الادارة الحكومية دوراً للمحفوظـات ، وادوات للبحث والتقصي ، بحيث استطاع البعض الوصول الى هذه الذخائر الفكرية والاطلاع على ما فيها من اسرار مكنونة . والعالم المعروف اذ ذاك ، والذي امكن قياسه واستثمار موارده ، اخـذ هو الآخر ، في الامتداد والتوسع ، بعد ان توفر له ، بنسبة أكبر بكثير ، فريق من حملة العلم ، تمّ لهم من اوقات الفراغ، ومن الوظيفة التي كانوا يشغلونها، ما حملهم على الرحلة والطواف في ربوعه ومجالاته شرقاً وغرباً . وهذا العالم الذي تعددت منه المناظر وتنوعت بين طبيعية ، ومناخية ، وحيوان ونبات وعروق بشرية ، تهيأت له اسباب المواصلات ويسرت بينه وبين اقطار متنوعة واقعة الى ما وراء حدوده المتنائية . ومختصر القول فقد توفر كل ما يساعد ذوي العقول العطشى الى مناهل المعرفة وحياض العلم ، الافادة من امكانات لا حـد لها ولا حصر ، معظمها جديد مستحدث ، باستطاعة جميع العلوم والفنون ان تفيد منها الى أقصى حد . وهذه الروح الواقعية التي عرفها الرومان وأخذوا بها على نطاق واسع، كان بامكانها ان تسخّر العقل اليوناني المنطقي الذي انساح في هذه النظريات والتجريدات الفلسفية وهام فيها ، فينصرف بدوره يعلم الرومان كيف يعللون شؤون هذا الكون ويحللونها على وجه يبـين ما بينها من ترابط وانسجام . ويحلو للمرء ان يهيم بالفكر فينطلق مع الخيال الجموح ليتصور ما عسى ان يكون تمّ او خرج من اشخاص كأرسطو وايراتستينس لو عاشا مثلاً ، في القرن الثاني للميلاد .

فلم يكن لأحد منهما قِرْن او منافس. فقد ظهرت بوادر انحطاط الروح العلمية التي ما لبثت ان اشتدت وازدادت باستمرار . صحيح ان الكفاءات لم تغب قط ولا القدرة على العمل ، ولا هذه الروح العلميـــة الطُلَعَة . كنا نرى ، كما في السابق، عقولاً تهتم بكل ألوان المعرفة البشرية وتطمح في ان يتم لها علم موسوعي، دائري، في كل شيء. وباستثناء بعض حالات ، نادرة للغاية، فما من احد يطلع بعمـل جدي أصيل في أي قطاع من قطاعات العلم . فالعصر الذهبي للروح العلمية التي تجلّت قديماً انقضى وذهب دونما رجعة ، وكذلك عصر البحث العلمي والتحري عن أسرار العلم الغامضة . كل ذلك ذهب وذهب معه هذا الاندفاع ، وهذه الحماسة ، وغابت عن

الوجود الروح المجددة في اهدافها ووسائلها ونتائجها وقطوفها ، ويبدو لكل عين باصرة ان الشجاعة العقلية قد زالت، أقله من حيث ترضى بالخضوع لقواعد العقل والمنطق. فما هي الاجيال الوسطى ، بقضّها وقضيضها ، تطل علينا ولو من بعيد .

والذي يهمنا من الأمر الآن ، وفي هذا الوقت بالذات، هاتان النزعتان التي سبق للعالم الهليني ان عرفهما من قبل وأخذ يتربص بهما أكثر فأكثر ،فيما بعد، إلا انه استطاع التغلب عليهما بشخص أكبر رجاله وممثليه . فبدلاً من ان ينصرفوا نحو الواقع ويخضعوا له اتجهوا كلياً نحو الكتب يجمعون منها ما رأوا فيه خير ما يُمَثّل علوم الاقدمين او توهموا انه يجمع ما سجلوه او رأوه. هذا هو عهد « الموسوعات » بالذات . فما من احد يجهل منافع هذه المجاميع التيلا تخلو من ان تعطّل التفكير اذا ما اقتصر المرء عليها . قدّم لنا عهد الامبراطورية المتأخر أمثلة من هذه الموسوعات التي بقيت غذاء للعقل البشري حتى اواخر القرن الخامس عشر . وقد أساؤوا من جهة ثانية ، استعمال الفلسفة ولا سيما هذه النظريات الفلسفية التي تثير الشك والريبة ، اذ انقطعوا لكل ما يثير العُجب والغرابة ، او يشجع على الرمزية التي كثيراً ما آذت المجهود العقلي ، ان لم تكن حوّلته عن غايته . فاذا ما كانت هذه النزعة التي اعتبرت بديلاً عن الروح العلمية لا تميل كفة الميزان ، فهي، مع ذلك لا تلين إلا لاعتبارات اخلاقية، او ادبية لم تكن لتشجع قط على تحصيل العلوم ولا على تبسيطها .

ومهما يكن ، فان لم نمسِ بعد أمام القطيعة التامة ، فنحن أمام بوادر فقدان الاهتمام التام تدريجياً بالروح العلمية واصبحنا بالتالي أمام نهاية الحركة العلمية التي ميزت العهد الماضي وطبعته . وكم نتمنى لو نستطيع الكشف عن الطريقة التي اتبعها هذا التطور ، والغاية التي هدف اليها . فهي بالطبع تتصل بحوادث لمسناها وأشرنا اليها من قبل : ضغط العقائد الدينية الاكثر رمزية والاشد إثارة للعواطف، واحترام مآتي الماضي وانجازاته حتى حدود التعصب والعبادة ، والشغف بالعلوم اللسانية والبيانية كالخطابة والبلاغة والفصاحة والإستمساك بالمحسنات اللفظية . ولكن هذه الأمور نفسها لا تلين كثيراً للدرس والبحث والتحليل ولا تقع تحت المبضع . فالتيارات التي تتجاذب الافكار والعقول بين كر وفر، واقبال وادبار ، تبقى دوماً بمنأى عن البحث لانها غامضة ، خفية ، سرية .

الاستبحار العلمي والتخصص

سعة الاطلاع انحصرت في تجميع المعلومات وحشدها من بين الكتب، وبذلك تتنكر من ذاتها قبل ان تختفي لمطلب المعرفة الحق دون ان تقيم وزناً للاسناد العلمي والمرجع الأصيل وكلها امور تولي المصدر العلمي القوة والحياة .

وهذه الحركة نعمت ببعض الاهمية في مطلع الامبراطورية وظهرت في كثير من المجالات الفكرية على اختلافها ، وتغلغلت بين مناهج علماء اليونان وفي هذا التوافق بين الفيلولوجيا وعلم الاركيولوجيا . وعلى هذه المناهج بالذات ، سار في روما : فارون من معاصري قيصر ،

واللغوي ويريوس فلاكوس ، احد النحاة المشهورين في عهد اوغسطس . وقد طبقا طريقتها هذه والجهود التي قاما بها في هذا الصدد ، على اللغة اللاتينية وعلى تاريخ روما ، وبذلك قاما بعمل مجيد . وقد صدر بروبيرس واوفيد عن المؤلفات التي وضعها هذان الكاتبان ، وهي مؤلفات لم يعد يوجد منها شيء اليوم ، واليها يعزى الفضل في معرفة ما اصطلح عليه الرومان قديماً في امور اللغة والقضاء والدين بفضل الاقتباسات التي أخذت من هذه الكتب .

فالكتبة اليونان الذين سكنوا روما لمدد طويلة ،في عهد اوغسطس، وألّفوا فيها ، هم كتاب من المستوى الواطي ، بينهم سترابون الذي جاء من مقاطعة اماسيا في الشمال من آسيا الصغرى . فقد كان مؤرخاً وجغرافياً وترك لنا مذكرات تاريخية لم يصلنا منها شيء ، ومزج في كتابته بين التاريخ والجغرافيا ، الا ان بحثه عن التاريخ القديم بقي موجزاً مقتضباً . ومنهم كذلك ذيوذوروس الصقلي الذي وضع كتاباً بعنوان : المكتبة التاريخية *Bibliothèque historique* ، وهو تاريخ عام ، واسع الهدف بعيد المرمى ، اذ انه تناول التاريخ القديم الى فتح غاليا على يد يوليوس قيصر . وما تبقى من تاريخه هذا لا يفيد مؤرخي العصر الا بنسبة ما يفتقرون اليه من مصادر تخلو من النقد التاريخي والأفكار البناءة . ومنهم ايضاً دنيسيوس الهاليكرناسي وهو معلم للبيان والفصاحة ، تنقصه دقة النظر ، والناظرة اللاقطة في هذه المؤلفات التي وضعها حول النقد الادبي ، بينا حشا كتابه : « التاريخ الروماني » خطباً مملة ، جوفاء .

ومع ذلك ، فقد عرف ان يحافظ هؤلاء الكتّاب اليونان ، على شيء من هذا التفوّق الذي تحلى به الكتبة الاسكندريون ، وعلى حبهم للعلم وتعطشهم اليه ، وهي رغبة لم تلبث ان خمدت شعلتها سريعاً وانطفأت بعدهم بقليل . وفي منتصف القرن الاول نرى رئيس بلغاء العصر واستاذ البيان والفصاحة الاشهر اذ ذاك ، كونتليانوس يتمتع بسمعة ادبيـة طيبة لتمكنه من العلوم اللسانية ، كما انه امتاز بقدرة على التعليم والتربية تستحق التنويه بها عالياً . إلا انـه يحتاج الى فهم صحيح للتاريخ . فقد أمدّه تدريسه الطويل للبلاغة بمنهجية وأصول راح يطبقها على كل شيء . ونرى فرونتون ، في عهد الاسرة الانطونية ، يهيم بالكتّاب القدامى اهتمام فنان يرغب في ان يجد في آثارهم ومخلفاتهم الكتابية، الكلمات المهات، يتذوقها ويتدبرها كمعلم حاذق للبيان، دون ان يبالي قط في صوابيـة وجوه استعمالها ومدلولها وتعبيرها ، عن الواقع الانساني ، مادياً كان ام ادبياً .

وهذا الاستاذ المتكلف الصناعة اللفظيـة والمتحذلق في الاسلوب ، كان بدوره استاذاً لأولوجيل *Aulu - Gelle* الذي أعجب كثيراً ، باستاذه ، ومع ذلك تنكـب عن خطاه ، ولم يحفل ، على شاكلته ، بالبهرج اللفظي الخارجي ، وعرف ان يعود بجنـي عقلي ، وغذاء ادبي ، أكثر تركيزاً . فقد عاش هذا الكاتب الروماني على مقربة من اثينا ، وهذا ما حمله عـلى تسمية كتاب له : « الليالي الاتيـكية » *Nuits Attiques* وهو عبارة عن مجموعـة له من الامسيات واحاديث السمر ادارها بين نخبة مصطفاة من الخلاّن المشهود لهم بذرابة اللسان، وبغيرتهم

الشديدة على الثقافة العالية ، وقد قرأ كثيراً وقيّد الكثير من الاوابد والشوارد . قام بهذا كله كذوّاقة، انتجع خير المجاميع الادبية ومختارات القطوف والمنتقيات المأثورة ، فتدبرها بنظر صاقب ، ورأي ثاقب ، وشرحها بعد معارضتها ، وعرضها على محك النقد. وقد تناول في ابحاثه الصرف والنحو والنقد الادبي ، والنُظُم السياسية والتاريخ . كل ذلك بعناية وتدبر وتفهم في طول أناةٍ وجلد . فاذا ما رأيناه يوسّع من مطالعاته وينوّع بينها ويغوص مستبحراً فليس حباً منه أصلاً ، بهذا الايغال ، ولا اخذاً منه بنهج العصر ، ولكن اشباعاً لفضوله العلمي ولنزعته التشككية . فنحن مدينون له كثيراً بمعرفة الشيء الكثير من تاريخ الرومان بعد ان عرف ان ينقل الينا الكثير من النصوص المهمة لعدد محترم من كبار حملة الادب اللاتيني في ذلك العصر ، وهكذا تمكن من صيانتها . فلو قُدّر له وجاء قبل زمانه ببضعة قرون وان يسير على منهجية بعض الكتاب اذ ذاك ، ويتمتع على شاكلتهم ، بروح الانضباط التي كانت صانته عن الخوض في هذه الموضوعات وتعرض لها في بحثه أكثر من مرة ، كما لو عرف ان يفيد من هذه المصادر الوفيرة التي كانت تحت تصرفه وتناوله ، لأمكن ان يكون ، بالنسبة لما تجلى به من قدرة وكياسة وطلاوة صانته عن الادعاء والاعتداد، مساوياً لأكبر العلماء الذين عرفهم التاريخ القديم، بعد ان تمّ له ما تم لهم من رجحان العقل وتفهم للواقع .

وهذه الكياسة الادبية افتقر اليها معاصره الكاتب الفريجي بوزانياس كما افتقر الى صفات اخرى صاحب الكتاب الموسوم : « وصف اليونان » . وهذا الكتاب وصف لليونان ، مقاطعة مقاطعة ، ومدينة مدينة ؛ فذكر لنا ووصف بالتدقيق والتفصيل النادرين ، المباني والمؤسسات القائمة فيها بعد ان زارها في الرحلة الطويلة التي قام بها. وكثيراً ما لقّب المؤرخون هذا الرحّالة بـ « الدليل » *Périgète* ، او بالوصّاف . ويمكن مقارنة كتابه هذا بكتب الأدلة التي يحملها معهم السوّاح في هذا العصر، إلا ان دليله يبدو جافاً ، مهما تحلى بالوضوح . كذلك يفتقر للنظرة الناقدة اللمحة البعيدة، إلا انه معين لا ينضب لعالم الآثار وللاختصاصي بأمور الطقوس الدينية. فقد قام ، من هذه الناحية بعمل غاية في المتعة والافادة ، وذلك في عهد قدّرت الأقدار ان تتوفر له النماذج الطيبة ، والوسائل المسعفة للبحث العلمي ، فبرز نموذجاً للعالم الجمّاع ، هذا النموذج الذي كان في سبيله الى الزوال،فلم يُلْهِم عمله هذا، احداً ليطلع لنا أدلة من هذا النوع في بلدان اخرى .

معرفة العالم والنظام الكوني

لم يكن حظ الجغرافيا بأفضل من غيرها من هذه العلوم الانسانية . كان لا بدّ لها بوصفها علماً بأصول من دقة ملاحظة ، بعد ان عجز العلم اذ ذاك عن ان يسجل أي تقدم في العلوم الرياضية وعلم الفلك . وباعتبارها علماً يقوم على الوصف فقد رأت تحت تصرفها تسهيلات عظيمة . فلأول مرة في التاريخ القديم نرى الدولة تُعنى رسمياً بهذا العلم، منذ ان طلع علينا العهد الامبراطوري . فقد عهد اوغسطس الى صهره أغريبا ان يرسم على احد جدران الرواق المعروف برواق أغريبا ، خريطة كبيرة للعالم ، مات قبل ان

يفرغ من رسمها فأكملت بعد وفاته. ولم يصلنا عملياً شيء من هذا قط . فهذا الرسم كما بدا سواداً على بياض لم يتصف بالدقة ، وذلك للفرق القائم بين طول الجدار وعرضه . غير ان النص الذي امر اوغسطس بنشره إثر وفاة أغريبا – وهو نص قام على احصاءات ومقاييس رسمية – ضم ولا شك كثيراً من المعلومات المفيدة . وهذا مثال جديد آخر من عدة أمثلة ، تدل كلها على ما توفر من الظروف المؤاتية الجديدة التي كان من شأنها ان توسع معلوماتنا الصحيحة حول الارض.

وهذا النجاح لم يحصل او يتم بالقدر المرجو . فلم يقم سترابون باي جهد شخصي ملحوظ لاستكمال معلوماته المقصورة على الكتب ليتجاوزها الى ما هو احسن واكمل ، اذ كان همه الاكبر ان يضع لنا كشفاً او ثبتاً دقيقاً للسفن الهوميرية ، كما رأى ان لا فائدة من ان يتخطى في رحلته ايطاليا الى الغرب والتعرف الى معالمه. من الممكن كما انه من المؤسف جداً من جهة اخرى ان نضع قائمة طويلة بهذه الاغلاط التي وقع فيها كثيرون كانوا في وضع يسمح لهم ان يجمعوا معه معلومات هامة . فالملك يوبا الثاني ملك موريتانيا ، ومن نصراء العلم في عهده ، توهم النيل ينبع من ضواحي المحيط الاطلسي ثم يغور تحت الأرض في اتجاه الشرق، ليظهر ، من وقت الى آخر، في بعض معالمه ، في بحيرات الشط وغدرانه. وفي اواسط القرن الاول ، راح الجغرافي الاسباني بمبونيوس ميلا ، وهو من المتخصصين بعلم الجغرافيا ، اذ ذاك ، يسلم ويعتقد بهذه الخزعبلات والتلفيقات التي يرددونها حول العنقاء ، والنساء المسترجلات، وغير ذلك من الغرائب والكائنات العجيبة . كذلك كان يرى علاقة بين نهر الدانوب والبحر الادرياتيكي . وفي هذا العصر بالذات ، كان بلين الاكبر ينظر الى بحر قزوين ، خليجاً من هذه الخلجان التي يرسمها الاوقيانوس المحيط بالأرض ، ولم يخامره من جهة ثانية ، اي شك بان اوروبا اكبر بكثير من افريقيا وآسيا .

فالتقدم الصحيح الذي امكن تحقيقه على نطاق ضيق في علم الجغرافيا تناول هذه المناطق التي اخذ بارتيادها تجارة متاجرون. ففي القرن الاول استطاع المؤلف المجهول للكتاب الموسوم: « رحلة حول البحر الاريثري » (اي البحر الاحمر) ان يمدنا بمعلومات جديدة طريفة تتعلق بسواحل الهند حتى وبسواحل الصين الجنوبية . كذلك نرى كثيرين يضعون رحلات يصفون فيها أسفارهم وتنقلاتهم في البحر الاسود ، منها « رحلات الى البحر الأسود » . وقد برهن اريانوس الذي كان حاكماً لولاية قبادوقيا في عهد الامبراطور هدريانوس ، عن اهتمامه الكبير بمقاطعة القوقاس . هذه وما اليها احداث فردية طارئة ، ولا نرى قط اريانوس نفسه الذي كتب عن الهند ، قد افاد كثيراً من المعلومات المستحدثة التي كانت في متناوله . فبعد ان كانت الروح العلمية على اشدها في العصر الهليني نرى هذه الروح التي كانت تشرئب بانظارها الى المجهول تحاول الكشف عنه، لم تعد لتكسهد العلماء ، ولا لتؤرق المثقفين ، ولا تراود خواطرهم . فلم نعد نشهد رحلات كبيرة بعيدة يهدف القائمون بها للكشف الجغرافي الواسع . وبالرغم من الطرقات الجديدة العريضة التي امكن شقها ، والاسفار البحرية المتواترة التي حصلت ، نرى هؤلاء الجغرافيين يقعون في اغلاط سمجة، ويقترفون هفوات لا تغتفر لهم عندما يريدون تحديد المسافات والاتجاهات . فما عاد الانسان ليكترث كثيراً، ولا ليهتم بامه الأرض : موطنه ودار سكناه .

ففي ظروف وأحوال كالتي ذكرنا ، ليس من العجب قط ألا يتقدم البحث العلمي ، وألا يسجل أية خطوة ملموسة الى الامام . لم يعد لدينا شيء يذكر من آثار مارينوس الصوري ، احد حملة العلم في القرن الثاني . ولعل أكبر علماء هذه الحقبة وأشهرهم ذكراً واسماً هو معاصره بطليموس الذي رأى النور في مدينة بتولميس في صعيد مصر ، وعاش على مقربة من مدينة الاسكندرية . كان اختصاصياً بالرياضيات وعلم الفلك ، فوضع في هذا المجال كتابه الخالد : « الجسطي » حول نظام النجوم وعلم الفلك ، وبقي كتابه هذا معمولاً به طوال الأجيال الوسطى حتى وبعد هذا العهد . و « الجسطي » كلمة منحوتة من اداة التعريف العربية الـ ، ومن الكلمة اليونانية *Megistos* ومعناها « العظيم » .والحق يقال ان هذا النجاح النسبي يحققه بطليموس منحول ، مختلس ، لأن بحثه هذا كغيره من الابحاث الاخرى التي وضعها هذا المؤلف ، عول بالاكثر على ما تقدم من العلماء الهلينيين دون ان يعتمد على مجهود او تحصيل شخصي . فقد أقصر عمله على نقل المبادىء والنظريات التي علّم بها وعمل هيبارخوس ، كما انه أهمل الأخذ بالنظرية التي قال بها وعلّم ارستارخوس الساموسي التي جعلت من الشمس او من النظام الشمسي محور الكون ، كما رذل ، باعتبارها مضادة للعقل ، نظرية دوران الكرة الارضية على محورها عند قطبيها .

اما جغرافيا بطليموس فلا تستحق ان يطلق عليها هذا الاسم لأن غرضها الاول هو كيفية رسم الخرائط . فالمعلومات التي تتعلق بعادات الشعوب وأخلاقهم ، وبالحاصيل الطبيعية لا يأتي على ذكرها إلا بالعرض ، ولماماً . فبعد ان تناول بالبحث النواتىء الطبيعية نراه يضع منطقة بعد منطقة ، قوائم بأسماء الجبال القائمة فيها ، وأسماء الانهر ، والشعوب والمدن ، ويحاول ان يحدد او ان يشير ، بكثير من الدقة ، إجمالاً الى خطوط الطول والعرض . فهذه الجغرافيا ليست سوى جريدة أسماء ومسميات حاول صاحبها ان يكسوها ما يزينها فأضاف اليها بعض المعلومات والمعطيات الجغرافية ، جمع فيها ، بعد جهد مبرور من المقارنات والتصويبات ، كل ما استطاع علماء عصره جمعه من معلومات . وما كان أسرع ما يتسرب الغلط على يد النساخ الذين تعاوروا على نسخ هذا الكتاب ، الى هذه القوائم الطويلة من المسميات الجغرافية ، الأمر الذي أثار جدلاً ونقاشاً بين علماء هذا العصر حول الشكل الصحيح الذي أورده بطليموس ، لم يخفت صوته به ، حول شكل اوروبا الشمالية وافريقيا ، والشرق الاوسط . ومهما يكن ، فهب ان هذا الكتاب لم يخرج عن كونه كشفاً دقيقاً وليس بعمل أصيل ، ومهما شابه من نقص او شكا من فراغ ، فلقد لعب ، مع ذلك ، في التاريخ ، دوراً كبيراً .

ومهما بدا بطليموس صغيراً ، اذا ما قارناه بكبار الجغرافيين في العالم القديم ، فهو يمثل مع ذلك ، آخر حلقة من كبار العلماء الذين اطلعهم التاريخ القديم . وهو الذي اوجزت واختصرت مؤلفاته لمدة قرون متتالية ، وسلمت للأجيال التالية ، النتائج التي أدى اليها البحث العلمي في هذه المجالات . فالترجمات العربية واللاتينية التي عرفت ان تؤمنها الأجيال الوسطى لهذه الكتب ، اعتبرت كحقائق مقررة ، ثابتة المعطيات التي فيها حول علم الفلك والجغرافي ، مع

كثرة الاغلاط التي انزلق اليهـا في كتابه الآخر . فاذا كان مارينوس استطاع ان يحصي ، بين جزر الخالدات *Iles Canaries* والصين الجنوبية ٢٢٥ درجة من خطوط الطول ، فقد احصى منها بطليموس ١٨٠ درجة أي نصف خطوط الطول في الكرة الارضية ، وليس الثلث . فاذا ما استطاع رحّالة الاجيـال الوسطى ، ان يحسنوا معلوماتهم حول الصين واضطروا ان يمدوا خريطتها اكثر نحو الشرق ، فقد لاح الأمل الذي حدا بكريستوف كولومبوس للقيام بمغامراته الجغرافية .

التاريخ الطبيعي وعلومه

ليس مـا يستحق الذكر في العلوم الرياضية . فالرصد العلمي للنجوم كان أهمل أمره واستعاضوا عنه بهذه الحدسيات والافتراضات المحتملة الوقوع التي انصرفت اليها النجامة ، وعليها اقبل في عهد اوغسطس واليهـا انقطع ، الروماني مانيليوس الذي وضع ارجوزة شعرية في النجوم وعلومها ، اسماها : « علم الفلك » . أما العلوم الرياضية الأخرى ، فقد اقتصرت على اجترار ما سبق للعلم ان حققه من قبل ، وبقي العمل بـه محصوراً ضمن محافل خاصة ، في أثينا أو في الاسكندرية .

وعلى عكس ذلك ، انصرف الاهتمام اكثر فأكثر نحو الظواهر الطبيعية ، وبرز للأنظار في مجالات التاريخ الطبيعي شخصيتان ، هما : سنيكا وبلين الأكبر ، وان كانت آثارهما العلمية ذات قيمة ضعيفة .

فاذا لم يتعرض سنيكا للعلوم إلا لماماً ، من خلال بعض آثاره العلمية ولا سيما الأدبية منها ، فمباحثه في « العلوم الطبيعية » وهي التي وصلت الينا من بين مؤلفاته العلمية ، تعطي الدليل على سعة المعلومات التي تمت له ، وعلى تنوعها ، ان لم تدل عـلى الهواجس العلمية التي جاشت في صدره . فهو لم يعالج هذه الموضوعات، بما تستحق من استعداد فكري وتهيئة سابقة . واذ كان يفتقر ، أساساً ، للاستبحار في العلم ويهزأ بفكرة البحث عن اصل بعض أسماء الاعلام الرومانية ويتساءل من ظهر قبل الآخر : الإلياذة او الاوديسة ، فقد كانت تنقصه اصلاً الروح العلمية. فقد كان فيلسوفاً ، وأكثر من ذلك، عالماً اخلاقياً . وبالفعل ، نراه في أبحاثه عن العلوم الطبيعية يستطرد كلما سنحت له الفرصة لبحث القضايا الأدبية التي فيها موعظة للناس ، ويشجب بشدة ، الذوق المترف بمناسبة التحدث عن المرايا ، او هواية الاسفار عندما يتحدث عن نهب الأرياح . ومع ذلك ، فقد برهن عن نظرة صافية ورأي صائب عندما يأخذ بتقويم النظريات المتضادة او المتعاندة. وقد استطاع بما أوتي من نفاذ البصيرة ان يأتي بنظريات تقرب من التنبؤ، عندما استشعر التقدم العظيم الذي سيحققه العلم في المستقبل . إلا انه توقف عند طائفة من الحوادث والوقائع ، ناقصة وغير متناسقة ، التي تم للعلم اليوناني درسها دون ان يزيـد عليها شيئاً يذكر من ملاحظاته الشخصية .

ومع ذلك فقد كانت بحوثه العلمية خطوة كبرى لدى علماء الأجيال الوسطى .

ولم يتم ، من جهة ثانيـة ، لبلين الاكبر ، ما تمّ لسنيكا من قوة الفهم وتوقّد الذهن وصدق النظر . إلا ان ما عُرف عنه من نشاط حمله على بذل الجهود في جمـع ما أمكن له جمعه من المعلومات ، ابّان خدمته في الجيش الروماني ضابطاً ، ثم أثناء عمله في الادارة ، واخذ فيها يرقى سلم الدرجـات الادارية حتى عيّن أميراً للبحر . ومن آثاره الفكرية الكثيرة — وهي عديدة

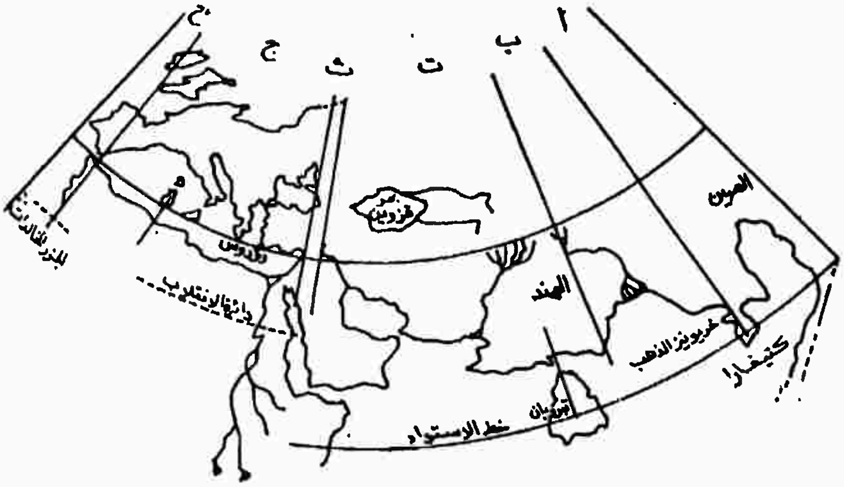

الشكل ١٣ — خطوط الطول عند بطليموس

أ و ب ـ التخوم التي يسميها بطليموس « الاراضي المجهولة » يصعب جداً تحقيق مواقع المدن التي يذكر اسماءها وهي كتيغارا ، وتبنيه ، وسيرا .
ت ـ من الفرات الى تشخورغان (برج الحجر) في مقاطعة سريكول الى بامير، ٦٠ درجة (٣٤ درجة)
ث ـ من البحر المتوسط الى الفرات درجتان ونصف .
ج ـ من الجزر الخالدات (كنارى) الى جبل طارق ٧ ١/٢ درجات ، والحقيقة ١٢ ونصف .
ح ـ البحر المتوسط ٦٢ درجة (٤٢ درجة)

متنوعة تناول فيها القضايا الحربية والتاريخ الطبيعي والاجرومية — لم يبق سوى ٣٧ رسالة من كتابه « التاريخ الطبيعي » *Histoire naturelle* وهو كتاب ضخم وحصيلة جهد موصول من المطالعات ، جمع المعلومات التي أفاد منها ، على عدد كبير من الجزازات او البطاقات برؤوس الموضوعات ، وضعه في اوقات فراغه . ويحكى عنه انه كان يطالع وهو الى مائدة الطعام ، وفي الحمام . وعالج بذهن يقظٍ متفتح كل الموضوعات : من الجغرافيا ، الى الفنون الجميلة ، الى علم النبات ، الى علم الحيوان ، فعلم المعادن . والمؤسف من هذا كله ، هو جعل هذا العطش الى المعرفة مشدوداً الى المطالعة المادية ، أي مربوطاً بالكتاب او المطالعة الحرفية ، دون ان يكترث او ان يهتم بما وراء الحادث والواقع المحيز ، لا نلمس عنده أية نظرة ناقدة ، مفلسفة ، معللة ، إلا ما ندر ، وان فعل ، فبتردد كلي وبشيء من الوَجل . وقلما رأينا الشك يخامره او ان يستنكر لما كتبه عن الرُخ ، وعن العنقاء ، وغير ذلك مما أثبته من الخرافات المحكية ، والأساطير المتناقلة . وهو يؤكد

في معرض حديثه عن التمّ او الاوز العراقي الذي يغنّي وهو يحتضر ، بأنه لم يتفق له قط ان سمعه . وفي هذا ما فيه من تفويته الفرص للتقصي عن الحقيقة العلمية، فقد تبنّى ، دون ان يختلج له طرف عين ، هذه الخرافات المضحكة المبكية حول ساحر يعسّ ليلاً ويطوف متنكراً بهيئة ذئب ، وخلاف ذلك من احاديث أدارها على حيوانات اسطورية . ان ما عُرف به من سرعة التصديق المفرطة، أضرّ كثيراً بعمله العلمي ، وأساء اليه كثيراً بحيث نرى فيه، جنباً الى جنب، الخسيس والممتاز . إلا انه لا يجوز للمرء ، من جهة اخرى ، ان يمر مرور الكرام ، بما تقع عليه العين ، الفينة بعد الفينة ، من قوة الفراسة ، وصدق الملاحظة التي لا يمكن ان يتصف بها كاتب بين بين ، حيث تطلع علينا ، من وقت لآخر ، شطحات فيلسوف من المذهب ، شديد التشاؤم مما يشاهد من بؤس البشرية وتعاستها . كذلك ، يجب ألا يغيب عن ذهن القارىء قط ان هـذا الكاتب ، يجب ان يلام لحصر البحث عن الحقيقة والتحري عنها في الكتب . فقد قضى حياته في خدمة العلم وجمع المعلومات ، وتصيّدها وطلبها أينما تجلّت له . فبدلاً من ان ينجو بنفسه من الخطر الماثل امامه والذي يتهدده بموت زؤام ، اذ خف مسرعاً ليشاهد عن كثب ثورة الفيزوف الكبرى ، عام ٧٩ للميلاد ، فكان احد ضحايا العلم ، وهلك في عداد من هلكوا في هـــذه الكارثة الرهيبة .

الطب

اشتد اهتمام الناس دوماً بالطب وبالاطباء . فليس من عجب ، بعد هذا ، ان يزداد عددهم في كل مكان وينمو بعد ان حرصت كل مدينة على ان يكون لها ، على الاقل طبيب واحد ، فدرّت هذه المهنة على اصحابها الكسب الوافر وتم لبعضهم ثروات طائلة . وقد عرف الطب ان يسجل تقدماً محسوساً في هذه الحقبة ، فأدخلت على الجراحة وادوات الكحالة تحسينات جمة، وتوصل الأطباء لاجراء عملية السادّة (الماء الازرق) في العين، كما امكن تسجيل بعض التقدم في جراحة التجميل لبعض اعضاء الجسم كالأنف مثلاً ، وتوصلوا الى اكتشاف بعض المخدرات الموضعية . وليس بغريب قط ان نرى نِطسَ الاطباء المتخصصين بأمراض العين والاذن ، والاسنان وغير ذلـــك ، كما رأينا ، من جهة اخرى ، نساءً يتعاطين مهنة القبالة . واتضحت للعيان بعض الطرق العلاجية التي استنبطوها ، كالاستشماس او التطبب بالتعرض لأشعة الشمس مثلاً ، والسكنى في المناطق الجافة الهواء للمصابين بالامراض الصدرية . كذلك وصفوا لبعض الأمراض العصبية المعالجة بالمياه المعدنية وراحوا في هذا السبيل يحصون ما يصلح منها للاستعمال .

فاذا ما راح علم الاقرباذين يدرس ويتبحر بخصائص بعض النباتات الطبية فما زلنا نرى بعض الاطباء يصفون زرق الحمام وبول الحمير للعلاج ، وقرن الأيل بعد حرقه . وعلى اثر توافد الاطباء الدجالين والعقائد المتناقضة من الأقطار الشرقية ، لم يكن من النادر قط ان يلجأ البعض لطرق التعزيم والسحر والرقية ، في الطبابة واللجوء الى وسائل المنجمين . فكم من طبيب ، مثلاً رفض المباشرة بمعاينة مريض ما، الا بعد ان يستطلع مواقع النجوم وطِلع الابراج، ومواقعها في مداراتها، وتوافقها في المكان والزمان . فالبشرية المتعذبة، راحت تنيط رجاءها في هذا العصر وتتطلع ،

اكثر من أي وقت آخر ، نحو القوى الفائقة الطبيعة التي تتحكم بمصائر البشر ، وبيدهـا الخلاص والنجاة وتشرف على توزيع الحظوظ .

كل هذه النجاحات والتطورات التقنية التي حققها الطب ، انما تمت عن طريق التجربة والاختبار ، ولم تأت نتيجة منطقية لمبادىء علميـة . فقد اقتصر الطب باعتباره علمـاً باصول ، على التقيد بالفتوحات العلمية التي أمكن لاطباء الاغريق تسجيلها ، من بعد ان تهيب اللحاق بهم في هـذا المضمار. فلم يكن ليجرؤ احد على الظن ، بالرغم من التجارب والاختبارات الهلينية ، بان الاوردة الدموية تصلح لغير نقل الهواء. ففي عهد طيباريوس ، وضع سلس *Celse* موسوعة تناول فيها فيما تناوله من علوم: البيان والبلاغة والزراعة وفن الحرب ، والحقوق ، كما افرد للطب في زمانه بحثاً مستفيضاً امتاز بالدقة والجزالة واوضح ان هذا العلم لا يخرج ، في عصره ، عما كان عليه في العصور السالفة ، باستثناء بعض ذرائع وطرق جديدة أتبعت في العمليات وفي منتصف القرن الثاني للميلاد توصل الطبيب اليوناني جالينوس البرغامي الى ان يستنبط بعض الوصفات الطبية التي لقيت نجاحاً واطلقت شهرته بعيـداً في الارض ، بحيث اصبح الطبيب الخـاص لاواخر اباطرة الاسرة الانطونية . من العسير جداً ان يتمكن المرء من تبيان الاشياء العلمية الجديدة التي ابتكرها . فقد كتب كثيراً ووضع تآليف امتازت بالانسجام بين علم التشريح والنظريات الطبية والطرق العلمية التي اختلفوا نظراً حولها وتباينوا رأياً فيها . فقد كان بما عرف عنه من نبوغ طبي واختصاص ، شأنه في ذلك شأن بطليموس ، آخر عالم أطلعته العصور القديمة . وعلى شاكلة بطليموس ، حالفه الحظ بان ينقل الى الاجيال الوسطى ، عن طريق المؤلفات التي وضعها بعد ان امن لها مـا أمكن من إتساق وانسجام ، هذه الكشوف والابتكارات العلمية التي امكن تحقيقها بفضل ما بذله من جهود طائلة وتقصيات لا تنقطع ، فريق من العلماء ظمئت نفوسهم الى المعرفة وجاشت صدورهم بحب الاطلاع ، وهفت عقولهم الى العلم ، فهبطوا موارده في الاجيال السالفة بروح طلعة لم تلبث ان خبت شعلتها وكمن نشاطها .

الحقوق

يتضح من خلال الاستعراض العام للنشاط العقلي والفكري في شتى مجالاته ، الدور المتواضع الذي لعبه الكتبة اللاتين في هذا الميدان . فقد حرص الشرق الاغريقي ان يحتفظ لنفسه بالسبق الذي سجله على الغرب ، في هذا المضمار . فالدور الذي قـام به هؤلاء الكتاب يبرز على اتمه اذا ما أمعنا النظر في بعض العلوم التقنية . فعلم الفلاحـة اللاتينية لا يزال مع فارون ومع زميله الاسباني كولوميل الذي جاء بعده بقليل ، عيالاً على الاساليب والطرائف الهلينية . فالهندسة المعمارية تزداد وضوحاً وواقعية في البحث الاصيل الذي وضعه فتروف حول هذا العلم ، والابحاث الاخرى التي وضعها فرونتون ، والمهندسون الآخرون . ولكن ليس من العدل بشيء ان نقصر على هذه الآثار وحدها حصيلة روما في هذا المجال . فقد استطاع ابناؤها من ان يستنبطوا وان يبتكروا علماً قائماً بذاته .

والمقصود من هذا العلم هو الحقوق . فالطابع الفارق الذي يميز عمل روما في هذا المجـال

ويؤمن لها مرتبة الصدارة هو استعمال اللغة اللاتينية ، دون سواها ، في معاهد ومدارس الحقوق التي فتحت ابوابها في الشرق ، اهمها على الاطلاق واشهرها طراً، المدرسة التي طلعت في بيروت، في مستهل القرن الثالث . ان استعمال اللاتينية دون سواها من اللغات المستعملة في الامبراطورية الرومانية ، كان لا بد منه، في مختلف مراحل القضاء ودرجاته ، اذ ان اللاتينية كانت ، أكثر تهيؤاً من اليونانية ، وأكثر قابلية منها للتعبير عن مفاهيم وافكار قامت في روما، وفيها تحددت وتناسقت . وهذا الواقع لم يحُل مع ذلك ، دون ان يردف الشرقُ العالمَ الروماني ويمده ، منذ منتصف القرن الثاني ، بجمهرة من اعلام الفقهاء والمشرعين ، بينهم : غايّوس ، دون ان يطبعوا الشرع الروماني بطابع الفلسفة . وقد صرف الأخير همه الى توسيع نطاق البحث العلمي في هذا المجال ، وعمل على تطبيق مناهج كانت روما اول من وضع أسسها .

وقد امتازت نخبة من رجال القانون باهتمامها الشديد بأمور القضاء، والاقضية ، التي صدرت عن المحاكم في روما ، كما ان فريقاً منهم عُرف بتضلعه العميق وباستبحاره في هذا العلم فاعتبروا بحق فقهاء *Jurisprudents* أي « حكماء » متضلعين بالحق الروماني. وبهذه الصفة كانوا يتقدمون بالنصح والارشاد، ويفتون في الأمور القضائية التي تعرض عليهم فيتحلّق حولهم اساتذة وطلاب هذا العلم ورواده دون ان يحمل هؤلاء الاساتذة اية شهادة تخصص او دون ان يكون لهم أي عمل رسمي في الادارة الحكومية. وقد تألف من اجتهادات هؤلاء الفقهاء، منذ عهد اوغسطس، مدرستان عُرفت الواحدة منها باسم رئيس كل منها ، هما : السابنيين والبروكوليانيين . وعلينا ان نقر هنا بأن ما كان يباعد اذ ذاك ، بين هذا وذاك، من التيارين المذكورين لم نعد نرى بوضوح ما يبرره الآن. فاذا كان الفريق الاول منها تميز في الاساس ، بقبول النظام الاستبدادي ، أي الامبراطوري ، فلم يبق في القرن الثاني ما يباعد، نظرياً ، بين الفريقين او التيارين المذكورين. وقد عمد الامبراطور هدريانوس الى تعيين البارزين من مشاهير هاتين المدرستين ، اعضاء في مجلس الامبراطور الخاص ، وكان يجعل من اتفاقهم رأياً واحداً حول موضوع معين ، قانوناً له حق الإلزام . وهكذا برز بوضوح الشأن الكبير الذي مثّله من اصطلحوا على وصفهم بالفقهاء *Jurisconsultes* ، كما برز ما لرأيهم من قيمة قانونية . وهذا الشأن تبلور عن عملية توحيد عامة للحقوق ، اذ نشر هدريانوس ما يُعرف عندهم بـ : القرار الدائم *L'Edit perpétuel* الذي حلّ محل القرارات التي بقيت منذ عهد سحيق، بدون تبدل تقريباً، والتي بموجبها كان القضاة يعلنون لدى مباشرتهم وظائفهم، المبادىء التي يقضون بموجبها . كذلك برز التأثير في تهذيب الحقوق باضفاء العاطفة الانسانية عليها ، وما كان لهـذه النزعة من شأن بعيد على التطوير الاجتماعي، اذ ذاك . وفي الاساس من هذا التصرف المزدوج ، أطلّ ظاهرياً مثال واحد انبعث من صميم تعاليم الفلسفة الرواقية ، الا وهو استواء الناس في خضوعهم جميعاً لقضاء واحد شامل .

وسيطرق اسماعنا خلال هذين القرنين اسماء عديدة من الفقهاء ورجال القانون واول من وصلنا من بينهم اثر هام، هو غايوس احد معارضي مارك اوريل، ممثلاً بكتابه المعروف *Institues* . وما ان تميل شمس القرن الثاني للغروب حتى نرى من ألزم مميزات علم الحقوق : التحليل الاصولي،

والدقة والعدالة والمنطق ويأخذا هذا العلم بالازدهار. وهكذا يُهيء الجو ليشرق في سماء لبنان هذا الاشعاع الحقوقي الذي تمثل في عهد الامبراطور ساويروس ، خير تمثيل باسماء لمعوا عالياً في الفقه الروماني ، أمثال بابنيانوس وبولس واولبيانوس . وحري بالتنويه هنا ان هـذا العلم الذي هو من وضع روما ، ومن هذه الأشياء التي حملتهـا معها الى الشرق بقي ناشطاً في هذه الحقبة . فساعة الموسوعات القانونية التي في الرجوع اليها غنىً عن البحث والتقصي ، لم تدُقّ بعد ، مع انها دقت ، منذ زمن بعيد ، لغيره من المجالات العلمية الاخرى .

٢ - الآداب اللاتينية

لا مشاحة قط ان الآداب اللاتينية اخذت تظهر عليها بوادر الانحطاط غداة عصر اوغسطس. فلم تعد تتسم بهذه الوحدة العميقة الجذور التي تألفت من هذا الاتزان بين العاطفة والعقل ، ومن هذا التجانس والانسجام البديعين ، ولا من هذا الجرس الانساني النبرة والصدى ، في ما نقرأه لفرجيل وتيت - ليف ، من هذه الآثار الخالدة التي حفظت ذكراهما الى الابد.. ولكن ايانا مع ذلك من ان ننبذ جانباً الآثار الخالدة التي خلفتها في هذه الحقبة . فاختلاف النزعات وتباينها ، والاهتمام الزائد بالشكل والمبنى وخفة الروح ، وتأثير الصياغة البيانيـــة والمحسنات اللفظية من انواع المجـــاز والبديـع ، كل هذا وما اليه ، يجب الا ينسينا بعض ما فيها من روائع جميلة ومقطوعات بديعة .

افراد ، فنون ، مراحل

وهذه النجاحات تحققها الآداب اللاتينية هي ، كالمألوف والمتعارف دوماً ، انجازات افرادية نوعية . فقد تعددت مناحي العبقرية عند فريق منهم ، وعرفوا ان يبرّزوا في اكثر من فن من الفنون الادبية . ولعـل سنيكا هو خير مثل نضربه على ذلك ، اذ طلع علينا بآثار فلسفية وبابحاث علمية ، كما وضع عدداً من المسرحيات ، ورسالة قدح وذم ضد كلوديوس . وتاسيت نفسه كان خطيباً ، مؤرخاً ، واتنوغرافياً ، كما ان بلين الاصغر كان خطيباً مفوهاً ، وكاتب رسائل له شهرته . فقد رأينا بعض هذه الفنون يزدهر فجأة ويشع ثم تنطفىء شعلته ويخبو ضوؤه ، كعلم الاخلاق ، مع سنيكا ، والشعر الملحمي مع لوقين. وعلى عكس ذلك ، لا نجد شيئاً يذكر في الفنون الاخرى كالمسرح مثلاً ، بعد ان أهمل شأنه ، عقب حلّت العاب المصارعة وألعاب الاوبرا التعبيرية محله ، بما فيها مسرحيات سنيكا ، التي وضعهـا لتقرأ ، وليس لتُمثل على المسرح .

وفوق هذا كله ، تطل علينا فكرة « تطوّر » او عهد ، وهي فكرة جديدة ، لا بد منها في مثل هذه الحقبة التي استطالت قرنين بكاملهما ، ألـفوا خلالها وكتبوا كثيراً ، ووصلنا من هذه الآثار الفكرية الشيء الكثير ، بالرغم من ضياع وفقدان جانب كبير منها. فسهولة التعبير التي تميزت بها ، لم تحل دون بقائها مبهمة ، غامضة ، فكانت بالتالي ، سبب ارتياب وتشكك للمؤرخين. ولعلها مع ذلك ، تبرز أقل غموضاً وتظهر بوضوح اكبر في تاريخ الادب . ولذا امكن قسمتها من هذه

الزاوية الى ثلاث مراحل او ثلاثة اطوار متباينة ، يتميز الواحد عن الآخر بوضوح .

فالطور الاول يتفق وعهد الاسرة اليوليو ـ كلودية ، وفيه بلغت الآداب اللاتينية الاوج ، لا سيما في عهد ملك كلوديوس ومطلع عهد نيرون . فيه برز سنيكا ولوقين ، وبترون وبيرس . وهذه الحقبة امتاز كتابها : برهافة الحس وتنوعه واتساعه ، ولو جـاء ذلك على حساب قوة السبك والترابط المنطقي ، في هذا الفوران المزعج الذي أطل علينا من اختلاط الفنون بعضها ببعض ، وانطلاق النزعات السياسية نحو واقعية تفترُ حيناً، عن جمال رائع، واحياناً،عن مظهر قاس متجهم ، قد يبرر وصفها بـ « الرومنطيقية » ، مهما كانت هذه النعوت التي طالما وصفوا بها الحركة الادبية في هذا الطور ، تقريبية ، وبالتالي مقصرة عن اداء التعبير .

ويلي هذا الطور، طور ثان يمتد فوق اسرتين،ويوازي عهد دومتيانوس وترايانوس، فيه حلّق كونتليانوس ومرتيال، وجوفنال وتاسيت وبلين الاصغر. فالآداب تسبق النضج والتوازن السياسي اللذين ميزا الامبراطورية ، اذ ذاك . فهي تزهر وتزدهر بطلوع كونتليانوس وتجلّيه ، وفي هذا الطور رجعة الادب الى العهد الكلاسيكي، بعد ان تخفف وتحلل من هذه الطفح والزبد الذي لصق بالادب من قبل . فاذا ما ارتضت الحركة الادبية ، اذ ذاك ، ان تخضع نفسهـا للانضباط فقد عرفت مع ذلك ، الا تفقد شيئاً من طعمها الدسم ولا من الجرأة التي اتسمت بها .

وبالرغم من ان الامبراطورية بلغت الأوج سياسياً واجتماعياً في عهد الاسرة الانطونية ، فقد انتابت الادب ، اذ ذاك ، اعراض ذبول وتأخر . وأخلق الوجوه الادبية بالذكر والتنويه ، هي اسماء : سويتون ، وابوليه ، وترتليانوس ، وهم عدد ضئيل جداً لعمري ، لفترة امتدت اكثر من ٥٠ سنة ، مع العلم ان سويتون هو رجل ادب اكثر منه رجل فكر وعلم . فقـد اضفى ، هو وامثاله ، على هذه الحقبة ، مستوى علمياً رفيعاً، مع العلم ان فضل الاثنين الآخرين يتصل بالادب الديني وبالتعبير عن المشاعر الدينية بصورة مغايرة للتعليم الرسمي . والظاهر ان الآداب اللاتينية لم يكن في مقدورها ان تتجدد الا بنسبة ما تتنكر لروما وللفضائل التقليدية التي عرفت بها .

افراد وفنون واطوار : ثلاث نقاط رئيسية على مستوى واحد من الاهمية والقيمة، في هذا العرض الذي نقوم به والذي يجعله صعباً معقداً ، ما بينها من اختلاف وتباعـد وتنافر. لنختر واحدة منها ، هي الثانية ، وكلنا أسَف ان يضطرنا الاختصار ، الى ترك النقطتين الباقيتين .

الفلسفة

أفلسفة ام خطابة ؟ لا بأس من ان يتردد المرء ويتساءل بمن يبتدىء : بهـذه او بتلك من الاثنتين . صحيح ان الخطابة هي الميزة التي تطبع بصورة اعمق ، وبصورة اوسع على كل حال ، العقول والاذهان في هـذا العصر . ولكن الفلسفة تؤثر بدورها عليهم وتطبع انتاجهم ، كما ان علم التوقيت الخاص بتاريخ الادب يكفي وحده لايلائهـا حق الأولية . فاكبر فيلسوف روماني لمع اسمه في هـذه الحقبة ، هو الاول ايضاً بين كبار الادباء اللاتين الذين لمع اسمهم بعد عهد اوغسطس : هو الفيلسوس سنيكا . قليلون جداً بين اصحاب

العقول من أوتوا ما أوتي سنيكا من المواهب العقلية ، كما انهم قليلون جداً ، من ثم لهم ما تم له من خصب الانتاج الفكري ، وسهولة العمل ويسره ، مكنه من وضع ما وضع ، من آثار فكرية ، مع ان هذا القرطبي ، بعد ان انتقل مع والده الخطيب الى روما ، أضاع فيها جانباً كبيراً من وقته في هذه الحياة الاجتماعية التي استسلم لها . وفي هذه المؤامرات والدسائس التي شهدهـا في البلاط بعد ان عُيّن مهذباً لنيرون ومربياً له ، وفي شؤون الدولة ومهامها السياسية ، بعد ان تربع تلميذه على أريكة الملك . ولعل اسوأ ما نلمسه في انغماسه بهذه الحياة وفي اقباله عليها ، حيـاة سيّرتها ووجهتها فئات اجتماعية ضيقة ، لم يظهر ما يدل على انه تعرف الى غيرها ، برهن فيها ، الى جانب الوقت الثمين الذي هدره سدى ، عن وصولية وانتهازية انحدر معها الى درجة الانحطاط الخلقي . فلولا هذا الهدوء والطمأنينة التي تلقّى معها خبر حكم الاعدام يصدره عليه تلميذه المتوج ، الكثير الشكوك والظنون ، لاغتظنا كثيراً لهذا التناقض يطالعنا به رجل من بطانة الامبراطور ، اصبح بفضل منصبه من كبار اثرياء زمانه .

فعلم الاخلاق هزّه اكثر من الفلسفة . فلم يتحمس يوماً لعلم المعقولات او علم ما وراء الطبيعة ، وقد ابى ان يوضح لنفسه ، العلاقات القائمة بين الالوهية والعالم والانسان ، مقتصراً على المذهب الروماني الذي صادف من الرواج اذ ذاك ، ما اتاح له ان يجد لمدة طويلة ، مريدين متحمسين بين المسيحيين انفسهم . والمهم عنده هو علم الاخلاق الذي دعا دوماً الى الاخذ به ، حتى في بحوثه العلمية ، وفي مسرحياته التي حذا فيها حذو يوريبيذس ، والى هذا ، ان اهم واكثر آثاره الفكرية تتألف من مباحث روعيت فيها قواعد الفن ، او تؤلف مباحث بشكل رسائل الى اصدقائه . وهو يتصرف كأنه معلم ذمة لمن هم من طبقته من سعداء هذا العالم الذين يعـانون ، مـع ذلك ، من آلام هذه الدنيـا . فهو يوحي بقبول ما لا سبيل الى تفاديه من شرور هذا العالم بما فيها الموت ، وذلك بمثاليـة ، من بيده مِلاكُ امره ، وبشيء من الحكمـة المدروسة ، على ضوء من التحليل النفساني الدقيق الذي يليق جيداً باسلوبه البياني الآسر وبهذه الطواعية الفكرية التي عُرف بها .

وهذه المثالية ، التي وضعها نصب عينيه هي ، مِثالية الرواقيين التي لم تكن بعد أطلّت على روما والتي لم يكن تأثيرها قارَب الزوال بعد . وهذه المثالية ، تبرز اكثر تشدداً وقسوة عند بيرس *Perse* ، كما تبرز عند لوقين ، اشرق بياناً وأكثر وضوحاً . فالفلسفة بمعناها الصحيح ، لا تستأثر بأحد من مفكري اللاتين في هذه الحقبة ، والوحيد من يخصص لها ، بين هؤلاء المفكرين ، ثلاثة أو أربعة كراريس ، هو أبوليه ، تناول فيها بالبحث ، بعض تعاليم الفيثاغوريين أو الفلسفة الارسطوطالية . وهكذا نرى اخلاقية المدرسة الرواقية ، تتفاعل على أقدار تختلف دقة ، في نفوس الكثيرين ، كما توحي ، في القرن الثاني ، ليس فقط الموقف العام الذي يقفـه أباطرة هذا العهد ، بل ايضاً بعض القرارات التي اتخذوها . فان كان اسلوب سنيكا البياني ما لبث ان تناساه الناس ، فأفكاره بقيت رائجة بعد موته بكثير .

الخطابة

لا شك في ان الخطابة واسلوبها، طبعت الأدب اللاتيني في العهد المتأخر ، من الامبراطورية الرومانية اكثر من الفلسفة . فقد أتيح لنا ان نتعرض للحديث عنها سابقاً ، وان نتبين ازدهارها ، والشوائب التي اعترتها . ولذا يكفينا هنا ان نشير لِماماً، الى ابرز من يمثلونها ، أقلهم هؤلاء الذين وصلت إلينا آثارهم .

كثيراً مـا أتينا ، في معرض الحديث ، على ذكر كونتليانوس ، والكتاب الوحيد الذي وصلنا منه ، هو : « فن الخطابة » ، فيبرز من خلاله ، مربياً كبيراً ، وعالماً سيكولوجياً نبيهاً . فللطفل مُثُل، تختلف كلياً عن مُثل الخطيب، ولذا يحرص على ان يوجهه في كل شيء. فهو يوصيه بالبساطة ، وباسم هذه البساطة ، يتناول بالنقد اللاذع ، سنيكا ويتهمه بانحراف الذوق ، بينما يمتدح عالياً شيشرون وذوقه الرفيع الذي يجب ان يكون قدوة الطالب وقاعدته . إلا انه لا يجرؤ على شجب التصنيفات ، وهذه الأساليب الملتوية التي راجت ايما رواج في عهده ، مع انه رأى ولمَس لمس اليد التعقيد الذي لحق بصناعة الكتابة ، فلم يكن ، على مـا عُرف عنه من وَجَـل ، بالرجل الذي يكيل الضربات بعنف للتجاوزات المغالية التي وقعت فيها الخطابة ، اذ ذاك ، بعد ان وقع هو نفسه ، تحت اسرها وأُخذ بها .

لم ينتهِ النقاش والجدل الصاخب الذي قـام بين المعاصرين حول التوقيت الزمني لكتاب تاسيت المعنون : « حديث الخطباء » ، ومحله من مؤلفاته العديدة . فالكتاب بمـا فيه من إستدارات بيانية تشبه الى حد بعيد اسلوب شيشرون ، هل كان بين اوائل الكتب التي وضعها تاسيت ، او انـه اختار له هذا الأسلوب الإنشائي الذي يليق بالموضوع ؟ وراح بعضهم يشك في ان يكون الكتاب المذكور من وضع تاسيت . ومهما يكن ، فالكتاب هو من وضع ناقد يملك ، بعكس كونتليانوس ، معنى علم التاريخ . فما غاب عن ذهنه قط ان انحطاط الخطابة يخرج عن نطاق الأدب ، وراح يعلل ذلك ويرده الى التطور السياسي والاجتماعي في البلاد اكثر منه لفساد الذوق ، وسوء اساليب التربية اذ ذاك.

وكان في مقدور هذه الحقيقة ، لو فُهمت على وجهها الصحيح ، ان تخفف من الاهتمام بفن تقادم عهده وزال اوانه . الا اننا لا نرى شيئاً من هذا البتة . فقد استمروا طويلاً في البحث بحماسة ، شؤون المعجم والانشاء ، والجزالة التي تأتي وليدة قناعة: « صارمة » ، « عابسة » ، « دقيقة » واستعمال المحسنات اللفظية والاوصاف الدالة على رهافة الذوق: « ناعم » ، «مشرق»، وهو جدَل انتقل إليهم من الاغريق قديمـاً ، حول الاسلوبين البيانيين المعروفين بـ : الاسلوب « الاتيكي » والاسلوب « الأسيوي » . فالعلم الأتم هو ان يعرف الكاتب ان يستعمل ، عند الاقتضاء ، الاسلوبين معاً على ما يقتضيه الموضوع والمناسبة العارضة . وقد أريق المداد مدراراً وجزافاً ، حول طبيعـة الاسلوب الخطابي واهمية الموضوعات التي يجب معالجتها في المرافعات القضائية او في الخطب التي تلقى في بعض المناسبات العارضة كالحفلات الرسمية . وهكذا نرى

الكثير من الفن المتصنع المزهر يبذل هدراً ولو أضر بالحد الادنى من الشعور العميق الذي لم نعد نرى احداً يتحسس به .

ففي : « رثاء ترايانوس » ليس احد يشك في صدق عاطفة بلين الاصغر ، صاحب هذا الرثاء الذي عُدّ مع تاسيت اكبر خطباء هذا العصر . كان المجتمع الروماني الرفيع يحمل كرهاً شديداً للطاغية الرهيب دومتيانوس كما كان ، على عكس ذلك تماماً ، شديد الاعجاب بخير الملوك وامثلهم على الاطلاق ترايانوس . فقد رأى كيف تحقق على يده ، كما يقول تاسيت ، واقعان برزا متضادين من قبل: الملكية والحرية ، كما ترك لهم « حرية التفكير بما يشاؤون ، والتعبير عن افكارهم كما يريدون » كما راعه ما رأى ، بتأثر بالغ ، من قوة روما وعظمتها ، وهما من بعض افضاله عليها . وهذا الرثاء ليس سوى نسخة منقحة ، مزيدة ، « لفعل الشكر » الذي رفعه بلين للامبراطور ، عملاً بالعرف المعمول به ، اذ ذاك ، عندما رقاه قنصلاً ، في غرة ايلول سنة ١٠٠ ، وقد اتاح هذا التعديل للخطاب إضافة ما لا بد من اضافته من المحسنات الشعرية ، وما فيها من اماديح وعبارات تفخيم أضعفت ما فيه من عاطفة مخلصة مشبوبة . ومما لا شك فيه قط ان رسائله التي أدخلت عليها بعض التعديلات لتصلح للنشر ، تحمل الكثير من سحر البيان ورشاقة التعبير ، وان كانت دون رسائل شيشرون بداهة وطبعية ، بالرغم مما يدعيه بلين نفسه بانه كفء عدل لشيشرون . فقد كان الافراط في تعهد الاثر الأدبي ، أبداً مفسدة له ، كما ان الافراط في الثقافة يسيء احياناً الى رهافة الذوق .

فالتاريخ القديم لم ير ، على كل حال ، في هذا كله سوى فضائل وحسنات ، وعلى نسبة الشهرة التي تمتع بها فرونتون في عهد مارك اوريل ، برهنت الشهرة التي تمتع بها بلين الاصغر ، ما كان عليه وما صار اليه ، الذوق العام اذ ذاك . و « رثاء ترايانوس » امكن حفظه وصيانته لانه كان نموذجاً لفن ادبي راج كل الرواج في العهود التالية : فقد جاء الاول في مجموعة من ١١ رثاء ، قيلت في عدد من الاباطرة حتى اواخر القرن الثالث وبدء القرن الرابع ، فكونت مجموعة من قطوف الخطب اللاتينية القائمة على اساس تاريخي . وكم يحدث ان يجد التاريخ مصلحته في الكثير من هذه المحسنات اللفظية التي عُمل بها اذ ذاك ؟

الشعر

المثقف هو من عرف ان يضع خطاباً وفقاً للاصول ، كما هو من عرف ان يقرض الشعر وينظم القصائد . ومثل هذه الرياضة العقلية اقبل عليها كثيرون وحاولوا ان يتقنوها . وهذا المران على القريض والتمرس به من عهد التلمذة ، يفسر لنا كيف ان كثيراً من الاساليب ، والالفاظ الشعرية والصور البيانية جرت على اقلام الكتاب والسنتهم في النثر . غير ان صناعة الشعر كانت أبعد من ان تموت أو تضمحل ، ولذا لاتزال آثار شعرية كثيرة تلفت النظر وتستأثر بالخاطر ، في هذا الانتاج الادبي الضخم الذي ليس كل ما فيه خليق بالحفاوة . وهذه المسرحيات التي وضعها سنيكا واتخذ مادتها ، ليس من الاسطورة رأساً ، بل من الآثار الفكرية اليونانية الفنية ، والبس شخوصها لبوساً هي من نسيج خياله الفلسفي ، تتناوح بين سماجة الذوق

والجزالة ، وفجاءة الاحداث التمثيلية والمواقف المؤثرة ، ورقص الاموات المرعب والرشاقة الناعمة ، وضغط العاطفة الرواقية ودقة التحليل السيكولوجي ، والاستدارات البيانية والوصفية الطويلة ومتانة السبك والحبك. وبالاجمال كل هذه المتناقضات او بالاحرى هذه الفروق وغيرها من المفارقات التي تتسم بها هذه المآسي ، ساعدت بالفعل كورناي على ان يفيد من بعض التغييرات التي ادخلها (سنيكا) على آثار يوربيدس .

وعندما قتل ابن اخته لوقين ، وهو ابن ٢٦ سنة تنفيذاً للحكم بالاعدام صدر عليه من نيرون ، فقد كان كتب وألف كثيراً . فلم يبق لدينا منه سوى ملحمته : « فرسال » ، دهمه الموت قبل ان يكملها ، وهي ملحمة تدور حول الحرب الاهلية في عهد قيصر ، وقد امتدح فيها ، بعد ان فقد كل حظوة لدى الامبراطورية ، بمبيوس وانصاره ، ولا سيما كاتون عوتيقة ، كما راح يتغنى ، بعد ان اطلق العنان لحقده ، بالنظام الجمهوري الذي عاشت البلاد في ظله قروناً عديدة . فللموضوع عظمته وجلاله . وقد عرف لوقين ان يحافظ على هذه العظمة ويصونها، اذ جعل الآلهة تتحمس لحروب البشر وتشارك في معاركهم . فقد كانت معلوماته كذلك على جانب من الصحة والدقة . فاذا ما قنع باليسير من سيكولوجية الفرد والغوص في أغوار النفس ، فقد اظهر من جهة اخرى تفهماً صحيحاً لتفاعل العوامل التاريخية المشتركة . ولذا راحوا يلومونه بمعالجة موضوعه بصورة زقاقية، اي خالية من عنصر الجمال والسمو، وبذلك قد يكون خان فرجيل وابتعد عنه عندما اطلق العنان لانفعالاته الشخصية باندفاع شديد ، بعد ان استسلم لمخيلة جامحة تستبد بالخواطر حتى في ما طلعت به من غريب او مخيف . فميله للخطابة ، ومحاولته التأثير بأفانينها وألاعيبها واسلوبها البياني يكشف عن مبلغ تأثره باساتذته من علماء البيان والخطابة . وقد عرف مع ذلك ان يتفادى اسوأ نواقصهم الا وهو تقليدهم الاعمى لمناهج الكلاسيكية .

كذلك عرف ان يتفادى هذه النقيصة ، ثلاثة آخرون من كبار شعراء هـذا العهد ، مع الاعتذار الى ستاس ، اذ لا يمكن ان ننسى رواياته « المرتجلة » *Silves* ، ان لم يكن ملاحمه ، ولا الاشياء الجديدة التي طلع علينا بها . فاذا كان الأدب اللاتيني لم يجهل منذ لوكيليوس وهوراتيوس المذهب الواقعي ولا الهجو ، فقد أتيح لهؤلاء الثلاثة ان يعالجوا هـذه الفنون بجرأة ظاهرة ، وحماسة قوية جديرة بالانتباه .

كان بَيرس معاصراً للوقين ، ومثله توفي وهو في شرخ الشباب ومَيْعة العمر . فقد عالج الهجاء واتخذ منه أداة للتعبير عن خوالجه ، والتفريج عن ضواغط نفسه . من هذه الضواغط التي كشف عنها ، التقزز الذي سببه لمُثُله الرواقية ، مشهد المجتمع القائم . فقد عبّر عن شعوره بصراحة تامة ، دون مداورة او مداراة لأحد : لأهل القلم ، والشعب ، والاشراف النبلاء ، حتى وللامبراطور نيرون ، الذي ورّى عنه وألمح اليه باسم ألقبياذيس. وقد قال ما قال، بشيء من صلابة العقيدة ، دون ان يكترث او ان يهتم بحسن الاسلوب ، بل على عكس ذلك ، أراده جافاً ، قاسياً ، وعلى شيء من الغموض ، بعد ان يترك القارىء تحت وطأة المشاهد الجارحة التي رسمها بما هي عليه من واقعية وعري .

اما مارتيال فلم يكن تم له شيء من هذا النقاء الادبي ولا من هـذا المنف ، وعلى عكس ذلك، فقد رموه بالمَلَق والتدليس والتزلف الى النبلاء، والامبراطور، حتى ولو كان دومتيانوس، فلم يرض ان يكشف عن أسماء من تناولهم بالنقد . فاذا كان هذا المتسوّل اللجوج الذي لا يكلّ ولا يملّ، معذب الضمير لوضعه مثل هذه الروايات التي وضع ، وضَفْره مثل هذه الأماديح التي يمجّها الذوق السليم ، فهو مع ذلـك خير من يمثل وخير من يعالج فن القصائد اللاذعة والاهاجي القارصة . وهي ، على الغالب مقطوعات شعرية وجـيزة ، مقتضبة كالمعتاد ، انما تنضح بالهزء والسخرية اللاذعة . وها نحن نراه يبذل أقصى ما أوتي من حِذق ومقدرة، ليطلع علينا بالكلمة الجارحة التي تنفذ الى الصميم فتجرح وتدمي . فقد كان أكثر من هازىء او ساخر متهكم . فقد رمى ، بما تمّ له من روح ساخرة ومن دقة في التعبير لا بد منها في الهجاء، الى« أن تتعرف الحياة الى ذاتها وان تتطلع الى ما انحدرت اليه الاخلاق » . ولذا تسلح بالملاحظة الدقيقـة الناعمة . فالسرعة التي يرسم بها الصورة البشعة التي ارادها، ويصور لنا فيه شخوصه تنبض وتتحرك وتعمل بحيث تبعث فينا الضحك، وابراز ما يلمسه فيها من عيوب ومساوىء طبيعية او اخلاقية نمّى كثيراً معلوماتنا حول مظاهر الحياة الخارجية عند الرومان في ما تحيّز منها وبرز. إلا انه اقتصر دوماً على القسمات البرانيـة للمشهد او للشخص الذي يستحضره امامنا ، ويهتم بما فيه وله من عورات ونواقص خارجية ، أكثر مما يهتم بالأشياء الاخرى الحرية بالذكر والتنويه ، بحيث لا يستطيع المرء إلا الشعور بالاسف لأنه لم يهتم لنفوس الناس إلا بقدر ما يعتورها من صغائر ودناءات ، او ما تنصرف اليه من سفاسف هذه الحياة .

اما صديقه جوفنال ، فقـد أوتي على شاكلته ، قوة غريبة على الاستحضار ، فلم يتراجع ، هو الآخر ، امام ما وقعت نواظره على مخـاز من العري والصَلَف . فقد كان أطول منه نفساً، وهذا الطول في قصائده الهجائية مكّنه من ان يتجاوز بعيداً ، هذه المشاهد الصغيرة التي رسمها مارتيال . أوتي من عمق النظر ونفاذ البصر ما لم يتم بعضه للآخر . فمن الغلو ان نقف مشدوهين حيال شجاعته . فمها بلغ من تفكيره ، فلن يذهب به بسط اليد الى تدليس مارتيال وتملقاته. فالذي هاجمهم وسماهم بأسمائهم قوم زالوا وأصبحوا في عداد الموتى ، فلم يكن ليخشى شراً من الاخذ بتلابيب دومتيانوس مثلاً ، بعد ان طلعت على العرش أسرة جديدة راحت ترمي سابقتها بالاوحال . ومهما يكن ، فالسخرية الفكهة لا تهمه بقدر ما تهمه الثورة . وكلمته المأثورة لا تزال على كل شفة ولسان : « فاذا ما رفضت الطبيعة انطلق السخط شعراً » . فكلمة « سخط » هنا لا تفي بالغرض ، فهي ضعيفة ، ليس لها من القوة ما يجب . فهو الحقد ، حقد رجل ، عاش على مقربة من متوسطي الحال ، ضد اغنياء قلما فقهوا للاحسان معنىً ، او بالاحرى ، مسكين ، قليلي العطاء ، اذ لم يُعرف عنه انه حمل يوماً بين ضلوعه حباً للفقراء او كنّ لهم شيئاً من هذا ، حقد مُعْجَبٍ بالماضي بعدالذي رأى وشهد من انحدار الاخلاق وتفسخها، حقد مواطن روماني، عمرَ قلبه بحب الوطن ضد هذا اللم من هؤلاء الأغارقة، وهذا الشتيت من المشارقة تغص بهم شوارع روما وأحياؤها . لم تكن هذه النبرة لعمري ، وهذه المواضيع بجديدة . غير ان

«الطبيعة» أي النبوغ، شيطان الشعر هذا، لن يبخل عليه بشعر كالحمم، لاذع، لاسع، زاده المران والبيان وضوحاً ، وحرافة . وفخامة ، أضف الى ذلك لساناً ذرباً ، ولغة غنية ، عامرة ، قوية، ملوّنة في خدمة خيال مجنح جموح ، خصب ، لا يلين . وكثيراً ما سلّط هذا اللسان السليط ، الحديد، ما يعيدنا بالذاكرة الى هيغو، في ديوانه *Les Châtiments* . فالشعر اللاتيني، بعد جوفنال ، لن يجود بشيء يستحق الذكر : فقد أغناه وأخصبه . فكفى بذلك اثراً له .

فن الرواية

اذا كان الشعر اقوى تعبيراً عن مشاعر الغضب ، فالنثر ، من جهتـه ، أطوع على تصوير الحياة في واقعها المتحيز في الزمان والمكان . واذا كان سبق للكتبة الهلينيين ان استعملوا في رواياتهم شخوصاً لا وجود لهم الا في الخيال ، فالقصص التي وضعوها ، انما هدفت للتسلية والتفريج، بعد ان اضفوا عليها من نسيج الخيال والوصف الأخاذ ما يشيع البهجة والسرور في النفس . وهكذا لم يلبث الكتبة اللاتين ان كشفوا في فن الرواية ، عن طاقـــات جديدة وقدرات في حبك الرواية وسوقها كان للخيال في ذلك شأن واي شأن .

فمن بين الآثار الادبية الأقرب الى الرواية الواقعية مما طلع به الكتاب في التاريخ القديم ، الرواية المسماة: «ساتيريكون» التي وصلنا منها بعض نتف ، وقد وضعها الروائي الروماني بترون احد المقربين الى نيرون ، والذي يروي لنـا تاسيت (تكيتوس) خبر انتحاره ، بشكل يتفق تماماً وما اشتهر عنه من ظُرْف . وهذه المقطوعات تفيض بالتعليقات الادبية ، وتتعرض بنوع خاص لفن الملاحم واورد فيها مقتطفات شعرية ، منها واحد ، لا ندري ما الغرض منه ، أهو نقد للوقين او نقد لخصومه – اعاد فيه النشيد الاول من ملحمة فرسال ، بعبارة فرجيلية تمور بالميثولوجيا والحكايات الاسطورية . ولا يخفي من جهة اخرى ، رغبته في التهكم : فهو من نعومة الخلق بحيث اذا رأى الا ّيقص الأمور على واقعها ، فلا يتورع ، مع ذلك من اللجوء الى التصوير الهزلي الصارخ ، فالفن الروائي يبقى معه والحالة هذه ، فناً كثير التشابك والتداخل . والصفة البارزة التي تتسم بها آثاره العلمية تقوم في سهولة السرد التي تمت للقاص ، كما تقوم في هذه الاضواء الكاشفة التي يسلطها على شخوصه فيبرزون في عوراتهم المضحكة المبكية ، او في هذه الزقاقيـة التي يبدون عليها، وفقاً للمواقف والاوضاع التي يهيؤها لهم. وهذا الكاتب الدنيوي الذي عُرف بمقدرته على الكشف والتحليل ، استطاع ان يلاحظ اشياء كثيرة خارج الجو الذي عاش فيـه واحاق به ، حتى بين ثنايا الطبقات الاجتماعية السفلى . فمن الطبيعي جداً ان يتناول بالتهكم الساخر : هذا الفريق من حديثي النعمة الذين وصلوا الى الغنى في غفلة من الدهر ، فراحوا يسخّرون بوقاحة ، ما أوتوه من ثروة وثراء ، للتنعم بلذائذ الطبقة الاجتماعية العليا ، على مثال بطل روايته المدعو تريملكيون ، احد هؤلاء العتقاء الاثرياء ، الذي تكوّن « مأدبته » العامرة ، خير الوان هذه الرواية ، على الاطلاق . فقد اضفى عليه من زهو الألوان ومن بهرج الوصف ما يحمل على الهزل والتهريج، ينطلق من كلامه وأقواله، وحركاته وسكناته . وهذا المزاح يضفي على الحقيقة سمات تتجاوز بكثير المعقول او المحتمل ، تجعل من بترون ، بالفعل المبدع الاول لصورة « حديث النعمة » .

اما الواقعية في الادب فـتَـمَـثَّـلت ، في بعض المناسبات، بالكاتب الافريقي أبوليه الذي قضى معظم حياته الادبية ونشاطه العارم ، في مدينة قرطاجة، في النصف الثاني من القرن الثاني . فقد ترك لنا هذا المحاضر المتعدد الاثر ، انتاجاً متنوعاً ، خصباً ، وضع بعضه باللغة اليونانية ، كما يبدو لنا ذلك واضحاً من بعض النماذج التي وصلت إلينا منه. وأشهر مؤلفاته وامثلها على الاطلاق هي الرواية التي وصلت إلينا تحت اسماء مختلفة : التحول *Métamorphoses* والحمار الذهبي ، ولوكيوس . فهو يقص فيها علينا الحوادث والاختبارات والمشاهدات التي تمت لشاب استحال حماراً لدى استعماله مرهماً اخذه من يد ساحرة ، واستطاع بعد فترة طويلة ان يسترجع شكله الاول ، بفضل تدخل الإلهة ايزيس التي نصحته بأكل نوع معين من الورد . وهذه القصة المليئة بالغرائب والعجائب ، ذات المبنى المتخلخل والتي تحتل فيها قصة : « الحب وبسيشه » اكثر من ربع حجمها ، تفيض بالاقاصيص الماجنة وباقذع التعابير ، كما تفيض بحكايات قطاع الطرق وشذاذ الآفاق ، والمآسي الغرامية والهزلية من كل نوع وجنس ، نسجت مادتها من كثير من القصص اليوناني القديم ليس من السهل علينا تبيين خيوطها ، كما كانت بدورها معيناً ، ورده كثيرون من واضعي الحكايات بينهم لافونتين في مجموعته *Contes* . وقد اضفى عليها مؤلفها ثوباً فضفاضاً من اللغة والبيان افقدها شيئاً من قيمتها لما شابها من التصنع والتحذلق . غير ان وصفه لمشاهد الحياة الشعبية في الريف والمدن الصغيرة القائمة في الولايات يبعث في النفس السرور والحبور . ومع ذلك فهذا كله ليس بشيء يذكر امام هذا الشريط من المشاهد الدينية الذي امامنا في الجزء الاخير من روايته هذه ، حيث يسلسل ابوليه ، بعبارة تفيض حرارة وحماسة ، لشطحات من الرمزية والتقوى والخشوع لا ترتبط بشيء باجزاء الكتاب ، سوى انها تدور حول بطل الرواية . فالصفحات التي حبرها والتي تلقي بعض الاضواء على مؤلفاته الاخرى، لا مثيل لها في الادب اللاتيني الذي تقدمه . كل ذلك ساهم على جعل روايته هذه *Métamorphoses* من بواكر الادب الواقعي تنطق عالياً بهذا القلق ، وبهذه الآمال ، وبهذه الاعراف والعادات التي تلازم دوماً الآثار الفكرية الخيالية التي صدرت عن الشرق .

التاريخ

هنالك مناهج واساليب عديدة لكتابة التاريخ وتدوينه . ورغبة منهم في توجيه التاريخ نحو النقد، حاول بعض كتاب الاغريق من العصر الهليني ان يفصلوا التاريخ عن الادب . وهذا المنهج التاريخي قد يكون نال رضى اصحاب المذهب الواقعي الذي تميز به الرومان ، لو ان الروح العلمية التي تعتبر الاستبحار في العلم (*Erudition*) ، مظهراً من مظاهرها المفرّدة ، عرفت ان تزيد هذا المنهج قوة واندفاعاً او ان تحافظ على مستواه . ولكن لم يحدث شيء من هذا قط . فالاهتمام بالتاريخ كعلم بقي على قوته ، ولكن لأسباب بعيدة عن الرغبة في الاطلاع ، كهذه المؤلفات العديدة ، يضعها وفقاً للاسلوب الهليني ، اشخاص من الصف الاول ، من بينهم اباطرة امثال اغريبين والدة نيرون ، او امبراطور كهدريانوس صاحب المذكرات ، فقد أوحت بها اعتبارات سياسية وأخلاقية . وهكذا يبقى التاريخ قطاعاً من

قطاعات الادب . ومما هو أكثر من ذلك ، فالكاتب اللاتيني الذي يعلو اسمه باقي الأسماء من بين المؤرخين اللاتين ، يجعل التاريخ هوايته المفضلة ومسلكه المحبب ، هو تاسيت او تكيتوس .

بينه وبين تيت – ليف من كتاب اللاتين ، كثيرون تفرغوا لهذا العلم وانقطعوا له . وقد فُقِدَت معظم مؤلفات أكثرهم ولم يصلنا منها شيء خليق بالذكر . والذي وصلنا ليس له كبير شأن . « فتاريخ الاسكندر » المنسوب الى كوانت – كورس يثير مشكلة تتصل بصميم تاريخ الادب . وراح بعضهم ، امام جهلهم التـــام لهذا الكاتب ، يردّونه الى اواخر القرن الرابع . فالافتراض الذي يجعل منه معاصراً للامبراطور كلوديوس لا يستند إلا على اقتنـــاع شخصي . كذلك يثير هذا الكاتب قضية اخرى تتعلق بالأدب . ففي الوقت الذي يُشنّع فيه المؤرخون الكلام على كوانت – كورس ، نرى بعض مؤرخي الادب اللاتيني ، يكنّون له ، بعكس اولئك ، بعض التقدير . فاذا ما اخذت بقراءته ، فلا يعتريك أي حس بالملل ، إلا عندما يأخذ بايراد بعض الخطب التي لها اول وليس لهـا آخر . يرضينا منه هذا الحس بالفراغ يحدثه فينا ، بسبب أسماء الاشخاص التي يذكرها ، والاخـــلاق التي يروح يصفها . فشخصية الاسكندر تتحرك سيكولوجياً امامنا بصورة مشوقة . والحزّ للنفس ان كل هذه العوالم التي يحركها امامنا لا تنهض على سند تاريخي يخلو من الشك ، كما انـــه ينبذ جانباً ويهمل كلياً ، بصورة منهجية ، جذرية ، العنصر الآخر، الذي يتوفر، مع ذلك . فلِمَ لم يضع لنا، والحالة هذه، رواية واضحة؟

فاذا كان كوانت – كورس لا يعني غير اسم وكتاب، فتاسيت (تكتوس)، معروف لدينا جيداً بفضل الانوار الكاشفة التي تلقيها مؤلفاته . اقبل على كتابة التاريخ ومعالجة قضاياه وهو في الاربعين من عمره ، بعد ان كان عنى ، من قبل ، بتحصيل الخطابة والبلاغة التي تركت فيه طابعها ، مع ان اسلوبه وانشاءه بعيدان كل البعد عن التفخيم والاستطرادات البيانية . أحبّ الخُطَب فذكر الكثير منها في كتابه، عدا عن تلك التي نحتها من وحي الخيال، كهذه التمارين التي يقوم بها الطلاب . من ذلك مثلاً ، إثباته مرافعة الامبراطور كلوديوس امام مجلس الشيوخ بشأن طلب الغاليين قبولهم في وظائف الحكام والقضاة، معتمداً في الاساس، على نص الخطاب الاصيل، فتوسّع فيه كما شاء له خياله . كذلـك أفاده تمرسه الطويل بشؤون الخطابة في صقل أحاسيسه وتهذيب مشاعره الشخصية فترك لها العنان واطلقها على السجية . ان أكثر الخطباء ابتذالاً لم يستطيعوا ، بعد ان أُخذوا بسمو عواطفه ، إلا ان يشددوا على ما تحلى به من الصفات الاصيلة ، من ذوق مرهف في التحليل الادبي ، والرغبة في الإعراب عن التشاؤم الذي سيطر عليه ، حتى باهتمامه بهذا العالم البربري الذي جهلوا عنه كل شيء ، مع انه عالم له جهالاته مهما خشن ، فاضلٌ لابتعاده عن هذه الحضارة المفسدة المخلخلة ، وفيها كل الخطر على روما المتحللة .

هنالك عوامل أخرى أثـّرت على تفكيره وروحه ، يرجع أكثرها لهذه الاضطرابات التي سببتها تصرفات دومتيانوس فسببت هلاكه فنجم عنها هـذا التحالف الذي تم عقده بين مجلس الشيوخ وبين ممثلي الأسرة الانطونية ، فقد قوّى فيه هذا كله الشعور بصدق اخلاصه واندفاعه

في المصلحة العامة ، والامتعاض الذي اعتراه من مشاهدة هذا التناقض بين المثالية والواقع المتحيز. كذلك ، تم له الاطلاع على بعض القضايا العامة وما كان لها من ردة شعورية في النفوس . فقد تألم في قرارة نفسه كثيراً ، من أمور لا تتعلق بـه شخصياً ولا بأقاربه او أنسبائه بشيء ، بل به ، باعتباره عضواً في مجلس الشيوخ ومواطناً رومانياً. فقد رغب ان يفهم ويدرك ، وان يجعل غيره يدرك ويفهم ايضاً ، بعد ان أمّن الامبراطور « نروه » وترايانوس من بعده ، حرية الكتابة والكلام لمن يروم الكتابة عن الماضي ويؤرخ له . وهكذا قرر ان ينقطع لكتابة التاريخ وان ينصرف للتحري والتقصّي ، أكثر فأكثر ، وجمع المعلومات التي يرغب فيها . فابتدأ عمله بالترجمة لحميه أغريكولا ، ثم عقد بحثاً مستفيضاً حول جرمانيا من الوجهة الجغرافية والاثنوغرافية ، ثم انصرف الى وضع مؤلفاتـه الكبرى : « التواريخ » و « الحوليات » التي لم تصلنا بكل أسف ، كاملة ، والتي أرّخ فيها للحقبة الواقعة بين موت نيرون وطلوع الأسرة الفلافية ، ثم انصرف لمعالجة الحقبة السابقة المتمدة من تبوء طيباريوس أريكة العرش. وقد اعرب هو نفسه عن رغبته بالسير القهقرى الى الوراء ؛ إلا ان الوقت لم يتوفر لإكمال بحثـــه من التأريخ لعهد اوغسطس. وعندما راح يعلن عن رغبته في ان يترك التأريخ للحقبة التي عايشها، للوقت الذي يبلغ فيه سن الكهولة ، فكأن به أراد ان يتخلص بلباقة، من تلبية طلبات ورغبات جاءت من فوق . فقد همّه كمؤرخ يحترم نفسه ، ان يعبر عن آرائه بحرية تامة، كما رأى نفسه مضطراً، من جهة أخرى ، للتوسع بالرجوع الى المصادر والمراجع الأصيلة ، للوقوف جلياً على بواطن الامور ، ودوافعها الدفينة، ومسبباتها .

كان مفهومه للتاريخ ، وطريقة الأخذ به ، يؤلف ، من الوجهة العلمية المنهجية ، ومن ناحية اصول كتابة التاريخ ، تقهقراً ، بالنسبة لبعض مؤرخي اليونان ، أمثال ثوقيذيذس وبوليب. فقد استقى معلوماته من أفواه معاصريه والتقليد المتواتر على ألسنة الناس ، وذلك بالرجوع الى آثار ومذكرات من سلفه ، والوثائق والأوراق الرسمية ، التي كان في مقدوره الاستفادة منهـــا . فنحن أعجز من أن نتبين اليوم ، المدى الذي بلغته تحقيقاته العلمية ، والعناية التي وفرها لهـا وأحاطها بها ، وكلاهما جدير بالتقدير والثناء . ولعل الشيء الوحيد الذي نأخذه عليه في جمعـه معلوماته : هو قِصَر نظره ، اذ انه اقتصر ، في جمعها على حاشية الامبراطور وبطانته ، وعلى ما تلبّد به جو مجلس الشيوخ وروما من شؤون وشجون . فلم يهتم كثيراً بأمر الولايات، ولا بأمر الجيش الا بالقدر الذي كانت امورهما ، مداراً ضيقاً للبحث في قاعات مجلس الشيوخ وموضوع مناقشاته . فادارة الامبراطورية الرومانية والحياة في أرجاء هذه الامبراطورية ، تختلف تمامـاً عما ارتسم من صورها في ذهن اعضاء مجلس الشيوخ . فالبحث الذي اقتضته معرفة هذه الامور لم يجرِ بأكمله ، والارجح انه لم يستفد كثيراً من الأسفار والاتصالات العديدة ، والاقامة احياناً في الريف مما كان يقوم به بوصفه عضواً في مجلس الشيوخ . كذلك لا بد من بعض التحفظ لجهـة الطريقة التي استخدم معها هذه المصادر . ولكي يستطيع التمييز والانتقـاء بين عدة روايات

مختلفة كان عليه ان يختار بينها، راح يستعمل بنجاح، مقياساً لها،ما هو محتمل الوقوع او الحدوث. وقلما نراه يحاسب ذاته في تقويمه المصاعب التي تعترض بحثه ، الامر الذي يثير فينا شيئاً من القلق والاضطراب . ففي تعليله وتفسيره للتطورات والاحداث التاريخية التي استعرض لها ، يترك بعض الحلول للقضاء والقدر ، ويعزو الحل الى شيء من تدبير الآلهة . فاذا ما كان في عقائده الدينية وتصديقاته الايمانية، بارداً جامداً، فموقفه هذا يعكس موقف الدولة الرسمي، مشوباً بشيء من النزعة الفلسفية . فقد عوّل في بعض التعليلات التي ظلع بها على طوالع الغيب والقول بالاعاجيب . ولعل ما هو اهم من هذا كله ، فلم نر انه التزم دوماً ، كما يدعي ، جانب النَصَفَة . فقد كان له من الاباء ، ما صانه عن المصانعة والكذب ، حتى ما جاء او اندس تحت قلمه ، من باب الاهمال ، والاحكام التي اصدرها على الافراد والملك والدولة ، صدرت كلها عما رسم لنفسه من مُثُل ، وهي احكام صادقة لا يشوبها ، على الاجمال ، الغرض او العاطفة ، فلا تلبث ان تبرز بعد صدورها والتعبير عنها ، على غير ظاهر الأمور .

ولكي نضعه في الصف الاول بين كبار الأدباء ، ليس في روما الامبراطورية فحسب ، بل ايضاً في كل البلدان والازمان ، علينا ان نلقي نظرة متملّية على ما أوتي من معرفة نادرة لأغوار النفس البشرية ، وما تم له من فن ، كمؤرخ ومؤلف ، اذ لم يعدله ، في الاولى ، غير المؤرخ اليوناني ثوقيذيذس ، وان اختلفا وتباينا منهجاً ونتائج . فقد راح ثوقيذيذس يحلل الأهداف والآمال والمخاوف التي ساورت الاشخاص الذين تكلم عنهم او أرّخ لهم ، كما أخذ بتحليل الحوادث وتعليلها بحيث يدرك القارىء الاوضاع السياسية العارضة ، ويبعث فيه التحرز من الناس دون ان يدع احداً يشعر بأنه يقوّمهم . اما تاسيت ، فقد رأى في التاريخ وسيلة لموعظة الناس وارشادهم: « فقد حاولتُ دوماً ان أبحث عن الاشياء والافكار التي تتصف بالتسامي او بالدناءة، وانا وطيد الاعتقاد بأن الغرض من التاريخ الا تُغمط الفضائل والا يُزْهد بها ، وان يحسب الانسان حساب الاجيال الطالعة ، وان يتبين الضرر والاذى الذي ينجم عن الكلام الفارغ والاعمال الشريرة ». من الغلو الزعم هنا ان محاولته هذه أدت به الى النفور من الناس ومجافاتهم، مع انه عرف بينهم حكماء افاضل ، وشهد لهم بذلك عالياً وهو منشرح الصدر ، وان كانوا قلة ، بحيث ان نفاذ نظرته التحليلية التي لم تكن لتتأنى او لتهادن ، اضفت على تشاؤمه ، حدة أكبر وعمقاً ابعد. ففي سَبْره لنفوس الافراد والجماعات، تقززت نفسه بهول ما وقع عليه بصره او صدم سمعه . فهذه الحقائق المرة من شأنها ان تصدم القارىء اذا لم يتضاعف الكاتب الفنان، بعالم نفساني يُضفي على مشاهداته وعلى المرويات التي سمعها ... لغة جميلة ، وعبارة كريمة ، عصماء ، غنية بالشواهد الادبية والشعرية ، ولو خفض من حدة ما وقعت عليه عينه، او ما اصطكّت له أذناه ، في عبارة مقتضبة وجيزة ، مفتولة العضل ، معجزة المعنى والمبنى . فكل شيء عنده يتضافر ليضفي على عمله الادبي قوة من الاغراء تلقي على القارىء درساً قاسياً يجعله يتشكك بأمر هذه الانسانية ، ما لم يسعفه التفكير فيرجع بالذهن، للزمان والمكان الضيّقين ، في

النطاق الذي عاش فيه هذا المؤرخ وعمل .

بعد تاسيت ، يمكن لنا ان نضرب صفحاً عن ذكر بعض صغار الشأن من كتّاب هذا العهد ، لنحتفظ من بينهم باسم سويتون لا غير ، الذي عالج نوعاً او فناً آخر من فنون التاريخ، فوصف بالعالِم المتقصّي ، كما اصطلح البعض على تسميته، والشرف الذي ناله من ذلك ، لا يقلل منه ان تعرف ان علمه استأثر بالدرجة الاولى بالنكتة اللاذعة، والتفاصيل السطحية الطفيفة الشأن غالباً ، والملحة التي تثير الغرابة . اشرأب ذهنه بما رُكّز فيه من فضول وحب الاطلاع ، الى آفاق ومجالات متنوعة : فتناول اللغة ، والصرف والنحو ، والنُظُم السياسية وعلم الآثار ، وغير ذلك من ابواب العلم . فقد مال لمعالجة فن السِيَر ، وانقطع لتراجم الرجال، وأرّخ لكثير من رجالات الادب، ولأباطرة زمانه. وهذه السير التي وصلتنا ، وعددها ١٢ سيرة مختلفة ، تمتد من قيصر الى دومتيانوس . فالوظائف التي شغلها في الديوان الامبراطوري ، في عهد هدريانوس، أتاحت له البحث والتقصي في محفوظات الدولة والمستندات الرسمية والوصول الى وثائق من الدرجة الاولى في أصالتها . عُرف بالدقة ، واهتم بضبط الوقائع مجردة عارية ، وعرف ان يجانب الهوى والغرض متنكباً عن المحاباة.والاخذ بالوجوه . وكان بعيداً عن الادعاء الفارغ والغرور ، وتسلح بلغة ناصعة، واضحة ، بسيطة، وحرص على ان يعرض الوقائع، كما هي، جنباً الى جنب ، دون الاهتمام بسوقها على ترتيب زمني ، غير مبالٍ بالفكرة الرئيسية ، بحيث يرسم لنا صورة ، كيفما كانت . وهكذا يتميز في نظرنا عن تاسيت ويكمله من بعض الوجوه . إلا ان كتابة السِيَر والتراجم ليست من صميم علم التاريخ ، والاخذ بهذا الفن من شأنه ان يضعفه . فقد عرف سويتون ان يفيد شأناً ومنزلة من وضاعة شأن الذين نسجوا على منواله ، وحذوا حذوه ، فراحوا يكتبون ترجمات للأباطرة بعد ترايانوس ثم جمعت في ما بعد ودخلت مجموعتها في الكتاب المسمى *Histoire d'Auguste* .

الخاتمة

يجدر بنا ان ننهي هذا البحث عن تاريخ الادب اللاتيني في الحقبة الممتدة من وفاة اوغسطس حتى اواخر القرن الثاني، بكلمة مقتضبة عن ترتليانوس، مع ان الفرصة سنحت لخصّه بكلمة وجيزة، في معرض حديثنا عن المسيحية اذ كان الكاتب الذي تصدى للدفاع عنها والنضال دونها . فهو مدين بما هو عليه من مقدرة خطابية وجدلية ، لروما ولهذه الحقبة التي عايشها ، ومنها استمد حبه للجدل وحرصه على الدقة القانونية واللهجة الخطابية التي تطبع دفاعه، وهذه الاستدارات البيانية الايقاعية ، وهذه التفخيمات وهذه الاستفهامات . فالشعلة التي تتأجج في صدره لا تمده بسلاح جديد يستعمله ضد خصومه من الوثنيين المشركين، هذه الاساليب الجدلية التي طالما اتخذ منها اداة وعدة . ومع ذلك فترتليانوس هو كاتب كثيراً ما هاجم الحضارة القديمة : « فأي شيء مشترك بين اثينا والقدس ، وبين الاكاديمية والكنيسة » ؟ . ومهما يكن من أمر هؤلاء الكتاب الذين ناضلوا في سبيل الدفاع عن المسيحية ، وبالرغم من الطابع الثوري

لعقيدتهم ، فهم خريجو معلمي الخطابة والبيان ، تتلمذوا عليهم وقبسوا منهم . فالمسيحية ستفوز بروما ، إلا انها تحذر من قتلها : فتتورع وتتئد .

ولكن الامر لم يصل الى هذا الحد بعد، ونحن لسنا الا في اواخر القرن الثاني، وفيه اصبحت روما عاصمة جميلة بديعة للادب اللاتيني. وعرفت بعد ما تم لها من ازدهار ، في عصر اوغسطس، ان تحافظ ، بعدعهود الأسَر الامبراطورية الثلاث التي تعاقبت على الحكم ، على هـذا الاشعاع الثقافي ، وان تتفادى الجدب والقحط الادبي . فقد اطلعت عدداً من كبار الكتاب اغنوا تراث اللغة اللاتينية. فضياع الحرية السياسية نهائيـاً لم يقعدهم او يشل منهم النشاط ، كما ان اعجابهم بالماضي لم يحل دون اصالتهم. ومع انه سبق لبعض هؤلاء الكتاب ان نعوا انحطاط الادب في عهدهم، فعلينا ان نحترز جداً من الاخذ بتذمرات المعاصرين حول تدهور الادب ، وهي شكايات لا بد منها بعد عصر اوغسطس الذهبي .

ليس من يتجرأ ، مع ذلك ، فينكر ، بان الانحطاط ذر بالفعل قرنه ، ولكن ليس بعـد موت اوغسطس رأساً ، بل بعد ذلك بنحو قرن تقريباً ، عند وفاة ترايانوس او عقب ذلـك بقليل ، عند موت المؤرخ الروماني الكبير تاسيت . ولكن لا بد من اشارة عابرة توضح وضع الحركة الفكرية بعض الشيء . فالادب اليوناني، بعكس الادب اللاتيني يسجل نهضة ادبية جديرة بالملاحظة والتقدير . فالآداب اللاتينية هي وحدها التي تشكو من اعراض هـذا الانحطاط ، ولكن على نسبة ما هي رومانية ، اي تمثّل مدينة روما العاصمة ، حيث نشأت وترعرعت .

فاذا ما عرفت هذه المدينة ، مدة طويلة ، ان تجتذب اليها حملة الأقلام، في الولايات الغربية، على الاقل ، فقد خسرت شيئاً من منزلتها كعاصمة للفكر في الامبراطورية ، ومناط رحال اهل القلم حيث تختمر الميول الادبية ، وتنضج النوازع الفكرية ، وتبرز الكفـاءات لتعود فتنطلق منها وتشع في جميع الجهات . فالكاتبان اللاتينيان الجديران بالذكر ، في القرن الثاني : ابوليـه وترتليانوس، ولدا في افريقيا وفيها قضيا معظم سني حياتها، ولا سيا في مدينـة قرطاجة . ومما هو اجدر من هذا بالذكر، هو ان الكاتب الروماني، الصميم الاصل والمحتدم ، اولو ـ جيل، نزح عن روما وجاء وسكن على مقربة من مدينة أثينا . وهكذا ما لبثت روما ان اصبحت من الوجهة الادبية ، مدينة من هذه المدن الحواضر ، لا تتميز كثيراً عن غيرها من الوجهة الفكرية.

كذلك حري بنا ان نلاحظ هنا ان هذه اللامركزية التي اتسمت بها الحركة الفكرية، برزت في مجالات اخرى . فقد اخذت الولايات تنزع الى اشد اواصرها وروابطهـا الاقتصادية بعضاً ببعض، دون ان تلوي على روما العاصمة بشيء ، حتى ان اعضاء مجلس الشيوخ انفسهم كانوا يشعرون ، وهم يضطلعون باعباء مسؤولياتهم الادارية ، بشيء من الغصة ، ازدادت مع الوقت ، لفصم علاقاتهم مع الولايات التي ولدوا فيها وترعرعوا في اجوائها . فهل في ربط هـذا الشعور بالحركة اللامركزية التي بدت بوادرها، ما يلقي ضوءاً على الوضع ؟ قـد يكون ذلك ، اذ ان الجزم والقطع إثباتاً للرأي ، يقتضي له حل بعض الأمور النظرية ، والتوقيت الزمني لما بين هذه

القضايا من ترابط وتماسك بعضها ببعض، اذ كل هذه الأمور تكشف عن تطور عام انطلق بوضوح منذ مطلع القرن الثاني واخذ يتسع ويتضخم مع الزمن .

٣ ـ الآداب اليونانية

منذ هـــذا الانبساط الفكري والتفتح العقلي الذي مر على الشرق ، إثر فتوح الاسكندر ، عرف الشرق الهليني ان يفيد من هذه اللامركزية الادبية التي أخذت بوادرها تدب، هي الاخرى، في الغرب اللاتيني. فقد كان لأثينا منزلة رفيعة، في كل ما يتصل بالادب والفنون الجميلة، او ما يتعلق بتعليم الخطابة والبلاغة والفلسفة . فقد كانت قبلة انظار يؤمها مع رواد المعرفة وطلبة العلم ، كل من جاشت نفسه بالعظائم واشرأب الى العلى، او رغب في ان يستمتع بعشرة هذه المجتمعات التي صَقَلت منها الاذواق وحلت العقول . فقد اتخذ منها داراً ، في النصف الثاني من القرن الاول ، وفي القرن الثاني ، كل من الكتبة والمفكرين ، كالفيلسوف الفيثاغوري ابولونيوس ده تيــان ، القبّادوقي الاصل والنشأة ، والخطيب المفوّه ديون الملقب بالذهبي الفم، من مدينة بروس من اعمال مقاطعة بيثينيا ، والمؤرخ اريانوس النيقوميدي، والهجّاء السليط اللساني لوقيانوس السميساطي . وبين هؤلاء من أصهروا في اثينا، واستوطنوا فيها ودخلوا الوظائف الادارية وتولوا ادارة الاكاديمية امثال امّونيوس المصري الاصل ، كما سكن غيرهم فيها ونالوا حق الرعوية ، ورُقّوا الى منصب الاريوباغوس ، امثال فيلوبابوس الكثير البذخ ، وهو حفيد ملك صغير على مقاطعة كوماجين ، جرّده الامبراطور فسبسيانوس من الملك . وهذا الاشعاع الفكري ينطلق من اثينا ، يبرز على أشده في كل من عواصم الشرق الهليني الكبرى: كالاسكندرية وانطاكية ، وأفسس وبرغاموس . زد على ذلك ان الشرق الهليني ، ألّف منطقة ممتازة لفريق من الاساتذة والمحاضرين المتجولين ، ينتقلون من مدينة الى أخرى ، يلقون فيها من الخطب والمحاضرات ويعالجون من الموضوعات ، ما يثير حولهم لـَغَطاً، قد ينتهي ببعضهم الى شيء من الشهرة والى بروز كفاءات مخبوءة. وهكذا أمكن للأدب اليوناني ان يزدهر ويحظى ببعض الألـَق في أماكن مختلفة ، وهي حركة كانت روما وغيرها من حواضر البلاد في الغرب تحفل بها وتشجعها : وهكذا استقطبت روما عدداً من كبار ممثلي الثقافة اليونانية ، في هذا العهد ، امثال: سترابون وذيوذوروس الصقلي ودنيسيوس الهاليكرناسي ، كما ان الامبراطور فسبسيانوس رحّب احسن ترحيب ، بمقدم المؤرخ اليهودي فلافيوس يوسيفوس الى روما، وأنعم عليه بالرعوية الرومانية بعد ان استسلم، عام ٦٧ ، للقوات الرومانية التي قمعت ثورة اليهود بقيادة تيطس . وفي روما وَضَع يوسيفوس تاريخه المعروف عن الشعب اليهودي ، كما أرّخ لثورة اليهود الكبرى التي أخمدها تيطس بالنار والدم .

بين الخطاط ونهضة

هؤلاء الادباء الاربعة الذين ألمعنا الى أسمائهم أعلاه ، كان إشعاعهم ضعيفاً بحيث لا يتمالك المؤرخ ان يرى الثقافة الهلينية ، خلال هذين القرنين، تصاب بالعجز والقصور ، اذ لم تعرف ان تسجل بين حَمَلَة الفكر ، اذ ذاك ، من يفضلهم اثراً، بعد ان لم

يحسبوا لقيمتهم الادبية حساباً، في عملية تقويم القيم الفكرية. والصحيح ، انه لا بد من الاعتراف هنا بوضاعة الانتاج الفكري الهليني خلال القسم الاكبر من القرن الاول للمسيح . فالكشف عن الاسباب التي أفضت بالادب الى مثل هذا الوضع الزري ، قضية أخرى ، لا يمكن ردها ، بحال من الأحوال، لهذا الموقف السياسي والاداري المتّسم بالحذر وعدم الثقة، يقفه الاباطرة اذ ذاك، من الشرقيين ، الذي لا يمكن ان يجر لوحده الى مثل هذه النتائج .

ووضاعة الانتاج الادبي هذه، اتُخذت ذريعة او ارادة يستتر بعض مؤرخي الادب وراءها ليتجاهلوا او ينكروا هذا الانبعاث أو اليقظة الفكرية التي ظهرت بوادرها ، منذ أواخر القرن الاول وشملت القرن الثاني بكامله . فكلمة « إنبعاث » ، الا تبدو هنا ، فضفاضة ، يا ترى ؟ ومها يكن ، فهي الكلمة التي اصطلح مؤرخو الادب على استعمالها تعبيراً منهم عن هـــذه الظاهرة الفكرية ، وان راح البعض الآخر منهم يُوري عنها بكلمة : ازدهار رجيعي او رجعي . وسواء اكان هذا ام ذاك، فالامر سيان عندنا. فالنشاط العلمي يبذله بطليموس الاسكندري وجالينوس البرغامي ، يصحبه انتاج ادبي أخذت قيمته تبرز اكثر فاكثر وتتضح . ففي الحين الذي اخـــذ الهبوط أو الانحطاط يدب بالآداب اللاتينية ، نرى الآداب اليونانية ، تأخذ من جهتها ، بالاشعاع بعض الشيء . وهذه اليقظة دليل قاطع على انتعاش الحياة في عالم اخذ ، في هذا الوقت بالذات ، يمد الامبراطورية الرومانية بقناصل من أصل اغريقي ، بانتظار الساعة التي يزودها فيها بأباطرة اغريق او متهلينين، ويبعث، الى الغرب ، ما لم تكن سبقت ونشأت فيه من قبل ، بعقائد دينية جديدة . فالتأكيد هنا بان الثقافة الهلينية بقي لها سطو شديد ونفوذ قوى في رومـــا ، خلال الاسرة الانطونية ، لا يفيد شيئاً . فلم تتمتع هذه الثقافة يوماً في روما ، برعاية وكفالة مثل التي نعمت بها في عهد هدريانوس مثلاً ، الذي كان بثقافته يونانياً اكثر منه رومانياً ، وعندما راح الامبراطور مارك اوريل يحيز بنات افكاره ويسجلها سواداً على بياض ، قرر كتابتها باللغة اليونانيـــة .

بلوتارخوس *Plutarque*

بين رجال الفكر في هذه الحقبة ، لا بد من التنويه عالياً ببلوتارخوس، لانه أسبقهم في الزمن ، ولانه لا يمكن ان نفرق بين المفكر وبين الكاتب الذي كانه هذا الاديب الخصب بعد ان تناول في كتاباته شؤوناً عدة من شؤون الفكر .

ليس أبسط لعمري ولا اكثر وحدة ، من هذا المساق الهادي الذي انتظم سلك حياة هذا السيد الاغريقي ، الرخي البال ، الذي رأي النور في مدينة بيوتيا ، في غرة القرن الأول . فبعد دروس عالية ناجحة في اثينا ، واسفار عديدة القى خلالها محاضرات في الفلسفة الأدبية ، نالت استحسان روما ودوياً بين منتدياتها وصالوناتها الادبية ، استقر ، وهو في الاربعين من عمره ، في وطنه الام ، في اليونان ، الغافية تحت السيطرة الرومانية ، يتولى منصباً ادارياً في مسقط رأسه، ويقوم بوظيفة كهنوتيه في دلفي، يعيش ايامه في عشرة موصولة بين صحبه ورفاقــه ، يتناقشون ويتذاكرون ، يتفرغ للكتابة ، ولهذه الاعمال الموكولة اليـــه ، مدة اربعين سنة . فساعدت

مناقشاته ومجادلاته مع صحبه وخلانه ، على توضيح افكار هذا الرجل الوادع ؛ وهـذا الحلم الذي استنكف عن ان يستخدم ثقافته العريضة الواسعة، وكفاءاته ككاتب لامع، لتوفير اسباب الشهرة له، فأتته صاغرة طائعة، دونما صخب أو لـجَب، على اجنحة من اعجاب الناس وتقديرهم العالي له .

تقسم مؤلفات بلوتارخوس الى مجموعتين، اطلق مؤرخو الادب على الاول منها نعت: « الآثار الاخلاقية » ضمت ٨٠ بحثاً مختلفاً في موضوعات ادبية شتى ، ساق بعضها احاديث حية ، مرحة ادارها بينه وبين صحبه وخلانه . ومع ان معظم هذه الابحاث تناولت قضايا فلسفية ، أدبية دينية ، ، فلا نرى بينها ، مع ذلك ، ما يمكن اعتباره مذهبـاً عقائدياً خاصاً به . افلاطوني النظر والمنهج ، فقد تفاعل ، بعض الشيء ، بتعاليم بعض المقالات الفلسفية الاخرى ، مـا عدا الابيقورية منها . وقد تركت الرواقية فيه بعض اثرها ، مع انه تناولها بالنقد والجرح ، اذ قام بينه وبين هذه الفلسفة ، من الوجهة الدينية ، هوة عميقة الغور ، حالت دون قيام تقارب بينهما. ويمكن لنا وصفه بعبارة وضعها هو على لسان احد جلسائه : « هدف الفلسفة اللاهوت. » ، واستطاع بما وضع من تفسيرات وشروح رمزية المعنى والمدلول ، ان يوفق بين اهتمامـه بهذه العقائد الشرقية – اذ له بحث يفيض بالمعلومـات الدقيقة حول« ايزيس واوزيريس » – وبين احترامه العميق للطقوس الدينية القديمة في اليونان . وهذه النزعة ينزع بهـا نحو الوئام ، جعلته بالفعل ، يفيض ، بوصفه مرشداً دينياً ، بنصائح وارشادات تتناوح بين التشديد والتسامح . فقد عرف ، بما تم له من نفس مستقيمة ، صافيـة الاديم ، ان يجانب الضغط القاسي الذي لا يرحم ، وان يعتصم بلهجة كل ما فيها جديد .

اما مجموعته الثانية ، فلنحذر ، في تقويمها ، الاخذ بالشهرة التي اضفتها على: كتاب الابطال ، الثورة الفرنسية . فقد وضع في كتابه هذا ٢٥ زوجاً من السير المتوازية ، اذ يضع تباعاً حيـاة رجل دولةيوناني ثم يردفه بحياة روماني . وفي سبيل وضع هذا الكتاب ، لم نره قام لأجله ، بتحريات وتقصيات دقيقة من الدرجة الأولى . فقد راجع ، في هذا السبيل ، كثيراً ، وخير ما وصلت اليه يده في الموضوع، بحيث ان المؤرخ لا يزال يجد فيها اليوم، مادة طيبة له . صحيح انه يتمهل في سرده ، بحيث يورد لنا ملحاً مستظرفة صغيرة ، ودقائق وتفاصيل يرى فيها ما يفرّد الرجل ويميزه ، من خلال عمله او وظيفته . وهذا المرشد الاخـلاقي الذي كانه ابداً ، والذي يتخذ له من التاريخ وحده كتاباً، ينتصب امامنا، بلحمه ودمه ، في هذه الملاحظات الشخصية والتعليقات التي يبديها بشيء من الافاضة والاستطراد. فالاستقامة التي اتصف بها تصونه من زيف التاريخ . فهو يرفع ابطاله الى مصاف العظماء ، تقوم مقدرته الحقيقية باشاعة الحياة في شخوصه فينبضون بها بصورة دراماتيكية ، بفضل ما اضفى عليهم من الوان وافياء ، وانوار وظلال . وبفضله استطاعت اجيال متطاولة ، ان تفهم ، كل على هواها، التاريخ القديم حسبما تريده . فاذا ما زينت للبعض نفوسهم ان يروا في هذه الأبطال او العظام ، الفضائل المثالية التي يهفون اليها ،

او ان ترى سيدة ، كمدام رولان ، في هـذه التراجم : « زخراً للنفوس الكبيرة » ، فليس بلوتارخوس بمسؤول عن ذلك .

خطابة ، تاريخ ، فلسفة

والطريف واللذيذ معاً عند بلوتارخوس ، هو انك لا ترى عنده أي أثر للاسلوب الخطابي إلا ما وضع منها في شرخ الشباب، هذا الاسلوب الذي راج أيما رواج ، هنا في هذا العالم اليوناني ، وهناك ، في العالم اللاتيني ، مع ما رافق ذلـــك من جدَل ونقاش بين مختلف التيارات الادبية ومذاهبها ، وان كانت النزعة الاتـيكية هي الغلابة ، اذ لم يَحُل تمسك انصار هذه النزعة بالشكليات اللسانية واللفظية ، من تذوقهم الاسلوب البياني الخطابي . بعض هؤلاء الخطباء تبلغ منهم البلاغة ، شهرة واسعة ، فتطير اسماء اصحابها بعيداً ، بينهم مثلاً : ديون ، الذهبي الفم ، الذي ابعده دومتيانوس عن روما ، ثم اعتنق مقالة الرواقيين فراح يدعو لها متنقلاً بين مدينة واخرى ، وايليوس ارستيذس الذي يُعدّ من هؤلاء الكتاب الأسيويين الذين طارت شهرتهم في عهد الأسرة الانطونية ، والذي راح في خطابه : «الى روما» يشيد عالياً بمآتي هذه المدينة الخالدة؛ وهيرودس أتـيكوس ، صديق الامبراطور هدريانوس ، ومعلم مارك اوريل ، من نصراء العلم الاغنياء الذي همّه ان يزيّن اثينا وغيرها من المدن اليونانية بأبدع الحلى، ويبني عدداً من المعابد والهياكل . ونراهم ، في القرن الثاني ، يفاخرون مباهين بتسمية أنفسهم : « سفسطائيين » وهي تسمية تكالب افلاطون على تحطيمها وانهاكها . فاذا ما تمت لهم جميعاً هذه المقدرة الخطابية التي عرفها السفسطائيون اثناء حرب البلوبونيز ، وعرفوا ان يثيروا ، على شاكلتهم وأكثر ، الفضول والحماسة ، أينما حاضروا او خطبوا ، نسبة لما كان عليه اهل العصر من تذوق البيان الرفيع والثقافة العامة، فلم يكن في مقدور أي واحد بينهم، باستثناء جورجياس وزملائه، ان يطلع، على اهل زمانه ، بأثر خليق بالذكر، بالفريق الآخر الذي لقّب نفسه بـ « السفسطائية الثانية » ، او ان يحدثوا ثورة روحية .

اما التاريخ ، فلم تكن قسمته ضئزى ، اذ اطلع لنا اريانوس *Arrien* من مدينة نيقوميديا في بثينيا .

قنصل قبادوقيا وحاكمها في عهد هدريانوس ، جاء أرّيانوس ، اثينا ، بعد انتهاء مهمته ، واتخذ منها دار سكنى له ، وانصرف فيها يكتب ويؤلف ، ويضع بضعة ابحاث في موضوعات شتى. وأهم آثاره على الاطلاق: « تاريخ الاسكندر » الذي لم يكفه ان حذا فيه حذو كسينيفون في بساطة الاسلوب والعبارة ، بل راح يسميه كما سمى كسينيفون نفسه كتابه : «اناباز *Anabase* او « الرحلة » . ومن فضله البارز انه عرف ان يفيد كثيراً من هذه المصادر الاصيلة التي رجع اليها – ومعظمها مفقود اليوم – المتعلقة بفتوحات المقدوني الكبير ، هـــذه المصادر التي أهملها كوانت ـ كورس. والمؤرخان المعاصران له: بوزنياس البريجيت، وأبيانوس الاسكندري اللذان لم يبرهنا قط عن روح نقدية في ما وضعاه من كتب : الاول في الوصف الجغرافي لليونان ، والثاني

في تاريخ حروب روما : مع السمنيين والاسبانيين وقرطاجة . وبعدهما بقليل ، يطل علينا ديون كسّيوس ، حفيد ديون الذهبي الفم ، الذي بعد ان نال القنصلية مرتين في عهد اسرة ساويروس، وضع لنا كتابه : « تاريخ الرومان » الذي يمور بالاسلوب الخطابي، مع انه جمع كثيراً من المصادر الاصيلة . ومع هذا ، وبالرغم من التحفظات التي لا بدّ من ابدائها بحق الآثار التي خلفها لنا هؤلاء المؤرخون اليونان ، تجدر الملاحظة هنا ان الكتب التي وضعوها في تاريخ روما ، تَفْضُل بكثير ، هذه التواريخ التي وضعها لها ، معاصرون لهم من مؤرخي اللاتين ، في هذه الحقبة.

فالافكار الفلسفية المنتشرة في جميع أرجاء الامبراطورية الرومانية ، هي هلينية الاصل والمنشأ ، وبقي العالم الروماني يحتل المرتبة الاولى في تعهده لهذه الفلسفيات الدينية . ويكفي ان يُحيل القارىءهنا، على ما ورد بهذا الشأن في البحث المعقود حول الوثنية واليهودية، لندرك لماذا لم تلق الرواقية ، وهي أكثر التعاليم الفلسفية نفوذاً وشيوعاً، من كشف عنها ، في بعض مؤلفات خاصة مهمة للغاية . فقد حفظ ارّيانوس في كتابه : « خواطر » *Entretiens* ، وفي كتابه الآخر: « الدليل » *Manuel* ، اللذين لا يخلوان من مقاطع لها سحرها وفتنتها ، اثبتها بوضوح ، هنا وهناك من مظان الكتاب ، حول تعاليم هذا الرقيق القديم ابيكتيتس . وقد وضع مارك اوريل في « الافكار » وهو المعروف بانشائه المتقطع المتفاوت – كأنّ به مجرد رؤوس اقلام وضعت على عجل – وهي مفكرة يومية لأحد الاباطرة . فالتعليم واحد هو : الخضوع الاداري للعناية الإلهية، التي بدلاً من ان تقضي على نشاط الانسان، تحرّكه وتُوجبه. إلا ان الامبراطور، في ما تم له من مجد وعظمة ، يلاقي من المشقات والعناء في تطبيقه هذه التعاليم ، ما لم يفرض هذا الرقيق تنفيذه ، من قبل . وهذا لا يعني ان مارك اوريل كانت تعوزه القوة ، انما يبدو عليه انه أكثر تصنعاً ، واقل قسوة ، كما انه اقل وثوقاً بنفسه. وبدون أية شفقة على نفسه ، وببصيرة شحذتها ارادة قوية ، وَضَعَ التكامل النفسي نصب أعينه ، نراه يدوّن شكوكه ومجالدة النفس وكبح ميوله ، ومقاومته للضعف البشري ، ووقوفه في وجه المؤثرات الخارجية التي تجرّب اخراجه عن جادة الحق والرشد. فما من أدب من آداب العالم، وما من أثر فكري بلغ مسامعنا، يشهد بأعلى واحسن ، على هذا الاخلاص الصافي في محاسبة النفس ، عند شخص خليق بالاحترام والحب ، وجدير بأن يشفق عليه لأنه وضع نصب عينيه ، طوعاً واختياراً ، راضياً مرضياً ، بلوغ مثل هذه العظمة .

لوقيانوس *Lucien* لا بد من ان نختم بحثنا هذا بكلمة حول لوقيانوس الذي يحتل مرتبة خاصة. فبين مؤلفي الحقبة الموافقة لعهد الاسرة الانطونية هو اكثر هؤلاء الكتاب فردية ، ولذا يخرج على كل تصنيف وعلى اية صيغة ترابط. فبقدر ما يمكن ان نعتبر رسائل الهجو *Pamphlet* فناً من فنون الادب ، فهو خير من يمثل هذا الفن ، وخير من اتخذ منه أداة لجلد الآخرين ولنقد الناقدين انفسهم .

سوري الاصل والمحتد من مدينة سُميساط، في مقاطعة كوماجين، فقد تأغرق ثقافة وعقيدة،

فبعد ان بلغت شهرته الخطابية أرجاء غاليا ، نراه يقاطع السفسطة ليقيم طويلا ، في اثينا ، قبل ان يعين لوظيفة ادارية في مصر . فالادب اليوناني مدين له بعدة آثار كتابية ، بعضها رصين ، رزين ، وهي ليست قط بأجودها ولا بافضلها ، والبعض الآخر ، ادب سليط ، هازىء ، ساخر ، متهكم ، بشكل محاورات ، له منها مجموعة تعرف بـ « محاورات الاموات » . سدد سهام نقده للمذاهب الفلسفية اجمع من خلال نقده للفلاسفة ، فلا تفلت من لسانه شيعة او ملة أو مذهب أو مقالة ، حتى الفلسفة الابيقورية والفلسفة الرواقية او الكلبية . فاذا لم يُثر كل مذهب في نفسه الامتعاض والقرف ، فقد يسبب ما يقرب من ذلك إذ ان العقل الفلسفي والروح الدينية هما ، في نظره ، اعدى اعداء المثالية الهلينية على الاطلاق بما يضفيان عليها من رمزية غائمة ، هذه المثالية التي كانت تتمثل بهذا المنطق الجلي ، الواضح المعالم ، الذي كان في نظره ، ابرز خصائص الحضارة الاثينائيه ، ومن اطهر سماتها المفرّدة . الا انه على شيء من قصر النظر ، اذ فاتته ، على ما يظهر ، ملاحظة قوة التجريد التي جاءت تكمل عند أمثل رجال الفكر الاغريق ، في القرن الخامس ق . م ، فلسفة العقليين الجافة . فلم تضعه التربية التي تلقاها ، وجهاً لوجه امام مشكلات العلم وقضاياه . نراه يصول ويجول عندما يخطر له ان يسلط سياطه ، على هواة الخطب الهوائية الجوفاء ، والاساطير الرمزية ، وهؤلاء المدجلين ، المدلسين الذي يهيمنون على معرفة اسرار الغيب وفواتحه المطبقة ، واتباع مذهب زينون وتعاليمه الكالحة الجافية ، واتباع الفلسفة الافلاطونية ، المتظاهرين بالعظمة . فخياله الخصب الولود يستنبط دوماً اوضاعاً تبعث على الضحك وتثير المجون ، يسري بها على القارىء ، لا يتهيب من التعريض بالآلهة ويسلقها بألسنة حداد ، كل ذلك بلغة عامرة ، بليغة ، وعبارة رشيقة ، وتعبير دقيق ، واسلوب يمور بالحياة والحركة ، والتهكم . ففي عصر من سماته الفارقة التشبه بأساليب الأقدمين ، فهل أسبق من لوقين لتمثيل اصحاب التيار « الاتيكي » ؟

للقيانوس مقلدون كثر ، حذوا حذوه ، فلا عجب • ان يشك ، والحالة هذه البعض ، في بعض الآثار الفكرية المنسوبة له . وعلى كل حال ، فهذا الكاتب اللامع الذي اسلوبه يلسع وينفذ الى الصميم ، لا يمكن إلا وان يترك له في الارض تلاميذ ينسجون على منواله . فلم يكن ليعالن المستقبل بكفاحه المرير ضد التيارات الجارفة التي كانت تجر معها الحاضر . فالنشاط الادبي والفكري في العالم الاغريقي ، بقي على سيره المطرد الذي حاول لوقيانوس ان يزحزحه عنه ويخرجه منه . والحق يقال ، فهذا الكاتب السوري الاصل ، الذي استهواه سناء تاريخ اثينا في قرونها الكلاسيكية العظمى ، والذي راح يكافح ، وينافح ضد النزعات والتيارات التي انبثقت من هذا التآلف بين اليونان والشرق ، فأدّى الى مثل هذا الازدهار ، يُعدُّ ظهوره أكثر من مفارقة ، فقد جاء في غير اوانه وزمانه .

٤ ـ الانجازات الهندسية والزخرفية

اذا ما اردنا ان نقف عند المدلول الحرفي لهذين المصطلحين ، كان لزاما علينا ان نأبى الاعتراف

بأي فضل لهذين القرنين ونرفض التسليم بأي يد لهما على الانشاءات والانجازات الفنية . لما من انشاءات فنية جديدة فيها ، وان حدث وتمّ شيء من ذلك ، فأمر نادر جداً ، والنادر لا يقاس عليه . فليس من الغلو بشيء ، والحالة هذه ، ان نرى في هذه الانجازات ، أية قيمة فنية جديرة بالذكر . غير ان من واجب تاريخ الحضارات ان ينظر اليها من ناحية اخرى . فالعمل البنائي الذي أنجز وتم ، باعتباره واقعاً تاريخياً حدث في الزمان والمكان ، هو تعبير لنشاط مُجتمع، تحيز في دور معين من أدوار التاريخ الروماني ، وهو عمل ضخم ، لم يفقد شيئاً من قيمته بزوال الامبراطورية الرومانية . فاذا كانت هذه المخلفات ليست اليوم بالوحيدة ، كما بدت عليه في عصر النهضة والانبعاث لتعطينا فكرة صادقة عما كان عليه وضع الفن في التاريخ القديم، فبامكان هذه الآثار الباقية معروضة في المتاحف او منتصبة تنطق وتحدث ، في هذه المشاهد التاريخية القديمة، يستطيع المعاصرون اليوم بواسطتها ان يتصلوا بهذا التاريخ . ولذا تبقى لها ، على الأقل ميزة واحدة الا وهي تزويدنا بفكرة عن عالم تم لهمن اسباب الغنى والثروة ، وجاش بمثل هذه الاماني العراض ، لا يمكن ان يشيد له الحضارة التي راودت خياله ، بدون ان يبذل مجهوداً فنيـاً مـا .

قضية الأصالة

والحق يقال ، لم يبدُ على الفن ، في عهد الامبراطورية الرومانية المتأخر ما يدل على انه حاول التجديد في كل ما يتصل بالبحث والكشف . فجل ما طمع فيه وطمح اليه، هو ان يواصل وان ينشر على الملأ ، الجهود الذي بذله الفن الهليني الذي عرف ان يحافظ على نشاطه ، وعلى قدرته على الانتاج . فكانت هذه الآثار التي ينتجها تتجه مع الفنانين أنفسهم صوب روما ، التي لم تكن في ما مضى معارضة لمثل هذا التيار . ومهما يكن ، فقد كان للاغريق من المرونة ، والطواعيـة والقدرة ، ما استطاعوا معه ، تكييف أنفسهم وفقاً لمتطلبات الذوق الروماني ، وتطويع ما يقتبسونه من عادات القوم وأعرافهم ، لينالوا حُظوة لديهم وليزدادوا منهم تقرباً وتقيّة . قليلون جداً هؤلاء الفنانون الذي بلغتنا أسماؤهم ، ممن عاشوا وانتجوا في هذه الحقبة ، حتى من كان منهم في روما وعمل فيها . معظمهم اغريق بالطبع ، عني بعضهم بالحفر والنقش ، امثال ستيفانوس ، ومينلاوس ، والمهندس ابولوذوروس الدمشقي الذي كان موضوع ثقـة الامبراطور ترايانوس . وليس بغريب قط ان يُخلّفوا لهم ، في الغرب ، تلامذة ومساعدين ، بحيث نتبين سبب هذا الانتاج الوافر الذي ظهر ، اذ ذاك . وقـد نشأوهم ، على شاكلتهم ومثالهم ، وفقاً للقضايا والمشاغل التي استبدت بتفكيرهم . فما من شيء هام ظهر في الغرب ، اذ ذاك ، كان يعمل وحده في الميدان مستقلاً إلا وتنتقل عدواه الى الشرق . فليس من الغلو بشيء ان ننظر الى الفن في عهد الامبراطورية الرومانية المتأخر، في ما تم من مظهره العام، اذ ذاك ، كحقبة من حقب الفن الهليني ، بلغ فيها هذا الفن ، جميع اطراف العالم الروماني .

من المعلوم ان كل تحديد هنا يبقى تحديداً مقتضباً، مبسّطاً، فهو يحتاج الى بعض الايضاحات التي يتباين الاخصائيون حولها ، رأياً وقولاً ، وبعنف احياناً ، من حيث تحديـدها وتقويمها .

هنالك فريق كبير بينهم ، يؤكد باصرار ، أصالة الفن الروماني ، في هـــذا العهد ، بينما يحاول فريق آخر ان يميز ، بنوع خاص، الفنون التي تجلت في الولايات . كل هذا يتطلب ابحاثاً وتحريات دقيقة ، مكّنت لها النجاحات التي حققهـا علم الآثار ، إلا ان بحثنا هذا لا يتسع لها ، بكل اسف . علينـا ان نقتصر هنا ، فيما يتعلق بفن النقش والهندسة المعمارية ، على أهم العناصر التي تقتضيها كلمة تكميلية عامة للتعريف ، تبقى مع ذلك عرضة للنقاش ، اذ رأينا ان لا مندوحة من التقدم بواحدة منها .

فن النحت والمذهب الواقعي

تحرّز الرومان انفسهم من كل اعتداد او مباهاة لم يستحقوها . فقد كتب فرجيل بهذا الصدد في ملحمته الانياذة الخالدة قائلاً : «لينحت سوانا ، بمهارة أكبر ، كما اعتقد مخلصاً ، تماثيل من البرونز تستنشق الهواء ، وليحفروا لنا في المرمر وجوهاً تطفح بالحياة ، بينما يحتفظ الرومان بفن حكم الشعوب وادارتها » . ولكن هذا التواضع الذي يختفي وراء هـذا الاقرار العلني ، لا يصح إلا في المجال الفني الاستتيكي او عندما يُطبّق على جنسية هؤلاء الفنانين ، اذ ليس من ينكر ان النحاتين اليونان الذين كانوا يعملون في خدمة الرومان ، اضطروا ان يكيفوا ابحاثهم وفقـاً لمقتضيات الفن الاغريقي ، التي وان لم يكونوا يجهلوها – وهل كان الفنان الاغريقي يجيز لنفسه ان يجهلها بعد ان أوتي مثل هـذه الروح الطُلَعَة التي لا تني ولا تملّ – أهملوا مع ذلـك ان يتقيدوا بها ، او اسقطوا العمل بها بالكلية .

وقد استعان الفنان الاغريقي في انتاجه هذه الآثار الفنية التي ظهرت في عهـد اوغسطس ، بهذا الوقار الديني وهذه الأنفة القومية ، وقد يكون حدث ذلك بعدان كانت ضعفت لديه هذه المشاعر ، في بعض الاحيان ، وخلال بعض العهود . فهي تظهر في اوقات اخرى ، في هذه النقوش النافرة التي طلعت علينا في عهدي ترايانوس ومارك أوريل لدى ترؤسهم احتفالات دينية رسمية . فقد كانت جزءاً لا تتجزأ من فلسفة الحكم ، لازمته وفرضت نفسها عليه ، عندما كان يشترط ان تأتي وفقاً لمشاعر المواطنين واحساساتهم وتقديراتهم . ولكن لات ساعة الانجازات الفنية العظيمة التي تمت في عهد اوغسطس . فتماثيل الاباطرة وهم مرتدون التوغة (*La Toge*) او الدروع المُعلّمة ، وهذه المواضيع التي ترسم لنا تقوى الاباطرة وكرمهم، كلها غامت في التقاليد والاعراف التي استبدت، وفقدت من جراء تمتعها المفرط بالحرية، ما لها من قوة التعبير والمدلول، التي كانت تشع منها .

فالنزعة الواقعية استمرت مدة اطول وظهرت في اكثر من شكل وصورة اولها على الاطلاق تحيز قسمات صورة الشخص . فهذا العدد العديد من التماثيل والتماثيل النصفية ، وهذه الانصاب الجنائزية ، كلها تم وضعها ، اذ ذاك ، وقد افرغت معظم رسوم الرجال والنساء في وقفة تظهر منهم الملابس وملامح الوجوه ، حتى في عريها ، اذا ما اقتضى الامر ، وفقـاً لنماذج تقليدية

وجدوا منها الشيء الكثير بين هذه القوالب التي تم صنعها على يد الفنانين الاغريق، وزادت عليها روما الكثير ، بفضل المثاليـــة التي طلع بها صديق الامراطور هدريانوس المهندس انطينوس. غير ان اشتداد الطلب على هذه الآثار، اضطر رجل الصنعة، بنسبة اكبر مما عرف عنه في مصر الفرعونية وفي الحضارة اليونانية ، على صنع تماثيل شبه جاهزة ، يضيفون اليها ، عند الطلب او التقدم بشرائها ، رأساً يصنع على عجل، يمكن استبداله احياناً، حتى ولو كان التمثال لاستخدام الاباطرة انفسهم . الا انه في بعض الحالات ، كان النحات يتفانى في نحت قسمات الوجـــه بدقة معجزة ، فيرسم اسارير الوجه ، وما ارتسم عليه من سمات وعلامات فارقة او شوه طبيعي ، وغضون الجبين او بثرة ظاهرة، او خال ، مع موقع الشعر ومفرقه على الرأس . من النادر جداً ان تتجاوز هذه الروح الواقعية الفرد او الحادث ، فيحاول النحات ابرازهما بصورة تعبيرية تبرز مكنونات النفس البشرية ، وبعض الانطباعات والاحاسيس الداخلية ، وكلها امور لم تتم الا في هذه التحف والروائع الفنية المشهورة التي قلما جاد العهد بمثلها . وهذه الدقـة المعجزة ، أتاحت لنا اليوم ، ان ننعم برسوم فنية تعبيرية ، واحياناً ، عند تغيير الازياء النسائيـــة (الموضة) ، ببعض مواقف نابية للزينة النسائية ، فيتوفر للمؤرخ بذلك ، قواعد للتأريخ وتحديد الازمنـة بصورة ادق . وهكذا لا بد لفن نحت التماثيل الرومانيـــة ، من ان يثير اهتمام المؤرخ ، مع انه كثيراً ما يجعل "هوى" الفن الروماني جامداً لا يتحرك.

وعلى هذا قس عدداً من الرسوم الناتئة التي تمثل حوادث تاريخية بلغ من دقة نحتهـــا وشدة مطابقتها للواقع ان كونت مستندات ثمينة للغاية ، لا يتوفر مثلها في النصوص الادبية التي وصلتنا، او تبقى هذه النصوص حيالها مقتضبة موجزة . بالامكان الاتيان بامثلة عديدة . من ذلك مثلاً ، قوس النصر الخاص بالامبراطور ترايانوس ، والمسيرة المظفرة مع الاسلاب المأخوذة من القدس . وفي صورة ناتئة تقوم على فوروم ترايانوس ، في روما ، او على احد الاعمدة التي يقوم عليها قوس النصر الخاص بترايانوس ، في مدينة بنيفانت حيث تبرز مؤسسة الاطعمة *Alimenta* . لا بد من ان نذكر هنا ، بنوع خاص ، الرسوم الناتئة ، على اكليل اعمدة المرمر المعروفة باعمـــدة ترايانوس ومارك اوريل ، امـــا الصور التي تمثل المعارك التي تقع في وقت واحد مع غيرها من الحوادث ، فشيء معروف في الفن الهليني ، كما يظهر على افريز جداري . وصورة البرقع المتدلى بشكل حلزوني ، شيء جديد على الفن في روما ، وان كانت له جذور في مشاهد سابقـــة ، في الشرق ، وفكرة التعبير عن متابعة السير مع مرور الزمن ، مع مشاهد متنوعة من مفاوضات ، ومعارك وحصار مدن ، ومذابح ، وصور استسلام ، كلهـا صور ترسم سلسلة من الحملات العسكرية تشير هنا ، الى حروب ترايانوس ضد قبائل الداس – وهي ١٢٤ مشهداً يشترك فيهـا ٢٥٠٠ شخص منحوتة صورهم على حائط طوله ٢٠٠ متر – كما يشير هنالك ، الى حروب مارك اوريل على الدانوب . وقد ابى الضمير المسلكي عند الفنانين ان يتأثر بعدم استطاعة المشاهـد ، التقاط هذه المناظر ، بالدقة المطلوبة ، اذ يوجد بعضها على ارتفـاع ٣٠ متراً . فاينما وقع نظر الانسان ، طالعته هذه الدقة تبرز على أتمها في مشاهدة الملابس والاسلحة ، وكلها متشابهـــة ،

والمباني وانشاءات المهندسين الرومان تبرز بدقة كلية وكأن بهذه الرسوم الناتئة على هذه الاعمدة مظروفاً (ألبوم) من الصور الحيـــة ، لا بد للمؤرخ من الرجوع اليها ، ليس فقط للتمييز بين البرابرة والجيش الروماني ، بل ايضاً ليستحضر في ذهنه سلسلة من الحوادث تبقى حيالها المصادر التي عوّل عليها ، شبه صامتة ، لا تنبث ببنت شفة .

وليس بغريب قط ان يسير الفن الخاص على منوال الفن الرسمي ، اذ كثيراً ما نجد الرسوم الناتئة على القبور والمدافن ، تمثل حوادث ومشاهد حياتية تمتّ للمتوفى او للبيئة التي عاش فيها بصلة وثيقة . من ذلك مثلاً ، المشاهد المأخوذة من المقاطعات الغاليـة حيث لم يستنكفوا قط ، كما سبق وأشرنا الى ذلك من قبل ، من تمثيل مزاولة المهنة بشيء من الفخر والمباهاة ، اذ اخـذ الفنانون يَعنون عناية خاصة ، بالحوادث اليومية وحاولوا ابرازها على شكل يبدو عليهم تقصيرهم الفني ، ومع ذلك فمنظرها يبعث الارتياح . وهكذا نرى المجموعات العامة للرسوم الناتئة ، في غاليا الرومانية وجرمانيا الرومانية ، تؤلف مصادر ثمينة جداً لمن يبغي مـن المؤرخين درس المجتمعات البشرية في هذه الحقبة وما كانت عليه اخلاق القوم ، اذ ذاك ، ووسائل النقل التجاري وأدواته المستعملة ، والاساليب التقنية والعمل المهني . ولكي يعثر المرء على شيء شبيه بهذا في الفن اليوناني ، عليه الرجوع الى الرسوم الموجودة على بعض الآنية التي يعود صنعها لقرون الفن الكلاسيكية ، مع الفارق الناجم عن ان الفنان اليوناني لم يكن ليستوحي عمله من الوضع الحياتي للزبون الذي يوصي بصنع التمثال بل يستلهم فنه ، من ماجريات الحياة الخارجية . كذلك ، كثيراً ما استمد الفنانون موضوعهم من العمـل في الارض وهو شيء لم يخطر يوماً على النحاتين الغالو - الرومانيين الذين لم يتقدم يوماً اليهم احد من سكان الريف الاثرياء بطلب من هذا النوع .

ففن النقش عند الرومان هو دوماً مجرد نسخ او تقليد أعمى للنقش عند الاغريق . فالآثار التي استعرضناها وأتينا على ذكرها هنا تؤلف جزءاً صغيراً من هذا الانتاج الفني الذي تم اذ ذاك . على كل هي انجازات فنية تحيّزت ، يبدو منها ان روما عرفت ، في بعض الحالات والعهود ، ان تضيف لوناً جديداً الى هذا الفن الذي برهن الاغريق في مزاولتهم عليه انهم اربابه وأساتذته .

الهندسة المعمارية : مناهج ونماذج

من حق المرء ان يتوقع من الهندسة المعمارية أصالة أكبر مما وجد عند الرومان ، في النحت والنقش . فالاصالة هنا ، بالفعـل هي أعمق وابرز . فكما ان المذهب الواقعي هو من التقاليد الرومانية المتوارثة في فن النحت الذي أفسح العهد الامبراطوري له المجال للتجلي والبروز ، في المناسبات الكثيرة ، فالانجازات الهندسية الرومانية ظهر الكثير منها قبل العهد الاخير للامبراطورية بكثير . كل ما قام في الامبراطورية او أطلّ عليهـا كان يدعوها للتجديد والابداع : هذه التقنية التي توفرت للمهندس ، وضخامة الموارد والامكانات المتنوعة التي وجدها تحت تصرفه او متناوله ، وهذه الجدّة والاهمية التي طبعت الطلبات والتوصيات تصدر عن عالم اخذ ينظّم ذاته على نطاق لم يألفه من قبـل لا سيا

وآحد نصفيه خال من كل شيء تقريباً ، مع الملاحظة ان التجديدات الاولى ظهرت في العهد الجمهوري . فالامبراطورية لم تستنبط نماذج جديدة للمباني ، فاتجه خيال المهندس بالاحرى للتفاصيل وعَني بالمقاييس بالنسبة لما كانت عليه في القديم .

ولما كانت الضرورة تقضي عليهم بأن يبنوا بسرعة . فقد اضطروا ان يهملوا استعمال الحجر المقصوب الذي طالما عوّل الاغريق على استعماله ، بالرغم مما يقتضي اعداده من وقت ، وراحوا يستعملون بديلاً عنه حجارة غير مقصوبة تختلف شكلاً وحجماً ، كما انهم استعملوا احياناً ، الطوب، يُعَشّقونها بعضاً ببعض بملاط يصنعونه من الشيد وكسارة الحجارة ، نال شهرة واسعة، مع ان هذه الطريقة افقدت فن العمارة شيئاً من الجمال الاستتيكي ، جربوا ان يعوّضوا عنها بالزخرفة من الداخل . وهذه الطريقة اتاحت لهم استعمال القنطرة والقوس والقبّة ، وكلها عناصر كادت الهندسة المعمارية عند الاغريق تهملها تماماً مع انها اقتبستها من الشرق . وعلى هذه الطريقة حُلّت قضية السطح ، وهي طريقة عرفوها في العهد الجمهوري ، إلا انهم طبقوها على نطاق اوسع فيما بعد . وخير مثال على ذلك هو مبنى البانتيون، احفظ مباني روما القديمة ، جدد بناءه هدريانوس ، وهو اليوم احدى كنائس روما ، ورفعوا على مبنى اسطواني الشكل قطره ٤٣ متراً ونصف المتر ، قبة على ارتفاع ٤٣ متراً ونصف المتر ، هي الاخرى عن سطح الارض ، تركوا فيها فتحة قطرها ٩ امتار ، ينفذ منها النور الى كل المبنى . ولا بد من الملاحظة هنا ان سماكة الجدار بلغت ٦ امتار وذلك لتتحمل ثقل القبة وشدة ضغطها . وهكذا راح وقع تأثير القبة من الداخل يعوض عن غلاظة المبنى من الخارج . وهذه الجرأة في تشييد سقف هذا المبنى لم تتكرر بعد ذلك ابداً .

والبانتيون هيكل مستدير الشكل ، اذ انه لا يؤلف ، من حيث تصميمه الهندسي ، شيئاً جديداً ، لا في العالم اليوناني ، ولا في روما . هنالك ابنية كثيرة قامت في كلا المدينتين لم يُدخِل عليها الرومان سوى تعديلات طفيفة . فالطراز الهندسي المتعارف عند الاتروسك لهيكل كلاسيكي ، هو الشكل الدائري ، وليس كما كان عليه عند الاغريق ، قائماً على ثلاثة سطوح ، وكذلك الأمر مع المسرح ، اذ جعلوا القسم الخاص منه بالاوركسترا على نصف دائرة ، بعد ان انقضى تماماً وزال ، العهد الذي كانت فيه الجوقة (الكورس) يتغير مكانها وفقاً لمقتضيات الفن ، وينتهي بجدار عالٍ قد يبلغ ارتفاعه احياناً ١٥ متراً ، تُنشأ امامه شرفة ومشكاة من شكل خاص ، وركيزة مستطيلة ، وصفّ من الاعمدة على شاكلة ما يقوم امام القصور.

فقد قام الى جانب هذه الاشياء ، إنشاءات رومانية بحتة : هي المدرج *Amphithéâtre* وهي كلمة مشتقة من كلمة مقعد باليونانية ومن الزائدة *Amphi* التي تعني : حول ، وهذه المقاعد تقوم حول حلبة أو ساحة ميدان ، إهليلجي الشكل ، حيث كانت تجري معارك المصارعة . اما البعض من اصحاب الاختصاص ، فقد يرى في هندسة مثل هذا المبنى تصميماً اتروسكي المنشأ ، جرى اقتباسه من الشرق أو اليونان ، وهو رأي لا يزال العلماء يختلفون حوله

ويتناقشون ، إلا ان الرومان أدخلوا عليه من التعديلات الأساسية بحيث يصح معها اعتباره من مستنبطاتهم الخاصة . وهذا الطراز المعماري ، برز في هندسة السرك ، اذ لا يختلف تصميمه الهندسي لدى الرومان عنه عند اليونان ؛ وجعلوه كله من البناء، بدلاً من استخدام سفح جبل أو منحدر هضبة . كذلك برز في تصميم البازيليك *Basilique* المستوحاة هندسته من هندسة الأروقة الملكية الهلينية ، التي أصبحت على مر الزمن صالة كبيرة مستطيلة ، تنقسم من الداخل، طولانياً الى ثلاثة صحون ، بواسطة صفين من الأعمدة ، وفيها كان يجلس قضاة العدل للنظر في القضايا المعروضة للنظر . وقد برز ذلك ايضاً في وضع الحمامات التي لم تلبث ان اتخذت ، فيما بعد ، مساحات كبيرة(راجع الشكل ٢٥) فضمت من الداخل العديد من الغرف والحُجر وفقاً للغَرض : هذه للحمّام البارد ، وتلك للحمام الفاتر ، وثالثة للحمام الحار أو الساخن ، ورابعة لحمام البخار *Sudatorium* ، مع ابهاء وساحات للالعاب الرياضية ، وما الى ذلك من غرف اضافية للمكتبة ، واروقة للرسوم والصور . وبرز هذا التصميم كذلك في قوس النصر يتكون عادة من ثغرة او فتحة تعلوها قنطرة ، تفتح في سور المدينة ، ثم اصبح شكلاً من اشكال الزينة ، او تذكاراً يعيد الى الاذهان عهد اسرة ملكية أو عهد سلطان ، كما برز في هذه المدافن والاضرحة التي اتخذت في روما اكثر منها في اليونان ، شكل بناء شامخ ، او هرم من الأهرام ، اسطواني الشكل ، أو مكعبه ، مع حجرات واسعة من الداخل تحمل جدرانها كوى لوضع جثث الموتى . وهذا التصميم يبرز في وضع المنازل الخاصة التي سنخصها بكلمة على حدة ، بعد قليل . ولا بد من الملاحظة هنا ان انماط هذه المباني في اشكالها المختلفة ، جرى استنباطها او الحقت بها تعديلات كثيرة ، في اواخر العهد الجمهوري ، او في مطلع عهد اوغسطس . فالهندسة المعمارية في الطور المتأخر من تاريخ الامبراطورية ، لم تطلع باي تجديد ولا استنبطت شيئاً في هذا المضمار .

السيطرة العجيبة على الطبيعة

من اهداف هذه السيطرة على الطبيعة والتحكم بها ، التأثير على أخيلة الناس واذهانهم ، في مجتمع ترفل الطبقات العليا فيه بالمال الوفير والغنى الجزيل . فالتحسينات التي ادخلتها الوسائل التقنية ، وفاعلية الادوات والعدة المستخدمة مكنت بالفعل من تحقيق انجازات جبارة. فالتمثال الضخم الذي تجاوز علوه ٣٠متراً ومثّل الامبراطور نيرون مرتدياً شعار الإله الشمس ، ارتفع على مقربة من « البيت المذهب »عرف عندهم باسم *Colosseum* اي التمثال الضخم ، وهي كلمة تحورت الى كلمة كوليزه وبها تُعرف لليوم ، اذ لا تزال تطلق على المدرج الذي شيده اباطرة الاسرة الفلافية . وكان هذا المدرج من الضخامة بحيث كان يتسع لـ ٣٠٠٠٠ مشاهد جلوساً ، بينما ذكرت المصادر القديمة انه كان يتسع لـ ٨٠٠٠٠ مقعداً طول دائرته ٥٢٧ متراً وعلو جدرانه ٥٧ متراً ، وفي هذه المقاييس ما يضفي عليه هذه الضخامة دون ردفه بتمثال نيرون القائم على مقربة منه . والهرم الذي تكوّن من مدفن المقدّم تشستيوس الذي توفي سنة ١٢ ق.م ، ارتفع ٣٧ متراً. اما ضريح اوغسطس الذي

تركت عليه صروف الدهر وتقلباته أثرها الظاهر، فيُعرَف اليوم بقصر سانت أنج، وهو يتألف من مبنىً قطره ٨٩ متراً، يرتفع على اربعة طوابق من الأروقـــة ، يحف به صف من السرو والشربين كأنها ثلة من الحرس شاكي السلاح تقدم التحية العسكرية ، تتوسطه دعامة علوها ٤٥ متراً ، ارتفع فوقها تمثال الامبراطور ، ونـُصبت امام مدخل الضريح مسلتان فرعونيتان ، وعمودان عُلقت عليها لوحات من البرونز تحدث الناس باعمال الالهي اوغسطس ، بينا لا يزال ضريح الامبراطور هدريانوس قائماً بعد ان أدخلت عليه ترميات عديدة ترجع الى الاجيـــال الوسطى .

لا نجد في أي محل آخر ، غير هــذا المكان ، ولا تقع العين على ما تقع عليه هنا من عناصر الفن الشرقي : من هرم ومسلات فرعونية وقبور ومدافن مخروطية الشكل وكلها عناصر جيء بها خصيصاً لتوحي للرائي فكرة الضخامة والعظمة . ولكن هذا الشعور بالعظمة كان بالامكان اشاعته في النفس بواسطة اشياء اخرى لا تحصى. فقد آثروا الاستعانة بمثل هذه العناصر الشرقية لمـا فيها من قوة إيحاء وتأثير بالغ على النفوس . فالهندسة اليونانية التي همها دوماً الاتـّصاف : بالاعتدال والاتزان والانسجام لم تتنازل عما تم لها من وقع إلا بصورة عابرة .

هنالك نزعة اخرى كانت تميز المهندس الروماني عن زميله الاغريقي . تصرّف المهندس الاغريقي بعدد اقل من الشغيلة واليد العاملة، كما كان تحت يده القليل من المواد الاولية. ورغبة منه في دمج عمله بالاطار الطبيعي المحيط به ، فقد حاول ان يفيد الى أقصى حـــد من طواعية الطبيعة لمساعدته بتكييفها وفقاً لرغائبه ، على عكس المهندس الروماني الذي جعل من مبانيه الهندسية انجازات ضخمة هي من صنع يديه ومن ثمرة تحكمه بالطبيعة وسيطرته عليها بقوتـه وبأسه وعلمه . فقد اشرنا لماماً اعلاه ، الى ما من فرق بين السيرك وميدان السباق ، وهو فارق يبدو على اشده ايضاً في مفهوم المسرح هنا وهنالك . والجدار المنتصب عنـد مؤخرة المسرح ، والذي يعدل ارتفاعه بارتفاع اعلى صف من المقاعد، لم يكن ليحدّ بشيء من مدى النصر. فاذا لم يتوفر لكل مسرح « الجدار » الذي توفر لمسرح مدينة اورانج وكان سبب شهرته، فكل المدارج كانت تضم ، على شاكلة مسرح نيم ، كل المشاهدين يشاهدوا الالعاب ، وقـــد مدّت فوق رؤوسهم ، سحائب من الستائر ترد عنهم وطأة حرارة الشمس وان حالت ، الى حين ، بينهم وبين منظر السماء . وهكذا كان المهندس يسيطر معاً على المدى فيتصرف ، على هواه ، بقسم منه ، معطياً بذلك ، الدليل على سيطرته على الطبيعة وهيمنته عليهـا . ففي مدينة برغاموس الهلينية التي شُيّدت على منحدر هضبة متدرجة السطوح ، لم تبلغ سيطرة الانسان على الطبيعة ما بلغته عند الرومان ، اذ ان هـــذه المدينة رتّبت مبانيها على مستويات متباينة ، وفقاً لانحدار التل .

وهذه الارادة التي روّضت الطبيعة ، وسيطرت عليها ان لم نقل طوّعتهـا بالعنف والقوة ،

تبرز على شيء من الكبر والتعالي والتيه ، في عدد من الانجازات الفنية التي نثر حباتها المهندسون الرومـان في جميع أرجاء الامبراطورية . من هذه الاعمال الانشائية الجبـارة ، تغيير معالم طوبوغرافية بعض الاماكن ، بعد ان نقلت مقادير هائلة من الأتربة والحجارة بعمق يوازي علو عمود ترايانوس وتمثاله الذي بلغ ارتفاعـه ٣٨ متراً ، فأتاح للمهندسين انشاء ميدان (الفوروم) المعروف بفوروم ترايانوس ، بين هضبتي الكابيتول والكويرينال ؛ وانشاء مثـل هذه المرافىء الضخمةعلى شاطىء البحر ، كما نشاهد عند مدينة اوستي (الشكل١٠ـ ص٣٤٣)،واقامة جسور وكباري فوق الانهر ، كجسر القنطرة على نهر التاج ، الى الشرق من البرتغـال ؛ وانشاء أقنية لجر المياه مارة فوق الوهاد والوديان ، بين هَضَبة واخرى ؛ وانشاء الجسور كجسر نهر الغـار الممتد بطول ٢٧٥ متراً وبارتفاع ٥٠ متراً فوق النهر المذكور ، أو جسر غاردون على مقربة من مدينة نيم ؛ وشق أنفاق لمرور الطرقات في الصخور أو بين الغياض والآجام والمستنقعات . كل هذه الاعمال وما إليها، قام بها المهندسون الرومان ، وأمنوا انجازها بنجاح عظيم . فلم يسبق ان خطر للانسان من قبـل تحقيق مثل هذه المشاريع ، كما لم يسبق له ان انجزهـا على مثل هذا النطاق الواسع . والذي يبدو لنا ان الانسان أخذ يشعر بما تم له ، اذ ذاك من غَلَبَة ، بفضل ما أعطي من قوة وبأس، سخـّرهما في سبيل الدفاع عن الفتوحات التي تمت على يده ، فأحال جانباً منها وسائل ترَفـّه من عيشه وتبعث فيه الطمأنينة والسلام .

الفن الزخرفي من الداخل والخارج

عدد كبير منهذه الانجازات ، يؤلف بحق، نجاحـات تثير الاعجاب ، سواءً من الوجهة الفنية أو من الوجهة الزخرفية والجمالية. ولعل سرّ ذلك كله يقوم في هذا الاتقان الذي بلغه في نسبة تكييف الفن للغاية التي أُريد لها . فهذا التناسق العظيم ، بين ارتفـاع طوابق الجسر الثلاثة وبين عرض فتحات القناطر ، ومقاييس العواميد ، أضفت على الجسر القائم ، فوق نهر الغار ، هـذه الصفات التي تميزه ، وعُرف بها . وهذا الانسجام له أثره العميق في النفس ، يزيده وقعاً فيهـا انسياب هذه القناطر وتتابع انسحابها . فما من زخرف او نقش او حلية اخرى ، من أي نوع كانت،تخفف من حدة عرى هذه الخطوط والمساحات والحجوم الجافة التي لها وقعها البعيد في الخاطر ، بما يتم لها من تناسب واتزان وتعادل ، وكلها صفات تشير بذاتها الى تاريخ الجسر وتجعله من عهد اوغسطس .

ويبرز في المهندسين ، اكثر فأكثر ، ميلهم للزخرفـة ، بعد ان اتضح للجميع ان الزخرف يرفـع من تأثير المبنى ويزيد من أثره في النفس ووقعه عليها ، اذا لم تكن هذه المباني معدة للاستعمال او كانت نفعية ، او عندمـا تكون أنشئت على عجل ، او استعملوا لهـا مواداً اولية بقيت على خشونتها الاولى . فيروح المهندس يضفي عليها، من الخارج ، اشكالاً ورسوماً استعمل الاغريق مثلها من قبل . فالجدران ُفرشت بالرخـام من الداخل ، كما تحلـّت وتزخرفت على الوجه ذاته : بالركائز والأعمدة، والتماثيل والأفاريز والأضافير المنحوتة نحتاً، ولم يلبث ان تغلـّب استعمال الطراز الكورنثي ، وعمّ استخدامه ان تبيـّن ان زهرة شوكة اليهود(*Acanthe*)البارزة

على اكليل العمود يفيض منظرها في النفس ارتياحاً وبهجة امام افتقار الطبيعة، كما تخفف من حدة نشوفة وجفاف الخطوط الهندسية التي تنبعث من الاطرزة الهندسية الاخرى (الإيوني والدوري). واخذ الميل للزخرف يزداد ويتسع بتأثير الفن الهليني المنطلق من أرجاء آسيا الصغرى وسوريا، يصحب ذلك شيء من الطباق والجانسة، بطلوع الادب الزاهر المشعشع الذي أطل علينا في عهد كل من الامبراطوريين كلوديوس ونيرون. ومنذ ذلك الحين، لم نأنس أي رجوع الى البساطة الاولى. وقد تتشابك هذه الرسوم الزخرفية الناتئة التي تطل علينا من عمود ترايانوس، أكثر مما تطل من النقوش الظاهرة على عمود مارك اوريل.

حمل الرومان في جنباتهم ميلاً شديداً للرسم. فقد فُقدت وضاعت هذه الآثار التي تم وضعها على المسند، إلا انه بقي منها نماذج، بعضها على الجدران تغطّي مِلاطها برسوم نافرة، ناتئة. وقد عثر على بعض هذه الرسوم في روما ولا سيا في مدينة بومبيي. فالصور التي كانت تزدان بها جدران المنازل في هذه المدينة الريفية الصغيرة، لا تحصى لكثرتها. فالهوَس الذي تملك الناس فيها، فجعلهم يُقبلون بداعي ماهم عليه من غنى ورفاه، على الزخرفة والاكثار منها في منازلهم، ليس ما يمنع ان يكون هو نفسه الهوس الذي تملك الطبقة البورجوازية في القسم الأكبر من ايطاليا، فراحت، اسوةً بسكان مقاطعة كمبانيا، المعروفة برخاء سكانها، تقبل باندفاع كلي، على الزخرف الهندسي. جرى العرف على تمييز اربعة أطرزة من الصور والرسوم التي وجدت في بومبيي، اقدمها جميعاً طراز اسبق لعهد سيلاّ، اقتُصر فيه على تقليد الرخام المعرّق. اما الثاني، فهو الذي ظهر مع مطلع الامبراطورية، اذ تألف معظمه من أشكال من الصور الديني والأسطوري الى جانب رسوم هندسية ومناظر طبيعية مع اهتمام ظاهر بالمدى. ويحدثنا فتروف في بعض كتبه عن «زخارف المسارح»، وليس من النادر قط ان نرى صورة حديقة مرسومة على الجدار الامامي في حديقة صغيرة. اما في النموذجين الآخرين، فالصورة تتألف من عناصر زخرفية لا ترمي الى بعث أي إيهام في خلد الرائي او الناظر، بل همها الاكبر، ان تراعي الذوق والانسجام بين الألوان، حتى ما كان منها وهمياً. وهكذا نرى الفن الروماني يستلهم هنا اقل نزعات الفن الهليني اعتدالاً.

وفن الفسيفساء الذي عرفه الشرق منذ عهد بعيد، ازدهر في جميع انحاء الامبراطورية، أيما ازدهار، مما اقتضى له عدداً كبيراً من الصنّاع المهرة. ففي مدينة بومبيي التي انساحت تحت انهيال حمم الفيزوف، في ثورته الكبرى عام ٧٩ للميلاد، تعثّرت معاول المنقبين بعدد كبير من هذه الفسيفساء في اقبية المنازل او على جدران البيوت حتى المتواضع منها. والاكتشافات الاثرية التي تمت في انطاكية تثبت بصورة لا تدع مجالاً للشك ان سوريا كانت اذ ذاك، من أكبر المراكز لهذا الفن الزخرفي، مع انه لم يَرُج، منذ القرن الثاني، في أي مكان من الامبراطورية، رواجه في افريقيا. فقد انصرفوا مدة طويلة لتقليد هذا الفن عن طريق استعمال مكعبات ملونة صغيرة. وقد وجدوا في بومبيي فسيفساء تمثل اندفاع جيش الاسكندر في هجومه الساحق على

داريوس (دارا) في معركة اسّوس ، بحيث نستطيع معها ان نكوّن لنا فكرة عما كان عليه فن الرسم الهليني على السيبة . وهكذا رسموا ، محاطة بأشكال هندسية ، مناظر ومشاهد ريفية من شتى الانواع وصور الافراد . ثم اقتصروا ، عقب ذلك بكثير ، بعد ان بسّطوا الألوان والرسوم على زخارف خالية من صور الاشخاص ، وهو نمط او طراز أقصروه على الفسيفساء المستعملة في فرش الارضية . وهذا الانتاج الوافر من زخرف الفسيفساء ، اقتضى له من الفنانين ، مقدرة عجيبة على الخلق والابداع ، كما اقتضى له صبراً طويلاً وطول أناة . ففي فسيفساء معركة اسّوس ، في مدينة بومبيي ٠٠٠ ٥٠٠ ١ مكعب صغير موزعة على اربعة ألوان .

والى هذه الفنون الزخرفية الخاصة بتزيين المسطحات وتحليتها ، يجب ان نضيف تلك التي تتعلق بزخرفة المفروشات والاثاث مما كان يستعمله الرومان بين اغراضهم المنزلية . فقد اقبل القوم على استعمال الخزفيات المطبّعة او المحلاة بتزاويق حمراء بعد ان يدمغوها بطوابع تفرّغ في قوالب خاصة . وهذا النوع من الخزف حل محل الخزف المحلى بالرسوم ، عند الطبقة المتوسطة كما اتخذوه بديلاً عن الآنية المعدنية المنقوشة . اما الطبقات الرخية الحال والوضع فقد كانت تفضل الحلي والجوهرات ، مما حدا ببعض الاسر الثرية ، الى تكوين مجموعات ثمينة منها . من اشهر هذه الكنوز على الاطلاق المجموعة المعروفة باسم : « كنز بوسكوريال » التي ضمت المرايا والاقداح والكؤوس . واستمرت صناعة الزجاج في انتاج قطع منه غاية في الروعة والجمال ، ثم اخذت تنتشر في الغرب حتى بلغت ضفاف نهر الرين . وهذه الخبايا التي عثروا عليها بين انقاض مدينة بومبيي المصنوعة من الرخام ، والآنية البرونزية ، من جميع الاشكال والمقاييس ، والتماثيل الكبيرة والصغيرة ، والمصابيح والشمعدانات ، والوجاقات والمدافىء والسيَّب والأسِرّة المتخذة من الابنوس المطعم ، كلها تشير الى ما اعتلج به صدور القوم من مُثل فنية ، جمالية ، في مدينة صغيرة من مدن الريف . كل ذلك يعطينا فكرة عما كانت عليه منازل سراة القوم وعليتهم ، او منازل هؤلاء الاغنياء الذين رفلوا باوسع ما يرفل به مجتمع من رفاهية في تلك العهود .

ففي كل هذه الفنون يبقى العنصر الابداعي الروماني قليل الشأن . فالاشكال والموضوعات والاساليب الفنية او التقنية كلها مستوحاة اصلاً من العالم الهليني . وهذه النزعات الخفيفة التي ادخلت عليها مراعاة لذوق الرومان ، كالميل للمذهب الواقعي مثلاً ، لم يلبث الفنانون ان تكيفوا بها وراحوا ينفذونها ويتفننون بها حتى حدود الغرابة احياناً ، وكلهم اجانب اغراب اصلاً في عهد اوغسطس ، اذ قد وفدوا من الشرق المتوسطي . وقد قصّر هذا الشرق ، فيما بعد ، عن تلبية الطلبات المنهالة عليه ، وتقديم العدد الكافي منهم ، انما راح يمدهم بالمعلمين ورؤساء الورش ليبقى محتفظاً بهيمنته وسيطرته ، حتى اذا لم يُرضِ انتاجه كل الاذواق ، صدّر نماذجه الى الخارج ، حيث يأخذ الناس بتقليدها والسير على نمطها . وهكذا نرى تطور الفن الهليني يمتد ليبلغ دونما تعديل يذكر ، جانباً كبيراً من الامبراطورية الرومانية . الا ان هذا الفن يراعي مقتضيات الاذواق المستبدة بالاهلين في الولايات الاكثر ازدهاراً ، اذ ذاك ، والاكثر نشاطاً ،

اي في آسيا الصغرى وسوريا . وهذا الفن الشرقي اخذ يتصل رأساً بالغرب دون المرور باليونان ليسيطر على روما ، في القرن الثاني ، اي في هـذه الحقبة بالذات التي تسجل الطقوس والديانات الشرقية فيها ، انتصاراتها ونجاحاتها الكبرى ، بحيث تتم الظاهرتان معاً وبحركة تعاونيـة ، في وقت واحد . ففي كل المجالات يبرز الاعتدال المنطقي ويتغلب على كل ما من شأنه ان يحدث صدمة في الاذواق .

المدينـة مركز الانصهار الحضاري

ففي هذه المدن وبواسطتها ، تمت في هذه الحقبة بالذات ، هذه الإلفة ، وحدث الإنصهار بين هذا الازدهار العمراني والانطلاقة في فن الزخرف الذي استعرضنا تطوره في مختلف المجالات التي تجلى فيها .

وهذه الحضارة تبرز مرة اخرى ، وفقاً للفكرة الهلينية التي جاءت حاجات الامبراطورية تشد من أزرها ، وهي حضارة لها سمة المدينة وطابعها . فالمدينـة تُسهّل الروابط بين الافراد والجماعات ، وتنظمها وتُقنّنها . فعندمـا تعمل على تيسير الاتصالات واللقاءات بينهم ، فهي تستدرج بالتالي، ما يؤمن النجاحات التي لا بد منها في الحقلين الاقتصادي والفكري وتساعدها على التطور والنمو والتكامل . واذ كانت لها القدرة والطاقة لتدرأ عنها تعدّيات شذاذ الآفاق وكيد الطامعين وغزو البلاد ، فقد عرفت ان تبعث روح الانضباط بين الجماعة، وتؤمن العدل والعدالة في دولة تشرئب باعناقها للعيش الكريم . من الاعتقاد السائد هو ان ما من دولة قوية تتوطد لها الدعائم بدون بورجوازية تأخذ باسباب الحضارة وترسّخ لها في القلوب والنفوس ، وتهتم لاكثر من تأمين اسباب العيش ووسائله المادية ، وتنزع ، دونما ضعف منها او استجداء ، للسلام ، لانهـا لا ترضى عن هذه الاشياء كلها بديلاً ، لانها عماد النظام ولبه وصميمه ، هـذا النظام الذي لا بد منه للخير العام ولمصلحتها الخاصة . ولكن ليس من بورجوازية بدون مدينة ، اي بدون مجموعة من المنازل والمساكن ، ومن ادارة تجهيز وتموين ، ومبان عامة تطلع وفقاً لمقتضيات الحاجـة والذوق في الفرد والجماعة . فالحكومة تشجع ، اذاً ، مادياً وادبياً ، حركة تنظيم الامبراطورية وتجميلها . وهذه البورجوازية التي تهيأت لها اسباب الظهور والانفتاح ، او اقله اسباب التطور ، تنصرف بدورها ، لتهيئة مثل هذه الانطلاقة . وهكذا ، فالمدينة تمثل اكثر من اي شيء آخر؛ واكثر مما تمثله الفنون ، هذا التأليف والانصهار الحضاري ، لا بل ، هي بالفعل ، هذه الإلفـة الحضارية بعينهـا ، اذ ان الواقع المديني الذي يأخذ مثل هذا الاتساع ، وهو واقع سياسي وعسكري واداري ، واقع اقتصادي واجتماعي بقدر ما هو واقع ثقافي . ولما كان قد سبق ودرسنا ، في الفصول السابقة ، هذا الواقع ، من وجوهه العديدة ، بقي علينا ان ندرسه هنا ، في اطاره المادي .

المدينة الامبراطورية ومبانيها العامـة

زينة المدائن وعروسها ، هي بالطبع روما ، التي تؤلف في كيانها وواقعها: استثناء ومثالاً .

اما الاستثناء ، فلأنه لا يمكن لها ان تأتي مدينة بورجوازية او ريفية . فلو حدث ، مثلاً

وصح هذا الافتراض وبرزت على هذا الشكل او الطابع ، لما كانت سوى مقر نبلاء الدولة ومجتمعهم الامثل ، أي هـذه النخبة الرسمية في هذه الامبراطورية جمعاء . فالامبراطور لا يترك لمجلس الشيوخ سوى الاضطلاع بالمهام الصغرى في الادارة البلدية ، وهي مهام تقع مع ذلـك ، تحت اشرافه ، بواسطة المفتشين والمراقبين الذين ينتدبهم لهذه الغاية . والحقيقة ان روما هي المدينة الامبراطورية، مقر الامبراطور، شاهدة على عظمته وعلى كرمه وسخائه ، وجبروت سلطانه. فما من مدينة اخرى ترتبط بها، تستطيع مزاحمتها في هذا المجال .

اما كونها مثالاً، فلأنها ملتقى ممثلي كل الولايات وكعبتهم ، وقبلة كبار الموظفين الذين يتولون زمام الادارة في هذه الولايات حيث أقاموا وقاموا بوظائف ادارية او عسكرية . فهي فتنة لهم جميعاً ، تجتذب هولاء واولئك ، بما تم لها من سحر وجاذبية، وهي الوطن الاكبر للجميع، وان كانت لهم اوطانهم الصغرى ، فينظرون اليها لعمري ، نظرهم الى المثال الذي لا يرام ، ويرون فيها الصورة المثالية للمدينة ولكل مدينة . فكل ما سواها من مجتمعات وتجمعات لا تستحق ان تسمى مدناً إلا بقدر ما تحاول الاقتداء بها والسير على منوالها ، ومحاكاتها .

وهذه المدينة التي يفاخر اوغسطس بأنها تسلـّمها من لِبن وطين فسلمها رخاماً ومرمراً ، لا يزال مجال العمل بعدُ فيها واسعاً ، ومجال الانشاء رحباً ، ولذا راح كل من الاباطرة الذين تعاقبوا على الحكم بعده يحاول ان يترك له فيها اثراً يحدّث بما شيّد فيها من مبانٍ وما ترك عليها من نظم ومؤسسات تبز بمقاييسها وضخامتها كل ما عداها . كل من فيها يتذوق الفن ويسعى اليه ويفخر بمناصرته ومناصرة حَمَلَتِه ، كما يحاول فريق من بينهم ، ممارسته والانقطاع له . وكل هؤلاء الاباطرة ، يدركون جيداً ، بفضل دروس التاريخ التي لـُقـّنوها ، وعلى ضوء عظات عهد الطغاة من اليونان قديماً ، ومن سلوك فراعنة السلالة الرابعة في مصر ، ان سبيلهم الوحيد للبقاء حديثاً بعدهم ، هو إلهاب خيال الناس ، بما يشيدون من المباني والمؤسسات الضخمة . ولذا كان لا بـد من ان نضرب صفحاً هنا وان نمر سراعاً عن سرد ووصف ما قام من هذه المباني ، وبينها مـا اقتضى انجازه أكثر من عهد واحد .

وهكذا ، فالفوروم الذي شرع دومتيانوس ببنائه ، حمل اسم الامبراطور نروه *Nerva* لأنه هو الذي أكمله وأنجزه ، نكاية وتشفياً بسلف بغيض ، كريه الاسم ، ترك من سوء الذكر بحيث تغاضوا عن اغتصاب الشرعية وجعلوا من اللاشرعية شرعية . والى هذا هنالك مبانٍ تعهّدوها اجيالاً طويلة بالتعديل والتحوير ، والتوسيع والتجميل ، منها مثلاً السيرك الأكبر *Circus Maximus* الذي كان يقع بين هضبتي البلاتين والافنتين في المكان الذي خصص له منذ القرن الرابع قبل الميلاد ، وخضع مراراً للتوسيع بحفر جنبات الهضبتين المذكورتين ، بحيث اتسع في عهد قيصر لـ ١٥٠٠٠٠ مشاهد ، فاذا به يستوعب في عهد ترايانوس ٢٥٠٠٠٠ منهم ، طوله ٦٠٠ متر وعرضه ٢٠٠ متر وطول ميدانه ٢١٤ متراً وعرضه ١٨٠ متراً . فتعداد هـذه المباني الذي لا ينتهي، من شأنه ان يسبب ، ولا شك، الملل ، اذا ما اخذنا بذكر عمليات الترميم

التي ألحقت بها ، كما نسب الضجر والسأم بإيراد اسماء هذه العمائر التي لا حصر لها ولا عد التي راح كل امبراطور ينشئها في عهـــده : من هياكل وميادين *Forums* ، ونوادٍ ، وحمامات وغير ذلك . فلنكتفِ هنا ببعض النماذج التي تمثلها خير تمثيل .

ففي روما (راجع الشكل ٩-ص٣٢٣)، خضع هذا القطاع الواقع منها بين الكابيتول والبلاتين والتشيلوس والاكيلين والكويرينال ، لتغييرات جذرية . فالمكان الذي بقي فارغاً في هذا القطاع

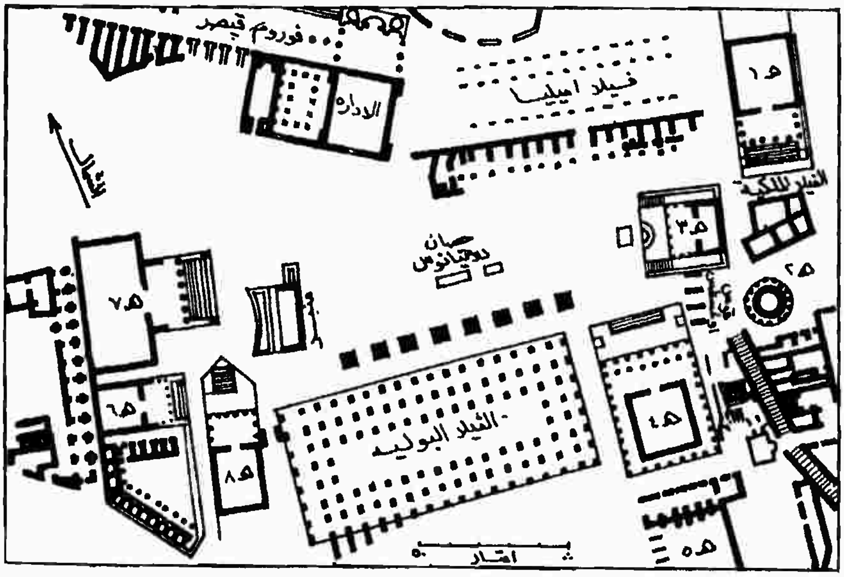

الشكل ١٤ — الفوروم الروماني والمباني القائمة عليه في القرن الثاني
هياكل: ١ - انطونين ؛ ٢ - فستا ؛ ٣ - قيصر ؛ ٤ - كستور و بوللوس؛ ٥ - اوغسطس ؛ ٦ - فسبسيانوس وتيطس ؛ ٧ - الكونكورد ؛ ٨ - زحل او ساتورن .

كان يتألف من الفوروم الجمهوري القديم، وهو ميدان ، ضيّق ، محشور، بقي معروفاً فيما بعد، باسم «الفوروم الروماني» . ولكي ينشئوا في قلب المدينة ـ العاصمة مجموعات من العمائر الضخمة، خليقة بالعاصمة ، كان لا بد من استعمال مساحات جديدة من الاراضي . فالحريق الكبير الذي منيت به روما عام ٦٤ ، حرّر الكثير من هذه المساحات المطلوبة ، مما اتاح لنيرون أن يشيد عليها «المنزل المذهب» *La Maison dorée* ، بحيث امكن في ما بعد، استخدام هذه الاراضي لإقامة ساحات ومتنزهات ضخمة . وهكذا ارتفعت الى الشرق من المدينة عمائر ضخمة ، منها : الكوليزه ، وحمامات تيطس ، كما شيّدوا ، على هضبة الاسكيلين : حمامات ترايانوس التي بلغ طولها ٣٤٠ متراً وعرضها ٣٣٠ متراً ، واخيراً هيكل الزهرة ، وهيكل روما ، وكلاهما من انشاءات الامبراطور هدريانوس .

هنالك مشاريع تجميل اخرى ، جرت في اتجـاه آخر ، أي بين الكابيتول والكويرينال ، حيث كان سبق لقيصر أن انشأ الفوروم الجديد ، الذي يحمل اسمه . ثم عَقِب ذلك انشاء عدد

آخر من الميادين الامبراطورية ، تتالت من الجنوب الشرقي الى الشمال الغربي ، منها : فوروم فسبسيانوس مع هيكل السلام، وفوروم نروه *Nerva* ، وفوروم اوغسطس مع هيكل مريخ - أولتور *Mars - Ultor* (أي « مارس المنتقم » لموت قيصر ، الذي قتل في ١٥ اذار)، واخيراً الفوروم الذي يحمل اسم ترايانوس . وهذا الفوروم كان يؤلف جزءاً من وحدة هندسية فخمة أشرف على تخطيطها المهندس ابولودوروس ، بعد ما توفر له من الموارد الطائلة ، إثر وضع يده على كنوز داسيا وما فيها من مناجم الذهب الغنية . وقد اشتملت هذه الوحدة ، فيما اشتملت عليه ، ما عدا ميدان فسيح ، سوقاً تجارية (هال) تألفت من خمسة ادوار ، ومنتدىً ومكتبتين : إحداهما للغة اليونانية ، والثانية للغة اللاتينية ، قامتا في طرفي الساحة التي ارتفع فيها عمود ترايانوس . وأضاف هدريانوس الى هذه الوحدة، هيكلاً يحمل اسم ترايانوس ، بعد ان أرسى الحجر الأساسي وأودع قاعدة العمود ، حُقاً يضم رماد الامبراطور الراحل .

وجاءت بعدهذا، باتجاه نهر التيبر، الحدائق المعروفة باسم: شان ده مارس *Champs de Mars* وهي حدائق غنّاء : طليقة ، مفتوحة ، اخذوا، منذ العهد الجمهوري ، يقيمون عليها المباني والعمائر ، زيد عليها ، في العهد الامبراطوري ، الشيء الكثير ، ابتداءً من اوغسطس الذي انشأ فيها ، هو نفسه ، مسرحين واربعة أروِقة ، والحمّامات الأربعة الفخمة الاولى التي عرفتها روما ، والتي عُرفت باسم أغريبا ، وبضعة هياكل ، بينها هيكل البانتيون ، أي هيكل السلام ، ثم، وابعد الى الشمال : ضريحه . وحذا خلفاؤه حذوه ، فربطوا بالجسور العديدة التي أقاموها فوق نهر التيبر ، ضفته اليمنى بحدائق شان ده مارس . وهكذا تم دمج هذه الوحدة بالشبكة الهندسية التي انتظمت مباني العاصمة .

أتينا على الكثير من اسماء هذه المباني ومسميات العمائر ، وقد كان من الممكن إيراد المئات منها . وهذه الشواهد والأمثلة ، نضربها هنا ، فيها ، على ما نعتقد ما يكفي من دليل لندرك معه مدى ما تناوب على هندسة المدينة من تعديل وتحوير وتغيير بدلت منها المعالم ، خلال قرنين من الزمن . وهكذا تمت لها صورة ولا اجمل ازداد بها منظر العاصمة ، بهاءً وسناءً بما تعهدوها به من تزاويق وتحلية ، في الاجيال اللاحقة ، جعلتها خليقة بعاصمة العالم .

التجميل والمنازل

نوّف عدد سكان هذه العاصمة على المليون ، فبزت بهذا العدد سكان اية مدينة اخرى قامت في ذلك العهد ، وهو عدد لم يكن ليكفي وحده ليؤمن لها مثل هذا المرتبة اذ كان من الضروري ان يتمكن مثل هذا العدد من السكان ، يقطنون في مثل هذا الاطار وفي ظروف مثل التي تحيط بهم ، وسائل العيش الكريم ، خليق بشعب دوّخ الكثير من الشعوب وبسط عليها سيطرته وسيادته .

فهل من عجب ، بعد هذا ، ان يخلق قيام مثل هذا الحشد الحاشد من السكان وتأمين اسباب معيشتهم ، مشاكل طائلة تتعلق بتنظيم المدينة وادارتها ؟ فكان على المسؤولين ان يضطلعوا بها ،

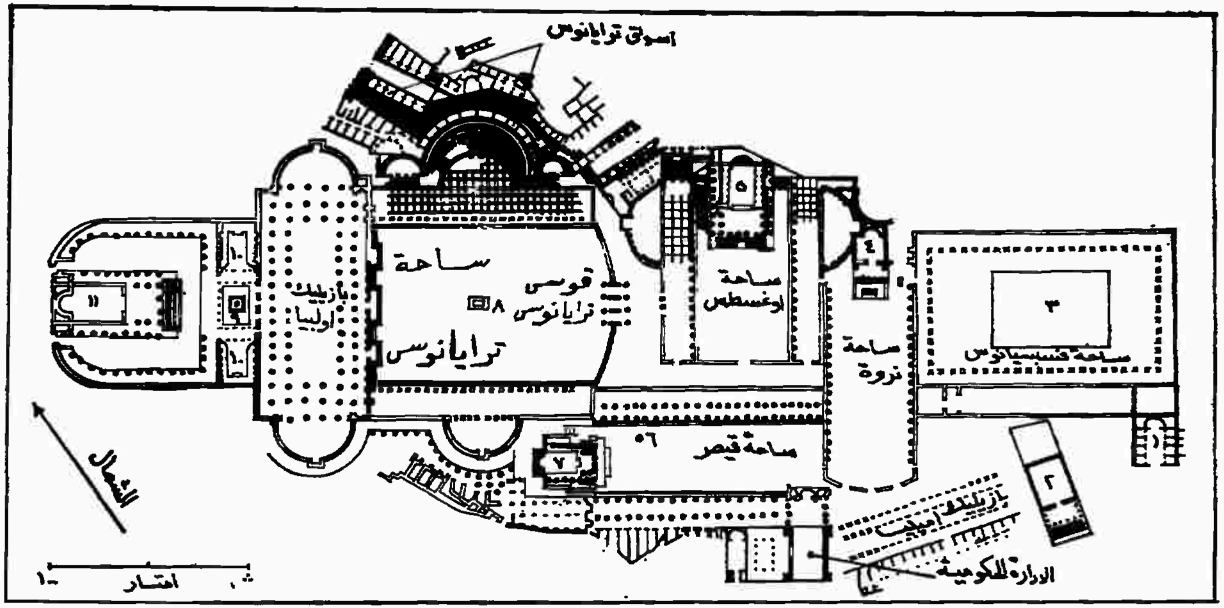

الشكل ١٥ ـ الساحات العامة (فوروم) في العهد الامبراطوري
١ ـ هيكل المدينة ؛ ٢ ـ هيكل انطونين ؛ ٣ ـ هيكل السلام ؛ ٤ ـ هيكل مينرفا ؛ ٥ ـ هيكل مارس المنتقم ؛ ٦ ـ تمثال قيصر ممتطياً حصانه ؛ ٧ ـ هيكل الزهرة المخصاب ؛ ٨ ـ تمثال ترايانوس ممتطياً حصانه ؛ ٩ ـ عمود ترايانوس ؛ ١٠ ـ مكتبات ؛ ١١ ـ هيكل ترايانوس.

وهي مشكلات عرفت عواصم الشرق الهليني الكبرى ما شابهها ، كما عرف اباطرة روما انفسهم ان يفيدوا ، على نطاق واسع ، من الحلول التي وُضعت لها. وقد رأينا كيف ان هؤلاء الاباطرة، أنشأوا ، في سبيل تيسير اعمال الحكم ، مصالح ادارية وبلدية رئيسية ، عهدوا بمهامها وادارة شؤونها ، الى حكام وولاة يؤمنون لها حسن سير الاعمال ، كمصلحة التموين ، والشرطة ، ومصلحة مكافحة الحرائق . واقتضى حسن سير الاعمال في بعض هذه المصالح وانتظامها ، القيام ببعض اشغال عامة ضخمة . من ذلك مثلاً ان اخذ الامبراطور كلوديوس، ومن بعده ترايانوس، بانشاء مرفأ ضخم في مدينة اوستي(راجع الشكل ١٠ - ص ٣٤٣)تسهيلاً منهما لرسو السفن التي كانت تقوم بنقل الميرة والسلع من مختلف الولايات لتغذية هذا الجيش اللجب من السكان ، حاملة على الاخص ، القمح من مصر . وهكذا قام على ضفاف نهر التيبر ارصفة طويلة كانت تفضي الى روما ، وهي ارصفة لا نزال نجهل ، لليوم ، الكثير من اوضاعها ، كثيراً ما تعرضت المدينة من جرائها ، ولعدم توفر الانشاءات الفنية اللازمة ، لاخطار الفيضانات . كذلك أنشئت في المدينة ، مصلحة تُعنى بشبكة المجارير وتسهر على صيانة وحراسة ونظافة المدينة ، كما أنشئت فيها قناطر عديدة لجر المياه تلبية لاشتداد الحاجة المتزايدة لها ، ولا سيا بعد ما قام من هذه الحمامات الكثيرة . فقد انشأ اوغسطس لوحده ، اربعة من هذه القناطر المائية ، وانشىء غيرها ، فيا بعد ، بحيث بلغ عددها ١٤ قناة لتأمين مقطوعية المدينة ، من الماء التي بلغت في اواخر القرن الاول للميلاد ، مليون متر مكعب ، في اليوم الواحد .

ويصاب المرء بشيء من الخبل والدهش امام ضخامة الانشاءات التي اضطرت ادارة المدينة ان تقوم بها ، لتأمين حسن سير الاعمال ، وهي اعمال وانجازات كانت ، مع ذلك ، اعجز من ان تحل كل مشكلات روما من هذه الناحية ، أو ان تحول دون ما كانت تتعرض له من الإحن والمحن ، وما يتهددها الفينة بعد الفينة ، من اوبئة وافدة . فحالة الطرقات أقل من ان تفي بالحاجة ، وهي في الغالب ، طرقات ضيقة ، متعرجة . قليلة جداً بينها ، الجادات العريضة التي تفضي الى قلب المدينة لتتصل منه بالشبكة الرئيسية التي تنطلق في مهاب الارياح الاربعة لتتغلغل في جميع ارجاء الامبراطورية ، اذ كان اكثر هذه الطرقات عرضاً لا يتجاوز ستة امتار ونصف . وتفادياً للازدحام ، سبق ليوليوس قيصر ان اصدر امره بمنع دخول العربات والمركبات اليها . وكثيراً ما ارتفعت عقيرة مرتيال وجوفنال بالشكوى والتذمر من قرقعة وجلبة اصوات العربات ليلاً ومن عرقلة السير نهاراً ، كما كانوا يتأففون ويتبرمون من تراكم الاوساخ والاقذار والنفايات في الشوارع غير المرصوفة يلقون بها في جادة الطريق. صحيح ان الانشاءات الصحية ، كالمراحيض العامة كانت جميلة بما تحلت به من المقاعد الرخامية والتماثيل والانصاب ، انما استعمالها لم يكن بالمجان اذ يترتب على من يستعملها دفع رسم طفيف ، في حين لم نكن نرى اصحاب المباني والعمارات الخاصة ينشئون شيئاً من هذه المرافق ، في سبيل المستأجرين عندهم . وكانت المنازل خلواً من المداخن بحيث ان استعمال المواقد والمدافىء ، شتاء ، كثيراً ما تسبب عن حرائق

ساعد ضيق الشوارع ، على امتدادها بسهولة فتنزل بالمدينة اضراراً جسيمة لا تلبث ان تتحول الى نكبة نكباء لا يحتاج معها ليد أثيمة توسع من نطاقها . كما راح الرأي العام يتهم نيرون بذلك ، وهذا ، المسيحيين ، في الحريق الهائل الذي التهم جانباً كبيراً منها عام ٦٤ للميلاد .

يجب ان نعزو السبب الحقيقي لهذه المصائب الى ضيق المساحة وقلة المكان بالرغم من توسيع حدود المدينة الادارية ، في عهد اوغسطس . فتشييد هذه المباني الضخمة في قلب المدينة شغل منها المساحة المعدة للسكن ، وهي عمائر لم تقم مكان الحدائق العديدة الواسعة التي توفرت لها في مطلع الجمهورية والتي لم يبق منها فيا بعد شيء ، إلا ما جاء منها في الضواحي والارباض ، او حول القصور الامبراطورية . فانشاء ضواح جديـــدة لم يؤلف حلاً للمشكلة بالنظر لبعدها عن المدينة ، فاضطروا والحالة هذه ان يزيدوا من ارتفاع البناء ، الامر الذي فتح المجال واسعاً امام المضاربات المالية، من جرّاء غلاء الاراضي او من ارتفاع اسعار الايجارات . فقد وضع اوغسطس حداً أعلى لارتفاع المنازل ٢٠ متراً، خفضه ترايانوس ، فيا بعد، الى ١٨ متراً ، ثم راح المسؤولون يغضون النظر ، كما يبدو ، عن بعض التجاوزات هنا ، والمخالفات للقانون ، هنالك . وكان الطابق الارضي يؤلف عادة مسكناً ثرياً او يتخذ منه مخازن ودكاكين للاستثمار . ويقوم فوقه خمسة او ستة طوابق يرقى اليها بواسطة ادراج من الخارج . ولم يكن من النادر حدوث انهيار بعض هذه المباني ، لانعدام المراقبة من قبل السلطة او من اصحاب العلاقة . وكان كل دور من هذه الدور يتألف عادة من بضعة مساكن ضيقة ، قلما تُقفَل نوافذها، وان أقفلت فبستائر شفافة، فيها يحتشد المستأجرون بعضاً على بعض ، ليموتوا شتاءً، دنقاً من وطأة الزمهرير ، وليختنقوا ، صيفاً ، من شدة وطأة القيظ . فمن المعقول جداً ان يقضي السكان ، نهاراً ، معظم اوقاتهم في الخارج ، وهذا ما اوجب على الاباطرة الاكثار من الساحات العامة والاروقة والحمامات العامة، حيث تحتشد جماهير عاطلة عن العمل ، تؤمن لها الدولة ، ما فيه أوَد العيش والكفاف ، تتلهى بالتفرج على بعضها البعض ، ان لم تذهب لمشاهدة الالعاب في المدارج والمسارح .

وهذه المنازل العالية ، المشتركة السكنى ، توصف عندهم بـ « الجزر » *Insulae* او «مربعات» لأنها كانت تقوم عند مقاطع اربعة شوارع . ومن هذه المنازل كان يتألف معظم المساكن في روما وفي مدينة أوستي ، كما دلت على ذلــك الحفريات ، اذ عثروا على جدران بعضها قائم على ارتفاع الدور الثاني ، بينا لا نعرف عن اوضاعها في روما غير ما جاء عنها في الكتب الادبية .

ومع ذلك فقـــد كان تحت تصرف الطبقة الثرية في روما – وهي طبقة ازداد عدد افرادها ايضاً في المدن الايطالية الاخرى – منازل *Domus* او دارات خاصة (فيلاهات) من طابق واحد بالأكثر ، ابرزت النماذج الاولى منها ، اثر الفن الهليني. فقد سيطرت العادات والاخلاق اليونانية في مدينة بومبيي ، حيث يمكننا ان ندرس هذه المنازل او الدارات ، كما كانت عليه في هندستها الاولى ، ونتتبع التعديلات التي خضعت لها فيا بعد. ففي أبسط النماذج كان المنزل يتألف بعد رواق مركزي ضيق يُفضي الى الشارع ، من حجرة رئيسية هي الدار او فنـــاء البيت *Atrium* كان يقوم على سطحه حوض لجمع ماء المطر شتاءً . وفي هــذا الفناء او الدار كان رب

البيت يقضي معظم ساعاته يستقبل الاتباع و « الازلام » . ويلي الدار حجرة هي حجرة الأسرة *Tablinum* ، وفيها تحفظ ، كما يدل عليها اسمها، الاوراق والوثائق والقراطيس الخاصة ؛ ويقوم الى جنبها غرفة اخرى هي غرفة الطعام *Triclinium* . ويلي ذلك ، الى الوراء ، مساحة غير مشغولة هي من اثر النموذج الهليني ، حديقة تحت رواق يقوم على أعمدة *Péristyle* مقسمة الى مربعات واحواض ماء ، بينها فستقية ، وتماثيل ، وغير ذلك مما يبهج منظره العين . وهذا النموذج المبسّط ، العاري ، هو بالطبع عرضة للتغيير والتبدل ، كلما استطاع صاحب الدار الى ذلك سبيلاً ، فيضاعف مثلاً عدد الغرف والحجر تسهيلاً لعملية تهوية البيت وتعريضه لأشعة الشمس ونورها ، او باضافة حدائق جديدة حول المسكن . وعندما كانت تتوفر لصاحب الدار الوسائل المادية كان يضيف الى منزله جهازاً خاصاً للتدفئة ، تفيد منه كل الغرف ، يُعرف عندهم بـ *Hypocaustes* ينقل البخار بواسطة قطع قرميد، مثبتة تحت ارض الدار او يمر داخل الجدران اذا كانت مزدوجة، وهو تطور جديد لم تعرفه منازل الاغريق من قبل ، وجهزت به بعض المنازل في روما . فايطاليا الجنوبية لم تعرفه ولم تستعمله، اذ ان استعماله اقتصر على بعض الولايات المعروفة بقسوة شتائها وببردها القارص .

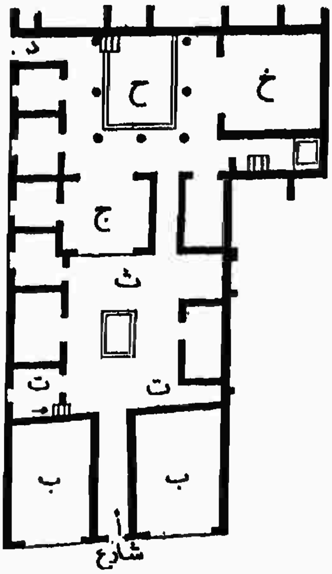

الشكل ١٦ المنزل المعروف : « بمنزل الشاعر المسرحي » في مدينة بومبيي : أ ـ المدخل ؛ ب ـ مخازن ؛ ت ـ الدرج؛ ث ـ دار مع فستقية؛ ج ـ حجرة الاسرة؛ ح ـ رواق بأعمدة ؛ خ ـ غرفة الطعام ؛ د ـ مدخل فرعي . مزين بفسيفساء ورسوم ، منها على العتبة رسم يمثل كلباً مربوطاً بسلسلة ، مع الكلمات : احذر الكلب . في غرفة اخرى حوائج تتعلق بالتمثيل، ومنها عرف المنزل بهذا الاسم.

حتى بدون هذا الجهاز ، كانت الدارة تختلف من جميع الوجوه عن المسكن العادي المتواضع .

ومما لا شك فيه قط ، تناقص عدد الدارات في روما، خلال هذه الحقبة التي امتدت قرنين ، بعد ان بلغ الغنى ذُروته في عهد الاسرة اليوليو ـ كلودية، ثم اخذ بالانحدار تدريجياً . فالاحصاءات الوحيدة التي لدينا تعود للقرن الرابع . فهي تجعل عدد هذه الفيلات نحواً من ١٨٠٠ مقابل ٤٦٠٠٠ مسكن . كان يوجد ، بالطبع ، اذ ذاك ، طبقة من النبلاء ، يعيش افرادها على المرتبات التي يتناولونها من الدولة ، او من ريع ما تدره عليهم املاكهم في الولايات خارج روما ، حيث كانت تجد راحتها ومتعة العيش ، بعد لم تَعُد السكنى المترفة في روما ، في متناول الخاصة .

مدن الولايات

اذا ما وضعنا المدينة ـ العاصمة جانباً، فكم تعد الامبراطورية من المدن ، يا ترى؟ أينما اجلنا النظر وقعت العين على مدن جديدة تخرج الى النور بدافع من الحكومة بعد ان تغاضت عن المدن القديمة وصردت لها تصريداً، المؤازرة والمساعدة ، مفضلة الاحتفاظ بها

للمدن الناشئة تتعهدها بالتخطيط والتجميل والتوسيع .

وهكذا نرى الامبراطورية تستحيل ورشة عامة للاشغال . وكلما اتاحت طبيعة الارض للمدن التفلت من القلعة الضيقة ، حيث كانت تجثم منكفئة على نفسها ، ضمن اسوار تحد من انطلاق

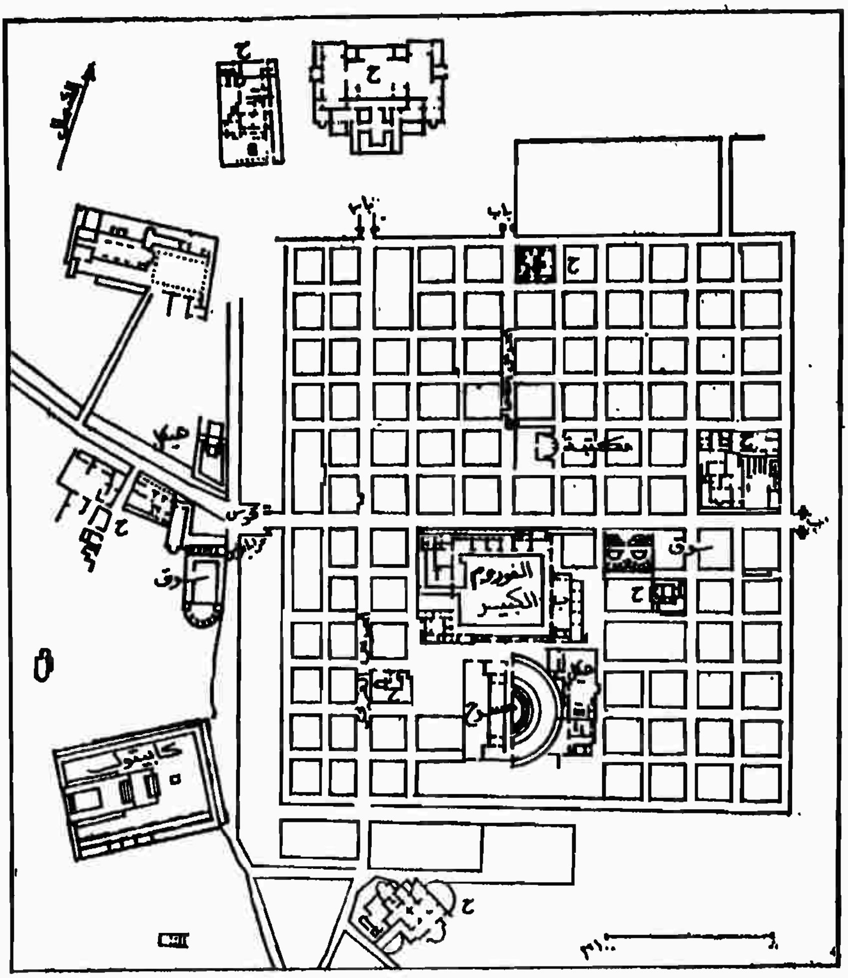

الشكل ١٧ – مدينة تمغاد في نوميديا

ح ـ حمامات ؛ ب ـ بازيليك ؛ ت ـ هيكل صغير في الفوروم مع منبر للخطابة عند واجهة المبنى ـ مستعمرة المحاربين القدماء انشأها ترايانوس ، اما القوس المدعو بقوس ترايانوس ، هو بعد ذلك بقرن . وقد اتسعت المدينة وتجاوزت كثيراً السور القائم حولها ، دون أي تخطيط هندسي .

البصر الى الافق البعيد ، او من الحصن الذي كانت فيه والذي طالما ردعنها عاديات الدهر وطوارىء الزمن ، او من المعقل الذي كثيراً ما اعتصم فيه القائمون بانقلاب عسكري ، لتنبسط في السهل حيث تقوم ساحاتها العامة ومبانيها ومنازلها . اما المدن التي لا سبيل لديها لتغيير موقعها ، فقد قنعت باقامة احياء سكن جديدة لها . وكل هذه المدن كانت بحاجة ماسة للفراغ تشيد عليه من

المباني ما فيه حليتها وزينتها ، والدليل على ما تنعم به من يسر وازدهار ، والشاهد على سخاء وأريحيـة كبار المواطنين وسراة القوم فيها ، بعد ان تحققت منهم المنى والرغائب المادية وبالتالي الحضرية .

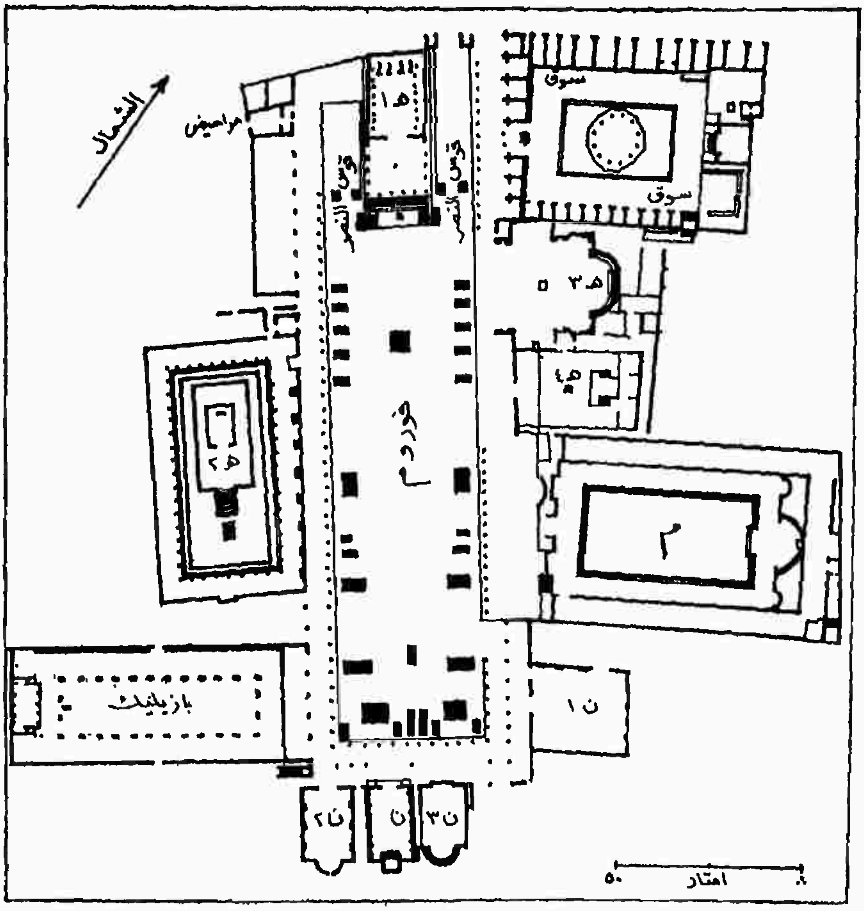

الشكل ١٨ – ميدان بومبيي

م ـ مبنى على اسم كونكورد اوغست وعلى اسم التقوى ، شيدته اوماخيا ، رئيسة نقابة القصارين ؛ كان يستعمل مقراً لهذه النقابة .

ن ـ الندوة ؛

ن ١ ، ن ٢ ، ن ٣ ـ مبان أخرى لاستعمال الادارة .

هـ ـ هيكل ؛ هـ ١ ـ الكابيتول؛ هـ ٢ ـ ابولون ، هـ ٣ ـ الآلهة المنزلية (؟) ؛ هـ ٤ ـ فسبسيانوس .

وقد يكون النموذج المثالي لهذه المؤسسات« المستعمرة »مدينة خططت وفقاً لترتيب هندسي فوق اراض طليقة استوحوا مقومات تخطيطها من الطراز المستوحى من معسكر للجيش . وهذا التخطيط الهندسي المربع الاضلاع يستلهم عموماً، المبادىء العامة التي انتهجها الاغريق في

هندستهم ، منذ القرن الخامس ق . م اضاف اليها الرومان ، بدافع من عقائدهم وتقاليدهم الدينية ، هاجس او ضاغوط الاتجاه ، بحيث يستطيع المرء ان يحدد ، في مدينة كمدينة ليون ، في غاليا ، مثلاً اليوم الحقيقي لتأسيس المدينة ، وذلك بملاحظة النقطة التي يلتقي عندهـا خط ينطلق من نقطة تقاطع الخط الرئيسي من هذه الطريق ، *Decumanus maximus* مع الخط الرئيسي للطريق ذي الاتجاه الشمالي الجنوبي ، حيث يجب ان تقوم الساحة العامة في المدينـة او الفوروم . وعلى موازاة هذه النقطة المركزية تنطلق خطوط كبرى وصغرى بحيث تتحدد معها مواقع القطاعات الاخرى . فالمباني العامة ذات الشأن تحتل من هذه المواقع مراكز غير قابلة للتغيير ، بحيث لم يعد موجب ليتكىء المسرح على منحدر هضبة او سفح تلة. وهذا النموذج القياسي تولى وضعه بالطبع مهندسون يعملون في مصالح حكومية خاصة .

الا ان تطبيق هذه الهندسة لا يمكن ان يأتي كامـلا ، على الوجه الاحسن ، الا في حالات المدن التي تنشأ دفعة واحدة بجميع مقوماتها وقطاعاتها . امـا تلك التي تنشأ حول معسكرات الجيش ، فتأتي عادة ، على غير نظام وانتظام وان كانت قيادة الجيش تسهر على هذه الضواحي وتنظيمها . فالتشويش لا يوجد الا في المدن القديمة ، او بالاحرى ، في الاحياء القديمة من هـذه المدن ، اذ ان الجديدة منها تضطر للنزول عند قواعد التنظيم المعمول بها . وهكذا ، فالمدينة المعروفة بمدينـة « هدريانوس » التي تقع الى الشرق من قلعة أثينا ، تنسجم تماماً مع قلعة مدينة تيزيه *Thésée* .

ونجد في معظم الاماكن ، اكثر من جو عائلي لاننا نواجه مباني من نموذج واحـد لا بد منه ولا مندوحة عنه لكل مدينة . في اي مدينة كانت ، نجد ميداناً (فوروم) هو قلب المدينة ، وباحتها المركزية ونقطة الجذب منها . وقد يشاد فيهـا ، احياناً منبر للخطابة يسمى عندهم *Rostres* ، كما هي الحال في روما ، مع ان المواطنين انقطعوا ، منذ زمان بعيد ، عن عقد مثل هذه الاجتماعات . ويقوم الى جانب الفوروم ، عادة ، ادارة المدينة (*Curie*) حيث يعقد المجلس البلدي جلساته ، كما تقوم البازيليك او النادي ، وعلى مقربة من الفوروم تقوم ايضاً السوق التجارية (هال) التي تتألف من مجموعة من المخازن ودكاكين الباعة ، في صف واحد . وفي الاحيـاء تنتصب هياكل ومعابد على شرف آلهة متنوعة . والمدن التي تود ان تأتي بالدليل على رومانيتها وتحرص على المباهاة بهذه العاطفة ، تقيم لها في مكان تختاره لهذا الغرض « كابيتول » اي هيكلا على اسم الإله جوبتير الكابيتولي ، او اكثر من واحد ، لعبادة : « روما ـ اوغسطس » او « اوغسطس » ، ولهذا وذاك من هؤلاء المؤلهين (*Divi*). والحاجة للملاهي تقضي بانشاء مسرح تكاد لا تخلو منه مدينة ، وكثيراً ما مدرج . ولا بد في كل مدينة من حمامات ، وملعب للالعاب الرياضية . اما المكتبة ، وأن كانت اقل انتشاراً من غيرها من هذه المؤسسات ، فهي موجودة ، مع ذلك ، في مدن عديدة . ويكتمل العقد النظيم اذا ما اضفنا الى هذه السلسلة القناطر المائية .

والفارق الاكبر بين مدينة وأخرى ، والمميز بينهما هو ما فيها من المباني الرسمية ، وما هي عليه

هذه المباني الرسمية من العظمة وغنى الزخرف والنقش . وعندما أُصيبت مدينة بومبيي بالخراب التام ، عام ٧٩ للميلاد ، كانت تعد ميدانين (فوروم) ، احدهما مثلث الاضلاع او الشكل وهو شيء غير عادي ، وعشرة هياكل ، بينها اثنان لعبادة الامبراطور ، وصالة للحفلات الغنائية (أوديون) تسع ٩٠٠ مقعد ، ومسرحاً يضم ٩٠٠٠ مقعد ، ومدرجاً يتسع لـ ٢٠٠٠٠ مشاهد ، وثلاثة حمامات ، وملعبين وغير ذلك من الانشاءات العامة . وبالفعل ، فقد كانت بومبيي مدينة غنية . غير ان القرن الثاني ، الذي هو عهد الأسرة الانطونية ، يؤلف العصر الذهبي للمدن ، التي راحت اذ ذاك ، تتنافس فيما بينها لتجميل معالمها ، كما كانت تحث مواطنيها على ان يتبرعوا ، في حياتهم او ان يوصوا ، بعد وفاتهم ، نقداً او عيناً ، بما يساعد على تشييد المباني . وهكذا راحت الميادين تزدان بأنصاب التماثيل ، كما راحت تمتد وتتسع ، وترفل بالرخام والمرمر ، وبأقنية لتصريف المياه ، حجارتها من المرمر ، شريطة ألا تكون مقالعه بعيدة كثيراً عن المدينة ، وبالأروقة القائمة على العُمُد بحيث يأمن المارّة حرارة الشمس صيفاً والأمطار شتاءً . وهكذا لا تلبث حصون المدينة وقلاعها ان تزول وتختفي معالمها . وقد يقوم احياناً اقواس للنصر مع ما لها من أرتاج ضخمة . كل هذا حدا بأحد الخطباء في آسيا الصغرى — مع ان مثل هذا المنظر ليس بغريب عن النظر في مدن الغرب — هو ايليوس ارستيدس ان يهتف قائلاً : « والظاهر ان العالم كله في شبه عيد ، فقد نزع عنه أثماله البالية ومباذله الرثّة المصنوعة من الجديد ليستسلم بكليته للحرية وللذة العيش . كل المدن تناست منازعاتها بعضها مع بعض ، او بالاحرى اخذت تتنافس بعضها مع بعض بحيث تحاول الواحدة منها بز الاخرى جمالاً وبهاءً وسناءً . أينما وقع الطرف ، وجد ملاعب واحواضاً للماء وادراجاً ضخمة ، وهياكل ، ومصانع ومشاغل ومدارس » . وبالفعل ، لا نجد مدينة من بين مدن الامبراطورية لا ترتدي ، بين عهدي ترايانوس ومارك اوريل ، حلة جديدة وزينة جديدة — كأنها تُسهم من جهتها في تجميل العالم الروماني ، بهذه الانصاب البيضاء من تماثيل وعواميد وملاعب بيضاء ... لا — كان ينقصها كما نقص الكاتدرائيات ، في زمانها ، هذا اللون الزنجاري الذي تُضفيه الاجيال والعصور على المباني .

الدارات *Villas*

استمرت حركة اتساع المدن وتجميلها ناشطة في عهد اسرة ساويرس . ومع ذلك ، سيراً مع سُنّة التطور التي تقتضي أن يهيء الحاضر المستقبل ، وألا يطلع شيء بالطفرة ، أطل منذ عهد الأسرة الانطونية شيء جديد . فقد وجدت المدينة نفسها ، وجهاً لوجه ، مع منافسة عرفت حظاً كبيراً ، هي « الدارة » . فقد جاء الحديث عنها في معرض الكلام عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية : فالملكية العقارية الضخمة اخذت تنتظم وحدة متكاملة متكافلة ، كما اخذ كبار الملاكين ينأون عن المدينة هرباً من هذه المراسم والاعراف والعادات وما تجره من مضايقات ، وتفادياً منهم للنفقات الباهظة التي كانت تفرضها عليهم مستلزمات الحياة في المدينة . فلنلقِ الآن نظرة دقيقة على جوهر الوضع الذي قامت عليه « الدارة » في الاساس .

بالطبع ليس المقصود هنا المنزل الريفي *Villa rustica* الذي كان يضم المباني اللازمة لاستثمار

الاقطان مع مساكن الشغيلة والعمال ، وغير ذلك من اصطبلات وصِيَرٍ ، ومزارب الخيل والمراتب ، والاهراء والمشاغل . فليس في هذه كلها مجال لمراعاة الذوق الفني والأخذ بأصوله والتقيد بقواعده : من عمارة وترتيب وتنظيم .فالشيء الذي يستبد بالانتباه ويستأثر به هومسكن صاحب هذه الاقطان . فهذه الدارة ، عند قيامها ، كانت تقع على مقربة من البيت الريفي ، بحيث يتاح لرب الارض مراقبة الاستثمار والاشراف على ما يجري فيه من اشغال واعمال . ليس من المفروض قط ان يقوم مثل هذا النزل في كل الاملاك والاقطان الكبيرة . ولكن لكل من هؤلاء الملاكين الكبار دارة واحدة ، على الاقل ، وقد يكون له أكثر من دارة أحياناً . أفلَم نرَ كيف ان بلين الاصغر كان له منها اربع : منها اثنتان في غاية الابهة والغنى ، احداهما بالقرب من مدينة اوستي ، والثانية في مقاطعة توسكانا .

عرف الشرق دوماًمثل هذه الدارات التي كانت عادة تقوم في وسط الاملاك الواسعة الشاسعة التي يملكها كبار الاقطاعيين ، اذ كان صاحب الارض يحرص دوماً على إقامة دارة له في قلبها ، يعيش فيها عيش السراة والنبلاء الإقطاعيين . وهذه النُزُل الريفية كانت تبدو كأنها حصون حصينة ، تحيط بها الحدائق الغناء حيث يتوفر القنص والصيد على انواعه ، تعلوها الابراج والقلاع . ليس عندنا فكرة قط عما كانت عليه بالفعل هذه الدارات في عهد الامبراطورية ، ولعلها قد تكون على شاكلة هذه الدور الافريقية المرسومة في بعض الفسيفساء .

واكثر النماذج شيوعاً وانتشاراً هو النموذج الذي أطل علينا فيمكان آخرمن ايطاليا.فاذا كان على الملاك الكبير فيشبه الجزيرة الايطالية ان يسكن بين املاكه واقطانه، فقد اتخذت الدارة ، قبل نهاية العهد الجمهوري ، طابعاً مستقلاً عن استثمار الارض . وقد اخذ الناس بالزي المستبد بالعرف : فراحوا ينشئون لهم مراكز للاصطياف ، بالقرب من شواطىء البحر او في بعض المواقع الجبلية ، ذات المناظر الطبيعية الفتانة ، من جبال اللاتيوم ، او في نقاط معينة مشهورة، مثل توسكولوم وتيبور.ففي عهد الاسرة اليوليو ـ الكلودية كان كل ابناء الطبقة الارستوقراطية العليا قد انشأوا لهم ، في هذه المراكز ، بيوتاً جميلة للغاية حيث تتوفر كل اسباب الراحة واللهو. وهذا النمط بعينه انتشر في الولايات الغربية اكثرمن اي نمط آخر ، لما يوفره لاصحاب الدارة وسكانها من هدوء وطمأنينة وسلام ، ولسيد الدارة ، من نفوذ وشأن بين سكان الريف ، حيث كانت تتم للسيد : المشارفة على مزارعه ومزدرعاته ، وتتوفر له كل اسباب الاستجمام والراحة .

فالدارة السكن ، وحدها مشروع قائم بذاته ومنهاج. والذي يتوق اليه صاحب هذه الدارة ويرغب فيه هو تقليد المنزل الثري في المدينة، بحيث لا يلبث ان يصبح هذا المنزلالدارة المفضلة . بالطبع ، ليس من المتوقع قط ، ان يكون عدد الوافدين والزائرين ، من صُحبٍ وخلان ، على نسبة ما هم عليه في المدينة ، كما تنقص بالتالي وتقل، علاقة سيد الأرض برجال الادارة وبالرسميين من ممثلي الحكومة . ولذا تصغر مساحة البهو أو صالة المنزل، ويُقتصر فيها على ما يؤمن لصاحب الدار ولذويه ، متعة الحياة وهناءة العيش الرخي ، كالاروقة المنتصبة على العواميد ، والحدائق

والرياض الغناء بعد ان اتسعت الأرض ورحبت منها الارجاء ، وعلى نسبة الموارد والدخل الذي يؤمنه الاستثمار لتوفير اسباب الراحة واللذة . ينفرج الرتاج عن غرف يزداد معها المنزل طولاً ، كما يزداد عرضاً بما يضاف عليه من اجنحة جانبية تقوم بينها افنية واسعة رحبة ، وأروقة مستطيلة. ويأخذ بعض سراة القوم بمضاعفة الغرف بحيث يتوفر بينها اكثر من ردهة للاستقبال، واكثر من غرفة للطعام ، والعديد من الغرف، لفصلي الصيف والشتاء، تجهز الاخيرة منها بشبكة للتدفئة على الهواء الحار . وكثيراً ما نرى في الدارة مكتبة عامرة بالكتب والمؤلفات مع كوى في الجدران، لاقامة الانصاب والتماثيل، كما نرى الحمامات. وتفرش ارضية الحجر بالفسيفساء كما يتدلى من الجدران رسوم وصور فنية. وكثيراً ما كانت الجدران والعواميد تُغطى بانواع فاخرة من الرخام الجميل كالبرفير، كذلك كانت تقام في الحدائق أكشاك تلتف حولها الاغراس المتعرجة يتخللها متنزهات وملاعب وميادين ، لضروب الفروسية على انواعها وسباق الخيل ، واحواض للسباحة وفستقيات تنطلق منهـــا المياه وأحواض لتربية الأسماك على أشكالها . ويقوم تحت تصرف سيد الدارة الكثير من العبيد والارقاء لتأمين أعمال الفلاحة والزراعة والاشغال الاخرى التي يتطلبها حسن استثمار الارض ، تحت اشراف وكلاء ورؤساء ورش ، مما يزيد من نفوذه وعلو شأنه في المنطقة حتى وفي المدينة القريبة ، فينصرف بعد انتهاء عمله الرسمي في الوظيفة ، أو بعد إحالته على التقاعد والمعاش ، الى العيش الرخي يستمتع بما تم له من نعمة سابغة وبما يوفره له غناه وثروته الطائلة من متع ذهنية ، ومسرات مادية .

وقد تختلف هذه الدارات التي عرفت منها ايطاليا عدداً كبيراً ، بعضها عن بعض بنسبة غنى اصحابها واخذهم باسباب الحضارة . ومن هذه الدارات الفخمة : دارة آل لورنتس ودارة آل توشي، التي خلد بلين الاصغر ذكرها من خلال الوصف الأخاذ الذي تركه لنا في رسائله المشهورة التي وضعها في عهد الاسرة الانطونية . امـــا في الغرب ، فالحفريات الأثرية التي جرت هناك ، كشفت لنا عن العديد من هذه الدارات في مقاطعات بريتانيا ، وريناينا وغاليا ، ويعود معظمها للقرن الثاني ، وهي بعد ، لم تبلغ الذروة في تطورها نحو التكامل ، كما لم تبلغ هذا البذخ الذي تم لها بعد ذلك . وهذا البذخ وهذه الابهة التي تجلت في الدارات الريفية يؤلف تكذيباً لمن يدعي وقف الحضارة وإقصارها على المدن دون سواها، انما يبدو في الريف اكثر فردية واثرة، واقتصر على طبقة معينة من الناس اقامت رخاءها على بؤس الشعب وشقائه .

خاتمة المطاف

يجب ان نوسع من نظرتنا الى الافق . فعندما لا تفرض الانجازات الفنية التي طلعت بهـــا مدنية ما، نفسها بنفسها، بما لها من قيمة جمالها ، فالفن يبقى لا قيمة له إلا بنسبة ما يؤلف عنصراً زخرفياً للبناء القائم. ليس من عجب قط ان نختم بحثنا هذا عن المجهود البنائي الزخرفي بملاحظات تتناول كل حضارة الامبراطورية الرومانية، في طورها الاخير .

حضارة نبلاء

بين هذه الملاحظات ، ملاحظة ليست بجديدة ، طالما سبق وأبديناها من قبل أكثر من مرة. فبالرغم من هذه النزعة الانسانية التي انبثقت عن هذه الفلسفات اليونانية بقيت هذه الحضارة ، قاسية ، لا ترحم ، شديدة الوطأة على الطبقات الاجتماعية الدانية ولا سيا على هذه الطبقات الريفية منها ، فسخرتها بلا رحمة لتأمين حاجاتها ولما نعمت بـه من كماليات. والحال ، فالكماليات استنفد انتاجها قدراً كبيراً من الوسائل التقنية المعروفة اذ ذاك، وفي سبيل تأمين هذه الكماليات ، هُدِر جانب كبير من ثروة الدولة ، وقدر كبير من الجهد البشري لتأمين رفاهية أقلية ضئيلة ولتوفير ما يضفي على حياتها : البهجة والغبطة والسرور ، او ما يؤمن لها زينة الدنيا ، دون ان يعود هذا الجهد وهذا الانفاق بشيء يذكر على تطوير وسائل الانتاج ، كما ان هذه الطبقات الكادحة لم تفد ، حتى في أكثر الحالات ملاءمة لها ، سوى شيء يسير من هذا كله. وبأحسن الحالات، لم تجد هذه الطبقات سوى درس ثقافي لم يُثر فيها على الصعيد الديني اية عاطفة او شعور يعوض عليها ما سَخَتَ به من عمل شاق. ففي مدينة بومبيي المزدهرة كما في روما الامبراطورية، نرى السواد الاكبر من المساكن والمنازل في حالة مدقعة من الفقر والقذارة . فماذا نقول عن أكواخ الفلاحين التي تكاد تخلو من الضروريات ، فلم يبق او يصلنا منها شيء ؟

وحدة واطراد

مشكلة التوازن لم تكن مشكلة النظام الاجتماعي الوحيدة . فمتى يا ترى ، فقدت هذه الوحدة قيمتها وأصبحت اطراداً ؟

فمن أشتات هذه الولايات المتباينة ، كونت الامبراطورية دولة، تولى الامر فيها رجل فرد ، كان من أولى واجباته نحو روما ، تحقيق مثل هذه الامبراطورية او السعي نحو هذه الغاية بعد ان تنكبت العهود الماضية عن تحقيق مثل هذا الامر ، او باءت المحاولات التي بذلت في هذا السبيل بالفشل، فكان ذلك كله مبرراً في نظره لمعاودة الكرة وتحقيقه. ولكي يؤمّن لهذه الدولة ، ما يلزم من قوة وسلطان ، راح هذا السيد المطلق يحاول ، عن سابق قصد وتصميم ، افراغ هذه الولايات الاقليمية في قالب واحد. فكتب له النجاح في ما يتعلق بالادارة وما يتصل بها ، وتدخل شخصياً لكي يزيد من قوه التطور الذي اخذت الامبراطوية باسبابه في المجالات الاقتصادية والاجتماعية ما لا يمكن لاحد نكرانه. إلا انه باء الفشل عندما راح يحاول تحقيق الوحدة الدينية لهذه المراسم وطقوس العبادة الرسمية ، وهي وحدة تمت فيا بعد لغير هذه الطقوس والعبادات . اما في المجال الفكري ، فالوحدة تحققت بالرغم من الازدواجية اللغوية . ولكن ماذا من الفن بعد هذا ؟

لا يستطيع احد ان ينكر ما تم من وحدة في هذا المجال . كذلك لا يصح اطلاقاً لأحد ان يتجاهل بعض الفروق والنزعات الاقليمية التي طبعت مظاهر هذا الفن. فاليونان وآسيا الصغرى وسوريا ومصر ، لم تكن اراضي جديدة او شبه جديدة ، كما كانت افريقيا واسبانيا او غاليا . ففي مصر، الامبراطور هو فرعون ، ولذا لا نراه يتنكر للفن المقدس . ففي عهد ترايانوس، أقيم

الكشك الذي اشتهر به هيكل فنليه . فبعلبك المشهورة باسم هليوبوليس ، وتدمر بما تم لهما من العمائر الفخمة، ومن الاعمدة الضخمة وما فيهما من وفرة الزخرف ، لا تشبهان بشيء، مدينة تمغاد او كولونيا. ومع ذلك ، فهذه الفروق زالت وانتفت امام هذه المُثل المشتركة التي هدفت كل المدن الرومانية لتحقيقها .

اما المشكلة الصميم ، فمشكلة هذا الغرب المتخلف عن ركب الحضارة. فلو عرف هذا الغرب ان يتدرج في اقتباسه ، بتؤدة وتمهل ، حضارة ادبية ومادية ، أقل ضغطاً وعنفاً من تلك التي فرضها عليه فاتح غاز ، بقوة السلاح ، انما كان استطاع ان يحقق مثل هذه الحضارة ، بالاعتماد على ما فيه من طاقات اصيلة كامنة ؟ فالفضل في إثارة مثل هذا الشك يعود لكميل جوليان الذي عرف ان يقف وحده ويعارض نظرية تقليدية استبدت بالمؤرخين . وعلى شاكلته ، يمكن لنا ان نفترض طلوع حضارة اسمى بكثير من هذه المدنية الغالو ـ الرومانية ، كما يجوز لنا ان نفرض طلوع مدنية اسبانية واخرى افريقية .

ولكن ، هذه كلها افتراضات من وحي الخيال ، واحلام خطرت في البال .

حضارة العهد الأمبراطوري الثاني

(القرنان الثالث والرابع)

لقد أطلق على هذا العهد اسم العهد الامبراطوري الثاني : ولا يعني هـذا الاطلاق سوى التوقيت الزمني فقط .

ليس هذا العهد محدوداً بتواريخ واضحة . وليس في بدايته وفي نهايته ما يتصف بجلاء تلك الوثبات السياسية ـ الحروب الميدية ، حملة الاسكندر ، الحروب الاهلية التي لقب اوكتافيانوس عنده نهايتها بـ « اوغسطس » ـ التي تعين او ترافق احياناً ، اتجاهاً جديداً في الحضارة العامة يراه المعاصرون أنفسهم . فمتى ينتهي العهد الامبراطوري الاول يا ترى ؟ كثيراً ما يلحق به عهد سلالة ساويروس (١٩٣ — ٢٣٥) ، مع ان التجديدات التي حققها هذا العهد أعظم عدداً وتأثيراً في نظرة هذا المجلد الشاملة ، من ان لا نؤثر على هذا الحل حلاً آخر . ولكن الاخذ بهذا الرأي لا يعمي بصيرتنا عن الاعتراضات التي يثيرها . وهنالك سؤال أكثر دقة ايضاً لأن الهامش فيه أعظم اتساعاً: أين ينتهي العهد الامبراطوري الثاني ، أي الامبراطورية نفسها ؟ هل في السنة ٣٩٥ ، تاريخ وفاة آخر امبراطور مارس وحده السلطة على مجموع العالم الذي احتلته روما في ما مضى ؟ ام في السنة ٤٧٦ حين فقد الغرب آخر امبراطور له الحق في هذا اللقب ؟ ولكن تواريخ أخرى قد اقتُرحت ايضاً ، منها ما يسبق هذين التاريخين ومنها ما يتوسطهما ومنها ما يتأخر عنهما . واذا ما اقتصرنا على التاريخين الاولين اللذين يجمعان حولهما العـدد الأكبر من الانصار ، فالمجادلات ابعد من ان تهدأ حول الأهمية الحقيقية او الرمزية للحدثين الاول والثاني وحول وعي المعاصرين لهذه الأهمية فوراً او بعد حين . لذلك فالافضل ألا نختار حتى نحتفظ بحريتنا ، عند الحاجة ، في ان نتخطى قليلاً او كثيراً حدود القرن الخامس .

وليس هذا كل ما في الأمر ولا أخطر ما فيه . فما هو مفهوم العهد ؟ هل هو العصور القديمة المتأخرة ام هو مقدمة القرون الوسطى ؟ غالباً ما يختار كل مؤرخ بحسب أصوله الشخصية ، وكل مؤرخ على حق في ما يفعل : فتتفكك العصور القديمـة تدريجياً وتشيّد الاسس ، الزمنية او

الروحية، لما سيغدو القرون الوسطى ، لا سيا اذا ما درسنا هذه الاخيرة في بيزنطية . كل ما هو بشري ينطوي، في كل آن، على بعض القديم وبعض الجديد . بيد ان العهد القديم ، في ما يعنينا ، هو الذي لا يزال حياً في جوهر مفهومه للانسان وللمجتمع الذي يحاول التكيف حتى لا يدركه الفناء .

نحن نسلّم جدلاً ان في ذلك تجاوزاً زمنياً . ولكن المهم ليس في ذلك . فمن السهل جداً ، لا بل من الفطري جداً ايضاً، ان نرى في هذه الامبراطورية، «المتأخرة» زمنياً ، وفي حضارتها، الاشكال الذابلة والمريضة وحتى الميتة لحقائق سابقة سليمة . بيد ان هذه الحقائق ليست سليمة بهذا المقدار ، واما « روماني الانحطاط » فلا وجود له إلا في مخيلة الرسّامين والشعراء . فهو ليس براء من المعاضل الجديدة او المتزايدة خطورة التي عليه ان يواجهها فحسب ، بل انه لا يبدو أقل نشاطاً ولا اقل ابتكاراً من أسلافه في محاولة حلّها . اجل ان من يدرس العهد القديم ويراه يلتج هذا القدر من الآراء التي لا يزال العالم المعاصر يتغذى بها ، لا يستطيع الامتناع عن ابداء حكم ازدراني امام اهمالها التدريجي . ولكن من يرى آنذاك ايضاً كل تعلقه بالحياة ومقاومته لهجوم القوى المضادة لا يستطيع الامتناع عن ابداء شعور اعجاب بهذه الحيوية المستمرة. امانحن فلنحاول تجنب حكم الاول وشعور الثاني، فالرؤية والفهم هما اهم بكثير من توزيع المديح والمذمة.

الفصل الأول

أزمة القرن الثالث

في شهر نيسان من السنة ١٩٣ أعلن جيش بانونيا سبتيموس ساويروس امبراطوراً ؛ وفي شهر ايلول من السنة ٢٨٤ ، نادى الجيش الذي حارب الفرس بديوكليسيانوس امبراطوراً ايضاً . ان هذين التاريخيين يحدان عهداً — هو القرن الثالث اجمالاً — مليئاً ببوادر ازمة متعددة الاشكال ينجم عنها العهد الامبراطري الثاني . فليست الوثبة السياسية والعسكرية اذن نادرة الحصول بين هذا العهد الاخير والعهد الذي سبقه . غير ان استطالة هذا العهد النادرة وحدها قد تهيب بنزع هذا الطابع عنه ، فليس من معاصر عاشه كله ؛ وليس من معاصر ذاق آلامه النفسية المبرحة كلها ، الموزعة في الزمان والمكان . وليس من معاصر استطاع التخلص من خداع الوقفات المضحكة التي تخللته ، وليس من معاصر استطاع بالتالي استخلاص معناه الحقيقي . ولكن اكتشاف وحدة العهد يسهل امره اليوم على من لا يتلهى بالاحداث العارضة ، ولجموع هذه الحوادث من الاهمية في تطور الحضارة العام ما جعل هدف هذا الكتاب بالذات يفرض تحديد مظاهره الرئيسية .

نحن لم نخف قط ان التوازن الذي حققه العهد الامبراطوري الاول كان توازناً مترجرجاً : وان الصعوبات التي برزت في القرن الثالث هي بالضبط ما اتاح في اغلب الاحيان استقصاء وتبيان جراثيمها في القرنين الاولين . كانت مجرد جراثيم آنذاك وكان بالامكان ان تجهض . ولكنها نمت شيئاً فشيئاً . وجاءت الظروف والإعداءات تعطي الأزمة اتساعها الفائق . فبدا العالم الروماني، بعد أن عاش عدة قرون عيشة مشتركة ، وكأنه يتفتت جاراً في انهياره الحضارة التي وفر لها الاطار .

الفوضى العسكرية

ان اول جرثومة اختمرت وخلقت البلبلة التي افادت منها كافة الجراثيم الاخرى هي الخطر العسكري الداخلي . وهي اخطر جرثومة حقاً لانها استهدفت القاعدة نفسها لنظام نشأ عن انتصار الاقوى خلال الحروب الاهلية . وهي اقل ما جهله الرومان من الجراثيم : فقد سبق وبرهنت عن مفاسدها خلال ازمة السنتين ٦٨ ــ ٦٩ . لذلك اتخذ ضدها

المزيد من الاحتياطات : وكان تلافي شرها السبب الموجب للنظام الذي اعطته سلالة الانطونيين طيلة قرن تقريباً ، دوام الحياة وسنى العظمة .

اقلع الرومان ، منذ ترايانوس ، عن سياسة الفتح حادّين جهد المستطاع من دور الجيش . واتخذوا حينذاك ، بنوع خاص ، من الخلافة بالتبني ، مبدأ وعقيدة واعتمدوها مستفيدين من ان بعض الاباطرة قد ماتوا دون ان ينجبوا اولاداً . فاتاح ذلك اختيار الاجدر بغية التأثير على القادة قبل الجنود .

غير ان الاحداث اخذت على نفسها ، حتى قبل وفاة مارك — اوريل ، اظهار ركاكة هذه الاحتياطات . فعلى الرغم من تصميم روما على السلم ، جدّدت مبادرة العدو الخارجي عهد الحروب الكبرى التي اعادت للجيش شعوره بقوته الحقيقية . فبرهن اقدام اوفيد كاسيوس على اغتصاب السلطة ان القادة ما زالوا معرضين للتجربة وقضى اخيراً انتقال السلطة الى كومودوس على ما في نظام التبني من ابهام : كان من شأن الوراثة ان تبرز ، وقد ابرزت فعلاً مرة اخرى ، اباطرة غير جديرين جازت ضدهم ، بعد قطع اي امل آخر ، كافة المؤامرات .

وهكذا فان اغتيال كومودوس قد اعاد الى الجنود ، منذ السنة ١٩٢ ، حق اختيار الامبراطور . فاسرع رجال الحرس ، لا سيما وهم في خير مركز بفعل وجودهم في روما ، الى وضع لقب الامبراطور ، في مزايدة علنية بين طامعين : يختارون بينهما ذاك الذي يعتلي جدار معسكرهم ويعدهم باعظم عطاء ، اي ما يعادل ٦٠٠٠ درهم للجندي الواحد . ثم جاء دور جيوش الولايات التي تعلن قائدها امبراطوراً ثم تحارب احداها الاخرى وتتجه نحو العاصمة لفرضه فيها . خرج سبتيموس ساويروس منتصراً من المباراة الاولى وبدا انتصاره بشيراً بتنظيم المستقبل . فخلفه ابناؤه ، ودامت سلالته ، ببعض الصعوبات احياناً ، اربعاً وعشرين سنة بعد وفاته . ولكن اغتيال آخر انسبائه ، في السنة ٢٣٥ ، كان فاتحة نصف قرن من الفوضى العسكرية نصّبت الجيوش فيه وعزلت عدداً كبيراً من الاباطرة . فعدد هؤلاء اكثر من ان يحصى ، وان المصادر الادبية التي حاولت احصاءهم لم تأتِ على ذكر بعضهم : ولولا بعض النقود المضروبة باسمهم ، لجهلنا وجود بعضهم . فنادرون لعمري الاباطرة الذين استمروا في منصبهم بضع سنوات . وان غاليانوس الذي اعترف به امبراطوراً في روما لمدة ١٥ سنة ، منها سبع بالاشتراك مع والده ، قد تفوق على كافة الاباطرة الآخرين بطول ولايته ؛ ولكن اقاليم كثيرة لم تخضع له . اما اسعدهم حظاً بعده ، اوريليانوس وبروس ، فلم يتجاوزا خمس او ست سنوات . وكان نصيب الاكثرية الساحقة بضعة اشهر فقط ، ولم يعش احدهم ، بعد المناداة به امبراطوراً ، سوى ثلاثة ايام . اما موتهم فقد كان ما يجب ان يكون . فمنذ كومودوس حتى ديوكليسيانوس مات احد الاباطرة اسيراً في بلاد اجنبية ، وآخر متأثراً بضربات العدو ؛ واثنان ، احدهما سبتيموس ساويروس ، مصابين بمرض خلال العمليات الحربية ، وسمح اوريليانوس بتنازل منه لا نظير له ، للعظماء الذين استعاد منهم تدمر وغاليا بان يعيشوا ويموتوا بسلام في ايطاليا ؛ ولكن الباقين دون استثناء ماتوا

ضحايا اقاربهم او ضباط اركانهم أو جنودهم او جنود احد منافسيهم

ان الفكر يكل والعقل نفسه يتيه حين نحاول جمع وترتيب التفسيرات التي توفرها المصادر — ويحدث ان تستغني عنها — لاختيار وزوال حظوة هؤلاء الاباطرة المتعاقبين ، والحاكمين غالباً في آن واحد . فالجيوش تنتخب طامعاً سخياً بالأعطيات الحقيقية الفورية ، او بالوعود ، وقائداً يوحي لها الثقة بان يقودها الى النصر ، واي شخص آخر تقريباً في بعض الاحيان ، كما لو كان ذلك بدافع اناني ، رغبة منها بالاقتداء بالجيوش المجاورة . ثم تقتل بمثل سرعتها في الانتخاب ، بسبب فشل أو خيبة أمل ، أو شدة قصوى في النظام أو مجرد هوى ، حتى توفر لنفسها اللذة والكسب في انتخاب الخلف . والانتخاب يوازي الحكم بالموت : فاذا امــل البعض في التغلب على القدر ولم يتراجعوا امام الدسيسة ، فان البعض الآخر ترتعد فرائصهم خوفاً ولا يقبلون الا تخلصاً من الموت الفوري . ويحدث احياناً ، في هذه السلسلة الطويلة من الاغتيالات ، ان يتغلب الوجه المضحك الغليظ على الوجه المسرحي المنفر : فهي توفر لو ان المصادر اكثر تصريحاً ، حقلا دراسيا واسعاً للشغفين بالسيكولوجيا الخاصة بالجماعات .

لنغض الطرف هنا عن أوجــه الزيفان ، مفتنة كانت ام غير مفتنة . ان هؤلاء الرجال ، المخشوشنين بفعل منشإهم ، يسكرون بقوتهم ولا يتقيدون بالنظام في غالب الاحيان . ولكن انفلات هيجانهم الصاخب والاولي يعبّـر ، كما نرجح ، عن اندفاع قوى عميقة سنحاول فيما يلي تحديدها . ولا يجوز ان نغفل ان هؤلاء الرجال انفسهم ، وفي الوقت نفسه ، يرضون بالقيــام بجوهر واجبهم . انهم يتحاربون بــين جيش وجيش ، ولكنهم يحاربون العدوّ ايضاً . ويعرف رؤساؤهم عند الحاجة، وهم المستفيدون من هذه المتافات والمقدمون على هذه الاغتيالات ، كيف يعطون المثل في الحزم الانساني وفي القسوة على السواء . وهو الجيش ، في آخر المطاف ، مــن خلّص الامبراطورية بعد ان اسهم في ايصالها الى شفير الهاوية . وتكفي هذه الملاحظات لاقصاء النظرية الساذجة القائلة بجنون جماعي لا يعقــل ، على كل حال ، ان يدوم بهذا الاستمرار طيلة قرن تقريباً .

الخطر البربري

ان الخطر البربري، الذي شجعته فوضى حوّلت الجيش عن مهمته الحقيقية والذي شجعها بدوره لأن تهديده ربط السلامة العامة بحسن ارادة الجنود ، قد ارتدى بسرعة فائقة طابعاً خطيراً مخيفاً . كان العهد الامبراطوري الاول قد حمى العالم المتمدن منه : فوقف في وجه الغزوات ، وحرس الحدود بتيقظ ، وطوّق وراقب نقاطاً نادرة برزت فيها وادر الشقاق داخلي . فجاء هذا الحل منطبقاً على عالم بربري هادىء نسبياً . ولكنه ما لبث ان أثبت عدم فعاليته حين اخذت تهز هذا العالم، مرة اخرى ، تيارات عنيفة ، منذ عهــد مارك اوريل : ففي السنة ١٦٧ ، اتاح اختراق خط الدانوب لبعض جماعات تضمّ ، في ما تضم ، كواديين وماركوماڤيين ولومبارديين ، اجتياز جبال الألب وبلوغ منطقة فينيتيا . فكان

ذلك ، اذ ما استثنينا بعض عهود مصر الفرعونية ، نهاية أمتن وأثبت أمن عرفه مجتمع قديم : نهاية « السلام الروماني » الذي تفتحت في ظله ، طيلة قرنين ، حضارة العالم الروماني .

اشتد ساعد شعوب صغيرة ، أهملت عن قصد حتى ذاك العهد لأن احتلال جبالها او صحاريها بدا باهظ الثمن قليل الفائدة . وفي داخل الامبراطورية نفسها تجمع واهتاج بعض المستائين ممن أثقلت كاهلهم الحياة النظامية التي ارادت الادارة فرضها عليهم ، وبعض الريفيين البؤساء ممن ضحي بهم لأجل عظمة المدن. وابان الحروب الأهلية التي اسندت السلطة الى سبتيموس ساويروس ، خلق اشتراك قائد جيش بريتانيا في التنازع واستعانته بأفضل جنوده بغية تحقيق آماله في غاليا ، وضعاً أسرع الجبليون الشماليون الى استغلاله على الفور ؛ وتوفي سبتيموس ساويروس في ايبوراكوم *Eburacum (York)* اثناء حملة لم تنجح في استعادة سور انطونين بشكل حاسم : فاعتبر الرومان انفسهم سعداء اذا استطاعوا الاحتفاظ بسور هدريانوس . وارتدى مثل هذا الطابع من السرعة التطور في افريقيا ايضاً حيث قطع البرابرة العصاة خطوط المواصلات بين الموريتانيتين بموازة جبال الريف وغامروا بغزوات بحرية حتى على الشواطىء الاسبانية . وما لبث البليميون كذلك ان هددوا مصر العليا عند عالية الشلال الاول ، وايزوريتو جبال طوروس ، آسيا الصغرى الجنوبية .

ولكن ما ذكرنا ليس سوى مناوشات لا شأن لها بالنسبة للأخطار الجديدة الكامنة في اوروبا الوسطى والشرقية من جهة ، وايران وبلاد ما بين النهرين من جهة ثانية .

اوروبا الوسطى والشرقية

فقد أخذت تحركات بعض الشعوب ، وهي تحركات واسعة وغامضة ، تقلق السهول الاوروبية الشاسعة . ويغلب على الظن ان مصدر هذه التحركات لم يكن آسيا الوسطى بعد ، بل يبدو بالتفصيل انما بعثها ، في القرن الثالث ، هو نزوحات انطلقت من سواحل بحر البلطيق ، فافضت بالقوط *Goths* جنوباً حتى نهر الدون ، وبحر أزوف . فغلى العالم الجرماني ، بفعل تجمعه في الغرب ، طامعاً بثروات العالم الروماني ، وعاجزاً ايضاً ، في ارض اسيء استثمارها ، عن تغذية شعوب يستنهضها مثل اعلى قاس هو مثل المحارب المرتبط إقتساماً لرئيس اختير طوعاً ولا تقبل بالتنظيم الا في سبيل الحرب .

نحن نجهل التفاعل الذي حدث . فقد زالت قوميات قديمة وبرزت اخرى جديدة . وحدثت انصهارات لمصلحة شعوب كانت وضيعة جداً في الماضي . وتعلم سكان الامبراطورية ، بذعر يبرره الاختبار ايما تبرير ، معرفة اسماء جديدة لشعوب لا يهدّها ولا ينهكها شيء : الساكسون ، المستوطنون جوار مصب نهر الإلب ؛ والفرنك *Francs* المستوطنون ضفاف نهر الرين السفلي والاوسط ؛ والألامان *Alamans* المستوطنون ضفاف الرين العلوي والدانوب العلوي ، وقد دفع بهم الى الامام البورغوند والفاندال ، بينا اهتاج الكارب والسارمات الإيازيجيين ، على طول نهر الدانوب وحدود آسيا ، بعد ان حرّكهم القوط والهيرول *Hérules* .

اختل اذ ذاك حبل الأمن في كل مكان ، وباستمرار تقريباً ، حتى داخل الحدود ، منذ موت سبتيموس ساويروس. فقام الساكسون بأعمال القرصنة ، حتى في بحر المانش ، وعلى شواطىء المحيط . وحدث ان اجتاز الفرنك غاليا ووصلوا حتى اسبانيا . ودخل الألامان ايطاليـــا ولم يهزموا الا في بافيا . واجتاز القوط تكراراً نهر الدانوب بغية غزو تراقيا تارة ومويسيا واليونان

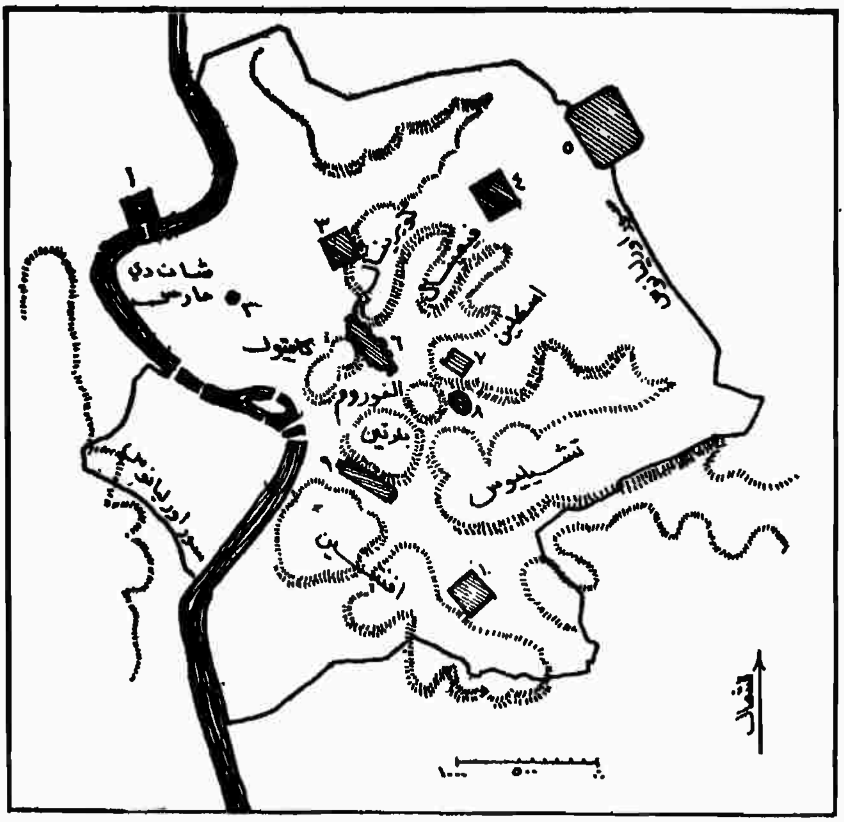

الشكل ١٩ ـ روما في القرن الرابع

احاط سور اوريليانوس بمساحة ١٣٧٢،٥ هكتاراً ، في حال ان مساحة مدينة ارغسطس قد بلغت ١٧٨٣ هكتاراً . ١ ـ ضريح هدريانوس ؛ ٢ ـ الزون ؛ ٣ ـ حمامات قسطنطين ؛ ٤ ـ حمامـات ديوكليسيانوس ؛ ٥ ـ معسكر الحرس ؛ ٦ ـ ساحات عامة امبراطورية ؛ ٧ ـ حمامات ترايانوس ؛ ٨ ـ مسرح فلافيانوس (كوليساوس) ؛ ٩ ـ ميدان سباق العربات ؛ ١٠ ـ حمامات كراكلا .

تارة اخرى . واندفعوا نحو البحر الاسود ايضـاً وعاثوا فساداً في البوسفور وبحر مرمرة وبحر ايجه نفسه ونهبوا المناطق الساحلية : فاحتلوا افسس وحاصروا تسالونيكي،ولكن اثينا قاومتهم.

عبثاً بذل أباطرة كثيرون مزيداً من الجهد او لاقوا حتفهم في مقاومتهم . اجل غالبـاً ـ لا دائماً ـ ما حققوا النصر في المعارك بين الجيوش وحملوا الالقاب المجيـدة ، ولكن زمن ماريوس وقيصر ، حين كان باستطاعة روما افناء الجرمانيين ، قد ولّى . وقد توجب اكـثر من مرة ،

منذ ذاك العهد التخلي عن بعض الحقوق وشراء الانسحاب بالمال وبوعد باطل بالهدوء لقاء فريضة سنوية . ثم عمّت طريقة أعطى مثلهـا العهد الامبراطوري الاول : فمن حيث ان اليد العاملة الزراعيـة تصبح نادرة في المناطق التي تجتاحها الحرب ، اقيم البرابرة في الاراضي الرومانيـة وأخضعوا لنظام عطوف نسبياً. واستخدم بعض الاباطرة زمراً أجنبية مأجورة بغية تقوية جيشهم.

ولكن كل ذلك لم يجدِ فتيلاً . استمرت العاصفة حتى ديوكليسيانوس ، فاقفرت الأرياف ، واضطرت المدن الى الانعزال داخل اسوار محصّنة أسرعت الى بنائها أو الى ترميمها: وأحيطت روما نفسها ، في عهد اوريليانوس ، بالأسوار ، متخلية عن بعض الضواحي التي ضمها اوغسطس الى تنظيمها الاداري ، ومستندة في تحديد مكان الأسوار الى أبنية سابقة . وحين عـاد بعض الهدوء ، في اواخر القرن الثالث ، كان الثمن تضحيات اقليمية ملموسة : فقـد أخليت أقاليم الحدود الملحقة بأملاك الدولة ، كما اخليت داسيا نهائياً . وتراجع الدفاع عن الامبراطورية من ثم الى الرين والدانوب ، حيث ركّزه اوغسطس : فحدث للمرة الاولى ان اجلي ، على غير أمل بالعودة ، عن اراض راسخة الاحتلال .

الشرق
الفرس الساسانيون

ربما كان من الممكن أن تبدي الامبراطورية مقاومة أجدى ، لو لم تضطر في الوقت نفسه الى مقاومة عدوّ رهيب : وهي لم تغامر قط ، خـلال القرنين الاولين ، في خوض عدة حروب كبرى في آن واحـد لأنها كانت عالمة بعجزها عن تعهّد الجيوش التي تفرضها هذه الحروب. وها هي منذ الآن مرغمة على ذلك.

كان عدوها على الفرات ، حتى ذلك العهد ، المملكة الفارتية : جار سجس ، قادر على شن الغارات الجريئة ، وعدوّ يصعب اللحاق به في فلوات يسهل فيها هرب فرسانه ، ولكنه قليل العناد في الهجوم والعداء العقائدي للحضارة اليونانية التي أخذت روما على نفسها الدفاع عنهـا في هذه المناطق ، وخصم ضعيف ، خصوصاً بفعل السهولات التي يوفرهـا للدسيسة الأجنبية تراخي أجهزته ، وجموح امراء العائلة الملكية وكبـار الأشراف . وقد أحرز عليه سبتيموس ساويروس ، بعد جهد عسكري عظيم ، انتصارات مدوية ، واحتل في اعقاب ذلك ولاية ما بين النهرين ، أي ما يقارب نصف البلاد المنبسطة بين منعطف الفرات ودجلة .

تبدّل الوضع بعد ذلك بزمن قصير . فقد برز تيـار قومي ، يستغل زوال الحظوة الذي استحقته السلالة الارساسية بفعل هذه الهزائم ، ويساند تمرد نبيل فارسي يدعي انـه حفيد الاخمينيين . جاء النجاح كاملاً في السنة ٢٢٤ : زالت المملكة الفارتية من الوجود وحلت محلها المملكة الفارسية بقيادة السلالة الساسانية. فطمعت هذه الاخيرة في استعادة امبراطورية داريوس الاول ، من الافغانستان حتى المتوسط . اجل انهـا لن تبلغ ما تصبو إليه . ولكن المملكة الجديدة اعظم قوّة الى حـد بعيد من سابقتها . لجأت الى حصرية حقيقية ، ارغم الأشراف بموجبها على الاخلاص وازدادت موارد الملك . أضف الى ذلك ان الديانة المازدية التي اعتمدت بتصلب متعصب قد وفرت للروح الوطنية قوامها وكيانها . وتمتع كهنوت المجوس بتنظيم رسمي

وبامتيازات ، فقدم للملكية عضداً فعّالاً . وغدت الملكية من ثم متحدة بذات حضارة هي العدو اللدود للحضارة المتوسطية .

لم يلبث الرومان ان ادركوا خطورة التبدل . فقد تعرضت بلاد ما بين النهرين لهجمات متكررة ؛ واخضعت ارمينيا حيث استطاع أحد الارساسيين المقاومة اولاً ؛ واجتيز الفرات اكثر من مرّة ، وغزيت سوريا ، وسقطت عاصمتها انطاكية . وجاء دور كيليكيا وقبادوقيا *Cappadoce* اخيراً حين حدثت ، في السنة ٢٦٠ ، الهزيمة النكراء النادرة : انكسار وأسر فاليريانوس ، الامبراطور منذ سبع سنوات بالاشتراك مع ابنه غاليانوس، على يد « ملك الملوك » سابور الاول (شاهبور الايرانيين) . فأمر هذا الاخير باعداد نقوش ناتئة ضخمة تمثل الامبراطور متصاغراً ، جاثياً أمام الظافر . وتوفي فاليريانوس في الاسر . ويروي التقليد المسيحي، الذي حقد عليه حقداً شديداً، ان جثته حشيت بالتبن وصبغت باللون الاحمر، وعلقت في احد المعابد: غير ان الرواية غير مقبولة، أقله فيما يتعلق بهذه الناحية، لأن المازدية لم تشيد معابد حقيقية. ومهما يكن من الامر، فقد كان للكارثة الرومانية دويّها البعيد في الشرق، ولم تتمكن الامبراطورية من استعادة بلاد ما بين النهرين إلا قبيل جلوس ديوكليسيانوس على العرش .

أخطار الانقسام

ان الحكومة المركزية ، أو بالاحرى الحكومة التي اطلقت على نفسها هذا الاسم ، لانها سيدة روما ، قد عجزت ، بفعل مواجهتها الصعاب العديدة والخطيرة ، وبفعل الانقلابات العسكرية المستمرة التي شلتها ، عن الوقوف في وجه الخطر الخارجي الماثل ابداً في كل مكان . كان عجزها من ثم عاملاً جديداً من عوامل الفوضى. فضعف تضامن الامبراطورية الضروري للدفاع عنها على يد مسؤول واحد يقدر المهام اللازبة نسبياً بغية تكييف توزيع الموارد عليها. وملّت بعض الجيوش والمناطق تقديم المساعدة لغيرها بالرجال والضرائب، بينما احدقت بها الاخطار من كل جهة. وبرز زعماء محليون متفاوتون جسارة في البدء، يغريهم التحرر باستثمار الخدمات التي يؤدونها للسكان والهزائم التي يمنى بها الامبراطور المعترف بسلطته في غير مكان. فدب الانقسام الى جسم الامبراطورية في تفتت الدفاع الاناني وفي استقلال الاقاليم الدائرية المتروكة لأمرها .

ومما يدعو الى الدهشة ان هذا الانقسام لم يكن أشد بروزاً بفعل قوّة الاسباب ومؤاتاة الظروف التي من شأنها تطوير هذا الانشقاق بسرعة . فان النطاق الضيق الذي برز فيه ، اذا ما قورن باتساع الاراضي الرومانية، لدليل على فعالية عمل الالتحام الذي قام به العهد الامبراطوري الاول . ولمقاومة مثل هذه الازمة ، يجب ان يكون العالم الروماني قد حقق في السابق وحدة أدبية مستقلة عن الوحدة المادية التي أصبحت الآن أثراً بعد عين . فهو قد اجتاز دونما انقصام مرحلة الحروب الأهلية التي طبعت آخر العهد الجمهوري بطابعها الخاص . ولكن العاصفة كانت أقصر زمناً ولم تلابسها الفوضى العسكرية ولا الهجمات الخارجية الجدية . فعند نهاية القرن الثالث بالذات يمكننا حقاً تقدير متانة مركب متعدد الاجزاء اوجده الفتح وألحمه ملاط وحدة الحضارة.

أضف الى ذلك ان ما يلفت الانتباه هو ان الدولتين الهامتين اللتين قامتا على اساس اقليمي واسع ودامتا بعض الوقت ولعبتا دوراً غير عرضي لم تقوما بمحاولات انفصالية حقيقية .

يطلق عادة اسم « امبراطورية الغاليين » على تلك التي حكمها بوستوموس ثم تيتريكوس خلال خمسة عشر سنة تقريباً ، في اوائل النصف الثاني من القرن ، في جو سلام عكره أكثر من حادث خطير . وينطبق الاسم عليها ، لعمري ، مع انها تمتد الى بريطانيا ، والى اسبانيا مؤقتاً ، ومع انها لا تشمل غاليا الناربونية التي لم تنفصل عن ايطاليا . فهي تكرس القوى التي تجمعها للدفاع عن خط الرين والساحل الغالي غير مبالية باجتياز نهر الرون وجبال الألب. ولكن هذه الامبراطورية تبقى رومانية ، ومن المحال البحث عن أي أثر للقومية الكلتية في أسيادها الذين يعينون القناصل ويحملون الألقاب الامبراطورية التقليدية ويدوّنون على نقودهم الاساطير القائلة بأزلية روما .

اما الدولة الاخرى التي قد تثير الشبهة فهي تلك التي قامت في جوار واحة عربية سورية ، تدمر السامية ، او بلميرا . جمعت ثروتها بفضل تجارة القوافل . وكانت في القرن الاول تابعة للامبراطورية ثم ضمت الى ممتلكاتها ، ثم انعم عليها هدريانوس بنظام تطور مع الزمن حتى غدت مستعمرة . وكانت تختار مجلس شيوخها بين افراد ارستوقراطية من التجار المضطرين للدفاع عن قوافلهم ضدّ غزاة الصحراء ، والطامحين الى حق المواطنية الرومانية . وفي القرن الثالث احدث فيها الخطر الفارسي القريب تطوراً نحو الملكية . فكان الاباطرة سعداء جداً بتشجيع هـذا التطور لأنهم اكتشفوا في زعماء احدى العائلات الكبيرة مواهب عسكرية اسرعوا الى استخدامها لا سيا غداة هزيمة فاليريانوس وسقوطه في الاسر . وفي الواقع قام اذينة بنجاح بهجوم معاكس على سابور : فاستحق اللقب الملكي وحظي بألقاب رومانية على بعض الغموض . وفي السنة ٢٧١ اخيراً ، صممت ارملته زنوبيا على القطيعة ، بعد ان اتضحت لهـا استحالة كل تسوية ، فحملت اللقب الامبراطوري وحمّلته ابنها الذي كانت تحكم باسمه . فسيطرت تدمر آنذاك على الشرق الروماني أي على سوريا ومعظم آسيا الصغرى ومصر . في هذه المدينة التي أتمت تشييد أبنيتها الفخمة في قلب الصحراء ، ازدهرت في ذاك العهد حضارة مختلفة ، هلينية وسامية في آن واحد، وبحملة بالحياة الفكرية بفضل وجود الفيلسوف والخطيب لونجينوس في بطانة زنوبيا، الذي سيموت ضحية القمع الروماني ، وعاطفة على مذهب توحيد الآراء الدينية الذي شجّعه ، على ما يبدو ، مستشار الملكة الثاني، مطران انطاكية، بولس الساموزاطي الذي حكم عليه اخيراً بجرم الهرطقة. فمن ذا الذي سيستطيع يوماً كشف سر الاحلام التي راودت زنوبيا ، احد تلك الوجوه النسائية التي يحيطها الشرق بسرابه والتي تسحر المخيلات المعجبة ، على غرار « الجواهر المفقودة في تدمر القديمة » ؟ ولكن يكفي ، لاظهار قوّة الطابع الروماني على « الملكة الشهيرة والتقية سبتيميا باترابای » — او على مواهبها كممثلة مهازلة — ان نلفت النظر ، وفاقاً لما جاء في « التاريخ الاوغوسطي » الى انها كانت تخطب في الجماهير على طريقة الاباطرة الرومانيين معتمرة الخوذة

ومرتدية المعطف الارجواني ، وانها كانت تفهم اللغة اللاتينية دون ان تتكلمها، « فأرادت ان يتعلمها ابناؤها ، حتى انهم تكلموا اليونانية بصعوبة ، او نادراً على الاقل » . اضف الى هذا ، من جهة ثانية ان الشرق كان قد قدّم لروما احدى سلالاتها ، اعني بها سلالة ساويروس التي انتقل احد اعضائها ، ايلاغابال من كهنوت إله حمص الى حكم الامبراطورية الذي استولى عليه طيلة اربع سنوات .

ندرك من ثم بعض الشيء كيف ان مجدد الوحدة ، اوريليانوس ، بعد انتصاره على تدمر وتخريبها واقصاء قائد جيش امبراطورية الغاليين ، وبعد ان اشرك في موكب نصره زنوبيا وتيتريكوس وأبناءهما على السواء ، اسكن ، في احد مقاصف « تيبور » ، التدمرية التي سنرى احفادها في روما بعد مرور قرن كامل ، وأعاد الغاليّ الى مجلس الشيوخ والى الادارة ايضاً . وينمّ هذا الحلم ، على الارجح ، عن شعوره بأن فائدة عمل هذين الملكين ، بعد كل حساب ، املم وهن السلطة المركزية ، فاقت اضراره للقضية الرومانية .

التضخم النقدي الاول في التاريخ

اعار المؤرخون القدماء هذه الخلال السياسية والعسكرية ما تستحقه من أهمية . ولم يقف منها مؤرخ معاصر موقف اللامبالاة . وليس من ريب في ان الجماهير قد تأثرت بها من خلال انعكاساتها الاقتصادية . واذا كانت مسؤوليتها واضحة من هذا القبيل ، فان البلبلة التي نزلت حينذاك بحياة الامبراطورية وسكانها المادية تدخل في مجموع هو اعظم اتساعاً الى حد بعيد. فالخلل الاقتصادي في القرن الثالث يشكل ظاهرة نادرة الاهمية بفعل خطورته وشموله وطابع الجدة في بعض مظاهره .

للمؤرخ اليوم عذره اذا ما شدّد على ظاهرة التضخم النقدي الذي زاد الازمة خطورة ، فبعثته هي بعثاً مستمراً ايضاً. وهو ليس اول تضخم يمكن تتبع تطوره المتزايد باطراد فحسب، بل هو ايضاً اول تضخم عرفته البشرية . واذا لم تستطع ضحاياه تحليل اسبابه وجوهره ، فان عاقبته كانت قاسية جداً .

برز الخطر باكراً جداً بوقائع نقدية. ومنشأ هذه الوقائع قديم العهد لان العهد الامبراطوري الأول، لا سيا فيما يعود للقطع الفضية ، لم يستطع المحافظة على استقرار تام . فمنذ سبتيموس ساويروس ادى المجهود العسكري الى زيادة النفقات . فزادت باستمرار بينما كانت الواردات الاميرية آخذة بالتناقص . وقد الحت الحاجة ، لسد العجز ، على الرغم من المصادرات ، الى تقرير التضخم بشكله البدائي أي بافساد معدلات المعادن المركبة الذي حتمه فيما بعد انخفاض الانتاج في المناجم ثم الانفصال الذي قطع الولايات الغربية ، وهي اغنى الولايات بالمناجم ، عن باقي الامبراطورية . وتعزو المصادر الى كركلاّ ، ابن سبتيموس ساويروس وخلفه ، مبادرة هذا التطور الكارثة . ولعله اقتصر ، كما نرجح ، على اتخاذ قرارات رسمية ، بدلاً من التدابير الخفية ؛ فمنذ عهد والده انخفض عيار الدينار الفضي بمعدل الثلث . ومهما يكن من الامر ، فان كركلاّ قد انقص ١١ ٪

من وزن الـ « اوريوس » واحدث قطعة فضية جديدة ، الـ « انطونيانوس » [1] الذي ما لبث وضرب بكميات كبيرة وحل اخيراً بصورة نهائية محل الدينار القديم : فقد خفض عياره ٥٠ ٪ بالنسبة للدينار وكان ضعفه وزناً ، اي اكثر من خمسة غرامات بقليل ، وضعفه قيمة . وقد بدأ الافساد ببعض السرعة ثم ازدادت هذه السرعة ازدياداً فائقاً منذ السنة ٢٥٠ بنوع خاص . اما عيار القطع الذهبية فلم يفسد ، ولكن ما ضرب منها كان قليلاً ومتفاوت الوزن جداً . وانخفض وزن « الانطونيانوس » حتى ثلاثة غرامات تقريباً ولم يتوقف انخفاض عيـــاره عند حد : فعنصر الفضة لا يتجاوز الـ ١ ٪ في بعض قطع النقود المضروبة باسم غاليانوس أو باسم كلوديوس الثاني . ولما كان النحاس نفسه غالي الثمن فقد اتجهوا الى الاستعاضة عنـه بالخارصين والقصدير والرصاص .

نتيجة لذلك ، تعددت اصدارات هذه القطع الفضية المزعومة ، لا سيما وان ارتفاع الاسعار قد فرض مضاعفة وسائل التسديد وان كل امبراطور جديد ، مهما ضاقت رقعة سلطته ، كان بحاجة الى سك النقود بغية تأمين الموارد . فارتفع عدد المصانع النقدية ارتفاعاً كبيراً ، مما جعل الرقابة عليها امراً صعباً وافسح المجال امام الكثير من الاختلاسات. وقد اكتشفت ، ولا تزال تكتشف ، مئات الالوف من قطع القرن الثالث هذه التي تنم عيوبها عن السرعة في انجازهـــا . ولم تتحسن السياسة المالية بعض التحسن الا في عهد اوريليانوس الذي اضطر ، من جهة ثانية ، الى قمع ثورة ضاربي النقود في روما حين اقفل مصانعهم ، والذي توفر له المعدن الثمين بعد استعادة تدمر وغاليا.

الف العالم المعاصر ، منذ اربعين سنة ، التضخم ونتائجه التي لا يستغربها احد : غير ان ما لم تتوصل التقنية المحكمة الى التغلب عليه قد ناء بثقله على مجتمع غر واعزل .

بديهي ان انخفاض وزن وعيار القطع النقدية الجديدة قد ادى الى اختفاء القطع القديمة الجيدة التي جمعتها السلطات للصهر او خزنها الافراد . وعندما اختل الامن ، اهملت هــــذه الكنوز المكدسة في مخابئهـــا بعد وفاة مكدسيها : وتساعدنا خريطة المكتشفات التي تنظم اليوم ، وتواريخ طمرها ، التي يمكن تعيينها على التقريب بواسطة احدث القطع عهـــدا ، على استعادة تاريخ تنقل زمر الغزاة ، لا سيما الفرنك والالامان منهم ، في غاليا ما بين السنة ٢٧٥ والسنة ٢٧٨ .

بديهي ايضاً ان التضخم قد افضى الى ارتفاع الاسعار بسرعة . بدأ هذا الارتفـــاع في عهد مبكر ، وقد فرضته اسباب اخرى اهمها انخفاض الانتاج العام. ولكن هبوط النقد الى الحضيض قد اسهم في ذلك اسهاماً عريضاً . غالباً ما فسرت النصيحة التي يقال ان سبتيموس ساويروس قـد اسداها الى اولاده تفسيراً حرفياً – « اغنوا الجنود واسخروا من الباقين » – بغية نسبة زيادة الاجر العسكري ، بمعدل النصف ، اليه ، في حال ان كركلا هو الذي حققها . غير انهـــا في

---

(١) ارتبط سبتيموس ساويروس ، بتبن صوري ، بسلالة الانطونيين ، وقد دعي كركلا رسمياً « مـــارك اوريل انطونين » . ـ وينكر بعض العلماء ان يكون « الانطونيانيوس » قد ساوى دينارين .

الواقع تكاد لا تعوض عن انخفاض النقد ، ويغلب على الظن ان الغاية منها كانت اعادة القيمة الشرائية للاجر القديم . ثم ارتفعت الاسعار باستمرار . وتوفر لنا البرديات المصرية ، وهي في العهد الروماني اكثر منها في العهد اللاجي ، ابلغ ايضاحات بهذا الصدد: فقد ارتفع سعر الحبوب عشرين ضعفا بين السنة ٢٥٥ والسنة ٢٩٤ . وقبل التسليم بمرسوم الحد الاعلى الذي اصدره ديوكليسيانوس ، حاولت زيادة الاجور والهبات عبثاً اللحاق بهذا الارتفاع . فوزعت بعض القطع الذهبية حين يكون ضربها امراً ممكناً . ثم الحت الحاجة بتسديد اجور الجنود والموظفين عينا . ولكن الاختبارات المعاصرة تحملنا على الاستنتاج ان اية حيلة من هذه الحيل لم توفر لذوي المصالح ما يعادل النقد الثابت .

وبديهي ايضاً ان المضاربات النقدية قد رافقت تضخم النقد وانخفاض قيمته الذاتية . عبثاً حاولت السلطات ايقاف تيارها قسراً ومعاقبة تجارة النقد في السوق السوداء والمحافظة على السعر الرسمي . وماذا تستطيع الدولة عمله ، في عهد الفوضى هذا ، ضد تيار على مثل هذه القوة ؟ فقد حدث ، في مصر نفسها ، ان المصارف المرتبطة بالادارة ارتباطاً وثيقاً ، قد رفضت احياناً النقد الامبراطوري . وتهافت الناس على القطع البرونزية الصغيرة على الاقل التي لم تبع بأكثر من قيمتها . ولكن مجلس الشيوخ والمدن اللذين كانا قد احتفظا بحق ضربها اوقفا الاصدار الذي غدا باهظ الاكلاف بسبب ندرة المعدن . فكانت النتيجة ، مع فقدان السمات النقدية التي توحي الثقة ، تجميد التداول وتهديم الأسس الاولية لحياة اقتصادية ترتكز الى شيء آخر غير المقايضة .

وبديهي اخيراً ان التضخم قد قضى على كل ما بني منذ قرون على امتلاك واستثمار رؤوس الاموال المنقولة: يسار الطبقات الوسطى ، ومؤسسات عديدة ذات صالح جماعي .

وهكذا ، فان التضخم النقدي ، في موجة معقدة من الاحداث وانعكاساتها الكثيرة ، قد لاشى موارد الدولة في الوقت الذي ازدادت فيه نفقاتها ، وحكم على نفسه من ثم بتصاعد دائم لا حدّ له ، وغذى الفوضى ، وقلب المجتمع ، وألقى على الارض ، في انهيار عام ، بجنبات كاملة من حضارة درج الناس على الاعتقاد بأنها الحضارة المتينة الوحيدة التي باستطاعتها اسعاد البشر.

الازمة الاقتصادية وعواقبها الاجتماعية

ولكن الازمة الاقتصادية برزت في ذاتها، مستقلة عن التضخم النقدي الذي فرضته الضائقة المالية على الاباطرة . وان اسبابها ونتائجها أكثر من ان تعد، وغالباً ما تكون نتائجها اسباباً ثانوية تسهم في زيادة خطورتها . واذا ما شعرنا هنا بمرارة فقدان الاحصائيات ، فان ذلك لا يمنعنا من مشاهدة تشابك البلية العظيمة التي تجتاح العالم الروماني الشاسع .

انخفضت كثافة السكان بفعل تطور الاخلاق السابق ، وبفعل الغزوات ، والحروب الاهلية ، واعمال السلب ، والاوبئة التي تعقب كل هـذه الشرور . اجل لم يبرز هذا النقص ، في بعض المناطق ، إلا في عهد متأخر . ولكن افريقيا ، التي نجت منه حتى آخر عهد سلالة ساويروس ،

قد منيت به ايضاً ابتداء من الاضطرابات التي انفجرت في السنة ٢٣٨ .

كانت النتيجة نقصاً في اليـــد العاملة النشيطة برز اثره في الارياف والمناجم بنوع خاص ، فكان كارثة شاملة لأنه أفضى الى هبوط في انتـاج يعوّل عليه . فانتهز الأشقياء فرصة الفوضى وخرجوا من الامكنة المحدّدة لهم : وقد حدث أكثر من مرة في صقليا وغاليا ومصر ان عاثت زمر الفارين والفلاحين والعمال الهاربين في المناطق الريفية فساداً. وزادت في الطين بلة المصادرات الوحشية بغية سدّ حاجات الجيوش ، او حاجات سكان المدن حين يكون عضدهم ضرورياً . فنزلت الكارثة بمناطق الحدود خصوصاً : فأسكن البرابرة فيها ، في البقاع الخالية من السكان . ولكن الغزوات الموغلة وتنقلات الجيوش وهجوم الواحد منهـــا على الآخر خلقت القلق المضر بالانتاج: فان بعض الفرنك المستوطنين في تراقيا مثلاً قد نجوا بحراً ولجأوا الى المنطقة الرينانية .

وبوجه أعم ايضاً، توقف تداول المصنوعات. فلا مجال من بعد، عملياً، لقيام تجارة دولية. اما التجارة بين مدينة ومدينة ، وولاية وولاية ، ومنطقة ومنطقة، فتقهقرت ايضاً امام اللصوصية مرّة اخرى في البر والقرصنة في المتوسط وبحار اخرى نجح البرابرة في التسرب اليها ، وامام خطر المصادرات وما تستتبعه مـن تخريب في مواد النقل وانقاص في عدد الزوامل . فعرفت المدن الفاقة ، حتى تلـك التي لم تعرفها قط في سالف الازمان . وانقطع اتصال روما احيـاناً بمصر او افريقيا اللتين تؤمنان لها ، في الظروف العادية ، معظم مؤنها . ثم أصاب الشلل نشاط الصناعة اليدوية والتجارة الذي هو نشاط المدن في الدرجة الاولى .

أضف الى ذلك ان كافة مظاهر الحياة البلدية ، التي كانت مزدهرة من قبل ، قـد اخذت في الهبوط والسقوط . وانخفض دخـــل الضرائب البلدية ، كما تناقص سخاء البورجوازية التي كانت تستنفد رؤوس أموالها دون امل بتجديدها، والدخل العقاري ايضاً. فكان ذلك نهاية التحسينات التي تنشط الاقتصاد وتوفر الاجور للطبقات العاملة . ولم تبن آنذاك سوى الاسوار تقريباً بغيـة الدفاع عن المجموعات السكنية التي غدت قليلة السكان .

وهكذا ، بتجمع هذه الاسباب، ليس الازدهار الماضي وحده، على تفاوت توزعه، ما انتهى الى الزوال . فان ما زال ايضاً هو العناصر الجوهرية للجهاز الاجتماعي في العهـد الامبراطوري الاول : تنظيم اليد العاملة للمشاريع الكبرى والانتاج الزراعي ؛ نظام الرقي البشري التدريجي الذي يقابل الرفاهية في المدن، وهو المثل الأعلى للحضارة المتوسطية. لذلك فان الازمة الاقتصادية تمثل احد العوامل الرئيسية للاضطراب الذي سيطر آنذاك على المجتمع .

الاضطرابات الدينية
الاضطهادات العامة الاولى

كانت نتيجة هذا السيل من خيبـات الامـل والبلبلة والمصائب العامـــة أو الخاصة إثارة الازمة الدينية التي اخذت بالظهور منذ القرن الثاني .

ابتعدت النفوس عن العبادات الرسمية ، ولم تكن لتفكر بالعودة اليها . فقد غدت وعود هذه

العبادات ، امام واقع النكبة ، موضوع هزء وسخرية . للسلطات حريتها في تأدية الايمـاءات التقليدية ، التي تناقصت ابهتها من جهة ثانية ، وفي توزع القاب « إلهية » جـديدة ، ولكن كل ذلك ليس سوى طقوس باطلة بعد اليوم . واخذ قلق البشر ، فرديا كان ام جماعيا ، يبحث عن ضمانات اخرى في تعزيات اخرى . فوجدها حيث قام بالبحث عنها من قبل ، اي في العبادات الشرقية ، بما فيها النصرانية ، وفي مذهب توحيد الآراء الذي يعبّر عن نزعة واخزة الى حماية اعظم لانها توفق بين كافة القوى الفائقة الطبيعة . ولكن البلبلة الدينية قد اتخذت ايضـاً ، في الصراع ضد النصرانية ، اشكالاً سلبية وحاقدة .

لا ريب في ان اكثر من مسيحي ، آنذاك ، قد فسر على طريقته الخاصة واستغل اهوال هذه الحياة. ومال الوثنيون بالفطرة الى جعل اتباع هذه الديانة المنشقة مسؤولين عن هذه الاهوال: ان القوى الالهية ، ايا كانت ، تثأر من عموم السكان ، انتقاماً من جسارة الملحدين . فحدث من ثم ، احياناً ، وعلى غرار ما حدث في العهد السابق ، ان طالبت الجماهير بالتدابير العنيفة ، واذا هي لم تطالب بها فانها تستصوبها وتهلل لها ابداً .

بيد ان غضبها ، في الواقع ، لا يفضي ، في حال تدخلهـا ، الا الى خلق الحوادث المحلية او تجسيمها . وان الاضطهاد ، على الصعيد العام ، ابعد من ان يكون مستمراً . اجل اتصف هؤلاء الاباطرة الكثيرون بالشدة ؛ فقد قدروا ثمن الوحدة الادبية ، وكانت غريزتهم كافية لان توقفهم في وجه عقيدة بدت لهم وكأنها تثني مؤمنيها عن واجباتهم نحو الدولة. الا ان المصاعب الخارجية والداخلية ، بصرف النظر عـن تنوع ميزاتهم الشخصية التي يجب ان توخذ بعين الاعتبار ، قد حدّت من حريتهم في العمل .

استفاد المسيحيون اذن ، في اغلب الاحيان ، من تساهل السلطة . وتساهلهـا لامبالاة مقسورة ، وعطف في بعض الظروف الاستثنائية فقط. فقد استدعت احدى الاميرات السوريات ، ابنة شقيق سبتيموس ساويروس ، الى انطاكية ، المعلم السابق في مدرسة الاسكندرية المسيحية ، اوريجينوس وبادلته اطراف الحديث. وقد وضع ابنها ، الامبراطور ساويروس ألكسندروس ، صورة يسوع في مُصلاّه ، الى جانب صور ابراهيم واورفيوس وغيرهم من عظام الرجال . وربما كان فيلبوس الاول « العربي » مسيحيا — اول امبراطور مسيحي — كما نلاحظ او نقدر بعض العطف على المسيحيين في بطانة بعض الاباطرة . ولكن العداء المستحكم واقع يتكرر غالباً .

وقد برهنت الاعمال عن هذا العداء احياناً . فان سبتيموس ساويروس ، الذي كان مسايراً تقريباً ، انتهى الى منع ومعاقبة الارتدادات الى اليهودية والمسيحيـة . وصدرت آنذاك احكام عدة بالموت ، تحت ضغط الجماهير ، في كل مكان تقريباً : فان «آلام القديستين بربيتوا وفيليشيتا» اللتين نفذ الاعدام بهما في قرطاجة في السنة ٢٠٣ مع مسيحيين آخرين كثيرين ، واحد من اعمق النصوص تأثيراً في سِيَر الشهداء .

ولكن الحوادث كانت متفرقة آنذاك ولم تتناول التدابير ، في اسوأ الحالات ،سوى منطقة واحدة . اما التجديد العظيم فقد ظهر في منتصف القرن الثالث . ففي السنة ٢٥٠ اولاً ، ثم في السنتين ٢٥٧ و ٢٥٨ ، دشنت بعض البراءات الاضطهادات العامة النظاميـــة : ارغم داسيوس المسيحيين على تقديم الذبائح للآلهة او اقله على تقديم شهادة تثبت القيام بذلك، ثم جدد فاليريانوس هذا الأمر وحدد سلّم العقوبات للمخالفين، الموت لاعضاء الاكليروس والنخبة اطلاقاً، والاشغال الشاقة للآخرين . واستمرت الحال على هذا المنوال حتى ديوكليسيانوس ، على ان العمل بالبراءات لم يدم طويلاً . فان هموماً اخرى كثيرة قد شغلت بال هؤلاء الحكام وخلفائهم : مات داسيوس في حربه ضد القوط منذ السنة ٢٥١ ؛ ولم يسر غاليانوس على سياسة ابيه الذي اسره الفرس منـــذ السنة ٢٦٠ . ومع ذلك فقد كان الاضطراب عميقاً وكانت الضحايا كثيرة بين الطوائف المسيحية.

لا نستطيع هنا اثبات ما اذا كان نموّ هذه الطوائف قد تأثر بهذه الاضطهادات التي لم توقفه على كل حال : فمشاهد وآلام الحياة الارضية تقوي بالضرورة الامل بمكافآت الحياة الأخرى . ومنذ قبـــل نهاية عهد الانطونيين ، كانت جذور الديانة المسيحية أعمق من ان يستطيع العنف اقتلاعها . فهي ، من حيث عدد اتباعها، ومن حيث مزاياهم الاجتماعية غالباً، تمثل قوة لا يستطيع احد ، في ايام تلك المنافسات ، ان يهملها .

غير ان وجودها وانتشارها في قلب الامبراطورية قـــد زادا في اضطراب وتصدع مجتمع انقضّت عليه آنذاك كل هذه الأعاصير .

الثورة الاجتماعية ودواعي المصلحة العليا

فالأزمة من ثم واقــع راهن متعدد الأشكال ، وقد شدّدنا الكلام عن قصد ، في تحليلنا اياها تحليلاً مستفيضاً ، على ما فيه من ايجــاز ، بالنسبة لواقع الحـــال ، على تعدد وتشابك مظاهره وأسبابه . ومن العبث محاولة رد هذه وتلك الى الوحدة .

من الواجب ، والحق يقال ، ان نعير اهتماماً كبيراً التفسيرَ العام الذي قدّمــه منذ ثلاثين سنة مؤرخ روسي الأصل ، هاجر بلاده بعد ثورة السنة ١٩١٧ ـــ وكأنه معدّ لفهم اشياء كثيرةـــ هو ميخائيل روستوفتزيف *Michaël Rostovtzeff* . فقد عبرت الفوضى العسكرية في القرن الثالث ، من وراء احداثهـــا اليومية ، عن ثورة اشد الطبقات الفلاحية خشونة ، التي ينتمي إليها الجنود ، على كبار الملاكين العقاريين والبورجوازيات البلدية ، أي على كافة المنتفعين بالنظام الاجتماعي والسياسي السابق الذين دانوا بسلطتهم وترفهم لاقتسار واستثمار الوضعاء . فهي من ثم ثورة اجتماعية شبيهة بكل الحركات المماثلة ، يرافقها انفجار الاحقاد وفظاعة الانتقـام وانفلات الغرائز البدائية . ونحن نلمس الدافع اللاواعي الذي خضع له منفذوها الرئيسيون بفضل بعض الدلائل : معاملة قاسية نادرة عوملت بها بعض المدن التي رافقت احتلالها اعمال التقتيل والنهب، (بيزنطية) في السنة ١٩٥ ، و (ليون) في السنة ١٩٧، و(قرطاجة)في السنة ٢٣٨ ،و(أوتين) في السنة ٢٦٩ مثلاً ؛ الارهاب ، لا سيا في عهد أباطرة سلالة ساويروس الأولين ، الذي استهدف

الطبقة المجلسية ، فتعرضت لأحكام بالموت ، ولمصادرات لا تحصى ؛ التدابير السياسية والادارية التي حصرت دور المجلس والشيوخ ؛ التدابير التي فرضت على العناصر الميسورة من سكان المدن أعباء مالية واقتصادية ثقيلة جداً .

ولكن كلاً من هذه الأحداث ، أو مجموعات الأحداث، اذا ما استجاب لنزعة عامة لا شك في وجودهـا ، يستجيب ايضاً لضرورات ملحّة مباشرة : معاقبة وتقويض كل مقاومة ؛ العجز المالي والضائقة الاقتصادية ؛ التصميم ، مهما كلف الأمر ، على تسيير الدولة ، كيفما كان التسيير ، على الرغم من الحروب الأهلية والخارجية التي تشل حركتهـا . لذلك ، فان التفسير الاجتماعي ، مهما بلغ من اتساعه ، يبدو محدوداً ، ولا يعالج سوى ناحية واحدة : وان ميخائيل روستوفتزيف، بعد ان قدّمه في السنة ١٩٢٣، قد ادخل عليه بعد ذلك، اكثر من تصحيح ومفارقة .

ان ما يلخّص الحركة العامة ويرمز إليهـا جيداً ، على ما فيها من تعقيد وتشويش ، في هذه السنوات المظلمة ، هو طابع الأباطرة المشترك وعملهم الذي أفضى الى تفريج الأزمة . أجـل ، لقد تمّ اختيار الرؤساء المتماثلين ، بحسب قاعدة مطردة ، عن تفضيل اجتماعي : فقد كانوا رؤساء عسكريين ، لا شك في ذلك ، ولكنهم ، أتوا عن طريق غـير عضوية المجلس التي اكسبت فسبسيانوس، أو ترايانوس قيادة توّليـاهـا . ولم تكن الجيوش، وشأنهـا في ذلك شأن ملهميها ، حين ترضى بالسير وراءهم ، لتقدم على عمل دام ، يقوم به أشخاص عادمو الحزم يثيرون السخرية : فهي تبحث ، برجفات محيّرة ومتناقضات وتقلبات في الرأي يفسّر انفلات الغرائز وجـه الغرابة فيها ، عن زعيمها ، أي عن ذاك الذي يشاركها الميول الصاخبـة ، ثم يكون سعيداً في تحقيقها . وهكذا يبرز ، ويتعاقب في كرسي الحكم، خلال الثلث الأخير من القرن الثالث اجمالاً، ذاك الجيل المدهش من « الأباطرة الألـيريين »، الذي بشر به داسيوس ، ومثله كلوديوس الثاني، وأوريليانوس و بروبوس *Brobus* وكاروس خير تمثيل ، قبل ديوكليسيانوس الذي فرض نفسه مدة طويلة . فزالت مع هؤلاء ، بانتظار قيام غيرهـا ، سلالات الأباطرة المثقفين ، هواة الفن والآداب الجميلة والفلسفة ، وتلاشى احترام صيغ التسوية المداهنة التي تراعي الظواهر وترسخ في المناصب أفراد النخبة المستنيرة . اجل ، لقد حدث ، منذ اغتيال كومودوس ، ان تسلم الحكم أباطرة ينتسبون الى الطبقات الشعبية في ايطاليـا أو في الولايات ؛ ولكن ذلك لم يتعدّ العرض قط . وهـا نحن أمام سلسلة من رجال وضعاء المنشأ ، متوسطي الثقافـة ، ولدوا في اليريا *Illyricum* ، أي في الولايات الشمالية الشرقية من شبه الجزيرة البلقانيـة ، حيث توطدت حضارة لاتينية فظـة ، لم ينخرطوا سوى في الجيش ، منطلقين من أدنى مراتبه ومرتفعين ، بفضل أهليتهم وحدها ، الى المراكز الهامة .

فاذا ما جاز لنا ان ننتظر منهم التحلي بضمير نطلق عليه اليوم صفة « الطبقي » ، فان هذا الضمير ابعد من ان يلهمهم وحده ، وحق ان يكون الغالب فيهم . لا ريب في انهم احتقروا تسلسل المراتب القديمة وجهلوا مفاتن الحضارة الرقيقة . ولكن مـا يشجعهم قبل كل شيء هو

وطنية شبه متعصبة ، وحزم لا يثنيه أي وازع ، وتصميم فولاذي ، لا يرحمهم ولا يرحم سواهم بعنفه ، على انقاذ الامبراطورية وعمل روما التي يشعرون بانهم ابناؤها. وقد شجعهم ، في الوقت نفسه ، بما فيه الكفاية لمقاومة الميل الى العطف على ثورة دائمة يقدم عليها الوضعاء ، الاقتناع بان ما من شيء يتحقق دون اعادة نظام شديد : فان هذا النظام ، الضروري للجيش في الحروب التي ينهض بها ، يشكل ايضاً العلاج الوحيد للصعوبات الداخلية .

بفضل المجهود العنيد المتواصل الذي بذله هؤلاء الاباطرة وكلفهم حياتهم ، انتهت الازمة الكبرى اخيراً ونجم عن الاطلال التي كدستها نظام جديد يكاد يكون مستقراً . ومع ذلك ، فان الجنود والطبقة التي عبروا عن غضبتها ، لم يحققوا اهدافهم. فاذا كان المحظيون القدماء قد تواروا ، فقد حل محلهم محظيون آخرون : ولم تفض الثورة الاجتماعية الى تحقيق المساواة . ومما لا شك فيه ان قوى اخرى كثيرة، غير تصميم الريفيين، الثملين بامكاناتهم ، على الانتقام لبؤسهم، قد فعلت فعلها في هـذا الاعصار الغريب . ولعلهم افتقروا الى قادة الفكر الذين لم تفتقر اليهم بعض الحركات الثورية اليونانية، وحتى الرومانية في عهد الجمهورية . فهل كان ممكناً، بما اشتهروا به من خشونة وفظاظة ، ان يفهموا هؤلاء القادة ويسيروا وراءهم ، لو انهم توفروا لهم بعد قرنين من النظام الاجتماعي والادبي ؟ ومهما يكن من الامر ، فان موانع كثيرة قد اوقفت وحبست وحولت عملاً لم يخضع لبرنامج .

وهكذا فان المصلحة العليا ، التي تفقدها انتهازيتها معنى الرحمة ، قد أفلحت في اعـادة نظام مادي يتيح للجماعة العيش ، مسايراً نزعاتها الروحية ، ومضحياً بها عند الحاجة .

الفصل الثاني

تجدّد الأخطار والاضطرابات خلال الأصلاحات الهزيلة في القرن الرابع

انقذ حزم الاباطرة الالـّيريين الامبراطورية من الغزو والثورة الفوضوية. وأعادوا في الوقت نفسه تنظيمها بسلسلة من التدابير املتها عليهم ذهنية العهد وحاجاته الملحة. ثم جاء ديوكليسيانوس وهو اوفرهم مواهب في حقل الادارة ، على الرغم من انتهازيته ، فوسّع هذه التدابير وأعاد النظر فيها طيلة عشر سنوات على الاقل ، قبل ان ينظم عملاً اكمله قسطنطين بدوره . وعلى الرغم من بطء ومشقة هذا الاصلاح ، فلم يفت المعاصرين ان يتذكروا اوغسطس . فقد بدا ، فعلاً ، في اوائل القرن الرابع ، ان انطلاقة جديدة قد حدثت ، في القوة والوحدة المستعادتين ، قوة خارجية شبيهة ، اقله فيما يعود لسلطة الامبراطور والمركزية ، بتلك التي استطاع اوغسطس تأمينها للامبراطورية الحديثة ، ووحدة تفوق الى حد بعيد تلك التي اوجدها.

وليس من ريب في ان حضارة قد برزت آنذاك من الخواء : هي تلك التي يجب ان نعتبرها حضارة العهد الامبراطوري الثاني لانها وحدها بلغت درجة كافية من التلاحم العضوي ، حين لم تعد مجرد مظاهر عرضية متلاصقة .

فهل اعطت جميع امكاناتها الكامنة يا ترى ؟ مهما يكن من الأمر ، فان فترة ازدهارها كانت قصيرة جداً . ومهما يكن من الأمر ايضاً ، فانها قد اصطدمت بعقبات شديدة ، يجدر بنا ان نحددها منذ الآن ، حتى ندرك شوائبها وقصر مدتها .

١ ـ الجهود الباطلة ضد البرابرة

ان اشدّ خطر تعرضت له جاءها من الخارج .

توفق القادة العظام في اواخر القرن الثالث ، باقل تضحيات اقليمية ممكنـة ، الى استعادة مناطق الحدود وقمع حركة المنشقين في الداخل . وقد حدث في عهد ديوكليسيانوس وقسطنطين ان اجتازت جيوش رومانية نهري الرين والدانوب اللذين نظم عليهما مرة اخرى دفـاع متين . واستعاد ديوكليسيانوس بلاد ما بين النهرين ، لا بل ارغم الساسانيين على التخلي عن بعض الاقاليم

وراء دجلة : ولم يسبق لروما ان حققت مثل هذا التقدم في الشرق .

وفرت هذه الانتصارات والتنظيم الدفاعي الذي وطدها سلماً نسبياً استمر ثلاثة أرباع القرن. اجل كانت هذه القوة وهذه الطمأنينة سريعتي الزوال . ولكن الجهود العسكري الذي نهض به العهد الامبراطوري الثاني ، على الرغم من ان الانهيار الاخير قد برهن عن عدم جدواه ، ليس مجهوداً يجوز اهماله ، وما من امبراطور ، حتى وفاة تيودوسيوس *Théodose* في السنة ٣٩٥ ، إلا وقام بواجبه العسكري خير قيام .

١ - الجيش في العهد الامبراطوري الثاني

أثبت الاختبار قصور الجيش القديم ، وعدم انطباقه على ظروف الحرب التي يفرضها الاعداء الآن . فزيد عدد الجندين وعُدّل تنظيم الجيش .

تنظيم الحدود

ما زال المثل الأعلى مثل كل دولة عرفت الاستقرار ، أي حماية كافة الأراضي الرومانية : وهو يوجب عدم اهمال مناطق الحدود . ولم يتغير طول الحدود قط ، اذ انه ازداد بفقدان المناطق الملحقة بالأملاك الأميرية ، ونقص بفقدان داسيا . ولكن حدوداً محصنة كثيرة قد زالت ، وعلى الرغم من الجهود المبذولة لم يتوفر الوقت لاعادتها الى مثل ما كانت عليه من متانة . ويبدو ان العمل الذي انجز على طول نهري الرين والدانوب ، لا سيا في عهد فالنتينيانوس الأول كان أهم عمل نظامي . فقد اهملت الخنادق المتصلة واستعيض عنها ، انطلاقاً من أهمية الطرق والانهار ، ببناء المزيد من الابراج والقليعات والحصون والمعسكرات ، وفاقاً لتقنية غدت أعظم مهارة بفضل العلائق بالفرس : فاقتبست في الغرب بعض النماذج الشرقية . واعتني كذلك بأسوار المدن فأدخلت التحسينات عليها : فكانت المدن، أمام البرابرة الذين ما زالت وسائلهم بدائية ، معاقل تكاد لا تقهر .

بفضل هذه الأشغال ، حدث تطور بطيء جداً ، بدأ منذ نهاية عهد سلالة ساويروس على الأرجح ، وبلغ الذروة في عهد قسطنطين . أضف الى ذلك ان لا مجال للخيار : فالافتقار الى العدد الكافي من الجنود الممتازين اقتضى ابقاء أقلهم نشاطاً وقوّة في مناطق الحدود التي تسهل التحصينات فيها المهمة العسكرية بمعناها الحصري . وقد حُددت لهم اجور أقل ارتفاعاً ، وخصصوا بقطع ارض يتولون زراعتها لتأمين معيشتهم ومعيشة عائلاتهم . ووكل إليهم امر المراقبة في الدرجة الأولى وأمر رد الهجمات في الدرجة الثانية ، وأمسى الكثير منهم ،في الواقع، جنودا لا كفاءة عندهم يلجأون الى التحصينات اثناء الغزو، فكانوا من ثم يتلقون الصدمة الأولى ولا يفلحون في مقاومتها إلا نادراً . اجل ، لقد بلغت الصدمات اتساعاً وعنفاً لم يضطر جيش العهد الامبراطوري الاول ، الذي لعب كله تقريباً جوهر هذا الدور ، لتحمّلها إلا في ظروف استثنائية . ولكن رجال وحدات الحدود، قد أعوزهم آنذاك، كما يبدو ، التدريب والمناورات التي انقطعت القيادة عن فرضها عليهم .

جيش الريف

ليست هذه حال الوحدات الاخرى . في فترات الهدوء تؤلف هذه الوحدات حاميات تقيم على مسافة كبيرة من الحدود، وحتى في قلب الاراضي الرومانية في اغلب الأحيان . ويفرض الامن الداخلي احتياطات تفوق بعددها الاحتياطات السابقة . فقد رغب المسؤولون بنوع خاص في ان تعبأ هذه الوحدات بمعرفة تامة ، وان تجمع اولاً حتى يؤلفوا منها جيشاً ريفياً . واخضعوها لهذه الغاية الى تنقلات هامة احياناً ، من طرف الامبراطورية الى طرفها الآخر ، وقد ازداد تكرر هذه الحركات بفعل الاغتصابات التي تستلزم حملات داخلية .

تتألف هذه القوى، في الدرجة الاولى ، شأنها في الماضي ، من الحرس الامبراطوري. ولكن فرق حراسة القيصر ، التي مقتتها الوحدات الاخرى على الدوام ، بسبب امتيازاتها ، زالت من الوجود على اثر الهزيمة التي انزلها قسطنطين بـ « مكسانس » عند جسر ميلفيوس في السنة ٣١٢. فحلت محلها تدريجياً فرق من الجرمانيين الذين قدموا منذ اوغسطس حرس الامير الخاص ، وابقي ايضاً على وحدة « المظاهرين » التي انشئت في القرن الثالث والتي استجاب وجودها في الوقت نفسه لاهداف اخرى .

يحمل الجنود الآخرن في الجيوش الريفية اسماء تنم عن ميزة وربما عن اصل وحداتهم ، كـ « البلاطيين » و « المرافقين » مثلاً : والمقصود بذلك الاشارة الى فصلهم عن الجيش او اقله التذكير بانهم يؤلفون الوحدة التي يتولى الامبراطور قيادتها شخصياً في زمن الحرب . وقد عسكر بعضهم ، في الواقع، في الولايات ؛ بينما كان طبيعياً ان يقيم عدد كبير منهم على مقربة من المقر الامبراطوري.

بيد ان الصعوبات التي واجهها العهد الامبراطوري الاول في ادارة حرب هامة لم تُحل بفعل هذا الفصل بين جنود الحدود وجنود الإحتياط . فقد ثبت ابداً خطر إخلاء منطقة كاملة من فرقها الريفية. وليس من ريب، حين جهز ليسينيوس ١٦٥٠٠٠ رجل في السنة ٣٢٤، وقسطنطين ١٣٠٠٠٠ لمهاجمته، في انهما كليهما تصرفا بكل امكاناتهما في فترة استثنائية من الهدوء الداخلي. ثم تبدلت الأمور تبدلاً هاماً بعد انقضاء اربعين سنة تقريباً: فان جوليانوس على الرغم من اهمية الاعدادات ، لم يستطع قيادة اكثر من ٦٥٠٠٠ رجل في حملته على الفرس. وفي السنة ٣٧٨، لن يجمع فالنس منهم سوى ٣٠٠٠٠ جندهم في الحقيقة من الشطر الشرقي في الامبراطورية فقط.

التجنيد

كانت هنالك اذن ، على غرار ما حدث في العهد الامبراطوري الاول ، حاجة الى الرجال، على الرغم من الجهود المتزايدة، من حيث قيمتهم النسبية – بسبب نقص السكان – وقيمتهم المطلقة على السواء .

ليس لدينا اية دلالة يوثق بها لتحديد عدد المجندين الاجمالي وتتبّع ما طرأ عليه من تغييرات. ولكن ما لا ريب فيه هو ان ديوكليسيانوس قد تعهد جنوداً اكثر منهم عدداً في عهد سبتيموس

ساويروس الذي سبق واحدث ثلاث جوقات جديدة من الطراز الكلاسيكي ، وان قسطنطين قد رفع عدد وحدات الجيش ايضاً . وقد تكلمت وثيقة نظرية عن عدد يبلغ ٥٠٠ ٠٠٠ رجل تقريباً ، في اواخر القرن الرابع . ومهما يكن من الأمر ، فان العدد يفوق الى حد بعيد ما بلغه في القرن الثاني .

مهما يكن من الامر ايضاً ، فان هذا العدد لا يزال غير كاف ، لان المهام الواجب تنفيذهـا امست ، من جهتها ، صعبة جداً . فخمسمائة الف رجل لا يفون بحاجة دولة عليها آنذاك ان تعبىء كل قواها ، ولديها موارد بشرية عظيمة لم تستطع ، لا بل لم تحاول ، تجنيدها . اجل يجب ان لا نحكم عليها بمقياس الجمهوريات البلدية القديمة ، ولا بمقياس الدول المعاصرة : فمنذ العهـد الجمهوري ، استبعدت روما مبدأ الخدمة الاجبارية . ولكن ما هو اخطر من كل ذلك هو ان مبرر الاعتبارات المالية الذي خضع له اوغسطس في اكتفائه بجيش محدود ، قد توارى الآن امام مبرر آخر هو فقدان الاعتبار الملازم لصفة الجندي بالذات .

يبدو ، اقله في بعض المناطق، كإلّيريا مثلاً، ان الدعوة للتطوع الاختياري كانت تؤدي الى نتائج حسنة في القرن الثالث . ثم غدت نتائجها العملية دون جدوى في القرن الرابع فعوّض اللجوء الى الاجبار عن هذا العجز؛ ولكنه زاده خطورة ايضاً، لان هذا الانتساب لمهنة الجندية قد فقد طابعه الطوعي .

تناول الاجبار في الدرجة الاولى ابناء الجنود . منح سبتيموس ساويروس هؤلاء حق عقد الزواجات الشرعية : فكان ذلك بمثابة تعميم واقع راهن بجعله قانونياً . وكذلك ، فان الدولة، بتخليها عن قطع الارض لجنود الحدود ، قد عممت نظاماً قديمـاً لم يستفد منه الا بعض جنود الحصون فقط . ثم فرض مبدأ الوراثة في المهنة الوالدية على كافة الطبقات الاجتماعيـة ، فطبق بكل شدة في الجيش . فاضطر ابناء الجنود الى الانخراط فيه ، مـا لم يكونوا ضعفاء البنية ؛ وخلفوا بالتالي آباءهم في الانتفاع بالاراضي التي كان يستثمرها هؤلاء.

غير ان ارتفاع نسبة الوفيات جعل هذا المورد غير كاف . ولم يفكّر احد بمراعاة المساواة في قيد الشبان البالغين سن دخول الخدمة العسكرية . بل اقتصروا على جعله وقفاً على الملكية العقارية . فقد فرض على الملاكين ، منفردين اذا كانت أملاكهم على بعض الاتساع ، ومجتمعين ومكتتبين اذا كانت املاكهم على عكس ذلـك ، ان يقدّموا المجندين . وهم يختارونهم حيث يستطيعون ، في أدنى طبقات السكان الريفيين وحدها تقريباً ، محاولين استمالة المتطوعين بالمال ، او بين العبيد ، محاولين استمالتهم بالإعتاق : وقد ظهر بعض التجار الذين سهلوا هـذه المهمة . وحاول الامبراطور احياناً حماية الضعفاء الذين يُقدّمون مرغمين ، وفي أغلب الاحيان معاقبة المتمردين: وصدر اخيراً قانون اقرّت بموجبه عقوبة الاحراق لمن يبترون احد اصابعهم . فكانت نتائج طريقة التجنيد هـذه من الضعف بحيث ان الحكومة فضّلت ان يقدّم لها المخضعون مالاً لا رجالاً : فهي تستطيع عن طريق المال تأمين حاجتها في غير مكان.

ويعني « غير مكان » البرابرة الخشنين ، المعتبرين جنوداً ممتازين ، لا سيا المحاربة برابرة آخرين ، واقل ميلاً الى التمرد على الامبراطور الشرعي . وقد سبق للامبراطورية الاولى ان أدخلت بعضهم في خدمتها سامحة لهم بالاحتفاظ بعاداتهم القومية . وبسبب الافتقار الى نظام احسن ، انتشر هذا النظام في القرن الثالث وزاد انتشاراً في القرن الرابع. وبديهي ان الرومان قبلوا بتطوعهم الفردي كما قبلوا بهم في المجتمع ايضاً . ولكنهم نظموا في النهاية تجنيدهم . ثم أسكن عدد كبير من الاسرى واللاجئين في اراضي الامبراطورية بغية تعمير واستثمار المناطق التي تندر فيها اليد العاملة : وتقوم مهمة الادارة في مراقبتهم ، ويفرض على أبنائهم ، على غرار ابناء الجنود ، الانخراط في الجيش . ونعم آخرون بنظام « الحلفاء » وقدّموا وحدات منظمة بحسب عاداتهم يرئسها ضباط قوميون : وقد حدث في الواقع ، تدريجياً ، ان الذين دخلوا الامبراطورية عنوة تعذر طردهم منها وسمح لهم ، لقاء معاهدة ، ان يعيشوا في منطقة معينة كشعب غريب الى جانب من بقي فيها من الرومان .

من الخطأ الفادح الاعتقاد بأن اللجوء الى هؤلاء البرابرة لم يخبىء سوى الغموم للامبراطورية : فلولاهم، لحصل انهيارها قبل موعده بزمن بعيد؛ اضف الى ذلك انهم ، بفعل اخلاصهم للامبراطور الذي يدفع لهم اجورهم ، قد منعوا او قمعوا كثيراً من الاغتصابات ، وبالتالي من الاضطرابات التي طالما أثارتها الجيوش المدنية في القرن الثالث . ولكن وجودهم قد أسهم في اقصاء المواطنين عن الجيش ، وربما كان الخطر يقضي باعادتهم اليه . فهم يمثلون حلاً سهلاً قد تكون عواقبه ، وستكون ، خطيرة جداً . فبصرف النظر عن الرغائب التي قد يبعثها فيهم الشعور بقوتهم وبالخدمات المؤداة ، لم يعد الجيش الروماني المزعوم ، الذي انتهوا الى تشكيل أكثريته الساحقة ، تلك الأداة الممتازة لنشر الحضارة الرومانية كما كان في القرنين الاولين: بل غدا اداة لنشر البربرية . وكان كل شيء ، في الحقيقة ، قضية تقدير ونسبية . ولكن من ذا الذي استطاع ، في ما يتعلق باللجوء الى غير الرومان، الاستشهاد بسوابق قديمة جداً تظهر فيها حدود الخطر ؟ وفي أي وقت ، خلال القرن الرابع ، اجتيزت هذه الحدود ؟ فأولى بنا من ثم الاكتفاء بأن نلاحظ ان الآراء الخاطئة القديمة ، ذات الطابع الاجتماعي والثقافي معاً، التي دفعت الى إلقاء مهمة الدفاع عن المصلحة العامة على أشدّ عناصر السكان فظاظة ، تحمل عبء مسؤولية هذا الوضع وازدياد خطورته .

التنظيم وفن الحرب

تأثر الجيش بأعدائه وتسلّحهم وأساليبهم الحربية تأثره بانخراط البرابرة فيه . فميزته فروق عظيمة عن جيش العصور السالفة .

عرفت الجوقة التقليدية البقاء . ولكنها كانت كثيرة العدد بطيئة الحركة . وما كانت لتستطيع العمل إلا بضم وحدات مساعدة متنوعة محصورة العدد اليها . وقد صنف التجنيد الرجال ، بينها وبين هذه الوحدات ، وفاقاً لنظامهم القانوني ؛ غير ان هذا التمييز قد زال ، منذ براءة كركلاّ في السنة ٢١٢ ، بفضل شمول حق المواطنية الرومانية كافة الرجال الاحرار

العائشين في الامبراطورية باستثناء المعتقين ؛ فلن ينظر الجيش بعد الآن الى الفئات القانونية ولن يرفض سوى العبيد. لذلك فان تكرر استخدام فصائل الجوقات، منذ العهد الامبراطوري الاول، قد أفضى بالنتيجة الى تجزئة هذه الجوقات ـ لا يزال الاسم يطلق عليها، ولكن نادراً ما يتجاوز عددها ألف رجل في ذاك العهد ـ والى مساواتها عملياً بالوحدات المساعدة . وقد ارتفع العدد الاجمالي لهذه الوحدات المختلفة ارتفاعاً كبيراً .

وتبدّل التسلح على طريقة البرابرة . فأهمل المشاة الاسلحة القومية ، البيلوم ، والمفصل ، والترس الكبير ، والدرع المعدني ، واعتمدوا الرمح ، والسيف ، والخنجر ، والقوس نفسها احياناً ، والترس المستدير ، والدرع الجلدي . وتسلحت بعض وحدات الفرسان ، على غرار الفرس، بالاقواس الجبارة، وحدث في بعضها ان ألبس الرجال والجياد صفائح حديدية او زروداً.

منذ القرن الثالث ارتفع عدد الفرسان ارتفاعاً عظيماً مطرداً . ويعود ذلك الى ان الجيش يجب ان يكون سريع الحركة . كما يعود الى ان الفرسان الثقيلي التسلح ، القادرين على الانقضاض على العدو ، فرقاً متلاحمة في المناورة ، قد أحدثوا اتجاهاً جديداً في التاريخ العسكري وأثبتوا مجدداً تفوقهم على المشاة . ويمكننا القول ، دون مبالغة في أهميتها ـ لأن هنالك سوابق ، ولأن هذا المثل لا يحدث تقليداً ـ ان معركة اندرينوبولس (ادرنه) في السنة ٣٧٨، التي ربحت بفضل كرّ الفرسان القوط ، يمكن اعتبارها مقدّمة للفن الحربي في القرون الوسطى . ولكن الرومان ما زالوا يتلمسون طريقهم. فان اوريليانوس، قبل استلامه الحكم، كان قائداً لكافة وحدات الفرسان في الجيش ، المكوّنة فرقة مستقلة للنهوض بحركات جماعية : غير ان هذه الوحدات الهامة لن تظهر في القرن اللاحق. ومع ذلك فقد أصبح الكر مهمة الفرسان الرئيسية الذين حملت وحداتهم اسم « الاسافين » المميز .

القيادة

وتحسنت القيادة اخيراً تحسناً كبيراً . وقد لعب الحذر السياسي دوره في ذلك لأن الرومان ما زالوا يخشون ، في القرن الثالث ، طموح اعضاء الطبقة المجلسية الذين كان لهم وحدهم الحق ، دون المرور بالدرجات الدنيا ، في تولي قيادة جوقة او جيش . ولكن الاهتمام بالنوع قد لعب دوره ايضاً الذي أمسى في النهاية أهم دور : فقد ارادوا ، بعنادهم في إلغاء امتياز النسب ، اكتشاف الافاضل وتخصيصهم في دورهم العسكري . فحدث من ثم تطور مزدوج . أقصي الشيوخ من جهة عن القيادات. وقد سبق لسبتيموس ساويروس ان وضع فرساناً من الأشراف على رأس الجوقات التي احدثها . ويعزو التقليد الى غاليانوس براءة تجعل من هذا الاقصاء مبدأ . اجل هنالك وقائع ثابتة تناقض هذا التقليد ؛ ولكن الغلبة في النتيجة للنزعة التي تكلم عنها هذا التقليد. وارتسمت من جهة ثانية، وبصورة اجدى، ثم انتصرت، مع قسطنطين، النزعة الى فصل الوظائف المدنية عن الوظائف العسكرية .

وهكذا ، فان تعيين المراتب ، وترفيع ذوي الأهليــة دون غيرهم ، اللذين يمثلان التجديد

الاجتماعي الرئيسي في القرن الثالث قد عمل بها في القرن الرابع ايضاً . فبينما لم يكن الجندي من قبل ليتجاوز الا استثناء ، درجة قائد المائة ، أي درجة صغار الضباط ، أصبح الآن من شأن جدارتـه أو حظه ، ان يقوداه الى أعلى الوظائف في سلم المراتب ، وبما ان هذه التمييزات الاجتماعية ، فقدت أو كادت تفقد كل أهمية سياسية ، فانـه قد احتل مع الزمن مرتبة الفارس الشريف ، ومرتبة عضو مجلس الشيوخ بعد ذلك . ويرافق هذا الوضع ذيله الطبيعي : فكافـة القادة العسكريين ضباط ممتهنون لا يخدمون طيلة حياتهم إلا في الجيش .

بفضل زوال كل تمييز قانوني ، غدا التدرج ممكناً للبرابرة انفسهم . وكثيرون هم الذين أفادوا منه . وقد أخذ بعض المعاصرين على قسطنطين انه خصّ الفرنك بمحبته ، ووجه اللوم عينه الى ثيودوسيوس بصدد القوط . وباستطاعتنا فعلاً وضع لائحة طويلة بالقادة البرابرة الذين اشتهروا ولعبوا دوراً خلال النصف الثـاني من القرن الرابع ، ناهيك عن القرن الخامس . بيد اننا نقتصر على الاشارة الى وجود القوطيين غيناس والاريك والفاندالي ستيليكون والقفقاسي باكوريوس على رأس وحـدات الجيش الرئيسية التي اتاحت لثيودوسيوس ، في السنة ٣٩٤ ، الانتصار على جيش المغتصب اوجينيوس بقيادة الفرنجي اربوغاست . فالاريك وحده بين هؤلاء ، وهو ملك الفيزيقوط الحلفاء ، لم يكن ضابطاً رومانياً ، في حال ان جميع الآخرين قد كسبوا القيادة في خدمة الامبراطورية .

مر كثيرون من هؤلاء الضباط ، الرومانيين او البرابرة ، في اوائل خدمتهم ، في وحـدة « الحماة » . وقد تشكلت هذه الوحدة ، منذ إحداثها في القرن الثالث ، من صغار الضباط ذوي المناقب والكفاءات فقط . ثم اجيز الانخراط فيها ، في القرن الرابع ، لابناء الشيوخ ، ولكن دون ادخال تغيير جوهري عليها . وكانت هـذه الوحدة تؤلف جزءاً من حرس الامبراطور الخاص ، حتى ان افرادها لقبوا اخيراً بـ « المنزليين » فالفوا البلاط وكيفوا عليه تصرفاتهم . ولكنهم لعبوا دور الاركان العامة ايضـاً واسندت اليهم المهام الخطيرة . واختير بينهم قواد الجوقات الذين اتيح لهم بعد ذلك تسنم مراتب اعلى . فان هذه الوحدة ، التي اوجدت لاعداد النخبة ، قد حققت هدفها : ومن عناوين فخر العهد الامبراطوري الثاني انها لم تعرف الانحطاط.

فرضت تجزئة الجيش وحدات محصورة العـدد تنظيم حشود لم يكن الفصل بين الوظائف المدنية والعسكرية ليسمح بوضعها ، كما في السابق ، تحت امرة حكام المناطق . وانما احدث لقب « القائد » ، في القرن الثالث ، لرؤساء هذه الحشود بالذات . فمنذ ديوكليسيانوس رئس من يحمل هذا اللقب ، مبدئياً ، كافة الجنود في احدى ولايات الحدود ، التي اصبحت اراضيها ، من جهة ثانية ، من جراء التقسيمات النظامية ، اضيق منها في السابق . وقد حدث احياناً ان مارس بعض القـادة سلطتهم على اقليم اوسع ؛ فاطلق عليهم آنذاك لقب « الكونت » (رفيق) ، ولكن هـذا اللقب لا ميزة نوعية له . اما جيش الريف ، فقد عين له قسطنطين « معلمي جنود » *Magistri militum* احدهما للمشاة والثاني للفرسان : وقد راعت هـذه الازدواجية سلطة

الامبراطور بكل عناية . ثم وزع هذا اللقب على نطاق اوسع، فعين « معلمون» لجيشين . ولكن مالنا ولهذه الاصطلاحات التي يكفي ابتذال الألقاب تدريجياً لأن يجعلها غامضة جداً . فالمهم هو اننا نادراً ما نرى احد هؤلاء الموظفين الكبار متهماً بعدم الاهلية . اجل كان لهؤلاء الرجال نقائصهم ، وقد لجأوا الى الدسيسة . ولكنهم لم يبلغوا في ذلك ما بلغه شيوخ القرن الاول . وهم قد عرفوا مهنتهم خير معرفة .

وفي القمة اخيراً كان الامبراطور وحده الذي ما زالت صفته العسكرية مسيطرة عملياً ، ان لم يكن نظرياً . وما زال الجنود يهلّلون للأباطرة ، الذين غدت سلطتهم ، في القرن الرابع ، سريعة الزوال ، ان هم لم يعنوا بواجبهم : وغالباً ما دانوا بالمناداة بهم اباطرة ، كجوليانوس وفالنتينيانوس الاول وثيودوسيوس ، للبراهين التي أعطوها من قبل عن أهليتهم العسكرية . ولا يقبلون بالتواري لتسليم القيادة العليا الى القادة؛ بل يشتركون شخصياً في الحملات ولا يترددون في المخاطرة بحياتهم ، وحتى في التضحية بهـا . فولايتهم سلسلة متواصلة الحلقات من الجولات يفرضها عليهم الصراع ضد الأعداء في الخارج وفي الداخل .

ونلاحظ بالتدقيق في عداد التبدلات الملموسة التي أفضى اليها موت ثيودوسيوس نهاية النشاط العسكري الشخصي الذي كان يقوم به الامبراطور . فهذا الاخير ، منذ السنة ٣٩٥ ، ينزوي في قصره في القسطنطينية او في رافينـا ، مُجلـّـَة ومنفرداً ، تاركاً لبعض القـادة ممن تقف لهم دسائس البلاط بالمرصاد امر قيادة الحملات العسكرية . وفي حين ان المزيد من الصعوبات يدعوهم للعمل ، نرى في اعراض هؤلاء الرجال الذين لا يشكون من ضعفهم بل من بعدهم عن عامة البشر بفعل عظمتهم ٢ – لن يظهر أي امبراطور شرقي في الجيش قبل السنة ٥٩٢ – مقاطعة للتقليد الامبراطوري الروماني . ولعل هذا الإعراض سبب آخر لنهاية الامبراطورية او دليـل عليها على الأقل .

٢ ـ هجوم البرابرة

ذاك هو جيش العهد الامبراطور الثاني في خطوطه الجوهرية. أمّن سلامة الاراضي الرومانية حتى منتصف القرن الرابع . حينذاك ، ودون ان نتمكن من رؤية التراخي فيـه او بداية انحطاط داخلي ، اخذ يبرهن عن انه دون المهمة الملقاة على عاتقه . . والحقيقة هي ان هذه المهمة قد أصبحت اعظم ثقلاً : فمن كل جهة ، جـدّد العدوّ هجومه ، بحيث لن يترك الامبراطورية تذوق طعم الراحة حتى انهيارها .

الفرس

لا ريب في ان الفرس شعب اتصف بالصلابة ، ولكنهم لم يكونوا مع ذلك أكثر الاعداء اقلاقاً للرومان .

كانوا الاول في الانتقال الى الهجوم حين بلغ ملكهم الشاب، شاهبور الثاني ، سن الرشد ، في اواخر عهد قسطنطين : وبقي شاهبور هذا حتى مماته (٣٧٩) عدو الرومان العنيد . توفرت

لديه الوسائل القوية والفيلة الهندية والآلات لمحاصرة الحصون . ولن تواجه الامبراطورية ، في أي مكان آخر ، عدواً على مثل هذا التنظيم وهذا التصلب توفق في السنة ٣٥٩ ، بعد ثلاثة وسبعين يوماً ، الى دخول« اميدا »عنوة(ديار بكر الحالية على دجلة). وكانت ضرباته قاسية. فصمم جوليانوس على وضع حدّ لهذه التعديات بشن هجوم على الطريقة القديمة ، وسار على

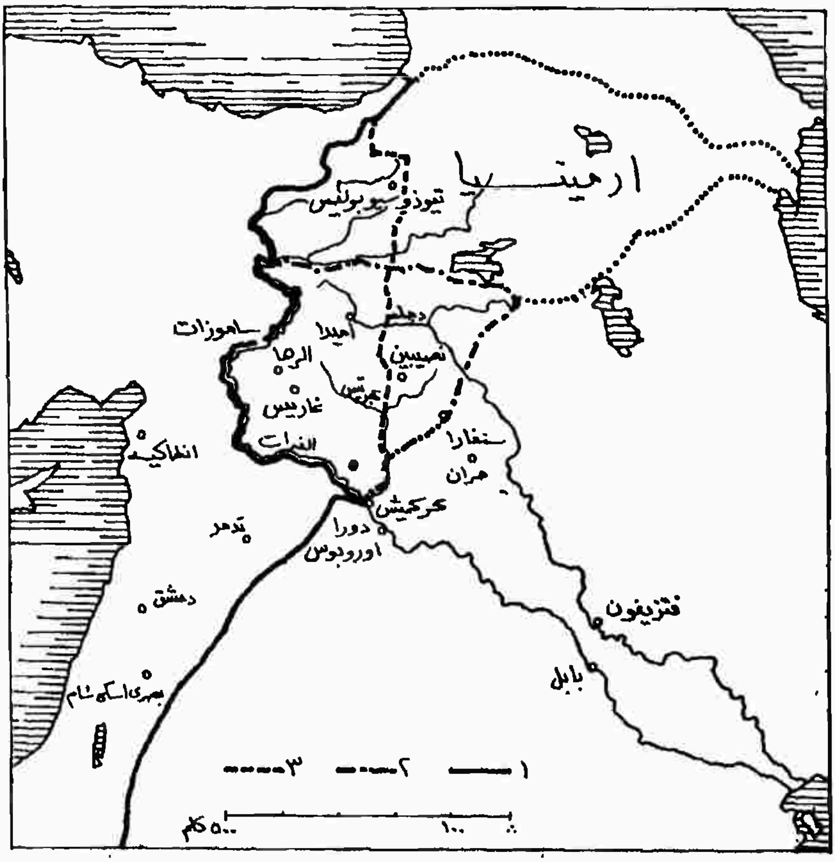

الشكل ٢٠ ـ حدود الامبراطورية شرقاً في القرن الرابع
١ ـ الحدود بعد هزيمة فاليريانوس في السنة ٢٦٠ ؛ ٢ ـ بعد حملات ديوكليسيانوس ؛ ٣ ـ بعد الاتفاق الذي عقد في عهد ثيودسيوس .

كتيزيفون ، وأصيب ، أثناء انسحابه ، بجرح مميت . فاضطر خلفه ، بغية إنقاذ الجيش ، للتخلي عن جميع الاراضي الواقعة وراء نهر الخابور : وهي لن تستعاد بعد ذلك .

بيد ان الفرس لم يدخلوا سوريا قط كما فعلوا في القرن السابق . فهم ايضاً واجهوا مشاغل اخرى : الغزاة الرحل في تركستان والقفقاس ، والنصرانية التي لم يفلح تصلبهم في استئصالها من مملكتهم ، والهيجان في ارمينيا التي ارادوا اخضاعها او فرض حمايتهم عليها على الاقل . وكان

خلفاء شاهبور الثاني دونه حزماً وتدبيراً . فارسل احدهم الى ثيودوسيوس وفداً قدم له الهدايا ، وتخلى اخيراً للرومان عن الجزء الغربي من ارمينيا حتى كارنا (ارزروم الحالية) التي اطلق عليها اسم « ثيودوسيوبوليس » .

اما الخطر الحقيقي ، المخيف ، فقد اتى من مكان آخر .

الرين

برزت المصاعب مرة اخرى على نهر الرين منذ السنة ٣٥٠ حين نودي بالقائد ماغنانس امبراطوراً . فدفع آخر ابناء قسطنطين ، كونستانس الثاني ، الذي مـــا زال على قيد الحياة ، احد ملوك الألامان الى اجتياز النهر في عملية تلهية ، بينما توجه المغتصب على رأس خيرة فرقه الى بانونيا وايطاليا كي يستطلع حظه فيهما : فشمل الغزو كافة انحاء غاليـــا الشمالية الشرقية .

استعيدت الحدود بعد ذلك ببعض المشقة لا سيما على يد جوليانوس الذي سحق الألامان على مقربة من سترا سبورغ في السنة ٣٥٧ . ولكن كونستانس الثاني كان مشغولاً بالدس حين انتقل اللقب الامبراطوري الى جوليانوس الذي توجه هو ايضاً الى البلقان على رأس خيرة جنوده.

توجب من ثم بذل المزيد من الجهود ، وعلى الرغم من الهمة القعساء التي برهن عنهـــا اسياد الغرب المتعاقبين، فالنتينيانوس الاول وغراسيانوس ، فان امد سلامة الدولة لم يطل قط . ومنذ نهاية القرن الثالث سمحت الامبراطورية لبعض القبائل الجرمانية، ولا سيما الفرنجية منها، بالاقامة عند مصاب نهر الرين ، مسندة اليها مهمة المحافظة على هـذا الجزء من الحدود . فاتسع آنذاك نطاق التعديات الجرمانية حتى شمل المنطقة الشمالية الشرقية من بلجيكا الحالية . ويعود تاريخ آخر حملة رومانية اجتازت نهر الرين من جهة كولونيا الى السنة ٣٨٨ ،وقد انتهت بهزيمة منكرة. ولن يلبث الغزو ، على طول نهر الرين ، ان يقذف بالبرابرة الى كافة انحاء غاليا .

وصول الهون وتعدي القوط

كان تصدع خطّ الدانوب، بفعل حصوله قبل تصدع خط الرين ، أدهى خطورة ايضاً ، لأنه عرض البلقان وايطاليا مباشرة للخطر .

جاءت الهزة من بعيد ، من قلب آسيا الوسطى ، التي اتجه منها نحو اوروبا جمهور غفير من الهيونغ – نو (أي الهون) الذين أقلقوا الصين زمنـاً طويلاً : دفعة لا تقاوم تعاظمت باستمرار بين البدو المختلفي الاجناس الذين تغلبت عليهم وجرتهم ، بقيادة رؤساء نجهل كل شيء عنهم ، مع اننا مضطرون للاعتراف بانفطارهم على قوة عزيمة نادرة ، وتحت ضغط ظروف بشرية واقتصادية ملحّة ، وبدافع الاحتقار للحضريين وجاذب الثروات التي ينتظر استلابها رجـــال الاخبية . دفـع هؤلاء المغول جنوباً بقبائل التركستان ثم ضموا اليهم الـ « ألين » وبلغوا روسيا الجنوبية حيث واجهوا القوط . فقدموا ، وسيقدمون طيلة قرن وأكثر ، اول مثـــل تاريخي معروف – يتيح تصور هجرة الهنود الاوروبيين على غرار الغزوات التي غمرت مصر وبلاد مـــا بين النهرين في الالف الثاني واوائـــل الالف الاول – لجولات وصولات شعوب وامبراطوريات

السباسب الشاسعة التي كان انهيارها النهائي صاعقاً على غرار نجاحها .

لم يكن القوط حينذاك جيراناً مقلقين للامبراطورية . فقد عرفوا الاستقرار ، ويقسمهم المعاصرون فئتين[1]. ويبدو ان فئة الاوستروقوط الشرقية قد ألفت دولة حسنة التنظيم فرضت حمايتها على بعض قبائل السباسب الروسية : فوُضع بذلك حدّ لأعمال قرصنتها . اما فئة الفيزيقوط الغربية فقد كانت أكثر اهتياجاً . اقام احد افرادها ، اولفيلا ، مدة طويلة في آسيا الصغرى في عهد قسطنطين . اعتنق الديانة المسيحية على المذهب الآري وسيم اسقفا وعاد الى مواطنيه وشرع يبشرهم بالانجيل : وفي سبيل ذلك نقل الكتاب المقدس الى اللغة القوطية التي اضطر لأن يضع لها أبجدية. بيد ان تبشيره قد اثار بعض الهيجان . فاضطر ، بعد سبع سنوات قضاها واعظاً ، الى الالتجاء الى الاراضي الرومانية ، مع جمهور من المؤمنين ، في السنة ٣٤٨ . فاستقل الامبراطور فالنس ، الذي شكا من الغزوات ومن العضد الذي لقيه احد المغتصبين ، هذه الاضطرابات الداخلية لبعث منافس مسيحي للزعيم الوثني .وبالاختصار ، لم يكن القوط ، بعد ان تأثروا بحضارة اعظم تطوراً ، ليشكلوا وحدهم خطرا ذا شأن.

ولكن ها هم الهون يجتازون نهر الفولغا حوالي السنة ٣٧٥ وينطبق عليهم آنذاك ، لا على ما سيكونون عليه بعد قرن ، وصف اميانوس مرسلّينوس الشهير : « هذه الحيوانات المفترسة السائرة على قدمين » ، هؤلاء الفرسان المزدرون بالتعب ، المختلفون شكلاً خارجياً عن الاوروبيين ، المرتدون الالبسة المرعبة، المتمشون على عادات تقز منها النفس، الزارعون الحريق في كل مكان . قضوا على مملكة ألاوستروقوط ثم قطعوا نهر الدنيستر ودنوا من الفيزيقوط الذين ما لبثوا ان انهزموا وطردوا نحوا ترانسيلفانيا أو الدانوب حيث التحق بهم الاوستروقوط الذين لم ينصهروا في زمر الهون .

استجار المسيحيون بالامبراطور.فسمح لهم فالنس باجتياز النهر املا منه بالاستفادة من رجالهم. ولكن القطيعة بينه وبينهم وقعت منذ السنة ٣٧٧، ومع ان عدد محاربيهم لم يجاوز الـ ١٠٠٠٠، فانهم قد حطموا ، في التاسع من شهر آب من السنة ٣٧٨ ، الجيش الامبراطوري في الشرق امام اندرينوبولس على الرغم من تفوقه عدداً ، وهلك فالنس نفسه ، واستحال العثور على جثته . سار الظافرون حينذاك نحو القسطنطينية . واذا هم لم يستطيعوا دخول اية مدينة ، فانهم قد نقلوا الخراب الى الارياف . فلم ير ثيودوسيوس بدّاً ، على الرغم من بعض الانتصارات التي ابعدت اسوأ الاخطار، من ان يتفق معهم بادخالهم في خدمته، وباغداق الوعود عليهم بالخدمات، وبالسماح لهم بالعيش بين الدانوب والبلقان .

امسى القوط منذئذ في الامبراطورية ، على غرار الفرنك ، ولكنهم توغلوا فيها توغلا ابعد ، والفوا كتلة اعظم تراصاً وبرهنوا عن مزيد من الجسارة . وبمكنتنا هنا ان نستعيد تعبيراً

---

(١) «اوستروقوط» لا تعني « القوط الشرقيين » بل اللامعين. وكذلك « الفيزيقوط » هم « القوط المعتدلون ».

لارنست ستاين ونقول ان يوم اندرينوبولس يحدّد « بداية نهاية » الامبراطورية الرومانيـــة كامبراطورية العالم المتوسطي .

الهجوم الشامل

فان المثل الذي اعطاه القوط والضربات التي سدّدت لقوة الامبراطورية ونفوذها قد دفعت باعدائها الآخرين الى التمادي في جسارة مطامعهم ومحاولاتهم : فانتقلوا الى الهجوم في كل مكان بعزيمة متزايدة واحرزوا انتصارات كثيرة .

قام بهـــذا الهجوم أصغر الشعوب عدداً : الايزوريون في آسيا، والاسماعيليون في الصحراء العربية والبليميون في مصر العليا . وفي افريقيا ، خرج البدو من الصحراء الكبرى ، والمنشقون من جبالهم ، مستغلين البلبلة التي اوجدهـا الاضطراب الاجتماعي في البلاد تحت ستر الهرطقة الدوناطية (نسبة لدوناط اسقف قرطاجة) ، والثورات التي نظمها بعض زعماء البرابرة او بعض الموظفين . وفي بريطانيا أكثر البكتيون والسكوتلنديون والايرلنديون من هجماتهم على الحاميـة العسكرية الرومانية التي عجزت عن المحافظة على سور هدريانوس ؛ ثم جاء السكسون عــن طريق البحر الشمالي؛ وفي اوائل القرن الخامس جرّ احد المغتصبين فرق الجيش وراءه الى غاليا، فأخليت الجزيرة التي لم يبق فيها، في السنة ٤٤١ ، أي بعد اربع وثلاثين سنة ، أي اثر للسيطرة الرومانيـة .

ما كان كل هذا، باستثناء الانشقاقات الافريقية الكبرى التي أوقفت تصدير الحنطة الى روما، ليرتدي طابع الأهمية العظمى لو لم تنتقل العدوى ، في الوقت نفسه ، الى قلب الامبراطورية . فالبرابرة، القدماء والجدد منهم على السواء ، شنوا الغارات على حدود الدانوب والالب وغاليا. فحدث ان قاومهم اسلافهم ، ولكنهم توفقوا اخيراً الى شق طريقهم . ولم يبق للحكومة الامبراطورية نفسها ، التي انقسمت ، بعد موت ثيودوسيوس ، الى بلاطين ، متعادلين غالباً ، منشقين بالدسائس ابـداً ، من مورد آخر سوى محاولة استغلال المنافسات بين الزعماء والزمر والشعوب .

ستتوفق القسطنطينية ، بفضل استنادها الى آسيا الصغرى ، الى ابـداء مقاومة اجدى . ولكن شبه الجزيرة البلقانية كانت الاولى التي تعرضت للخراب في كل اتجاه: بعد وفاة ثيودوسيوس، اجتاز الفيزيقوط « الاريك » تراقيا واليونان حتى البلوبونيز. فلنصغ الى الاحصاءات المحزنة التي ذكرها القديس ايرونيموس في السنوات الاخيرة من القرن الرابع : ها هو الدم الروماني يسيل كل يوم منذ عشرين سنة وأكثر بين القسطنطينية وجبال الالب الجوليانية . فبلدان سكيتيا (بلاد الغز) وتراقيا ومقدونيا ودردانيا وداسيا[1] وتساليا واخيا والابير ودلماتيا والبانونيتان

---

(١) توافق ولاية سكيتيا آنذاك منطقة دوبرودجا الحالية تقريباً . وبعد اخلاء داسيا الحقيقية ، اطلق اسمها على ولايات جديدة جنوبي الدانوب توافق ، مع دردانيا ، القسم الشرقي من سربيا القديمة .

أضحت فريسة القوط والسارماط والآلين والهون والفاندال والماركومان الذين اجتاحوهـا ومزقوها واستلبوها .

بعد ان عم الخراب البلقان ، جاء دور الغرب الذي لم يتردد بلاط الشرق في ان يحوّل اليه الغزاة المتكالبين على الثروات السليمة البكر . استهوتهم ايطاليا بنوع خاص فبلغوها بعد ان داروا حول الادرياتيك . وفي الرابع والعشرين من آب من السنة ٤١٠ ، دخـل « الاريك » روما ، التي كانت تحت رحمته طيلة السنتين السابقتين، وأخضعها لسلب دام ثلاثة ايام . ثم جاء دور غاليا واسبانيا حيث تدفق غزاة آخرون سبقوا اليها القوط عن طريق الرين . وجاء دور افريقيا نفسها اخيراً . ففي السنة ٤٥٥ دخل الفاندالي جنسريك، المستقر في قرطاجة ، الى روما التي أباح سلبها طيلة اسبوعين . ولكن مراكبه ، في السنوات الاخيرة ، غزت السواحل والجزر اليونانية : وهذا دليل على ان الشرق لم يحصل على سلام حقيقي بتخليه عن الشرق .

الفوضى

لنقف هنا في عجالتنا الخاطفة هذه: فلم نقصد من ورائها سوى ان نبين كيف نشأت وبأي عنف انفلتت عاصفة فوضوية ليس من هدف هـذا الكتاب تتبع تطورها وعواقبها من قريب او بعيد .

وفي الواقع ، عبثاً يبحث المؤرخ ، في هذه الفوضى ، عن حدث او تاريخ يستطيع ان يربط بها عرضه ويكتشف منعطفاً حاسماً في التطور . فاحتلال رومـا نفسها ، في السنة ٤١٠ ، قد أذهـل المعاصرين . ولكن الرمز الذي يشكله هـذا الاحتلال يستخلص قيمته الوحيدة من ماضي المدينة لا من حاضرها آنذاك – لا يستطع الاريك ان يختطف شخصية رسمية سوى غالا" بلاسيديا ابنة ثيودوسيوس وشقيقة الامبراطور هونوريوس، التي تزوج منها صهرها وخلفها اتهولف بعد سنوات ، بابهة عظمة في ناربونا – ولا من مستقبلها . والفكرة التي يوحيها اليوم هي تلك التي ادلى بها القديس ايرونيموس على الفور : « من كان يستطيع الاعتقاد بان روما ، التي يؤلف سافاتها هذا العدد الكبير من الانتصارات المحرزة على العالم باسره، ستنهار يوماً ؟» ولكن في هذا الذهول بعض السذاجة ، اذ ان شيبيون اميليانوس قد عرف ، قبل ذلك بخمسة قرون ونصف ، ان هذا الانهيار سيحصل يوماً بصورة محتومة . ولكن ما هو اقرب للصواب الدهشة التي يبعثها تدقيق يسمح به بعد الاحداث في التاريخ : فان هذا الحدث ، الذي يستهوينا وصفه بالعظيم ، ليس نتيجة أو بداية لاي شيء، بل مجرد عرَض في مركّب ابتدأ قبل ذلك بكثير ، وسيمتد الى ما بعد ذلك بكثير ايضاً .

كيف لا نعتبر ان هذا البطء وهذا الاندراس بالذات هما من عناوين مجد رومـا ايضاً ؟ فلم يقتض لهدم مـا شيدته مدة طويلة فحسب ، بل كانت هي نفسها منتشرة في عالم اصبح سكانه ابناءها ايضاً: وكان باستطاعتها الاستمرار في الحياة خارج الاسوار التي دخلها السلاّبون عنوة .

قضى الانسجام مع تقاليد ماضيها ، بالضبط ، ان يمسي هؤلاء البرابرة ابناءها بدورهم . وقد

خدمها اكثر من واحد باخلاص حتى ضد بني جنسهم . وأوحت ، حتى بعد سقوطها، الاحترام للعدد الاكبر منهم فتركت لهم إرثاً ما . ولكن الاستساغة لم تحدث . فهم كانوا كثيري العدد وهي لم تظهر امامهم ، كما في الماضي ، مزدانة بفتنة النصر . فهي قد ماتت ، لعمري ، لانها لم تستطع متابعة عملها التربوي .

لم يحل طول نزاعها دون موتها في القرن الخامس . واذا ما استطاعت القسطنطينية البقاء حينذاك ، فانها قد عاشت حياة حقيرة قبل ان تعرف ، في زمن لاحق ، ايام عز جديدة .

٢ ـ الصعوبات الداخلية

اذا كانت عودة الاخطار الخارجية واستمرار تجسمها بعد منتصف القرن الرابع يفسران اموراً كثيرة ، فيجب الا يحملانا على اهمال الصعوبات الداخلية التي بلبلت جهود الامبراطورية بلبلة دائمة وشلته شللاً احياناً . كان القسم الاكبر من هذه الصعوبات قديم العهد . وقد حاولت الامبراطورية ان تضع حلولاً جديدة لعدد منها دون ان تتوفق مع ذلك الى السيطرة عليها .

بديهي ان كل الصعوبات لا تستحق ، منذ الآن ، ان ندرس كلا منهـا على حدة . ولم تخل جماعة بشرية من الهموم الكثيرة التي اعاقها كل منها في تفتحها . بيد ان تسلسل هذه الصعوبات بحسب اهميتها يتضح للاجيال اللاحقة ، ان هو لم يتضح للمعاصرين . فلنقتصر اذن على الخطرين الاعظمين .

١ ـ انتقال السلطة والحروب الاهلية

سنفكر دون ابطاء ، بسبب الاضطرابات المادية التي تجرّ اليها الحروب الاهليـة ، بأزمات الخلافة في الامبراطورية وبالاغتصابات،تلك الامراض المزمنة في العهد الامبراطورى الذي لم يتوصل قط، طيلة مدّته ، الى وضع وتطبيق قواعد ثابتة لانتقال السلطة . بيد انه أفرغ كل مجهوده ، آنذاك وقبل ذاك ، وبصورة مبتكرة جداً احياناً ، وببعض الفعّاليـة اخيراً ، وفي ظروف دقيقة جداً ، بغية سدّ هذا النقص .

الظروف العامة

فالصعوبة ، في العهد الامبراطوري الثاني ، مصدرها الاول دروس الفوضى التي لقنتها ازمة القرن الثالث . واذا ما قدّر لبعض هـذه الدروس البقاء آنذاك ، فانها قد مزقت كافة الحجب : ولم يشك احد ، بعد رؤية هذا العدد الكبير من الاباطرة السريعي الزوال ، في ان رضى الجنود ، الخاضع نفسه لكل تقلب مفاجيء ، يتيح تسلّم السلطة والحفاظ عليها . فأمسى السعي وراء السلطة ، على ما في ذلك من مغالطة ، أكثر من طموح عادي بالنسبة للقائد : فهو احياناً حظه الاخير في النجاة من الموت الفوري الذي قد يجرّ اليه زوال حظوته . ففي السنة ٣٥٥ مثلاً ، حاول الفرنجي سيلفانوس ، الذي سبق له وأدى خدمات جلّى لم تمنع

أعداءه الشخصيين من ان يقدموا لكونستاس الثاني كل وشاية كاذبة عنه ، تخليص حياتـه بحمل أنصاره على المناداة به امبراطوراً في كولونيا: غير انه ارتكب خطأ فادحاً، اذ ان الامبراطور، الذي اكتشف ، في هذه الاثناء ، ما انطوت عليه هذه الوشايات من تجنّ وافتراء ، قد اضطر مع ذلك الى اعدام المغتصب قبل مرور شهر على المناداة به . نحن امام حادث لا طائل تحته في حدّ ذاته ، ولكنه يكشف عن المحاولات التي كان يدفع اليها الاتصال الدائم بالجنود .

نجمت الصعوبة ايضاً عن ثقل وشمول المهام المنوطة بالامبراطور . فمن حيث ان وجوده في كل الجبهات أمر مستحيل ، قضي عليـه بأن يرى باستمرار بروز منافسين جدد ، حيثما يتجمع جيش وتسنح فرصة لاكتساب مجد ما او شعبية ما لدى الجنود . واذا ما اضطر للتغيب لمحاربة عدو داخلي او خارجي ، فان غيابـه يكون كافياً لبروز منافسين آخرين . اجل كان بالامكان اشراك امبراطورين او أكثر : فهناك سابقة مارك أوريل ولوسيوس فيروس (*Lucius Vérus*) في العهد الامبراطوري الاول . ولكن هذا الحل يفرض اختيار الشركاء والمحافظة ، باتفاقهم ، على وحدة الدولة .

كان من شأن هذا الحل ان يبدو مغرياً جداً لأنه يوافق نزعة فطرية الى الاستمرار السلالي . فمنذ ان كان بشر وملكيات ، كان اشراك الابن في سلطة أبيه طريقة دارجة جداً لأنهـا تحول دون شغور السلطة عن طريق تأمين الوراثة . وقد اعتمدت الامبراطورية الاولى هـذه الطريقة أكثر مرّة غير مكتفية حتى بلقب الامبراطور للخلف المعين على هذه الصورة : فـان مارك اوريل قد منح ابنه كومودوس لقب « اوغسطس » محتفظاً لنفسه بالحبرية العظمى دون شراكة وبالنفوذ الذي يوليه اياه فارق السن . ومن جهة ثانية ، كان هذا الفارق حجر العثرة ، اذ ان هذا النظام ما كان ليسير سيراً حسناً إلا اذا بلغ الابن ، عند وفاة أبيه ، سناً تسمح له بفرض نفسه . ولذلك فقد استفيد ، في عهد الانطونيين، عملاً بمبدأ اختيار « الأجدر » ، من عدم وجود ابن شرعي للامبراطور ، طيلة أجيال عدة ، للجوء الى التبني .

وبالاختصار ، كان باستطاعة الملكية في العهد الامبراطوري الثـاني ، التي ألجئت الى تعيين مساعد ، بل عدة مساعدين ، للامبراطور ، بغية تأمين المهام الحكومية ، لا سيما العسكرية منها، والتي نزعت مع ذلـك ، على غرار سواها ، الى الوراثة السلالية ، ان تستند الى سوابق كثيرة . وهي قد عملت ، وفاقاً للظروف والبشر ، بهذه السابقة تارة وبتلك السابقة أخرى ، لا بـل أدركت خير ادراك ، غداة موت قسطنطين ، صعوبة تكاد تكون جديدة — فقد سبق مثل نيرون وبريتانيكوس ، ومثل ابني فسبسيانوس ، وخصوصاً مثل ابني سبتيموس ساويروس — بل هي جديدة على كل حال بحدة المنازعات التي أثارتها ، اعني بهـا تلك الناجمة عن امبراطور يترك عدة أبنـاء لا يفصل بينهم أي فارق كبير سناً او نفوذاً . فلا عجب من ثم اذا كلّفها الافتقار الى حق ملكي صريح وثابت ثمناً باهظاً من الحروب الاهلية .

نظام ديوكليسيانوس الرباعي

قد يكون من المملّ حقاً استعراض كافة الحلول التي جرّبت آنذاك. ففي القرن الثالث وحده نماذج وافرة عنها . وقد حدث في السنة ٢٣٨ ان اختار مجلس الشيوخ اثنين من اعضائه ومنحهما بالتساوي الالقاب نفسها والسلطات عينها بما فيها الحبرية العظمى التي أسندت للمرة الاولى الى شخصين في آن واحد . دام هذا التدبير الثنائي تسعين يوماً وانتهى ، شأن غيره ، بقتل المستفيدين منه . لنهمل اذن هذه المحاولات الفاشلة حتى نتوقف عند محاولة ديوكليسيانوس التي تنطوي على أهمية أعظم واقعية . فهي لم تكن سريعة الزوال ـ دامت أربع سنوات ـ وامتازت بأنها كاملة ومبتكرة ، اذ انها اضافت عنصراً جديداً ، هو الاستقالة في موعد محدد ، الى غيره من العناصر التي اوجدتها الاختبارات السابقة .

كان نظام « التترارشية » ، أي الحكومة الرباعية ، منذ زمن بعيد ، موضوع جدل ونقاش . فمنذ قرن ، فسّرها يعقوب بوركارت ، بأنها نظرية عالم،ربما انتسب الى« اسرة سييّس *Sieyès*» على حد قول احدهم . ولكن هذا القول ، لم يعد له من قيمة كبيرة في هذه الأيام : فان ديوكليسيانوس لم يتوصل الى هذا النظام إلا تدريجياً ، بخضوعه لشتى ضروب الضغط وبتعديل مقررات املتها انتهازية عملية . ولكن ما لا ريب فيه مع ذلك ، هو ان نظام حكومة رباعية قد قام بعد تسلمه الحكم ، وان واضع هذا النظام قد اعتقد بأنه وضع حداً بواسطته للأزمات التي غالباً ما تعرض لها العهد .

قضى هذا النظام بتعيين امبراطورين في آن واحد، يكون أحدهما، رسمياً ، شقيقاً للآخر، ويكون لهما الصلاحيات نفسها والألقاب عينها ، على ان يعتبر احدهما بمثابة البكر اي« الأقوى» و« الاول » بغية تحاشي كل خلاف بينهما . كما قضى بأن يعين ، الى جانب هذين الامبراطورين « قيصوان » يكون كل منهما مساعد الامبراطور الذي اختاره لجدارته دون أي اعتبار للنسب الطبيعي – فقد أقصي بعض الابناء – وتبناه حين اختياره . أضف الى ذلك ان كل قيصر كان يخلف امبراطوره حين وفاته او استقالته . ولم يتردد ديوكليسيانوس في اصدار قرار يقضي على كل من الرؤساء الاربعة بالاستقالة في مستهل السنة العشرين لممارسته السلطة . وقد استقال هو نفسه في اول ايار (مايو) من السنة ٣٠٥ ، متجاوزاً الأجل بسبعة عشر شهراً فقط بغية ارغام « اخيه »مكسيميانوس على احترامه ، ومتيحاً بذلك ارتقاء القيصرين الى مصف امبراطور ، واختيار قيصرين جديدين .

أمام هذا النظام ، لا نعلم في الحقيقة ، ما هو الأجدر باعجابنا : الابتكار ، أم الصرامة ، أم السذاجة . فهو قد استلزم مبدئياً المحافظة الدائمة على الاتفاق ، أقله بين الامبراطورين. وقد أهمل بعض العواطف الفطرية : الرغبة في الاستمرار عن طريق الابناء والأحفاد ، النفور من الاستقالة ، وجزع القياصرة بالتبني ، ويأس الابناء المحرومين من الإرث الوالدي . اجل قضى الاختبار بأن لا يستسلم لهذه الأوهام امبراطور استقال في سن الستين . ولكنه استطاع التأكد،

قبل ان تدركه المنية في السنة ٣١٣ ، من فشل نظامه وتخلي المسؤولين عنه نهائياً . فقد سددت له الضربة الاولى منذ السنة ٣٠٦ ، حين سارع الجيش المرابط في بريطانيا، الذي توفي الامبراطور كونستانس كلور بين وحداته ، بالمناداة بابن الفقيد ، قسطنطين ، دونما اكتراث لقيصره . ومنذ السنة ٣١٠ كان في العالم الروماني عشرة اشخاص يحملون لقب امبراطور ، لا يدخل في عدادهم ديوكليسيانوس الامبراطور الشرفي : فأخذت الفوضى تخيم مرة أخرى .

حل قسطنطين المترجرج

بعد حروب طويلة باهظة الثمن ، استعادت الامبراطورية السلم الداخلي بقيادة سيد فرد ، هو قسطنطين الذي لم يأبه للعودة الى النظام الرباعي . واذا استحال القول بأنه لم يفكر بأمر الخلافة ، فمن غير المعقول ان المقررات الوحيدة التي اتخذها تقابل مشاريعه النهائية . فهو قد اقتصر ، قبل وفاته بسنتين ، على تقسيم الاراضي الامبراطورية خمسة اجزاء ، أسندت ولاية ثلاثة منها ، وهي الاجزاء الكبرى ، الى ابنائه الثلاثة ، وولاية الجزئين الآخرين الى اثنين من ابناء اخوته .

فهل هذا حله الحقيقي يا ترى ؟ اذا كان الجواب ايجاباً ، فمعنى ذلك انه كان ، قبل الميروفنجيين *Mérovingiens* والكارولنجيين *Carolingiens* ، بزمن بعيد ، اول من ذهب حتى الحال في تطبيق مفهوم غريب هو مفهوم الدولة الملكية كإرث عادي. ولكن ذلك يعني اما تصديع الدولة واما الالقاء بها في منازعات جديدة ، في حال انه يستحيل الاعتقاد بامكان وجود مثل هذا العمه عند ذاك الذي صادف صعوبات كثيرة في اول عهده . فالأجدر بنا، من ثم، الاعتقاد بأنه احتفظ لنفسه ، بعد امتحان الامراء الخمسة ، بحق الاختيار وتعيين الامبراطور الحقيقي الذي يخلفه في دور التنسيق . ولكن الموت لم يترك له الوقت اللازم لذلك .

حكم الجماعة في استمرار الوحدة

لنضع حداً لهذه النظرة التاريخية التي لم تضعنا ، على كل حال ، امام اي حل جديد . اما الجديد الذي تحقق ، فعملي اكثر منه قانوني ، وفي ذهنية المسؤولين والرعايا اكثر منه في المقررات الامبراطورية .

فمن جهة ، ما عادت السلطة العليا لتتجسد الا استثناء في امبراطور فرد. فقد ملك قسطنطين وحده ثلاثة عشر سنة ، من السنة ٣٢٤ حتى وفاته . ومنذ السنة ٣٥٣ ، تعاقب طيلة عشر سنوات الاباطرة : كونستانس الثاني وجوليانوس و جوفيانوس . ولكن الملك الفردي ، لن يعود بعد ذلك ، إلا خلال الاشهر الاربعة التي سبقت موت ثيودوسيوس في شهر ك ٢ (يناير) من السنة ٣٩٥ ؛ ولا وجود له مع ذلك الا عملياً، لا قانونياً، اذ ان اخوين، هما ابنا الإمبراطور، قد حملا حينذاك لقب امبراطور ايضاً . فمدّة عودته قصيرة جداً : اذ ان الشراكة كانت ضرورة ملحة لأسباب عملية .

بيد انه يجدر بنا ان لا نخطىء في فهم هذا الواقع: فالمقصود شراكة وجمعية لا تقسيم اقليمي، او دستوري اذا جاز التعبير . الامبراطورية واحدة نظرياً مع ان كل امبراطور ، سواء عين

معه قيصر ام لا ، او امبراطور آخر أقل نفوذاً ، كان مكلفاً عملياً ادارة قسم منها او الدفاع عنه. ولم يكن أي امبراطور جديد ليُقبل رسمياً في هذه الهيئة إلا بعد موافقة زميله او زملائه، ولم تكن وحدة التشريع شيئاً نظرياً فحسب -- دون ان نرى حتى اليوم ، على كل حال ، كيف توصلوا الى الابقـاء عليها . والمصير المختلف الذي قرره البرابرة « لشطري » الامبراطورية هو وحده بالنتيجة الذي أفضى الى التمييز بين امبراطورية شرقية وامبراطورية غربية ، وقد تكرس هذا التمييز في الوقائع زمناً طويلاً قبل الاعتراف به رسمياً . لا بل ان الاعتراف الرسمي لم يحصل قط في العصور القديمة مهما تجاسرنا في اطالة هذه العصور . ففي السنة ٤٧٦ ، حين اعاد « الاسكير » اودواكر (ابن اتيلا) الى القسطنطينية ، التي كان متربعاً على عرشها الايزوري تاراسيكوديسا باسم زينون اليوناني ، الشارات الامبراطورية الموجودة في ايطاليا ، اعتبر رجال القانون الشرقيون ان وحدة الامبراطورية ، التي ما زالت قائمة في نظرهم ، قد توطدت في الواقع: وهذه المزاعم هي التي سيستند اليها جوستينيانوس في وقت لاحق قريب . ولكن « الاجماع »، وهو موضوع تغن دائم ، قد فقد معناه منذ زمن بعيد .

قبل ان يتحقق كل ذلك ، أضر تعدّد الاباطرة بالامبراطورية. وكان عجيباً ان يسود الاتفاق فيا بينهم بصورة دائمة . وجرت اقامتهم في مقرات بعيدة الى ازدواجية البلاطات والاجهزة المركزية . وقد اصطدم تصميم الملوك على الاتفـاق ، حتى ولو كان مطلقاً وحازماً ، بشتى بوادر البطء او القلة بانانية مستشاريهم ودوائرهم وحتى الاهالي انفسهم . اضف الى ذلك ان العمل العسكري ، الذي يستلزم وحدة القيادة ، قد تجزأ أو تقهقر أو ارتدى طابع السرعة بفعل الجهل أو الخساسة : فان فالنس مثلاً ، رغبة منه في احراز النصر منفرداً ، قد هاجم القوط امـام اندرينوبولس دون ان ينتظر وصول الامبراطور الآخر الذي كان متوجهاً لنجدته . وهكذا فان العهد الامبراطوري الثاني ، الذي الجأته الظروف الى الحكم الجماعي ، قد تأثر بمساوئه .

الفكرة السلالية وفشل الاغتصابات

هنالك جدة اخرى لامراء فيها ، الفكرة السلالية . لم يعرف القرن الرابع ما عرفه القرن الثالث ، وحتى القرن الاول ، من اضطرابات . فبعد ان شهد سلالة قسطنطينية وسلالة فالنتينية، ترك للقرن الخامس سلالة ثيودوسية. أجل لم تكن الجدة في اشتراك الابن أو الابناء مع ابيهم ، ولا في استمرار حكمهم ، زمناً طويلاً أو قصيراً ، بعد وفاة هذا الاخير ، بل في لجوء الامبراطور نفسه الى عائلته : فقسطنطين قد فكر بابناء اخوته، وفالنتينيانوس الاول قد اشرك اخاه فالنس معه . وبلغت الفكرة العائلية من القوة ما حملهم على ايجاد رابطة زواجيـة بين سلالة واخرى : حين بلغ غراسيانوس السادسة عشرة من عمره زوّجه ابوه فالنس من حفيدة قسطنطين البالغة من العمر ١٣ سنة ، ولم يتزوج ثيودوسيوس من ابنة فالنتينيانوس لمجرد جمالها فقط .

لا يعني كل هذا ان تاريخ هذه السلالات قد استمر هادئاً ابداً. فان تاريخ العائلة القسطنطينية

بنوع خاص يقدم لنا امثلة متعاقبة وافرة عن مآسي البلاط والاغتيالات والخصومات بين الاخوة التي ادت الى الحرب الاهلية . وحدثت ايضاً ثورات واغتصابات رافقهـــا اغتيال الامبراطور الشرعي . بيد ان اية حادثة من هذه الحوادث العنيفة ، على نقيض ماجرى في القرون السابقة ، لم تنته بانتصار المغتصب . ولعله من حسن طالع جوليانوس ، الذي نادى به جنوده امبراطوراً في لوتيسيا ، ان مات ابن عمه قسطنطين الثاني قبل ان يصطدم الجيشان . وهو الثائر الوحيد في ذاك العهد الذي نجحت محاولته ، وليس انتماؤه الى العائلة القسطنطينية بغريب عن نجاحه .

يبدو جلياً من ثم ان شعوراً بالاخلاص للسلالة قد بدأ يظهر ويؤثر حينذاك على الرغم من موانع كثيرة. ولعل افضل دليل على ذلك ان عدم كفاءة أعقاب ثيودوسيوس سياسياً وعسكرياً لم تحل دون موتهم موتاً طبيعياً . ولم يحدث ان اغتيل احد حفدته إلا في السنة ٤٥٥ : ومنـذ نشأة الامبراطورية لم يقدّر قط لأباطرة على مثل هذا الهزال ان يستمروا في الحكم هذا الوقت الطويل . والدليل الآخر هو عدد القادة البرابرة الضئيل – ثلاثـة او اربعة – الذين حاولوا ، على الرغم من القوة التي تمتعوا بها ، اغتصاب اللقب الامبراطوري.فقد اقترب الهدف الذي كثيراً ما طمح اليه دون جدوى كافة الاباطرة منذ اربعة قرون : ان احترام الارجوان الامبراطوري كان سائراً ، تدريجياً ، في طريق الاستقرار . ويجوز لنا ، بهذا الصدد ، ألا نجزم بعدم جدوى جهود الملكية في العهد الامبراطوري الثاني في تنظيم انتقال السلطة .

استمرار داء الامبراطورية المزمن

ومع ذلـــك ، فمهما يكن من ضآلة عدد الاضطرابات بالنسبة لمقتضيات منطق تخلخل النظام ، فان الاضطرابات قد قامت ، ويعرضنا اهمالها لعدم فهم حضارة هذا العهد . اجتاحت الامبراطورية حملات داخلية تصادم فيها جيشان تتعهدهما الامبراطورية للدفاع عنها. وقد عرفت الامبراطورية ايضاً مذابح الحروب الاهلية وشدّة وطأتها بالاضافة الى ما عرفته من وطأة وعنف الحروب الاهلية . وقد رافق هذه النزعات ، أكثر من مرة طلبات التدخل الاجنبي التي شكلت خيانات حقيقية . فهي قد حوّلت الجنود ابداً عن القيام بواجبهم ، وخدمت ، باضعاف حراسة الحدود ، العدو الذي كان يتحين الفرصة للاعتداء عليها: فأدت كل حرب اهلية الى تجسيم الخطر الخارجي .

قام النظام بما لم يقم به أسلافه لمعالجة داء الامبراطورية الوراثي هذا . ولكنه لم يتوفق إلا الى تخفيف ضرره فقط . ولكن هذا الضرر ما زال كافياً لأن يلحق بالناس إساءة فوق إساءة في ممتلكاتهم وألماً فوق ألم في أجسادهم وحزناً فوق حزن في نفوسهم .

٢ ـ النزاعات الدينية

كان باستطاعة الديانة وحدها ، امام هذه الاحزان، ان توفر التعزية والسلوان. وسنبين في الصفحات التالية انها لم تتخلف عن القيام بهذا الواجب : فان الآلام النفسية المبرحة والمستمرة

قد ساندت الانطلاقة التي أحيت الشعور الديني ووطدته منذ القرن الثاني . ولكن الحرارة التي رافقت هذا الشعور قد أثارت بدورها بعض النزاعات التي غالباً ما تشابكت بالنزاعات الاخرى، الحروب الأهلية وحتى الخارجية ، التي زاد هواها عنف التعصب الديني .

السلم الديني وانتشار الديانة المسيحية في اواخر القرن الثالث

اذا كان القرن الثالث قد دشّن الاضطهادات الكبرى ضد المسيحيين، فان هـــذه الاضطهادات ، قد توقفت في السنة ٢٦٠ وعرفت الديانة المسيحية حينذاك اربعين سنة تقريباً من السلم الخارجي أفادت منهـا افادة كبيرة .

ما كانت الحكومة لتستطيع تجاهل وجودهـــا أو انتشارها العلنيين . فلم يتستر رؤساءها واتباعها بل عملوا على مرأى من الجميع: فقد شيدت الكنائس الجديدة وأحدثت المدافن . وبعد ان استعاد اوريليانوس انطاكيــة من التدمريين اضطر للفصل في نزاع قسم المسيحيين في هذه المدينة : ففصل فيه لمصلحة اولئك الذين يؤيدهم أساقفة رومـا وايطاليا ضد اسقف انطاكية السابق ، بولس الساموزاتي الذي عزل بسبب الهرطقة المنسوبة اليه . لا ريب في ان علائق بولس بزنوبيا ، كان لها أثرها في القرار الامبراطوري . ولكن في هذا القرار ، مـــع ذلك ، اثباتـاً لتساهل رسمي لم يدخل عليه ما يعكره طيلة النصف الاول من ولاية ديوكليسيانوس. فلا عجب من ثم اذا تكاثرت الارتدادات التي حصل بعضها في بطانة الامبراطور نفسها . ومنذ القرن الثالث أصبح المسيحيون اكثرية في آسيا الصغرى وفي جزء من تراقيا ؛ وفي الأماكن الأخرى ، لا سيا في الشرق ، كانت الديانة المسيحية آخذة بالانتشار . ورغبـة في الاختصار نقول ان افسيفيوس ، اسقف قيصرية ، ربما اعتمد المغالاة في « التاريخ الكنسي » رغبة منه ، عن طريق المقابلة ، في اظهار فظاعة الاضطهاد القريب ؛ بيد ان اللوحة المعطوفة التي يرسمهـا حينذاك عن علائق المسيحيين بالمجتمع العلماني تبدو ، في خطوطها الكبرى ، منطبقة على الواقع .

اضطهاد ديوكليسيانوَس

وفجأة ، تبدل كل شيء .

فما هو سبب هذا التبدل يا ترى ؟ لكل مؤرخ تقريباً تعليـــله الخاص . فدون أن ندخل في التفاصيل ، نرى أن أقرب الأدلة للعقـل والمنطق هو ذاك الذي يربط بين اضطهاد ديوكليسيانوس والنظـام السياسي الديني الذي انتهى الى إقراره : وسنرى ان الانحراف عن الوثنية كان معناه ، في نظر المسؤولين ، التباهي بعدم الإخلاص وعدم الموالاة . أضف الى ذلك ان بعض الحوادث قد جرت في الجيش ، أقله في افريقيـا : كإقدام بعض المجندين الجدد او القدماء ، وحتى الضباط ، على رفض القيـام بالخدمة العسكرية . ولم يبرهن المسيحيون جميعهم عن انهم رعايا خاضعون تماماً للموجبات المدنية . وما زالت الهرطقة المونتانية ، التي رأى رأيها ترتوليانوس *Tertullien* الافريقي في البداية ، تنبت فروعـاً على الرغم من حكم الكنيسة عليها . فقد يكون ديوكليسيانوس ، ذلك الجندي الذي أصلح الدولة ، قد رغب في اعادة الوحـــدة

والنظام الادبيين بمثل الشدة التي اعاد بها الوحدة والنظام في الحقول الاخرى. ولعله ، اخيراً، بحسب التقليد المسيحي ، تأثر بالحاح قيصره غاليريوس ، الوثني النشيط ، وبآراء العرّافين . ولكننا مضطرون للاعتراف بأن هذه التفسيرات كلها لا تشبع نهم العقل ، لأن كلاً منها يقابله تفسير آخر يضعفه . ولا تزال معضلة أسباب الاضطهاد ، دون حلّ منطقي. ولكن الامبراطور نفسه، بصرف النظر عن كل الاعتبارات ، لا يخضع دائماً للمنطق وحده .

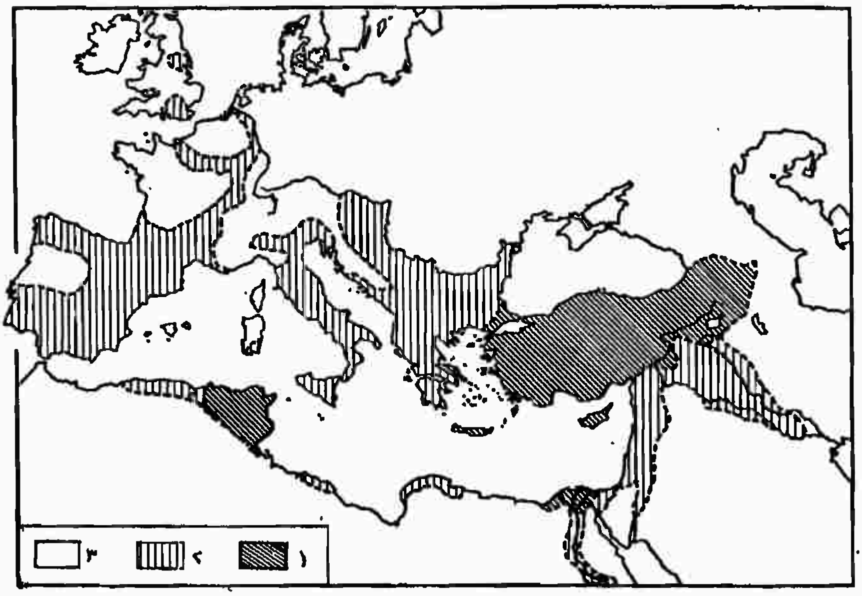

الشكل ٢١ - النصرانية في اواخر القرن الثالث
١ - مناطق تضم نسبة مرتفعة ، وربما اكثرية ، من المسيحيين ؛ ٢ - مناطق دخلتها النصرانية ؛ ٣ - مناطق لم تدخلها النصرانية بعد .

ولكننا ندرك ادراكاً أفضل التدبير المتعصب الاول الذي استهدف المانويين في السنة ٢٩٧ . فقد اشعت عقيدتهم بنوع خاص من اراض خاضعة للمملكة الساسانية ، أي من اراض عدوّة . وان البراءة ، التي ساوت بين ممارسات تقواهم وممارسات السحر والتي قضت بنفيهم أو بموتهم، قد صدّقت في الاسكندرية في اعقاب استعادة مصر حيث ساند الملك الفارسي أحد المغتصبين . فكانت من ثم تدبير حرب وتدبير سياسة دينية معاً .

وكان ما صمم ديوكليسيانوس على تنظيمه ضد المسيحيين تدبيراً لا يعرف للشفقة معنى ايضاً . ولكن عمله هذا قد نفذ في عهد متأخر وبصورة بطيئة ولم يصل إلا تدريجياً الى تدابير مماثلة لتدابير داسيوس وفاليريانوس بشمولها وعنفهـا . فتقرر في الدرجة الاولى تطهير البلاط والجيوش والادارات واقصاء االذين يرفضون تقديم الذبيحة . ثم جاءت المراسيم . فتعاقب اربعة

منها خلال السنة ٣٠٣ وفي اوائل السنة ٣٠٤ ، وارتدى كل منها ، بالنسبة لما سبقه ، مزيداً من الشدة بسبب اشتداد الصراع : وبنوع خاص ، عزيت الى المسيحيين الحرائق التي اندلعت في قصر نيكوميديا الامبراطوري حين اقامة ديوكليسيانوس وغاليريوس فيه . اقتصر المرسوم الاول على حظر الاجتماعات واقرار هدم الكنائس ومصادرة الكتب المقدسة واتلافها . ثم أرغم العلمانيون أخيراً ، على غرار ما حدث قبل ذلك بخمسين سنة ، على تقديم الذبيحة ، تحت طائلة عقوبات متفاوتة الصرامة قد تصل الى الموت احراقاً .

يعتبر التقليد المسيحي هذا الاضطهاد أقسى الاضطهادات شدّة . ومهما يكن من الامر ، فانه أطولها امداً . ولكن مدته وشدته قد اختلفتا كثيراً باختلاف مناطق الامبراطورية . وبسبب ازدياد عددالمسيحيين الذي زاد من المخالطات في الحياة العامة، لم تنفجر الاحقاد الشعبيةانفجارها في الماضي ، على ما يبدو ، بغية ارغام الموظفين والقضاة على استعمال الشدة . فقد خضع كل شيء بالتالي لميول هؤلاء الشخصية ، الحليمة جداً في أغلب الاحيان ، وفي الدرجة الاخيرة للتعليمات المتفاوتة شدّة التي يتلقونها . وقد صدرت هذه التعليمات عن الامبراطور او عن القيصر الذي ترتبط به الولايات . ففي غاليا وبريطانيا المرتبطتين « بكونستانس كلور » ، أرفق بالاشخاص وأسيء الى الممتلكات أدنى إساءة يفرضها احترام سلطة ديوكليسيانوس : ومال كونستانس شخصياً الى التساهل لا سيا وقد بدا ضعف الديانة المسيحية في ولاياته خلواً من أي ضرر ممكن . اما في أنحاء الغرب الاخرى فقد كان الاضطهاد عنيفاً ولكنه كان قصير الامد ايضاً لأن مكسيميانوس قد استقال منذ السنة ٣٠٥ . ولم تشتد وطأته اشتداداً طالت مدته إلا في الشرق حيث توقف في السنة٣١٣وتجدّد حوالي السنة ٣٢٠ ولم ينته إلا بانتصار قسطنطين على ليسينيوس في السنة ٣٢٤ .

تنصر قسطنطين : اقتناع ومصلحة

اعاد هذا الانتصار وحدة الامبراطورية تحت سلطة سيّد فرد، سيد مسيحي هذه المرة . هكذا انتهى — بعد ان أصبح قسطنطين مسيحياً — العهد المضطرب الطويل الذي ابتدأ في السنة ٣٠٦ ، حين نادى به امبراطوراً ، في بريطانيا ، جنود أبيه المتوفى . ولا مجال للدهشة امام الأهمية التي ترتديها هذه الأحداث وهذا الارتداد ، اذا ما نظرنا الى نتائجها بالنسبة لتطور الانسانية جمعاء في العصور اللاحقة . وقد أثارت هذه الأهمية شتى المناقشات منذ زمن بعيد .

وان ما سهّل هذه المناقشات الصفة التاريخية الركيكة والتحيز الواضح في المصادر الأدبية المسيحية التي تعظم قسطنطين على حساب أعدائه المتعاقبين . اضف الى ذلك ان العوامل المختلفة الكثيرة التي كان لها أثرها حينذاك قد زادت في البلبلة والغموض . ثم ان الخصومة قامت بين أشخاص عديدين . ولم يتظاهر أي واحد منهم باللامبالاة الدينية، لا بل لم يشعر بها : فقد كان العصر مندفعاً بالكلية ، ومن الجهتين ، نحو الخرافات بالتفضيل على العنادية . ومع ذلك فقد جاش في الجميع طموح وحشي ايضاً بحيث يتعذّر معرفة أية عقيدة أو أي طموح قد سيطرا على

كل منهم في هذه الفترة او تلك وفي هذه الدرجة او تلك من المنافسة بينهم ، ما لم نتوصل الى الوقوف على سرّ كل نفس على حدة . ولنضف هنا ان كلاً منهم قد استند الى اقليم وطمح الى أقاليم أخرى . ولكن المسألة الدينية ، في كل مكان ، قد عبرت عن وجه خاص متميز من أوجه الظروف المحلية . فقد كان بالامكان الاعتقاد بأن لباريس قيمة قداس ، او قيمة براءة نانت على الاقل ؛ غير انه كان بالامكان ايضاً ، من جهة ثانية ، القنوط من الحصول على مساعدة طائفة تسير وراء منافس، او على حيادها، وبالتالي القنوط من القضاء عليها . لذلك فان تبدلات السياسة الدينية قد أملاها آنذاك ، في وقت واحد ، الهوى والمصلحة ، بنسبة تختلف باختلاف الطبائع ، والظروف ، والمعلومات والتخمينات حول واقع الرأي العام ، ووحي وحتى رهان الساعة . ولا يمكن لمنازعات متعددة المعطيات كهذه إلا ان تكون معقّدة جداً : فكيف لا تبقى حتى اليوم على جانب كبير من الغموض ؟

انها لمنازعات غامضة ولكنها خلابة . ويعترينا الخجل لاننا لا نستطيع هنا ان نقدّم ، الا بايجاز هزلي ، اهم قضية تنجم عنها: قضية ارتداد ، أو بالاحرى ، تنصر قسطنطين. فقد وجدت لها حلول كثيرة وان قريحة المؤرخين من علماء النفس لم تنته بعد، في الارجح ، من اكتشاف حلول اخرى جديدة . والجدل قائم اليوم ، انطلاقا من المصادر المختلفة ، التي يولي النهج النقدي فيها مركزاً ممتازاً للمسكوكات، حول تاريخ هذا الارتداد، واسبابه ، ونتائجه المباشرة ، وبالتالي حول صدقه وحتى حقيقته. يفسره البعض بوحي الهي نزل على قسطنطين في احدى الليالي التي سبقت المعركة التي شنها على مكسانس ، على ضفة التيبر اليمنى ، فوق جسر ميلفيوس ، الى الشمال من روما ، في الثامن والعشرين من شهر ت١(اكتوبر) من السنة ٣١٢ ، وهؤلاء يرون عادة في الامبراطور مسيحيا مقتنعاً . وعلى نقيض ذلك فان غيرهم يفسرونه كتظاهر املته ، دون اي اقتناع، انتهازية سياسية مدروسة. وهنالك ، بين هذين الحلين المتطرفين، حلول اخرى كثيرة لن نتولى تحديدها أو درسها . فيكفي قولنا اعلاه ان اللامبالاة لم تتمكن من النفوس آنذاك للدلالة على اننا نصرف النظر عن كل حل تستلزمه : فعلى غرار اوغسطس من قبل، تصرف قسطنطين تصرفاً آخر . ولكن يبدو من المستحيل ايضاً ان ننكر انه قد اعتقد ، باقدامه على تخليص شخصه، الذي لم يفصل بينه وبين الامبراطور ، بانه انما يخلّص الدولة ايضاً : وان الاله الذي كان قد اولاه النصر على مكسانس ، ثم على ليسينيوس بعد مرور اثنتي عشرة سنة ، لن ينقطع عن ارشاده وحمايته وارشاد وحماية خلفائه . فكان الإرتداد بهذا المعنى ، بالنسبة لقسطنطين ، عملية سياسية ايضاً : واذا اعوز تنصره الرقة ، ويقي « خشناً » ، كما قال المطران دوشين ، فقد اعوزه التجرد ايضاً .

تساهل وامتيازات

مهما يكن من الأمر ، فقد كان سيد الامبراطورية مسيحياً : فهل تسير الاضطهادات في اتجاه آخر ؟

تمشى قسطنطين على مبدأ التساهل . وهو قد ورث التساهل عن والده ، ذلك التساهل الذي

بدا ، خلال هذه الحروب، لكثير من الناس ، وكأنه الحل الوحيد. وقد اضطر غاليريوس نفسه، عدوّ النصرانية اللدود ، الى القول به . فحين أصيب بمرض عضال ، قبـل وفاته بأيام معدودة ، في ربيع السنة ٣١١ ، سلّم بنشر براءة اعترف فيها صراحة بفشل الاضطهاد وأعاد للمسيحيين حرية عبادتهم : « عليهم أن يبادلوا حلمنا بالصلاة لأجل خلاصنا ولأجل الدولة ولأجل نفوسهم، حتى تنعم الدولة بازدهار تام ، وحتى يستطيعوا العيش في بلادهم بطمأنينة » . ولم تلـغ هذه البراءة قط من بعده . وفي اوائل السنة ٣١٣، قبل ان يصطدم ليسينيوس« بمكسيمينوس دايا »، الذي لم يعمل بها في الشرق ، اجتمع ليسينيوس هذا في ميلانو بقسطنطين ، الذي سبق له وانتصر على مكسانس واصبح سيد الغرب . فاسفر هذا الاجتماع عن تعليمات بمكنتنا ان نحفظ لهـا ، اصطلاحاً ، اسمها التقليدي « براءة ميلانو » . وقد اصدر ليسينيوس امره فيها باعادة الممتلكات المصادرة من المسيحيين ونادى بالتساهل حيال كافة المعتقدات : « بعد البحث بكل عناية عما يمكن ان يكون نافعاً للخير وسلام الدولة ، وعما يمكن ، في جملة ذلك ، ان يؤدي خدمة لاكثرية الناس ، رأينا قبل كل شيء آخر وجوب تسوية كل ما هو مختص بالاحترام الواجب للذات الالهية ، بغية اعطاء المسيحيين وكافة المواطنين حرية التمشي على الدين الذي يختارونه». ولم يضف قسطنطين شيئاً الى ذلك بعد ان انتصر على ليسينيوس في السنة ٣٢٤ واصبح مضطهداً بدوره، حين اعلن، محاولاً طمأنة وثنيي الشرق : « ليسر كل منكم على الرأي الذي يفضل » .

غير ان هذه التصريحات لم تحل دون فقدان توازن كان من المستحيل على كل حال المحافظة عليه اذ ان الرجل والامبراطور كانا شخصاً واحداً .

انه لمن الشطط لعمري ، على الرغم من بعض الحوادث النادرة ، الكلام عن الاضطهاد ضد الوثنية . فقد استمرت طقوسها في الحياة الرسمية ؛ وهي الضرورات المالية التي اوجبت جرد ممتلكات المعابد، دون ان يكون لدينا اي دليل على المصادرة . ولم يُقصد كذلك سوى ايجـاد المساواة من ترميم الكنائس القديمة ، وتشييد الكنائس الجديدة ، واعفاء الاكليروس المسيحي من الموجبات المالية الذي تمتع به الكهنة الوثنيون من قبله والذي لن يلبث الكهنوت اليهودي ان يحصل عليه . وكان من الطبيعي ايضاً ان تعدّل الشرائع التي لا تأخذ الاخلاق المسيحية بعين الاعتبار : بالغاء العقوبات القانونيـة التي اصابت منذ اوغسطس ، في مادة الارث ، العازبين والمتزوجين الذين لم يرزقوا اولاداً .

ولكن قسطنطين ذهب الى ابعد من ذلك. فان بعض الذبائح على الاقل – ونحن لا نعرف اياً منها – قد حرّمت. وغدا يوم الأحد يوم الراحة القانونية وحظّر القيام فيه باي عمل رسمي غير الاعتاق . واعتبر القانون الاعتاق الذي يحصل في الكنيسة ثابتاً شرعياً كذاك الذي كان يحصل بحسب الاجراءات السابقة . وتقلد الاساقفة حقّ السلطة القضائيـة على اعضاء اكليروسهم . واعترف بتحكيمهم المبرم في الدعاوى المدنية بين العلمانيين حتى ولو لم يطلب هذا التحكيم سوى احد الطرفين فقط . وقد بلغ من افراط هذه الامتيازات ان فرض احد خلفـاء قسطنطين رضى

الطرفين وان الاعتراض على السلطة القضائية الجنائية على الكهنة قد توالى حتى اواسط القرن الخامس .

ان مثل هذه التدابير تتخطى إطار الاقتناع الشخصي . وليس لها من تفسير سوى الرغبة في جعل الكنيسة جهازاً رسمياً واشراكها في حياة وسير الدولة وتقوية الدولة بما لرؤساء الكنيسة من تأثير على المؤمنين . وهكذا فان الديانة المسيحية ، بفعل انقلاب الوضع انقلاباً غريباً وشبه محتوم ، اصبحت تدريجياً دين دولة بعد ان كانت في الأمس القريب ديناً محرماً .

نهاية الوثنية

ومع ذلك فان الديانة المسيحية كانت ابعد من ان تحرز غلبة نهائية عند وفاة قسطنطين . فما زالت الوثنية محتفظة بمراكز قوية جداً . كان الجيش ، باكثريته ، متمسكاً بها . وما زال ينتسب اليها كافة رجال الفكر المشهورين تقريباً . وما زالت تعتنقها ، بنسبة كبيرة ، لاسيما في روما ، العائلات الجلسية التي تمتلك ثروة عقارية طائلة وتقدم للدولة عدداً لا يستهان به من كبار الموظفين . وكان من الممكن ، لو قدّر لامبراطور وثني ان يتولى السلطة بعد قسطنطين مباشرة ، ان يبدّل الاتجاه الذي سار فيه قسطنطين تبديلاً دائماً .

أخفق جوليانوس لأنه تأخر في المجيء وزال بسرعة . وارتسمت ردة فعل وثنية بعده بثلاثين سنة ايضاً ، غذاها فيريوس نيكوماخوس فلافيانوس الاديب والموظف الكبير ، بعد ان استفاد المجتمع الروماني الرفيع ، حيث نشأت ، من فتور الشعور الديني المسيحي في المغتصب اوجانيوس الذي أصبح امبراطوراً بفضل الفرنجي « اربوغاست » وأخذ يبحث عن عون على ثيودوسيوس الذي رفض الاعتراف به . فهبت «الريح الشمالية» بعنف في وجه جنود اوجانيوس وشلت جهودهم على ضفاف « النهر البارد[1] » ووضعت حداً لردّة الفعل في شهر ايلول من السنة ٣٩٤ . وهكذ فللمرة الثانية كانت الغلبة « للجليلي » بتوجيه الريح الشمالية كما سبق له ووجه الرمح الفارسي الى جنب جوليانوس . انتحر فلافيانوس ؛ فارتدّ ابنه البكر وحصل بذلك على استعادة ممتلكات أبيه كما حصل ، مرّتين متواليتين ، على وظيفة « حاكم المدينة » التي سبق له ومارسها في ايام المغتصب .

اذا ما استثنينا هذه الفترات القصيرة التي لم تجد فتيلاً ، فان السلطة قد بقيت في أيدي المسيحيين منذ قسطنطين. وبديهي ان كل امبراطور قد تصرف بحسب مزاجه الشخصي ، وبحسب الظروف احياناً . فعاد بعضهم الى فكرة التساهل: فأشهرها فالنتينيانوس الاول واخوه فالنس في قانون سنّاه في السنة ٣٦٤ وجدّداه بعد ذلك بسبع سنوات . ولكن التطور جاء على العموم متصلباً : فقد سيطرت التقوى على الجميع يدفع اليها تكاثر الارتدادات والخوف من التوسلات السحرية وتشجيع هاتفي الغيب للمتآمرين . ولا تفسير لاحتفاظ الامبراطور بلقب الحبر الاعظم سوى رغبته في مراقبة الوثنية مراقبة اجدى . وكان ثيودوسيوس اول من انقطع

(١) يعرف اليوم باسم « فيباكو » وهو احد روافد الـ « ايسونزو » .

عن حمله حين اعتلائه العرش.: فجاء انقطاعه هذا اثباتاً لفصل الدولة عما حاول مكسيمينوس دايا وجوليانوس تنظيمه كنيسة وثنية مع ما يستلزمه ذلك من مراتب كهنوتية. وقد سبق لكونستانس الثاني ان امر بأن ينزع من قاعة جلسات مجلس الشيوخ الروماني المذبح المنصوب امام تمثال إله النصر الذي كان الشيوخ الوثنيون يحرقون عليه بعض البخور؛ بيد ان جوليانوس اعاده في وقت لاحق؛ ولكنه ازيل في السنة ٣٨٢، ولم يظهر مرة اخرى، ولفترة قصيرة، على الرغم من الاعتراضات المتكررة، إلا في عهد اوجانيوس. ونحن نعرف تمام المعرفة قضية «مذبح النصر» هذه بفضل الجدل الادبي الذي أثارته، ومن الجائز ان نولي حوادثها قيمة الحوادث الرمزية.

ولكن الأخطر من ذلك هو خنق الوثنية اقتصادياً بمصادرة او تدمير ممتلكاتها وبتحريم تقديم الذبائح واستشارة هاتفي الغيب والعرافين وزيارة المعابد، أي كل ما يدر دخلاً عارضاً. ولعل ما هو أدهى من ذلك ان هذه التحريمات قد استهدفت مثل هذه الاعمال بالذات كمظاهر الايمان الفردي. فسنت شرائع صريحة وقاسية في السنة ٣٥٦ قضت، تحت طائلة عقوبة الموت، بالكف عن «الاحتفال بالذبائح»، و«عبادة الاصنام»، و«الدخول الى المعابد». كانت هذه التدابير سابقة لأوانها، فاضطر المسؤولون الى تعديل هذه القوانين. ولكن ثيودوسيوس قد نشر في ٨ ت٢ (نوفمبر) من السنة ٣٩٢، قانوناً سرى مفعوله هذه المرة قضى بفرض غرامات ثقيلة على المخالفين والموظفين المهملين وحظر كل عمل عبادة، ولو لم ترافقه الذبائح، حتى داخل المنازل والاملاك الخاصة. فقضي منذئذ على الوثنية التي ما لبثت ان زالت عملياً خلال القرن الخامس.

الكنيسة والدولة

فلا ريب من ثم في ان مساندة الدولة القوية قد خدمت انتشار الديانة المسيحية التي ما كانت، لولا هذه المساندة، لتنتصر بمثل هذه السرعة. وهل كان من المقدر ان تنتصر يا ترى؟ ان هذا الاعتقاد لجائز. اما تبيانه فأمر آخر، وليس باستطاعة التاريخ ان يفصل في هذه المسألة. وكذلك فان التاريخ لا يستطيع البت فيما اذا كانت الكنيسة، في النتيجة، قد رضيت حقاً عن هذه المساعدة. فالارتدادات الحاصلة تحت الضغط الرسمي تمثل في نظرها مكاسب قد تكون ظاهرة أكثر منها واقعية: وان نفوساً كثيرة لم تتناولها حينذاك عملية التطهير المسبقة الضرورية. اضف الى ذلك انها، من حيث علاقاتها بالدولة، قد فقدت بعض استقلالها بمسارعتها الى طلب مساعدة «السلطة المدنية» على الهراطقة والحصول على هذه المساعدة: ففي الشرق حال استمرار السلطة الامبراطورية دون افلاتها من قبضة رضيت بها في السابق، ولكن اصدار الحكم في كل ذلك منوط بالمفهوم الشخصي الذي نكوّنه عن المسيحي والديانة المسيحية والكنيسة.

يختلف الأمر عن ذلك فيما يتعلق بالدولة، اقله من زاوية نظرنا اليها في هذا الفصل. فقد رغبت الدولة، بشخص قسطنطين، في توطيد سلطتها، ان لم يكن بالوحدة الأدبية التي قد يوفرها لرعاياها، في أجل قريب، انتصار ايمان يحلّ محل الوثنية الخائرة، فأقله بالعضد الذي قد تجده

في الكنيسة بغية تأمين اخلاص المؤمنين الكامل . ورضيت ببعض التضحيات سعياً وراء هذه الغاية . ولكن لن يتجاسر أحد على القول بأنهـــا حصلت على المكافأة المرتقبة : فهي ، على نقيض ذلك ، قد اصطدمت، بفعل هذا الواقع ، بعراقيل جديدة .

خسرت هي ايضاً بعض استقلالها . وقـــد سبقت الاشارة الى اعطياتها وتنازلاتها الاميرية والقانونية . واضطر الامبراطور من جهة ثانية لأن يحسب حساباً ، لا لأخلاق فحسب ، بـــل لنصائح ايضاً قد يثبت له قيمتها منذئذ ، بحجج جديدة، رجال يتصفون بالتصلف احياناً ، وقد حدث أكثر من مرة ان الرجل السياسي، في ذاته ، قد خضع للمؤمن . وان في مجزرة تسالونيكي التي أدّت في السنة ٣٩٠ الى استحكام الخلاف بين ثيودوسيوس وأسقف ميلانو القديس امبروسيوس لأشهر مثل عن هذه الحوادث التي نرجح انها لم تكن مكدّرة فقط لكبرياء الامبراطور . ففي أعقاب شغب انطلق من الملعب وأدى الى قتـــل موظف كبير ، اصدر ثيودوسيوس ، تحت تأثير الغضب ، امراً لم يرجع عن رأيه فيه إلا بعد فوات الأوان : طوّق الجنود الملعب ثم قتلوا، طيلة ساعات ، ألوفاً من المشاهدين . أنذر امبروسيوس الامبراطور آنذاك بأنه لن يحتفـــل بالقداس ، بحضوره ، قبـــل ان يكفّر عن عمله . تردّد المذنب طيلة ستة أشهر على الاقل ثم تواضع اخيراً : فاعترف بخطيئته علناً وسمح له ، في عيد الميلاد ، بتناول جسد الرب . يستحيل علينا هنا لسوء الحظّ ان نبين بالتفصيل في أية مجموعة معقدة من القوانين المنشورة والملغاة تدخل هذه القضية . ولكن لما اوردنا عنها ، على الاقل، فضل اظهار مدى السلطة الادبية التي تعرض سيّد الدولة المطلق للخضوع لها منذ الآن . فعلى الرغم من العطف الذي قد يثيره فينا موقف الاسقف من هذه القضية بالذات ، علينا ان ندرك حقيقة مغزاها : ان مبدأ السلطة المدنية نفسه في خطر ، وان لمنازعات مقبلة كثيرة أصولها في ما أوجزناه .

الدولة والهرطقات

على ان ذلك لم يغد ، على الفور ، أسوأ ما تعرضت له الدولة . وما كان قسطنطين ، بعـد ان جعل من الكنيسة نصيراً له، ليرضى بأن تنقسم على نفسها ، فادارة النفوس يجب ان تكون واحدة على غرار ادارة الاجساد ؛ ويجب بالتـالي منع كل انشقاق . ولكن المصادفـة قضت بأن يصبح الامبراطور مسيحياً في فترة قيام مشادّات عنيفة خلقت البلبلة في صفوف الاكليروس وبين المؤمنين .

نشأت احدى هذه المشادات عن الاضطهادات . فقد اخذ على بعض الأساقفة وقوفهم موقفاً مرناً جداً من السلطات او قبولهم ، بمزيد من الحلم ، بعودة الملحدين . انفجرت مشادة من هذا النوع في مصر ولكنهـــا بقيت محصورة ولم تدم طويلاً . وانفجرت اخرى أشد خطورة في افريقيا ، زادت في حدّتها المخاصمات الشخصية والخلافات حول أصول الاجراءات ، فأفضت منذ السنة ٣١٢ الى تعيين اسقف منشق في قرطاجة . كان هذا الانشقاق ، المعروف بالدوناطي نسبة لباعثه الرئيسي ، دوناط ، معداً ، طيلة أكثر من قرن ، لأن يعرف نجاحاً كبيراً لا سيا في نوميديا ، متعهداً في مدن كثيرة اساقفته وكهنتـــه وكنائسه ؛ وكان لا يزال مستمراً

في اواخر القرن السادس ، مستعداً للاستفادة من كل فرصة مؤاتية .

اضفت المشادة الاخرى خطورة خاصة على الجادلات الكبرى حول المسيح التي يجدر بنا ان نعود اليها فيما بعد رغبة منا في تبيان التقدم الذي حققته في ايضاح العقيدة . منذ كان ليسينيوس حاكماً في الشرق ، اقدم كاهن اسكندري اسمه آريوس على اتهام اسقفه بالهرطقة . القي عليه الحرم ، فذهب الى آسيا حيث استفاد من قوة حجته وتضلعه في اللاهوت وحتى في الفلسفة واستمر في الجادلة موضحاً بقوة منطق حقيقة العقيدة التي دعيت بالآرية نسبة لاسمه . كان لدعاوته صداها البعيد حتى بين الاساقفة، وحين استولى قسطنطين على الشرق بعد انتصاره على ليسينيوس، علم واجماً بقيام هذه المشادة التي اوجدت في كل مكان انقسامات عميقة.

امام هاتين المشادتين، راى قسطنطين التدخل ضرورياً لا سيما وقد طالبه الجميع بذلك . فلجأ الى الجامع اعترافاً منه بعدم الاختصاص : بجمع « آرل » في السنة ٣١٤ لمعالجة الهرطقة الدوناطية ؛ وبجمع نيقيا في السنة ٣٢٥ لمعالجة الهرطقة الآرية . بيد انه لم يسمح لهذا الاخير بالمذاكرة بحرية كاملة ، فضغط الامبراطور ، الذي كان مستشاره الاول هوسيوس اسقف كوردوبا حتى تعتمد الصيغة التي اصبحت « قانون نيقيا » . ولمس من نفسه القدرة على اعتمادها فنفى آريوس وانصاره الرئيسيين . وهكذا تدخلت الدولة في خلافات النصرانية الداخلية حتى تلك التي لا علاقة لها بها .

وليس هذا كل ما جرى . ففي كلتا القضيتين لم يثبت قسطنطين على قراراته الاولى . فعني طوعاً او قبل باعادة النظر فيها، واصغى الى الاعتراضات ونزل عند تأثير اعضاء عائلته أو اهل البلاط . حمله ذلك على اجراء تبديلات دائمة . فلوحق الدوناطيون ثم اغضي عنهم ثم لوحقوا مرة اخرى . ومنذ السنة ٣٢٧ ، بعد ان استدعى آريوس للتحدث اليه ، اعتبر قسطنطين عقيدته عقيدة قويمة ، اما اسقف الاسكندرية الجديد ، اثناسيوس ، الذي رفض الانحناء امام اعادة الاعتبار هذه ، فقد عزل واقصي . وقد رافق كلا من هذه التقلبات ضغط على مجامع الاساقفة وتعليمات الى الموظفين .

ان هذا التصرف المستبد بتصرفه قسطنطين اوجد تقليداً سار عليه خلفاؤه الا القليل منهم، فوضعوا هم ايضاً القوة العامة في خدمة وحدة الايمان والنظام . وقد جرّهم ذلك الى التحزب بحسب اقتناعهم الشخصي الذي غالباً ما تمليه تربية تلقوها او دسائس تحاك من حولهم . اجل لقد لمسوا عادة ان رأيهم تعوزه السلطة الادبية . ولكنهم كانوا يحاولون حينذاك اثباته شرعاً عن طريق مجامع تتفاوت شمولاً وتحضّر وتراقب وتوجه بكل عناية . وزغبت الادارة ، من جهة ثانية ، في فرض الطاعة. فاستنفدت الدولة جانباً كبيراً من قوتها باستخدام هذه الاساليب . واصطدمت بمقاومات افقدتها الاعتبار احياناً . ومما زاد في الطين بلة ان تدخلها نفسه ، الذي اعوزه الاستمرار ، قد زاد في امد وخطورة اضطرابات كان بالامكان تهدئة بعضها في وقت مبكر قصير .

لم يتبدل موقف الأباطرة المبدئي من الدوناطية الافريقية : ولم يساندها أي منهم علناً . ولكن اكثر من واحد ، ابتداء من قسطنطين ، قد سلّموا بتخفيف أعمال القمع . أضف الى ذلك أن الانشقاق قد استمر لأنه جسّد استياء وهياج الريفيين البائسين الثائرين على النظام القائم . فتضررت الكنيسة ، بهذا الصدد ، من جراء الحماية التي رغبت الدولة في توفيرها لها .

بيد ان المشادات حول الآرية بنوع خاص هي التي اظهرت المساوىء المتبادلة الناجمة عن التدخل الامبراطوري في الشؤون الروحية . فلم تعرف هذه الهرطقة عملياً انتشاراً واسعاً في الغرب . وقد اصطدمت في الشرق نفسه اخيراً بالشعور الشعبي الذي اثاره وغذاه تصلب اثناسيوس ، ولكنها مدينة بقوتها وديمومتها الى انها حصلت تكراراً على ايد الامبراطور : كونستانس الثاني ، سيد الشرق وحده اولاً وسيد الامبراطورية جمعاء آخراً ؛ وفالنس ، في الشرق ؛ واخيراً جوستينا ارملة فالنتينيانوس الأول والوصية على ابنها ، في ألّيريا وايطاليا وافريقيا . فنشأت عن ذلك منازعات ملتوية لانهاية لها يتعذر درس طفوراتها الكثيرة . وقد انتقلت المشادة الدينية بين الاباطرة الشركاء أو بين الاباطرة الشرعيين والمغتصبين الى الصعيد السياسي احياناً فرافقتها تبدلات وحوادث لا يحصى لها عد . ويكفينا لاعطاء فكرة عن تصلب بعضهم فيها ممن بلغت جسارتهم حد إهانة السلطة الامبراطورية ، ان نذكر ان اثناسيوس، الذي عاد عن المنفى بعد وفاة قسطنطين مباشرة ، ارغم ، قبل ان تدركه المنية في السنة ٣٧٣ ، على مغادرة الاسكندرية ثلاث مرات يضاف اليها نفيه ، في هذه الاثناء ، بسبب مقاومته لجوليانوس الوثني .

بعد اخفاق الآرية في الغرب ، بفضل الحرب الشعواء التي شنها عليها هيلاريون اسقف بواتيه والقديس امبروسيوس، كان الفضل لحزم ثيودوسيوس في القضاء عليها اخيراً في الشرق. ففي السنة الثانية من ولايته ، اي في السنة ٣٨٠ ، اصدر براءة تنص على ان لمستقيمي الرأي دون غيرهم حق حمل لقب « المسيحيين الكاثوليكيين » . ثم استند الى مقررات مجمع القسطنطينية الكبير الذي انعقد في السنة ٣٨١ وانتزع من الاساقفة الآريين كنائسهم . فلم يبق عملياً ، عند موته ، آريون في الامبراطورية سوى البرابرة . ومرد ذلك الى ان المسيحيين بين هؤلاء – وعددهم كبير – قد تنصروا على يد القوط ، الذين تنصروا على يد اسقفهم اولفيلا ، الذي تنصر هو نفسه على يد اسقف آري في آسيا الصغرى . وما كان الامبراطور ليستطيع اتخاذ اي تدبير ضد البرابرة .

كانت الآرية اهم هرطقة عرفها القرن الرابع . غير ان الدولة ساعدت الكنيسة على الوقوف في وجه هرطقات اخرى كثيرة . فمنذ قسطنطين حكمت براءات عديدة بالزيف على مذاهب قد لا نعرف عنها شيئاً تقريباً . ولكن اول حكم باعدام الهراطقة المسيحيين لم يصدر الا في عهد متأخر نسبياً . وفي براءة السنة ٣٨٠ ، التي خطأتهم جميعاً ، اكتفى ثيودوسيوس باسترذالهم، مضيفاً : « ان الرب سيثأر منهم ، ونحن ايضاً » . ولن يذهب الى ابعد من ذلك سوى احد المغتصبين ، ففي السنة ٣٨٦ ، حين حكم مجمع بوردو على تعليم بريسيليانوس اسقف لوزيتانيا

بالزيف ، اعدم الاسقف مع بعض انصاره : وقضت الضرورة ، تبريراً لهـــذا العمل بتشبيههم بالمانويين ، الملاحقين بكل شدة منذ ديوكليسيانوس ، والمصنفين ، منذ قسطنطين، بين الهراطقة المسيحيين المقيتين . وقد احتج اسقف تور القديس مارتينوس على تقتيل البريسيلانيين ، ولكن احتجاجه لم يلق اذناً صاغية. فقد سلم الجميع بتدخل السلطة المدنية حتى ولو ادى الى نتائجه القصوى . ونحن سنرى ان ضحاياه كانت كثيرة جداً .

وهكذا فان الدولة ، بتحالفها مع الكنيسة ، قد اوغلت في الخلافات الدينية ، وان في تاريخ القرن الرابع لدلالة كافية على انهـــا ، في عملها هذا ، قد زادت في الاضطرابات التي هزت الامبراطورية .

الفصل الثالث

الملكيّة المطلقة والبيروقراطية

لقد أطلق بعضهم على العهد الامبراطوري الثاني اسم « الخراب المرمّم » . ولكن هذا التحديد غير منصف . فهو يهمل الاخطار التي كان على هذا العهد مواجهتها ، والهزات التي خلخلت ركائزه باستمرار . ويهمل بصورة خاصة تحقيقاته الجديدة ، اذ انه لم يكتفِ بالترميم لا في المقصد ولا في الواقع. شعر هذا العهد ، بحنين الى الماضي ، لا سيا الى « السلم الروماني » . ولكنه اضطر ، في محاولة استعادته ، على الرغم من تبدل معطيات المسألة، الى اكتشاف واعتماد أساليبه الخاصة التي رافقتها بالضرورة بعض الذيول. أضف الى ذلك ان الزمن ، مهما طال أمده، يعمل عمله في خدمة اولئك الذين يجرّهم وراءه. فما هو شأن مدى التطور اللازم للحياة، حين يتعرض لأزمة على مثل ديمومة وشمول أزمة القرن الثالث ، ولثورة روحية على غرار انتصار المعتقدات الجديدة ؟ ان صرح العهد الامبراطوري الثاني يمثل بناءً متميزاً ، مشيداً ، شأن اكثرية المساكن البشرية ، وفاقاً لتسويات شاقة ، تعدّل باستمرار ، بين التقاليد القديمة ومقتضيات العصر والمثل المتناقضة .

وتمثل تقوية الدولة ، أهم تبدل على الصعيد السياسي : فقد غدت الملكية الامبراطورية مطلقة وبيروقراطية .

أسباب تحول الدولة

سبق للامبراطورية الاولى ، ان أخذت تتطور في هذا الاتجاه . ولم تسلك هذه الطريق ، كما رأينا، بدافع الميل أو اللذة، بل بحثاً عن الفعالية والتلاحم في العمل . لقد بقي النظام ، في عهد الانطونيين ، خاضعاً لمثل أعلى في الحرية . وكان جل ما يتمناه ، ان تحكم المدن نفسها حكماً ذاتياً مستقلاً ، محتفظاً للحكومة المركزية ولممثليها الاقليميين بدور التنسيق فقط . وبدلاً من ان يحاول خنق هذه الحياة البلدية ، حيث قامت من قبله ، بذل جهده في إيقاظها ، حيث لم تستند الى أي تقليد . فهو قد آثر ، بسبب افتقاره الى الرجال، أي الى الموظفين الأكفاء، عدم الاهتمام للشؤون الصغرى . ولكن ضغط الأحداث القاهر ، لا سيا الصعوبات المالية التي تعرضت لها المدن ، قد أرغمته على التدخل ، في سبيل المساعدة أولاً ، واحتكار السلطة اخيراً . وحدث الشيء نفسه لمجلس الشيوخ ، اذ ان التطور الذي يعنينا قد

فرضه بسرعة ، منذ البدء ، الحذر السياسي ؛ ولكن ، اذا كان لهذا الحذر أثره المعظم ، فان الضرورات التقنية كان لها أثرها ايضاً . وهكذا فقد ازدادت سلطات الامير ، عملياً او قانوناً ، ازدياداً مطرداً، جرّ بالضرورة ، تحت اشراف هذا الاخير ، الى تنظيم جهاز دولة ازداد تعقيده وتكاثرت اجزاؤه باطراد ايضاً .

انطلقت الحركة اذن . ولعله كان باستطاعة ثورة أدبيـة ، او « فلسفية » ، بحسب مفهوم القرن الثامن عشر الفرنسي ، ان تقضي على هذه النزعة بأن تعيد الى مثل الحرية قوّته الاولى . ولكن هذه الثورة لم تحدث . فان التيار العقلي ، الذي برز من قبل في العهد الامبراطوري الاول، قد جرّ النفوس الى حيث اجتذبتها الوقائع ايضاً . ثم ان الشرق قد قدم ، بالاضافة الى دياناته، ذكرى ومثل ملكياته المطلقة ذات الحق الالهي : وكانت مصر بينها دولة لا تزال الادارة فيها تراقب كافةمظاهر حياة ونشاطالرعايا، انلم توجهها توجيهاً كما فعلت في زمن الفراعنةوالبطالسة. وجاءت من الشرق ايضاً مثل محبة البشر والعطف على الضعفاء التي تسربت تدريجياً الى النفوس : وجلي ان هذه المثل مرتبطة بمثل الملك الكلي القدرة المطالـَب ضميرياً باستخدام قدرته الكلية لسعادة رعاياه ، والقادر وحده علىان ينشر بينهم عدالة انسانية تفضل العدل في معناهالحصري. وقد صادفت هذه الاختبارات والآراء والمشاعر عضداً قوياً لدى سلالة ساويروس التي كان مؤسسها ، المولود في افريقيا ، متزوجاً من سورية : فطيلة أربعين سنة تقريباً ، في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث ، كان للشرق أثره البعيد عن طريق الاباطرة أنفسهم ونساء عائلتهم وكثير من الموظفين .

علينا ألا نتجاهل هذة السوابق وهـــذه التأثيرات . ومع ذلك ، لم يكن لأي عامل ، في تكوين دولة العهد الامبراطوري الثاني، فعالية الظروف التي أرغمت هي على العيش فيها . فطيلة قرن كاملهدّدتوجودها بالخطر أزمة فريدة، ولم يحل تغلبها عليها دونالاخطار والاضطرابات التي كان من حسن طالع الامبراطورية الاولى أنها لم تحدث في آن واحد . فهناك البرابرة على الحدود،وفي قلبالاراضي الامبراطورية احياناً.وهناك،في الداخل،الاغتصابات والحرب الاهلية والفوضى ؛ وفي الداخل ايضاً ، العجز المالي والازمة الاقتصادية وزوال الازدهار والامـن في المدن التي كانتحتى ذاك الحينمراكز اولى للحضارة. لم يكن من علاج لهذا الواقع ولهذا الخطر الدائم ، سوى جمع كافة السلطات في ايدي الامبراطور والاعتراف بحقه في مصادرة كافة الموارد البشرية والمادية ، ووحدة العمل في مجهود متزايد وحازم. اجل ان الحرية قد ماتت منذ زمن بعيد ، أي منذ آخر العهـد الجمهوري . ولكن ما زالت هنالك بعض الحريات : فهذه هي التي زالت ، وكأنها بذخ غدا مستحيلاً .

١ ـ اموال الـــدولة

يتوجب علينا، انطلاقاً من هذه الملاحظة، ان نستهل هذا البحث بمطالب الدولة من رعاياها. سبق ورأينا كيف أمنت الرجال لجيشها . ولا تزال امامنا المطالب التي لا مفر من تسميتهـــا

بالمالية ، في مفهومها الواسع ، مع ان الدولة غالباً ما تحاول تحصيلها عن طريق غير طريق النقد .

النفقات

جر ازدياد الاعباء الى ازدياد المطالب . وقد نشأ هذا الازدياد خصوصاً عن ارتفاع عدد المجندين وعن ارتفاع اعظم في عدد الموظفين . وتلقى اصحاب الحقوق القسم الاكبر من اجورهم او من مرتباتهم عيناً ، اي حصصاً غذائية أو البسة : وفي ذلك ضمانة ضرورية ضد ارتفاع الاسعار، وظرف مؤات، كما لا يخفى، لتبذير وخسارة تثقل وطأتها بالنتيجة على المكلفين . اضف الى ذلك ان تجهيز الامبراطورية المادي ، تحقيقاً لهذه الغاية او لغيرها ، يتطلب تعهداً وتحسيناً : فالضرورة تقضي بايجاد المخازن للمحاصيل والمكاتب للادارات ، والطرقات ووسائل النقل وسعاة البريد ، الخ . فالجيش والبيروقراطية يمثلان عبئاً ثقيلاً جداً ، لعله اثقل عبء اطلاقاً على الرغم من افتقارنا الى الاحصاءات المالية .

غير ان كل شيء يحملنا على الاعتقاد بان النفقات الاخرى لم تتدن قط . فالاباطرة ، على غرار اسلافهم ، ارادوا ربط اسمهم بالانشاءات الكبرى . وبما ان هنالك عدة اباطرة في اغلب الاحيان ، فهنالك عدة بلاطات ايضاً . فهم يتركون روما وينتقلون بسهولة ، مما يؤدي الى تشييد وتعهد قصر لكل منهم. انفق قسطنطين اموالا طائلة حين شيد على البوسفور روما ثانية والى خلفاؤه تجميلها من بعده . ولا يعني ذلك ان سكان العاصمة الساقطة من مرتبتها قد حرموا نعم الدولة؛ وقد اسرع قسطنطين الى شمل سكان القسطنطينية بها ايضاً . ولم يكتف اوريليانوس بتوزيع القمح مجاناً ، بل شرع في توزيع الخبز ايضاً ، ثم عمد خلفاؤه الى التوفير بتخفيض نوع الطحين ، ولكن فالنتينيانوس عاد فاقر الخبز الأبيض ، واقر اوريليانوس نفسه توزيع الزيت والملح ولحم الخنزير في بعض المواعيد ، كما اقر توزيع القمصان الذي لم يعمل به قط . ولم تفقد الالعاب شيئاً من سناها ، لا بل ادخلت زيادات على ايام الاعياد .

الموارد

اقتضى من ثم زيادة المجهود الجبائي. اجل كان الاقتصاد اقل ازدهاراً منه في الماضي. ولكن كركلا منح المواطنية الرومانية كافة الرجال الأحرار في الامبراطورية ؛ فمن حيث انهم أصبحوا كلهم متساوين قانوناً امام الدولة ، أصبح ممكناً اخضاعهم للموجبات الاميرية ، واستطاعت الحكومة ، دونما اهتمام للامتيازات القديمة ، ان تأتي بشيء جديد .

اما هذا الجديد فقد حققه ديوكليسيانوس الذي توصل في اوائل القرن الرابع ، بعد ان تلمّس طريقه ، كما فعل حين اقام النظام الرباعي ، الى اعداد ما اصبح منذئذ الضريبة الرئيسية ، أعني بها الضريبة الشخصية (الاعناق) . ان المعاضل الكثيرة التي تثيرها هذه الضريبة والتي يدور حولها جدال عسير لا تسمح بأن نعطي هنا سوى فكرة موجزة عن مبدئها ، لا سيما وان تطبيق هذا المبدأ قد تفاوت شدة بحسب المناطق . كان الهدف منها استبدال الضريبة العقارية المتنوعة الاشكال والمعدلات ، والضرائب على الفلاحين او على المواشي ، بضريبة موحدة يكون مطرحها ثابتاً وعادلاً. يجري لهذه الغاية مرّة كل خمسة عشر سنة ، تقدير مبني على مسح الاراضي

والاحصاءات، تجمع بموجبه العناصر المختلفة الضرورية للانتاج الريفي ، أي الاراضي والاشجار والمواشي واليـــد العاملة ، وتـُردّ ، بالاستناد الى معدّلات محدّده بحسب جنس الاشخاص وطبيعة المواشي ، والاقليم ، ونوع التربة ، والمزروعات ، الى عـــدد معين من الوحدات الاصطلاحية المعتبرة متساوية بين بعضها، ومن ثم قابلة للجمع. هذه الوحدة الجبائية الاصطلاحية هي « النير » ، او « الرأس » كما درجت تسميتها. تقف الادارة بهذه الطريقة على مجموع الرؤوس المحصاة في الامبراطورية وتوزيعها بين الولايات والمناطق والملاكين . ويكفيها من ثم ان تقدر حاجاتها السنوية حتى تحدّد تدريجياً ، بصورة آلية ، الفريضة المطلوبة من كل مكلّف .

تجبى الضريبة الشخصية عيناً بكليتها تقريباً: وتتشعب منها رسوم عدة أهمها الضريبة العينية السنوية التي تخصص لتموين الجيش والمدن الكبرى. ولكن الدولة بحاجة الى مداخيل نقدية ايضاً، ولا يمكن ، من جهة ثانية ، ان تبقى الزراعة وحدها حقل نشاط السكان . لذلك أبقي على بعض الضرائب غير المباشرة ، المحدودة الدخل ، على الرغم من ارتفاع معدلها . ولذلك ، خصوصاً ، أحدث قسطنطين ضرائب تدفع ذهباً او فضة وتتناول بالتالي أعضاء بعض الطبقات الاجتماعية . وفرض على أعضاء الطبقة الجلسية ، وجلـّهم من الملاكين الاثرياء ، ان يدفعوا ذهباً رسماً عقارياً اضافياً تراوح معدله بين ١ و ٤ خلال القرن الرابع، بحسب ثروتهم. ودفعت العائلات الكهنوتية في المدن ضريبـــة « ذهب التاج » : والمقصود بها مبدئياً تقديم تاج للامبراطور لمناسبة حدث سعيد ؛ ولكن فالنتينيانوس نزع عنها الطابع الاختياري دون ان يجعلها دائمة على كل حال . وكان على التجار ، والصناعيين ، والبغيات أنفسهن ، والفلاحين الذين يقصدون المدينـــة لبيع محاصيلهم ، ان يدفعوا ، ذهباً وفضة ، مرة كل أربع سنوات ، رسماً نجهل معدله .

تضاف الى كل ذلك ايرادات ممتلكات الدولة وممتلكات الامبراطور الخاصة ، وقد ميز بينهما سبتيموس ساويروس . ان هذه الممتلكات ، التي كانت واسعة جداً في العهد السابق ، قد ازداد اتساعها بفعل المصادرات التي كان ضحيتها أعضاء الطبقات الغنية خلال أزمة القرن الثالث . ثم ازداد اتساعها في القرن الرابع ايضاً ، إذ وضعت الدولة يدها على أملاك المدن ، ولم تتنازل لهذه المدن اخيراً إلا عن ثلث ايرادات هذه الأملاك وثلث المكوس المفروضة عليها . وعلى الرغم من الاعطيات الامبراطورية التي تكاثرت في القرن الثالث وما بعده، ما زالت هذه الممتلكات شاسعة جداً . وعاش البلاط ، اجمالاً ، من مداخيـــل الممتلكات الخاصة التي أوكل أمر استثمارها الى القيّمين . بينما سلمت الادارة الممتلكات الاخرى الى بعض الملتزمين .

التسخير

واكتمل النظام المالي في العهد الامبراطوري الثـــاني بما فرضه على الافراد من خدمات كثيرة مجانية أو شبه مجانية ساعدت على تخفيض نفقات الدولة دون ان تساعد على تخفيض العبء الحقيقي الذي يتحمله الرعايا . وهذه الخدمات هي ما ندعوه اليوم بـ « السخرة » ، وما أطلق عليه الرومان اسم *Munera* . وكان لهذا التعبير ، منذ البدء البعيد ،

مفهوم مبهم اذ انه قد استخدم للدلالة على المهام الممارسة وعلى النفقات والموجبات الاخرى التي تستلزمها ، مع فارق سخاء يتجلى في القبول بـ « معارك المسايفين » التي يقدمها للشعب اولئك الذين ينالون شرفاً ما . اما الآن فقد انتفى عنه أي معنى من معاني التلقائية ، بحيث ان تطور معاني المفردات يعكس تطور العلائق بين الجماعة والفرد بالذات : فقد غدا الواجب يقضي بتنفيذ ما كان يقام به في السابق شكراناً او غيرة او مجـــداً باطلاً . وتجدر الاشارة الى ان طبيعة « التسخير » واطار الخضعين قد عرفا في الوقت نفسه اتساعاً عظيماً : فليس المقصود به بعـد اليوم المهام الشريفة فقط ، التي تستهوي الاثرياء او الميسورين .

تتنوع المهام تنوعاً لا حد له كما تتنوع لائحة الخاضعين لها بحسب مرتبتهم الاجتماعية وثروتهم ، ومهنتهم ومكان اقامتهم أو مكان أملاكهم ، مع ان هناك نزعة جلية الى فرضها على كافة الاهالي بغية التخفيف من وطأتها عن كل فرد . قد نحاول عبثاً وضع لائحة كاملة بهذه الخدمات أو وضع نبذة تاريخية عنها تحدد تاريخ ظهور كل منها وتتتبع تطورات تطبيقها : اننا في اغلب الأحيان نفتقر الى المعطيات . فالدولة تفرض ايواء رجالها من موظفين أو مجندين ، وتلزم المكلفين بنقل الضريبة العينية السنوية الى المخزن القريب ، ومن مخزن الى مخزن احياناً ، وتصادر اليد العـاملة وادوات العمل والمواد اللازمة لتعهد ابنيتها والطرق والجسور ، وتلزم بتقديم الزوامل وحيوانات الجر تأميناً لخدمة البريد العام الذي اعسف المقيمين على جوانب الطرق بعد ان اثقله تقدم الادارة . ولكن « التسخير » يطلق على موجبات متنوعة ايضاً : كاستئجار الأملاك العامة التي لم يستأجرها احد ، وتسليم كميات تعينها الدولة من المصنوعات أو من المواد الغذائية باسعار محددة ، وتأمين وظائف عامة ، وضيعة جداً احياناً ، في المدن ، واخيراً وخصوصاً – وهـــذا اثقل تسخير – جباية الضرائب اي تحمل مسؤولية ايراداها .

النواقص

هذا هو النظام باجزائه المختلفة اصلاً ومفهوماً ؛ لم توحـــه اية فكرة نظرية ، بل الحاجـة فقط . وهو لا يختلف بذلك عن اكثرية الانظمة في كل البلدان وفي كل الازمنة . فان التجديد الرئيسي نفسه فيه ، أي إلزام كافة المواطنين ، بمن فيهم اولئك الذين يقيمون في ايطاليا التي اعفيت اراضيها من الضريبة منذ السنة ١٦٧ قبـــل المسيح ، ليس نتيجة لبراءة كركلا الا جزئيا . فقد سبق ، قبل هذا الاخير ، ان دفع الضريبة العقارية مواطنون كثيرون جداً ممن يقيمون في الولايات . وقد افضى الغاء الامتياز الايطالي الى اغتصاب ، اذ ان مكسانس قد استفاد في السنة ٣٠٦ ، من الاستيلاء العام . ولكن الدولة تصلبت بسبب حاجتها الى الضرائب الايطالية . وكذلك فان الاعباء الاميرية المفروضة على الطبقة المجلسية لا ترد الى عداء استهدف هذه الطبقة . ولو ان هنالك نزعة الى ايجاد المساواة ، وراء السياسة المالية ، لظهرت في امكنة اخرى حيث لا نلمس لها أثراً . ولكن من الطبيعي ان تطلب الدولة المال حيث هو متوفر .

لا مراء في ان هذه الضرورة قد اتاحت تحقيق بعض التقدم اقله نحو توزيع الاعباء توزيعـــاً اكثر انصافاً . ولكن ، ما اكثر الشكاوى ! فهناك ، كما هو طبيعي ، شكاوى المكلف المزمنة .

وقد اعترض لاكتانس بقحة ساذجة على دقة مأموري الاحصاء في تنفيذ عملهم . ومع ذلك فان سير النظام سيء ، واذا لم تعرف الدولة في القرن الرابع الضائقات التي عرفتها في القرن الثالث ، فانها كثيراً ما تتخبط في العسرى وتضطر في مدار السنة لزيادة رسم اضافي على الضريبة الشخصية التي حددت هي نفسها قيمتها في اول السنة . وقد يحدث احياناً ان تتكدس المتأخرات الاميرية بحيث يجب الغاؤها ، فتسمح لموظفيها ، اقله لصغار موظفيها ، ذوي الدخل المحدود ، بأن يؤمنوا لأنفسهم دخلاً عارضاً بتقبل هبة ، لا يحددها قانون ، من المكلفين المرتبطين بهم .

تثبت جميع هذه الدلائل عدم انطباق النظام على الحاجات . وتقوم سيئته الكبرى في تعذر ضبط جدول الضريبة الشخصية يومياً بتتبع تقلبات مطرحها . اضف الى ذلك ان حسن سيره يفرض ألا يمنح أي اعفاء وألا يتهرب أي مكلف من واجباته . ولكن كلا هذين الشرطين لم يتوفرا : فهنالك اعفاءات رسمية من هذا المطلب او ذاك، كما ان هنالك شخصيات كبيرة كثيرة لا تدفع الضريبة الشخصية المتوجبة على املاكها الى جباة لا يتمتعون حيالها بأية سلطة. فتزداد من ثم أعباء الجيران ازدياداً مرهقاً احياناً ، اذ ان الدولة تتمسك بمطالبها من كل مدينة وتتجه ، في سبيل الحصول عليها ، الى المأمورين البلديين دون غيرهم .

لو ان الدولة ، التي أتمت الاجهزة الادارية القديمة وأحدثت العديـــد غيرها ، اوكلت الى موظفيها ، بمساعدة القوة العامة أمر تحصيل الضريبة المباشرة ، لخضعت لعمري لمنطقها الخاص . اما ما اعوزها فهو الجرأة على التخلص من عاداتهـــا المتأصلة ، او بالاحرى ، على ما نرجح ، الرجال الاكفاء المستعدون للخدمة . والدليل على ذلك ان فالنتينيانوس الاول قـــد حاول الاصلاح وأوكل الى مكاتب حكام الولايات امر جباية الضريبة الشخصية ، ولكن وجب العدول عن هذا الاصلاح ، بعد مرور عشرين عاماً، امام اعتراضات هذه المكاتب نفسها: فألقيت الجباية مرة أخرى ، شأنها في السابق ، على عاتق المأمورين في كل مدينة .

ولكن هذا العمل الذي اضيف الى أعمالهم الكثيرة قد أنهكهم، فأضاعوا وقتهم في الجولات والمساعي . ومن حيث هم مسؤولون جماعياً عن ايراد الضرائب ، فانهم تعرضوا لشتى ضروب الضعف والانهيار . فكانت النتيجة انهم انتهوا الى الافلاس .

٢ الادارة المحلية والاقليمية

انحطاط المدينة

ويقودنا ذلك، عن طريق اموال الدولة – ولكن العامل الرئيسي هو نقص التنظيم الجبائي – الى احد الفوارق الحقيقية العظيمة النتائج بين العهد الامبراطوري الثاني والعهد الذي سبقه . فلم يعد هنالك من بورجوازية بلدية تتبرع بادارة الشؤون المحليـــة ، بل « قواد عشرة » ، « مرغمون » ، كما حدث بين حين وآخر في عهد الانطونيين تفرض عليهم الدولة القيام بدور الموظفين المجانيين الممقوتين في نظر مواطنيهم ونظر انفسهم . فلم يعد بالتالي

من مدينة بالمعنى الذي اطلقه الاغريق والرومان على هذا الموصوف في السابق . فزال بزوالها عنصر مقوم جوهري من عناصر الحضارة التي تباهى بها العالم المتوسطي، ذاك العنصر الذي تعلق به الناس ايما تعلق بسبب قربه في الزمان وحيويته .

على الرغم من الصعوبات التي بدأت تعرفها الموازنات البلدية والتي حملت الاباطرة على توسيع جهاز الاوصياء ، فان عهد سلالة ساويروس الامبراطورية ما زال عهداً خيّراً بالنسبة للمدن – لا بل عهداً ذهبياً ، كما يبدو في بعض المناطق ، كافريقيا التي ينتسب اليها مؤسس السلالة والتي خصها برعاية خاصة . وقد برهن سبتيموس ساويروس عن تنازل هام بادخال النظام البلدي الى « قواعد الولايات » في مصر وباعطاء الاسكندرية الـ « بولي » ، اي مجلس الشيوخ الذي طالب به سكانها دون جدوى منذ زمن بعيد . ولكن سرعان ما قامت الأزمة الكبرى التي لم تنهض اكثرية المدن العظمى ، بعدها ، نهوضاً حقيقياً .

انكمشت المدن آنذاك داخل اسوارها ، ومات قسم من سكانها أو صفروا من المال ، ومع ذلك فقد بدت للسلطة الامبراطورية درجات ادارية مريحة من حيث ان سكانها يؤلفون الجماعات الوحيدة بين الرعايا التي تتقيد بانظمتها وتسهل مهمتها . وما زالت هناك في الظاهر بعض الاجهزة البلدية . فاذا ما زالت جمعية الشعب من كل مكان ، فهنالك العائلة (*Curie*) والقضاة الذين تنتخبهم . وقد يقوم في المدن الكبرى ، التي حافظت على نشاطها التجاري أو استعادته، متطوعون يطمحون الى هذه المراكز ويبسطون يداً سخية امام الجماعة. اما في المدن الاخرى فليست هذه المراكز سوى ضرب من « التسخير » .فغدت وظيفة ممثل العائلة –الذي أخذ اسمه يحل تدريجياً محل اسم « قائد العشرة » ، على ما بينهما من فوارق – واجباً تفرضه الدولة على كل من يملك حدّاً ادنى من ثروة زهيدة نسبياً .

سنعود الى المظهر الاجتماعي الذي ينطوي عليه هذا التبدل العميق، مقتصرين هنا على المظهر الاداري. فلا تزال اجهزة المدينة مستقلة. ولا تتعهد الدولة الى جانبها اي موظف أو ممثل دائم. فان الوصي (*Curateur*) نفسه الذي عينه الامبراطور في السابق،تنتخبه اليوم عائلته انتخابا . ولكن هذه الاجهزة تتلقى الاوامر وكافة اعضائها يتعرضون للعقوبات اذا لم ينفذوها . فالابقاء الظاهر على الاستقلال ليس بالتالي سوى حيلة تستهدف ارغام ما تبقى من الطبقة المتوسطة على التكرس لخدمة الجماعة المحلية والدولة، ليس بالمجان فحسب، بل بالمجازفة بالثروة ايضاً. فهم ملزمون، على الرغم من كل العراقيل، بتأمين المهام البلدية العادية ، المحافظة على الامن، والعناية بالابنية والشوارع ، والتموين ، والاعياد ، الخ . ، وتلبية الأوامر الحكومية بتولي جباية الضرائب، وجمع المجندين، وتنفيذ اعمال « التسخير » المختلفة. فهل ما يدهش والحالة هذه اذا لم يحسنوا القيام بجميع هذه الاعمال ، حتى بمساعدة « حامي المدينة » الذي لن يلبث ان يمسي واحداً منهم ؟

بدء اغتصابات الاملاك الكبرى

تقوم الحياة الحقيقية خارج نطاق ادارات المدن التي تسير نحو الزوال ولا يبقيها سوى القسر .

اخذت هذه الحياة تنتقل الى املاك الاثرياء الذين تهزأ سلطتهم العملية من الاوصياء ، ومن

الموظفين انفسهم ، مع ان الانظمة لم تعترف لهم بعد باية سلطة قانونية . ان ارتباط الفلاح (« المستعمر ») بالاملاك ارتباطاً شرعياً ، الذي اقرته الدولة حينذاك للحيلولة دون فرار اليد العاملة ، لا يولي الملاك اية سلطة ادارية . ويصح القول نفسه في الحماية التي يمنحها الملاك بعض الفلاحين الاحرار في الجوار . ولكن الواقع غير ذلك . فالاثرياء يوزعون ويجمعون الضرائب كما يطيب لهم في الاراضي العائدة اليهم دونما اكتراث منهم لتسديد حصية الضرائب. ولما كانت الشرطة لا تتجاسر على التعرض لهم ، فانهم يمارسون حق الحماية ، ويحصلون حقهم بايديهم ، ويستولون على ممتلكات واشخاص مدينيهم . ويعود تحريم السجون الخاصة لاول مرة الى السنة ٣٨٨ ، ثم يعقبه تحريمات عدة في القرن الخامس ، وسيصدر في الوقت نفسه امر بتحريم تعهد الزمر المسلحة . فبدأ من ثم القضاء على حقوق الدولة ، بفعل اغتصابات يستحيل قمعها ، لمصلحة ذوي الاملاك الكبرى .

البيروقراطية

بيد ان كل ذلك ليس سوى تباشير تطوّرا سيقود الى نتائج بعيدة جداً . وان أجهزة الدولة، على نقيض ذلك، لم تعرف يوماً مثل هذا العدد ومثل هذه القوة.

فالمركزية، مع ما تستتبعه من ادارات وموظفين، احدى الميزات الخاصة بالعهد الامبراطوري الثاني . ليس لدينا ، بصدد العهد السابق ، مصدر افضل من « لائحة الوظائف » التي تضع امام اعيننا « بياناً بالوظائف » والقوات العسكرية في كل من « شطري » الامبراطورية، الشرقي والغربي ، في اواخر القرن الرابع . ومع ذلك فلا يجوز لنا ان نشك دقيقة واحدة في النموّ العظيم الذي طرأ على المصالح الاقليمية والمركزية. فالواجب يقضي على الحكومة ان تواجه اعباء لا تسمح لها نوائب الدهر بعد اليوم باهمالها. اضف الى ذلك ان تقسيم العمل غدا ، الى حدٍّ ما ، فرضاً واجباً : فهي ، بدافع الحذر ، وحرصاً منها على الكفاءة والفعالية ، فصلت فصلاً نهائياً بين الادارة المدنية والقيادة العسكرية. واضطرت اخيراً الى احداث درجات وسيطة بغية تخفيف عملها الخاص وتنسيق النشاطات المحلية تنسيقاً افضل . ولكن، اذا طرأت هذه الزيادة العظيمة على عدد المصالح ورؤسائها من موظفين كبار ومتوسطين ، فاننا نلمس هذه الزيادة في عدد صغار الموظفين في المكاتب ايضاً: في اواخر القرن الرابع، كان لكل حاكم ولاية ١٠٠ مستخدم؛ ولكل نائب ٣٠٠؛ ولكونت الشرق (القائد العسكري) ٦٠٠ ؛ ولكونت الاعطيات المقدسة في الغرب ٨٥٠ ؛ ولرئيس الحرس الامبراطوري في الشرق أكثر من ١٠٠٠ .

خضع صغار الموظفين هؤلاء لتنظيم عسكري على الرغم من صفتهم المدنية . فوزّعوا فرقاً فرقاً ، لا بل سجّلوا اسمياً في وحدة عسكرية احياناً . فقد اعتبرت الوظيفة العامة ، في حدّ ذاتها ، *Militia* أي « خدمة عسكرية » . وخضعت لتسلسل داخلي دقيق ، ولنظام خاص ، ولقواعد ترفيع ؛ وحق عادة للموظف ، بعد قضاء عشرين او خمس وعشرين سنة في الخدمة ، التمتع « بالشرفية » أي الاحتفاظ باللقب والامتيازات الشرفية. لم يبق كل ذلك دون نتيجة على الصعيد الاجتماعي ، وأسهم ، على الصعيد الاداري ، في توفير التلاحم الشديد لما يجب تسميته

بالبيروقراطية الامبراطورية ، وهي الاولى ، بوضوح معالمها ، بعد البيروقراطية المصرية.

هذا واقع لا شك فيه، ولا أبسط منه ايضاً. ولكن ما هو جوهري ، على استحالة تحقيقه، هو التمكن من تقدير قيمة هؤلاء الموظفين تقنياً واخلاقياً . فللوراثة دورها الاول في تعيينهم ، وللدسيسة ، الى جانب الاستحقاق والاقدمية ، دور في ترفيعهم . وعلى الرغم من ان كافة التعيينات منوطة بالامبراطور الذي يتحرّر، حتى عند ملء المراكز الرفيعة، من الواجب القديم القاضي باختيار الموظفين بين اولئك الذي شغلوا هذا أو ذاك من مناصب القضاء ، فانه يشعر بالحاجة الى مراقبة موظفيه . وهو يستخدم لهذه الغاية « موظفي الشؤون » الذين يكلفون تنفيذ مهام تستوجب الثقة ويقومون بأعمال التجسس في المصالح ايضاً . ونحن نرجح ان هذا الجهاز كان ضرورياً ، اذ انه ، بعد اقدام جوليانوس على إلغائه ، قد أعيد مرة ثانية ، وضم في النهاية عدّة ألوف من هؤلاء الموظفين . بيد اننا لا نستطيع الفصل في فعّالية هذا الجهاز. فما هي الأهمية التي يجدر بنا ان ننسبها ، لأجل الحكم على هذه الادارة ، الى القرارات الامبراطورية في سبيل تقويم الاعوجاجات والى شكاوى المكلفين ؟ ان البيروقراطية لا تنتظم دون تلمّس وتردد، ولم تنظر الطبقات الاجتماعية ، التي تعبّر مصادرنا عن آرائها ، نظرة رضى الى تسلط الدولة الثقيل على الممتلكات والاشخاص . ومهما يكن من الامر ، فيجب التسليم للمستائين من النظام انه يفضي الى البطء ويقضي على روح المبادرة ، ولكن الانتقادات تتلاشى امام هذه الحقيقة : لولا هذه الادارة لصارت الدولة الى انهيار سريع .

الولايات

ما زال اسم « الولاية » قائماً ؛ ولكن مفهومه قد تبدل تبدلاً كبيراً . وها نحن نشير الى التبدلات الرئيسية دون ان نغامر في ردّها الى اطارها التاريخي، وهي مغامرة مملة لا تفضي بنا الى الحقيقة الثابتة على كل حال . لم يعد هنالك من تمييز بين الولايات وايطاليا : باستثناء روما التي قسّمت، منذ ديوكليسيانوس الى دوائر شبيهة كل الشبه بالولايات ، دون ان يطلق عليها هذا الاسم الذي قد يثير النزق والانفعال . ولم يعد من تمييز كذلك بين الولايات المجلسية والولايات الامبراطورية : فالامبراطور وحده ، دون مداورات ، يعين الحكام أجمعين ويشرف على الادارة جمعاء . وليس هناك عملياً ، باستثناء حالات نادرة جداً ، من قيادات عسكرية يمارسها الحكام : فقد عادت هذه القيادات الى الرؤساء العسكريين . وتجزأت الولايات القديمة خصوصاً ، بدافع الحذر السياسي ؛ وتخفيفاً من العبء الملقى على كاهل الحكام ايضاً . كان عددها يناهز الخمسين تقريباً حين تولى ديوكليسيانوس الحكم . فرفعها هذا الأخير الى ضعف هذا العدد تقريباً وأحدث سبع ولايات في ايطاليا . وعند وفاة ثيودوسيوس أضيفت سبعة عشر ولاية ايطالية الى أكثر من مائة ولاية .

لم تتساو هذه الولايات ، لا أهمية حقيقية ولا مرتبة ، وتنعكس منزلتها في لقب حاكمها . ولا يزال ثلاثة من الحكام ، بقوة استمرار غريبة ، يحملون لقب « بروقنصل » القديم : وهؤلاء هم ، بحسب تقليد العهد الامبراطوري الاول، حاكما آسيا وافريقيا اللذان أضيف اليها ، احتراماً

لماضي اليونان ، حاكم آخيا. ويقسم الآخرون ثلاث فئات. ولكن أهمية هذه التمييزات الوحيدة محصورة في تحديد درجة الحاكم في سلسلة مراتب الموظفين . وتتفاوت حرية الحكام في العمل بنسبة قربهم من الرئيس او بعدهم عنه، او بنسبة أهمية الرئيس العسكري الموجود في ولايتهم . وكان عليهم ، قبل أي شيء آخر ، حتى اذا ما نجوا من مثل هذه القيود ، تأمين تنفيذ الاوامر الصادرة عن رؤسائهم . وما كنا لنرى فيهم خلفاء الحكام القدماء لو لم يتعاظم دورهم القضائي في أعقاب انحطاط المدن : فدرجت تسميتهم كلهم « قضاة » . ولكن أحكامهم قابلة الاستئناف .

ان نزعة العهد الى السلطة المطلقة ، بما تنطوي عليه من تناقض ظاهر أكثر منه حقيقي ، لم تفض به الى إلغاء الجمعيات في الولايات : فهو على نقيض ذلك قد احدث جمعية في كل ولاية . والاغرب من ذلك ان اعتناق الامبراطور للديانة المسيحية لم يلغ واجب هذه الجمعيات ، حتى في عهد متأخر ، في القيام بطقوس العبادة الامبراطورية : فهي تعين ، شأنها في الماضي ، كاهن الولاية ، والعبادة الامبراطورية هي الوحيدة بين « أمجاد »التنظيم القديم ، اقليمياً ومحلياً ، التي حافظت على ملء رونقها . واستمرت الحكومة المركزية في السماح للجمعيات بتهنئة كبار الموظفين ومحاولة افقادهم الحظوة ، ولكن نجاح هذه المحاولة ما زال عسيراً كما في السابق . لا بل سمحت لها آنذاك بأن تتقدم منها بتمنيات ، جريئة جداً احياناً : وهكذا في السنة ٣٩٩ لم تتردد جمعية ولاية « المدن الخمس » *Pentapole* الافريقية في اثارة النقاش لمعرفة رأي الاعضاء في ارفاق تقدمة تاج ذهبي للامبراطور اركاديوس والتماس تخفيف الضرائب بطلب إلغاء القيادة العسكرية التي تخضع لها. وان هذا التساهل ، الذي لم ينجم عنه أي خطر ، قد اتاح للامبراطور الحفاظ على حدّ أدنى من الاتصال بالرأي العام في المواضيع ذات الصالح المحلي : وهو حد تحتاج اليه كافة الانظمة ، حتى المطلقة منها .

الابرشيات والوكلاء

لم يكن بمكنة حكام الولايات ، بسبب كثرتهم ، الاتصال اتصالاً مباشراً دائماً بالحكومة المركزية . لذلك احدث ديوكليسيانوس درجة وسيطة هي « الابرشية » اسندت السلطة فيها الى « وكيل قائد حرس القيصر » . كان عدد الابرشيات في البدء اثنتي عشرة ثم أمسى خمسة عشر في اواخر القرن الرابع . ضم كل منها عدداً معيناً من الولايات في وحدة اقليمية كبرى. بيد ان مدينتي روما والقسطنطينية والولايات الثلاث التي اسندت السلطة فيها الى بروقنصل فلم تدخل في هذا التقسيم ، بل ارتبطت مباشرة بالحكومة المركزية . فالفت بريطانيا ابرشية ؛ وغاليا ابرشيتين ، احداهما للنصف الجنوبي والثانية للقسم الشمالي ، وكانت مدينتا « تريف »وفيينا مقر الوكيلين ؛ ومصر وكيرينا ابرشية ؛ الخ . وقامت في هذه الابرشيات جمعيات على نمط الجمعيات في الولايات .

راقب الوكلاء عمل الحكام ومارسوا سلطة قضائية استئنافية . واستفاد « كونت الشرق » ، وهو وكيل الابرشية التي ضمت الولايات حول سوريا ، من مركز استثنائي بسبب جوار بلاد

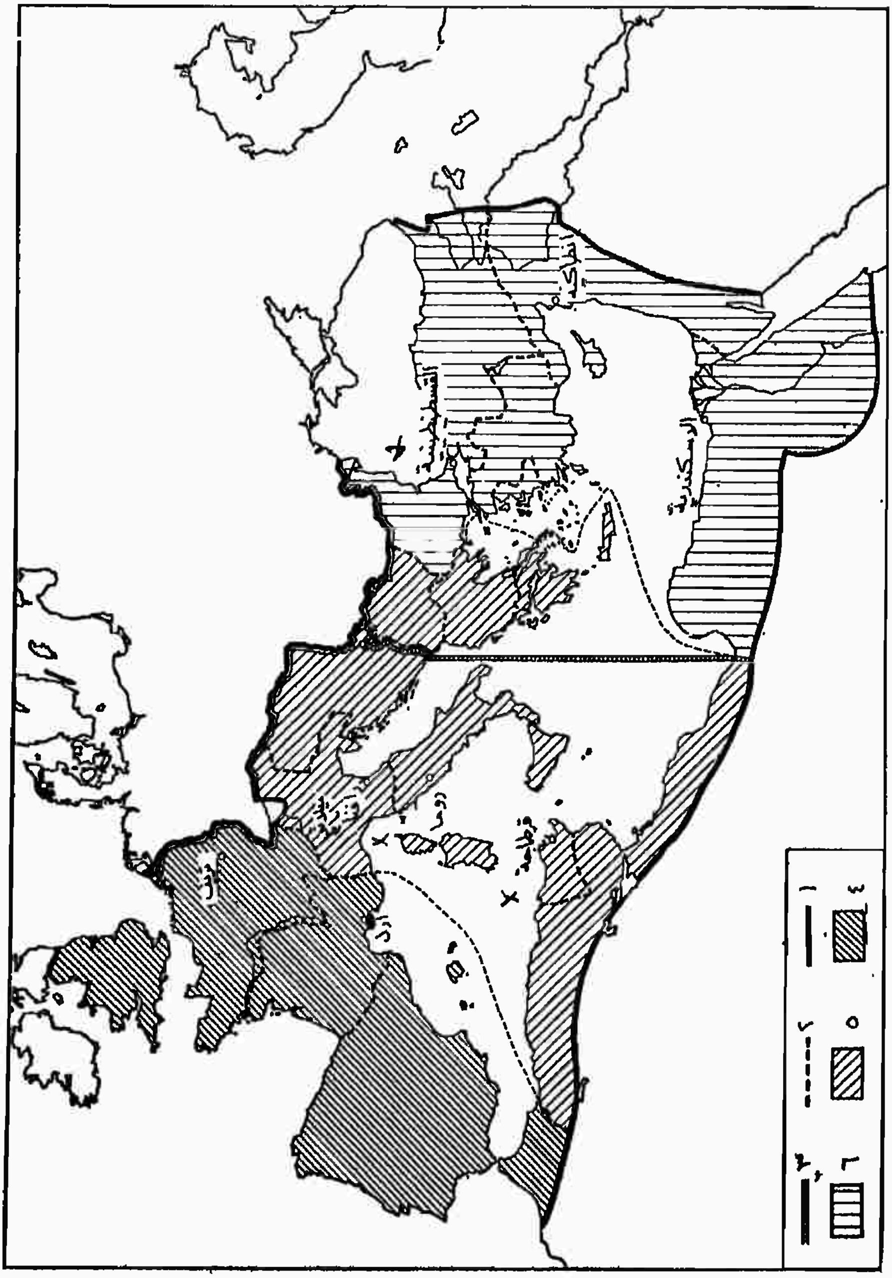

الشكل ٢٢ – الابرشات وقيادات الحرس في السنة ٣٩٥ .

١ – حدود الامبراطورية؛ ٢ – حدود الابرشية؛ ٣ – الحدالفاصل بين شطري الامبراطورية الشرقي (اركاديوس) والغربي (هونوريوس) في السنة ٣٩٥ ؛ ٤ – قيادة حرس غاليا ؛ ٥ – قيادة حرس أليريا وايطاليا وافريقيا ؛ ٦ – قيادة حرس الشرق .

فارس . اما في الابرشيات الاخرى فلم يحظ الوكلاء بهذا المركز الهام. كانوا يراسلون الامبراطور مباشرة ، ولم تحدث وظائفهم الا لاضعاف قيـادة حرس القصر ، ولكن التنظيم الجديد الذي ادخل على هذه الاخيرة اخضعهم لها في النهاية . وما لبثوا ان اصبحوا مجرد جهـاز للتحويل ، وما عتمت بعض المراكز ان بقيت شاغرة . فتغلبت النزعة الى المركزية ، مع ما تستلزمـه من تسلسل دقيق في المراتب ، على النزعة الى النظام الاقليمي التي لم تبرز يوماً بقوة على كل حال .

قيادة حرس القصر

ادخل قسطنطين تعديلات عظيمة على قيادة حرس القصر . منذ العهـد الامبراطوري الاول تعدت صلاحيات هذا الجهاز ، الى حد بعيد ، قيـادة فرق الحرس التسع : فقد مارس قادة الحرس سلطة قضائية وتوصلوا من جهة ثانية ، لا سيا منذ القرن الثالث ، بفعل اشرافهم على تموين الجيش ، الى فرض رقابتهم على كل الادارة المالية تقريباً. ومع ذلك ، لم تحدث تجزئة اقليمية قط ، على الرغم من ازدواجية الحكم غير النادرة . بيد ان النظام الرباعي قد ادى الى هذه التجزئة عملياً بتخصيص كل امبراطور ، ان لم يكن كل قيصر ، بقائد حرس . ومع ان قسطنطين قد اعاد الوحدة الامبراطورية في شخصه ، فقد رجع تدريجياً الى تقسيم الامبراطورية دوائر اقليمية كبرى اسندت الى قادة حرس مختلفين . اجل كان هؤلاء القادة ، لمدة طويلة ، معتبرين وكأنهم هيئة واحدة . ولكن مبدأ التجزئة الجغرافية قد سيطر في النهاية . اما بصدد التجزئة نفسها ، فالتردد والغموض امران غير نادرين ، ومرد ذلك الى اختلاف عدد الاباطرة و « الحصص » المخصصة لكل منهم . قامت في اغلب الاحيـان ثلاث قيادات : واحدة للشرق ، من كيرينا حتى تراقيا ، واخرى لايطاليا وافريقيا والمناطق الباقية من شبه الجزيرة البلقانية ؛ وثالثة لبريطانيا وغاليا واسبانيا ومراكش . امـا المعضلة ، التي برزت منذ قبل وفاة ثيودوسيوس ، فكانت في التوصل الى التوفيق بين هذه التجزئة وتقسيم الامبراطورية الى شطرين بفعل ازدواجية الاباطرة التي افضت الى ازدواجية الامبراطوريات. وقد طالب الشرق بزيادة حصته في شبه الجزيرة البلقانية ، فجر ذلك الى نزاع حول ابرشيتين .

بعد ان الغى قسطنطين فرق حرس القصر ، الغى سلطات القادة العسكرية وجعل منهم موظفين مدنيين فقط . كانت صلاحياتهم واسعة ومتنوعة ، ويتناول اهمها ، بالاضافة الى البريد العـام والتعليم والتسعير والمحافظة على النظام بصورة عامة ، الخ ، الضرائب والقضاء . وهي في الحقيقة صلاحيات هامة جداً، على الرغم من ان عطف ثيودوسيوس وحده يفسر مكانة قائد الشرق الغالي روفينوس الايلوزي – من بلدة ايوز في مقاطعة الأكيتين – وقد تركه لابنه اركاديوس في السنة ٣٩٥ . وروفين هـذا هو الذي عرف كيف يسوّي قضية تسالونيكي بالاتفاق مع القديس امبروسيوس . اما القادة الثلاثة الذين اقاموا في القسطنطينية وميلانو وتريف – نقل هذا المركز الاخير الى « آرل » في السنوات الاخيرة من القرن الرابع – فقد اشرفوا على التشريع واقترحوا كافة تعيينات الموظفين في الولايات وسيروا الادارة.، ومارسوا سلطة قضائيـة تمييزية اصدروا بموجبها احكاماً مبرمة ، فكانوا ، اذا ما وضعنا قيادة الجيوش جانباً ، اشبه بنواب الملك : لذلك

ارتأى الامبراطور احياناً اسناد منصبهم الى هيئة مؤلفة من قائدين .

العاصمتان روما والقسطنطينية

تتضح بالتالي ، في الادارة المحلية والاقليمية ، حتى تلك التي ابقي فيها على الاسماء القديمة ، الخلافات العميقة بين العهد الامبراطوري الثاني والعهد الذي سبقه . ويصدق القول نفسه في العواصم ، على الرغم من ان رواسب العهد السابق تبرز فيها بروزاً على جانب اقوى .

يجب الا نخطىء في صيغة الجمع هذه: العواصم . فليس لاي من قادة الحرس مكاتبه في روما . ولا يقيم الامبراطور فيها الا استثناء ولفترات قصيرة . ففي الغرب نفسه ، نراه ممضياً ايامه في تريف ، أو ميلانو — ولن يلبث ان يمضيها في رافنّا التي تتصل بالبحر ويسهل الدفاع عنها — أو سيرميوم (ميتروفتزا الحالية على نهر الساف) الخ. ولكن ليست هذه كلها سوى مراكز اقامة ، لا عواصم ؛ فلا تزال روما هي « المدينة » ، ولا تزال الامبراطورية « رومانية » .

غير ان قسطنطين قد احدث روما ثانيــة ، خاضعاً لاعتبارات لا يزال الخلاف قائماً بين المعاصرين حول طبيعتها وأهميتها . ليس باستطاعة احد ان ينفي رغبته في تخليد اسمه بمشروع هندسي عظيم : فان قسطنطينوبولس ، « مدينــة قسطنطين » ، المبنية في موقع يضمن له قدم بيزنطية الأهمية الاقتصادية ، ستكون مدينة تختلف عن سيرتا النوميدية التي رممت وأطلق عليها اسم قسطنطينة . وليس باستطاعة احــد ايضاً ان ينفي الاعتبارات العسكرية : مناعة الموقع الطبيعي ؛ أهميته الستراتيجية عند مصب البوسفور الذي اجتازه القوط في القرن الثالث ؛ قربه من الدانوب السفلي الذي يهدده خطر البرابرة؛ جوار الولايات الشرقية التي يهددها الخطر الفارسي والتي خضعت لسلطة ليسينيوس الذي هزم في شهر ايلول من السنة ٣٢٤ ، بينا تقرر اختيــار الموقع منذ شهر تشرين الثاني . ولكن الاتفاق حول اعتبارات روحية ممكنة ليس أمراً بسيطاً. قــد يكون قسطنطين اراد عاصمة مسيحية غير روما المتسمة اتساماً عميقاً بالطابع الوثني : ولكنه ، اذا لم يدرك مسبقاً ان تواري الامبراطور ، في عداد اسباب اخرى ، سيفضي الى جعل روما عاصمة النصرانية الغربية ، لم يفته مع ذلك ، في القسطنطينية ، ان يوعز بالقيــام بكافة الطقوس الوثنية المعدّة للتأسيس ، ثم للتدشين في السنة ٣٣٠ ، وبتشييد أكثر من معبد . ومن جهة ثانية ، اذا كان هذا الامبراطور الذي لم يتقن اليونانية قــد فرض اللاتينية لغة رسمية في القسطنطينية ونقل اليها كثيراً من العائلات الرومانية ، فانه قد ارتكب خطأ فادحاً اذا كان قد اعتقد بأنه يوطّد ، بهذه الطريقة ، الحضارة اللاتينية في البلاد اليونانية : فما لبثت مدينته ، في الواقع ، ان باتت حصن الحضارة اليونانية في وجه روما نفسها .

لقد خاب امل قسطنطين في هذا المقصد او ذاك من مقاصده ، ولكنه مع ذلك قــد حقق منها ما هو جوهري : فالقسطنطينية ، التي استلمت منه صدارة العاصمة والتي اشتركت فيها مع روما قبل ان تغدو عاصمة الشرق الوحيدة ، لم تفقدها قط إلا في القرن العشرين . وقــد آثر الامبراطور نفسه الاقامة فيها على الاقامة في روما. فكثيراً ما أقام قبل تأسيسها في نيكوميديا

او انطاكية حين كان يقصد العيش في الشرق . وما زال ، بعد السنة ٣٣٠ يقيم في هذه او تلك من هاتين المدينتين : ولكنها اقامة قصيرة في مجموعها ، إلا اذا انصرف الى اعداد الحرب ضد الساسانيين؛ ولكننا لا نرى، على كل حال، الى جانب القسطنطينية، مدناً توازي ميلانو ورافنا.

الرواسب الشرقية في العواصم

ان روما مدينة لماضيها بالابقاء على أنظمة خاصة، كما ان القسطنطينية مدينة لمساواتها لروما نظرياً بالتمتع بأنظمة مماثلة . ولكن هذه الانظمة ما لبثت ، في الاولى كما في الثانية ، ان فقدت سلطتها كلياً بفعل تطور ظهرت بوادره منذ أمد بعيد .

في كلا العاصمتين مجلس شيوخ ، منظم على غرار مجلس الشيوخ في العهود السابقة ، أي خاضع لسلّم المراتب وفاقاً للوظائف التي يمارسها القضاة او يسندها الامبراطور اليهم اسمياً. اما مجلس روما فقد فاق مجلس القسطنطينية عزاً، لأن باستطاعة ايطاليا ان تنتدب اليه ممثلين عن العائلات الكبيرة أكثر من الشرق البلقاني. وقد بقي، لمدة طويلة، المجلس الوحيد الذي يبلغه الامبراطور جلوسه على العرش ، فكان يسرع ، كما هو بديهي ، الى الاعراب عن استحسان هذا الجلوس . الى هذه البادرة انتهت النظريات والمشادات الكثيرة المختلفة حول تعيين الامبراطور ، او أقله تثبيته، من قبل المجلس : فالامبراطور الاخير الذي اختاره هذا المجلس هو تاسيتوس الذي ملك عدة أشهر في السنة ٢٧٥ . وهكذا دواليك : فليس بعد من ولايات مجلسية ؛ وليس من خزانة باستثناء الصندوق البلدي؛ وليس من ضرب نقود؛ وليس من احتكار في ممارسة بعض الوظائف؛ وليس من سلطة قضائية . ولا تتناول مناقشات الجمعيتين سوى المواضيع العادية . ولا يأخذ الامبراطور امانيها بعين الاعتبار إلا كما يطيب له شخصياً : فلم يفلح المجلس الروماني مثلاً في استصدار قرار باعادة مذبح إله النصر الى قاعة جلساته الخاصة .

لم يحافظ اي من مناصب القضاء الجمهورية القديمة، على نقيض ما حدث في العهد الامبراطوري الأول ، على اهمية اثره في الحصول على الوظائف العامة : فهذه قد غدت مستقلة عن «سلّم الامجاد» . لا يزال الامبراطور يسند الى بعضهم مناصب قضاء اسمية، لا سيما القنصلية ، ولكنه يفعل ذلك بغية مكافأة الذين خدموه خدمة صادقة ، اثناء تقاعدهم على العموم ، لا سعياً وراء مزيد من الحرية في العمل ، عند اختيار وترفيع الموظفين ، كما في السابق .

اصبح ارفع هذه المناصب القديمة لقباً على مستوى الامبراطورية دون روابط عملية بالعواصم. فعلى الرغم من ازدواجية هذه الأخيرة، لم يقم هناك سوى قنصلين اثنين يعود أمر تعيينهما للامبراطور دون سواه . وفي حال تعدد الاباطرة ، لا يتم الاختيار ، الذي يحاول ايجاد المساواة بين الشرق والغرب ، الا بالاتفاق بينهما . ورغبة في تلافي المخاصمات ، قرّ الرأي منذ السنة ٣٩٦ ، اذ كان الامبراطوران ، ابنا ثيودوسيوس ، قنصلين في آن واحد ، على ان يعين كل منهما القنصلين مناوبة ، كما قر الرأي ، بعد فترة قصيرة ، على ان يعين كل منهما احد القنصلين . غير انهذا المنصب لم يبق لهمن إمتياز سوى تنظيم الالعاب العامة . ولما كان الامبراطور يفوق عن

« القناصل » ، بما لهذا التعبير من مفهوم قديم ، فلم يقدم الا نادراً على تعيين القناصل القضاة. فازدادت من ثم قيمة اللقب الشرفية ازدياداً كبيراً ، واحيط بابهة عظيمة . ونحن لا نعرف ، الى جانب الاباطرة، سوى حالة واحدة حصل فيها قنصل قديم على قنصلية ثانية في القرن الرابع ، هي حالة قائد فرنجي .

لم يدم عملياً ، بين المناصب الاخرى ، سوى وزارتي المالية والعدلية . وهما قد نظمتا في القسطنطينية ايضاً . وكانت وزارة العدلية بنوع خاص كثيرة النفقات بسبب الالعاب التي تقع اكلافها على كاهل شاغلي هذه الوزارة . فانتهوا الى تعيين هؤلاء قبل موعد الاستلام بعشر سنوات: حين عين ابن سيماكوس وزيراً للعدلية، اقيمت العاب استمرت سبعة ايام واستلزمت نفقات باهظة ، مع ان البذخ فيها كان عادياً – انفق آخرون ضعف ما انفقه عليها ، اي ما يزيد عن اربعة ملايين فرنك ذهباً بسعر الفرنك في السنة ١٩١٤ – غير ان الوقت قد توفر لسيماكوس حتى يطلب من اصدقائه الحيوانات المفترسة والألاهي . اما بالمقابلة فالصلاحيات شبه لاغية لا تتعدى واجب القيام ببعض الاعمال القانونية . فنحن اذن امام « تسخير » حقيقي، ولن تلبث التعيينات ان تصبح من نصيب الذين يضبطون حسابات ثرواتهم لاجل الضريبة الخاصة المتوجبة على اعضاء الطبقة المجلسية . ولكن هؤلاء القضاة ، على نقيض ممثلي الوحدات العائلية في المدن العادية ، لا يكسفون وجوههم لانهم قادرون على تحمل ضخامة مثل هذه النفقات .

ان الشخصية الاولى ، في العاصمتين ، هي « حاكم المدينة » الذي احدثت وظيفته في روما في العهد الامبراطوري الاول، وفي القسطنطينية في أواسط القرن الرابع. فهو يمثل الامبراطور الذي يعينه ، وكثيراً ما يستبدله . يرئس مجلس الشيوخ ويفصل في دعاوى المدينة والملحقات المحددة في روما بنطاق المائة ميل التقليدي . يسهر على النظام والتموين متغلباً بذلك على حكام الامن والضريبة العينية السنوية . فيكسبه كل ذلك سلطة حقيقية لا سيا في روما التي لا يقيم فيها الامبراطور : ويختاره هذا الاخير ، بالتالي ، في صفوف الارستوقراطية الوثنية ، كسيماكوس مثلاً ، حين يكون ساعياً وراء اظهار رغبته في تحقيق الوئام .

يتضح لنا ان حياة العاصمتين، بفعل التوزيع المجاني على الشعب وسخاء الاغنياء ، أعظم بهاء منها في المدن الاقليمية . ولكنها ، على الرغم من الرواسب ومظاهر المراعاة المعدة للحفاظ على نفوذهما ، لا تتمتعان ، بالنسبة لها ، بمزيد من الاستقلال الحقيقي . ومهما يكن من الامر ، فان التقليد يرغب في ان تسهم اجهزتها المحلية ، وهي وريثة أسماء مجيدة ، في شؤون الدولة : ولكن هذا الموضوع اقل وروداً آنذاك منه في الماضي .

٣ ـ الحكومة المركزية والامبراطور

أنيطت شؤون الدولة هذه ، بالاضافة الى رقابة الادارة والدفع بها الى الامام ، بالامبراطور دون سواه .

الدولة والنظام الشخصي

اقتضى لمثل هذه الدولة ، التي ترى توسع أعمالها وتعتمد ، بغية تنفيذها تنفيذاً افضل ، أساليب مركزية ضيّقة ، تنظيم حكومي قوي . لم يخل العهد الامبراطوري الثاني من هـذا التنظيم . لا بل يلفت النظر انه توصل ، على الرغم من قصره ، الى تحقيق تنظيم بمثل هذه القوة ، وبمثل هـذا الاستقرار نسبياً ، أقله بصدد المصالح ، ان لم يكن بصدد الرجال . وقـد توصل ، في بعض المواضيع ، الى التمييز بين مفهوم الدولة ومفهوم الامبراطور .

بيد ان مفهوم الامبراطور ما زال يسيطر على مفهوم الدولة ، ويلاشيه ملاشاة في أكثر الاحيان. ولكن هذه الظاهرة ليست نتيجة الطابع البدائي الذي تتسم به دولة في طور التكون، كما حدث في العهد الامبراطوري الاول ، بقدر ما هي نتيجة السلطة المطلقة التي تفسح مكاناً كبيراً لأهواء الامبراطور الشخصية وللتأثيرات الخاصة التي قد يخضع لها . وكان تجنبها يستلزم ملكة عقلية ووضوحاً منطقياً يسيّرهما نهج فكري ساد في عهد الانطونيين ، ولكنه أهمل بعد ذلك . ومتى ميزت الدول العصرية بين هذين المفهومين يا ترى ؟

قامت ، في ما يعنينا ، مصاعب أخرى ايضاً : تعدّد الاباطرة أولاً ، وتبدّل عددهم ثانياً وخصوصاً . فقد وجب لكل منهم حكومته ودوائره المركزية المحدثة تقسيماً او دمجاً بحسب التقلبات السياسية . ولحسن الطالع ، انتهى هذا التعدد في أغلب الاحيان الى نظام ثنائي قسمت الامبراطورية بموجبه الى شرق وغرب . ومهما يكن من الأمر فان هذا النظام هو الذي وطّده وجود ابني ثيودوسيوس في اوائل القرن الخامس ، واذا ما زالت حكومة الغرب بعد ذلك ، فان حكومة الشرق قد استمرت في الامبراطورية البيزنطية .

الكونتية

ان للتقدم الذي احرز في مثل هذه الظروف أهمية يزيد من شأنها ان النزعة التي يعكسها لقب الـ *Comes*، أي « الرفيق » الذي اشتقت منه كلمة « كونت » كانت قادرة على إيقافه نهائياً .

لم تجهل الامبراطورية الاولى هـذا اللقب الذي عرف باسم « الصديق » آنذاك ، ولكنه لم يفض قط الى ما يشبه الرتب البلاطية في الملكيات الهلينية . أعاده قسطنطين ، بعد فترة زوال، بمنحه موظفين اوكلت اليهم في البداية مهمات خاصة تخل بالنظام السائد . ولكنه لن يلبث ان يفرط في توزيعه ، فيحتذي حذوه خلفاؤه . وعلى الرغم من ان اللقب ، في بعض الحالات ، — سبق وأشرنا الى كونت الشرق — لا يتميز عن اسم الوظيفة الرسمي، فانه قد أصبح سمية تزيينية قبل كل شيء آخر استلزمت احداث ثلاث درجات اطلق عليها اسم « الرتب » .

ان الكونت ، نظرياً ، لا يخدم الدولة بل الامبراطور الذي تربطه به صلة شخصية قوامها المودة والشكران والاعجاب ؛ كما ان مجموع الكونتيـة يؤلفون « معيته » نظرياً ويرافقونه في تنقلاته . ولكن ليس لهذه النظريات من نتيجة عملية : كانت هذه المثل ، منذ أمد بعيد ، اساس التنظيم الحربي عنـد البرابرة الجرمانيين . وليس ما يمنع الاعتقاد بتأثير هؤلاء على قسطنطين .

ومن المحتمل جداً ايضاً ان تكون هذه المثل حنيناً الى العادات والاعراف الهلينية والرومانية على السواء : فما زالت الملكية الامبراطورية ، في جوهرها ، ملكية شخصية مبنية على مفهوم الانسان المتفوق . ويغلب على الظن ان ما اوجب الاخذ بها ، في البدء ، هو واجب حل بعض الصعوبات حلا سريعاً . ثم فقدت جدواها ، في التطبيق العملي ، بفعل حتمية صيرورة الالقاب البلاطية الى الابتذال والحاجة الى المحافظة على الآلة الادارية العادية . ومهما يكن من الأمر ، فان « معية » قسطنطين وخلفائه ليست مسؤولة قط عن انقسام الدولة في القرن الخامس ، وانما اقتصرت الـ « معية » التي كانت لها الغلبة بعد ذلك ، والتي كانت ابعد تأصلاً جرمانياً ، على استخدام مفرداتها.

المجمع والمصالح الكبرى

بعد اجهاض هذا الخطر ، قامت على رأس الدولة ، بغية ممارسة أهم صلاحياتها ، اجهزة وظائف ثابتة . واذا ما كان بعضها ، من هذا القبيل ، موروثاً عن العهد الامبراطوري الاول ، فان التقدم في الطريق التي شقها هذا الاخير ، واقع راهن .

يطلق على « مجلس الامير » القديم ، بفعل متطلبات آداب المجتمع ، اسم « الموقف » (المجمع) اذ ان اعضاءه يشتركون فيه وقوفاً . تعود رئاسته ، في غياب الامبراطور ، الى « وزير مالية القصر ». يدرس شتى الشؤون ، ويشترك كبار رؤساء المصالح في جلساته . وللموقف ، بالاضافة الى ذلك ، امناء سره الذين يؤمنون استمرار اعماله بواسطة الاختزال .

اما اولئك الذي يمكن تسميتهم بالوزراء فلا يزالون قليلي العدد جداً . فهناك « رئيس امناء السر » الذي يضبط يومياً جدول الموظفين والرؤساء العسكريين ويمارس بالتالي وظيفة على بعض الاهمية . ويدير الخزانة ، بحسب مصدر الواردات ، « كونت الاعطيات المقدسة » و « كونت الاملاك الخاصة » . ويرئس دوائر المستشارية « سيد الدوائر » الذي تتعاظم اهميته باستمرار ، كما يبدو ، ولعل السبب في ذلك انه رئيس «موظفي الشؤون» ايضاً ، الذين يمارسون، بفعل انتشارهم في كل مكان ، عملاً اتهامياً لا يختلف عن الجاسوسية احياناً . ويجدر بنا ايضاً ان نضيف الى هذه القائمة قائد حرس القصر المعين على رأس الادارة الاقليمية .

تجدر الاشارة هنا الى ان الحكومة المركزية خلو من وظيفة وزير اول . وربما كان « وزير مالية القصر» مؤهلاً قبل غيره لشغل هذا المركز. وربما اسندت الوظيفة الى رجال لم يعرفوا كيف يستثمرون طاقاتها : ومهما يكن من الأمر فقد فقدت اهميتها .ولكن السبب الرئيسي، في الارجح، هو ان اباطرة القرن الرابع كانوا حذرين فقسموا السلطة بين مساعديهم حفاظاً على سلطتهم الخاصة. ولنشر مرة اخرى هنا الى فصل الوظائف العسكرية عن الوظائف المدنية : « فسيد الدوائر» هو من يرئس الجنود البرابرة في الحرس الشخصي ، ولكن «للحامين» رئيساً خاصاً هو «كونت المنزلين» ، كما ان « اسياد الجنود » يرئسون الجيوش ، حتى تلك المقيمة في جوار المقر الامبراطوري . فقد فرضت امثولة العديد من الاختبارات المؤسفة اللجوء الى التبصر والحكمة . ولن يحدث الا بعد

وفاة ثيودوسيوس ان يبرز اشخاص يصبحون اسياد الحكومة الحقيقيين، على الرغم من تعرضهم الدائم لفقدان الحظوة بصورة مسرحية مفاجئة : القائد ستيليكون في الغرب ، وقائد الحرس روفينوس وافتروبوس مدير غرفة الامبراطور في الشرق ، الذين سيبرز بعدهم كثيرون سواهم . بيد ان تنوع الوظائف الرسمية التي يشغلونها يبين ان لا صلة عضوية بين اية وظيفة منها وسلطتهم. فهم لا يدينون بهذه السلطة الا لعطف الامبراطور الشخصي ولعدد الزبن ، وحتى للقرابات اللامعة التي اتاح لهم هذا العطف تكوينها : تزوج ستيليكون من ابنة عم الامبراطور في السنة نفسها التي ولد فيها هذا الأخير ، فعين وصياً عليه ثم زوجه ابنتيه على التوالي. ولكن الملكية ، حتى في زمن اباطرة ضعفاء من امثال اركاديوس وهونوريوس ، لم تسمح بقيام وظيفة قد تعطي صلاحياتها الرسمية دور تنسيق ، وبالتالي دور ادارة حقيقية لمن تسند اليه.

دسائس البلاط

كان للامبراطور مفضلوه المقربون : وهل خلا منهم اي حكم مطلق ؟

قام هنالك بلاط اقل فجوراً منه في العهد الامبراطوري الأول – ومرد ذلك الى ان النصرانية ، بعد ارتداد قسطنطين، قد تركت اثراً قوياً في الاخلاق – ولكنه ليس دونه بطانة أو حقلاً خصباً للدسائس . وقد يحدث فيه ان تتدخل النساء في السياسة . ولكن ذلك لم يبلغ قط ما بلغه في بلاط سلالة ساويروس حيث تذكرنا الاميرات السوريات جوليا دومنا امرأة سبتيموس ساويروس ووالدة كركلا وشقيقتها جوليا ميزا ، وابنتا هذه الأخيرة جوليا سوامياس وجوليا مامّيا ، والدتا ايلاغابال وساويروس اسكندر ، بطموحهن وعزمهن اللذين لا يقفان عند حد ، باكثر الملكات السلوقيات او اللاجيات افتاناً وتهييجاً . ومع ذلك فاذا كان من الطبيعي ان تتوارى النساء في فوضى القرن الثالث ، فانهن قد ظهرن مجدداً في القرن الرابع . فقد ادمت بعض المآسي البلاطية ملك قسطنطين الذي اوعز بقتل ابنه كريسبوس بتحريض من امرأته الثانية فوستا التي ما لبثت ان اعدمت الحياة بعد اشهر معدودة . وافاد جوليانوس افادة جلى من عطف الامبراطورة افسافيا عليه لدى كونستانس الثاني . وجعل موت فالنتينيانوس الاول من ارملته جوستينا ولية العهد ، واسرع ثيودوسيوس في ترفيع ستيليكون بعد ان وافق على زواج ابنة شقيقه منه . ويمكننا الاستشهاد بمزيد من الامثلة التي يوفرها لنا خلفاء ثيودوسيوس .

كان للرجال ايضاً تأثيراتهم ولم تكن دون تأثيرات النساء طابعاً شخصياً . فان « للقصر المقدس » ، بالضرورة ، مصالحه التي يحتل رؤساؤها مركزهم في تسلسل الموظفين . وقد وفرت احدى هذه المصالح بنوع خاص، « الغرفة المقدسة »، لمن ينتمي اليها، تقرباً شخصياً وحميماً من الامبراطور . فعلى نقيض كافة المصالح الاخرى التي أقفلت في وجه العبيد او المعتقين ، إلا في بعض المراتب الدنيا ، ما زالت هذه المصلحة مخصصة بهم تقريباً : لا بل كان بينهم شرقيون كثيرون ، وخصيان كثيرون ايضاً بحسب عادة يفسرها منشأهم. وعلى الرغم من هذا الذل ، وربما بسببه ، فقد حدث احياناً ان توصل بعضهم الى التأثير على الامبراطور نفسه . اجل قامت

سوابق مماثلة في عهد سلالة كلوديوس، ولكنها سوابق غير مشينة. اما الآن فاننا نشاهد خصياناً « يتولون شؤون الغرفة المقدسة » ، أي مدراء غرفة كباراً يسند اليهم القيام بالمهـام الدقيقة وبالدورات التفتيشية وبأكثر من ذلك . تلك حال افسيفيوس الذي أوحى بأكثر من قرار من قرارات كونستانس الثاني ، ثم اعدم في اوائل ملك جوليانوس. وتلك خصوصاً حال افتروبوس الذي كان متقدماً في السن حين دخل في خدمة ثيودوسيوس وتوصل بسرعة الى احدى الوظائف العليا ، فتركه ثيودوسيوس لابنه الذي كلفه بعد ذلـك القيام بحملة عسكرية ورفعه الى رتبة القنصلية .

نعتقد بأن هذه الأمثلة كافية للتكهن بما عرم به بلاط القرن الرابع من دسائس وبما سيكون من امره في القرن الخامس حين ينقطع الامبراطور عن العيش مع الجيش حيث كان ينجو مـن بعض هذه التأثيرات . واذا ما انجز في القصر عمل حكومي واداري جدي ، فقد حيكت فيه ايضاً مؤامرات مظلمة تقز منها النفس احياناً ، ناهيك عن الوشايات والخيانات وما تجرّ اليه من تحاسد وما تثيره من تنافس حاد بين موظفين يساندهم اقرباؤهم او زبنهم .

الامبراطور : الرئيس العسكري

كان كل هذا ثمن الحكم المطلق. بيد ان الامبراطور لم يتمتع يوماً ، في الواقع، بمثل هذا الحكم . فهو لا يزال رئيس الجيش ومختاره. وقد سبق وألمحنا اعلاه الى حقيقة اعتراف مجلس الشيوخ به ؛ اما اتصالات الشعب الوحيدة به فلا تجري ، كما هي الحال منذ امد بعيد ، إلا في الملعب أثناء الالعاب. بيد ان الأمر على خلاف ذلك مـع الجنود . فالحدث الرئيسي، الفعلي والنظري معاً، الذي يرافق جلوس امبراطور جديد على العرش هو تقديمه الى فرق مختارة تنادي به امبراطوراً ؛ ثم يلي الاحتفال اعلان توزيع الهبات . هذه هي الحال حين يجري كل شيء في ظل النظام ، فماذا نقول اذن عن الاغتصابات ؟ ان خير ما نعرفه عنها في أصوله الاجرائية هو ذاك الذي استفاد منه جوليانوس في لوتيسيا في اوائل السنة ٣٦٠ . فحين خضع للتمرد ، الذي اعدته الاركان خير اعداد على كل حال، رفع على ترس احد المشاة ووضع على رأسه ، عوضاً عن التاج ، عقدُ احد حملة الاعلام الكلتيين. وعد حينذاك بتوزيع الذهب والفضة (ما يعادل ١٤٠ فرنكاً بسعر السنة ١٩١٤ لكل جندي) . وفي اليوم التالي ألقى خطبة في ميدان مارس فصفق له الجنود وأعربوا عن استحسانهم بضرب تروسهم بالرماح . ظهرت للمرة الاولى في هـذه المشاهد طقوس بربرية، أهمها اعتلاء الترس الكبير ، تدل على التطور الذي طرأ على التجنيد ، ولن تستقر إلا في عهد لاحق على الارجح . وبقي اخيراً دور الجيش كجيش ، الذي يتفق وأعرق تقاليد النظام : والجدّة الوحيدة هي ان الجيش قد غدا وحده منذئذ صاحب الحق في منح السلطة .

ان هذا الطابع العسكري لا يزول بجلوس الامبراطور على العرش. فالموظفون الذين يعتبرون جميعهم ممثلين للامبراطور او معاونين له يعتبرون جميعهم جنوداً ايضاً . بزتهم تستلزم النجاد . والنجاد يدخل كذلك في بزة الامبراطور الاعتيادية مع المعطف الارجواني الذي يرتديه الرئيس

الحربي . واذا ما ندر الاحتفال بمواكب المنتصرين ، فان فكرة النصر تدخل في الاحتفالات التي حلّت عملياً محل هذه المواكب في اعياد الجلوس التي تقام برونق خاص كل عشر سنوات : فكان هنالك الذكرى العشرية الاولى والذكرى العشرية الثانية ، وحتى الذكرى المشرية الثالثة لجلوس قسطنطين . واستمرت هذه الفكرة في النعوت التي ما زالت تضاف الى الالقاب الامبراطورية .

ممثل الاله

إلا ان الجيش، الذي هو القوة فحسب، لا يستطيع ان يعطي السلطة إلا مرتكزاً أدبياً خشناً اذا ما اكتفي به . وقد ساد الاعتقاد ، تصريحاً او تلميحاً ، بأن الجنود، الذين لا ينتخبون باختيارهم، يكتفون بأن يعترفوا وينادوا بذاك الذي أسماه ثيميستيوس « الكائن السماوي » و « رسول السماء » . وحين كان الجيش الجمهوري ينادي بقائده امبراطوراً بعد النصر ، كان يحيي فيه حبيب الاله . وكان للامبراطور منذ القدم ارتباطات خاصة بهذا الإله . ولكن طابع الملكية الديني ومظهر الامبراطور الإلهي قد برزا بقوة منذ الامبراطورية الاولى التي حرصت على ألا تنقل الى روما مثالية الملكيات الهلينية كاملة .

برزت قوة هذه النزعة منذ اواخر القرن الثاني بنوع خاص حين احرزت التأثيرات الشرقية غلبة حاسمة. ولم يبلغ النظام يوماً ، في سلوكه هذه الطريق، ما بلغه قبيل جلوس ديوكليسيانوس. ولنهمل هنا تجاوزات ايلاغابال التي ليست سوى حدث عابر . . ولكننا نلاحظ ، طيلة القرن الثاني، التقدم المستمر في العلاقة بين فكرة « الاله الشمس » ، سيد الكون ، وفكرة الامبراطور ممثله على الارض ، بل أقنومه البشري . لقد رغب بعض الاباطرة في السابق بأن يمثلوا على قطع النقود حاملين تاجاً مشعاً يرمز الى الشمس : اما الآن فيظهر هذا التاج على رأس كافة الاباطرة . وقد بلغ هذا التطور ذروته في عهد اوريليانوس. فقد درجت منذ سلالة ساويروس عادة غير رسمية تقضي باطلاق لقب « الاله » على الامبراطور . اما اوريليانوس فقد أرفق اسمه ، على النقود ، بالصيغة الرسمية « المولود إلهاً وسيداً » : ويستلزم هذا التحديد عبادة شخصية تؤدى فروضها للامبراطور وهو على قيد الحياة .

لا مراء في ان ديوكليسيانوس قد خطا خطوة الى الوراء . بيد ان الحلّ الذي اعتمده أبعد تقدماً من ذاك الذي اعتمده أباطرة القرنين الاولين. اقتصر هؤلاء على اعتبار أنفسهم أبناء سلفهم « الالهي » . اما ديوكليسيانوس فقد أطلق على نفسه اسم « جوفيوس » وأطلقه على قيصره ، بينما اختار الامبراطور والقيصر الآخران اسم هرقوليوس . ومعنى هذين الاسمين «ابن جوبتير» و « ابن هرقل » ، أي ابنا إلهين هما أوسع آلهة الزون الروماني شهرة آنذاك ، الاول كسيّد العالم والثاني نظراً لوضع قوته في خدمة سعادة البشر . تسلم أبناء هؤلاء الآلهة النعمة الالهية من آبائهم. فكانوا وسطاء بين الآلهة والبشر يحظون بالهام وعضد اولئك، بينما يقدم لهم هؤلاء الطاعة والاحترام الديني دون ان يستلزم ذلك العبادة بالذات .

قد نجد احياناً ، حتى ابان الاضطرابات التي عقبت اعتزال ديوكليسيانوس الحكم ، استمرار عرف اعتماد هذه الالقاب الرسمية في كلا السلالتين . وعلى كل حال فان مفهوم الطابع الإلهي في

الاباطرة قد امتد حتى ظفر الامبراطور المسيحي قسطنطين . على ان هذا الظفر لا يكون ثورة من هذا القبيل. فقد سلمت النصرانية على الدوام، كما قال القديس بولس، بأن « لا سلطان إلا من الله »، ولا يعقل ان يسمح قسطنطين بزوال الاساس النظري لسلطته في نظر الوثنيين من رعاياه. ولا يلزم لذلك سوى حد أدنى من التوفيق بين الاتجاهين، أي إلغاء الابوة الالهية، وأسمي جوبتير وهرقل دون ابدالهما بأي اسم آخر : وقد درجت الوثنية نفسها، منذ زمن بعيد، على الكلام عن « الالوهة » و « الإله » بمعناهما الواسع . فجوهر الفكرة من ثم لا يزال باقياً لخير الجميع : الله يختار الامبراطور نائباً عنه ؛ يده تمد له الصولجان ؛ يقويه ويلهمه .

الحقوق والواجبات

يستتبع ذلك واجبات على الامبراطور لا يجد الوثنيون من امثال ثيميستيوس وسينيزيوس – الذي لم يكن بعد أسقفاً على بتوليابيس في كيرينا حين وجه الى اركاديوس، في السنة ٣٩٩، خطابه « حول الملكية » – او المسيحيون من امثال افسيفيوس أسقف قيصرية، صعوبة في الاتفاق عليها . ولا تختلف هذه الواجبات، في الواقع، عن تلك التي حددها أكثر الفلاسفة منذ اواخر القرن الرابع قبل المسيح. وقد انطوت عليها كلها تقريباً مثالية الملكية الهلينية نفسها، كما انها لم تكن بعيدة عن مثالية الامبراطورية الاولى . غير ان الامبراطورية الثانية تتكلم عنها بمزيد من التشديد وتضفي عليها طابعاً يتسم بمزيد من الصوفية .

لن يتميز الملك عن المستبد اذا هو بنى سلطته على الخوف لا على المحبة ؛ واذا هو لم يمارس كل الفضائل، لا سيما العدل ومحبة البشر ؛ واذا هو لم يقدم لرعاياه مثل الخير بغية ارشادهم وتخليصهم ؛ واذا هو لم يقتد بالاله، « مثاله الاول » بالنسج في بناء الدولة وادارتها على منوال المدينة السماوية . عرف الاباطرة جميعهم هذه الواجبات؛ وقد سمح كثير منهم للخطباء بتوضيحها وتفسيرها امامهم بلهجة تعليمية لا تخلو احياناً من درس ضمني على الاقل، دون ان تنقلب يوماً الى انتقاد صريح . فقد قال سينيزيوس لاركاديوس : « اما انت فعليك ان لا تسقط من المرتبة التي عينت لك، وان لا تحط من لقب الملك الذي تحمله على غرار الله، وان تتقيد، على نقيض ذلك، بهذه القدوة، وان تغمر المدن باحسانات لا تحصى، وان توفر كل سعادة ممكنة لكل من رعاياك » . وليس من امبراطور، على كل حال، يعترض على تبني هذه الافكار . فان بياناتهم الرسمية وبراءاتهم تستوحي باستمرار هذه الفضائل التي يعرفون ان من واجبهم التحلي بها . فلنكتف، بين نصوص كثيرة مماثلة أخرى، بأن نقرأ هذا المقطع من مقدمة براءة ديوكليسيانوس حول الحد الاعلى : « فإلينا نحن الساهرين، نحن آباء الجنس البشري، يعود واجب احقاق الحق حتى تجد الانسانية، التي لم يحالفها الحظ في الدفاع عن نفسها، انفراجاً يؤول الى الخير العام، بفعل تدابيرنا الاحترازية » . وان في التشريع، الذي يتميز، في القرن الرابع، بالقسوة في مكافحة الزنى والخطف، لتعبيراً عن تصميم المسؤولين على الزام الرعايا بالتقيد بالانظمة الاخلاقية .

بيد ان هذا المفهوم يمنح الامبراطور سلطات غير محدودة ايضاً . عرّف الملك، في العهد الهليني، بانه «الشريعة الحية»، فرُجع اليه غالباً آنذاك، وهو يقبل تفسيرين : اما الانسان الذي

يعطي الشريعة حقيقتها الحية بفرض التقيد بها ، واما الانسان الذي تكون ارادته الحية الشريعة بالذات . ويتجنب كثيرون توضيح فكرهم ويحتمون وراء تأكيدات مطمئنة ، فقد قال ثيميستيوس : « الملك هو شريعة حية ، شريعة الهية آتية من العلاء ، هبة زمنية من الكرم الازلي ، انبثاق من طبيعته ، ... لا بد له ان يتجه اليها وينزع الى الاقتداء بها » . ولكن ثيميستيوس هذا نفسه لا يتردد في مكان آخر في ان يقول للامبراطور : « انت الشريعة الحية ، ودونك الشرائع الكتابية » . غير انه لا يلبث ان يضيف بان واجبه يقضي عليه ، والحالة هذه ، بتفسير الشرائع وتخفيف صرامتها .

مهما يكن من الأمر ، فمن ذا الذي يستطيع الحكم في استعمال الامبراطور لحقوقه وفي طريقة قيامه بواجباته ؟ فليس سوى القديس امبروسيوس ، الذي يهول امام المؤمن بالسلاح الروحي الذي تعطيه اياه الاسقفية ، من يستطيع حمل ثيودوسيوس على الاعتراف بخطيئته . ولذلك فالامبراطور عمليا هو « الشريعة الحية » بكل ما لهذا التعبير من معنى .

العادات الجارية في الاحتفالات

ينعكس كل ذلك في اصول الاحتفالات . ابقى الاباطرة المسيحيون على الكثير مما خلفته لهم الوثنية . حملوا حتى ثيودوسيوس لقب الحبر الاعظم الذي تخلى عنه غراتيانوس في السنوات الاخيرة من ملكه . وفي الولايات استمر الاحتفال بالعبادة الامبراطورية باستثناء تقديم الذبائح فقط . وما زالت طقوس التأليه ترافق الجنائز الامبراطورية في القرن الرابع ، كما ان النصوص الرسمية ما زالت تلقب كل امبراطور ميت بـ « الالهي » .

اضيفت الى ذلك عناصر اخرى خالية من اي طابع مسيحي أو وثني مميز ترمز كلها الى سلطة الملك النظرية واشتراكه في طاقات لا تتوفر للبشرية العادية . وانه لمن الصعب ، في الحقيقة ، توقيت ظهور كل منها وتحديد أصلها وتفسيرها الحقيقيين . فالوراثة الهلينية واضحة في كثير منها . ولكن ما هي السوابق المتفرقة التي قدمتها الامبراطورية الأولى ؟ وما هي العناصر المنتقلة من التقليد المستمر في الشرق ، داخل حدود الامبراطورية ، الذي ازداد رسوخاً آنذاك بفعل الغليان الشرقي ؟ وما هي اخيراً نسبة استيحاء مثل الملكية الساسانية التي انتقل اليها ايضاً بعض الارث الهليني وقسم كبير مباشر من الارث الايراني ؟ تبدو بعض المصادر المعادية لديوكليسيانوس ميالة الى المغالاة في الكلام عن ابتكاراته وتقليده للاعداء . اما نحن فيكفينا ، دون الدخول في هذه المجادلات ، ملاحظة اتجاه ملموس نحو غاية واحدة .

حلت الكلمة (« سيّدنا ») ، اخيراً ، في اعلى لائحة الالقاب الامبراطورية ، محل اللقبين التقليديين (« الامبراطور القيصر ») . وكان كل ما يعود للامبراطور « مقدساً » : قصره ، غرفته ، مجمعه ، صوانه ، الخ . يحمل التاج ، رأسه يحاط بالهالة في صوره . تمارس « العبادة » امامه بالسجود وبتقبيل اسفل معطفه . يمسك الكرة بيده رمزاً للقوة الكونية .

اخذت اصول آداب المعاشرة تنظم حياته . غير انها لم تحرمه الملذات الشاقة . فهو يتعاطى القنص حتى ولو انقطع عن التوجه الى الجيش . وتعد المآدب في البلاط حيث تؤدي معاقرة

الحمرة الى المشاجرات . ولعل وجود القادة البرابرة قد ساعد على استمرار هذه الاذواق الخشنة . ولكن الابهة تتجلى في ايام الاحتفالات باحرار الارجوان ، ولمعان الذهب والمينـــا ، واشعاع عرق اللؤلؤ والحجارة الكريمة والجواهر ، بمـا وصفه سينيزيوس ، في السنة ٣٩٩ ، بـ « سطوع الوان متقلب شبيه بسطوع الوان الطواويس» ، يأتون من بعيد بالرمل الحاوي الذهب ويذرونه على طريقه ، من رأسه حتى قدميه – اذ ان الحجارة الكريمة تثبت في وشاح التاج والالبسة والنجاد والاحذية نفسها – يحمل الامبراطور بيتاً ثقيلاً وزاهياً يحمده على العرش الذي يستقر فيه وراء طنفسة تزاح في البرهة الأخيرة ، بينا يراقب « الصامتون » القاعة . واذا وصف يوحنـا الذهبي الفم ، حتى في السنة ٣٩٩ ، في كلامه عن الامبراطور حين يخرج الى المدينة ، « الجنود المجللين بالذهب ، والزوامل البيضاء المزينة بشتى انواع الزينة الثمينة ، والعربات المنزلة بالحجـــارة الكريمـــة مع اغطيتها الناصعة البياض وصفائحها المعدنية المترجرجة ، والتنانين المطرزة على الملابس الحريرية ، والتروس المزدانة بالسرر الذهبية ، والحجارة الكريمة المنثورة على الحمائل..، والاحصنة المتوشحة بالذهب مع حكماتها المذهبة » ، فانه يسارع الى القول ان زينة الامبراطور الفاتنة تفوق بذخ الموكب .

ان مدينة بيزنطية القديمة أصبحت القسطنطينية . ولكن الأبهات البلاطية في بيزنطية القرون الوسطى انتقلت ، منذ ذاك الحين ، الى روما الجديدة .

الحكم المطلق

سبق ورأينا ان دسائس البلاط وحظوة المقربين غير المستقرة قد لازمت هـذه الابهات بالضرورة . ويصح القول نفسه في الحكم المطلق الذي أوحى بهـذه الابهات دون ان يفيد منها افادة تذكر .

لنعد اليه في آخر هـذا الفصل الذي دار كله حوله . بديهي ان قانون الجلالة القديم لا يزال يحمي العرش وتسهر على تطبيقه محاكم عادية او خاصة برعت الشرطة في تموينها بالدعاوى مع ما يرافقها من اعمال تعذيب ماهر في الاستجواب وتنفيذ الاحكام . فقد زال مفهوم « المواطن » منذ زمن بعيد ، عملياً . اما الآن فالتعبير نفسه يتلاشى امام التعبير « رعايا » وتبرز في اللغـة اليونانية كلمة *Douloi* « العبيد » . والحقيقة هي ان سلطة الدولة ، التي يجسّدها الامبراطور ، تلجأ الى الاقتسارات الكثيرة : فهو يتولى ، كما رأينا ، فرض معتقداته عـلى غيره ، ويدّعي ، كما سنرى ، بحق فرض العمل والمنزلة الاجتماعية على الغير .

الفصل الرابع

التجديدات الاقتصادية والاجتماعية

تتسّم الحياة الاقتصادية والاجتماعية في العهد الامبراطوري الثاني بثلاثة طوابع رئيسية .

هنالك في الدرجة الاولى تدخل الدولة . فالدولة لم تتمش على مذهب جديد اخذت عـلى على نفسها تطبيقه ونشره ، بل نزعت ، بتأثير أرسخ المفاهيم قدماً ، وعلى غرار كافة الدول ، الى اعتبار حقها النظري في التدخل في هـذه الحقول غير محدود تقريباً . ولكنها شأن النظام السابق أبعد من ان تفكر باستخدام هذا الحق استخداماً تلقائياً . اما التشريع الذي توحي به لها ، خدمة للضعفاء ، آراء الفلاسفة حول محبة البشر والتعاليم الاخلاقيــة المسيحية ، فلم يؤثر تأثيراً حقيقياً في التطور العام . فالى أية نتيجة كان من الممكن ، في الظروف العادية ، ان يؤدي التيار الذي يعبّر عنه هذا التشريع ؟ ليس باستطاعة احد ان يجيب على هذا السؤال . والحقيقة الثابتة هي انه اصطدم منذ القرن الثالث بحاجات مباشرة اعتبرتها السلطة السياسية اعظم إلحاحاً. وهذه الحاجات هي بالضبط ما أدركتـه السلطة . فطبقت في معالجتها حلولاً بدت لها غاية في البساطة – وهي غاية في البساطة فعلاً – ، ولكن هذه الحلول ، المعتمدة في البدء كحيل فقط، كان نصيبها الاستمرار والشمول ، اذ ان شنشنة ونهجاً قد تكوّنا ، هما شنشنة ونهج التدخل المستبد اللذان كان الخضوع لهما امراً محتوماً : ان بعض الآلات المتشابكة ، اذا ما اخضعت للحركة ، لا تتوقف بل تلتقف الجسم بكليته .

وهنالك رسوخ الحضارة بين الأغنياء والفقراء وبين المقتدرين والضعفاء ، ليس على الصعيد الاقتصادي فقط، بل على الصعيد الاجتماعي والقانوني ايضاً . وان في ذلك لعمري مفالطة بـل مغالطات . فواجب الدولة ، وفاقاً للمثاليــة المسيطرة ، يقضي عليها بحماية الوضعاء . وتقضي مصلحتها والخطط العام لسياستها المستبدة بالحؤول دون تعاظم قوة الأقوياء القادرين أكثر من غيرهم على الوقوف في وجهها . ولعل مهمتها السلبية اخيراً تجد تسهيلات نادرة في اضمحلال القسم الأكبر من النخبة الاجتماعية القديمـة الذي تحقق في القرن الثالث . ولكن شيئاً من كل ذلك لم يحدث . فقد برزت ارستوقراطية جديدة كان قوامها ، حتى ولو حملت أسماء اعرق العائلات ، حفدة جامعي الثروات ابان الاضطرابات، ولاسيا حفدة كبار الموظفين الذين جمعوا بفضل المعطف

الامبراطوري ممتلكات عظيمة جداً في غالب الاحيان . وقد بلغت في الواقع من القوة ما أرغم الدولة على ان تحسب لها حساباً . فلم تقدم على التدخل ضد تجاوزاتها إلا نادراً وبدون جدوى . لا بل انها كثيراً ما شجعت التطور لا سيا بصدد العلائق بين الملاك الكبير والعاملين في اراضيه. فكانت النتيجة محاولة المقتدرين التوسط بينها وبين الطبقات الدنيا .

اما الطابع الاخير فهو تنظيم مجتمع خاص ، أعني به الكنيسة ، داخل الجسم الاجتماعي . كان للكنيسة ممتلكاتها وتنظيمها وتعاليمها الاخلاقية . فشكلت بفضل هذا الاستقلال قوة يزيد في عظمتها ان الدولة لم تقدم جدياً ، لأسباب مختلفة ، كجهل الخطر او تقوى المسؤولين مثلاً ، على الحد من انتشارها .

فماذا كانت النتيجة ؟ صحيح ان تسلط السلطة السياسية على الحياة الاقتصادية وعلى التنظيم الاجتماعي لم يواجه بعد مقاومة جدية . ولكن بعض القوى اخذت تتكون وستمسي مستعدة لأن تخلف الدولة حين تضعف سلطتها .

١ ـ تكييف الاقتصاد

لم تتوفر للنشاط الاقتصادي السهولة التي توفرت له في العهد الامبراطوري الاول ، ولكنه في القرن الرابع لا يقتصر على الاشكال البدائية . قد يلقى الصعوبات بعد ان فقد حريته السابقة ، ولكنه يلبس لكل حال لبوسها ويبلغ توازناً معيناً ، بل درجة معينة من الازدهار .

الوضع النقدي

تتراءى لنا هذه التسوية اذا ما القينا نظرة على الوضع النقدي الذي هو ميزان الوضع الاقتصادي والذي تركت تقلباته اكثر الآثار الملموسة ، على ما يكتنفها من غموض . افضى اختلال الأموال العامة ، في القرن الثالث ، الى هبوط النقد . فكان توطيد سلامة النقد شرطاً من شروط الاقتصاد المنتظم . ولكن الاباطرة ، على الرغم مما بذلوه من جهود، لم يتوصلوا الى تحقيق هذه الغاية تحقيقاً كاملاً.

عاد ديوكليسيانوس الى ضرب النقود الجيدة . فلم يطرأ اي تغيير على عيار الذهب ، اما وزن القطعة الأصلية فقد بقي على ما حدده قسطنطين : ٤٫٥٥ غرامات ، وهو الوزن الذي ابقت عليه الامبراطورية البيزنطية ، بينما سينتهي الغرب الى ١٫٥١ غرام . وضربت النقود الفضية الجيدة ايضاً ولكن باوزان مختلفة . وتبدلت نسبة القيمة بين المعدنين لصالح الذهب : فانتقلت من ١/١٢ تقريباً في البداية ، كما في زمن اوغسطس ، الى ١٣٫٧١ في زمن قسطنطين، و ١٤٫٤ في السنة ٣٧٩، و١٨ في السنة ٤٢٢؛ وسيعود بها جوليانوس، بعد مرور قرن الى ١٤٫٤. ولكنها تغييرات غير مزعجة في الحقيقة : ولم تؤد الا الى حمل العالم الروماني على اعتماد الذهب قاعدة ، وهذا ما لم يفعله حتى ذاك الحين ، كما لم يفعله العالم اليوناني من قبله .

قضت الضرورة باصدار كميات وافرة من هذه القطع تأميناً لحاجات التداول . ولكنهم لم يستطيعوا ذلك . فراجت قطع نحاسية ادخلت عليها نسبة ضئيلة من الفضة، وقطع برونزية ايضاً:

بواسطة هذا النقد غطت الخزانة عجزها دونما حاجة الى التقيد بالوزن القانوني. لذلك فقد هبطت قيمة النقد مرة اخرى . وباستطاعتنا تتبع هذا الهبوط في مصر بفضل مصادرنا من البرديات؛ غير ان هذه البلاد خضعت لنظام نقدي خاص بحيث ان ملاحظاتنا فيهـــا قد لا تكون ذات قيمة بالنسبة لمجموع الامبراطورية . ومهما يكن من الأمر ، فاننا نرى قيمة الذهب ، خلال القرن الرابع ، تزداد فيها ١٨٠٠٠ مرة على الأقل [١] بالنسبة للنقد العادي .

كانت نتيجة هذا الانخفاض في سعر النقد انحصاراً شديداً في العلائق الاقتصادية، على مـــا نرجح. ومع ذلك فهي دون ترجيحنا. فالنقد الذهبي قد بقي ثابتاً . كما ان النقود الجيدة المتداولة كانت قليلة ، وكان باستطاعة اي كان من الناس ان يكتنزها . ولكنها ، قليلة او كثيرة ، كانت نقداً متداولاً ، وقد ازداد في ايام ثيودوسيوس ضرب القطع الذهبية والفضية الصغيرة والصغرى: ولم يكن القصد من ذلك ، في الأرجح ، سوى تسهيل تداولها .

لم تكن المعادن الثمينة ، في الحقيقة ، وافرة كما في الماضي ، ولكنها لم تنضب . ومـــا اشد دهشتنا أمام الكميات الضخمة من الذهب المضروب التي استطاع جمعها اثرياء افراد : فقد انفق سيماكوس مثلاً ما زنته ٦٥٥ كيلوغراماً ذهباً على الألعاب التي اقامها لمناسبة تعيين ابنه قاضياً. وقد حصلت الدولة على المعادن : فقد استثمرت المناجم المتبقية في الامبراطورية بعـــد فقدان داسيا ، ورافق اقفال المعـــابد أو تخصيصها لغاية جديدة مصادرة كنوزها ؛ وجمعت بعض الضرائب اخيراً ذهباً وفضة . غير انها لم تحصل على الكفاف منها .

كان من ثم لزاماً عليها ، بفعل حاجتها الى النقد الثابت ، ان تلجأ الى التحصيل والدفـــع عيناً : كما جرى ذلك في استيفاء الضريبة الشخصية ودفع معظم الأجور العسكرية ومرتبات الموظفين . واعتمد الناس اقتصاداً مختلطاً ايضاً بني على المقايضة تارة وعلى الدفع النقدي اخرى. فحين حاصر ألاريك روما للمرة الأولى في السنة ٤٠٨ ، أرسل اليه وفد من المحاصرين فقدم له ٥٠٠٠ لبرة ذهباً و ٣٠٠٠٠ لبرة فضة و ٤٠٠٠ قميص حريرية و ٣٠٠٠ جلد مصبوغ بالأرجوان و ٣٠٠٠ لبرة من التوابل : وقد اقتضى جمع هذه الفدية ، من جهة ثانية ، بالاضافة الى ما طلب من الاغنياء ، تذويب تماثيل ذهبية وفضية اخذت من المعابد . وان في هذا المثل لدلالة كافية على ما كان يفرض عليهم من تسويات .

الاسعار : « الحد الاعلى »

واضطروا كذلك الى تعود ارتفاع الاسعار ، وهو النتيجـــة الحتمية لانخفاض قيمة النقود الرائجة .

لسنا نعلم حقيقة أسباب الارتفاع الذي حاول ديوكليسيانوس الحدّ منه في السنة ٣٠١ مـــع

---

(١) وهناك من يتكلم عن ٥٠٠٠٠ وحتى ٦٦٠٠٠ مرة. نحن نجهل التحديد الصحيح لما عرف بـ « الدرهم » في مصر ولما عرف قديماً بـ « الدينـــار » الذي يختلف عن الدينار الفضي في العهد الامبراطوري الاول . وجلي ان الدولة كانت اعجز من ان تضرب نقوداً برونزية كافية بهذا السعر ، فما هو الحل الذي اعتمدته يا ترى ؟

انه قد وضع في التداول قبل هذا التاريخ نقوداً ذهبية وفضية جيدة . غير ان هذه المحاولة لا ترد الى رغبته في التنظيم فقط ، اذ ان في المقدمة الطويلة لما يعرف بحق بـ « مرسوم الحدّ الاعلى » وصفاً لوضع مخيف . فهي تذكر بالمصلحة العامة ومصلحة الجنود المحرومين من مكاسبهم الشرعية، وتعنّف التجار المحتكرين والمضاربين « المصمّمين على الاثراء ، ليس خلال سنوات او أشهر ولا خلال يوم واحد ، بل خلال ساعات وفي برهة واحدة ، الذين ينزلون الى الاسواق ، حين تثقل وطأة القحط، مواد غذائية مجموعة في السنوات السابقة » . وهذا ما يبرر التدابير المتخذة: عقوبة الموت لمن يخفي البضائع المخزونة ولمن يفرض او يدفع سعراً أعلى من الحدّ الأعلى القانوني . ويلي هذه المقدمة جدول يعين هذا الحد الأعلى لأكثر من ألف صنف : المواد الغذائية، والخامات، والمصنوعات ، وأجور النقل ، ومرتبات المهن الحرة ، والاجور ، وقد رافقت هذا التعيين تمييزات دقيقة جداً تناولت الكمية والنوع .

ان هذا النص ، الذي أتاحت مكتشفات كتابية كثيرة جمع القسم الأكبر من متنه ، ينطوي على أهمية عظيمة بسبب هذه التمييزات وبسبب المقارنة بين الاسعار : وهكذا فان الأجر اليومي الأعلى لعامل ريفي ينفق على مأكله من جيبه يوازي على وجه التقريب السعر الأعلى لكيلو غرام واحد من لحم العجول او لنصف كيلو غرام من لحم الخنازير او الضأن او لخمسة ليترات من الحنطة. ويكوّن هذا النص أول تجربة تحاوَل في ارض على مثل هذا الاتساع وبمنطق على مثل هذا الشمول بغية تحديد الاسعار التفصيلية . غير اننا ، مهما كان من أمر عظمة المجهود ، لا نشعر بحاجة الى التشديد على عظمة خرقه ايضاً: اذ انه لم يأخذ بعين الاعتبار تقلبات الاسعار الاقليمية، التي لا نشك في ما يمكن ان يكون من أمرها في داخل هذه الامبراطورية الشاسعة ، بل اقتصر على لفت انتباه الشارين الى ضرورة حساب أكلاف النقل وغيرها مما يسهم في رفع سعر كلفة المحاصيل التي يرغبون في بيعها. ولم يتكلم عن تدبير ديوكليسيانوس هذا سوى مصدر أدبي واحد: ويغلب انه أفضى الى اراقة دماء كثيرة ولم يؤد إلا الى اختفاء المحاصيل وارتفاع أسعارها وفي النتيجة الى إلغاء المرسوم . وليس هذا المؤلف سوى لاكتانس، وهو مسيحي اشتهر بعدائه للامبراطور المضطهد. فيجوز لنا بسبب تحيزه ان نشك في أمر الأحكام بالموت. بيد انه لا يجوز لنا الشك في الفشل الكامل . فمنذ السنة ٣٠٤ ، حين ألزمت الحكومة الأثرياء المصريين بأن يتخلوا لها عن الذهب، عرضت عليهم ثمناً له، كما يبدو ، عشرة أضعاف سعره المحدد في المرسوم.

لم تحدث ، على ما نعلم ، سوى محاولة ثانية مماثلة . في السنة ٣٦٢ أدت الاستعدادات للحرب ضد الفرس الى ارتفاع عظيم في الاسعار غذّى نقمة الانطاكيين على جوليانوس الوثني . فأصدر هذا الأخير مرسوماً يحدّد السعر الاعلى ايضاً . لا نعلم شيئاً واضحاً عن نصه ، ولكننا نرجح انه لم يكن سوى تسعير محلي فقط . اما الشيء الثابت فهو انه لم يعط أية نتيجة .

ليس افضل من مصر ، بالاستناد الى بردياتها ، لتتبع ارتفاع الاسعار هنا ايضاً . لننطلق من سعر الحنطة في السنة ٢٩٤، اذ انه قد تحدد أعلاه بالنسبة للأسعار السابقة . فمنذ السنة ٣١٤ ، ارتفع ٣٠ ضعفاً ؛ وفي السنة ٣٣٤ ، ٢٦٠ ضعفاً ؛ وبُعيد السنة ٣٤٤ ، ٦٦٨٠ ضعفاً ؛ الخ .

وطاب لبعضهم اجراء حساب المال اللازم ، مبدئياً، لشراء الحنطة في آخر القرن، فتوصلوا الى ان ثمن ٢٥ كيلو غراماً قد بلغ آنذاك ١٦ طناً من النقد البرونزي. ولكننا نجهل كيف حلّت، عملياً ، الصعوبات التي أوجدها مثل هذا الوضع . كما نجهل نسبة أثر هـذا الوضع في خلق وضع مماثل في الأقاليم الاخرى من الامبراطورية .

ولكن هنالك قاعدة ثابتة هي الذهب الذي يوزن وزناً او يعدّ قطعاً نقدية. فقد سمح ثباته باجراء المقايضات ، وتولت سلطة الدولة كل أمر آخر .

مطالب الدولة الاقتصادية

كانت الدولة مستعدة لاتخاذ أي تدبير يقتضيه بقاء وتسليم الانتـاج الضروري للحياة العامة. وليس مّن ريب في أنها اتخذت فوق ما نعرفه من تدابيرها ، ولكن ما نعرفـه كافٍ لإزالة كل ريبة حول اتجاه سياستها . فالأولوية المطلقة ، حتى ولو لم تنفذ أعمالها بالأمانة المباشرة، مضمونة في كل مكان لمقتطعاتها ومصادراتها ومشترياتها وطلباتها على أساس الضريبة او بأسعار تحددها هي ، ولا تخضع رأسمالية الدولة إلا الى اقتصاد توصلت الى تصميمه واقراره ، عن طريق ما فرضته من مِيَرٍ وخدمات ، وراقبت العديـد من نطاقاته .

كان عليها تأمين الغذاء للعناصر المحظية من السكان . فامنته الضريبة المستوفـاة عيناً ، التي اتاحت تسديد أجور الجيش والموظفين . وخصصت احدى ابرشيتي ايطاليا لتموين ميلانو ، كما فرض على مصر تموين القسطنطينية ، على ان تصل ضريبة الحنطة العينية الى الاسكندرية قبل العاشر من ايلول . اما روما فقد احتفظت بافريقيا بسبب عجز ابرشية ايطاليا الثانيـة عن سد حاجتها . وهكـذا تتضح التدابير الشديدة المتخذة تأميناً لاستيفاء الضريبة واستثمار الاملاك العامة ووجود اليد العاملة الريفية في الاملاك الخاصة .

ليس كذلك من نقص ممكن في انتاج الخامات والمصنوعات . فالمناجم والمحاجر بكليتهـا تقريباً ملك للدولة التي تمتلك من جهة ثانيـة مصانع يدوية مختلفة . لا بل انها احتكرت بعض الصناعات ايضاً . فقد اخضعت الاقمشة الثمينة على الدوام لتنظيم قاس تناول بصورة خاصة اللون الامبراطوري ، اعني به الأرجوان : كان عـلى صيادي « الموركس » ان يسلموا كل حصيلة صيدهم التي لا يجوز ان تنقص عن حد ادنى معين ، وحظرت صباغـة الحرير ارجواناً كما حظر انتاجه في غير المصانع الامبراطورية ، الخ . اما المصنوعات التي لم يتناولهـا الاحتكار، فقد نزعت الدولة، بصددها، الى تعميم نظام «الهيئات» الذي ظهر في أيام الامبراطورية الأولى . فكانت التعاونيات الاولى المنظمة تلك التي تتولى تموين روما بالمواد الغذائية: الخبازون، والقصابون ، الخ . وكان ثمن الاحتكار والامتيازات الممنوحة لها التقيد بموجبات عمل قانوني مستمر. ثم شمل النظام تدريجياً المهن الاخرى في كل مدينة: فكان على كل هيئة — والهيئات كثيرة جداً بسبب تجزئة العمل — ان تنتج حداً ادنى من المصنوعات .

يصح القول نفسه في النقل البري ولا سيما البحري. فتنظيم اصحاب المراكب الذين يمونون روما عن طريق اوستيا قديم قدم تنظيم الخبازين . ثم عم هذا التنظيم تدريجيـاً . فصودر مجهزو

المراكب في كل مكان وجمعوا شركات ذات مسؤولية جماعية وتوجب عليهم ان يؤمنوا في الدرجة الأولى ، وبسعر محدد ، عمليات النقل التي تفرضها الدولة .

تتألف مستنداتنا ، بنوع خاص ، من قرارات رسمية تهدف الى دعم اقتصاد الدولة هـذا بتوسيع نطاق تطبيقه ، وتلافي الصدوع ومعاقبة الغش وانذار الموظفين الفاسدين أو المهملين . وتشتمل كذلك على شكاوى الرعايا الكثيرة من وطأة الاعباء عليهم ومن تجاوزات المتنفذين . ولكننا لا نعرف دولة في التاريخ لم تدخل تحسينات مستمرة على نظمها ولم يستثقل الرعايا أو المواطنون مطالبها . أجل ان هذه السيئات حتمية : ولا تنجو منها الدول المعاصرة نفسها عندما تنهج النهج نفسه ، على الرغم مما يتوفر لديها من وسائل عملية اقوى . ولا يجيز النقـد النزيه ان تستوقفنا هذه السيئات وقتاً طويلاً . فنتائج النظام الاجتماعي كانت في الحقيقة اعظم خطورة من نتائجه الاقتصادية .

نظرة عامة

فهو لم يؤدّ الى الخراب ، اذا ما نظرنا الى الناحية الاقتصادية فقط . ولعل مرد ذلك الى ان تنظيم الدولة قد تمتع بصفات لم يعن أي مصدر معاصر يلفت انتباهنا اليها . وقد قام من جهة ثانيـة ، في جميع حقول النشاط ، ما يعرف اليوم بـ « النطاق الحر » الذي يموّنه التهريب والفائض الذي لا تضع الدولة يدها عليه : وليس من شك في واقع هـذا النطاق على الرغم من عجزنا عن تقدير أهميته . ومهما يكن من الامر ، فان القرن الرابع يخلق فينا شعوراً — لأن الاحصاءات تعوزنا — مختلفاً جداً عنه في القرن الثالث .

لا يزال السكان ، واليد العاملة اذن ، اقل عدداً ، كما ان توطين البرابرة ، الذي لم يحدث في كافة أنحاء الامبراطورية ، لم يسدّ هذا العجز إلا جزئياً . اجل هنالك ميل الى اهمال الاراضي المجدبة . ولكن الاراضي الاخرى تزرع خير زراعة . وقد يجدب الاهالي احياناً ولكن جدبهم أقل خطورة منه في العهد الامبراطوري الاول ، باستثناء روما حـين يوقف المغتصبون عنها المستوردات الافريقية . وانتشرت بعض التحسينات التقنية . فالعربة الحاصدة ، وهي اختراع غاليّ أشار اليه « بلين القديم » ، يصفها مرة أخرى مهندس زراعي في القرن الرابع ويؤكد آنذاك ان استخدامها أكثر رواجاً في السهول الغاليـّة . وكثرت المطاحن المائية . وفي السنة ٢٨٠ ، ألغى الامبراطور بروبوس كافة موانع زراعة الكرمة ، أقله في الاقاليم الغربية . لا بل يغلب انـه اصدر اوامره الى الجنود بزراعة الكرمة في منطقتي الساف والدانوب . وفي الواقع انتشرت هذه الزراعة وتحسنت انواع العنب في ألّيريا وغاليا : فقد امتدح « اوزون » عنب منطقتي بوردو والموزيل . وغدا انتاج المناجم والتعدين وافراً . اما مصانع الزجاج الرينانية ، التي كان مركزها كولونيا ، والتي حققت نجاحات تقنية هامة ، فقد صدرت مصنوعاتها الى الاسواق البعيدة لأن التجارة بين الاقاليم قد استعادت نشاطها . وقد لفت الانظار ، في اواخر القرن الرابع واوائل القرن الخامس بنوع خاص ، وجود التجار « السوريين » في كل مكان . فلم يضن احد الجغرافيين الاغفال ، في ما كتبه حوالي السنة ٣٥٠ عن غنى المصنوعات وتعدّدها ونوعها ،

باعجابه ومدحه ، إلا على مصر وشبه الجزيرة البلقانية . وقد جاء علم الآثار يؤيد تحفظه حيال مصر حيث أدى النقص في سكان الارياف ، الاهمال في تعهـد الأقنية الى اختفاء بعض القرى القديمة في الفيوم تحت الرمال المتراكمة . ولكنه يؤيد أقواله في اماكن اخرى ايضاً بصدد الأبنية الجديدة او الموسّعة وبنوع الأشياء المنقولة .

برزت نهضة الازدهار في اكثر من ولاية ، ولكن الشرق استفاد منها اكثر من الغرب . فهي قد بلغت الذروة ، اقله بعد الفتح الروماني ، في بعض مناطق آسيا الصغرى ، ولا سيما في سوريا. استعادت التجارة مع الشرق البعيد نشاطها وحركتها . ويبدو ان العالم الروماني ما انفك يصدر اليه المعادن الثمينة بنوع خاص ، وما زال يستورد منه المصنوعات البذخيـة والعطور التقليدية والتوابل والجواهر والحجارة الكريمـة والحرير الذين ازداد طلبه في الاسواق . واذا احتفظ بالحرير للقصر الامبراطوري حين تتخلله الخيوط الذهبية أو حين يصبغ باللون الأرجواني ، فانه ما زال ضالة الاغنياء المنشودة حين يكون مطرزاً بالرسوم أو مصبوغاً بالألوان النباتية . وقـد اهملت بصدد هذه التجارة العلائق المباشرة عن طريق المحيط الهندي. ولكن البضائع ، والتجار احياناً ، يمرون في المملكة الساسانية التي عقد معها صلح دائم في اواخر القرن الرابع . وحين تبلغ البضائع نهر الفرات حيث تتولى الدولة اعمال رقابة جمركيـة شديدة في سبيل استيفاء الرسوم ، تتجه الى الموانىء المتوسطية ، كما تتجه اليها صموغ الجزيرة العربية الجنوبية وعطورها التي تتولى نقلها عبر الصحراء السورية قوافل يقف لها الاسمعيليون السجسون بالمرصاد. لذلك فان انطاكية ، والمدن الفينيقية ، والاسكندرية التي ما زالت تتمون عن طريق البحر الأحمر ، قد حافظت على صناعاتها الفنية الخاصة .

غير اننا نخطىء ان نحن غالينا في تجميل هذه اللوحة . ليس من ريب ، اذا مـا نظرنا الى الامبراطورية في مجموعها ، في ان الانتاج الزراعي والصناعي كان كافياً لسد حاجات السكان . اما المقايضات فلم تتجاوز قط مستواها السابق ، لا بل لم تبلغه الا في مناطق معينـة . فهنالك ظاهرة كافية لابراز الفرق بين هذا العهد والعهد الامبراطوري الأول: ان اكثرية المدن الصغرى والمتوسطة قد تقهقرت وتأخرت. ويرد ذلك الى منافسة « المقاصف »حيث نمت المصانع التي باعت مصنوعاتها من الريفيين المجاورين. كما يرد الى منافسة المدن الكبرى ايضاً التي تميل الادارة بدافع طبيعي الى تشجيعها بسبب سهولة الرقابة فيها . أجل كان انهيار روما الاقتصادي ، بين هـذه المدن الكبرى ، عميقاً جداً : فهي لم تعد ، بعد انتقال البلاط منها،مركز الجذب العام، كما كانت في القرون الأولى . ولكن العواصم الاقليمية ، قرطاجة والاسكندرية وانطاكية، قد احتفظت باهميتها ، حين لم تستطع انماءها . اما بين المقرات الامبراطورية الجديدة ، فان « تريف » قـد نمت نمواً كبيراً . ومع ذلك فليس من تقدم يمكن مقارنته بتقدم القسطنطينية ، العاصمة الجديدة للامبراطورية . فمنها تنطلق كل التجـارة البحرية في الشرق المتوسطي . والطريق البرية التي ربطت بين البوسفور ونيكوميديا، مروراً بآسيا الصغرى، قد شهدت حركة سير ناشطة جداً. ويمكن القول نفسه عن طريق الغرب ايضاً . فليست « الطريق الاغناطية » القديمة ما يقود ، كما

في السابق ، الى الأدرياتيك ، مروراً بمقدونيا والابير ، بل تلك التي تجتاز سيرميوم وتتجـه مباشرة الى غاليا أو ايطاليا الشمالية دون ان تمر بروما .

ليس من السهل وضع ميزان هذه العناصر المختلفة ، والمتناقضة في أغلب الأحيان . غير ان الامر الثابت هو ان الامبراطورية لا تشكو من فقر الدم في اواخر القرن الرابع ، وان شطراً كبيراً من الشرق يعرف ازدهاراً حقيقياً . فمن ذا الذي يستطيع التكهن بمصير كل ذلـك لو لم يحدث ما حدث في القرن الخامس ؟ مهما يكن من الأمر ، فان احداث القرن الخامس ستكرس أولوية القسطنطينية التي حلت منذ الآن محل روما كعقدة المواصلات بين اقاليم الامبراطورية .

٢ ـ المجتمع العلماني

ما كانت الدولة لتستطيع توطيـد سلطتها على الاقتصاد لو لم توطدها في الوقت نفسه على المجتمع ، او لو لم توطدّها بقوة على بعض الطبقات على الأقل .

مرسوم كركلا

لم تقف الامبراطورية الاولى نفسها موقفاً حيادياً على هذا الصعيد . على الرغم مما انطوى عليـه سلوكها من اعتبارات اخرى ، فان باستطاعتنا القول ان انعامها بالمواطنية الرومانية على عدد مطرد الزيادة من الاقليميين ، أي من المغلوبين السابقين ، هو نوع من التدخل . وقـد حصل على هذه المواطنية كل الذين رضوا بالاحتكاك بالحضارة . فهم قد انضموا بذلك الى روما التي استطاعت من ثم توجيـه واستخدام ارتقائهم الاجتماعي وارتقـاء أنسالهم من بعدهم . أفضى هذا السخاء المفيد للنظام ، في السنة ٢١٢ ، الى مرسوم كركلا الذي انعم بالمواطنية على كل الرجال الاحرار المولودين في ارض رومانية، باستثناء البرابرة الذين اقاموا آنذاك في الامبراطورية واخضعوا لنظام ادنى خاص . ولعل مرد هـذا التدبير الى اسباب جبائيـة كان الهدف منها فرض بعض الضرائب على الجميع دون استثناء . ولكن المرسوم كان نهاية تطور بدأ منذ زمن بعيد واستجاب بعد ذلك لمقاصد اخرى .

جاءت الامبراطورية الثانية تعمل به ايضاً. فشملت مفاعيله آنذاك البرابرة الذين يدخلون في خدمتها من غير « الحلفاء » . ولم تحاول الامبراطورية الثانية قط فرض نتيجته المنطقية، اعني بها تطبيق القانون الروماني الخاص على كافة المواطنين الجدد ، بل سمحت بان تبقى بعض القوانين البلدية سارية المفعول في الشرق . اما نتيجة المرسوم الرئيسية فكانت تبسيطاً لعمل الدولة بايجاد المساواة في الخضوع لها : فلم يعد من اهمية عملية للتمييز بين المواطن والاجنبي الا عندمـا يتوطن البرابرة جماعات منظمة .

جدة السياسة الاجتماعية

قامت السياسة الاجتماعية الحقيقية في العهد الامبراطوري الأول على تنظيم الارتقاء من درجة الى درجة في السلّم الاجتماعي، دونما قسر ، ووفاقاً لما ترى فيه خيرهـا . ارادته تدريجياً يمتد على عدة أجيال رغبة منها في تجنب الفوضى . كما ارادته

مدرّجاً بحسب عدد من العوامل كانت الثروة والتأثر بالحضارة اليونانية أو الرومانية بينها عاملين رئيسيين ، وارادته مفيداً للدولة اخيراً يبعث طوعاً تكوّن وتجدد النخب التي تنتقي كبار موظفيها من بينها .

هذه هي السياسة التي اضطرت الامبراطورية الثانية الى التخلي عنهـا تحت تأثير الظروف . فاحتفظت لنفسها ، من جهة ، بحق اختيار خدامها حيث تريد، وبترفيعهم كما يطيب لها؛ ورأينا فيما سبق ما كان من هذا الأمر في الجيش ؛ وقد الغي ، في السنة ٣٦٤ ، بتأثير الذهنية نفسها ، تحريم دخول مجلس الشيوخ على ابناء المعتقين . ولما كانت بحاجة الى ان تنفذ جميع المهـام الاجتماعية ، فقد عمدت من جهة ثانية الى محاربة فرار الموظفين واقرت انتقال المهن بالوراثة ؛ وبحثت عن مسؤولين غير الأفراد المتفرقين والزائلين ، فارغمتهم على التجمع وحمّلت ارزاقهم مسؤوليتهم حتى بعد انتقال هذه الارزاق الى ايد غير ايديهم . فشجعت الطريقة الاولى الارتقاء الاجتماعي السريع، اما الطريقة الثانية ، التي طبقت على نطاق أوسع ، والتي ما انفك التشريع يحسنها ويكملها، فقد لاشت الطريقة الاولى بتنظيم الطبقات وبفرض حقوق الارتفاق على ممتلكات اعضائها . وان في التناقض الصريح بينهما لدليل على فقدان كل برنامج مدروس : تمتعت الدولة بسلطة مطلقة على رعاياها فاستخدمت هذه السلطة استخداماً انتهازياً .

الطبقة الوسطى والحياة المدنية

اضرت هذه السياسة في الدرجـة الأولى بالطبقة الوسطى ، تلك البورجوازية البلدية التي ادت مزيداً من الخدمات الجلى في العهد الامبراطوري الاول ، والفت درجة وسيطة بين الكادحين المدنيين وطبقة الفرسان ، وامنت حياة المدن التي شعّت منها الحضارة.

درجت العادة تقليدياً على ان تقدم نخبة هذه الطبقات الموظفين الذين يشغلون «الأمجاد البلدية»: اذ ان أعضاءها يمثلون العائلات الصغرى . وقد سبق لنا وتكلمنا عن وطأة مطالب الدولة المالية عليهم وعن مصيرهم الى الافلاس في تنفيذ هذه المطالب . ولذلك فان القانون يفرض عليهم هذه الوظيفة ويعند في منع تهربهم او فرارهم. فان الانتساب الى « الجماعة » التي يؤلفونها في كل مدينة الزامي لكل شخص لا ينتمي الى الطبقة المجلسية والادارة او الجيش ويمتلك ، مع ذلـك ، في ارض المدينة ، ارزاقاً لا تقل مساحتها عن ٦،٢٥ هكتارات على الاقل . وقـد يحدث في حال ملء بعض المراكز الشاغرة – مراكز الممثلين المحليين – ان يقفوا عند حدّ أعلى ، او ان يعينوا حداً أدنى من هذه المساحة . ومهما يكن من الأمر ، فلا يجوز بيع ممتلكات الممثل دون مبرر. وترث « الجماعة » ممتلكات الممثل الذي يموت دون ان يخلّف ابناً او وصية . وعلى الوريث ان يتحمل أعباء هذه الممتلكات . وبديهي ان الابن يخلف أباه في وظيفته ؛ وكان في النهاية ان النساء أنفسهن قد استفدن من هذا الحق ايضاً . ولا يستطيع أي ممثل الانتقال الى الطبقة المجلسية اذا لم يمرّ مسبقاً في كافة « الامجاد »البلدية واذا لم يخلف ابناًيتوجب عليه ان يكفله ايضاً، كما لا يستطيع ان يصبح كاهناً اذا لم يجد من يحلّ محلهاو لم يتخلّ عن ممتلكاته . وعلى الفار ، اذا حالفه الحظ في

فراره ، ان يعود الى صفوف الممثلين حال اقصائه عن الادارة او الكنيسة. لذلك فقد رثى الجميع لهذا الوضع الذي يؤدي بأفراد هذه الطبقة الفاضلة الى الافلاس ويدفع بهم الى الهرب. ويزيد بذلك مساحة الاراضي المهملة التي يتوجب على الممثلين الباقين تأمين زراعتها او اقله تحمل أعبائها.

اما وجه المأساة في ذلك فهو ان هذه النخبة ما كانت لتتجدد، كما في السابق ، بارتقاء رجال توصلوا الى اليسار عن طريق ممارسة الصناعة اليدوية او التجارة . فقد استلزمت حاجات اقتصاد الدولة تنظيم المهن المختلفة في كل مدينة وفاقاً لتشريع دقيق مماثل يلجأ الى التدابير نفسها. ونحن لن نحاول هنا تعداد كل التعاونيات التي احدثتها السلطة العامة بغية تأمين ممارسة المهن وتقديم الخدمات الجماعية ، بل نكتفي بالقول ان المناجم نفسها قد اعتبرت «ضرورية» في آخر المطاف؛ ولم ينج من اعتبار « الضرورة » هذا سوى المهن الحرة ، كالطب والتعليم والمحاماة ، التي تتمتع ببعض الحصانات، ولكن الذين مارسوا هذه المهن ، ممن تفرض عليهم طبقتهم ممارسة مهن اخرى، قد تعرضوا للمطاردة الشديدة . ولن نحاول ايضاً تعداد كافة الاقتسارات التي استهدفت الحيلولة دون تدني أهمية هذه الهيئات ، فهي متشابهة كلها وتوحي بها الذهنية نفسها ، وتدور جميعها حول ثلاثة مواضيع رئيسية : خطر الهرب من الوظيفة ، الوراثة ، المسؤولية عن الممتلكات التي تتفاوت الشدة فيها وفاقاً للحالات النوعية وطابع الاضطرار النسبي فيها . وليس أهم، كما هو بديهي ، من شؤون النقل والتغذية . لذلك فلا أسهل علينا من ان نختار ، بين الأنظمة الكثيرة حول هذه المهن ، بعض امثلة تقارب الغرابة بتعقيدها وتحكمها . فالهبات التي يتقبلها الخبّاز ، ومهر زوجته والهبات التي تتقبلها، تضاف الى مجموع ممتلكاته وتخضع الى حقوق الارتفاق نفسها التي تخضع لها ممتلكات الخباز . وماذا يحدث من ثم اذا كانت هذه الممتلكات الجديدة نفسها مرتبطة قبل ذلك بهيئة أخرى يا ترى ؟ فالبحار الذي يرث خبازاً مثلاً يرتبط بهيئة البحارة لجهة بعض ممتلكاته وبهيئة الخبازين لجهة البعض الآخر. لذلك نكتفي بهذا القدر من الدلائل التي تبين بوضوح كاف ما يمكن ان تتوصل اليه الدولة تدريجياً .

ان هذا العدد الكبير من القوانين الدقيقة والصارمة ينمّ عما ينطوي عليه النظام من شوائب . ولا يؤخذ على الامبراطورية الثانية وحدها ان تتقلب مساعي المخالفين المبتكرة على احتياطات المشترع حين يكون موضوع المخالفة مغرياً . فقد توفق كثير من الصناعيين اليدويين وممثلي العائلات الى الهرب مثلاً واستقبلت الحكومة نفسها بعضهم وعينتهم في وظائفها على الرغم من الجهود التي بذلتها لاعادة الفارين الى مراكزهم الاولى . وقد وضعت جداول بالطلاب الذين ورد ذكرهم في مراسلات ليبانيوس الذي درس الحقوق طيلة اربعين سنة تقريباً في النصف الثاني من القرن الرابع : فمن أصل ٦٢ بينهم ممن عرف منشأهم الاجتماعي واتجاههم الاول اللاحق، أصبح ٢٢ من أبناء ممثلي العائلات ممثلي عائلات كآبائهم ، وسلك ١٨ طريقاً اخرى تمكن ٥ او ٦ منهم السير فيها دون صعوبة .

اما عاقبة هذه المضايقات فيمكن معرفتها بسهولة . فمن حيث ان الطبقة الوسطى قد توزعت فرقاً أسند لكل منها خدمة عامة او سدّ حاجة اقتصادية ، ومن حيث ان كلاً من

أعضائها قد ألحق بشخصه وممتلكاته باحدى هذه الفرق ، ومن حيث انها ترغم قسراً على القيام بواجبها الأول حين تحاول المخالفة ، ومن حيث انها حرمت المبادهة الحرة وامكانات الارتقاء التي هي سبب وجودها ، فقد اعرضت عن القيام بالدور الذي عينته لها السياسة الاقتصادية ، وحتى العامة ، في العهد الامبراطوري الاول . لذلك فان ضرراً كبيراً قد لحق بالحياة البلدية التي هي جزء أساسي لا يمكن فصله عن حضارة لا يتنكر احد آنذاك لمثلها الاعلى. فقد توقفت التبرعات الخاصة بغية سدّ عجز الميزانيات المحلية . وتضاءلت الحركة العمرانية بسبب الحاجة الى المال وعدم توفر المكان داخل الاسوار التي يكفي تعهدها لاستنزاف الموارد. وتدنى عدد الأعياد لأن المسؤولين اقتصروا بصددها على « التسخير » المفروض . بديهي ان تفاوت النشاط الاقتصادي يفسّر بعض الاستثناءات . فما زال البذخ مسيطراً في المدن الكبرى ، وما زال حكامها أسخياء نحو عامة الشعب . وقد وصلت الينا تفاصيل مدهشة حول عظمة انطاكية بنوع خاص والملاهي المتوفرة لسكانها : فالشوارع تضاء ليلاً ؛ وقد فوجىء السكان ، وهم في المسرح ، بهجوم الفرس في السنة ٢٦٠ ، كما فوجئوا أثناء مشاهدتهم لسباق عربات ، في السنة ٢٧٢ ، بوصول اوريليانوس على رأس جيشه ، في طريقه الى تدمر ؛ وقد ازدادت هذه الملاهي طيلة القرن الرابع وحتى في اوائل القرن الخامس . ولكن هل نستطيع تعميم ازدهار انطاكية وسوريا على كافة أنحاء الامبراطورية؟ فان الحضارة المدنية القديمة ، لا سيا في الغرب ، قد فقدت سناها وفقدت بالتالي جاذبها : وهي لم تعد لتستجيب لأية بداهة بعد ان غدا استمرارها مصطنعاً في اطار ضيق ومفتقر .

الاشراف الرسميون

وقد أبرز انعكاسها على حياة المدن وكثرة القوانين والشكاوى العائدة لحالة البورجوازية البلدية هذه المضادة بين مجتمع الامبراطورية الثانية ومجتمع القرنين الاولين. وحدثت تغييرات هامة ايضاً في الطبقات الاجتماعية الاخرى لم تبق الدولة غريبة عنها، على الرغم من ان تدخلها فيها أصبح نادراً وأفسح مجالاً لعوامل أخرى تتفق تارة وتتنافس اخرى.

اثبت تدخلها جدواه في تنظيم طبقة الاشراف. مال المجتمع الرفيع منذ زمن بعيد الى ان يصبح طبقة شرفاء رسميين . وقد حقق التطور في هذا الاتجاه تقدماً حاسماً بفضل الاقتطاعات والمصادرات التي رافقت الأزمة الثورية في القرن الثالث ، وبفضل حاجات الجيش والأدارة من جهة ثانية . فزالت الفروق المبنية على النسب والثروة . ورفعت الضريبة عن طبقة الفرسان . ولم يعد للضريبة المجلسية من وجود قانوني . فاستطاع عبد قديم ان يصبح شيخاً وقنصلاً : ولم تقدم حكومة هونوريوس في الغرب ، احتجاجاً على قنصلية افتروبوس ، سوى خصاء مدير الغرفة هذا . وكان على الدولة ، لو انها كانت منسجمة مع نفسها ، الا تعترف الا بالنبل الذي تنعم به على خدامها من مدنيين وعسكريين والذي تخضعه لتسلسل يوازي التسلسل في وظائفها .

غير انها اكتفت ، في ما يعنينا ، باقتفاء اثر نظام الانطونيين الذي تقررت في ظله سلسلة

القاب رسمية . فانتهت ، منذ احداث المرتبتين العليين في ٣٧٢ ، الى الدرجات الاربع التالية ، من اعلى الى اسفل : المجيدون ، المحترمون ، اللامعون ، الكاملون . وقد وزعت عليها الموظفين المنظورين والمرموقين وفاقاً للوظيفة المشغولة . وتمثل الدرجتان الاخيرتان إرثاً من القرن الثاني . اما الاوليان اللتان اقرهما الانطونيون فقد نشأتا عن الاستعمال : وعادتا اساساً الى طبقة الفرسان التي زالت دون ان تترك اثراً سوى لقب « الكامل » .

بديهي ان مثل هذه الألقاب مصيرها الابتذال لان كل وظيفة تحاول الارتقاء في سلمها. ولو اننا تتبعنا مراحل التوزيع ، لوقفنا على امثلة كثيرة تثبت ذلك . فلنكتف هنا بالاشارة الى ان الحكام الوحيدين الذين بقوا في فئة الكاملين هم حكام أقل الولايات شأناً . ولما كان هذا الانزلاق محتوماً فقد جر بالضرورة الى احداث القاب عليا جديدة والى قبول صغار الموظفين في الدرجات الدنيا : وقد عمدت الامبراطورية الى استخدام هاتين الطريقتين استخداماً متكرراً .

يقضي منطق النظام اساساً بهذه الموازاة الدقيقة بين التسلسلين ، تسلسل الألقاب وتسلسل الوظائف : وهذا هو المثل الاعلى للتشن (*Tchin*) الروسي . ولكنه قد اصيب في الواقع ببعض الالتواءات .

من هذه الالتواءات أولاً وجود لقبين آخرين لا يدخلان في تسلسل الألقاب ويمنحان مستقلين عن وظائف معينة . أولهما لقب الكونت الذي سبق الكلام عنه ؛ والثاني لقب *Patricius* . استخدمت هذه الكلمة في السابق للدلالة على رتبة الاشراف (بطريق) بمفهومها الديني. ولكن هؤلاء الاشراف قد زالوا ، ولم يعد للدولة ، التي لا تهتم للتقاليد الوثنية ، من حاجة لتعيين سواهم كما سبق لها وفعلت في العهد الامبراطوري الأول . فاعاد قسطنطين هذا اللقب الجاهز الذي درج المؤرخون منذئذ على ترجمته بـ «بطريق» وانعم به على شخصيتين كبيرتين . وضن خلفاؤه في القرن الرابع بمنح هذا اللقب ، فحافظ من ثم على سحره ونفوذه : وقد تكلم المعاصرون بصدد البطاريق ، عن « آباء الامبراطور » .

ومنها ايضاً ابهام لقب « اللامع » . احدث هذا اللقب في العهد الامبراطوري الاول واطلق على جميع اعضاء الطبقة الجلسية ، وما زال وقفاً عليهم وحقاً وراثياً الغاية منه اكرام هذه الطبقة الشريفة القديمة ، على انه فقد من اهميته بعد احداث لقب « المجيدين » و « المحترمين » . لذلك يستطيع بعضهم حمله دون القيام باية وظيفة ، بينما يحمله آخرون بسبب الوظائف التي يمارسونها . غير ان هؤلاء اكثر عدداً الى حد بعيد من اولئك الذين ينحدرون كلهم تقريباً من موظفين سابقين ايضاً . فليس من ثم للطبقة الجلسية ، وشأنها في ذلك شأن مجلس الشيوخ ، من كيان مستقل عن الدولة .

ومنها اخيراً التعيين في وظائف اسمية غير نادرة اطلق على المستفيدين منها لقب « المشرّفين » أو « الشرفيين » كما ندعوهم اليوم . وغالباً ما يكون ذلك في الترفيع ، حين الاحالة الى التقاعد ، الى مرتبة اعلى من تلك التي تستحقها آخر وظيفة مارسها المتقاعد . وقد يحدث احياناً ان

يستفيد منها فرد من الافراد ، ولا سيا ممثل العائلة ، مما حمل الامبراطور ، احتياطاً من سخائه بالذات ، على وضع نظام عام يحدد الشروط المفروضة على « الممثل » قبل الخروج من اطار « جماعته » .

يتضح من ثم ان النظام ، اذا ما نزعت الدولة وتوصلت في الغالب الى الجمع بين الوظيفة والنبل ، يحافظ مع ذلك على بعض المرونة . والهدف الاول من هذه المرونة توفير مزيد من السهولة للامبراطور في توزيع احساناته : ويماثل الحكم المطلق ، في ذلك ، بين الامبراطور والدولة . بيد ان هذه المخالفات لا تنطوي في الواقع على أهمية تذكر : فقد نظم الاشراف في الامبراطورية الثانية وفاقاً لتسلسل الالقاب ، فهم بالتالي اشراف دولة او اشراف رسميون .

أعباؤهم وامتيازاتهم

لقد نجم عن صفتهم هذه أعباء وامتيازات . وكانت الغاية من هذه التعويض عن تلك ولكنها فاقتها الى حد بعيد لأنها استهدفت في الوقت نفسه مكافأة الخدمات المؤداة والحث على طلب الوظيفة والتفاني في ممارستها .

يدخل في عداد الأعباء ، مثلاً ، الضريبة الخاصة المفروضة على الطبقة الجلسية ، وربما أعفي منها الاعضاء الموظفون . ويدخل في عدادها ايضاً، اذا اراد هؤلاء الأعضاء قطف ثمار الأمجاد الجلسية ، واجب الانفاق على الألعاب عند تعيينهم في منصب القضاء ، ما لم يعين الامبراطور دراكاً ، في مجلس الشيوخ ، قضاة او قناصل سابقين .

ويدخل في عداد الامتيازات امتياز هام هو اعفاء كل من يحمل لقباً ما من «التسخير القذر»، أي من المصادرات الشخصية . وبديهي ان الأشراف معفون من واجبات « الممثلين » ايضاً . اجل لا يزالون يقدمون الحماة للمدن ، ولكنهم لا يهتمون لصعوباتهم المالية ، وقلما يهتمون لمعيشتهم . فهم يفلحون في تسجيل أراضيهم على حدة لأجل تحديد الضريبة الشخصية بغية تجنب المسؤولية الجماعية المترتبة على الاراضي البلدية . وقد عين « محامون عن المجلس » ، بمعدل واحد او اثنين في كل ولاية ، أسند اليهم أمر السهر على مراعاة امتيازاتهم الجبائية .

أبطلت المساواة ايضاً لمصلحتهم في الحقل القضائي . وكان الانطونيون سباقين هنا ايضاً في فرض عقوبات مختلفة على « الاشارف » و « الادنين » . أحصي « قواد العشرة » في الفئة الاولى آنذاك ، فأقصي الممثلون عنها الآن . ولكن الفرق في العقوبات ما زال قائماً : فقد استبدلت عقوبات المحظيين الجسدية والعمل في المناجم بالغرامة النقدية او النفي ؛ كما منع عنهم التعذيب والموت المشين إلا في حال الخيانة العظمى. ولم يكن للحكام اخيراً حق النظر في دعاوى الاشراف.

وما القول عن الوراثة ؟ فهل كانت عبئاً عليهم ام امتيازاً من امتيازاتهم يا ترى ؟ اقرها قسطنطين للموظفين قاطبة : فالدولة بحاجة الى ابنائهم كما هي بحاجة الى ابناء الجنود و « الممثلين» والتجار والصناعيين . ولكن ليس من مهنة انفع من مهنة الموظف : فالمحامون انفسهم يتوقون اليها كما يتضح من مراسلات ليبانيوس . لذلك فنحن لا نرى وجوباً ، فيما يتعلق بهذه الطبقة الاجتماعية ، لان نرى في مبدأ الوراثة اي جزاء

الثروة العقارية ومعيشة الاغنياء في املاكهم

بيد ان كثيراً من الاشراف اثرياء ، اذ ان مرتبات عالية ، تنميها الانعامات الامبراطورية ، تخصص للوظائف الرفيعة . ولا تتكلم مصادرنا البتة عن مخالفات لواجبات الوظيفة ، ولكنها غالباً ما تتكلم عن زواجات موفقة . فكان باستطاعة هؤلاء الاشراف ان يعيشوا عاطلين عن العمل لو أرادوا. ولكن الذين يرضون بهذه الحياة قليلون: اذ ان الميل الى الامجاد والرغبة في العمل اللذين كان لهما ابداً مكانهما في المثل الاعلى الروماني ، يجذبانهم نحو خدمة الدولة . ومهما يكن من الأمر ، فان الاغنياء جميعهم اشراف ، ان لم يكن بسبب عملهم الشخصي ، فأقله لان احد جدودهم قد رفع العائلة الى الطبقة المجلسية .

بلغت بعض الثروات نسبة عالية جداً وفاقت اعظم الثروات التي جمعت في عهد سلالة جوليوس – كلوديوس . ويؤكد احد مؤلفي اوائل القرن الخامس ان املاك عدة عائلات في روما تؤمن لها ٤٠٠٠٠ لبرة ذهبية (١٣١٠ كيلوغرامات) دخلاً سنوياً ، يضاف اليه دخل عيني يوازي ثلث هذا المبلغ . فكيف يجوز لنا ، على جهلنا الايراد الوسطي للاملاك العقارية ، الشك في ضخامة مثل هذه الثروات ، لا سيا وان تقديرها يجب ان يأخذ بعين الاعتبار ما تهمله هذه الأرقام : مساكن الاسياد وممتلكاتهم المنقولة. وها نحن نورد مثلاً من شأنه اعطاء فكرة عما يمكن ان تمثله هذه المساكن : حين تولت القديسة ميلانيا وزوجها فاليريوس بنيانوس في السنة ٤٠٤ ، رغبة منهما في تكريس كل ما يملكانه لاعمال البر ، بيع « بيت » عائلة فاليريوس في حي شيليوس ، لم يجدا ، على الرغم من مساعدة الامبراطورة ، مشترياً مستعداً لدفع قيمته الحقيقية، الا في السنة ٤١١ ، اي بعد ان نهبه جنود ألاريك من القوط .

لسنا نستطيع الكلام عن مراحل تكوّن اية ثروة من هذه الثروات . ولكننا على نقيض ذلك نعرف وجهة استخدامها . فمن البديهي انها لم توظف في مشاريع صناعية أو تجارية خوفاً من اقتصاد الدولة ، بل في ابنية تدر دخلاً محترماً في المدن الكبرى ، كما نرجح ، مع ان هذه الابنية لم يشر اليها قط في مصادرنا . وعلى نقيض ذلك ، فهنالك ، بكل تأكيد ، الى جانب الحلي والمصنوعات البذخية ، كثير من الذهب المسكوك او غير المسكوك: ولكن الذين يتعاطون المراباة قليلون جداً . فلا يبقى من ثم سوى الأرض. وكان جميع الاغنياء في الواقع اصحاب ثروات عقارية طائلة . فكان لعدد كبير منهم ، بفضل الهبات الامبراطورية والارث والزواج والمشتريات التي تجري حين ينقل الموظف من مركز الى مركز آخر ، أملاك موزعة على عدة مناطق في الامبراطورية . وان في هذا التوزيع في المكان لتعبيراً ملموساً عن وحدة هذه الامبراطورية : فقد كان على القديسة ميلانيا وزوجها مثلاً ، عندما باعا قصرهما في روما ، ان يبيعا في الوقت نفسه املاكهما في ايطاليا وصقلية وافريقيا واسبانيا ، الخ .

امتلك ثري القرن الرابع اذن ، بالاضافة الى قصره الخاص في المدينة ومتنزهاته في مناطق الاصطياف – وقد اختارها الروماني ابداً في مرتفعات اللاتيوم وشواطىء كمبانيا – المقصف الذي يتوسط املاكه الكبرى والذي علمه ثري القرن الثاني كيف يؤمن فيه كل اسباب الراحة

المادية والألاهي الضرورية للمجتمع الرفيع . فتوجب عليه اعادة بنائه لأنه قد تهدم في هـــذه الاثناء . واستفاد من هـــذا الظرف لتوسيعه وتجميله ، كما استفاد منه احياناً لتقوية جدرانه الخارجية ولتحصينه ببعض الابراج لجعله بمأمن من هجمة قد يفاجئه بها قطاع الطرق او فرسان برابرة . في هذا المقصف يطيب له تمضية اوقات طويلة ، والى هذا المقصف يجيء ، بعد صرفه من الخدمة ، ليقضي شيخوختهفي هناء وسعة عيش . ولنقرأ هنا وصف حلم السعادة الذي استسلم له « بولين دي بيلا"حفيد اوزون:« لم اتق يوماً إلا الى حياة متوسطة تقارب سعة العيش وتبعد عن الطمع . اشتهيت بيتاً مريحاً واسع الغرف صالحاً لقضاء فصول السنة المختلفة ، وطاولة لامعة وملأى بالاصناف ، وخداماً كثيرين في سن الشباب ، وأثاثاً متنوعاً يستخدم لأغراض مختلفة ، وفضية ثمينة بصنعها لا بوزنهـا ، وفنانين في شتى الحقول قادرين على تنفيذ الطلبات بسرعة ، واصطبلات ملأى بالجياد، وعربات متينة وأنيقة للنزهة». حين نظم بولين هذه الأشعار في السنة ٤٥٩ ، كان في سن الثالثة والثمانين ، ولعله كان معتمداً على حسنات المحسنين لتأمين معيشته في جوار مرسيليا، بعد ان قضى البرابرة على ثروته. ولا شك في ان هذا الحلم الذي يصفه بالتواضع كانمتواضعاً حقاً اذا ما قورن بواقع البذخ الذي عاشه ، خمسين سنة من قبل ، وسط الكروم المخصبة في منطقة بوردو ، مسقط رأسه . ويجب ان نضيف الى هذا الحلم ، اجتماعات الاصدقاء، والاحاديث العلمية او المازحة، والملابس الحريرية المطرزة، وميدان السباق والمسرح في الحديقة، وقفص الطيور في الاملاك المحيطة بالمقصف وألف تسلية وتسلية أخرى ، كلعبة الكرة التي كان بولين يستحضر لوازمها من روما .

وهكذا فان مثل الارستوقراطية القديم ما زال قائمـــاً . ففي الوقت الذي فرضت الدولة التضحيات على الجميع ، لا يزال هناك محظيون لا تؤثر موجباتها في طمأنينتهم وهناءة عيشهم .

العبيد

استلزم هذا المثل وهذا الواقع عنصراً جديداً ، أعني به سلطة كبيرة وواسعة على أناس آخرين لا نعرف لها مثيلاً في السابق .

اجل كان هنالك عبيد في السابق . وما زال هناك عبيـد في ذاك العصر . ولا يسع المؤرخ البت في ما اذا كان عددهم قد تدنى ، اذ انه يفتقر الى الاحصائيات فيما يعود لهذا العصر ولمـــا سبقه . فالرق لا يزال قائماً ولا يزال يتموّن من المصادر نفسها ، أي من الحرب خصوصاً ، كما في السابق . يلقي الرومان القبض على البرابرة : وقـد أكد سينيزيوس الذي عاش في كيرينا ، في منطقة بعيدة عن العمليات الحربية ، ان في كل بيت عبداً من القوط . ويلقي البرابرة بدورهم القبض على رعايا الامبراطورية ويجدون بسهولة من يشتري مغانمهم . وما زال العبيد – يقدرهم القديس يوحنا فم الذهب بين ألف وألفين – يدخلون في خدمة كبـــار الأثرياء . واذا كانت الكنيسة قد سهلت الاعتاق باجراء مبسط اعترفت الدولة بشرعيته منذ قسطنطين ، او اذا هي شجعته اخيراً ، فانها لا تلزم نفسها ولا أتباعها به، بل تصدر حكماً قاسياً على العصاة والمهيجين منهم . « اذا اقدم شخص ما ، بداعي الشفقة ، على حث العبد على احتقار سيده والتحرر من

العبودية والاعراض عن الخدمة بحسن نية واحترام ، فليكن مُبْسلا » : ان هذا القرار الصادر عن مجمع «غانغر Gangres»[1] سيلاقي تأييداً دائماً. وبالاختصار، كان المنطق يقضي بأن يتدنى عدد العبيد الى حدّ بعيد . ولعل هذا التدني يفسّر نمو استخدام الطاحون المائية ؛ كما ان الصعوبات الكثيرة التي واجهتها الطبقة الوسطى في المدن لم تبق ، في الارجح ، دون نتيجة ايضاً . ومع

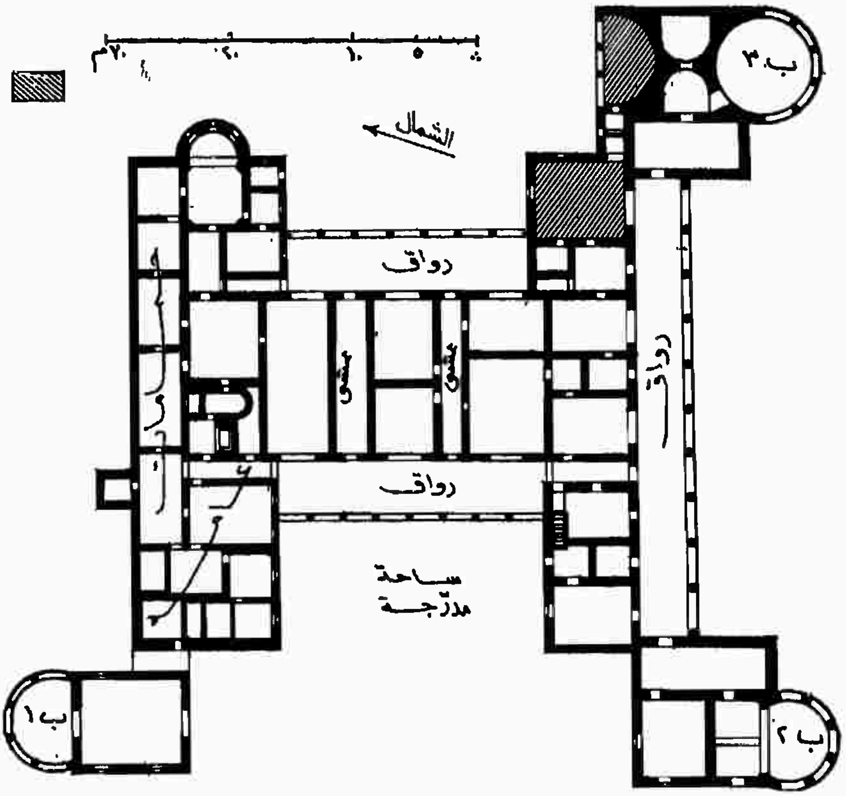

الشكل ٢٣ – « مقصف » اودرانغ شمالي تريف

ب ١ - المدخل؛ ب٢ و ب ٣ - كشكان؛ كانت بعض أقسام المقصف، على الأقل، تستلزم طبقة علوية.

ذلك فنحن مضطرون، ربما بسبب النواقص في مصادرنا ، للاعتراف بأن الوقائع لا توفر لبرهاننا الاثبات الحاسم الذي نود لو نكتشفه فيها .

كان من حقنا ايضاً ان نتوقع تشريعاً أقــلّ صرامة بصدد العبيد . ولكن الديانة المسيحية لم تعمل ، كما يبدو ، على تقوية النزعة التي أوجدتها الفلسفة الانسانيــة في عهد الانطونيين والتي لم تحرز تقدماً يذكر . فان قسطنطين قــد منع ملاحقة السيد الذي يموت عبده المذنب متأثراً

(١) مدينة بافلاغونيا Paphlagonie . التأم هذا المجمع في القرن الرابع في تاريخ يتعذر تحديده .

بالعقوبة المفروضة عليه ، ولن تلغى قبل القرن السادس الشروط التي قيّد بهـا اوغسطس حق الاعتاق .

ثم ان للأخلاق أهمية دونها أهميـة الانظمة والقوانين . لم يتبدل مصير العبيد المنزليين تبدلاً كبيراً ، بل بقي مُطاقاً شأنه في السابق؛ بيد ان التطور في الاخلاق الجنسية قد كبح جماح أهواء السيد في الارجح. ولم يطرأ كذلك تبدل يذكر على مصير العبيد المدنيين: تدنى عدد مصارعات المسايفين ، وغدا بعض العبيد يمارسون صناعة يدوية في حوانيت خشبيـة . ألغيت المصانع في المعابد الشرقية ، ولكنها ضمّت الى مجموع المصانع الامبراطورية ، وليس ما ينبئنا بمصير العمال الذين تستخدمهم هذه المصانع . وعلى نقيض ذلك، فنحن نرى الدولة جاهدة في توفير اليد العاملة لمشاريعها الكبرى ، ولا سيما لمناجمها ، بواسطة الأسرى والمحكومين من البرابرة ، الذين ينهضون بأعمالهم الشاقة دونما أمل بتحسن حالهم . اما التبدل الرئيسي ، كما نرجح ، فهو زوال «عائلات» العبيد العاملين فرقاً في الاملاك العقارية الكبرى . وليس ذلك سوى نهاية تطور طويل بدأ منذ زمن بعيد، اذا صح ان طريقة الاستثمار الريفي هذه قد اعتمدت في غير بعض المناطق الايطالية. ومع ذلك فان حياة العبد الريفي العملية ، اذا ما وضعنا نظامه القانوني جانباً ، تشبه حيـاة الفلاح الحر قديماً .

وان لهذه الظاهرة تفسيرها ، من جهة ثانية ، في التبدل الذي طرأ على مصير الفلاح الحر .

الكادحون الريفيون ؛ القطافون

لا نتوقفن عنـد الكادحين المدنيين . فنحن لا نشاهدهم إلا في العواصم لمناسبة التوزيعات المجانية والألعاب ؛ فهم ، من هـذا القبيل ، ما زالوا كما نعرفهم : عاطلين عن العمل، متطلبين، سجسين، سريعي الاحتداد والتشيع ونزع الثقة . فان ما يهمنا هو تطور الكادحين الريفيين .

كان بين هؤلاء ، منذ القدم ، أجراء كثيرون — وافريقيا هي المنطقة الوحيدة ، في هـذا العهد بالضبط ، التي يلقى فيها بعض الضوء عليهم . اطلق عليهم آنذاك اسم « *Circoncellions* » الذي يعني بالتدقيق « القطافين المتنقلين » ، أي العمال الذين يتوجهون نحو الشمال في اواخر الربيع وينتقلون من بستان الى بستان عارضين خدماتهم المأجورة للقيام بالقطاف . اما مصيرهم فيزداد سوءاً ، او يتميزون بمزيد من الجرأة عندما يشدّ أزرهم العبيد الهاربون وصغار الملاكين المفتقرين والبلديون الثائرون على كل ما هو روماني . وعندما حدثت الاضطرابات الدينية بفعل مقاومة الدوناطيين للكنيسة الرسمية التي تساندها الدولة بصورة عامة ، سنحت لهؤلاء المستائين المتكتلين فرصة الانتفاض على النظام القائم فأطلق عليهم مستقيمو الرأي اسماً واحـداً هو « القطافون المتنقلون » الذي وازى، في نظرهم ، اسم « قطاع الطرق » . فجعلوا منهم « لصوص مخامر » يعمدون الى اشعال النار واعمال العنف في كل مكان ويوقفون العربات ؛ ويحلّون فيهـا العبيد محل السيد الذي يرغمونه على الهرب سيراً على الاقدام ، وينشدون في كل أعمالهم الأناشيد الدوناطية، ويصيحون صيحة التجمع الخاصة بالمراطقة. ويساعد هذا الغليان على تفسير محاولات

الاغتصاب المتكررة في افريقيا . اما اعمال القمع ، التي لم تعرف للشفقة معنى ، فلم تتغلب على هذا الغليان إلا في النصف الاول من القرن الخامس .

الفلاحون الشركاء

كانت هذه الاضطرابات محصورة في افريقيا . فاللصوصية المسلحة المتفرقة ، في المناطق الاخرى ، لم ترتد هذا الطابع من الخطورة ، لا بل ان وطأتها قد خفت في مصر نفسها – سنرى بعد ذلك ما سيحل محلها – أقله في أشكالها التقليدية . ولعل السبب في ذلك ان العمل الريفي المأجور شيء نادر في المناطق الاخرى : ففي كل مكان تقريباً تألفت طبقة الفلاحين ، بصورة عامة ، في اواخر القرن الثـــاني ، من صغار الملاكين الاحرار ومن فلاحين شركاء ، أي من مزارعين يتقاضون أجورهم حصة من الاثمار .

غير ان تطور الامبراطورية الثانية ، الذي شجعته الدولة حيناً وحاربته حيناً آخر ، قد ربط الفلاح بالارض وحدّ في الوقت نفسه من حرية الملاك الصغير لمصلحة جاره القوي ، ومال بالتالي الى تعميم نظام المشاركة الزراعية الذي يختلف كل الاختلاف – باستثناء الاسم – عن العقد الحرّ نظرياً والملغى ، في عهد الامبراطورية الاولى ، بين الفلاح الشريك وصاحب الملك . ولنحاول هنا اعطاء فكرة عن هذا النظام دون اخفاء صفة التحكم في عرضنا الموجز السريع . ولكن هل يجوز لنا التفكير ، على ما في ذلك من فائدة نظرية وعملية ، بالتطرق الى مسائل معقدة وشائكة يثيرها هـذا التطور الشرعي الذي يفوق بقوته القوانين والذي يتحول وفاقاً للوضع الزراعي وكثافة السكان في المناطق التي تتألف منها الامبراطورية ؟

في الاصل كانت الصعوبة ، في كل مكان ، مماثلة لتلك التي تؤدي الى وضع نظام سكان المدن . ففي سبيل تأمين الغذاء للجماعة وجمع المطلوب للدولة ، يجب ان يعهد باستثمار الارض الى يـــد عاملة مستقرة ، جهد المستطاع . وبما انهم قـد اقتصروا على استثمار الاراضي الجيدة المخصبة ، بسبب الافتقار الى اليد العاملة ، فقد ازدادت المساحات البائرة ازدياداً مطرداً . لذلك سارت الدولة على تشريـع هدريانوس الذي يجيز لأي كان الاقامة فيها . ثم أدخلت بعض البرابرة الى الامبراطورية وفرضت عليهم واجبات تتفاوت شدة ولينا بحسب نسبة القوى المتقابلة . ولكن هذه التدابير كانت غير كافية ، فاضطرت الى معاملة رعاياها أنفسهم معاملة قسرية .

من الطبيعي ان تهدف هذه المعاملة الى خير الاملاك العامة في الدرجة الاولى . فأفضت الى عقد اتفاقات تأجيرية طويلة المدى ، او دائمة احياناً ، وانتهى الامر ، عملياً ، الى الاعتراف ، قبل سن قانون بذلك ، بأن اقامة تدوم ثلاثين سنة تكفي لاعطاء حق دائم . ثم اعتمدت هذه التدابير لمصلحة كبار الملاكين ، بانزلاق تفسره توزيعات الاملاك الامبراطورية ، ولا سيما واجب الملاكين في تنفيذ المطالب الأميرية . فصدرت حينذاك سلسلة من الأنظمة تتفاوت تاريخاً بحسب المناطق ، وأهمية قانونية بحسب بدء الاقامة في الاملاك ، وتربط الفلاح الشريك بالارض وحتى بالملاّك . وقابل هـذه الانظمة نظام آخر يحول دون فصله عن الارض التي يزرعها . ولكنه لا يستطيع مغادرتها ، كما لا يستطيع ابناؤه الابتعاد عنها إلا لأجل الخدمة في الجيش او بموافقته

السيد . واذا جاز له اقتناء ملك خاص خارج هذه الارض ، فانه يحظر عليه بيعه بدون اذن السيد الذي قد يكون له بعض الحقوق عليـــه . وهكذا يمكننا القول ان وضعه يتوسط وضع الرجل الحر ووضع العبد. اجل ما زالت هنالك بعض الانظمة الاخرى في اوائل القرن الخامس. ولكنها تميل كلها الى الانصهار في نظام المشاركة الزراعية . كان المشارك الزراعي في السابق خاضعاً لسيطرة الملاك الاقتصادية فقط ، فخضع الآن لسيطرته القانونية ايضاً .

الحماية

شجعت الدولة هذا التطور بقدر تعلقه بالاملاك التقليدية ، ولكن موقفها منه قد اختلف حين كان يتناول الفلاحين الاحرار . ولا يرد ذلك الى ان هؤلاء قـــد ضايقوها، بل الى انها قد لاحظت ان التطور قد حصل آنذاك يرافقه تصميم على مقاومة مطالبها الاميرية بالذات . يسعى الفلاح ، في أغلب الاحيان ، وراء « حماية » الملاك الكبير ، هرباً من دفـع الضرائب مباشرة ومن مطالبات الجباة ، فيتخلى له عن ارضه ، ولكن ملاكاً كبيراً واحداً لم يفكر بانتزاعها منه فعلياً . فيبقى فيها ويستمر في استثمارها . ولكن هـذا الامتياز يستلزم واجبات مختلفة تميل في الواقع الى تمثيله بالمشارك الزراعي والى أكثر من ذلك احياناً . فيحصل من معلمه ، بالمقابلة ، على حماية امام القضاء وامام السلطات .

لم يكن انتقال الرجال الأحرار هذا الى مزارعين يحميهم ملاك كبير ليروق لأي مسؤول ، لا للممثلين ولا للدولة الذين أصبح عليهم التعامل مع فريق اعظم قوة . لذلـــك حاول بعض الاباطرة مقاومة هـذا التطور . وعلى هذا الاساس ، كما يبدو ، يجدر بنا تفسير ما اقدم عليـه فالنتينيانوس حين احدث في كل مدينة وظيفة « المدافع عن عامة الشعب » الذي وكل اليه أمر انصاف المساكين ، لا سيما في حقل الجباية ، بغية صرفهم عن اللجوء الى الحمايات القوية ، ولكن هذه الوظيفة ما لبثت ان انحرفت عن غايتها الاولى ، فلم تتميز في النهاية عن وظيفة « محامي المدينة » الذي ما كان ليهتم لأمر عامة الشعب . وصدرت كذلك عدة قوانين بمنع الحماية، تفرض العقوبات على الفلاحين والملاكين على السواء ، يعود اولها الى السنة ٣٦٠ . ولكن الحركة أقوى من القوانين التي نجد الدليـل على عدم جدواها في عددها وتكرارها . ستلجأ الامبراطورية الشرقية اليها زمناً طويلاً بعد ذلك ، اما الامبراطورية الغربية ، الضعيفة ، فقد عزفت عنها منذ اوائل القرن الخامس .

أفضى التطور أحياناً الى المغالطة ، أي أنه جـاء ضد الملاك نفسه . فإن الدولة ، منذ عهد مبكر ، بغيـة تحديد المسؤولية الأميرية الجماعية في القرية ، قـد شجّعت وأوجبت أحياناً انشاء الجماعات الريفية ، عـلى غرار الجماعات المدنية ، ولكنها منحت الجماعـة امتيازاً على ممتلكات أعضائها . فأخـذ الفلاحون الأحرار وغيرهم في بعض المناطق ، لا سيما في الشرق ، يتجمعون على أساس القرية ، حتى ولو عادت كافة أملاك القرية الى ملاّك واحد . ولكن هذه الجماعات ، التي بحثت عن سيد جماعي يحميهـا من الدولة ، قد بحثت أحياناً عمن يحميهـا من الملاك نفسه ، هادفة الى أن تفرض عليه تخفيف اعبائها . وهكذا فان ليبانيوس قد رأى نفسه

وجهاً لوجه أمام قائد يحمي فلاحيه بالذات . أما نحن فنميل الى الاعتقاد بأن مثل هذه الحوادث كانت نادرة حين يكون الحماة أقوياء حقاً . ولكن الدولة شعرت بالخطر يهدّدها فسعت الى منع هذا النوع من الحماية الجماعية في الوقت نفسه الذي سعت فيه الى منع الحماية الأخرى ، ولكنها فشلت في المحاولتين .

الاسياد والاتباع

كل ذلك يتيح لنا ادراك التزايد العظيم في القوة والثروة العقارية ، والمنقولة احياناً ، اللتين استفاد منها الملاكون في القرن الرابع . وقد سبق لنا وأشرنا الى الحقوق التي يحصلون عليها او يدّعون بها في الحقل الاداري : فالاملاك تصبح غريبة عن المدينة التي تمتد هي في أراضيها ، وسيدها يتصرف فيها على هواه تقريباً .

لا يهتم إلا لان يؤمن، باشرافه أو اشراف قهرمانه، أفضل استثمار لاملاكه. وقد توفرت لديه منذئذ تسهيلات متزايدة لبلوغ هذه الغاية . فهو لا يتخلى عن استغلال « الاحتياطي » استغلالاً مباشراً يعود اليه محصوله الكامل . لا بل يبدو بصورة عامة ان مساحة هذا الاحتياطي تتسع باطراد . ولكنه يعتمد في زراعته طريقة اقل كلفة من تعهده ، على مقربة من مقصفه ، عبيداً كسالى لا يقومون بعمل مثمر ، لانه يستحيل مراقبة عملهم مراقبة مستمرة . فيعامل عبيده معاملة الشركاء الزراعيين ويسكنهم في اراض يكل اليهم أمر زراعتها . وبالمقابلة ، يفرض على كافة محميه أو مزارعيه ، وشركائه أو عبيده ، اعمال تسخير مختلفة تتيح له استثمار احتياطيّه . وهكذا ، بعد تطور طويل الامد حُلت المسألة الاقتصادية التي أوجدها قيام الاملاك الواسعة في ايطاليا ، اعني بها مسألة افضل طرق الاستثمار ايراداً : فمن جهة ، قطع ارض مستقلة يستثمرها الاتباع باشراف سيدهم لقاء حصص من الاثمار ، ومن جهة ثانية ، احتياطي يستثمره السيد مباشرة بفضل خدمات اتباعه الشخصية . وسيعتمد هذا الحل ، ببعض المرونة ، طوال قرون عديدة .

ان استخدام كلمة « اتباع » ، في هذا المجال ، امر واجب لانها قد تنطوي على انظمة مختلفة يجمع بينها انها تولي احد الرجال سلطة على شخص رجال آخرين . ان مصير العبد الريفي ، في الواقع، سائر نحو التحسن: فالعبد منذ ذاك التاريخ يعيش وحده مع عائلة لا يمنعه احد من تأسيسها لانه يتعهد وحده باعالتها . ولكن القانون ، مع ذلك ، ابعد من ان يعتقه . وعلى نقيض ذلك ، اذا لم يتبدل وضع الآخرين تبدلاً عملياً يذكر ، فانهم قد فقدوا النظام الذي جعلهم يتمتعون بحريتهم الكاملة : اذ انهم قد تخلوا عن بعض حريتهم القانونية للملاك الذي اصبح سيدهم . فيتضح من ثم ان تطوراً هاماً جداً قد تحقق، وسيسير هذا التطور طريقه بفعل احداث وتأثيرات اخرى . ولكن النظام السيدي ، منذ اواخر القرن الرابع ، قد تأصل وتوطد في الأراضي الامبراطورية .

وهكذا فقد رسخت المضادة الاجتماعية في الأرياف.وصفنا اعلاه حياة الاغنياء في مقاصفهم. اما منازل الفلاحين الوضيعة فلم تترك لنا سوى آثار حقيرة ، وقد ترفع كافة المؤلفين عن ان

يتكلموا عن حياتهم . ولكنه ليس من الصعب تصورها جانحة ابداً الى الأرض في عمل يومي متكرر . فهل هم سعداء مادياً يا ترى ؟ كلا ثم كلا : فالنظام قد أوجد لغايات اخرى . ولكن آلامهم ، في الأرجح، أخف من ان تحملهم على الثورة، اذ انهم لم يحذوا حذو القطافين الافريقيين. أجل لقد ذكر ثيميستيوس ، في السنة ٣٦٨ ، ان بعضهم قد تمنوا مجيء البرابرة . ولكن حين جاء هؤلاء في السنة ٣٧٧ ، لم ينتهز الفرصة سوى عمال المناجم في تراقيا ، وكان كثيرون منهم من البرابرة ، كي يثوروا على اسيادهم . ولعل هؤلاء الكادحين الريفيين ، عندما دقت الساعة ، شعروا بانهم رومان على الرغم من بؤسهم . ولعلهم شعروا بنوع خاص ان مجيء البرابرة لن يعود عليهم بفائدة ، لا سيا وان هؤلاء الغزاة لم يهتموا للقيام باقل اصلاح اجتماعي . ولكن مما تجدر الاشارة اليه ايضاً هو ان الدولة لم تأخذ على نفسها أمر البحث بين رعاياها والفلاحين وغيرهم عن جنود يتيحون لها الدفاع عن نفسها دفاعاً افضل : ولعلها ، في ذلك ، ما زالت تتذكر أزمة القرن الثالث وتخشى الاخطار التي قد تعرضها لها الاستعانة بالطبقات الفقيرة .

٣ ـ المجتمع الكنسي

قامت بين المجتمع الكنسي والمجتمع العلماني روابط كثيرة على الرغم من تميز الاول . فهو آنذاك في طور التنظيم ولا يجوز اهماله .

ازدياد الاهتداءات

ليس من ريب في ان العقيدة الجديدة ، منذ تنصّر قسطنطين ، قد وجدت في السلطة السياسية خير معوان لتوسيع عدد أتباعها. فقد أدى العطف الحكومي، في الامبراطورية، أقله الى تقريب ساعة انتصارها. واذا لم تنتظر النصرانية هذا الانتصار وهذا العطف حتى تتخطى الحدود ، فقد حالفها الحظ احياناً ، حتى في الخارج ، واستمالت بعض الملوك ، الشيء الذي سهّل لها نجاحاتها .

منذ اواخر القرن الثاني، اعتنق النصرانية ملك « اوسروينا » وراء منعطف الفرات. وبعد مرور قرن اعتنقها ملك ارمينيا بدوره . فسار الرعايا هنا وهنالك على خطى ملوكهم . اما في المناطق النائية شرقاً، فلم تحدث على يد المبشرين سوى اهتداءات قليلة: فقد تم بعضها في القفقاس وحتى في آسيا الوسطى ؛ وقام الساسانيون دون جدوى ، لا سيا في بلاد ما بين النهرين ، باضطهادات عنيفة في اواسط القرن الرابع ، خلال الحروب التي قامت بينهم وبين روما . اما الاسماعيليون ، على نقيض ذلك ، فقد تولت شؤونهم فترة من الزمن ملكة مسيحية اختطفوها من بين رعايا الامبراطورية . وفي عهد قسطنطين بلغ الهند بعض المسافرين المسيحيين واستمالوا بعض الاتباع على الرغم من قتل رئيسهم. وقد عاد احد هؤلاء المبشرين من الشرق الاقصى وقصد مصر ثم سافر عن طريق البحر الأحمر الى مملكة « أكسوم » عند أعالي النيل ؛ ونصّر الملك ، ثم أسس كنيسة الحبشة بعد ان سامه اثناسيوس الاسكندري أسقفاً . ودخلت النصرانية الى اليمن نفسها . اما في اوروبا فقد سبق وتكلمنا عن دور اولفيلا عند القوط وعن نقل هؤلاء

الهرطقة الآرية الى الجرمانيين : غير ان أكثرية الفرنجة قد حافظت على وثنيتها حتى كلوفيس . واخيراً ، في القرن الخامس، تنصّر البريطانيون على يد القديس جرمانوس الاوكسيري وتنصرت ايرلندا بعد سكوتلاندا على يد القديس بطريقيوس وبالاّديوس – إلا اذا كان هذان الاسمان قد أطلقا على شخص واحد هو « اسقف السكوتلانديين » نفسه .

حظي كثير من هذه الرسالات الخارجية بأيد الحكومة الامبراطورية التي شجّعت تشجيعاً خاصاً شبه مستمر ، بقوانينها وعملها الاداري اليومي ، نشاط الرسالات في داخل الامبراطورية. ومع ذلك ، فان الارياف ، لا سيما الغربية منها ، قد بقيت بعيدة عن هـذا النشاط حتى اول القرن الخامس . وما لبثت كلمة *Paganus* أي الفلاح ان اتخذت ، على الصعيد الشعبي ، ثم على الصعيد الرسمي ، معنى « الوثني » الذي ما زالت منطوية عليه في كلمة *Païen* . ولا يزال مصدر هذا التحول موضوع مجادلات كثيرة؛ ولكن أبسط تفسير لذلك ، كما نرجح ، هو مقاومة الفلاح للتخلي عن عباداته التقليـدية . ومهما يكن من الأمر ، فان الارياف الغربية كانت ، في الزمان ، آخر ما انتشرت فيه الديانة المسيحية . اما تطور هـذا الانتشار فلسنا نعرف إلا في غاليا حيث قام القديس مارتينوس بعمل مجد حاسم . أسس هذا الضابط السابق ، بمساعدة أسقف بواتيه ، دير ليغوجيه ، ثم سيم أسقفاً علىمدينةتور فأسس، في السنة ٣٧٣ ، دير مارموتيه ايضاً . فكان هذان الديران منبتين حقيقيين للرسالات تربىفيها وخرج منها وعّاظ ساروا على خطى المؤسس. ولم يمت هـــذا الاخير إلا في السنة ٣٩٧ . فاشتهر طيلة قرون عديدة بـ « رسول غاليا » بفضل تقشفه وجولاته المستمرة والمعجزات التي اجترحها وتعلق تلاميذه بـــه والترجمة التي وضعها له سولبيس ساويروس. ولكن عملاً مماثلاً ، يتفاوت شهرة او سرعة ، قد تم في كل مكان آخر . ولم تحتفظ الوثنية في اوائل القرن الخامس ، إلا ببعض النقاط المتشتتة داخل الامبراطورية .

قوة الكنيسة الاقتصادية

لقد رافق كسبَ النفوس هـــذا ، بصورة طوعية اجمالاً ، كسبُ الممتلكات الزمنية . فقد اخذ الأنفاق يتزايد تزايداً عظيماً : تشييد الأبنية ، والعناية بها، والعناية بالمدافن، ونفقات العبادة، وحياة الاكليروس المادية، ومساعدات المعوزين . ولكن الاعطيات اخذت تنهمر من كل جهة ايضاً ، من الدولة والافراد . وفي السنة ٣٢١ اعترف قسطنطين للكنيسة بحقها القانوني في تقبل الهبات بواسطة الوصيات (الاوقاف) . ولم ينتظر المؤمنون ، في غالب الاحيان ، ساعة الموت ليبرهنوا عن سخاء مدهش أملاه التقشف والتصميم على الزهد بخيرات هـــذا العالم : فقد سبق القديسة ميلانيا وزوجها أكثر من سلف ، الشيخ بوماخيوس مثلاً او بولين النولي الذي أصبح اسقف نولا ، مسقط رأسه في كمبانيا . غير ان فالنتينيانوس الاول ، ذلك الحاكم العبوس ، ما لبث ان اغتاظ من بعض ضروب الضغط المريبـة والنفعية : فحظر على الكهنة مساعيهم لدى الاوانس والارامل ، وألغى الهبات الوقفية التي قد يقدمنها لهم . ولكنه أغضى ، على ما يبدو ، عن اعطياتهن وعن هبات الرجال الوقفية ، وليس هؤلاء دون النساء حرصاً على خلاص نفوسهم .

وهكذا باتت الكنيسة على جانب عظيم من الثروة. ولم تصدر حكمها على الثروة عند الفقراء، لا بل لم تقل، كما كانت تقول بصدد الزواج والتبتل، ان الفقر خير منها. ولم يشذ عن موقفها هذا سوى اصوات معدودة لا شأن لها امتدحت اشتراكية الممتلكات: فأفضى اتفاقها مع المجتمع العلماني، على غرار ما جرى بصدد الخدمة العسكرية والتبتل، الى تخفيف حدة بعض الحميات. ولكنها قد أوصت بتجنب الجور في جمع الثروة وبتجنب التمتع بها بأنانية وبخل. وقد أعطت المثل في هذا الصدد بتوزيع الاحسانات وتشييد المآوي للعجزة والملاجيء للأرامل وتربية الايتام. فألقت الدولة على عاتقها عمل برّ لم تعره يوماً أهمية جدية: اذ ان مشروع «التغذية» نفسه الذي تحقق في عهد ترايانوس كان يستهدف غاية أخرى. وقدمت النصرانية للعالم القديم مفهوماً جديداً هو مفهوم التقوى الفاعلة، فجعلت منه الكنيسة حقيقة واقعة في مجتمع شكا من جروح كثيرة: وقد قدّر القديس يوحنا فم الذهب مسيحيي القسطنطينية، دون المراطقة، بـ ١٠٠٠٠٠ كان نصفهم من الفقراء، أي ممن تؤدي لهم الكنيسة المساعدات.

كانت هذه الثروة متنوعة الاشكال. فقد ضمت العبيد. أجل لم تبتعهم الكنيسة ابتياعاً، ولكنها كانت ممسكة في اعتاق من تحصل عليهم من اسيادهم أو من يولدون في كنفها. فهي قد اصدرت حكمها، كما رأينا، لا على الرق كنظام، بل على اولئك الذين اغضبهم وجودها؛ وقد حاول القديس اوغسطينوس تقديم الدليل على ان الشريعة الموسوية، التي أوجبت تحرير العبد اليهودي في اول السنة السابعة من عبوديته كابعد حد، لا يمكن تطبيقها على المسيحيين. وامتلكت الكنيسة كثيراً من الأراضي ايضاً: وما لبثت ان اصبحت اهم ملاك عقاري في الامبراطورية، بعد الامبراطور والدولة. غير ان وجود هذه الممتلكات قد خلق معضلة الواجبات نحو الدولة. فلما كان من غير المعقول ان تضعف الدولة، اخضعت الاملاك الكنسية للموجبات العامة التي تناولت الاملاك الامبراطورية نفسها. وقد برز في كثير من المدن «المدافع عن الكنيسة» وهو مماثل «للمدافع عن المجلس» و«المدافع عن المدينة»، الذي يتولى المشورة والدفاع في علائق الكنيسة بالادارة. وقدمت الكنيسة المجندين للجيش. ورفضت الدولة الاعفاء من الضريبة الشخصية وحتى من الحجز لمصلحة الجماعات حين تكون الممتلكات موضوع مثل هذا الحجز: فقد تخلى القديس اوغسطينوس باسم كنيسته عن هبة محمول احد الزوارق خوفاً من الكوارث التي قد يترتب عليه الاشتراك في تحمل مسؤوليتها. واكتفت الدولة بالاعفاء من التسخير الذي سبق للاشراف والاكليروس ان افادوا منه.

لا يظهر دور الكنيسة الاقتصادي في مصادرنا الا بوجود موازنة البر والقوانين الجبائية. ويؤسفنا في الحقيقة الا نعلم عنه اكثر من ذلك، اذ ان هذه القوة لم تبق دون إثر في المجتمع العلماني كما نرجح. بيد انه يجوز لنا التساؤل عما اذا لم يسهم سوء ادارة هذه الأملاك، كما نقدر، في تدني انتاج عام لم يكن يوماً فائضاً. ويغلب ان نتائجه قد انضمت الى ما هو طبيعي وعادي دون ان يستطيع احد تحديده عددياً: اعني به الاقتطاع الذي حصل، بفعل تزايد عدد افراد الاكليروس، – في الوقت نفسه الذي رفعت فيه ادارة الدولة عدد موظفيها – من مجموع الطاقات

البشرية المنتجة الموجودة في الامبراطورية ، وهو مجموع لم يكن قط فائضاً ايضاً .

التنسك والترهب

ان هذه الملاحظة، التي قد تظهرنا بمظهر من يعود الى رأي طلعت به الفولتيرية، وأفاد منه بعض المسؤولين المستبدين ايما افادة ، تؤدي بصورة طبيعية جداً الى بحث بعض مظاهر الحياة الدينية التي ابعدت بعض المؤمنين ابعاداً تاماً عن النشاط العـــام : التنسك والترهب .

ظهر كلاهما في مصر في اواخر القرن الثالث واوائل القرن الرابع، وعرفا في البداية نجاحاً عظيماً في الشرق ، ليس من السهل تحليل اصولها واسباب انتشارهما . بيد انه يستحيل الا نرى فيهما نتيجة لحرارة صوفية راسخة في هذه المناطق : وقد سبق للنصرانية ان اكتشفت فيهـا ، لدى سكان الأرياف ، بيئة انتشار مؤاتية قل نظيرها ، حين خرجت من المدن في القرن الثالث واعتمدت في وعظها اساليب الكلام البلدية الغريبة عن النخب المثقفة. غير ان الصوفية والتقشف لا يستوجبان مغادرة المنزل : فقد عاش الكلبيون اليونانيون في المدن . فنحن نرجح ان بعض الاعمال التي حققها « مصارعو الايمان »بتسابقهم في هذا الحقل كان من شأنها ، لو اتسمت بمزيد من الصعوبة ، ان تتسم بمزيد من الروعة. اما الحقيقة فهي انهذهالحركة، التي انطلقت من ادنى الطبقات الاجتماعية ، كانت بمثابة احتجاج عـلى التسويات الرسمية والزمنية التي فرضهـــا على الكنيسة انتصارهـــا . فيجب من ثم ان نحترز من اسم « الفارين » الذي اطلق بسرعة على المنفردين : فهو يمثلهم باولئك الهاربين الذين حاولوا في مصر ، منذ القرن الثالث قبل المسيح ، التخلص من الاقتسارات الادارية بالابتعاد عن المجتمع العادي . بيـــد ان فكرة الثورة الفردية والسلبية نفسها ، وهي تتجلى في التضحية بكل مـــا يعلق عليه الرجل المتوسط تلك القيمة العظمى ، قد أوحت بهذه الاحتجاجات التي لم تختلف عن الاحتجاجات الاخرى الا بايمانها الذي اعطت عنه برهاناً باهراً. وما هي ، بهذا الصدد ، بين اليأس والأيمان ، العاطفة التي تنبثق من الاخرى أو العاطفة التي تساند الاخرى ؟ وباية نسبة يحل الأيمان محل اليأس ، امـــا في التطور الداخلي لكل شخص ، واما في اساس قراره بالذات ، بفضل قوة المثل ؟ فيتضح بالتالي ان كل حالة تشكل مسألة خاصة ، كما يتضح ايضاً ان هؤلاء الرجال لم يهتموا لايضـــاح سيكولوجيتهم الفردية للاجيال الطالعة : اذ ان كثيرين منهم ، ابتداء من القديس انطونيوس ، كانوا اميين .

أعطى المثـــل القديس انطونيوس الذي قصد ، حوالي السنة ٢٧٠ ، الصحراء الى الجنوب الشرقي من الدلتا حيث عاش حيـــاة حرمان وصلاة مقاوماً تجارب الشيطان . ثم أرغمه اقبـــال المقتدين به من المعجبين على الابتعاد نحو البحر الاحمر بحثاً عن خلوة هادئة . وعندما ادركته المنية ، بعد ان تجاوز سن المائة ، في اواسط القرن الرابع ، كانت معجزاته وتقواه قد أعطته قداسة احترمها واعترف له بها قسطنطين واولاده انفسهم ؛ وقد كتب ترجمته القديس اثناسيوس الذي كان هو قد ايّده في صراعه الحاد ضد الآرية ، فانتشرت في جميع أنحـــاء الامبراطورية وقرأها الكل بشغف . ولكن الصحراء ، منذ قبل وفاته ، قـــد أهلت بالنساك ، اما في جوار

انطونيوس ، واما غربي النيل في وادي نيتريا . فكان فيها ، حتى قبل وفاة قسطنطين ، عدّة آلاف من النساك لا يجتمعون إلا يوم الاحد للخدمة الإلهية، ويعيشون في قلالٍ صغيرة ، متبارين في الاعمال التقشفية الرائعة : فان مكاريوس مثلاً ، الذي كان يقضي الليالي منتصباً على قدميه ، لم يقفل عينيه طيلة اربعين يوماً ، وبقي سبع سنوات دون ان يأكل غذاء مطبوخاً .

كان هؤلاء رهباناً بكل ما في الكلمة من معنى ، أي اشخاص « منفردين » لا يخضعون إلا للالهام الشخصي في مسلك حياتهم. وقد أسس مصري آخر هو القديس باخوميوس ، قبيل هزيمة ليسينيوس ، ما أطلق عليه خطأ اسم « الدير » بينما هو « الحياة المشتركة » بالضبط ، وذلك الى الغرب من طيبة في مصر العليا . وما لبثت هذه المؤسسة ان ضمت أكثر من ٢٠٠٠ رجل . ثم تأسست لها فروع في أنحاء مختلفة: فعند وفاة باخوميوس في السنة ٣٤٦، كان هناك تسع جمعيات للرجال واثنتان للنساء. اما النظام المكتوب الذي وضعه المؤسس لهذه الجمعيات، اذا ما استثنينا منه بندي الانفراد والفصل بين الجنسين ، فلم يكن صارماً جداً : الزام باستظهار العهد الجديد والقيام ببعض الاعمال ، وحرية في المأكل والمشرب . ولكن أنظمة أخرى ، في مصر نفسها ، كانت اشد صرامة .

اقتدي بهذه الممارسات التقوية في كل مكان ، وفي آسيا في الدرجة الاولى . فكان هنا ايضاً زهاد أثاروا الدهشة بتجلدهم وابتكاراتهم التقوية . ولكن واحداً منهم لم يتفوق على القديس سمعان الذي ترك ، في اوائل القرن الخامس ، احد الاديرة حيث طلب اليه الاعتدال في اماتة نفسه ، وارتأى ان يقيم على عامود مبني ، على مقربة من انطاكية ، لم ينزل عنه إلا ليعتلي عواميد اخرى تزداد كل مرة ارتفاعاً ، آملاً بذلك تجنب مضايقات الجماهير الآتية بأعداد غفيرة بغية التطلع اليه والتأمل به : وهكذا ارتفع ، خلال ٣٧ سنة ، من ثلاثة امتار الى ١٨ متراً عن الارض . واقتدى به « عاموديون » آخرون ، كما قام « الشجريون » الذين اعتلوا الاشجار ، و « البئريون » الذين اقاموا في قعر الآبار، الخ. اما في الاديرة فان القانون الذي وضعه القديس باسيليوس حوالي السنة ٣٦٧ هو الذي عرف أكبر نجاح : وقد أخضع فيه الجمعية لسلطة الرئيس المطلقة وقسم اوقات الرهبان بين العبادة والقراءة والعمل ، لا سيما العمل الزراعي . ثم انتقل هذا القانون الى البلقان حيث لا يزال معمولاً به في اديرة العالم اليوناني والسلافي .

وأسس بعض اتقياء الغرب ، من امثال القديس ايرونيموس في بيت لحم ، والقديسة ميلانيا القديمة ، عدداً من الاديرة في فلسطين. وفي النصف الثاني من القرن الرابع، ظهرت فيها الحياة النسكية ايضاً ، وكانت الغاية منها تنظيم الحياة المشتركة للاكليروس أولاً ، وابتعاد رجال الدين عن اهواء الجيل ثانياً. ولكن سيطرة هذين النظامين لم تحل دون تنوع الحياة النسكية كما يتضح من الجمعيات التي أسسها القديس مارتينوس .

يبدو ان الاهالي قد نظروا ، في كل مكان ، بعين راضية معجبة الى هذه الحركة وما رافقها من تضحيات طوعية دائمة . وفي مصر وسوريا بنوع خاص ، اسهم الرهبان ، الذين انتموا بمعظمهم الى اوساط ريفية وضيعة لم تتسرب اليها اللغة اليونانية ، في نهضة اللغات القومية

المنحطة . فبرزت في اللغة القبطية ، وريثة اللغة المصرية الشعبية القديمة ، معالم ادب جديد كان باعثه الاول شنودي ، رئيس « الدير الابيض » الذي كان قد اسسه في منطقة طيبة واخضعه لنظام اشد صرامة من نظام باخوميوس . وكانت الحياة النسكية عوناً للغة السريانية ايضاً ، وهي وريثة اللغة الآرامية ، التي كانت صائرة الى الزوال في مناطق الفرات . لذلك فان الحياة النسكية هذه ، اقله في هذا العهد ، لم تخدم قضية الحضارة التي كان على الامبراطورية الدفاع عنها . وفي اغلب الاحيان ايضاً، عبر الرهبان عن الفطرة الشعبية وخدموها بمساندتهم النصرانية على الوثنية وعقيدة بجمع نيقيه على الآرية . ولما كانوا سريعي التأثر والانفعال ، فقد كانوا يتركون عزلتهم أو يخرجون من بعض الأديرة ، بالاتفاق مع رئيسهم أو بأمر منه احياناً ، ويجتمعون زمراً في المدن . فقد اشتركوا ، لا سيا في الاسكندرية حيث جعل منهم الاتفاق بين انطونيوس واثناسيوس ادوات طيعة في يد الاسقف ، في اكثر من عمل شغب عنيف . وكانوا في مثل هذه الظروف يتسلحون بالعصي وينشدون الاناشيد .

لذلك لم يكن باستطاعة الدولة ان تشعر نحوهم باي عطف . ولكنها ، على الرغم من ذلك ، قلما تجاسرت على محاولة اخضاعهم لقانونها . وقد وجب ان يستلم الحكم امبراطور آري ، هو فالنس ، كي يأمر بالبحث بينهم عن « المثلين » الهاربين لاعادتهم الى مدنهم الاصلية وبفرض الخدمة العسكرية على نساك نيتريا بعد اصطدامهم بالجنود : ولكن هذا التدبير لم ينفذ . ولم يبطىء ثيودوسيوس نفسه ، بعد اصلاح ذات البين بينه وبين القديس امبروسيوس ، في الغاء قانون يحرم على الرهبان الاقامة في المدن ، كان قد اصدره منذ اشهر قليلة .

كان امبروسيوس ، في محاربة الآرية ، حليف اسقف الاسكندرية الذي كان يعرف كيف يستخدم سجسهم نفسه . لذلك فقد نظر اليهم بعين راضية . ولكن اساقفة آخرين كثيرين قد وقفوا منهم غير هذا الموقف لانهم لم يرضوا عن سجسهم وعن احتقارهم للسلطات الكنسية الرسمية . وفي اعقاب حوادث متكررة — لم تخل منها غالبا نفسها بعد وفاة القديس مارتينوس — في الشرق اولاً ثم في الغرب ، التأمت بعض المجامع في اواسط القرن الخامس واخضعت الاديرة لرقابة الاسقف الشديدة : فحلت بذلك معضلة كانت مدعوة لأن تثار مراراً فيا بعد . لا ريب في ان الحياة النسكية قد زخرت باعمال تقوى تثير الاعجاب ، ولكن المسؤولين عن السلطة قد شعروا بحاجة الى ضبط هذه الحرارة التي كانت تخفي رواسب كثيرة من الفوضى التي ميزت عامة الشعب في السابق .

الاسقف وكنيسته

هؤلاء المسؤولون هم الاساقفة . فالكنيسة ما زالت منظمة كنائس مختلفة توافق كل منها مدينة من المدن . وقد أدت الى هذا النظام قرون من الحضارة والادارة افرغت في هذا الاطار حياة رعايا الامبراطورية . اما عند البرابرة الذين حافظوا على تنظيمهم القبلي ، فالاسقف يعينه رئيس القبيلة ، لا المدينة . وقد تقوم في ارض هذه الاخيرة معابد كثيرة ، وقد حدث ذلك بسرعة بسبب ارتفاع عدد المؤمنين . ولكن كل هذه

المعابد تخضع له وحده . اجل لقد حصلت بعض الخلافات بين الاساقفة وبعض كبار الملاكين الذين يخصصون في املاكهم بناء للعبادة ويحاولون، شأنهم في شؤون ادارية كثيرة ، تجاهل المدينة ، ولكن الغلبة كانت للاساقفة في النهاية .

فهم يعينون ويديرون اكليروساً مطرد الزيادة يضاف اليه عالم اكليريكي أكثر عدداً ايضاً غير واضح المعالم احياناً : فان قراء العزائم مثلاً ، الذين يلعبون دوراً في الاعداد للمعمودية ، قد اعتبروا اكليريكيين في الغرب دون الشرق . ولهم ديوانهم وكتابهم الشرعيون ورجال أعمالهم وقهارمتهم . يستشيرون سواهم ولكنهم ينفردون في اتخاذ مقرراتهم ، والكاهن الذي لا يخضع لهم انما يرتكب خطأ معثراً . يحظون بأيد الحكومة ، أي الادارة ، إلا في بعض الحوادث الفردية . ونحن لن نعود هنا الى تدخل السلطة المدنية ضد الهراطقة والملحدين، ولا الى تنازل قسطنطين عن قسم من السلطة القضائية للأساقفة . ولكن هذه التدابير قد رفعت من شأن سلطتهم الادبية التي كانت عظيمة جداً على المؤمنين والتي أيدتها سلطة اقتصادية متزايدة. فلا عجب والحالة هذه اذا أصبح الاسقف رئيس المدينة حين اضمحلت الامبراطورية في الغرب.

لم يلطف هذه السلطة المطلقة إلا الرأي العام . فهذا الأخير يبرز حين تعيين اسقف جديد ، وهذا الحدث ، بفعل سلطة الاسقف بالذات ، اهم من ان يقصى عنه المؤمنون . يقترح على « الشعب » احد الاسماء بعد التشاور بين أساقفة الجوار والاكليروس المحلي ، فتقوم المناداة به مقام الانتخاب ويسام المنتخب اسقفاً على يد احد الاساقفة الحاضرين . ولكن فقدان الانظمة القانونية يثير احياناً منازعات تؤدي الى الانشقاق والاصطدامات الصاخبة : فقد سقط قتلى كثيرون حين عين داماز اسقفاً على روما .

لم يفرض أي شرط لشغل هذه الوظائف . اجل لقد تكلم البابا ، في عهد متأخر ، عن ٣٠ سنة لمنصب الشماس الانجيلي، و ٣٥ للكهنوت، و٤٠ للأسقفية واوجب التبتل في هذه الدرجات الثلاث . ولكن المخالفات كثيرة حتى في الغرب ، وهي أكثر منها في الشرق حيث اقتصر على تحريم الزواج بعد الحصول على درجة الكهنوت دون ابطال الزواج المعقود سابقاً. ولا يجوز القول بأن هنالك تألباً في المناصب الكنسية . فاذا كان الاسقف قابلاً للعزل بقرار من احد المجامع ، فهو لا يستطيع مبدئياً مغادرة مدينته الى مدينة اخرى : فقد حرّم ذلك مجمع نيقيه، وقد اضطر غريغوريوس النازينزي ، امام الانتقادات التي أثارها نقله من أسقفية أسيوية صغيرة الى أسقفية القسطنطينية ، الى تقديم استقالته والالتجاء الى خلوة قضى فيها ايامه الاخيرة . إلا انه يجوز اختيار الاسقف ، مهما كانت مرتبة اسقفيته ، حتى من بين العلمانين ، وحتى من بين العلمانيين غير المعمدين ، على الرغم من مقررات مجمع نيقيه ومن اندثار العادة القديمة التي كانت تؤخر المعمودية حتى وقت الاشراف على الموت. فهذا الاسقف كان شماساً انجيلياً . واوغسطينوس ويوحنا فم الذهب كانا كاهنين ، ولكن الاول سيم اسقفاً في هيبونا حيث كان كاهناً ، بينما انتقل الثاني من انطاكية الى القسطنطينية . وكان امبروسيوس حاكما على ولاية ميلانو حين انتخب اسقفا لهذه المدينة . اما الريفي الكيريني سينيزيوس ، فان كثيراً من العلماء يشكون في انه

كان مسيحيا حين نزل عند الرغبة العامة ورضي بأسقفية بتولمايس . غير ان الشعب ، في اكثر الاحيان ، اعظم تأثراً ، لا سيما في الغرب، بتقشف المنتخب وتقواه ومحبته للقريب منه باستقامة إيمانه . ثم فعلت التأثيرات الاجتماعية أو السياسية فعلها بصورة تدريجية . ففدا حظ أبناء العائلات الكبرى في الفوز بمنصب الأسقفية عظيماً جداً . ولم تكتف السلطة السياسية بالتدخل تدخلاً فقط في بعض الانتخابات ، بل فرضت فيها رأيها أحياناً ، كما فرضته دائماً تقريباً بصدد تعيين أسقف القسطنطينية بنوع خاص . فيوحنا فم الذهب مثلاً مدين لأفتروبوس، مدير غرفة الامبراطور ، بوصوله الى هذه الاسقفية في السنة ٣٩٨ ، كما انه أقصي عنها بعد مرور خمس سنوات ، بتأثير من الامبراطورة .

الكنيسة : المجامع

بيد ان الكنائس ، صغيرة كانت أم كبيرة ، لم تكن منعزلة في حياتها الخاصة التي يشرف عليها اساقفة يتمتعون بسلطة مطلقة . فهي ، من حيث مرور كافة علائقها الخارجية بالاساقفة ، تعي انتماءها الى جسد واحد هو الكنيسة . أجل لقد جمع بينها ، منذ القديم ، الاتحاد في الايمان . ولكن العهد الامبراطوري الثاني قد أتى بشيء جديد هو احداث تنظيم تدريجي . لم تجمع القوانين بصورة نهائية بعد ، ولا يزال سير الآلة الطرية العود عرضة لصعوبات كثيرة . غير ان التطور التنظيمي قد ابتدأ ، مهما كان من غموضه ومن تقلب اتجاهه .

سلكت الكنيسة طريقاً تعوّدت سلوكها منذ القدم هي طريق المجامع : اذ ان الهيئة الأسقفية فوق كل اسقف . فالتأمت مجامع كثيرة متنوعة جداً من حيث السلطة التي تدعو اليها، ودائرة الاختصاص التي توجه الدعوات في اطارها ، وعدد الاساقفة الذين يشتركون في هذه المجامع . وكان اهتداء الامبراطور فرصة لعقد المجامع المعروفة بـ « المسكونية » ، وهي قليلة على كل حال : مجمع نيقيه في السنة ٣٢٥ ، ومجمع القسطنطينية في السنه ٣٨١ ، ومجمع افسس في السنة ٤٣١ ، ومجمع خلقيدونيا في السنة ٤٥١ . فهو الامبراطور الذي يدعوهم اليها لأنه بحاجة اليهم للفصل في مسائل عقائدية، او للحكم على اسقف ذي نفوذ كبير . ويشترك في هذه المجامع أساقفة من خارج الامبراطورية : كاولفيلا الذي توفي في القسطنطينية ، وبعض أساقفة الارمن والفرس ، الخ . ولكن هيهات ان يجتمع كافة الاساقفة : فلم يضم مجمع القسطنطينية منهم سوى ١٥٠ فقط ، لم يكن بينهم أي اسقف غربي ، حتى ممثل البابا نفسه . وقد التأمت ايضاً مجامع اقليمية كثيرة تتفاوت أهمية . ولكن صغار الاساقفة لم يرضوا عادة عن مثل هذه المجامع ، لأنها تتدخل احياناً في شؤونهم . إلا ان التئامها ما لبث ان اصبح تقليداً راسخاً . فاذا اخذنا بعين الاعتبار بعض التغييرات اللازمة ، اتضح لنا ، على الرغم من شتى ضروب الضغط ، ان شكل الحكم الجماعي هذا ، كان آنذاك ، في الكنيسة ، بفعل انتخاب الاساقفة ، أشبه بالحكم البرلماني : والفارق الهام بينهما هو ان هذه المجامع لم تكن دورية .

رؤساء الاساقفة والبطاركة

وقد رافق شكل الحكم هذا شكل آخر غير جديد تماماً عرف آنذاك انتشاراً عظيماً : سلطة فعلية وقانونية يمارسها بعض الاساقفة على أساقفة آخرين يصبحون مرؤوسيهم . اما صلاحيات هـذه السلطة فهي تصديق الانتخابات ، والتوبيخ ، والقضاء الاستئنافي ، والدعوة الى المجامع ، الخ . واما اصولها فمختلفة جداً ، وهي عرضة لتبدلات كثيرة بفعل حزم او ضعف الافراد ، وبفعل التطور في أهمية المدن ، ولا سيا أهميتها الادارية، اذ ان للحكومة مصلحتهافي إحكام تسلسل السلطة التي تسهل عمل رقابتها وضغطها اذا اعتمدت تقسياتها الادارية الجغرافية نفسها . فلا سبيل من ثم لأن ندرس هنا هـذا التطور المرتج ؛ لذلك فنحن سنقصر الكلام على نتائجه الرئيسية .

اخضع المجمع النيقاوي اساقفة كل ولاية لأسقف مركز هذه الولاية ، « رئيس الاساقفة » . غير ان هذه الدرجة لم ترتد طابع الاهمية آنذاك، بسبب تجزئة الولايات ، إلا في آسيا الصغرى. وكان هنالك تقسيم اداري آخر هو الابرشية : وقد استطاع اسقف مركزه هنا وهنالك ان يحظى ببعض النفوذ ، وقد أطلق عليه احياناً ، في الشرق ، اسم « اكسارخوس » ؛ بيد ان كل ذلك لم يخرج في الواقع عن نطاق المصادفات والملاءمات .

اما المراكز الاسقفية التي انفصلت حقاً ، أي تلك التي اطلق على أساقفتها اسم « البطاركة » ، فمدينة بنفوذها وأولويتها الى أسباب اخرى . فكان الباعث الى ذلك في أغلب الاحيان، أهمية المدينة المادية ، واشعاعها على منطقة كاملة ، وقدم كنيستها ، وتأسيسها على يد أحـد الرسل ؛ ولكن الرجال كان لهم أثرهم أيضاً . فان أسقف قرطاجة الذي لم يفز قـط بلقب « البطريرك » قد مارس مع ذلك سلطة لا جدال فيهـا على افريقيا . واعترف المجمع النيقاوي برتبة خاصة لاسقفي الاسكندرية وانطاكية : فكان الاول سيداً مطلقـاً حقيقياً في مصر ، وبدا في بعض الظروف وكأنه يسيطر على الشرق بأجمعه . وفازت اورشليم ، في القرن الخامس ، بالبطريركية. اما النجاح الذي يلفت الانتباه ، فهو نجـاح القسطنطينية ، التي حالت بعض الأسباب دون ايراد ذكرها في نيقيه في السنة ٣٢٥. حرص الامبراطور على رفع مقام عاصمته. فاعتُرف لاسقفها، منذ السنة ٣٨١ ، بالمرتبة الثانيـة ، مباشرة بعد اسقف روما ، ولكنه لم يفز بهـا ، في مجمع خلقيدونيا ، إلا بعد جهود شاقة وسلسلة من الأحداث الصاخبة .

البابويـة

لا يبقى أمامنا سوى اسقف روما .

لم يكن ممكناً ان تنافس هذه المدينة ، بسبب أهميتهـا الواقعية ، أية مدينة اخرى . فان عظمتها التاريخية ، المرتبطة بفكرة الامبراطورية نفسها التي لم يزعزعهـا غياب الامبراطور ، كانت آخذة بالازدياد : أضف الى ذلك ، على الصعيد الديني ، ان وجود مدفني القديسين بطرس وبولس ، والوعد الذي قطعه المسيح لبطرس مؤسس الكنيسة الرومانية ، قد أوليا هذه الكنيسة حقوقاً أخرى. فمتى طالب أساقفتها بهذه الحقوق يا ترى ؟ ان المسألة موضوع

جدال . غير ان النصف الاول من القرن الثالث ، هو التاريخ الفاصل في هذا الموضوع ، ولا يعني ذلك ان مطالباتهم كانت شديدة دائماً . ولم ينكر أحد في الحقيقة اولوية البابا الشرفية – درجت العادة على اطلاق هذا الاسم عليه ، بعد ان اطلق على كافة الأساقفة في البداية – فقد اعترف له بها اعترافاً صريحاً المجمع النيقاوي وكافة المجامع المتعاقبة . ولكن شتان بين هذا الاعتراف وبين الخضوع له في العقيدة والنظام ، كالسماح له بأن يمارس فعلاً سلطة قضائية استئنافية : فكان هنالك ميل طبيعي الى الاستعانة بسلطته ، حين يرتقب المستعين وقوفه الى جانبه ، والى انكار قدرته على الفصل ، في الحالة المعاكسة . لذلك ستبرز ، في وجه سلطته منازعات لا يحصى لها عدّ .

برهن الشطر الاكبر من الغرب عن لين قياده بصورة عامة . ففي شبه الجزيرة الايطالية بنوع خاص شابهت سلطة البابا بقوتها سلطة اسقف الاسكندرية في مصر . أما في المناطق الاخرى ، كغاليا واسبانيا والّيريا ، فقد تميزت العلائق ، من كلا الطرفين ، بمزيد من الدقـة . ولا تعود اول براءة بابوية اصلية ، في المجموعات التي وضعت في القرون الوسطى والتي تتضمن نصوصاً مزورة كثيرة ، الى ما قبل السنة ٣٨٥ . وقد انطوت هذه البراءات ، وهي في الغالب اجابة على سؤال يتقدم به أحد الأساقفة ، على أنظمة عامة مبدئياً . ولكنها قد بقيت نادرة – ١٧ حتى آخر القرن الخامس – ولم يهتم بعض الأساقفة الغربيين للتقيد بها .

اما المسيحيون الافريقيون ، بقيادة رئيسهم اسقف قرطاجة ، فلم يتراجعوا امام مشادات على بعض العنف في القرن الثالث اولاً ، ثم في القرن الرابع مرة اخرى . وقد أتاحت احدى هذه المشادات للقديس اوغسطينوس كتابة كلمته المشهورة : « تكلمت روما ، اذن انتهت الدعوى » . ولكنه ما كان ليكتبها لو ان البابا زوسيموس لم يحكم له في ما كان يدافع عنه ، ناقضاً حكمه الاول ونازلاً عند القرار الامبراطوري .

اذا كانت هذه حال الغرب ، فباستطاعتنا ان نتصور حال الشرق بسبب وجود البطريركيات العظمى والعناد الذي رافق المشادات العقائدية . فقد جرت حوادث مؤسفة جداً . وقد اعترضت البابوية عوائق كثيرة ، فكانت نجاحاتها بطيئة جداً ايضاً ، لا بل ليس من الجسارة انكار واقع هذه النجاحات . ومهما يكن من الأمر ، فان شيئاً نهائياً لم يتقرر في العهد الامبراطوري الثاني . وأكثر من ذلك ، فان نفوذ أسقفية القسطنطينية المتزايد قد اقام اخيراً ، في وجه اسقفية روما ، منافساً كانت القطيعة معه ، في غد قريب او بعد ، امراً محتوماً .

يردّ ذلك الى العامل السياسي . فان امبراطور الشرق ، الذي اقام في القسطنطينية ، ومارس حيال الكنيسة ما درجت تسميته بـ « بابوية القيصر » ، لم يترك لأسقف عاصمته مزيداً من الحرية ، ولكنه ، بالمقابلة ، سيساند مقاومته لروما . وعلى نقيض ذلك ، فان ضعف امبراطور الغرب وبعده عن عاصمته ، حتى قبل زواله ، قد أعطيا البابا استقلالاً عملياً عظيماً : فان حزم القديس

ليون مثلاً (٤٤٠ – ٤٦١) قد صادف بالتالي ظروفاً مؤاتية . فهو انما فاوض اتيلا في السنة ٤٥٢، وجنسريك في السنة ٤٥٥، بناء على طلب الحكومة ومجلس الشيوخ: وكان من سلطته الادبية انها فرضت نفسها حتى على البرابرة الوثنيين او الآريين وانه قام مقام الامبراطور الخائر . فغدا البابا رئيس روما في الوقت الذي غدا فيه الاساقفة رؤساء مدنهم .

لا ريب من جهة ثانية في ان تطوراً مقابلاً قد قلّل من سلطته على الكنيسة في الشرق حيث لم تكن قوية في يوم من الايام ، وفي الغرب حيث ذهب اقتسام الامبراطورية بين عدة ممالك بربرية بالسهولات التي وفرها له وجود ادارة مركزية .

ولذلك فان مستقبل البابوية لم يكن بعد واضح المعالم عند نهاية العصور القديمة .